تاريخ التجارة في الشرق الأدنى
في العصور الوسطى

الجزء الثالث

تأليف: ح . هايد

ترجمة: أحمد رضا محمد رضا

مراجعة: د. عز الدين فوده





الهيئة المصرية العامة للكتاب

تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى

فى العصور الوسطى

الجزء الثالث

تأليف

ف . هايد

W. Heyd

مراجعة وتقديم

د . عز الدين فودة

أستاذ كرسى المنظمات الدولية

بجامعة القاهرة

عربه عن الترجمة الفرنسية

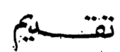
أحمد رضا محمد رضا



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

يواصل ف . هايد فى هذا الجزء الثالث من عمله الموسوعى الموثق ، تتبع العلاقات التجارية والدبلوماسية والقنصلية فى حوض البحر المتوسط ، فى فترة تاريخية حاسمة وفاصلة بين العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث ، وذلك بعد أن تناول فى الحقبة الأولى النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى منطقة الشرق الأدنى منذ عصر جوستنيان وأباطرة بيزنطة ، وطبيعة العلاقات التى قامت فى مختلف المجالات الحضارية حول ما أسمى « بطريق الحرير » ، مرورا بفترة الحروب الصليبية وما تمثل لديه الحقبة الثانية التى تميزت بنشأة المستوطنات التجارية للبلاد الغربية على سواحل البحر المتوسط الشرقية .

ولسنا نبالغ اذا قلنا أن هذا الجزء الثالث من موسوعة هايد يشكل أهم حلقات وحقب هذه الدراسة ، وذلك لكونها تتناول فترة حرجة من تاريخ البشرية ، وهي فترة العلاقات بين الشرق والغرب فى نهاية العصور الوسطى . فلم يقتصر هايد فى مجال دراسته لهذه الحقبة على الشرق الأدنى ، وانما كان الشرق الأدنى ، رغم ما له من أهمية حيوية فى حد ذاته ، مجرد حلقة للتواصل الحضارى وأساسا للتوازن الدولى الأوسع نطاقا فى الشرق الأقصى وشرق وغرب أوروبا .

والواقع أن هذا الكتاب بتناوله الشيق لمعلومات لا حصر لها ، يعد بمثابة رحلة ممتعة للقارىء والباحث فيما يتعلق بالأمم التجارية والمستعمرات والمستوطنات وعلاقاتها بكل من بيزنطة والعثمانيين والتتار ، وبلاد وسط آسيا والصين ، حتى « فترة الانحطاط » واستنفاذ قوى أمم البحر المتوسط التجارية ، وانسداد طرق آسيا فى الداخل والخارج ، وقيام علاقات الروم والعثمانيين والفرنجة فى البلقان وبحر ايجة . وأخيرا اكتشاف البرتغاليين للطريق الجديد حول رأس الرجاء الصالح .

ومن ثم ، يجعل المؤلف من اكتشـــاف البرتغاليين للطريق الجديد الى الهند ، وتأثير ذلك على استنفاذ السلطنة المملوكية وأمم البحر المتوسط التجارية وتقلص دورها الحضـــارى ، ثم سقوطها صرعى لقوى أخرى ، جعلت من « المحيط » لا « البحر » مسرح علاقاتها ، ومحور توازناتها ، ... يجعل من كل ذلك موضوعا للجزء الرابع والأخير لهذا المؤلف الموسوعى .

ولا يخفى على القارىء أن تلمس طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب فى تلك الفترة التاريخية الحاسمة ، وما حظيت به التحالفات المسيحية الأوروبية ضد الدولة العلية العثمانية ، والتى تشكل الأساس الفعلى للتنظيم الدولى المعاصر ، تظهر فى ثنيات هذا الجزء من خلال العلاقات القنصلية بين الأمم المسيحية والبلاد الاسلامية ، وما حفلت به من امتيازات تجارية وتنظيم للقنصليات . كما تظهر علاقات التوازن الدولى بما فيهـا من شروط ، وتوارث دولى ، واكتساب للسيادة الاقليمية ، وعلاقات التبعية المزدوجة التى أخضعت لها بعض الجزر والبلدان ـ كقبرص على سبيل المثال .

وأخيرا ، يجدر بنا أن نشير الى تأثر هايد ـ رغم موضوعيته فى كلية الكتاب ـ بأفكار عصره المناهض للدولة العثمانية ، والكاره للوجود الاسلامى فى أوروبا . فقد حمل هايد على الدولة العلية حملة لا تتصف بالمنطق أو الموضـوعية أو تحرى الانصاف ، اذ يصف العثمانيين بكونهم برابرة وأعداء للتجـارة والتواصـل الحضارى ، وهم الذين جعلوا من بلادهم وشرق أوروبا ممرا آمنا لهذه التجارة .

والحق نقول ، انه ما كان يقدر لنا اتمـــام مراجعة هذا الكتـاب وتصحيحه وتصـويب مصطلحاته لولا المجهود الشاق الذى اضطلع به الأستاذ محيى الدين بن محمد محمود قاسم بن الخطيب . فقد قام نيابة عنا ، بجهد موفق ومشكور فى هذا الشأن ، فله منا ومن القراء والباحثين جزيل الشكر والتقدير والثناء .

المراجع

أ. د. عز الدين فودة

استاذ كرسى المنظمات الدولية

جامعة القاهرة

الجـزء الثـالث (فى الترجمة العربية)

سادسا : مستعمرات الساحل الشمالى لبنطس

كان لتقلب الأحـوال التجارية والسياسية نتيجة لارتقـاء أسرة باليولوجوس عرش بيزنطة أثره الذى امتد حتى سواحل البحر الأسود • وكان عدد من البنادقة قد أنشأوا هناك وكالات تجارية • ووقع خبر دخول ميخائيل باليولوجوس وحلفائه الجنويين القسطنطينية وقع الصاعقة على هؤلاء البنادقة ، وللحال بادروا ، بارادتهم أو بأمر من حكومتهم بالجلاء عن الموانى التى كانوا قد استقروا بها ، ومن أهمها صولداديا • وكان طريق تقهقرهم قد تم غلقه ، ومن ثم اضطروا الى شق طريقهم عبر البسفور ، وشحن ما كان عندهم من بضائع على متن ثلاث سفن حربية ، وسفينة عادية • وفى مواجهة القسطنطينية حاولت سفينتان جنويتان وعدد من السفن اليونانيـة دون جـدوى قطع الطريق على سـفن البندقيـة ، واضطرت للعودة الى الميناء بعد معركة ضارية • ولسوء حظ الهاربين ، اصطدموا قبالة ابيدوس بأسطول من عشر سفن حربية جنوية • وكانت القوى غير متكافئة بالمرة ، ومن ثم انهزموا بعد أن قاوموا مقاومة بطولية ، وغرقت السفن بحمولتها فى اللحظة التى وضع فيها المنتصرون أقدامهم على سطحها • ووقع البحارة فى الأسر ، وأرسلهم أمير البحر الى الامبراطور الذى أمر بتقطيع أوصالهم بقسوة ، باستثناء البعض منهم (١) •

---

(١) Wiel, Gesch, der Chalif, à la fin du 4 Volume, et au commencement du 5.

ولما كان الجنويون مصممين على احتكار تجارة بنطس ، فانهم جعلوا من اغلاق البحر الأسود في وجه البنادقة شرطا للتعاون الذى وعدوا به ميخائيل باليولوجوس • وبمقتضى معاهدة نيمفيوم Nymphaeum التزم الامبراطور بألا يسمح لأى تاجر غربى بأن يجوب البحر هناك ، باستثناء الجنويين والبيزيين ، [ومن يحملون فى سفنهم نقودا أو موادا لاستعمال الشخصى] (٢) ، واحتفظ فى يده بمفاتيح هذا البحر منذ أن استعاد القسطنطينية (٣) من اللاتينيين • على أن أملاكه الساحلية كانت قد نقصت كثيرا ، فكان القسم الأكبر من الساحل الغربى فى قبضة البلغار ، كما كانت مدن سوزوبوليس Sozopolis ، وأنكيالوس Anchialos ؛ وميزمبريا Mesembria تشكل ذلك الحد الفاصل بينهم وبين الامبراطور اليونانى • حيث تنازعت الأمتان حيازة تلك المدن ، وتبادلتا النجاح والفشل فى هذا الشأن ، ولكن اليونانيين (الروم) لم ينجحوا البتة فى استعادة الأراضى شمال ميزمبريا ، ولم يبق لهم على ساحل آسيا الصغرى سوى بضع مدن (٤) • وتكون فى طربزون مركز سياسى جديد ، تجمع حوله على الأقل ، طالما بقيت السيادة اللاتينية فى القسطنطينية ، كل ما تبقى على الساحل الجنوبى لشبه جزيرة القرم من عناصر يونانية مختلطة مع سلالات من القوط وغيرهم من شعوب البرابرة • ومن المشكوك فيه أن تكون أسرة باليولوجوس قد نجحت فى اعادة توثيق الروابط السياسية التى كانت قائمة فى القسطنطينية بين يونانى القرم ، خاصة وأن مدينة خيرسون Cherson ، قصبتهم كانت تتمتع ، بمقتضى امتيازاتها البلدية — باستقلال شبه تام ، ومن ثم فاذا كان الحلف الذى انعقد مع ميخائيل باليولوجوس يكفل للتجارة الجنوية مزايا هائلة فى البحر الأسود وذلك بأن يضمن لها حرية التصرف والحركة ، الا أنه لم يكن يفيدها فى شىء بأن تحتل الشواطىء ، أو أن تنشىء بها مستعمرات ووكالات تجارية • فضلا عن ذلك ، كان الجنويون قد أجروا دراسة مسبقة للموانى الأكثر ملاءمة لهم ، وبالأخص تلك التى تكفل لهم ، من وجهة نظرهم ، طريقا ميسورا الى داخل القارة الآسيوية ، وعلى ذلك وجهوا أنظارهم بالطبع الى القسم الشرقى من بنطس ، الا أن نفوذ الامبراطور لم يكن يصل الى هذا الحد ، وكان لابد لهم أن يقيموا علاقات مع ملوك آخرين حتى يستطيعوا أن ينشئوا هناك مستوطنة لهم •

---

(٢) Annal. Jan. ad. an 262, p. 244.

(٣) Lib. Jur., I, 1853.

(٤) Aboulf (ابو الفداء) , Géogr., trad. Renaud, II, 39.

ونحن اذا نظرنا ، مثلا ، الى أجمل وأوســع خليج على الســاحل الشمالى ، نجده واقعا كله خارج دائرة نفوذ الامبراطورية البيزنطية . وهنــاك ، منـذ قرون طويلة مضــت ، أسس أهالى ميليتوس Milelos مستعمرتهم « ثيودوسيا » Théodosie التى دمرت منذ زمن بعيد ، وأقيم مكانهــا حصن اسمه كافا Caffa ، ربما شيده أحد ملوك البسفور ، وكان هذا الحصن فى القرن الرابع حدا فاصلا بين اقليم خيرسون اليونانى وبين امبراطورية البســفور (٥) ، ثم ان اســمه لا يظهر الا نادرا ، ولا يذكره الادريسى بنوع خاص ضمن نواحى الساحل الجنوبى للقرم التى عددها (٦) . وعلى ذلك فالثابت أنه كان فى القرن الثانى عشر موضعا لا أهمية له ، ولا يمر به الا قليل من الناس . ومع ذلك ارتأى للبحارة الجنويين ، بما لهم من خبرة قديمة ـ أن هذا الخليج هو بالذات ما يبحثون عنه ، فقد كان فسيحا بدرجة كافية لايواء عدد كبير من السفن (٧) ، الأمر الذى يهيىء مرسى ممتازا ، ومدخلا ميسورا فى كل الفصول ، وملجأ يقى من رياح الشمال السائدة فى البحر الأسود (٨) ؛ وكان لميناء كافا ميزة على مينــاء ســوداق Soudak الذى كان حتى ذلك الحين هــو الملتقى المفضل لدى الغربيين وذلك بأنه أكثر قربا من بحر أزوف ، فكان لهذا الاعتبــار قيمته بالنظر الى أهمية هــذا الطريق بالنسبة الى تجارة الشمال والشرق الأدنى . وأخيرا ، يمكننا أن نضم الى مزاياه السابقة مجاورته لمدينة صولجات Solgat الآهلة بالسكان والتى كانت الى حد ما حاضرة القرم فى عهد سيادة التتار .

ولا يوجد فى الوثائق الحديثة أى صــك بامتياز يمــكن أن ينبئنا بالكيفية التى حصل بها الجنويون على ملكيتهم لكافا ، أو العصر الذى تم لهم فيه ذلك . فقد اعتقد البعض ـ وهذا مجرد وهم ـ أن وثيقة من هذا النوع ، أو على الأقل صورة حصل عليها مؤرخ روسى قديم (٩) ، قد اطلع

---

(٥) Con tant. Porphyrog. De administr. imperio, p. 552 et s., 555.

(٦) Edrisi (الادريسى) , II, 395 et Lelewel, Géogr. du Moyen-Age, III, 196 et s.

(٧) قرر سترابون (Strabon; éd. Rramer, II, 37) أنه كان يوجد فى ذلك المرفأ متسع لمائة سفينة ؛ اما ابن بطوطة الذى زارها فى ازهى عصور التجارة الجنوية ، فانه شهد بها ما لا يقل عن مائتى سفينة حربية وتجارية . (II, 358)

(٨) Neumann, Die Hellenen, in Scythenland, I, 468; Taitbout de Marigny, Pilote de la mer Noir et de la mer d'Azov (Gle 1850), P. 84. Hommaire de Hell, Les steppes de la mer caspienne. III, 104 et s. ; Pegol., p. 39.

(٩) هذا هو رأى السيد كاناليه : M. Canale, Della Crimea, I, 158.

عليها رئيس أساقفة موهيليو Siestrzencewiz : Mohilew de Bohusz مؤلف « تاريخ القرم » وهو كتاب خال من أى تعليق ، ويحتوى على العديد من الحكايات الخيالية البحتة (١٠) ، ويضع بين علامتى اقتباس نص معاهدة (١١) • ولكن بفحص هذه الوثيقة بدقة ، يتبين لنا أنها نسخة طبق الأصل من فقرة مما كتبه فورماليونى Formuleani وهو مؤرخ من البندقية من القرن الماضى(١٢)،وهذه الفقرة ليست سوى ترجمة بتصرف لحكاية معروفة لنيقفور جريجوراس Nicéphore Gregoras (١٣) بشأن أصل كافا • ففى هذه الحكاية يحاول المؤرخ البيزنطى أن يعطى قراءه فكرة عن الطريقة التى يتبعها الغربيون عادة لانشاء مستعمراتهم التجارية ، فيقول انهم يبدأون باستكشاف أفضل الأماكن البحرية من حيث موقعها • وما أن يتم هذا العمل الأولى حتى يتصلوا بسادة البلد الذى وقع عليه اختيارهم ، ويعدوهم بأن يسددوا لهم بانتظام الرسوم الجمركية التى تحدد بمقتضى معاهدة مبرمة طبقا للأصــول ، ويسهموا فى رخاء سكان المنطقة ، بأن يستوردوا سلعا من جهات مختلفة ، وعلى هذا النحو يحصلوا على تصريح بأن يشيدوا على الموقع الذى يختارونه مساكن لهم ، وحوانيت لبضائعهم • ولم تجـر الأمور بخلاف هـذا فى كافا ، فقد أذن العــاهل « الاسكيثى » للجنويين الذين خاطبوه بأن ينشئوا ثمة مستعمرة بالشروط المذكورة بعاليه ، وسبق أن قلنا ان فورماليونى قد أجرى لهذه الفقرة الخاصة بنيقفور جريجوراس ترجمة بتصرف ، حيث طبق بنوع خاص على كافا ما قاله هذا المؤرخ البيزنطى بعبارات عامة عن انشاء مستعمرات تجارية غربية ، وعرض الأمور بكيفية تبعث على الاعتقاد بأنه كان تحت ناظريه اما النص الأصلى لمعــاهدة أبرمت بين الجنويين وعاهل البلد ، واما صورة من هذه المعاهدة • واذ استنسخ Siestrzencewiz de Bohusz هذا النص كلمة كلمة على وجه التقريب فانه خلق الوهم نفسه ، ومع ذلك لم ير أى منهما الحرف الأول من معاهدة من هذا القبيل • الا أن هذا الجدل ينأى بنا عن الموضوع ، وهو : من كان العاهل الذى أذن للجنويين بالاقامة فى كافا ؟ أما نيقفور جريجوراس فيسميه « زعيــم الاسكيثيين الأكبر » • ولأول وهلة ، تبدو هذه العبارة وكأنها تفسح مجالا لقدر كبير

---

(١٠) Histoire du royaume de la Chersonèse, 2e éd., St Pétersb. 1824, M. Koehne, dans les Mém. de la Soc. d'archéol. et de numism de S. Pétersb. III 1849, p. 82 et s.

(١١) L. C., p. 312 et s.

(١٢) Storia della navigazione, del commercio e delle colonie degli antichi nel mar nero, II (Venez, 1789), p. 78.

(١٣) Ed. Bonn., II, 683 et s.

من الافتراضات : فالواقع أن اسم الاسكيثيين لم يكن له فى ذاك العصر أى وجود اللهم الا فى لغة البيزنطيين القديمة ، ومن ثم يغلب على الظن أن الانسان يحتار بين مختلف الشعوب التى سيطرت الواحد تلو الآخر على شبه جزيرة القرم • ففورماليونى مثلا يجعل من «زعيم الأسكيثيين الأكبر» واحدا من أمراء الخزر • والواقع أن القرم كانت تحمل فى العصور الوسطى خزريا Khazarie أو جزاريا Gazarie ، وهذا يثبت أن الخزر كانوا فى فترة ما هم السادة على قسم من شبه الجزيرة ، على الأقل • ومن جهة أخرى أكدت هذه السيادة المصادر البيزنطية بعبارات صريحة ودقيقة ، حتى أنه يصح التأكيد بأن سيادة الخزر قد امتدت الى كل البقاع الساحلية التى احتلها الجنويون (١٤) فيما بعد • الا أنه من الخطأ الفاحش ارجاع نشأة مستعمرة كافا الجنوية الى عصر سيادة الخزر ، أى الى تلك الفترة الواقعة بين القرن الثامن والقرن العاشر ، ذلك لأن الجنويين لم يكونوا حتى ذلك الحين قد ذهبوا الى القسطنطينية بعد • ويرى سيستر زنشيتش ، وم • كاناليه M. Canale (١٥) بدورهما فى « زعيم الاسكيثيين الأكبر عند نيقفور جويجوراس أميرا من أمراء القومان Cumans أو البولوفتش Polovtses • وكان القومان ، وهم قبيلة من سلالة تركية (١٦) يقيمون منذ أواسط القرن الحادى عشر حتى مستهل القرن الثالث عشر فى منطقة الاستبس الواقعة بين نهر الدن ونهر الدنيستر ، فكانت تجمعاتهم الرئيسية موجودة على ما يبدو شمالى بحر آزوف (١٧) ، ولكن سيادتهم تمتد حتى القرم ، وبخاصة على الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة (١٨) • ولم تكن مدينة خرسون اليونانية تعرفهم على الاطلاق ، حتى باعتبارهم تجارا (١٩) • ولكن اذا اتجه المرء شرقا من تلك المدينة ، وعلى طول الساحل فانه يصل الى حدودهم عند يالتا Jalta ومن الأرجح أن تلك الحدود كانت تمتد من هذه النقطة حتى مضيق كيرتش Kertch ، ثم تنحرف صوب الشمال (٢٠) •

---

(١٤) Théophanes, I, 571 ; Niceph. Cpol., Breviarium rerum post Mauritium Gestarum, p. 46 ; Vita S. Joannis episc. Gothioe, dans les Act. SS. Boll., 26 Juin, p. 191.

(١٥) Della Crimea, I, 139 et ss.

(١٦) Blau Uber Volkothum und Sprache der Kumanen, dans la Zeitscher, der DMG. XXIX 1876, p. 556 et ss ; Schlozer, ûrit, Sammlungen zur Gesch. der Deutschen in Sieben burgen, II, 225 et s.

(١٧) تبين خرائط العصر الوسيط فى هذه المنطقة مقاطعة قومانية ، ويتعين البحث فى هذه الناحية عن مدينتى قومانية البيض ، قومانية السود اللتين ذكرهما الادريسى • (II, 400)

(١٨) Guill. de Rubrouck, p. 219.

(١٩) Anne Comnène éd. Bonn., II, 7.

(٢٠) Edrisi, II, 395, et Blau, op. cit., p. 563.

فمن المؤكد اذن أن كافا كانت في فترة ما موجودة في اقليم القومان (٢١)٠ ولم يكن اذن من المستحيل أن يكون التصريح بانشاء مستعمرة هناك قد منحه للجنوبيين أمير ما من هذه القبيلة ٠ وبجعل هذا التصرف في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، يكون السيد كاناليه قد تحاشى اعتراضا أول ، فحواه أن تأسيس مستعمرة كافا ، لا يمكن أن يكون ، تبعا للترتيب الزمني سابقا على تأسيس مستعمرة القسطنطينية ٠ الا أنه يمكن مواجهة السيد كاناليه باعتراض آخر خطير للغاية يتعلق أيضا بالترتيب الزمني ٠ ذلك أن نيقفور جريجوراس يقول في تأريخه المدون في حوالي عام ١٣٦٠ : ان تأسيس مستعمرة كافا لا يرجع الا الى بضع سنين ، ومن جهة أخرى ، ألف جنوى يدعى جورجيو ستيللا Giorgio Stella (٢٢) في حوالي عام ١٤٠٠ حوليات دون أن يكون على علم بمجموعة أخبار جريجوراس ، ويحكي أنه تبعا لأقوال بعض معارفه من الشيوخ كان استيطان أوائل المستعمرين الجنوبيين في كافا أمرا حديث العهد ٠ ولكن في عصر نيقفور جريجوراس القوماني ، كان قد انقضى مائة وأربعون عاما ، (ومن ثم مائة وثمانون عاما على عصر ستيللا) على طرد القومان من القرم اثر الغزو التتاري ، وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون نشأة المستعمرة الجنوية في كافا في عهد ولاية أمير قوماني ٠

وأعلم أنه يحكي في هذا الصدد قصة قلادة محفوظة ضمن الكنوز الامبراطورية في موسكو تحكي هذه القصة : أن تلك القلادة كانت تخص حاكما جنويا من حكام كافا اذ كان يعيش في عام ١١٠٠ ، وانهزم في مبـــارزة ضـــــد الفراندوق فلاديمير مونوماك Vladimir Monomaque الذي أحضر معه الى بلده هذه القلادة الجنوية غنيمة له ٠ ولم أذكر هذه القصـــة الا لأن السيد كاناليه قد رواها حديثا (٢٣) بزعم أنهـــا حقيقة تاريخية ٠ ومهما رجعنا الى أبعد زمان مضى ، فلا نجد أثرا لهذه القصة عند أي كاتب قبل السـفير النمساوي سيجموند دوهيربرشتاين (٢٤) Sigmond de Herberstein ، والمؤرخ الجغرافي البولنـدي ستريكوفسكي Straykowski (٢٥) ، وهما ينتميان الى القرن الســـادس عشر ، ولا يؤيد هذه القصة أي مصدر تاريخي سابق ، كما أنها لا تستند الى

---

(٢١) Della Crimea, I, 140.

(٢٢) Murat. SS., XVII, 1095.

(٢٣) Della Crimea, I, 151 et s. ; M. l'abbé Oderico : Lettere ligustiche, p. 121.

(٢٤) Commentarii rerum Moscoviticarum, dans Starcyewaki, Hist. ruthen, scriptores extedi soec, XVI, Berol. et Petropol. 1841. I, 16. Siestrzencewicz, l.c., p. 192 not.

(٢٥) Sie tryen ceuviez l.c., p. 142. not.

أية واقعة معروفة فى تاريخ فلاديمير ، ومن ثم فقد أنكرهـا تشـيرباتو Chtcherbatow (٢٦) وكرامسين Karamsin (٢٧) • فهـذه القـلادة هى (٢٨) جوهرة فنية من ابداع صائغ يونانى ، وقد وجدت دون شـك ضمن هدايا مرسلة من القسطنطينية الى بلاط روسيا • وعلى أية حال فانها لم تزين عنق أى شخص جنوى •

ولنعد الى « الزعيم الاسكيثى الأكبر » حيث يبدو لى أن المؤرخين الذين ورد ذكرهم فى الصفحات السابقة لم يكونوا على صواب فى تفسيرهم لهذا اللقب ، ويتعين علينا للوصول الى الحقيقة ضرورة النظر مليا فى قصة نيقفور جريجوراس برمتها ، وفى اسلوبه اللغوى المعتاد • اذ يرى هذا المؤرخ أن اسم الاسكيثيين ينطبق على التتار ، وبخاصة فى الأمور التى تتعلق بأحداث معاصرة • وقد قال عن غزوات تلك الشعوب بقيـادة جنكيزخان وأبنائه انها غزوات اسكيثية (٢٩) • ومن ثم يتبين لنا بالذات فى الفقرات التى نحاول أن نشرحها ، أنه يقصد الكلام عنهم : ويكفى لذلك أن نقرأ فيما بعد سطورا يحكى بها قصة نزاع نشب فى عام ١٣٤٣ بين الجنويين وبين خان التتار ، فيتحدث عن شقاق حدث بين الجنويين وبين أمير الاسكيثيين (٣٠) • وليس هناك أى مصدر يشير الى العصر الذى سقطت فيه كافا فى أيدى التتار ، والراجح أنه كان فى الوقت الذى سقطت فيه سوداق Soudak ، أى قبل معركة كلكا Kalka بوقت قليل • ففى غضون هذه الحملة ، والحملة التى أعقبتها وامتدت حتى وسط أوروبا ، أرسى التتار قواعد خانتهم القفجاق Kipitchak • وفى العصر الذى بلغت فيه هذه الخانية أوسع امتدادا لها ، فانها كانت تضم الأقاليم الواقعة بين نهرى سيحون Sihon شرقا ، ونهر دنيستر غربا (٣١) ، ومثلما كانت تضم أيضا مدينة « سراى » Sarai التى شيدها باطوخان على ضفاف نهر الفولجا لتكون مقرا له ومركزا لحكومته • وكما كانت القرم أيضا جزءا من هذه الامبراطورية • وكانت جنوا تلك الجمهورية المزهوة تريد أن تقيم منشأة لها على الساحل ، فكان لزاما عليها ، لتحقيق هذه الرغبة أن تبعث بسفرائها الى « سراى » ، حيث بلاط خانات « القبيلة الذهبية » • وكان

---

(٢٦) Russ. Gesch., trad. Hase (Danzig, 1719), 2e part., p. 548 et ss.

(٢٧) Gesch, des russ. Reichs (trad. allem.), II, 330 et ss.

(٢٨) Chtcherbatow, op. cit. ; les Antiquités de l'empire russe, 2e série, planches.

(٢٩) Nicéph. Grég., I, 35 et ss.; cf. III, 18 et s.

(٣٠) Ibid, II, 685.

(٣١) Hammer Geschichte der goldenen Horde, p. 3, 303.

لهذا الاجراء سوابق ، فقد سبق أن منح الخانات اقطاعيات ما في القرم . ففي عـام ١٢٦٥ مثـلا ، هرب عز الدين (كيقبـاذ) سلطان ايكونيوم (قونية) أمام جيوش التتار الغازية ، وبعد سلسلة من المغامرات (٣٢) انتهى به الأمر أن يطلب اللجـوء الى « بركـة خان » Berké-Khan (المتوفى عام ١٢٦٦) ، وحصل منه بصفة اقطاعية على مدينتي صولجاد Soljad (قرأها السـيد هامر Hammer صولجاك) وسوداق في حين نال الكثير من رفاقه السلاجقة ممتلكات أخرى في المنطقة نفسها . وعندما تولى منكوتمر ، خليفة بركة (١٢٦٦ – ١٢٨١) مقاليد الحـكم أعطى أحـد أقربائه وهو أوران – تيمور Ouran-Timor (٣٣) كافا ، وقريم Krim اقطاعيتين له (٣٤) . فاذا كانت هذه الواقعة صحيحة ، فان المنحة الأخيرة هذه ، تكون قد ألغت – ولو جزئيا – منحة بركة لعز الدين ، لأن الأمر هنا يتعلق بمدينة قريم الواقعة داخل شبه الجزيرة ، على بعد بضعة فراسخ من كافا ، وهي ليست الا مدينة صولجاك المعـروفة أكثر باسم صولجات . ومن ثم فان مدينة قريم ، أو صولجات التي منحها بركة خان لعز الدين كيقباذ في عام ١٢٦٥ كاقطاعية ، قد منحها منكوتمر لأمير مغولي في عام ١٢٦٦ في حياة عز الدين هذا ، لأن هذا الأخير لم يمت الا فيما بعد ، في مدينة سراي ، في بلاط منكوتمر (٣٥) . ولكن لا أهمية لذلك ، فلسنا نرى أي سبب كاف يدعونا لانكار واقعة الامتياز الثاني : فالكاتب الذي أكد هذه الواقعة عاش بعد ذلك بزمن طويل ، ولكنه يملك بوجه عام معلومات صادقة عن وقائع العصور التي سبقته . واذا سلمنا بصحة المعلومات التي أوردها ، فاننا نضطر الى الاستنتاج أولا بأن كافا بقيت حتى عام ١٢٦٦ تابعة تبعية مباشرة للخانات ، وثانيا بأنها شكلت اعتبارا من هذا التاريخ نوعا من الاقطاع في يدي أمير مغولي .

والآن ، يقر الجميع بوجه عام أن أوران – تيمور لم يحتفظ طويلا باقطاعيته ، وأنه أسرع بالتنازل للجنويين عن ملكيته لكافا ، اما عن طريق

(٣٢) Pachym., I, 131, 134, 229, 232; Nicéph. Grég., I, 82, 100 et s.; Aboulf., Annal. muslem. IV, 473 ; v. 11, 13, 27.

(٣٣) Pachym. (II, 611); Hammer, Gesch. der gold. Horde, p. 174-180.

(٣٤) Aboul-Ghazi Behadour Khan, Hist. des Mongols et des Tatares, éd. Desmaisons (éircte en 1665), II, 182 ; cf. Hammer, op. cit., p. 249.

(٣٥) Pachym., II, 611 ; Aboulf., V. 47; Hammer, op. cit., p. 180, not. 6.

البنيع ، وأما بشكل آخر (٣٦) . ومن جهة أخرى يؤكد نيقفور جريجوراس أن خان التتار هو نفسه الذى منح الجنويين هذا الامتياز (٣٧) : ولعل هناك وسيلة لحل هذا الخلاف ، وذلك بالتسليم بأن الجنويين قاموا بمسعاهم الأول لدى أوران ــ تيمور ، ولكن هذا أحالهم الى الخان الذى يملك وحده الحق فى إتخاذ مثل هذا القرار الخطير ، الا وهو التصريح بانشاء مستعمرة للغربيين . وعلى ذلك فالراجح أن منكوخان هو الذى أعطى الجنويين الاذن بانشاء مستوطنة لهم بكافا ، ولابد أن تاريخ هذه الاجازة يأتى بعد عام ١٢٦٦ بوقت قصير .

ولعلنا نصل الى النتيجة نفسها بالتنسيق بين عدة تواريخ أخرى . من ذلك مثلا أن انشاء المستعمرة لا يمكن أن يرجع الى زمن أبعد من العصر الذى توقفنا عنده (٣٨) ، لأن الجنويين لم يحصلوا على موقع ممتاز فى القسطنطينية الا ابتداء من عام ١٢٦١ ، فكان من المستحيل عليهم أن ينطلقوا بشىء من الطمأنينة والأمن فى البحر الأسود قبل أن يحكموا سيطرتهم على قاعدة العمليات هذه ، كما أن تاريخ انشاء المستعمرة لا يمكن أن يكون بعده بزمن طويل ، ذلك لأن أول عمل محقق أثبت وجود المستعمرة كان تاريخه عام ١٢٨٩ ، والقوة التى بدأ بها هذا العمل ليس من فعل جالية تشكلت حديثا . لأن نبأ انهيار مدينة طرابلس السورية أهم المستعمرات الجنوية فى هذا البلد على يدى السلطان قلاوون ، قد أحدث استياء شديدا فى كافا ، وأبدى السكان هناك رغبتهم فى نجدة اخوانهم فى سوريا . وكان يدير شئون المستعمرة آنئذ القنصل باولينو دوريا (٣٩) ، وقررت لجنة مشكلة من تجار المدينة وأعيانها دعاها القنصل الى الاجتماع أن تستأجر ثلاث سفن حربية مسلحة حضرت وبها تجار جنويون ، ويستقل السفن رماة يطلقون المنجنيقات ، وترسل الى طرابلس

---

(٣٦) Oderio, Lettere ligustiche, p. 127 et s., Hammer, op. cit., p. 254.

(٣٧) Nicéph. Brég., II, 685; III, 19.

(٣٨) فى قانون اغسطس ١٣١٦ الذى يحدد حقوق قنصل كافا وواجباته ، يلتقط السيد كاناليه Canale (Criméa, I, 239) فقرة (Off. Gaz., p. 399) يعتقد أنها مأخوذة من قانون آخر لكافا فى عهد سابق ؛ وتفترض هذه الفقرة وجود قناصل Consules Placitorum فى جنوة ، يشكلون فئة من الموظفين ، يرى أنها الغيت نهائيا فى عام ١٢٥٧ . ولكن ثبت الآن أن هؤلاء الموظفين لم يزالوا موجودين بعد ذلك .

(٣٩) تكرم السيد ديزمونى M. C. Desimoni مدير دار الوثائق بجنوة . باحاطتى علما ، فى خطاب ، بأنه عثر على عقود موثقة فى عام ١٢٨٩ واردة من مستعمرة كافا ، ذكر فيها اسم باولينو دوريا بصفته قنصلا ، كما ذكر فيها قنصلا آخر أقدم منه فى كافا .

تحت قيادة القنصل (٤٠) · وبعد انقضاء عام ، يصور لنا قانون (صادر في أواخر أكتوبر ١٢٩٠) المستعمرة ، وقد استقرت أحوالها كما ينبغي ، ولها قنصل ، ومجلس كبير ، وآخر صغير ، الخ (٤١) ·

وفي الوطن الأم ، كما في المستعمرة ، تألفت منذ زمن مبكر ، فيما يختص بمنشيء مستعمرة كافا حكايات شعبية أصلها كلها فكرة غير صحيحة بالتأكيد : فقد زعمت هذه الحكايات أن جنويا ذهب الى كافا ليقيم بها وحده ، وأتى اليها آخرون على مهل ، فتجمعوا حوله · ولكن الأمر حدث في الواقع بشكل آخر · ولا شك أن الحكومة الجنوية ، بعد أن حصلت على الامتياز ، لم تبادر بارسال العدد الكافي من الأفراد لانشاء مستعمرة · ومن أقدم الحكايات الاسطورية التى أوردها جورجيو ستيللا (٤٢) ، حكاية تقول ان أول مستوطن بكافا هو شخص يدعى بالدو دوريا Baldo Doria ، ويقول السيد كاناليه أنه يمكن قراءة تنويه من هذا النوع على شجرة أنساب لأسرة « دوريا » يظهر فيها اسم بالدو ، أو سينيبالدو Sinibaldo هذا مصحوبا بالتاريخ ١٢١١ ـ ١٢٦٣ (٤٣) · وفي حكاية أخرى شائعة فى كافا نفسها ، التقطها أجوستينو جستنيانى Agostino Giustiniani (٤٤) نجد أن اسم أول مستوطن هو أنطونيو دول اورتو Antonio dell'orto · فالثابت أن أسرة دول أورتو كانت تتمتع فى كافا بمكانة خاصة · ونرى فى أقدم قانون نعرفه فى المستعمرة ، وهو الذى أشرنا اليه من قبل ، وفى قانون أحدث منه ، لعام ١٣١٨ أن ذرية بونيفاسيو دل أورتو كان لهم الحق فى فرض ضريبة على التجارة

---

(٤٠) Annal Jan., p. 324.

ـ رأينا فيما سبق أن هذه الحملة وصلت متأخرة كثيرا ؛ ثم ان الوطن الأم وقع فيما بعد المصاريف الى مستعمراتها · وقد افترض السيد برون M Bruun ان الحملة المرسلة لنجدة طرابلس لم ينظمها مستعمرو كافا فى البحر الأسود ، ولكن نظمها مستعمرو حيفا Cajffa فى سوريا ، ولكن الحوليات les Annales تبين الاتجاه الذى اتبعته هذه الحملة في ذهابها وعودتها بعبارات لا يمكن أن يفهم منها ان الحملة قامت من حيفا · وقد أبدت البراهين المؤيدة لرأيى هذا في أولى رسائلى الى السيد برون بشأن « الايطاليين فى البحر الأسود » المدرجة فى :

Le Bulletin de l'Acad. de S. Pétersbourg, XIII (1869), p. 262 et ss.

(٤١) لا يوجد مع الأسف الا عناوين فقرات هذا القانون · وهى مع ذلك غير كاملة على ما يبدو · انظر : Canale, Della Crimea, I, 227.

(٤٢) P. 1095.

(٤٣) Canale, Della Crimea, I, 159.

(٤٤) Annale di Genova, fol. 109, b.

فى كافا (٤٥) . ولا شك أن المستعمرة كان تسترد بهذه الكيفية دينا عليها نحو هذه الأسرة ، خاصا بنفقات الاستيطان الأول . ويجعل السيد كاناليه لهذا الامتياز أصلا آخر ، ففى رأيه أن بلدة كافا لم يكن لها فى البداية تنظيم جمهورى ، اذ كانت تابعة لأسرة أورتو تبعية اقطاعية (٤٦) ، واثباتا لرأيه هذا ، ذكر مرسومين بابويين لعام ١٣٤٠ وصف بهما كبير هذه الأسرة ، الذى كان وقتئذ على قيــد الحيـــاة ، وهو بترانوس دل أورتو (٤٧) على أنه Olim dominus de Capha (سيد كافا) . غير أن كل ما نعرفه عن كافا منذ عام ١٢٨٩ ينبئنا بأن هذه المستعمرة بها جالية جنــوية على رأسها قنصـــل ، ومن ثم لا يمكن الزعم بان بترانوس الذى كان على قيد الحياة فى عام ١٣٤٠ كان سيدا اقطاعيا على هذه المدينة ، فهذا زعم لا سند له ، والمسألة على أكثر تقدير هى احتمال ظاهرى يتعلق بأبيه أو بجده والأقرب الى الصواب هو أن قداسة البابا كان يقصـــد فقط التذكير بأن بترانوس كان فيما مضى يتولى منصــب القنصل (٤٨) ، وكان هذا بالفعل رأى أودريكو Oderico ولكنه لم يجرؤ على ادراج اسم هذه الشخصية دون اثبات آخر فى قائمة قناصل كافا . أما الســادة ايلى دولا بريموديه Elie de la Primaudaie ، وكون Koehne وكاناليه فانهم كانوا أكثر جرأة ، ولا شك أن الأخير لم يلحظ البتة ذلك التناقض الذى وقع فيه (٤٩) .

وما أن تم تأسيس مستعمرة كافا فى الظروف التى ذكرناها حتى غدا سوق البحر الأسود مفضلا لدى الجنويين بشكل واضح . ويتجلى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تباين عجيب فى هذا الشأن . ففى حوزتنا بخصـــوص النصف الثانى من القرن الثانى عشر (عام ١١٥٥ وما بعده) مجموعة من العقود المنشئة لشركات بين تجار جنويين بغرض القيام برحلات تجارية جماعية ، وكانت الغاية من الرحلة ، بلدا كانت، أو مدينة مبنية دائما بالعقود . ورغم كثرة هذه العقود (٥٠) فانا لا نعثر

---

(٤٥) Canale, Della Crimea, I, 152 et s., 227; Monum. hist. patr. Leges municipales (Off. Gaz.), p. 396 ; Misc. di stor. part XI, 776.

(٤٦) Canale, Della Crimea, I, 153; M. Bruun, op. cit., p. 32.

(٤٧) Wadding, Annal. ord. minor, VII, 227, 229.

(٤٨) نجد فى « كاناليه » هنا مثالا لذلك ، حيث يحل لقب « السيد » محل لقب « القنصل » . Canale, Della Crimea I, 311.

(٤٩) Elie de la Primaudaic. Etudes sur le commerce au Moyen Age, p. 389 ; Kahne. De cription du Musée du prince Kotschoubey, I, 314; Canale, Della Crimea, II, 332.

(٥٠) Mon. hist. patr. Chartoe, II, 287-289.

فيها البتة ولو مرة واحدة على اسم كافا أو تانا (٥١) على أنه ابتداء من عهد ميخائيل باليولوجوس وضع الجنويون أيديهم على البحر الأسود وكأنه ملك ليم ، واكتسب ربابنة سفنهم خبرة كبيرة فى الملاحة فى هذه الأصقاع، فلا يترددون فى اطلاق سفنهم هناك وســـط عواصف الشتاء (٥٢) ، وانتهوا الى طرد اليونانيين (الروم) كلهم من هـــذا البحر ، اضرارا بمصـــالحهم (٥٣) • وفى عهد اندرونيقوس الأسبق ، صارت البحرية اليونانية فى حـــالة يرثى لها من الانحطاط حتى صـــارت عاجزة عن أى تنافس (٥٤) كذلك لم تعد الســـلع الضرورية للمعيشة تصـــل الى القسطنطينية فى سفن يونانية ، بل كانت السفن الجنوية هى غالبا التى تجلب اليها القمح والسمك المملح من بنطس • وقد رأينا من قبل ، فى معرض الحديث عن قصة «غلطة» ، كيف أن الجنويين أوقفوا أكثر من مرة هذه الحركة التجارية ، بسوء نية أو بالقوة القاهرة ، حتى أشرفت عاصمة الامبراطورية على المجاعة •

ومن المنافسين الذين كان رخاؤهم قمينا بأن يثير مخاوف الجنويين ، كان البيزيون أقل هؤلاء شأنا ، ومع ذلك كان لهم أيضا مستعمرة ، أو بالأحرى « أسكلة » (مرسى) مع توكيل تجارى فى مياه البحر الأسود ، تلك هى بورتو بيزانو Forto Pisano المبينة على الخرائط الايطالية ، على الساحل الشمالى لبحر أزوف • وفى « الكتاب الوجيز للتجار » لبيجولوتى Pegolotti (٥٥) كانت بورتو بيزانو أول ميناء يقابله الانسان القادم من تانا ، أو من أزوف (حسب الاسم الحالى) • والخرائط الايطالية التى ذكرناها تتوافق كلها فى هذا الخصوص ، ولكنها تدرج عادة بين اسمى الميناءين اسم ماجروميسى Magromissi (٥٦) ، ولعل المقصود هو

---

(٥١) نلاحظ أن مانويل ، فى تلك الآونة ، كان يحظر عليهم دخول متراكا Matracha وروسيا •

(٥٢) هذا على الأقل ما يقوله المؤرخ اليونانى باشيميرس Pachymér&s فى الفقرة التالية • وفضلا عن ذلك فان جافينو تارتارو Gavino Tartaro ممثل الجمهورية فى بلاد الروم وبنطس أصدر فى عام ١٣٠٠ مرسوما يخطر فيه كل سفينة ، سواء كانت حربية (من نوع القادس) أو ذات طابقين أن تبحر من بيرا الى البحر الأسود منذ بداية شهر ديسمبر حتى منتصف شهر مارس ، وأن تغادر موانى البحر الأسود قبل منتصف شهر مارس : Miscell. di storia patria, XI, 762.

(٥٣) Pachym, I, 419 et s.

(٥٤) Nicéph, Grég., I, 175, 209.

(٥٥) Pegol, p. 39.

(٥٦) Lelewel, Portulan, p. 13 ; Tafel, Constant. Porphyrog. Europa, p. 40 et ss.

ماكرونيسوس Macronésos ، ولا شك أن هذا الاسم قد أطلق على جزيرة ألوبيكيا Alopékia القديمة التى اختفت بمرور الزمن وسط طمى دلتا نهر الدن (٥٧) • وأسوة ببوتوكى Potocki ، وليلويل Lelewel ، وايلى دولا بريموديه Elie de la Primaudaie بحثت فيما مضى عن موقع بورتو بيزانو فى مجاورات تجانروج Taganrog (٥٨) ، ولكن تبين لى أن الميناء المشار اليه بعده مباشرة على الخرائط ، وهو ميناء قباردى Kabardi (٥٩) له من الصفات ما يجعله هو بورتو بيزانو نفسها • فان سلمنا بذلك لا يبقى الا نقطة واحدة يمكن أن تتوافق مع موقع بورتو بيزانو : تلك هى سينافكا Siniavka ، أى تانايس القديمة ، عند المصب القديم لنهر دن الحالى • ولا يوجد فى الوقائع والوثائق الرسمية البيزية أى ذكر لهذه السوق البعيدة ، ولا يعلم أحد شيئا عن العصر الذى أنشئت فيه ، فقط أن أول خريطة ظهر فيها هذا الاسم يرجع تاريخها الى عام ١٣١٨ • وعلى أية حال فان هذا الميناء كان يتردد عليه الغربيون زمنا طويلا بعد هذا التاريخ ، ولدينا شاهد على ذلك فى كتاب بيجولوتى ، ووثيقة بندقية بتاريخ ١٣٧٣ ، ذكر بها ثلاثة من البنادقة أخذوا معهم فى سفينتهم من بورتو بيزانو بعض الركاب التتار ، بعد أن وعدوهم بنقلهم الى كافا ، ولكنهم أسروهم غدرا ، وباعوهم بيع الرقيق (٦٠) • ويوجد اسم بورتو بيزانو حتى على خرائط القرنين السادس عشر والسابع عشر • بقى أن نعرف مدى الزمن الذى بقيت فيه المستعمرة البيزية المنشأة فى هذا الموقع ، وربما شملتها الكارثة الكبيرة التى وقعت عام ١٣٤٣ ، وأعقبها طرد الجنويين والبنادقة من تانا • وكان هذان الشعبان الأخيران (أى شعبا جنوا والبندقية) على قدر كاف من القوة أتاح لهما الثأر من اخفاقهما واستعادة مستعمراتهما فى تانا ، الا أن قوة بيزا البحرية كانت آنئذ على وشك الانهيار ، ولابد أنها اضطرت الى التخلى عن فكرة استعادة بورتو بيزانو (٦١) •

---

(٥٧) Bruun, Colon. ital. en Gazarie, p. 31 ; Desimoni, Nouvi studj sull athante, Luxoro, dans les Atti della Soc. Ligur., V, 257 et s.

(٥٨) Potocki. Voyage dans les steps d'Astrakhan, II, 367; Lewel, l.e. ; Elie de la Primaudaie, Etudes, p. 231 et s. ; Bullet. de l'Acad. de S. Pétersb., V. (1363), p. 83.

(٥٩) Pegolotti (p. 39).

(٦٠) Bruun, l.e. ; Desimoni l.e. ; Serristori, Illustrazione di una carta del mar nero del 1351, p. 36 ; Hommaire de Hell. Le steppes de la mer Caspienne, III, 133.

(٦١) وهذا هو رأى : Cibrario, Della schiavitù e del servaggio, I,193. Pardessus, l.c., p. ix.

ولم تكن هذه نهاية الكوارث التي وقعت لبيزا في البحر الأسـود : ذلك أن الحرب الوحيدة التي اندلعت في هذه الأنحاء بين الجنويين والبيزيين انقلبت في غير صالح هؤلاء الأخيرين · ففي عام ١٢٧٧ أقلعت سـفينة حربية بيزية بغرض سلب ونهب الجنويين الكثيرين المقيمين على طـول سواحل البحر الأسود ، فزارت ميناء سينوب Sinope ثم ميناء صولدايا Soldaja وقبـالة هـذا الميناء هاجمتها سفينة حربية جنـوية ، فأسرتها وأحرقتها (٦٢) ·

وهكذا كان البنادقة هم الخصوم الوحيدين القادرين على محـاربة الجنويين في هـذه الأصقاع بأسلحة متكافئة · فلم يكف البنادقة عن ممارسة التجارة في البحر الأسود ، ولم يقبلوا البتة أن يكون دورهم في هـذه المناطق ثانويا · ولم تلبث العلاقات بين ميخائيـل باليولوجوس والجنويين أن توترت الى أن انقطعت صراحة ، وفي هذه الظروف تخلى الامبراطور عن مشروعه الخاص بمنع البنادقة من دخول البحر الأسود ، ولم تكد تمضي أربع سنوات على معاهدة نيمفايوم Mymphaeum حتى قدم لهم المنشئات التي اختاروها على السواحل (٦٣) · فكان تبدل الأحوال هذه تاما حتى ان سفيرا يونانيا كان عائدا من مهمة لدى خان التتار ، لم يتردد في ركوب البحر عند صولدايا على متن سفينة بنـدقية (٦٤) · وعلى ذلك واصل البنادقة ، كما في الماضي ، شحن الحبوب في البحر الأسود ، ولم يبق خلاف بينهم وبين الامبراطور الا في خصوص حقهم في انزال الحبوب والتصرف فيها على الاقليم اليوناني ، أو المرور بها هناك فقط (٦٥) · بل لقد يبدو أن المستوطنين البنادقة ، بعد أن جلوا سريعا عن سـواحل بنطس عند عودة الأباطرة اليونانيين الى عرشـهم في القسطنطينية ، قد أسرعوا بهمة بالعودة اليهـا ، وأنشـأوا مستعمرات جديدة ، أولا في صولدايا ، ثم على مواقع مختلفة في القرم · وفي عام ١٢٨٧ ، كلف القنصل الذي عين في منصبه هناك بالاضطلاع بمهام وظيفته في كل الجزاريا Gazarie (وكان هذا الاسم يطلق بعامة على القرم) · ومع ذلك فمن المشكوك فيه كثيرا أن تكون حكومة الوطن الأم قد نظمت بصفة رسمية حركة ملاحية ما بين البندقية وصولدايا · ويمكن الافتراض

---

(٦٢) Annal. Jan., p. 285.

(٦٣) Traité du 8 juin 1265 : Taf. et Thom., III, 70.

(٦٤) Ibid., III, 245.

(٦٥) Taf. et Thom., III, 144, 171 et s., 179 et s., 189 et s., 237 et s. 240, 249. 266, 274, 276; IV, 125, 129, 141 et s., 151, 189 et s, 200 et s.

بأن ال galade maris majoris التى ذكرت كثيرا فى مستهل القرن الرابع عشر (٦٦) كانت مخصصة للرحلة الى القرم ، غير أن هذا الغرض لا يقوم على أساس متين ، فالأرجح ، على العكس من ذلك أنها ليست سوى ال galed to Resundd التى ذكرناها قبلا ، ولكن بتسمية أخرى ٠

لم يكن فى وسع البندقية بالطبع أن تنظر بغير اكترات لضروب التقدم السريع التى أحرزتها المستعمرة الجنوية فى كافا ، والمنافسة القوية التى تمارسها لتجارتها ٠ ففى عام ١٢٩٦ ، ورغم الشروط التى أدرجها الأباطرة اليونانيون فى مختلف المعاهدات (٦٧) بقصد منع نشوب أى نزاع مسلح بين البنادقة والجنويين فى البحر الأسود ، اقتحم أمير البحر جيوفانى سورانزو Giov Soranzo البحر الأسود على رأس خمس وعشرين سفينة حربية ، واستولى على عدد كبير من السفن الجنوية ، الى أن ضرب الحصار أمام كافا ، وسقط الموقع بعد مقاومة طويلة ٠ وانتهز سورانزو هذه الفرصة فأحرق سفينتين حربيتين ، وأربع سفن أخرى ترفع العلم الجنوى ٠ وبينما كان منهمكا على هذا الوجه ، فاجأه فصل الشتاء بجوه القاسى ، فاضطر الى قضائه فى القرم معرضا للأحوال الجوية السيئة ، ونقص المؤن ، ومن ثم فقد جزءا من جيشه ، ولم يبق معه عند عودته الى البندقية فى عام ١٢٩٧ سوى ست عشرة سفينة حربية (٦٨) ٠ وكان أسطوله عنصرا أساسيا لا غنى عنه لتعزيز فتوحاته من ثم بعد رحيله، وبانعقاد الصلح فى عام ١٢٩٩ ، استرد الجنويون كافا ٠ وقد أكد البعض أن فى معاهدة الصلح هذه تعهدت البندقية بدفع تعويضات ما عن أعمال القرصنة التى ارتكبت فى بيرا ، وكافا ، وعكا ، وبألا ترسل أية سفينة حربية الى البحر الأسود أو سوريا لمدة ثلاث عشرة سنة (٦٩) ٠ أما أول هذين الشرطين المزعومين فى معاهدة الصلح لعام ١٢٩٩ فانه غير مقبول من الوجهة التاريخية ، والدليل على ذلك هو ذكر اسم عكا التى لم يعد لها وجود منذ ثمانى سنوات سابقة لهذا التاريخ ٠ كذلك لم يرد ذكر أى من الموقعين الآخرين فى النص الأصلى للمعاهدة (٧٠) ٠ ويلاحظ أيضا أن

---

(٦٦) Registre de Misti. dans l'Archiv. Venet. XVIII, 324 et ss.

(٦٧) Taf. et Thom., III, 96, 141, 329.

(٦٨) Dondolo p. 407 ; Sanuto, Vite dei Dogi, p. 578 ; Novagero, p. 1009; Jacques de Voragine (Atti della Soc. Lig, X, 498).

(٦٩) Giov. Villani, ér. Dragomanni, II, 30 ; Muratori, Annali d'Italia, VII, 524 (à l'année 1200) ; Serra (éd. Capolago, II, 212).

(٧٠) Le Lib. jur., II, 344 et ss.; Laur. de Monacis (p. 205), Novagero (P. 1011); Marin (V, 127 et ss.); M. Canale, Storia di Genova, II, 142-144; Della Crimea, I, 204.

المعاهدة ليس بها كلمة واحدة تشير الى العلاقات بين القوتين فى البحر الأسود وعليه ٠فمن الخطأ اذن الادعاء بأن البندقية قد دفعت بالفعل تعويضات ما عن الأضرار التى أوقعتها بكافا٠. أكثر من ذلك أن الدولتين امتنعتا صراحة عن أية مطالبات متبادلة فى هذا الخصوص ٠ ولم تكد مستعمرة كافا تخرج من هذه الضائقة حتى وجدت نفسها معرضة لمخاطر جديدة : فقد علم طقطاى Toktai خان التتار (١٢٩١ ـ ١٣١٣) أن جنويى كافا وغيرهم من الغربيين يخطفون أطفالا من الجنس التتارى ويبيعونهم كرقيق للمسلمين ، ومن ثم قبض على التجار الجنويين فى « سراى » ، عاصمته ، وصادر أملاكهم فى كل اقليمه (١٣٠٧) ، ونفاهم الى صولجات حيث مات معظمهم فى الأسر ٠ وفى السنة نفسها تقدم جيش من مائة ألف جندى بقيادة ابنه نحو كافا ، وبدأ حصارها ٠ وصمدت المدينة ثمانية أشهر ، يدافع عنها ثلاثمائة جنوى وثلاثمائة يونانى ، وتبين أخيرا للمدافعين أنه من المستحيل عليهم مواصلة الدفاع فأشعلوا النيران فى المدينة ، وهربوا منها على سفنهم (٢٠ مايو ١٣٠٨) (٧١) ٠

ولم تدخر جنوا وسعا فى تخليص مستعمرتها من الخراب الذى تسبب من هاتين الكارثتين فبعد وفاة طقطاى ، أوفدت الى أزبك Ouzbek ابن أخيه وخليفته سفيرين : انطونيو جريللو Antonio Grillo ونيكولو دى باجانا Niccolo di Pagana وكلفتهما بطلب التصريح باعادة بناء المنازل والأسوار ، فصرح لهما بذلك ، وللحال بدأ العمل فى هذا الغرض (٧٢) ٠ وكان اعادة بناء كافا بالنسبة الى الجمهورية مسألة كرامة ، ولكن اعادة البناء لم يكن كل المطلوب ، بل كان من الضرورى أيضا احاطة المدينة بتحصينات قوية ، لابد منها لتأمين تجارة جنوا فى البحر الأسود ٠ وكان لابد لذلك من مال ، ومن ثم فرض على ملاك السفن الجنوية وربابنتها ، سواء المتجهة من القسطنطينية الى الساحل الشرقى للبحر الأسود ، أو المنحدرة من بحر أزوف صوب البلاد الخاضعة للامبراطور أن تمر بميناء كافا ، وترسو بها يوما على الأقل ، وهناك يلتزم أصحاب هذه السفن وربابنتها بدفع ضريبة نسبية ، يحسب جزء منها على أساس وزن الشحنة ، وجزء آخر على أساس ثروة الركاب من التجار ٠ ولزيادة وفود التجار الى داخل المدينة ، حرم على التجار الجنويين أن يطيلوا اقامتهم فى الأسواق المجاورة ٠ وفضلا عن ذلك حظر على كل جنوى فى صولدايا أن يبقى بها

---

(٧١) La Contin. de Jacq. de Voragine (Atti, 1 c., X 500) et les extraits de Nowairi. dans d'chsson, Hist. des Mongols IV, 757.

(٧٢) Contin de Jacq. de Voragine, 1 c. p. 502.

آكثر من ثلاثة أيام ، أو يقضى الشتاء فى تانا ، أو يحصل فيها على منزل سكنى ، والا حكم عليه بغرامة كبيرة ، وصدر الأمر للجميع باعتبار كافا السوق الأولى ، وعدم بيع أو شراء أى شىء فى صولدايا ، أو انزال بضائع أو أى شىء على موضع من الساحل بين كافا وصولدايا اضرارا بمصالح كافا (٧٣) • ويجب ايداع الغرامات التى يحكم بها قنصل كافا على المخالفين خزانة المنشئات • وأخيرا ، ولتعجيل أعمال البناء على الأراضى الفضاء ، تقرر أن شراء أرض فى كافا يترتب عليه التزام المالك ببناء منزل عليه فى غضون ثمانية عشر شهرا (٧٤) •

صدرت كل هذه الاجراءات عن ادارة المستعمرات والملاحة التى أنشئت فى عام ١٣١٤ باسم Octo Sapientes constituti super factis navigandi et maris majoris وعرفت منذ عام ١٣٤١ باسم Gabriele Gustiniani ، وتدل هاتان التسميتان على الأهمية الكبيرة التى كان يوليها الوطن الأصلى للملاحة فى البحر الأسود ومستعمرات القرم • وكانت ادارة المستعمرات هذه تتمتع بسلطات واسعة ، وكان قناصل كافا مندوبيها ، ويتجدد تعيينهم كل عام ، وتتقرر التعليمات التى تصدرها اليهم فى اجتماع للادارة ، ولم تكن هذه التعليمات قاصرة على أوامر ذات صفة عامة ، بل كانت تلم بأدق تفاصيل الادارة المحلية • من ذلك مثلا : أننا نقرأ فى التعليمات التى سلمت لأحد القناصل عند سفره الى كافا فى خريف عام ١٣١٦ أنه يتعين عليه أن يبنى « سلخانة » على قوائم (أوتاد) فوق البحر ، فى مواجهة مخزن البلدة Fonticum وأن يبنى حول الأسوار أخدودا (منحدرا خفيفا) بعرض مائة « أون » aunes (مقياس أطوال قديم يساوى تقريبا ١٫١٨٨ متر — المترجم) وتخصيص مكان ما من ناحية صولجات لسوق المواد الغذائية ، والخشب، الخ • ويساعد قنصل كافا مجلس كبير ومجلس صغير من أهالى المدينة ، ولا يجوز له أن يقوم بأى عمل مهم من اختصاصه دون مساعدة هذين المجلسين • وكان نصف أعضاء كل من المجلسين يختارون من النبلاء ، والنصف الثانى من عامة الشعب ، وفى المجلسين ، يتمتع الجنويون

---

(٧٣) سوف تعود الى بحث قرار مماثل خاص بالاتصالات مع صولجات •

(٧٤) Statuts pour Caffa, de l'année 1316, dans les Hist. patr. monum. Leges municipates Off. Gaz.), p. 378-382, 408 et s. ; les Miscell di storia patria. XI 764 et s.

— واذا كانت السفن الجنوية المارة بكافا ملزمة ، تبعا لهذه القوانين بأن تدفع ضريبة ، فان الأمر كان كذلك فى بيرا بالنسبة الى السفن القادمة من القرم — انظر : Atti della Soc. Lig., 294, 311 et s.

بصفتهم مواطنين Cives بأغلبية ساحقة على سائر السكان المعتبرين بمثابة بورجوازيين Burganses . ففى المجلس الصغير المكون من ستة اعضاء ، لم يكن البورجوازيون ممثلين بأكثر من عضو واحد ، وفى المجلس الكبير الذى يضم أربعة وعشرين عضوا لم يكن به أكثر من أربعة أعضاء بورجوازيين (٧٥) . ذلك أنه اذا كان فى عزم الجنويين أن يبقوا سادة فى كافا ، وهذا أمر طبيعى ، وكانوا يشكلون من وجهة النظر السياسية العنصر السكانى الأكثر أهمية ، كان باقى السكان وهم أكثر عددا من جنسيات منوعة ، بعضهم من مواطنى البلد نفسه ، والبعض أتوا حديثا بنوع ما اثر نمو الحركة التجارية . ونجد هناك بنوع خاص ، روسيين ويونانيين ، وأرمن (٧٦) . فالغالب أن الأرمن كانوا ضمن هؤلاء التعساء الذين فروا من وطنهم هربا من غزوات التتار ، واضطروا للهجرة ، طوعا أو كرها ، فاستقروا أولا فى مجاورات استراخان Astrakhan ومن هناك انتقلوا الى القرم فى حشود كبيرة ، حتى إن بعض المؤرخين الأرمن فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر يذكرون القرم باسم « أرمينيا البحرية » Arminia maritina (٧٧) . وفى عام ١٣١٦ ، أخطر قنصل كافا بأن يؤجر للأرمن واليونانيين وسائر المسيحيين غير الجنويين أرضا خارج الأسوار . ونعرف أيضا أنه توجد معاهدة منعقدة بين قنصل جنوا ومطران الأرمن بخصوص صيانة قناة مائية بناها الأخير (٧٨) . ومع سكان من عناصر مختلفة بهذه الصورة ، كان لابد من وجود عقائد دينية كثيرة التنوع . اذ كانت الديانة المسيحية ممثلة هناك فى ثلاث طوائف ، أكثرها عددا وأهمية طائفة الروم الكاثوليك . وبنظرتهم الصائبة المعتادة ، أدرك البابوات كل المزايا التى تتيحها المدينة ، بفضل نمو رخائها سريعا ، وثرائها ، وكثرة سكانها ، مما يجعل منها مركزا للدعاية . ومن قبل ، وفى مرسوم بابوى بتاريخ ٢٨ من مارس عام ١٣١٨ تحدث البابا يوحنا الثانى والعشرون عن مطرانية (أسقفية) كافا باعتبارها مقرا حديث

---

(٧٥) Off. Gaz., p. 388 et s.

(٧٦) Ibid., p. 407 et s.

(٧٧) Saint-Martin, Mém. sur l5Araménie, I, 114 ; Journ. asiat, II, Argutinski — Dolgoruki, dans Siestrzencevisz, p. 320 : Ritter, Enék., X, 441, 597.

(٧٨) Off. gaz., p. 407, 408, 380.

الانشـاء (٧٩) . وفى ٢٦ من فبراير عام ١٣٢٢ وضع حدود الأسقفية (الأبرشية) بتعيين موقعين متطرفين (٨٠) : سراى ، عاصمة التتار . شرقا ، والمدينة البلغارية فارانا Varna غربا . فكان أول أسقف فى كافا هو الراهب الفرنسيسكانى بيرنيموس Peregrinus (٨١) ، أحد المبشرين المكلفين بتنصير بلاد التتـــار . وكان هـذا التعيير يضفى على الأسقفية مبـــاشرة صفة البعثـــة الدينيـــة ، وكان فى الوقت نفســـه مجالا مفتـوحا تمـــارس فيه الكنيســة نشاطها لدعم الوحـــدة . وكلما كانت الطوائف الدينيـــة أكثر عـــددا (٨٢) ، ازدادت مسـئولية أساقفة الأمة المتفوقة وواجبهم فى العمل على ادخـال هـــذه الطوائف فى رحاب الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . وتكللت جهودهم بنجاح باهر وما لبث بيرونيموس أن تلقى خضوع السكان الأرمن فى كافا (٨٣) ، وفيما بعـد حين أراد البابا أن يعزز بعمل عظيم الصلح بين الكنائس الشرقية والغربية ، فعقد مجمع فلورنسا الدينى ، توجه مندوبون من الأرمن الى هناك بناء على الحاح قنصل كافا باولو امبريالى Paolo Imperiali . ومعهم ، باسم بطريركهم اعلان اتحاد كينستهم بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية (٨٤) . وثمة أفراد اشتركوا بجهودهم لدى الأرمن لتحقيق هذا الصلح : نذكر منهم جنويا يدعى باتستا دى جنتيلى Battista dé Gentili ، وهو بورجوازى من أهالى كافا ، امتدحه البابا أوجين الرابع فى عام ١٤٤٣ لما بذله من جهد فى هـــذا السبيل (٨٥) . ولابد من القول بأن هـــذه الدعاية من جانب الأساقفة لم تكن خالية من المصـــلحة ، اذ كانت أكثـــر من فرصـــة لهم للتدخل فى مسائل خارجة عن اختصاصهم ، وكان هذا تعسفا لم يكن بوســـع السلطات الجنـــوية أن تتحمله ، والا جعلت من المســـتحيل اقامة المسيحيين الشرقيين فى كافا (٨٦) . هل يجب أن نرجع الى عمل من هذا النوع أصل النزاع الذى نشب بين بيرونيموس وبين السلطات الجنوية ،

---

(٧٩) Riont De Pouillement de uarcz dans les Archives de l'or Lat, 1, 265. no. IV.

(٨٠) Bulle Publice par Mfl Wading Annal and minui, p. 548 et s. Raynald a. é. ano 45; Mriont l.c., p. 269, no XXXV; Desimoni Atti della sac, XIII, 583 et ss.

(٨١) بخصوص هذه الشخصية انظر .
Marcellino da Civezza, Storia delle missioni francescane, III, 385-408, et Vigna, dans le Cod dipl. delle colonie touro-liguri, Atti della Soc. lig., VII, 2, p. 684 et s. ; lettres de Sanudo l'ancien ; Archiv. de l'Or lat., l.c. p. 268, nos XXIX, XXX ; Coll. des doc. inéd., Mél. hist., III (1880), p. 96.

(٨٢) marignola, dans Dobner, II, 85: ; Schiltberger, p. 157.

(٨٣) Raynald, ad. an, 1318, no 13, 1321, no 13.

(٨٤) Atti-della Soc. Lig., XIII, 206.

(٨٥) Theiner Monum. Slav. meridional, p. 381 et s.

(٨٦) Atti della Soc. Lig. VI, 365.

وترتب عليه اضطراره الى التخلى عن منصبه والعودة الى الغرب ؟ لا علم لنا بذلك • والثابت أن سلوك كثير من خلفائه فى هذا الشأن قد أدى الى عدد من الشكاوى والاجراءات الرادعة (٨٧) •

وبالاضافة الى الكنيسة الكاتدرائية المكرسة للقديسة أجنيس Ste Agnès ، ويتولى القداس بها الأساقفة الرومان الكاثوليك ، تذكر المصادر الجنوية أكثر من اثنتى عشرة كنيسة ، ينتمى بعضها الى الأرمن واليونانيين ، اذ كان يوجد فى المدينة أسقف واكليروس تابعين لهاتين الطائفتين ، وفيها رهبان من أصل شرقى ، الى جانب الفرنسيسكان ، والدومينيكان (٨٨) • وكان هناك أيضا يهود منقسمون الى طائفتين : التلموديون ، والقرائيون (٨٩) • وأخيرا كان للاسلام بالمدينة ممثلوه : فقد وجد ابن بطوطة بها قاضيا ومسجدا ، مما يدل على وجود جالية اسلامية ، وكانت هذه الجالية كبيرة ، الأمر الذى ولد الحذر والريبة فى نفوس الأهالى من المسيحيين ، ومن ثم حظر على المسلمين الاحتفاظ بأسلحة فى بيوتهم (٩٠) •

نرى من ذلك أن سكان المدينة كانوا من أجناس ، ولغات ، وطوائف دينية مختلفة ، وتتجلى المدينة وضواحيها بمنظر شديد التنوع (٩١) • وان فى وجود الكثير من دور العبادة لدليل على كثرة السكان (٩٢) • ولابد أن أرباض المدينة كانت آهلة بالتتار ، وبخاصة فى الأراضى الداخلية • وعلى بعد بضعة فراسخ غربى كافا ، يرتفع فى واد فسيح ، عند سفل جبل أغارميش Agharmich مقر أمراء التتار الذين حكموا القرم باسم خان القفجاق Kiptchak ، طالما كانت القرم جزءا من امبراطورية التتار • ومن اسم هذه الامبراطورية « قريم » Krim

(٨٧) Raynald, ad. an. 1439, no 17; Statut pour Caffa de l'année 1449, et dépêches de consuls de l'année 1455, dans les Atti della Soc. Lig., VII, 2, p. 630 et s. ; VI, 365.

(٨٨) M. Vigna,, Atti della Soc. Lig. VII, 2. p. 681 et ss.

(٨٩) Schiltberger, p. 106.

(٩٠) Ibn-Batouta, II, 357 et s. ; Statut de 1449, Atti della Soc. lig., VII, 2, 679 et s.

(٩١) Statut de 1449, op. cit., p. 611, 613 et s., 620 et ss. 635.

(٩٢) فى مستهل القرن الخامس عشر قدر شيلتبرجر ٦٠٠٠ منزل فى داخل المدينة ، ١١٠٠٠ خارجها ، ٤٠٠٠ فى ضواحيها • وفى غضون القرن ذاته ادعى ان كافا كانت آهلة بالسكان مثل القسطنطينية ، ان لم تكن اكثر منها سكانا • انظر رينولد :
— Raynald, Annal eccl., ad. 1445, no 34.
ووجد الرحالة طافور Tafur أن عدد سكان كافا لا يقل عن عدد سكان مدينة اشبيلية : p. 13, 161.

اشتق اســـم شــبه الجزيرة كلهـــا (٩٣) ، ومع ذلك فقد عــرفت بالأكثر باسم صولجات Solgat ، أو صولكاتى Solcati (٩٤) . ونرى أيضا على الموقع الذى كانت تشغله المدينة مساحات كبيرة مغطاة بالخرائب التى تثير دهشة المسافر (٩٥). وتفهم من ذلك كيف أن المؤرخين والجغرافيين العرب (٩٦) تحدثوا دون مبالغة وبعبارات الاعجاب عن اتساع المدينة ، وثراء سكانها ، وجمال مساجدها . وكان للجنويين بها قنصلية ، ويتولى مهام هذا المنصب بحكم القانون قنصل كافا (٩٧) . والواقع أن كافا كان لها فى صولجات مصالح من الدرجة الأولى من الأهمية ، وكان الأمراء السادة الحقيقيون للأرض التى تقوم عليها المدينة هم أقرب الجيران اليها ، أما خانات القفجاق ، الملوك الرسميون فكانوا بعيدين عنها ، ونرى من ذلك دون أية صعوبة أن المستعمرين كانوا يهتمون بالابقـاء على علاقات طيبة مع الأمراء أكثر من اهتمامهم بالملوك . ومن مدينة الى أخرى كانت تجرى حركة تجارية نشيطة للغاية ، مما يضطر معه الكثير من الجنويين أن يقيموا فى صولجات مددا متفاوتة الطول . وعلى ذلك كان مرسوم الـ Officium Gazariae الصادر فى ١٨ من مارس ١٣١٦ مخطئا ، فهو اذ كان يستهدف تركيزا للتجارة فى منطقة كافا ، فانه حظر على كل جنوى أن يحمل بضائع الى صولجات ، أو أن يشترى بها بضائع تزيد كميتها على ما يستطيع أن يصـــدره من هنـــاك فى ثمانية أيام ، وهى الحـد الأقصى المسموح به للاقامة هناك . ومنذ ٣٠ من أغسطس من السنة نفسها ، تبين لنا الضرر الذى أحدثته هذه الأحكام بسكان كافا ، ومن ثم أجريت بها تعديلات مهمة ، فمن ذلك مثلا أن صولجات كانت تتمون أساسا من كافا ببعض السلع الاستهلاكية كالنبيذ والفاكهة ، ومن ثم أعيد الى هذه الأشياء نظام الحرية فى التجارة . ومن جهة أخرى أهمل تقريبا تطبيق نظام تحديد الاقامة فى صولجات ، ولم يبق فيما يختص بالتجار الجنويين

---

(٩٣) Neumann, Die Volker des sudlichen Russlands, p. 7, not 7.

(٩٤) Aboulf. Géogr., II, 38, 320; Gios. Barbaro, dan les Viaggi alla Tana, p. 17.

(٩٥) Dubois de Montpéreux, V, 307 et ss.; Pallas, Reise in die sudlichen Statthalter-schaften des russischen Reichs, II, 257 et ss.; Broniovius, De eriptio Tartarioe, p. 9.

(٩٦) Deguignes, Hist. des Huns (trad. allem., III, 372 et s.)

شيد بعض سلاطين مصر فى صولجات مساجد فخمة .. انظر :

Degnignes, l.c. ; Makrisi, Hist. des sultans mamlouks, éd. Quatremère, II, 1. p. 91; Ibn-Batouta, II, 359.

(٩٧) Off. Gaz., p. 369.

الا حظر اقامتهم منشئات دائمة ، وتخزين مشترواتهم بها ، وكان المراد ، باجبارهم على اخراج البضائع التى يشترونها فى تلك السوق فى خلال ثمانية أيام ، منعهم من تجريد سوق كافا من بضائعها (٩٨) ·

وتعرفنا هذه المراسيم ببعض المواد التي يتزود بها التجار الجنويون فى صولجات : فالمواد الأساسية هي الجلود ، والفراء ، والحرير . ومواد رقيقة (توابل) · ولكن كيف وجدت هذه المواد فى صولجات ؟ كان معظم الفراء يرد من الشمال ، بينما الحرير والتوابل هى من منتجات آسيا ، ولنا أن نسلم بأن الحركة التجارية تأتى بها الى « سراى » عاصمة امبراطورية القفجاق · ولما كان صولجان حاضرة اقليم من أقاليم الامبراطورية ، وكانت بالضرورة على علاقات كثيرة بالعاصمة ، فانها من ثم تستورد هذه المواد من هناك بطرق القوافل · والمعروف أن التتار لم يكونوا شعبا بحريا ، ثم ان البحرية اليونانية فى ذلك الحين عاجزة تقريبا عن العمل ، لذا فان السلع التى لا تستهلك محليا يعاد بيعها الى الجنويين الذين يتولون تصديرها من كافا الى جميع الأنحاء · ونجد تأييدا لفرضنا هذا فى فقرة من سيرة تيمور لنك بقلم أحمد ابن عربشاه (المتوفى عام ١٤٥٠) Ahmad Ibn Arbchah ، اذ يتحدث عن طريق للقوافل يبدأ من خوارزم (خيوة Khiva) وينتهى فى القرم دون أن يبرح طريق البر ، وهو طريق كان فيما مضى مطروقا بكثرة ، ولكنه صار فى العصر الذى كتب فيه مهجورا منذ زمن بعيد (٩٩) ، فكانت عبارة « فيما مضى » هذه تعنى على الأرجح العصر الذى كان فيه الايطاليون يترددون أولا على صولدايا ، ثم كافا ، واستمر الحال كذلك الى أن اكتشفوا أن الوصول الى بلاد التتار أسهل عن طريق « تانا » ، أى فى القرن الأول من سيادة التتار على جنوب روسيا · وبعد أن أسس الجنويون مستعمرتهم فى كافا ، لم يتوانوا ، بنشاطهم التجارى ، عن القيام برحلات امتدت الى الفولجا ، وكانوا يتبعون بالذات طريق القوافل هذا ، الأمر الذى يفسر كيف استطاع طقطاى خان Toktai-Khan فى حوالى عام ١٣٠٧ أن يستولى فى « سراى » نفسها على بضائع لتجار جنويين · ومن هذا الطريق وصلوا الى ضفاف بحر قزوين حيث ركبوا السفن ليأتوا بالحرير من جيلان Ghilan كما يحكى ماركو بولو الذى حصل على هذه المعلومة فى فارس فى أواخر القرن الثالث عشر · ويبدو أن كافا كانت نقطة انطلاق هذه الرحلات ذهابا ، وانتهائها ايابا ، ومع ذلك كان يمكن الاستغناء عن هذه الرحلات : فالذين كانوا حريصين على تجنب متاعب الرحلات الطويلة ،

---

(٩٨) Ibid., p. 379, 408 et s.

(٩٩) Vita Timuri ; éd. Manger, I, 373, 375.
ابن عربشاه الدمشقى ، عجائب المقدور فى نوائب تيمور ·

لم يكونوا في حاجة الى المضى أبعــد من صولجات ، اذ يجدون بهــا منتجات الشمال والشرق ٠

وبالنسبة الى منتجات آسيا ، كان الطريق الذى ذكرناه آنفا ملتفا ، غير مباشر ، ومن ثم أهمل بمرور الزمن ٠ وحين اتصلت مستعمرة كافا بمستعمرة تانا ، صار في وسع مستعمرة كافا أن تتلقى منتجات الهند وفارس عن طريق البحر بمثل السهولة التى تتلقاها بها عن طريق البر ، وربما بسهولة أكثر (١٠٠) ٠ وليس لنا أن نتصور أن المواد الثمينة كالحرير والتوابل والفراء هى السلع الوحيدة التى تشغل المرتبة الأولى فى سوق كافا ، فالمواد الشائعة كالقمح ، والملح ، والسمك ، الخ كانت تشــكل الغالبية العظمى من السلع ٠ وسرعان ما زالت آثار الدمار الذى خلفته غزوات التتار فى السهول الشمالية للبحر الأسود وبحر أزوف (١٠١) ، وازدهار محصول القمح حتى صار ينافس نظيره في تراقيا وبلغاريا ٠ وكان في القرم موانىء أقل أهمية من كافا تصدر مثلها القمح والشعير ، نذكر منها : ليفيتي Lifetti أو اليفيتى Alifetti الواقعة بجوار مدينة اوباتوريا Eupatoria الحاليـــــة (كوزلوه Koslav) (١٠٢) ، ومع ذلك كان قمح ليفيتى أقل جودة من قمح كافا الذى لم يكن يفضله سوى قمح رودوستو Rodosto (على بحر مرمرة) ، ويعتبر معادلا فى سعره وجودته لقمح أنكيالوس Anchialos (بالقرب من ميزمبريا) (١٠٣) ٠ وكان الجزء الأكبر من هذا القمح يصدر الى القسطنطينية (١٠٤) ، وكذا سمك بحار وأنهار الشمال ٠ وكان انتاج ملاحات القرم (١٠٥) مطلوبا بكثرة على سواحل منطقة القوقاز حيث الملح شحيح (١٠٦) ٠ وكما كان خشب البناء فى غابات شبه الجزيرة يصدر الى القسطنطينية ، وسوريا ، ومصر ، وسائر بلاد شمال أفريقيا ٠ وكانت سواحل القرم الجنوبية تنتج

---

(١٠٠) Tafur, p. 163.

(١٠١) Chehab-eddin, p. 265, 268.

(١٠٢) Pegol., p. 25, 39 ; Hammer, Wiener Jahrb., LXV (1834), p. 10 ; Thomas, Periplus des Pontus Euxinus, p. 241 et s., 265; Lewel, Portulan, p. 13.

(١٠٣) Pegol. p. 25.

(١٠٤) Les Commem., I, p. 253, no. 382.

(١٠٥) Rubr., p. 219 ; Broniov., l.c. p. 12.

(١٠٦) Viaggi alla tana, p. 16, 64 et s.

نبيذا (١٠٧) ، ولكن لا يسعنا أن نقول ما اذا كانت تصدر منها كميات كبيرة ، أم يبدو أن الانتاج لم يكن يكفى حتى الاستهلاك ، وكان من الضرورى استيراد أنبذة أجنبية • فالواقع أننا نرى فى عام ١٢٩١ اثنين من الجنويين يشحنان فى مرسيليا أنبذة لتصديرها الى كافا (١٠٨) •
ولابد لنا ، مع الأسف أن نضيف الى السلع التجارية التى عددناها سلعة أخرى كان لها فى كافا سمعة مشينة : اذ كان عملاء سلاطين مصر يأتون لشراء العبيد الذين كانوا يجندون ويشكلون فريق المماليك وهم صفوة جيشهم • فلم يكن الجنويون يخجلون من أن يكونوا موردى السلاطين ، بل بلغت من وقاحتهم أن يحضروا بأنفسهم الى مصر شحنات من العبيد • على أن هذا البلد (أى مصر) لم يكن عميلهم الوحيد • فكانت السفن الجنوية والفينيسية تنقل الى الغرب الكثير من العبيد ، وأكثر منهم من الاماء ، معظمهم من أبناء أسر تتارية أو شركسية أو روسية ، يبيعهم آباؤهم أنفسهم ، أو يختطفون فى غارات ويباعون الى التجار الغربيين نظير لقمة العيش • ولما كانت مسألة تجارة الرقيق هذه أوسع نطاقا من تاريخ كافا ، فقد رأينا ، من واجبنا ، أن نخصص لها فصلا يجده القارىء فى ملحق الكتاب •

لم تكن كافا سوق العبيد الوحيدة فى المنطقة ، فكانت هناك سوق أخرى (١٠٩) بالقرب من مصب نهر دن ، وكانت فى الوقت نفسه من أوسع مستودعات العالم التجارية : تلك هى ميناء تانا Tana الذى ذكرناه من قبل • والمدينة التى ازدهرت بهذا الاسم فى العصور الوسطى لا علاقة لها بمدينة تنايس Tanaïs القديمة ، أو بالأحرى بالمدينتين اللتين تحملان هذا الاسم ، واللتين وجدتا ، احداهما بعد الأخرى ، ولا زلنا الى اليوم نشهد أطلالهما المتناثرة على الضفة اليمنى لنهر دن القديم (دوينتز Donetz) بين سينيافكا Siniafka ونيدفيجافكا

(١٠٧) كان الكرم ، منذ قديم الزمان ، يزرعه الاغريق فى القرم ؛ انظر نيومان :
— Neumann, Die Hellenen im Scythenland, I, 414 et ss.

— وفى عصر سيادة جنوا ، كان قطاف العنب يشغل كل الأيدى المتاحة فى ضواحى كافا ، لدرجة أن القنصل كان ملزما — طوال فترة القطاف (من ١٥ سبتمبر الى ١٥ اكتوبر)— بالامتناع عن عقد جلسات محكمته • انظر فى ذلك :
- Atti dela Soc. Lig., VII, 2, p. 629.

— وبخصوص زراعة الكروم فى سوداق ، انظر فيما بعد •

(١٠٨) Canale, Crimea, I, 315 et ss.

(١٠٩) Canale, Crimea, II, 464 et s. ; Miscell. di storia ital., I, 491.

Nedvigafka (١١٠) • وفى العصور الوسطى كانت تنايس قد صارت نسيا منسيا •

أما البندقى جيوزوفاتو بربارو Giosofatto Barbaro الذى أقام سنوات طويلة بمدينة تانا ، فانه لم يقل سوى كلمة واحدة عن موقع تانا بالنسبة الى تنايس ، ذلك أن المدينة القديمة كانت واقعة فى السهل الذى يضم تلالا ووديانا ، ويحيط بمدينة العصور الوسطى على مدى نصف قطر يبلغ عشرة أميال • ويردد بربارو هنا قصة ذاعت بين معاصريه ، ولم يجر بشأنها فى الغالب أى تحقيق علمى ، ويشير اليها اشارة عرضية (١١١) بحتة ، والفقرة التى يذكرها فيها غير واضحة ، فلا يتبين فيها على أية ضفة من نهر دن يجعل المؤلف موقف تنايس القديمة • فعلينا اذن الا نرتبك ونحن نحاول أن نتعرف على موقع تانا بناء على قصة رحلة أثبتها الكاتب نفسه (١١٢) • ففى حوالى عام ١٤٣٨ سار بربارو من تانا فى أعقاب حملة قام بها جيش تتارى قدم من شركسيا ، وزحف صوب تانا ، واتجه الى بلاد الروس ليقاتل هناك (١١٣) • وكان الوقت شتاء ، ولكى يلحق الكاتب بالجيش كان عليه أن يعبر فوق الجليد ثلاث شعب من نهر دن • وتبين هذه المعلومة بمنتهى الوضوح أن تانا لم تكن واقعة شمالى الدلتا • ويؤيد شهادة بربارو تلك مذكرة (١١٤) كتبها جيوفانى بمبو Giov. Bambo (المتوفى عام ١٥٤٥) يقول فيها انه ابتداء من مصب نهر دن يصعد الانسان مجرى النهر مسافة ثمانية عشر ميلا قبل أن يصل الى تانا الواقعة يمينا ، أى فى الجانب الآسيوى (١١٥) ولا حاجة بنا الى التأكيد بأن الضفة التى الى يمين المسافر وهو يصعد مجرى النهر

---

(١١٠) Voyez la lettre de Stempkowski communiquée par Kalproth, Nouv. journ. asiat, I (1828), p. 56-59; Groefe dans les Mém. de l'Acad. de S. Pétersb., 7e série, VI, p. 24 ; Boekh, Corpus inscr. groec, II, 1008 Baer, dans le Bulletin de l'Acad. de S. Pétersb., V, (1963); p. 75.

(١١١) Les Viaggi alla Tana , p. 8, b.

(١١٢) Ibid. p. 6-10.

(١١٣) Klaproth, étude sur Tana et Tanais, op. cit., p. 54.

فى هذه الدراسة ، يبدى كلابروث رأيا خاطئا عن الاتجاه الذى اتبعه هذا الجيش ، ومن ثم يصل الى نتيجة مخالفة تماما للحقيقة الواقعة •

(١١٤) M. Thomas, Cod Manac lat., no 10, 801, fol. 188, Periplus des Pontus Eurinas p. 266 (tirage à part, p. 44).

(١١٥) "A banda dricia nell' Asia".

هى ما نسميه فى لغتنا الشائعة ــ الضفة اليسرى • نخلص اذن من مقابلة هذين النصين أحدهما بالآخر ، أن دلتا نهر دن كانت واقعة الى الشمال بالنسبة الى تانا ، وأن هذه المدينة كانت مشيدة على الضفة اليسرى للفرع الجنوبى ، أى من الناحية الآسيوية • ولا يتفق فى هذه النقطة واضعو خرائط العصور الوسطى ، فالبعض منهم يجعلون المدينة على الضفة اليمنى للنهر ، على حين يجعلها آخرون على الضفة اليسرى (١١٦) • ومع ذلك فالأصح أن نقول ان أقدم واضعى الخرائط هؤلاء ، ومن ثم الأجدر منهم بالثقة ، جعلوا المدينة على الضفة اليسرى : أذكر منهم بيترو فيسكونتى Pietro Visconti (١٣١٨) ، والاخوة بيتزيجانى (١٣٦٧) Pizigani والخريطة القطالونية ، وأطلس اللورانتيانا la Laurentiana لعـام ١٣٥١ (١١٧) • وفى مقابل هذه المعلومات ، أى الفريق الآخر (من واضعى الخرائط) • وأهمهم فرا مورو Fra Mauro وجراتزيوزو بنينكازا من أنكونا (١١٨) Grazioso Benincasa d'Ancône ، وينتميان الى القرن الخامس عشر ، فان شهادتهم قليلة القيمة • لذلك ينبغى لنا أن نتمسك بما قلناه : ان تانا كانت واقعة على الضفة اليسرى من الفرع الجنوبى لنهر دن • ولكن فى الموقع الذى تحدد على هذا الوجه ، يضع جغرافيون عـرب ، مثـل أبو الفدا ، وابن بطوطة (١١٩) مدينـة يسمونها ازاق Azak ، وهى بلدة تجارية كما وصفوها ، ويأتى اليها تجار جنويون بشحناتهم • وفى عام ١٣٨٩ شهد بها رئيس الأساقفة الروسى بيمن (١٢٠) بنـادقة وجنويون • وهاكم الآن شـاهد جديد ، هو شـيلتبيرجو Schiltberger (١٢١) : يقول ان المدينة التى يسميها الشرقيون آزاق ،

---

(١١٦)
Hommaire de Hell, Les steppes de la mer Caspienne, III, 135 et s. (passage reproduit dans le Bulletin de la Soc. de géogr. 3e série, VII (1847), p. 301 et s.)

ــ انطلاقات من هناك ، ينتهى (هوبر) الى نتيجة خاطئة فحواها أن تانا لم تكن الا مركزا تجاريا قليل الأهمية •

(١١٧) Bulletin de la Soc. de géogr., l.c. p. 304 et s. ; l'Atlas de l'ouvrage de Hoummaire de Hell.

(١١٨) Zurla, Il mappamondo di Fra Mauro, p. 24; Hommaire de Hell, l.c.

(١١٩) Aboulf, trad. Reinaud, II, 81, 321; Ibn-Batoutá, II, 368 et ss.

ــ اتبع الأخير (ابن بطوطة) دوّاما طريق البر ، من القرم الى ازاق) وقبل أن يصل الى هناك ، كان عليه أن يعبر نهرين كبيرين ، لابد انهما فرعا نهر دن الكبير •

(١٢٠) Bruun, Colon. ital. en Gazarie, p. 46.

(١٢١) Publ. par Neumann, p. 106.

ــ فى هذا اتبع الغربيون أسلوب الروم (اليونانيين) الذين كانوا يطلقون على المدينة فى العصر الوسيط ، والمدينة فى العصور القديمة باسم النهر الذى يرويها ، أى تاناس Tanais

يسميها الغربيون تانا Tana ، وليس في هذا ما يثير دهشتنا بعد كل ما قلناه • حيث ينطبق اسم آزاق وأزوف على مدينة واحدة بذاتها ، وهذا شيء مؤكد • وعلى ذلك كان سيجموند دى هيربرشتاين (١٢٢) Sigmond de Herberstein على حق : فالمدينة التى كانت فيما مضى تسمى عند الغربيين تانا أصبحت مدينة أزوف الحديثة •

لقد حددنا موقع تانا ، والمطلوب الآن تحديد عصر نشأة مستعمرة ايطالية فى تلك المدينة • ولكن من الضرورى قبل ذلك معرفة الزمن الذى بدأت فيه السفن التجارية الايطالية تجوب بحر أزوف • فنذكر مرة أخرى أن جويوم دى روبروك ، والأخوين نيكولو ، ومافيو بوليسو ، ثم السفراء المبعوثين فى عام ١٢٦٣ من قبل السلطان بيبرس الى بركة خان (١٢٣) نزلوا برا فى اقليم التتار عند مدينة صولدايا ، وكانوا مع ذلك يقصدون مقر الخان على ضفاف نهر الفولجا • ويبدو أنه كان فى وسعهم اطالة رحلتهم البحرية ، بعبور بحر أزوف من طرف الى آخر حتى مصب نهر دن ، ثم يصعدون مجرى هذا النهر حتى منتصفه ، فلا يبقى أمامهم سوى مسافة قصيرة ليصلوا الى نهر الفولجا ، وبذلك يوفرون على أنفسهم بعضا من متاعب رحلة شاقة على الطرق البرية • فلم اذن لم يفعلوا ذلك ؟ يزودنا جويوم دى روبروك (١٢٤) باجابة على هذا السؤال ، بالاضافة الى معلومة مفيدة : فيقول ان تجار القسطنطينية ، ولا تقتصر هذه التسمية على اليونانيين (الروم) ، بل تشمل أيضا الغربيين بوجه عام ، لم يكونوا يجرأون على المغامرة بالابحار فى بحر أزوف فى سفن متعددة السطوح ، فكانوا يتوقفون عند ماتريجا Matréga ، ومنها يرسلون مراكب تأتى بالسمك المجفف من مصب نهر دن • فاذا كانت الملاحة فى بحر أزوف ولم تزل بدائية فى عصر جويوم دى روبروك ، فلم يكن هناك اذن مجال للحديث عن وجود مستعمرة تجارية فى تانا فى أواسط القرن الثالث عشر • ونعرف فضلا عن ذلك أن اسم تانا لا وجود له بالمرة فى كتابات جويوم دى روبروك ، وماركو بولو • ومع ذلك كان لدى الجنويين فى كافا عدة فرص للقيام برحلات استكشافية فى بحر أزوف ، ومعرفة امكانية قيام السفن ذات غاطس كبير بالملاحة فيه • لذلك ، وعلى قدر علمى ، ظهر اسم تانا لأول مرة على خريطتين جنويتين : خريطة وضعها عام ١٣٠٦

---

(١٢٢) StarczeWsk,i p. 45.

(١٢٣) Makrizi, Hist. des sultans mamlouk', I. 1, p. 214.

(١٢٤) Rubr., p. 215.

يوحنا Jean راعى كنيسة سان مارك بجنوا (١٢٥) ، وخريطة رسمها فى عام ١٣١٨ بيترو فيسكونتى Pietro Visconte (١٢٦) ؛ وبخلاف هاتين الخريطتين أجد فى أحكام ال Officium Gazariae ورقة بتاريخ قديم تذكر اسم تانا . وقد تلقت لجنة المستعمرات هذه وقت انشائها ضمن اختصاصاتها مراقبة المواصلات البحرية مع تانا ، وتنظيم العلاقات بين جنوا وهذه المدينة . ولسنا نبادر بالاستنتاج من ذلك بوجود مستعمرة جنوية هناك ، انما معنى هذا فقط أن تانا كانت وقتئذ ميناء يتردد عليه بصفة اعتيادية السفن التجارية . أما بخصوص « مستعمرة جنوية » فانه من العسير التسليم بوجودها وقت انشاء ال Officium Gazariae حين نعلم أن مرسوما بتاريخ ١٣١٦ يحظر على كل مواطن جنوى أن يقضى فصل الشتاء فى تانا ، أو أن يشترى بها منزلا ، والا حكم عليه بغرامة قدرها خمسمائة هيبربر ذهبى (١٢٧) . ومع ذلك لا يمكن أن يكون انشاء المستعمرة متأخرا كثيرا عن هذا التاريخ ، لأن أزبك خان قد تنازل للبنادقة فى عام ١٣٣٢ عن حى فى تانا (١٢٨) ، ونص - ان لم يكن فى وثيقة التنازل نفسها ، فعلى الأقل فى « دبلومات » التصديق الصادرة فى عامى ١٣٤٢ ، ١٣٤٧ - على أن هذا الحى خلاف حى الجنويين ، ومن ثم فلابد أن يكون تأسيس المستعمرة الجنـوية سابقا على تأسيس مستعمرة البندقية ، ويقع تاريخه بين عامى ١٣١٦ ، ١٣٣٢ .

وما دمنا نتحدث عن البنادقة ، فلنر ما كانت عليه علاقاتهم بتانا . فقد اكتفوا أول الأمر - مثلهم مثل الجنويين - بارسال السفن التجارية . ومنذ حوالى عام ١٣٢٢ ، تلقى قادة الأساطيل الصغيرة المرسلة الى طربزن الأمر بأن يرسلوا بانتظام سفينتين حربيتين الى تانا . ومع ذلك لم يكن

---

(١٢٥) Bulletin de la Soc. de géogr., l.c., p. 305; cf. Giorn. ligust, II, 45.

(١٢٦) l'Atlas de Hommaire de Hell, Les Steppes de la mer Caspienne.

(١٢٧) Off. Gaz. p. 306, 381.

(١٢٨) كانت الدورة الزمنية عند التتار تشمل ١٢ سنة ، كل سنة منها تعرف باسم حيوان ، وكانت السنة التاسعة معروفة باسم « سنة القرد » . وقد أجرى السيد ايردمان M. Erdmann (Temudschin, p. 650 et s.) مقابلة بين بضع سنين من الدورة التتارية والتاريخ الميلادى (المسيحى) ... فكانت سنة ١٣٣٢ م « سنة قرد » ؛ وفى هذه السنة حرر « الدبلوم » ؛ وترجم اللاتينية فى السنة التالية وأرسل الى حكومة البندقية . وفى البندقية ، لم تنتظر الحكومة وصول هذه الترجمة لتتخذ الاجراءات اللازمة لتنظيم المستعمرة . انظر فيما بعد .

هذا قاعدة مطلقة ، ويمكن أن نذكر بعض الاستثناءات لها (١٢٠) . بعد هذا توجه بعض البنادقة فرادى الى تانا وأنشأوا بها وكالات تجارية . وآن الأوان الذى بدا فيه من الملائم تعيين قنصل لهم . وهناك منذ عام ١٣٢٥ دلائل تثبت وجود هذا الموظف (١٣١) . الا أن كل هذا لا يمكن أن يتم دون تفاهم مسبق بين حكومة البندقية وبين ملوك التتار ، لذلك ينبغى أن نرى فى ال Ambaxatores missi ad Tartarum الذين كانت مهمتهم تقع بين عامى ١٢٩٣ ، ١٣٠٣ (١٣٢) ، نرى فيهم الرواد الأوائل الذين فتحوا الطريق لتجارة وطنهم . وتشير أول وثيقة تنازل عرفناها ، وسنتكلم عنها مرة أخرى بعد قليل الى اتفاقيات سابقة ضاعت بالنسبة الينا ، وبمقتضى هــذه الاتفاقيات كانت الأحجار الكريمــة ، واللآلىء ، والفضة ، والخيوط الذهبية ، تبعا لعرف قديم ، معفاة من الضرائب ، بينما كان على السفن أن تسدد عند وصولها رسما نسبيا حسب عدد صواريها . ومن المفيد ، بعد أن قدمنا هذه المعلومت الخاصة بعلاقات قديمة ، أن نذكر أول دلالة حقيقية معروفة لبعثة دبلوماسية . ففى عام ١٣٣٢ عرض أندريا جينو Andrea Geno ، سفير جمهورية البندقية لدى أزبك خان ، وقد عرض على الأمير ، باسم حكومته ، رغبتها فى الحصول فى تانا على قطعة أرض تصلح لأن يقام عليها منازل للسكن . وكان أزبك ــ فى تلك الآونة ــ مقيما على ضفاف نهر قوبان ، على مسافة غير بعيدة من تانا ، فوضع ــ نظير موافقته على هذا الطلب ــ شرطا يقضى بأن يدفع البنادقة ضريبة ٣٪ على بضائعهم . وتقع الأرض التى منحها لهم فى المدينة ، وتمتد من ضفة الدن الى كنيسة المستشفى . أما الدبلوم الخاص بهذه المنحة فقد أحضره الى البنــدقية فى شهر نوفمبر عام ١٣٣٣ نيكولو جستنيانى ، قنصل تانا الذى انتهت وقتئذ فترة توليه منصبه (١٣٣) . وقام بترجمة الدبلوم فى شهر أغسطس من السنة نفسها ، من لغة القومان ، أى اللغة التركية التى يتكلم بها التتار الى اللاتينية (١٣٤) الراهب الدومينيكانى البولندى دومينيكس

---

(١٢٠) Registres des livres perdus des Misti dans d'Archiv. Venet., XVIII, 329, 331, 336, 337 et s.; XIX 106; XXIV, 96; Canale, Della Crimea, II, 445.

(١٣١) Ibid XVII, 257 XVIII, 331, 338, XIX, 107.

(١٣٢) Ibid. XVIII, 324.

(١٣٣) Arch. Venet., XVIII, 338.

(١٣٤) M. des Mas Latrie : la Bibl. de l'Ecole des chartes, 6e série. IV (1868), p. 583 et s.; Taf. et Thom., IV, 243 et s. ; Arch. Venet., XVII, 140; XVIII, 338.

Dominicus · هـذا الدبلوم هو بمثـابة شـهادة ميلاد حى البنـدقية فى تانا · وما أن استلمت حكومة الجمهورية هذه الوثيقة حتى اتخذت اجراءاتها بشأنها · وبدلا من أن تعمل فى الحال على تغطية كل الأرض الممنوحة بالمبانى ، اكتفت بشغل ثلثها ، وبدأت ببناء منزل القنصل ، ثم أقامت عدة مبان ذات منفعة عامة ، ثم منازل سكنية خاصة ، أقيمت كلها على أوتاد نظرا لطبيعة الأرض التى تكسوها المستنقعات · ولتوفير الموارد اللازمة للقنصل ، زودته الدولة بدفعة أولى قدرهـا مائتا جنيه librae grossorum ، وفرض على كل بندقى أن يدفع عند وصوله الى المدينة ضريبة خاصة · وبخصوص المبانى المطلوب اقامتها على باقى القطعة الممنوحة ، فقد ترك أمرها لمبادرات الأفراد ، فقط فرض على كل من يطلب قطعة أرض ليبنى عليها ، أن يدفع للبلدية عن أرضه مقابلا سنويا ، وأن يجعل ارتفاع منزله مساويا لارتفاع المبانى المشيدة بالمال العام · وكانت ايرادات المستعمرة تتكون فقط ، على ما يبدو ، من حصيلة الروتب السنوية التى تدفع عن الأراضى الممنوحة ، ومن ايجار المنازل المبنية على حساب الدولة ، ومن بعض الغرامات ، ورسم مفروض بصفة مؤقتة على التجار الذين وصلوا أخيرا بطريق البحر · وقد حرر دستور المستعمرة طبقا لدستور مستعمرة طربزون ، والفارق الوحيد بينهما هو أنه بدلا من « البايل » baile ، يعين قنصل لسنتين يضطلع بمهمة الادارة والقضاء ، يعاونه مجلسان ، اذا كان هناك عدد كاف من النبلاء لتشكيل هذين المجلسين، والا كان عليه أن يتولى وحده مهمة الحكم طبقا للتعليمات التى تسلم اليه عند سفره من الوطن الأم (١٣٥) ·

وعندما ترسو سفن البنادقة فى ميناء تانا ، ويقوم موظفو الجمارك التتار بتفتيشها ، يشعر البنادقة بأنهم قـد وصلوا الى اقليم أجنبى · وعندما تكون بضائعهم من البضائع التى يتعين وزنها ، فان عملية الوزن تخضع لرقابة مندوب من القنصل وموظف من جمرك التتار فى وقت واحد · ومهما طالت فترة اقامة البنادقة فى تانا ، فانهم يجدون أنفسهم فى الكثير من الأحيان ، على صلة بالتتار الذين يشكلون غالبية السكان ، ويعتنقون الاسلام · وفى حالة قيام نزاع بينهم وبين الأهالى ، تعرض القضية على محكمة يجلس فيها قنصلهم الى جانب بعض كبار الموظفين التتار (١٣٦) ·

---

(١٣٥) Taf. et Thom., IV, 249 et ss. M. Canale, Crimea, II, 444 et ss.

(١٣٦) هذه المعلومات مستقاة من « دبلوم » أزبك · وفى القرن الخامس عشر كان لخان القفجاق فى تانا محصل للرسوم الجمركية · انظر :

— Barbaro, op. cit., p. 15.

وعند نشأة المستعمرة ، كان أكبر موظف تتارى أميرا يدعى محمد خواجه الخوارزمى (١٣٧) ، ويحكم باسم الخان ، مدينة تانا ومنطقة شاسعة بجوارها . ورغم أن « دبلوم » التنازل الذى منحه أزبك للبنادقة قد بلغ عند صدوره لهذه الشخصية (١٣٨) ، وأن مجلس شيوخ البندقية قد وجه اليه خطابات توصية لصالح البنادقة المقيمين فى تانا ، ولصالح قنصلهم بنوع خاص (١٣٩) ، فانه بذل كل ما فى وسعه لمنعهم من اقامة مبان على الأرض المخصصة لهم ، واتخذ ضدهم كل ما يمكن من الاجراءات التعسفية ، والمعاملة السيئة بوجه عام طالما كانوا مقيمين فى اقليم تانا . ووصلت الأمور على هذا النحو الى حد أن اضطرت حكومة البندقية فى عام ١٣٤٠ أن توفد الى أزبك سفيرا يطالب بمعاملة أفضل لمواطنيه ، وقطعة أرض أخرى اذ صار من المستحيل الاحتفاظ بالأرض التى منحت لهم فى البداية (١٤٠) . فهل كانت الكراهية الدينية هى التى أملت على الحاكم التتارى هذا السلوك ؟ أم لعله تلقى من سيده تعليمات سرية ؟ أو خضع لتأثيرات من جانب الجنويين ؟ اننا نميل الى تأييد الفرض الأخير ، ذلك لأنه فى هذه الفترة تعرض المستوطنون البنادقة من ناحية الجنويين لاعتداءات صريحة لدرجة أنهم تلقوا من حكومتهم اخطارا بأن يجعلوا مساكنهم بمنأى عن مساكن الجنويين ، وفى الوقت نفسه وجه مجلس شيوخ البندقية الى دوج جنوا شكوى رسمية ضد قنصل جنوا فى تانا (١٤١) . وهكذا كان البنادقة معرضين لنوائب من كل نوع جعلت مساعيهم فى سبيل الاستقرار عسيرة للغاية ، فلم يكن فى وسعهم الا أن يقبلوا بسرور العرض الذى قدمه لمجلس الشيوخ أمير صولجات (كريم) طوغلوك ــ تيمور Togtlouk — Timour (١٤٢) بأن يتنازل لهم عن مدينة فوسبورو Vosporo (بسفور Bosporus ، وحاليا كيرتش) (١٤٣) مع مينائها ، واقليم واسع بنوع ما ، وأن تكون ملكا مطلقا لهم ، أسوة بجنوبى كافا ، نظير أن يدفعوا لوكلائه ، أو وكلاء أزبك خان أتاوة قدرها

---

(١٣٧) يدعوه ابن بطوطة بأمير آزاق (ج ١ ، ص ٢٠٩) .Ibn-Batouta II 368

(١٣٨) .ad. Machmateoja Principaliter

(١٣٩) "Che si Scriva a Maometto dominatore della Tana" : Canale, II, 444.

(١٤٠) Ibid. p. 445-447.

(١٤١) Ibid. p. 448-451.

(١٤٢) يسميه ابن بطوطة : تلكتمور (ج ١ ، ص ٢٠٦) .
Ibn-Batouta, II, 359, 368.

(١٤٣) Gios.Barbaro, dans les Viaggi alla Tana, p. 17.
ـ حتى العصر الحديث ، احتفظ الأهالى فى لغتهم باسم فوسبور Vospor يطلقونه على كيرتش ؛ انظر :
Clarko, Voyages en Russie, etc., II, 253.

٣٪ من بضائعهم • وكانت فوسبورو مدينة غنية ، آهلة بالسكان ، مما حدا بالبابا يوحنا الثانى والعشرين أن يرفعها الى مرتبة العاصمة ، وهذا ما فعله فى عام ١٣٣٢ ، وعين لهـــا راعيـــا فرانســوا دى كاميرينو François de Camerino ، وهو راهب دومينيكانى • ويتيح لنا هــذا الأمر أن نفترض أنه عندما قدم توغلوك تيمور منحته التى ذكرناها ، كان هناك بالفعل منذ بعض الوقت جالية من التجار الغربيين (١٤٤) • وكان الميناء فخما ، والمدينة عند مدخل بحر أزوف ، وهذه الظروف مناسبة للغاية لمزاولة التجارة حتى لقد سارع البنادقة بقبول اقتراح الأمير دون أن ينتظروا تصديق أزبك خان رسميا (١٤٥) • ويحتمل أنهم استقروا هناك بعض الوقت حتى تم تذليل الصعوبات التى اعترضت مستوطنهم فى تانا ، وكثيرا ما تذكر المصـــادر تجارا من البنادقة يجرون على طول سواحل بحر أزوف بين بانتيكابيه Panticopée وتانا (١٤٦) • فكانت بانتيكابيه أو بونتيكو Pontico (Pondico) حسب الاسم الموجز الشائع استعماله فى خرائط العصور الوسطى مدينة واقعة بجوار كيرتش من ناحية ينى كالة Jénikalé (الاسم القديم لمدينة كيرتش – المترجم) ، ونقل اليها اسم المدينة الاغريقية Panticapaeon التى تظهر أطلالها أعلا كيرتش ، فوق جبل مثريداتس Mithridate (١٤٧) • ولا أعرف برهانا أكيدا آخر على أن كيرتش كانت مستعمرة بندقية ســوى ما يحكى بالاس Pollas أنه كان يرى أعلى باب المدينة (وقد تهدم الآن) أسد ، يقول عنه انه أسد القديس مرقس St. Marc المشهور ، الأمر الذى لعله من آثار سيادة البندقية ، الا أنه ينبغى معرفة ما اذا كان هذا الأســد واحدا من الآساد القديمة الموجودة أصلا فى فاناجوريا Phanagoria فى شبه جزيرة تامان Taman ، ولم يزل هناك الى الآن عينات كثيرة منها (١٤٨) • ولنعد الى كافا • ففى عام ١٣٤٠ توفى أزبك خان ، أول من

(١٤٤) Raynald, Annal. eccl., ad. an, 1333, nos 17 et ss., 36, ad. an, 1334, no 4 ; nicéph. Greg., I, 501, et la note de la p. 1247 ; Lib. jur., II, 437, 445; Theiner, Monum. Polon. et Lithuan., I, 348 et ss., 358 et ss.

(١٤٥) Canale, II, 447 et s.

(١٤٦) Canale, II, 458; Archiv. Venet., XVIII, 338; Taf. et Thom., IV, 341 (ordonnance de 1332).

(١٤٧) يظهر اسما Pondico, Vosporo جنبا الى جنب على خرائط القرنين الرابع عشر والخامس عشر •

(١٤٨) Pallas. Reise in die sudlichen Stattholterschaften de russischen Reichs, II, 272 ; Mouraview-Apostol, Reise durch Tourien, p. 208; Dubois de Montpéreux, voy. autour du Cacase, V, 69, 298; Neumann, Die Hellenen in Scythenland, I, 561.

منح امتيازا للبنادقة · وقبل تسوية مسألة الخلافة على العرش ، مرت فترة طويلة والعرش خال ، والدولة بلا رئيس (١٤٩) · وفي هذه الفترة ضعفت سلطة حكام الاقليم على ما يبدو ، أو أن أشخاصا يكنون عداء للبنادقة إنتهزوا هذه الفرصة فمارسوا السلطة · واستغل أنفريونى باسيو Anfreone Passio قنصل جنوا حرية التصرف المتاحة له ليشفى غليله من البنادقة · وبتشجيعه شن مواطنوه حملة جماعية على حى البنادقة وأحدثوا به أضرارا كثيرة ، واشتكى دوج البندقية من هذا العدوان الى دوج جنوا ، فاعتذر له الأخير ، وأعلن أن قنصلا جديدا اسمه بلترامينو موريللو Beltramino Morello سافر لتوه الى تانا ليحل محل القنصل المتهم ، ومعه تعليمات سلمية بقدر الامكان (١٥٠) · ورغم هذه التأكيدات لم يشعر البنادقة أنهم فى مأمن من الاعتداءات المتكررة · وعرضت فكرة تغيير حيهم وطلب حى آخر بعيد عن حى الجنوبين أول الأمر فى البندقية ، ثم عرضت على المستوطنين البنادقة فى تانا للتفكير فيها بامعان (١٥١) · وفي هذه الأثناء استولى جانى بك ابن أزبك على مقاليد الحكم ، وبادرت سلطات البندقية بارسال وفد يحمل اليه تهانيها ، ورد الخان على هذه المبادرة فمنح البنادقة امتيازا (١٣٤٢) (١٥٢) لم يكن ، فى معظم نقاطه سوى نسخة طبق الأصل من الامتياز الذى منحه أبوه فى عام ١٣٣٢ · ولكن بمقارنة وصف الحى المخصص للبنادقة فى الوثيقتين ، نلاحظ أنهم طلبوا تغيير الموقع ، ونالوا ما طلبوه فكان الحى الجديد على مسافة ما من حى الجنوبين ، وعلى سفح تل · كذلك رخص جانى بك للبنادقة أن يحصنوا حيهم ، رغم احتجاج الجنوبين · وبقيت الأحكام المتعلقة بالرسوم الجمركية كما كانت من قبل · وعند عودة السفراء الى البندقية أشاروا فى تقريرهم الى نوعين من المخالفات التى ترتكب عادة فى تانا · فمن جهة ، كان عدد كبير من التجار البنادقة يتهربون من دفع رسوم الانتاج المفروضة على مبيعاتهم ، اضرارا بمصالح الخان · وللقضاء على هذا العمل السيىء ، أصدرت سلطات البندقية أمرها الى القنصل ، بمثابة اجراء وقائى ، بأن يستدعى كل تاجر من مواطنيه عند وصوله ، ويلزمه أن يسدد هذا الرسم ، بعد أن يقسم على ذلك · ومن جهة أخرى ، كان التجار البنادقة ، عندما يريدون العودة من تانا ،

---

(١٤٩) Extraits d'actes vénitiens, dans Canale, Crimea, II, 448, 452.

(١٥٠) Canale, l.c. p. 449 et s. ; Taf et Thom. IV, 259, 261.

(١٥١) Canale, Crimea, II, 448 et s.

(١٥٢) M. de Mas Latrie dans la Bibl. de l'Ecole des chartes, 6e série, IV (1868), p. 584 et ss. ; Taf et Thom., IV, 261-263; Canale, l.c. p. 542, 454.

يعترض موظفو حكومة التتار فى كثير من الأحيان على رحيلهم أو يحتجزون بضائعهم ، ولا يسلمونهم جوازات سفرهم ، الا مقابل مبلغ يدفعه لهم هؤلاء التجار ، بيد · ولذا سعت سلطات البندقية أيضا الى معالجة هذا التعسف بأن حظرت على التجار أن يستسلموا للاستغلال والابتزاز على هذا النحو (١٥٣) · وفى عام ١٣٤٣ حدثت كارثة كانت نتائجها مدمرة لكل الغربيين المقيمين فى تانا ، وحفرت لزمن طويل أخدودا عميقا بين أوروبا وامبراطورية القفجاق ، فلأسباب ظلت مجهولة (١٥٤) ، وقعت فى تانا منازعات بين التتار وبين بحارة السفن الحربية البندقية الراسية قبالة الشاطىء (١٥٥) · وفى احدى هذه المناوشات قتل بندقى يدعى اندريولو تشيفرانو Andreolo Civrano (١٥٦) تتاريا يدعى خوجة عمر ، وكانت هذه اشارة لاندلاع قتال عام بين التتار وبين المستوطنين الغربيين (١٥٧) · وتعرض البنادقة والجنويين والفلورنسيون وهؤلاء ذكرهم فيلانى Villani لاعتداءات الأهالى ، بلا تمييز بين جنسياتهم ، ونهبت بيوتهم وحوانيتهم · فارتفعت خسائر الجنويين الى ثلاثمائة وخمسين ألف ريال ذهبى ، وخسائر البنادقة الى ثلاثمائة ألف ، وبالاضافة الى عدد كبير من القتلى ، وألقى بعدد آخر فى السجون (يذكر فيلانى رقم ستين) ، وهرب الباقون الى السفن · واستاء جانى بك خان من قتل أحد رعاياه فى بلده ، فعقد العزم على التخلص نهائيا من المستعمرات الغربية · وبدأ بانذار البنادقة والجنويين بألا يظهروا بعد عامهم فى تانا (١٥٨) ، ثم زحف الى كافا ، ومعه كل معدات الحصار · ولكنه اصطدم هناك بمقاومة شديدة ، فقد عبأ الجنويون فرقا بارعة من الجنود المرتزقة ، وراحت سفنهم تمون الموقع دون هوادة ، ومنعوا القوافل المرسلة بامدادات للتتار من الاقتراب من الشاطىء ، وأنزلوا الى البر فى مواقع مختلفة أنصارا لهم شنوا غارات وعادوا بغنائم وفيرة · وأخيرا خرج المحاصرون فى هجمة ليلية ودمروا كل معدات الخان الحربية ، وقتلوا أكثر من خمسة آلاف رجل من جنده ، فأجبرته هذه الكارثة على رفع الحصار (١٥٩) ·

(١٥٣) Canale, l.c., p. 452-454.

(١٥٤) Sanuto (Vite dei dogi, p. 611).

(١٥٥) Canale, l.c., p. 456 : Giov. Villani (IV, 54, éd. Dragom.).

(١٥٦) Cantacuzène (III, 191) ; Mon. hist. patr., X, 756 et s. ; Lorenzo dé Manaci (V. Marin, VI, 58) ; M. Canale (Crimea, II, 458).

(١٥٧) Cantacuzène., l.c.

(١٥٨) Dandulo, p. 418 ; Stella, p. 1080.

(١٥٩) Stella, p. 1080 et s. ; Nicéph. Grég., II, 686 ; Cantacuz, III, 162; Mon. hist. patr., X. 757.

وهكذا انقذت كافا على الأقل · غير أن ضـياع تانا كان بالنسبة للجنويين والبنادقة ضربة قاسية ، وظهرت نتائجه محسوسة فى بلاد اليونان كلها ، حتى فى ايطاليا · وحـدث قحط فى مدن الامبراطورية البيزنطية كلها ، نتيجة لشح القمح والسمك المملح ، اللذين يصـل تموينهما عادة عن طريق البحر الأسود ، بوساطة الايطاليين · وفى ايطاليا تضاعف فجأة ثمن الحرير والتوابل (١٦٠) · ففى هذين المثلين دلالة واضحة على أن سقوط تانا سد شريانا من أكبر الشرايين التى تنفذ منها التجارة الى قلب آسيا · فالواقع يخطىء البعض فى تقديرهم أهمية هذه المستعمرة من الوجهة التجارية ، اذ كانت أكثر من مستودع لفراء الشمال ، وسمك نهر دن وبحر أزوف ، وبحر قزوين والكاقيار ، والقمح (١٦١) ، والعبيد · وليس الأمر فقط أن الايطاليين كانوا يتولون شحن هذه المواد ، وهم واثقون من تصريفها بسهولة فى القسطنطينية ، وفى أوروبا (١٦٢) ، ولكن هدفهم الرئيسي كان اقامة علاقات مباشرة مع سوق تخرج منها طرق للقوافل تتوغل فى قلب آسيا · اذ كان عندهم قبلا أسواق طربزون ، ولاجاتزو (اياس) ، وبيروت ، والاسكندرية ، ولكنها كانت غير كافية ، وكانوا يعرفون بالخبرة أنه يحتمل حدوث تعقيدات فى الأمور يترتب عليها سد الطريق المؤدى الى أى منها ، لعدة سنوات · ثم ان كل طريق تجارى فى الشرق الأدنى كان متخصصا فى بعض المواد · أو فى مادة واحدة ، فأجود صنف من المادة يصل من طريق معين ، ومن طريق آخر تصل المادة بسعر أقل ، ومن ثم فكلما فتح المزيد من الأبواب المؤدية الى آسيا ، أصبح من المضمون كثيرا استيراد مواد منوعة الى الغرب · وهكذا كان الغربيون يحصلون فى تانا وفي الاسكندرية على منتجات الهند ، والهنـد الصـينية من التوابل كالفلفل ، والزنجبيل ، وجـوز الطيب ، والقرنفل وكانت هذه المنتجات (١٦٣) تصل اليهما (أى تانا والاسكندرية) بطريقين : فاما عن طريق كابول ، ومنها الى أورجانج Orgendj على نهر جيحون ، ثم بطريق البر من أورجانج الى تانا مارة باستراخان ، واما عن طريق فارس حتى استراباد ، ومنها الى استراخان بالمراكب ، ثم الى تانا بالقوافل · من جهة أخرى لم يكن ثمة ميناء فى موقع أفضل من موقع

---

(١٦٠) Nicéph. Grég., l.c.

(١٦١) Giov. Villani, IV, 55, éd. Dragon.

(١٦٢) Pégol., p. 5, 380. Sanuto (Vite dei dogi p. 855).
ـ ذكر « سانوتو » سفينة تبحر من تانا الى البندقية حاملة شحنة من الجلود والسمك المملح ·

(١٦٣) Pegol: p. 4, 146.

تانا ، يتيح له استقبال الحرير من ســـواحل بحـر قزوين ، وبالأخص جيـــلان مركز انتـــاج أجـود الأصـــناف • وبالاجمـــال فان تجـارة الغربيين مع فارس عن طريق بحـر قزوين واستراخان ، الذى افتتحـه الجنويون فى زمن ماركوبولو ، هذه التجارة اكتسبت دون شك دفعة جديدة منذ اليوم الذى استقر فيه الايطاليون فى تانا • ولكن تانا ، كما سنرى فى الفصل الخاص بوسط آسيا والصين كانت نقطة انطلاق طريق من أطول الطرق التى استخدمتها التجارة ، اذ يمر أولا باستراخان ، ثم يمتد محاذيا بحر قزوين من شـماله ، فيقطع أحواض أنهـار جيحون وسيحون Sihon ، فهـو يجتـاز ايلى Ili ، وخـارزم Kharezm (خوارزم؟) ، وتركستان ، جنفاريا Dzoungarie مارا بلورجانج ، وأوترار Otrar ، والمالق Almaligh ، وينتهى أخيرا فى الصين • وليس فى الامكان أن نحدد ، اللهم الا بوجه التقريب ، الزمن الذى بدأ فيه التجار الايطـــاليون ينضمون الى القوافل التى تستخدم هذا الطريق • وثمـة معـلومة ذات دلالة فى هـذا الخصـــوص : ذلك أن سانوتو الأكبر لم يذكر كلمـــة واحـــدة فى هـذا الشأن فى كتـــابه Secreta fidelium crucis الذى كتبه بين ١٣٠٦ و ١٣١٣ • ولما كانت الفكرة الأساسية فى كتابه هذا هى أنه مع التسليم بأن مصر هى مركز الاسلام ، فانه لم يكن عند المسيحية لمحاربتها وسيلة أنجح من استنزاف مصدر مواردها ، بالا تستسلم منتجات الهند عن طريقها • ولم يعرف ، التخلص من هذه التبعية سوى طريق واحد ينتهى الى البحر المتوسـط عن طريق آسيا الصغرى ، فلو كان يعرف طريقـــا آخـر لذكره بالتأكيد فى كتابه ، أو لعلنا نقر بأنه يعرف طريق تانا ، ومع ذلك أمسك عن ذكره لأنه كان فى عصره تحت سيطرة الجنويين ، لا البنادقة ، مواطنيه • فان كان الأمر كذلك ، فانه يدل على خساسة فى الخلق ، ننكرها ، خاصة وأننا نعلم أنه (أى سانوتو الأكبر) كان لسان حال المسيحية كلها وبيجولوتى هو أول غربى يصف هذا الطريق الذى يمتد من تانا الى بكين ، ويتصدر هـذا الوصف كتابه ، مما يدل على أن هذا الطريق كان فى عهده مطروقا بكثرة ، ويستخدمه التجار الايطاليون • ونلاحظ فضلا عن ذلك أن فترة اقامته فى الشرق تتوافق مع نشـأة المستعمرات الايطالية فى تانا • ومع أن بجولوتى فلورنسى ، فانه يمـكن التسـليم بأن أغلبية السـياح الذين يستخدمون هذا الطريق كانوا من الجنسية الجنوية أو البندقية ، فهو يعترف بأن هذين الشعبين يتمتعان فى تانا بمزايا خاصة • فبالنسبة للأنبذة والجلود لم يكونوا يدفعون سوى ضريبة قدرها ٤٪ ، فى حين يدفع غيرهم ٥٪ (١٦٤) • وكانت هاتان الأمتان ، على ما نعلم الوحيدتين

(١٦٤) Pegol., p. 5.

اللتين كان لكل منهما فى تانا حى خاص ، الأمر الذى يلائم تنظيم الرحلات التى تتطلب استعدادات كبيرة ، ويشكل ميزة على سائر الأمم التى لا تملك هناك مثل هذه المستودعات ، سوى سفنها الخاصة • واذ فقدت الأمتان تانا ، أمست هذه الرحلات مستحيلة ، ولكن لفترة ليست طويلة ، كما سنرى • ولكن ، قبل أن نتتبع مآل الأحداث التى شكلت النزاع الذى احتدم بين جانبى بك والغربيين ، يجب القاء نظرة على جنوبى تانا ، وجنوبها الشرقى ، لأن عددا من النقاط على الساحل بلغت فى السنوات الأولى من القرن الرابع عشر درجة كبيرة نسبيا من الأهمية فى التجارة الجنـــوية •

ويتتبع ساحل بحر أزوف على خرائط العصور الوسطى ، ابتداء من تانا فى اتجاه الجنوب ، نصادف أسماء ثلاث نواح لم يتسن للجغرافيين معرفتها عن طريــق بحارة غربيين ، وهى ثلاث مراسى كانـوا يترددون عليها ، ولا تشير الخرائط اليها بهذه الصفة ، ولكن ورد ذكرها فى كتاب بيجولوتى ، وهى : بالزيماتشى Balzimachi أو بالأحرى باسيناتشى Bacinachi (ربما كانت مستعمرة بتشينج القديمة pétchénègue) وهى حاليا Jeisk كما يفترض البعض وتار Tar ، وأخيرا Pesce بيس عند مصب نهر بيى ــ ســو Bei-Sou (١٦٥) نرى كيف تسنى لبيجولوتى ــ اللهم الا من أفواه البحارة والتجار ــ أن يذكر فى خصوص كل من هذه النقاط المسافة التى تستطيع السفن أن تقترب عندها من الأرض ، والمقاييس المستخدمة محليا ؟ ومع ذلك نسجل شيئا غريبا فاته أن يذكره : ذلك هو مكان آخر جنوبى الأماكن السابق ذكرها ، موضح على الخرائط باسم قوبة Copa • وعلى أية حال فهذا اسم مدينة واقعة على نهر قوبان ، وغالبا على الفرع الشمالى لدلتا النهر عند مصبه (بروتوك Protok أو قره قوبان Kara-kouban اما فى الموضع الذى يصب عنده فى البحر ، واما أعلا منه كما يبدو على الخريطة القطالونية ، فى النقطة

---

(١٦٥) Pegol., p. 39 et s.

ولن اتحدث عن الميناء الرابع وهو سان جورجيو S. Giorgio لأن بيجولوتى نفسه قال عنه انه لا يمكن الاقتراب منه • وبخصوص هذه الأماكن انظر :

— Lewel, Portulan, p. 13, les éditeuss de l'Atlante Luxoro dans les Atti della Soc. lig., V, 129, 258, et Bruun, Colon. ital. en Gazarie, p. 16.

– يبدو أن الجنويين كان لهم مصائد أسماك فى بيس Pesce لأن الحملة التى نظمها حزب الجولفيين ضد حزب الجبليين بقيادة جريمالدى ، والتى سبق الكلام عنها مضت الى تانا «بيسيوم» •

"usque Tannam et Piscium"

التي ينفصل عندها هذا الفرع الرئيسي حيث يوجد حاليا الحصن الصغير المسمى كوبل Kopil (١٦٦) • ولابد أن سفنا تجارية كانت تأتي قبل زمن بيجولوتي لتتزود بشحنات من السمك المملح تحملها الى القسطنطينية • والواقع أنه في عام ١٣٢٨ ، كما سبق آن رأينا ، اعتزمت البندقية أن تأخذ بثأرها من مختلف أعمال القرصنة التي اقترفها الجنويون ، فراح الأميرال جستنيانو جسنياني يضرب الحصار أمام « غلطة » ، وفي الوقت نفسه راحت كوكبة من أسطوله تجول في البسفور لكي تأسر في طريقها كل السفن الجنوية القادمة من البحر الأسود ، ومنها سفن تحمل شحنات من السمك المملح ، آتيـة بهـا من سواحل بحر أزوف عند مصب نهر قوبان ، ودلتا نهر دن (١٦٧) • فاذا كان لابد لنا من تقديم براهين أخرى، فلسنا نجد ما هو أفضل من فقرة كتبها السيد ديزيموني Desimoni ينبئنا فيها هذا الكاتب القدير أن كافيار قوبا قد ورد ذكره كثيرا في الوثائق الجنوية الأصل (١٦٨) ، وأن الجنويين أنشأوا قنصلية في هذه المدينة ، وسوف نتكلم فيما بعد عن هذه القنصلية •

ولنواصل استعراض السـاحل ، ونترك مؤقتـا الحديث عن شبه جزيرة تامان Taman ، ونذكر فقط بهذه المناسبة أن ماتريجا Matréga القديمة لم تزل موجودة ، وسوف نلتقي بها فيما بعد ، حين أصبحت مقرا لقنصل جنوا • وتبين خرائط العصور الوسطى أن ايطاليي هذا العصر كانوا يعرفون سواحل القوقاز وكولخيد Colchide بأدق تفاصيلها ، وتوضح بكثرة في هذا البقاع أسماء الأماكن ، ومجاري المياه ، والرؤوس ، والخلجان • وقائمة هذه الأسماء طويلة ، ليس في وسعنا أن نوردها هنا ، ومن ثم نكتفي بذكر اسم كافو بوكسو Cavo Buxo وهي ناحية بجـوار بتسـوندا Pitsunda ، لأنهـا تذكرنا بمزارع البقس الكبيرة (البقس شجر خشبه صلب ، يعمل منه بعض الأدوات — المترجم) التي كان خشبها ولم يزل موضوعا لحركة تجارية كبيرة على البحر الأسود (١٦٩) •

---

(١٦٦) Lelewel, l.c., p. 14 ; Atti, l.c. p. 129, 259 ; Bruun, l.c., p. 6; Dubois de Montpéreux, Voy. autour du Caucase, V, 16.

(١٦٧) Nicéph. Grég, I, 417; Boivin, commentaire de ce passage de Nicéph. II, 1237, et Sauli, Galata, I, 235; Canale, Nuova istoria di Genova II 217; Kahler, dans les Mém. de l'Acad. de St Pétersbourg, 6e série, I, 379 et note 388; MM. Desimoni, Belgrano (Atti, l.c., p. 129, 259) et Bruun (l.c. p. 6).

(١٦٨) Atti l.c. p. 259.

(١٦٩) Lelewel, l.c., p. 14; Atti, l.c. p. 263; Yule, Polo, I, 54; Dubois de montp., I. 269, 271 et s.; Hehn Culturpflanzen, 3e éd. p. 203.

وعلى مسافة ليست ببعيدة من ايف II في خليج سوخوم ـ كاليه Soukhoum-Kalé تقـوم مديـنـة آقيـسار (١٧٠) (Sebastopolis) التى لم تزل ذات أهمية وقتئذ ، وكانت فيما مضى مزدهرة تحت حكم جستنيان ، ثم صارت فيما بعد مدينة حصينة من الدرجة الأولى في عهد السيادة البيزنطية (١٧١) ، وأصبحت فى الحقبة التى ندرسها مقرا لأمير جورجى (١٧٢) • ولم يزل هناك فى بداية القرن الرابع عشر ، وسط اليونانيين المنشقين ، والمسلمين ، واليهود ، ورغم الاضـطهادات جالية صغيرة من الروم الكاثوليك • وفى عام ١٣٣٠ عن لها البابا أسقفا انجليزيا اسمه بتروس جيرالدس Petrus Geraldus ، عاش فى حالة قريبة من البؤس ، لا نفوذ له على وجه التقريب ، وكان يشكو بمرارة اذ يشهد أمام عينيه مسيحيين يباعون للمسلمين بيع العبيد ، ولا يستطيع أن يضع حدا لهذه التجارة (١٧٣) • ولعل من المهم أن نعرف ما اذا كان « اللاتينيون » كلهم الذين يشكلون رعيته من الجورجيين المتحدين ، كما قد يفهم من الخطاب المبين أدناه ، أو كان بينهم بعض الغربيين • وكان هناك بعد ذلك قنصل جنوى ، يدعى امبروجيو دى بييترو Ambrogio di Pietro (١٣٥٤) • وربما يرجع انشاء هذه القنصلية الى عهد الأسقف بتروس جيرالدس ، وسوف تتاح لنا العودة الى هذا الموضوع •

كان النزاع القائم مع جانى بك خان عائقا فى سبيل الأمم التجارية ، ولكنه كان بنوع خاص ثقيل الوطأة على البنادقة ، يشعرهم بالندم لأن أحد مواطنيهم هو الذى كان السبب فى وقوع هذا النزاع ، واستفاد آخرون من أعمال السلب والنهب التى حدثت فى تانا ، فأثروا على حساب التتار ، وآخرون غادروا البلد دون أن يوفوا بالتزاماتهم • ومنذ ٣٠ من أكتوبر عام ١٣٤٣ ، أى بعد وقوع الكارثة ببضعة شهور ، انهمك مجلس الشيوخ فى اعداد تعليمات لبعثة كان فى العزم ايفادها الى الخان ، لتثبت لهذا الأمير أن لرعاياه بالاجمال نصيبا فى المسئولية الاجرامية لأنهم لجأوا على الفور لأعمال العنف بدلا من تقديم شكاواهم لسلطات البنـدقية ،

---

(١٧٠) Neumann (Die Hellenen im Scythenlanr, I, 577) et Hommaire de Hell (les Steppes de la mer Caspienne, III, 115 et s. not.) ; Dubois de Montpéreux (Voy. I, 306 et ss.); L'Atlante Luxoro (l.c., p. 263 et s);

Gott gel. Anz., 1878, p. 939.

(١٧١) Procop., I, 289 ; II, 473 et s. ; III, 261.

(١٧٢) Brosset, Hist. de la Géorgie, 2e part, trad. I, 245-247.

(١٧٣) Raynald, Ann. eccl., ad. an. 1330, no. 57; Kunstmann, Sanudo der Altere, p. 121-123.

وأنه من الأفضل للطرفين أن يتناسيا الماضي ، وأن يشمل الأمير بعطفه ورعايته التجار البنادقة (١٧٤) • وبعد بضعة أيام (في ٣ من نوفمبر) استقر العزم على أنه من الفطنة ، قبل رحيل السفارة ايفاد مراسلين الى تانا وبلاط جاني بك لاستطلاع الأحوال ، على أن يستخدما الطريق البرى المار بلمبرج Lemberg (١٧٥) ، ويحاولا الحصول من الخان على جواز مرور للسفارة (١٧٦) ، وكذلك جمع المعلومات عن مصير التجار الباقين بالبلد ، وكان معروفا أنهم في السجن • والى أن يتم ذلك ، حظر على كل الرعايا البنادقة الدخول في امبراطورية القفجاق ، أو أن يرسلوا اليها بضائع ما : وكانت كافا مشمولة في هذا الحظر (١٧٧) • وطوال فصل الشتاء لم تصل البتة أية أنباء ، وتأجل سفر البعثة (السفارة) يوما بعد يوم • وأخيرا ، في أواخر شهر أبريل عام ١٣٤٤ ، عاد المراسلان : لقد قابلا جاني بك ، وزوجته ، ومعاونيه ، وأعطياهم خطابات السلطة البندقية • ومن حيث الأنباء ، قالا ان التجار الباقين في القفجاق ما زالوا على قيد الحياة ، وأنه في الامكان اجراء تسوية ودية ، وأكدا ، اثباتا لذلك أن هناك تجارا بنادقة يمارسون التجارة في البلد في حرية مطلقة ، كما كانوا يفعلون في الماضي • وكانت هذه هي اللحظة المناسبة لسفر البعثة ، واختير لمهمتها ماركو روتزيني Marco Ruzzini ، وجيوفاني ستينو Giovani Steno ، وكان عليهما أن يحملا هدايا قيمتها ٢٥٠٠ دوكا يقدمانها الى جاني بك ، وأن يطلبا قبل كل شيء اطلاق سراح المسجونين ، ويطالبا بتعويضات لصالح الرعايا البنادقة الذين وضعت أموالهم تحت الحراسة (١٧٨) • ولتمهيد الطرق أمامهم ، صدر الأمر بنفى اندريولو تشيفرانو ، السبب الأول لوقوع النزاع ، من البندقية واقليمها لمدة خمس سنوات ، وحظر عليه مدى الحياة أن يدخل البلاد المشرفة على البحر الأسود (١٧٩) •

وعلم أن جنوا تتأهب هي أيضا لايفاد سفارة الى جانيبك • وفي هذه الأثناء وصلت رسالة من سيمون بوكانجرا Simone Boccanegra دوج

---

(١٧٤) Canale, Crimea, II, 454-457.

(١٧٥) La Carte catalane, p. 119.

(١٧٦) Taf. et Thom., IV, 266.

(١٧٧) Arrêté du 21 févr. 1344, dans Canale, l.c., p. 457 et s.

(١٧٨) Taf. et Thom., IV, 321 et ss. : et en partie dans Canale,I I, 457 et ss.

(١٧٩) Canale, II, 458 (1 juill. 1344).

جنوا يقترح فيها سلوكا موحدا مشتركا فى هذه الظروف (١٨٠) ، فقبل مجلس الشيوخ هذا الاقتراح (فى ٩ من يونية) • وبناء على ذلك وضع مندوبون من قبل الجمهوريتين (فى ١٨ من يونية) البرنامج التالى (١٨١) :
أن ينزل سفراء البندقية برا فى كافا حيث يقابلون سفراء جنوا ، ويسافر جانى بك الفريقان معا الى بلاط جانى بك ، ويعرضون عليه طلباتهم ، ويقدمون له هداياهم • فاذا رد الخان على طلباتهم الخاصة بالتعويضات بطلبات مضادة ، فعلى سفراء الدولتين أن يعلنوا استعدادهم لدفع تعويضات عن الأشياء التى سلبها أشخاص من رعايا البندقية أو جنوا اذا ثبتت صحة المطالبة • واذا طلب الخان أو معاونوه من الجنويين التخلى عن حياتهم لمدينة كافا ، فعلى سفراء البندقية أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لكى يتنازل الخان عن هذا الطلب ، فان أصر الخان ، فلابد من قطع المفاوضات ، وعودة البنادقة والجنويين الى بلادهم • ويتبع أعضاء الفريقين هذا السلوك اذا ما فرض على البنادقة شروط لا يمكن قبولها • واذا أبدى جانى بك تصميمه على رفض شروط السفراء ، وتمسك بشروطه هو ، فعلى السفراء أن يغادروا بلاطه ويعودوا الى كافا • ودعما للعمل المشترك الذى اعتزمت الدولتان القيام به ضد الخان ، فانهما عقدتا حلفا لسنة واحدة ، وأدرجتا فى المعاهدة بندا ينص على أنه طالما بقى الاتحاد بينهما ولم ينقطع ، فعلى كل منهما أن تمتنع عن أى عمل تجارى مع امبراطورية القفجاق •

وبعد أن تزود روتزينى وستينو بهذه التعليمات ، توجها الى كافا حيث قابلا زملاءهما الجنويين الأربعة ، وقضيا هناك شهر أغسطس ، وأعلنا عن حظر التجارة مع التتار ، ولكنهما لم ينجحا فى تطبيق هذا الاجراء تطبيقا حرفيا صارما • ومضيا شوطا أبعد فى مطالبهما اذ أرادا وقف كل الأعمال التجارية فى كافا نفسها بدعوى أن هذه المدينة جزء من أمبراطورية القفجاق • وقد بعثا برسالة اشتكيا فيها من استمرار سكان كافا فى عقد صفقات تجارية مع موانى امبراطورية التتار • وبناء على تقريرهما وجهت البندقية الى جنوا احتجاجا على مخالفتها المعاهدة (١٨٢) ، ومن ثم أرسل

---

(١٨٠) Taf. et Thom., IV, 278 et s.

(١٨١) Ibid. IV, 279 et ss.

هذا البرنامج مطابق تماما للمقترحات التى قدمها المبعوثين الجنويون (١١ يونية) •

Ibid. IV, 327 et ss.

(١٨٢) تعليمات مسلمة لموثق عقود عند سفره الى جنوا فى ٢٠ من نوفمبر ١٣٤٤ •
Taf. et Thom., IV, 329 et ss.; Canale, III, 459 et s.

جيوفانى مورتا ، دوج البندقية الى سلطات كافا أمرا بوقف كل تجارة مع القفجاق (١٨٣) •

وكان المعتقد أن هذا الحظر سوف يجعل التتار وخانهم أكثر مرونة ، ولكن الحقيقة أن الأمر لم يكن سهلا بهذه الدرجة • ووجد سفراء الدولتين أنفسهم مهددين بالبقاء فى كافا الى مالا نهاية بلا عمل ، ودون أن يعرفوا متى يمكنهم التفاهم مع جانى بك • بل انهم فوجئوا مفاجأة غير سارة حين شهدوا وصول جيش تتارى ، قدم لثانى مرة وضرب الحصار تحت أسوار المدينة (١٨٤) • ولما كانت كافا مركزا لبعثات دينية تنتشر فى جميع الأنحاء ، فان هذه المستعمرة كانت ذات أهمية كبيرة فى عين البابا ، ومن ثم بذل البابا كليمنت السادس قصارى جهده ليرسل نجدات اليها • فى هذا الخصوص (١٨٥) •

ففى الرسالة الأولى عهد بكافا الى همبرت Humbert ، ولى عهد فيينا ، فحمل هذا الصليب وشن حملة ضد الأتراك فى الأرخبيل • وفى الرسالة الثانية ناشد الجنويين أن يهبوا لنجدة المدينة المحاصرة ، بعزيمة قوية ، ووعد بالغفران كل الذين ينطلقون للدفاع عنها ، أسوة بالمقاتلين الصليبيين • ولم يكن الجنويون فى حاجة الى كل هذا التشجيع : فقد كان يهمهم كثيرا الحفاظ على مستعمرتهم (١٨٦) • وفى هذه الآونه ، كانت

---

(١٨٣) Taf. et Thom., IV, 332 et s.
جلسة مجلس الشيوخ فى ٧ من فبراير ١٣٤٥ :
رد مورتا Murta فى ١٩ من فبراير ١٣٤٥ :
Taf. et Thom., IV, 288 ; Marin VI, 86; Romanin, III, 153.

(١٨٤) تلقت البندقية النبأ فى ١٩ من يولية ١٣٤٥ برسالة من السفراء فى كافا :
--- Taf et Thom. IV, 334. Cantacuzène (III, 192) :
– يقول كانتاكيوزين أيضا أن جانى بك ضرب الحصار مرتين أمام كافا •

(١٨٥) Raynald ad. an. 1345, no. 7.

(١٨٦) Cantacuz., III, 192; Nicéph. Grég., II, 686.
– أبحرت سفينة حربية جنوية محملة بالأسلحة متجهة الى كافا فى شتاء ١٣٤٣–١٣٤٤ :
— Document vénitien du 15 mars 1344 (Taf. et Thom., IV, 321).
– من ابراج كافا التى لم تزل موجودة من ناحية البر ، برج شيد باعانات مالية قدمها البابا كليمنت السادس ، يشهد بذلك كتابة محفوظة فى متحف فيودسيا : وكان المعتقد فيما مضى أن فى هذه الكتابة قد اثبت عام ١٣٠٨ وقرأ فيها جورجفتس عام ١٣٤٦ :
(Dubois de Montp., Atl., 2e série pl. 43)
(Jurgiewicz, Odesse. Sap., V, 160 et ss.)
ولكن كشف فيها حديثا السيد ريموندينى رقم ١٣٤٨ ، ويبدو أنه الرقم الصحيح :
-- M. Remondini (Giorn. ligust., II, 39).
ويدل هذا على أن البرج المشار اليه لم يتم بناؤه الا بعد زوال الخطر •

هناك حملة بقيادة سيمون فينوزى Simone مبحرة ومسلحة لحماية مستعمرات بنطس ، ولسوء الحظ استخدمت قواتها لغزو خيوس . ولم تصل الى البحر الأسود . أما همبرت ، ولى العهد ، فانه لم ينجح فى أن يشق لنفسه طريقا الى هنا . ومع ذلك لم تكن المستعمرة فى حاجة الى مدافعين عنها ، « من حيث العدد أو الكفاءة ، ومن ثم أخفقت حملة جانى بك مرة أخرى ، واضطر أن يرفع الحصار ، وألا يفكر فى العودة (١٣٤٦) ، مع أنه استخدم كل الوسائل لتحقيق غرضه . وفى هذا الوقت انتشر الطاعون فى الشرق كله ، وفتك بالناس فتكا ذريعا ، وانقض على الفرق المعسكرة أمام كافا ، وراح ضحيته الألوف من الجند . وأراد التتار أن ينقلوا عدوى الوباء الى أهالى المدينة المحاصرة بأمل حملهم على التسليم بعد طول المعاناة من الوباء ، فراحوا يلقون جثث الموتى منهم داخل المدينة من فوق أسوارها مستخدمين لذلك آلاتهم الحربية . أما السكان فانهم جعلوا يتلقون الجثث ويلقونها فى البحر . ومع ذلك انتشر الوباء فى المدينة ، الا أن المدافعين عنها لم يستسلموا ، كما رأينا . وحملت السفن التى غادرت الميناء الوباء ، ونشرته فى صقلية ، وتسكانيا ، وجنوا ، وراجوزه ، وسبليت ، والبندقية . وكان هذا هو منشأ الطاعون الأسود الذى فتك بنصف أوروبا ، وهو من الآثار المشئومة للعلاقات الجارية بين الشرق والغرب (١٨٧) .

وفى هذه الأثناء جددت الجمهوريتان حلفهما فى ٢٢ من يولية عام ١٣٤٥ ، وكان تأكيد الحظر ضد امبراطورية التتار هو أساس هذا الحلف . وتجدد الحظر المفروض على كل سفن جنوا أو البندقية بالرسو فى ميناء تانا أو فى أى موقع من امبراطورية التتار ، أو بوجه عام الاتجاه شرقى كافا . ودعا دوج جنوا البنادقة الى أن ينشئوا فى كافا مستعمرة تجارية ،

---

(١٨٧) استقيت هذه المعلومات من رواية دى موسى Gabriel dé Mussi موثق عقود بلزانس Plaisance ، وقد شهد أول غزوة للطاعون فى شمال ايطاليا . ويقول الأستاذ هنشل Henscel الذى كان أول من نشر هذه الرواية ان جبريل دى موسى كان موجودا بشخصه فى حصار كافا ، ثم عاد بالتالى الى وطنه على متن سفينة موبوءة وبذلك أسهم من جانبه فى نشر الوباء الرهيب . أما السيد تونونى M. Tononi الذى أعاد طبع الرواية : (Giorn. ligust., 11e année, 1884, p. 139 et ss.) فانه أثبت بوثائق مسجلة أن « دى موشى » لم يغادر بليزانس فى ذلك الأوان ؛ وكل ما يعرفه عن منطقة بنطس

نقله من روايات كتبها آخرون : فمن ذلك انه يحكى أن التتار « حاصروا » تانا قبل كافا وهذا خطأ لم يكن ليقع فيه لو كان موجودا بنفسه فى ذلك البلد . وثمة معلومة أخرى تكشف عنه وتدل على أنه لم يكن فى هذا الخصوص شاهد عيان : ذلك أنه يتحدث عن حصار واحد مدته ثلاث سنوات بدلا من أن يقول ان كافا كابدت حصارين فى ثلاث سنوات .

ويعينوا بها « بايلا » أو قنصلا ، وكفل لهم الحرية المطلقة فى المتاجرة والتنقل ، والاعفاء من كل الضرائب والرسوم ، حتى بعد انقضاء مدة معاهدة التحالف ، وايجارات معتدلـة للمنازل والحـوانيت التى يحتاجـون اليها (١٨٨) • ونلاحظ أن جمهورية جنوا عملت جاهدة على التصدى للظروف السيئة التى مرت بها ، فركزت فى مستعمرتها بكـافا الحياة التجارية فى القسم الشمالى من بنطس (١٨٩) • أما البنادقة ، فلم يكونوا راغبين كثيرا فى الذهاب والاقامة كضيوف فى مستعمرة منافسة لهم ، ولابد أن ثقتهم فى دوام التفاهم الودى مع سكان كافا كانت ضعيفة ، وتجنبا لاحتمـال حدوث احتكاكات ، حظر على ربابنة السفن الحربية البندقية انزال رجالهم الى البر (١٩٠) • ومع ذلك ، ولما كان الاتصال بجانى بك ولم يزل أمرا عسيرا ، وكان الأمل فى العودة الى تانا قد أمسى مشكلة عويصة، فقد قبلوا (أى البنادقة) الاقتراح الذى عرض عليهم •

ولما يئس روتزينى ، وستينو من الوصول الى تسوية مع الخان ، عادا على ما يبدو الى وطنهما منذ زمن طويل (١٩١) ، وفى شهر يونية عام ١٣٤٧ ذاع فى البندقية أن جنوا عقدت صلحا مع جانى بك (١٩٢) • وللحال اتخـذت البنـدقية أهبتهـا لايفـاد بعثـة ، وفى عزمهـا الا تسمح لمنافسيها أن يحلوا محل مواطنيها فى سوق تانا ، وأن تحصل ، ان أمكن ذلك على محطة تجارية تستغلها هى وحدها ، وتكون هذه السوق فوسبورو (بسفور القرم) أو أى ميناء آخر فى أمبراطورية القفجاق (١٩٣)• وكلف الوفد بأن يهنىء فى طريقـه الأمبراطـور يوحنا كانتـا كوزين Jean Cantacuzène الذى ارتقى لتوه عرش القسطنطينية (١٩٤) •

---

(١٨٨) Taf. et Thom., IV, 300-305; IV, 333 et s.

(١٨٩) Cantacuz., III, 192

(١٩٠) Canale, II, 460.

(١٩١) تقرر استدعاؤهم فى جلسة لمجلس الشيوخ فى ١٤ من نوفمبر ١٣٤٥ ، لربيع عام ١٣٤٦ ، اللهم الا اذا وقع فى هذا الاثناء أحداث تبشر بالأمل فى نتيجة طيبة :
Taf. et Hom, IV, 334 et s.

(١٩٢) الحوليات الجنوية صامتة فى هذا الخصوص •

(١٩٣) Arrêté du Sénat, du 10 juin 1347 : Taf. et Thom., IV, 336 et ss. ; Canale, II, 460 et s.

ـ وفى ٢٤ من ابريل ١٣٤٧ رفع مجلس الشيوخ جزئيا الحظر المفروض على التجارة ، وذلك بالتصريح لبعض البنادقة باستيراد قمح من اقليم جانى بك ، والباعث على اصدار هذا القرار هو القحط الذى عم البندقية انظر :
(Taf. et Thom; IV, 336)

(١٩٤) 14 juill, 1347 : Taf. et Thom., IV, 310.

ولما أذن للسفراء بالمثول فى حضرة جانى بك ، أتيحت لهم الفرصة للحديث عن العقاب الموقع على تشيفرانو Civrano ، وأثمر هذا الحديث عن الغرض المطلوب ، ووعد الخان بأنه سوف يمتنع مستقبلا عن تحميل أول بندقى يظهر مسـئولية جـرم اقترفه بنـدقى آخـر ، وأصـدر الى سيشى به Sichi-bey (١٩٥) الذى كان وقتئذ حاكما على تانا ، والى موظف الجمرك أكوزا Acoza أمرا بأن يخصص للبنادقة حيا طوله مائة خطوة ، وعرضه ستون ، مجاورا لنهر دن من أحد جوانبه ، ورفعت الضريبة من ذلك الحين الى ٥٪ بدلا من السـعر القديم وهو ٣٪ . وفيما عدا هذا الاستثناء : أعيدت كل التفاصيل التى تنظم تجارة البنادقة فى هذا الموقع الى ما كانت عليه قبلا . ولا يوجد فى «الدبلوم» الذى استقينا منه كل المعلومات السابقة أية اشارة الى التنازل عن مرفأ آخر (١٩٦) .

وهكذا فمنذ أواخر عام ١٣٤٧ صار فى وسع البنادقة أن يدخلوا ثانية فى أمبراطورية القفجاق (١٩٧) . ولكنهم لم يعملوا حسابا لمضيفهم : ذلك أنهم كانوا قد تعهدوا بألا تمضى سفنهم الى أبعد من تانا ، والا تتجاوز كافا بوجه عام ، وكان فى عزم الجنويين أن يجبروهم ، ولو بالقوة على الوفاء بتعهدهم هذا ، ومن ثم قبضوا على سفن البندقية التى تعدت الحدود المفروضة ، وصادروا شحنتها (١٩٨) . وتحت تأثير الثقة المتعجرفة التى أشاعتها فى نفوس الجنويين البدايات الباهرة للنظام الديموقراطى الذى

(١٩٥) كان ولم يزل حاكما على تانا فى عام ١٣٤٩ ، وكان كذلك منذ عام ١٣٤٢ :
Comm., II, p. 177, no 310 ; Taf. et Thom., IV, 262.

(١٩٦) نشر هذا الدبلوم فى :

Hammer, Gesch der goldenen Horde, p. 517-519;
Canal, Crimea, II, 469-471; Mas Latrie, dans la Biblioth. de l'Ecole des Chartes, 7e série, IV, 587-589; Taf. et Thom., IV, 311 et ss.

— والدبلوم مؤرخ من جوليستان Gulistan ، وهى ناحية مجاورة لسراى ، وبها قصر خاص بنزهة الخانات ، وتذكر كثيرا باعتبارها مركزا لصك النقود . ويتكرر التاريخ بثلاثة اشكال متطابقة ، تبعا للتاريخ الميلادى (١٣٤٧) ، والعربى ــ الهجرى (٧٤٨) ، والتتارى (عام الخنزير) ؛ وهناك خطأ فى مقابلة الشهور بعضها ببعض : فيوم ٢٢ من رمضان يقابل ٢٦ من ديسمبر ، لا شهر فبراير ، كما ذكر . وقد ذكرت معاهدة الصلح هذه ايضا فى :

Dandolo, p. 418 ; Sanuto, p. 611, 618; Matteo Villani J, 100.

(١٩٧) تقرر تعيين قنصل جديد لتانا فى اجتماع المجلس فى شهر يناير ١٣٤٨ :
Taf. et Thom., IV, 340 et s.

(١٩٨) Taf. et Thom., IV, 340 ; Raynald, ad. an. 1347, no 22; Cantacuz, III, 193; Chron. Estense, dans Murat., XV, 459 et s.; Romanin, III, 158.

أنشأه مجموعة من الدوجات المبرزين ، ونجاحهم فى خيوس ، وسيطرتهم التامة على « غلطة » ، دفعوا بأطماعهم الى مدى أبعد ، ونزعت جهودهم من ذلك الحين الى طرد البنادقة كلهم من البحر الأسود ، والاحتفاظ لأنفسهم بالحق المطلق فى استغلال هذه المنطقة (١٩٩) • ومن أجل هذا استولوا فى البسفور على مضيق هيرون Hiéron حيث كان فى قديم الزمان معبر يحمل هذا الاسم ، نسبت الأسطورة بناءه الى الأرجونوت Argonantes (٢٠٠) (**المقامرين الاغريق القدامى ـ المترجم**) ، ويشكل هذا الموقع عند البسفور الذى يتسع بعد خروجه من البحر الأسود ، أول اختناق له • ومن المرتفعات المشرفة على المضيق يكون المرء فى وضع ممتاز يستطيع منه ايقاف السفن المارة ، ومنعها من مواصلة طريقها • وفى وقتنا الحاضر ، نرى هناك حصنين تركيين ، أحدهما تجاه الآخر ، ويسمى الحصن الواقع فى الجانب الآسيوى أناضولى قواق Anadoli Kawak ، أما الواقع فى الجانب الأوروبى فاسمه روميلى قواق Roumili Kawak (٢٠١) • وفى ذلك الحين كان هناك قلعتان فوق الموضع الذى يشغله الحصنان الحاليان ، والقلعتان كلتاهما موضحتان على خرائط ذلك العصر باسم جيرو Giro (٢٠٢) ، ولكن كلافيجو Clavigo يميز أحدهما عن الآخر ، فيسمى Guirol de la Grecia والثانية Guirol de la Turquia (جيرول اليونانى ، وجيرول التركى) ، وليس من العسير أن نجد فى هذا التحول اسم هيرون القديم • ويحكى كلافيجو أنه فى ذلك العصر ، حين كانت ضفتا البسفور تتبعان الأمبراطورية اليونانية ، كان المضيق مسدودا بسلسلة ممتدة من ضفة الى الأخرى ، ويحملها فى الوسط برج قائم على قاع البحر ، ولا يصرح للسفن بمواصلة سيرها الا بعد أن تدفع الضريبة (٢٠٣) • ولم يبق من هاتين القلعتين سوى أطلال ، وقد زعم البعض أن الجنويين هم الذين شيدوهما ، ولكنه زعم مشكوك فى صحته • وعلى بقايا القلعة التى

---

(١٩٩) Dandolo, p. 420 ; Sanuto, p. 621; Navagero, p. 1034.

(٢٠٠) Müller Georgraphi graeci minores, II; 75 et s.

(٢٠١) Cf. Hammer, Constantinopel und der Bosporus, II, 262 et ss., 280 et ss. ; Dethier, Der Bosphor und Constantinopel (wien 1873), p. 73, 76.

(٢٠٢) Lelewel, Portulan, p. 15 ; Thomas, Periplus des Pontus Euxinus, p. 257, 274; Atlante Luxoro, p. 135, 263 et s.

(٢٠٣) Clavijo, p. 73.

لم تزل تشاهد على الضفة الأسيوية ، كتابة (٢٠٤) تفيدان فينتشترو لبركارى Vincenzo Lercari الجنوى رممها (فى ٠٠٠ ؟ والتاريخ هنا غير واضح) ، الا أن بروييش فون اوستن Prokesch von Osten آكد أن هذه المبانى تنتمى « الى الطراز البيزنطى » (٢٠٥) ٠

ويمكن على أية حال التسليم بأن الجنويين وجدوا هناك مكتبا للجمارك يحميه مبنى حصين ٠ ومهما كان الأمر فانهم استولوا على المكتب فى عام ١٣٤٨ رغما عن السلطات الامبراطورية ، وأقاموا هناك محطة بحرية دائمة ، فكان على جميع السفن المارة بالبسفور فى كلا الاتجاهين أن تدفع رسم مرور ، أما السفن اليونانية والبندقية التى تتجه الى موانى سواحل بنطس الشمالية فلا يمكنها أن تواصل مسيرتها الا بتصريح خاص (٢٠٦) ٠

ولم يكن فى وسع البنادقة أن يسمحوا لمنافسيهم بعرقلة حريتهم فى مزاولة التجارة على هذا الوجه (٢٠٧) ، ومن ثم لجأوا الى السلاح ، واستشاطوا غيظا ، فلم يكن لهم من حديث سوى القتال حتى الموت ، وأعلنوا على رؤوس الأشهاد عزمهم على ابادة الجالية الجنوية فى « غلطة » ، وطرد الجنويين من البحر الأسود (٢٠٨) ٠ وقد جنبوا الى صفهم الأمبراطور كانتا كوزين ٠ ومع ذلك ، فبعد انقضاء وقت قصير على معركة البسفور (فبراير ١٣٥٢) ، وهى أهم موقعة فى هذه الحرب ، عقد الجنويون صلحا منفردا مع الأمبراطور (٦ من مايو) ، وأدرجوا فى المعاهدة شرطا يقضى فى التجارة (٢١٠) ٠ وهكذا تخلت جنوا عن مشروعها الخاص بتدمير عام الا فى الأوقات التى تذهب فيها الى هناك السفن الجنوية ، وأضيف تحفظ بأنه يجوز للأمبراطور ، ان رأى ضرورة لذلك أن يبعث وفدا الى

---

(٢٠٤) Sauli. Colonia di Galata, II, 42; Serra, Storia dell antica Liguria e di Genova, III, 179.

(٢٠٥) Denkwürdigheiten und Erinnerungen aus dem Orient, III, 232 et s.

(٢٠٦) Nicéph Grég., II, 844, 877.

نقول هذه الفقرة أن الجنويين أقاموا مكتبهم الخاص بالتحصيل فى الموضع الذى كان فيه فيما مضى معبد سيرابيس Sérapis ؛ ذلك هو روميلى قواق ٠

(٢٠٧) Dandolo, p. 420.

(٢٠٨) اتفاقية بين كونتاكوزين والبندقية ، عام ١٣٥١ ٠ انظر :
Taf. et Thom., inéd.

جنوا الحصـــول من الـــدوج على تصريح للبحرية اليونانية بحـــرية الملاحة (٢٠٩) .

وبعد ثلاث سنوات عقدت جنوا والبندقية صلحا (أول يونية ١٣٥٥). والعجيب أن جنوا اضطرت من أجل الحصول على هذا الصلح أن تخفف من مطالبها وادعاءاتها السابقة . وتعهدت الدولتان معا بالا ترسلا سفنا تجارية الى تانا لثلاث سنوات ، وتستردا ، بعد انقضاء هذه المدة حريتهما (فى التجارة) (٢١٠) . وهكذا تخلت جنوا عن مشروعها الخاص بتدمير هذه السوق تدميرا تاما (٢١١) ، وأن تجعل كافا المركز الوحيد لتجارة القفجاق ، واستردت البندقية حقها فى مزاولة تجارتها مع تانا اعتبارا من عام ١٣٥٨ . ونفذت هذه المعاهدة بالتأكيد على وجه الدقة ، فنرى فى عام ١٣٥٨ سفيرين ، هما جيوفانى كويرينو Giov. Quirino وفرانشسكو بونو Francesco Buono يسافران من البندقية ليطلبا من خان القفجاق الجديد بردى بك Berdibeg تجديد الامتيازات القديمة . ورحب بردى بك بطلبهما ، وأصـــدر فى شبـــهر سبتمبر (٢١٢) ، من مقره على آقتوبة l'Aktouba ، أى دون شك من سراى (٢١٣) دبلوما يصدق فيه على المعـــاهدات السابقة (٢١٤) ، والمادة الجـديدة الوحيـدة فى الدبلوما تختص بالسلطة المفوضة لحاكم تانا ، طولو بيه Tolobcy (أو بالأصح طغلوا بك Toghloubeg) (٢١٥) فى أن يفرض على كل سفينة من البندقية عند وصولها رسما قدره ثلاثة ساؤم Saoum (حوالى خمسة عشر ريالا ذهبيا) ، بالاضافة الى الرسوم الجمركية العادية .

---

(٢٠٩) Lib. jur., II, 603.

(٢١٠) Lib. jur., II, 620; cf. Dandolo, p. 426; Sanut, p. 639.

(٢١١) Mon. hist. patr., X (Cod. dipl. Sard., I), p. 757 (Charte sans date, entre 1352 et 1355).

(٢١٢) Hammer, Goldene Harde, p. 519 et ss. ; Canale, Crimea, II, 471-473 ; Mas Latrie, dans la Biblioth de l'Ecole des chartes, 7e série, IV, p. 593 et s. ; Marin. VI, 141, not.

(٢١٣) اذا سلمنا دون مناقشة مسبقة مع السيدين ماس لاترى ، وهامر ان التاريخ المعروف هو ٨ من شوال (وبقى أن نتساءل عما اذا كانا فى ذلك صادقين) فان هذا التاريخ يقابل ١٣ من سبتمبر بالتاريخ الميلادى . وفى كل الطبعات ، يعطى عنوان الدبلوم شهر سبتمبر فقط mensis septembris . ونقرأ فى نسخة السيد توماس : ٢٤ سبتمبر ، وكذا فى : regesti des Commem., II, 287, no 69. وفى هذه الاحوال لم اجرؤ على تحديد تاريخ ، اكثر من مجرد ذكر الشهر .

L'Aktouba :

(٢١٤) اقتوبة هى الذراع الشرقى لنهر الفولجا الواقعة عليه مدينة سراى .

Hammer, Goldene Horde, p. 314.

واصل هذه الضريبة ، أنه عند انقطاع العلاقات كان بعض الأرمن من رعايا امبراطورية القفجاق يركبون سفنا جنوية ، فاستولى على هذه السفن بنادقة وصادر المنتصرون بضائع الأرمن ، ووعدوهم مع ذلك بتعويضهم عن بضائعهم ، ولكنهم لم يدفعوا التعويضات ، وكانت مبالغ طائلة • ورق قلب تيدولا Taidola زوجة جانى بك لحالة هؤلاء البائسين ، وساعدتهم بأن دفعت لهم جزءا من المبالغ التى فقدوها ، وهكذا كانت الضريبة غير العادية المفروضة تتغيا استرداد الحكومة هذا المال المدفوع . فلم تكن سوى ضريبة مؤقتة ، تلغى فى اليوم الذى يتم فيه السداد (٢١٦) •

وترك صلح عام ١٣٥٥ للبنادقة أيضا الحرية المطلقة فى توثيق علاقاتهم التجارية مع أجزاء بلاد القرم التابعة للتتار • وكان حاكم الاقليم وقتئذ يدعى رمضان Ramazan ويقيم فى صولجات ، فحصل منه أندريا فينييه Andrea Venier الذى كان موفدا لديه من قبل حكومته ، حصل منه أولا على « دبلوما » (بتاريخ ٢ مارس ١٣٥٦) ، ثم على خطاب (بالتاريخ نفسه) ، وفى هذا الخطاب يصدق رمضان على جزء من الامتيازات المذكورة فى الدبلوم ، ويزيد مجال امتيازات أخرى ، ويفتح لربابنة السفن والتجار البنادقة ميناء بروفانتو Provanto (أو بروفاتو Provato) ، ويصرح لهم بالرسو فيه ، ويعدهم بأن يبنى به منازل لهم ، ويمنحهم به أملاكا ، ويسمح لهم باقامة قنصلية به ، ويقرر أن تنظر الدعاوى أمام القنصل فى حالة شكوى أحد المواطنين ضد أحد الرعايا البنادقة ، وأمام محاكم البلد فى الحالة العكسية ، وتخضع البضائع التى يستوردها البنادقة لرسم جمركى tamoga (أى رسم دمغة) مقداره ٢٪ ، فقط فى الحالة التى تباع فيها بمعونة مالكيها • ويضيف محرر الخطاب ملحوظة يقول فيها ان غرضه من تحديد هذا السعر المنخفض هو دعوة التجار للامتناع عن التهرب من الضريبة ، ويحذرهم من أنه اذا ثبت

---

(٢١٦) هذه الواقعة مذكورة فى أربع وثائق تابعة للمعاهدة السابقة • انظر •
Taf. et Thom., inéd. ; Canale, II, 467; Commem., II, p. 288, no 61; p. 289, no 64, 65.

– ويطلق على الامبراطورة اسم طيطفلى Thaÿdelu مصحوبا فى احدى المرات بالنعت "eaton" (خاتون Khatoun)

أى أميرة) • ونجد هذا الاسم أيضا فى المعاهدة المبرمة مع بردى بك • Segpaeg •

– وبخصوص هذه المرأة ، انظر : Hammer, l.c., p. 311.

أن أحدهم اقترف هذه الجريمة ، فان بضائعه سوف تصادر ، ويعفى من الضرائب أصحاب الحانات فى المستعمرة البندقية • وتخضع السفن المشحونة قبل اقلاعها عائدة الى وطنها لتفتيش يقوم به مندوب من قبل الحاكم ، يساعده مأمور يعينه القنصل ، للتأكد من عدم وجود عبد هارب قد اندس وسط الركاب • فهكذا هو مضمون الدبلوم وخطاب رمضان • ويختتم الخطاب بطلب تعويض موجه الى الدوج لصالح الأرمن الذين سبق ذكرهم بعاليه (٢١٧) •

وأعقب هذا الخطاب بعد فترة قصيرة خطاب آخر ، بلا تاريخ ، ولكنه يتبع مباشرة الدبلوم الذى منحه بردى بك فى عام ١٣٥٨ ، ومن ثم لا نتردد فى اعطائه هذا التاريخ نفسه •

وفى هذه الأثناء حل كوتلتامور Cotuletamur محل رمضان حاكما لصولجات • فهل يكتب هذا الاسم كوتلوغ تيمور Kotlough Timour كما يريد السيد هامر (٢١٨) ، أو قطلودمور Cothloudomour كما أطلقه ابن بطوطة (٢١٩) على أحد أبناء حاكم صولجات السابق تلكتمور Toloktomur ؟ هذه مسألة لا أكلف نفسى ايجاد حل لها انما أقر هذا الحاكم ـ كيفما كان اسمه ـ فى خطابه التعريفات الجمركية التى حددها رمضان ، وأضاف ميناءين جديدين يمكن للبنادقة مستقبلا أن يرسو عندهما سفنهم ، وهما كاليرا Caliera وصولداديا Soldadia ، وبهذا تصير الموانىء المتاحة للبنادقة ثلاثة (٢٢٠) •

---

(٢١٧) Les Commem., II, p. 242, no 140; M. de Mas Latrie, les Archives des missions scientifique', I, 345 et s. ; la Bibl. de l'Ecole des chartes, 6 série, IV, 589 et ss.

590 et ss. (Commem., II, p. 245 et s., no 152).

ـ يحمل « الدبلوم » فى اعلاه التاريخ الحقيقى ، وهو عام ١٣٥٦ ، كذلك تحمل الوثيقتان تاريخ ربيع الاول ، تبعا للتقويم العربى (الهجرى) : ولما كان هذا الشهر فى عام ١٣٥٦ يبدأ يوم ٤ من مارس ، لذلك فان يوم ٢ مارس المدون اعلاه ليس صحيحا • والمكان الذى أرخ فيه الدبلوم مذكورا أعلاه ، وهو آق سراى Ak-Serai وفى ختام النص الكامل « كالوستا » Calusta أى دون شك الوستا Alousta على الساحل الجنوبى للقرم ، وكتبها الادريسى شالوستا Chalousta • وان ثار شك فالنص الكامل هو بالطبع الاصح •

(٢١٨) Goldene Horde, p. 255.

(٢١٩) Ibn-Batouta, II, 359 et ss.

(٢٢٠) Marin. VI. et s. ; Hammer. Op. cit., p. 521 et s.;

من هذه الموانيء الثلاثة ، نعرف قبلا صولداديا (بسوداق) ، أما الاثنان الآخران فانهما واقعان بين سوداق وكافا (٢٢١) • وفي هذا الحيز نطالع على الخرائط ، من الغرب الى الشرق ، أسماء أوتوز Otouz ، وكوكتبيل Koktebil ، وتكيه Tekié (Porto genovese)

وكنت فيما مضى (٢٢٢) قد سلمت بأن كاليرا هى نفسها أوتوز ، ويكتب السيد توماس هذا الاسم Calitra ونجد هذه المدينة مبنية على الكثير من خرائط العصور الوسطى باسماء Collitra, Caletra الخ شرقى رأس ميجانوم Meganome • ولكنا نجد على خريطة بتاريخ عام ١٤٦١ اسم Otuzu locus (مع اشارة الى أن هذه الناحية حديثة البناء) ، لذلك أميل الآن الى الاعتقاد بأنها على الأصح كوكتبيل Kobtebel التى حلت محل Colitra (٢٢٣) • وحتى الآن لا يوجد اسم بروفاتو Provato الا على خريطة واحدة ، هى خريطة أندريا بيانكو (١٤٣٦) بمكتبة القديس مرقس St. Marc ونقرأ على سائر الخرائط ، فى الموضع المشار اليه اسماء Pecfidima, Pefidima ، الخ • هذه الناحية القريبة جدا من كافا كانت موجودة دون شك فى خليج تكيه (٢٢٤) • وهكذا أصبح فى حوزة البنادقة من ذلك الحين على الساحل الجنوبى للقرم ثلاثة موانيء على صلة وثيقة بصولجات ، بحيث تستطيع أن تستغنى عن المرور بكافا ، المستعمرة الجنوية ، وتجد بها من ناحية الجمارك أحوالا أكثر ملاءمة مما فى تانا •

ولم يبد على الجنويين الغيرة من الامتياز الذى حظى به منافسوهم • وفى تلك الآونة كانت العلاقة بين الأمتين ودية للغاية ، وأكدت حكوماتهما هذه المودة فى التعليمات التى أرسلتاها الى السلطات الاستعمارية فى بنطس (٢٢٥) • ثم ان الجنويين احتفظوا دواما بامتيازهم ، أى باعتبارهم مقر مستعمرتهم ملكالهم ، وقدروا هذا الامتياز حق قدره فى مناسبتين ، فى عام ١٣٤٤ ، وفى عامى ١٣٤٥ ــ ١٣٤٦ حين قدم التتار وضربوا الحصار

---

(٢٢١) نشر الدبلوم عدة مرات :

Canal, Crimea, II, 473 et s. ; Mas Latrie dans la Bibl de l'Ecole des Chartes, l.c., p. 592 et s. ; Les Commem., II, p. 289, no 66.

(٢٢٢) Dubois de Montpéreux V, 315.

(٢٢٣) M. Bruun, Colon. ital. en Gaz., p. 42 et s. ; M. Desimoni, Atl. Lux., p. 252.

(٢٢٤) Bruun, l.c., p. 43 : Lelewel, Portulan, p. 13.

(٢٢٥) Commem., II p. 317 et s., no 223, 227, 228; III, p. 7, nos 16, 17; p. 17, no 79.

حول مستعمراتهم فكادوا يفقدون ملكيتهم لها • وفى العصر الذى وصلنا اليه ، كان العمل يجرى على قدم وساق لاتمام تحصينات كافا • وتحكى قصة سجلها المؤرخ جورجيو ستيلا أن أحد القائمين بحماس ببناء هذه التحصينات هو القنصل جوفريدو دى زواجلى Goffredo di Zoagli (١٣٥٢ — ١٣٥٣) (٢٢٦) • ولم يلبث الجنويون أن اعترفوا بفائدة هذه التحصينات ، لأن المدينة حوصرت فى عام ١٣٦١ ، حاصرها برا وبحرا ترك سينوب Sinope ، وصدت المدينة العدو ، ولابد من القول بأن الفضل فى ذلك يرجع بنوع خاص الى سفن كافا وبيرا الحربية (٢٢٧) • وبعد هذا الانذار بزمن قليل ، لم يعد الجنويون يقنعون بالدفاع عن أملاكهم ، بل صاروا بدورهم غزاة • والواقع أن الفترة التى عم فيها الاضطراب القفجاق بعد وفاة بردى بك خان Bedibeg-Khan (٢٢٨) أتاحت للجنويين فرصة ملائمة • ففى ١٩ من يولية عام ١٣٦٥ ، فى عهد تولى بارتولوميو دى جاكوبو مهام القنصل ، استولوا على صولدايا (٢٢٩) والضيعات الثمانى عشر التى تضمها • ولم يكن هذا الغزو مجرد كسب اقليمى ، فقد كان للمصالح التجارية نصيب فيه ، ذلك لأن صولدايا كانت سوقا هامة يرتادها الكثيرون ، وتنافس سوق كافا (٢٣٠) • ومنذ أقل من سبع سنوات مضت ، دعا حاكم القرم البنادقة أن يعيدوا تنظيم المحطة التى كانت لهم فى القرن الماضى • ومن وجهة نظر أخرى كان هذا الفتح كسبا للدين المسيحى • فمنذ أن سادها التتار ، أصبحت السيادة فيها للمسلمين • وفى عام ١٣٢٠ حظر أزبك خان على مسيحيى المدينة استعمال الأجراس • ولم يقنع المسلمون بهذا الاجراء ، بل اقتلعوا بالقوة أجراس الكنائس ، وحولوا الكنائس نفسها الى مساجد ، وطردوا المسيحيين خارج أسوار المدينة (٢٣١) • وفى عام ١٣٣٤ وجد ابن بطوطة بها سكانا غالبيتهم العظمى مسلمون ، أما المجتمع المسيحى الذى تناقص حتى أصبح قاصرا على عدد قليل من العمال اليونانيين ، فلم يعد له شأن يذكر • وكان بالمدينة

---

(٢٢٦) Stella, p. 1195, ad. an 1357 ; cf. Oderico, Lettere ligustiche, p. 178 et s., 196-198. Planch., 1 et 2 ; Jurigiewiz, Mémoires (en russe) de la Société d'archéologie d'Odessa, V, 162 et s.

(٢٢٧) Matt Villani; d. Dragon., II, 359.

(٢٢٨) Hammer, Goldene Horde, p. 315 et ss.

(٢٢٩) M. Canale, (Crimea I, 269, II, 343); M. Jurgiewicz (Op. cit., p. 169 et ss.) ; Oderico (l.c., p. 132).

(٢٣٠) Aboulf., Géogr., trad. Reinaud, II, 1, p. 319.

(٢٣١) Raynald, ad. an. 1323, no. 3.

قبلا عدد كبير من المسيحيين على المذهب اليونانى ، ولكن أغلبهم قتلوا أو طردوا بعد هزيمتهم فى حرب أهلية (٢٣٢) • ولم يذكر أبو الفدا المعاصر لابن بطوطة وجود مسيحيين بصولدايا ، بل بالغ فى القول بأن الأهالى كلهم مسلمون ، وأن المسيحية كانت قبلا الديانة السائدة فى عصر ابن سعيد (المتوفى عام ١٢٧٤) (٢٣٣) • ومع السادة الجدد أصبح من المأمول فيه أن تتغير الأحوال •

ولم يكن اكتساب أقاليم جديدة هو كل المطلوب ، بل كان من الضرورى أيضا المحافظة عليها ، فقد كان للتتار فى ذلك الأوان زعيم ذو عزم وهمة ، هو ماماى Mamai ، تولى من ١٣٦٠ الى ١٣٨٠ فى القفجاق منصب مدير القصر ، واتخذ لنفسه فى النهاية لقب الخان (٢٣٤) • وتحت قيادته حاول التتار أن ينتزعوا من الجنويين البلاد التى فتحوها • ونجحوا فى الواقع فى استعادة صولدايا ، أو على الأقل النواحى الثمانى عشرة التابعة لها (٢٣٥) • الا أن هزيمة الجنويين لم تكن الا مؤقتة ، ومن ثم استردوا بعض الأراضى على الساحل الجنوبى مستعينين بأسلحة متطورة • ولم تترك لهم معاهدة الصلح (التى عقدت حلا مؤقتا للصراع) ملكية صولدايا والنواحى الثمانى عشرة التابعة لها فحسب ، ولكنها اعترفت بهم سادة شرعيين لاقليم قوطيا Gothie الواقع بين صولدايا وبالاكلافا (سمبالا) Balaclava (Cembala) ويسكنه قوط مسيحيون • وكان المندوبون المفوضون لتحرير هذه المعاهدة هم من جهة ، من قبل « بلدية جنوا الكبيرة » قنصل كافا ، جيانونى ول بوسكو Giannone del Bosco يعاونه اثنان من موظفى المستعمرات ، ومن جهة أخرى جركس Jarkass (٢٣٦) حاكم صولجات عاملا باسمه وباسم الخان ، واجتمع هؤلاء فى ٢٨ من نوفمبر عام ١٣٨٠ (آخر شعبان عام ٧٨٢ هـ) فى مكان يسمى « الينابيع الثلاثة » قبالة كافا • وفى حوزتنا الوثيقة التى دون فيها نتيجة مؤتمرهم ، ولكنها لا تحمل أى توقيع ، ويبدو بذلك أنها ليست المحرر النهائى •

والواقع أن بنود المعاهدة لم تقرر الا فى اجتماع ثان انعقد فى ٢٣ من فبراير عام ١٣٨١ (٢٨ من ذى القعدة عام ٧٨٢ هـ) ، ولم تكن

---

(٢٣٢) Ibn. Batouta, II, 415.

(٢٣٣) Aboulf., Géogr., l, c.

(٢٣٤) Hammer, Goldene Horde, p. 318-327 ; Op. cit., p. 326.

(٢٣٥) M. Bruun (Col. ital. en Gaz., p. 48 et s., et Giorn. ligust., I, 348).

(٢٣٦) بلقلاوة هى الاسم التركى الذى حرفه الجنويون الى بالاكلافا وسمبالو وسمبارو وشمبلدى وجمبلدم وجمبولى ، وقد شكلت بلقلاوة من عام ١٤٧٥ ـ ١٧٨٣ الحد الجنوبى لتتر القرم المقابلة للبلاد التى تخضع للحكم العثمانى مباشرة • (المراجع)

لا بصفة حاكم صـولجات هى جركس ، ولكنـــه كان الياس Elias ابن قطلوبغا Cotolboga ، فى حين كان المندوبون الجنويون هم أنفسهم الذين حضروا الاجتماع الأول (٢٣٧) • وتحتوى الوثيقة الثانية ، فى غير النقاط الأساسية التى أشرنا اليها آنفا ، والموجودة فى الوثيقتين ، على نقاط جديدة • فقد ذكر بها ، على سبيل المثال أن الموظفين التتار ، من قضاة الجمارك الذين طردوا غالبا من كافا ، يعودون الى مناصبهم دون أى عائق ، وأن يسلم العبيد الهاربون الذين لجأوا الى كافا أو الى صولجات دون دفع أى تعويض عنهم ، سوى مبلغ ٣٥ أسير بصفة منحة ، وأن فى مقدور التجار أن يجوبوا من جديد أمبراطورية القفجاق فى أمان تام ، دون أن يدفعوا أية ضرائب جديدة ، الخ • ونرى أيضا قبل ختام سنة ١٣٨١ شخصيتين ، كورادو دى جواســـكو Corrado de Goascho ، وكريستوفورو ديللا كروتشى Cristoforc della Croce يغادران كافا الى بلاط الخان ، والمعتقد أن مهمتهما كان الغرض منها أن يصدق هذا الأمير على المعاهدة • كذلك لنا أن نفترض أن ارسال سبعة خيول أهداها الخان فى السنة نفسها للجنويين فى كافا كان فى مقابل الهدايا التى استلمها من البعثة السابق ذكرها (٢٣٨) • ولم يمنع كل هذا تجدد الاشتباكات بعد زمن قليل • وفى شهر مايو عام ١٣٨٧ كان الجو متوترا للغاية لدرجة أن دوج جنوا رأى أنه لابد أن يستعد لشن حرب جديدة ضد التتار (٢٣٩) •

---

(٢٣٧) Cilvestre de Sacy, Avec traduction et annotation, dans Not. et extr., XI, 52 et ss.

قام سلفستر بنشر المعاهدة التى ذكر فيها جركس على أنه سيد صولجات :

— l'abbé Oderico, dans ses lettere ligustiche, p. 180.

— الأب أودريكو أطلق على سيد صولجات الذى حضر ابرام المعاهدة اسم « الياس بك » •

— مشكلة : كيف يمكن أن يكون شخصان : جركس ، والياس بك سيدين لمدينة صولجات فى تاريخ واحد ، هو آخر شعبان ٧٨٢ ؟ قدم السيد ديزمونى حلا لهذه المشكلة : فالوثيقة التى تحمل اسم جركس ليست سوى مشروع للنص النهائى ، أما التى تحمل اسم الياس فانها حررت بعدها بثلاثة شهور • انظر :

— Arch. stor. ital., 3 sér., XV, 1 (1872), p. 171.

(٢٣٨) Cibrario, Economia politica del medio evo, 4 éd., p. 507, 529.

(٢٣٩) نبه التجار البنادقة أن يتجنبوا التواجد بين المتحاربين ، وأن من الأجدر بهم ، طالما استمرت هذه الحال أن يتوقفوا فى المستعرات الجنوبية حيث يكونون فى أمان أكثر :

— Commem.. III, p. 187, no 260 ; p. 188, no 264.

وتوالت الاغتيالات ، والحرائق ، وأعمال السلب والنهب دون هوادة .
ومع ذلك ففى شهر أغسطس أمكن وضع حد لهذه الحال . وفى ١٢ من أغسطس اجتمع ثــلاثة مندوبين مفوضــين من قبــل تقتامش خان Toktamich-Khan ، مــن بينهـــم قطلوبغــــا Cotolbago سيد صــولجات ، اجتمعوا فى ســـهل صولجات مع جنتيلى دى جريمالدى Gentile de Grimaldi ، وجيانونى دل بوسكو السفيرين الجنويين ، وأسفر هذا الاجتماع عن اقرار المعاهدتين الأخيرتين ، وقد أبرمت احداهما مع الخان مباشرة (فى عام ١٣٨١ ؟) ، والثانية انعقدت بين قطلوبغـــا وبين قنصل كافا ، بارتولومبو دى جاكوبو (فى عام ١٣٨٣ ؟) (٢٤٠) . فضلا عن ذلك وعد سيد صولجات (٢٤١) بأن يصك كمية كافية من عملة لها نفس قيمة العملة التى كانت سارية فى عهد الياس Elias ، ولابد أن هذا الوعد كان له أثر طيب فى تجارة كافا (٢٤٢) .

والآن نستعرض مكاسب الجنويين الجديدة فى القرم . فنجد على رأس هذه المكاسب مدينة صولدايا المشهورة : ففى عهد سادتها الجدد ، تناقص العنصر الاسلامى حتى اننا نرى فى « القوانين النظامية الجنوية » السـكان وقد ذكروا أنهم خليط من عناصر لاتينية ويونانية (٢٤٣) . وكانت زراعة الكروم مزدهرة فى مجاورات المدينة ، وثمة ضريبة مفروضة على حقول الكروم ، يدل اسمها ambelopatico على أن اليونانيين هم الذين أدخلوا هذه الزراعة فى البلد ، واستمروا يزاولونها فى عهد السيادة الجنوية (٢٤٤) . وعلى مسافات بعيدة بنوع ما من المدينة توجد الثمانى عشرة ضيعة بسكانها اليونانيى الجنسية ، ويكشف لقب proti الذى يطلق على رؤساء البلديات عن أصلهم (٢٤٥) ، وتعدد الوثائق الجنوية أسماءهم

---

(٢٤٠) Canale, Crimea, II, 346.

كانت هذه هى المرة الثانية التى يشغل فيها بارتولوميوردى جاكوبو هذا المنصب ؛ وقد شغله لأول مرة ، كما رأينا ، ابان الاستيلاء على سوداق .

(٢٤١) l'Ermans Archiv fêr Kunde Russlanrs, I, 180 et s. ; voy. Bruun, Colon. ital. en Gaz., p. 50 ; Olivieri, l.c. p. 72; Makrizi, Hist. des sultans mamlouks, éd. Quatremère, II, 2, 315 et s. : M. Bruun (l. c., p. 49 et s., et Giorn. liguist., I, 349).

(٢٤٢) Silvestre de Sacy, Not et extr., XI, 62 ; voy., Olivieri, p. 75.

نشر سلفستر دى ساى هذه المعاهدة :

(٢٤٣) Statut de 1449, dans les Atti della Soc. lig., VII, 2, p. 656, 658.

(٢٤٤) Ibid. VII, 1, p. 350, 744 et s. ; VII, 2, p. 350, 652, 659.

(٢٤٥) Ibid, VII, 2, p. 657 V, 254.

التي اعتذر عن اثباتها هنا (٢٤٦) ، وتنبئنا بين ما تنبئنا به أن قرى كوز Koz (٢٤٧) وأوسكوت Ouskout(٢٤٨) ، وتاراكتاش Taraktach (٢٤٩)، وتقع الأولى شرقي سوداق ، والثانية غربيها ، والثالثة خلفها كانت ضمن هذه الضيعات • يلي هذه القرى مقاطعة قوطيا Gothie وتسكنها قبيلة غريبة ، من بقايا الشعب القوطى ، ظلت مرتبطة بأرض القرم ، فى حين واصلت فروعها من الحواشى هجرتها الى الغرب ، وأسست ممالك فى ايطاليا وجنوب فرنسا واسبانيا (٢٥٠) • والمعروف أن فى هذه القبيلة الصغيرة • فى أقدم ما يمكن تتبعه من التاريخ ، أى قبل العصور الوسطى ، كانت اللغة الألمانية شائعة • ومن الناحية السياسية كانت هذه القبيلة حليفة لليونانيين منذ عصر الغزوات الكبرى ، وقدمت لهم مساعداتها للدفاع عن حدود الامبراطورية البيزنطية ضد غزوات البرابرة ، وبقيت مندمجة مع هذه الأمبراطورية الى أن غزا اللاتينيون القسطنطينية • وبعد تلك الآونة انتقلت قوطيا مع باقى الساحل الجنوبى للقرم من أمبراطورية القسطنطينية الى امبراطورية طربزون • وتنبئنا معاهدة ١٣٨٠ ــ ١٣٨١ أنه فى زمن ما لم يعد فى الوسع تحديده أصبح القوط تابعين للتتار الذين تنازلوا آنئذ للجنويين عن حقوقهم عليهم • وكان القوط قد تخلصوا منذ زمن بعيد من نفورهم من المدن المغلقة ، ولاحظ بروكوب Procope عندهم تلك السمة المميزة للجنس الجرمانى فى أقدم عصور التاريخ • الا أن جويوم ذى روبروك Guill de Rubrouck على أنه كان يوجد بين صولدايا

(٢٤٦) Atti della Soc. lig., VII, 2, p. 306, 318, 320, 323, 513; M. Desimoni (Nuovi sull" Atlante Luoro, ibid. V, 254 et s.) ; M. Bruun (l. s. p. 48) ; Giorn. lig., I, 347.

(٢٤٧) Duboi de Montpéreux, V, 316 et s.

(٢٤٨) Acta patriarch. Cpol., éd. Miklosich et Müller, II, 67, 148 et s. ; dans les cartes du Moyen-Age, Scutti, Stuta, Stoty (Lelewel, Portulan, p. 13 ; Atl. Lux., p. 252 ; Thomas, Periplus das Pontus Fux., p. 264); Pallas, Reise, in die südlichen Statthalterschaften des russ. Reichs, II, 202 ; Atti della Soc. lig., VII, 2. p. 292 et ss., 406 et ss.

(٢٤٩) Dubois de Montp., V. 367 et s.

(٢٥٠) نشر السيد ماسمان Massmann مقالات مختلفة ، مدروسة جيدا عن قوط القرم هؤلاء • ويتحدث السيد ديبوا دى مونبيريه (VI, 222-238) طويلا عنهم وعن موطنهم • انظر كذلك :

Herschel, Die tetraxitischen Gothen, dans l'Anzeiger für Kande deutcher Vorzeit, 1859, p. 13 et ss., 93 et ss. ; Le 24e vol. des Mémoire de l'Acad. imp. de St Pétersboug, ouvrage écrit en langue susse :

– يحتوى الجزء الرابع والعشرون من هذه المجموعة ، والمكتوب باللغة الروسية على دراستين عن هؤلاء القوط •

وبين خيرسون أربعون قرية محصنة (٢٥١) ، ويتكلم بعض سكان هذه القرى لهجة خاصة ، وفى رأيه أن فى هؤلاء السكان المختلطى الجنسية كثيرا من القوط الذين يتكلمون الألمانية (٢٥٢) • وحتى يومنا هذا لم يزل هذا الجزء من الساحل الجنوبى للقرم آهلا بالسكان بدرجة كبيرة • وتدل الأطلال العديدة الباقية من الحصون القديمة التى نجدها هناك على صدق أقوال جويوم دى روبروك (٢٥٣) • وقد يكون من المفيد لأولئك الذين يدفعهم الفضول لمعرفة أسماء هذه القرى أن يعرفوا أنه يوجد فى « قوطيا » الجنوبية مجموعة كاملة من الأسماء محفوظة الى وقتنا الحاضر دون أن يطرأ عليها أى تعديل • من ذلك أنه باتباع الساحل من الشرق الى الغرب ، نجد (باستثناء سوداق التى تنتمى أيضا الى القوطيا بمعناها الواسع) الوستا Alousta (Lusce, Lusta) مقر قنصل جنوى ، ولامبات الكبيرة والصغيرة Lam bat (Lambadie) (٢٥٤)، وبارتنيت Parthenite (Partenite, Pertenice) ، واورسوف Oursouf (Gorzovium, Gorzonium) مقر قنصل جنوى ، ونيكيتا Nikita (Sykita, Sicita) وهى أيضا مقر لقنصلية ، ويالتا Jalta (Jalita) مقر قنصل (٢٥٦) ، واوريـاندا Orianda ، وميسكور Miskor (Muzacori) ، وألوبكا Aloupka (Lupico) ، وكيكينيس Kikineis (Chichinco) ، وفوروس Foros (Fori) ، وأخيرا ، وفى أقصى حدود المنطقة ، وأيضـــا تبعا لنص معاهدة عام ١٣٨٠ : بالاكلافا Balaclava ، وكان اسمها وقتئذ عند اليونانيين سيمبولون Symbolon وعند الايطاليين سمبالا Cembalo ، وهى مقر لقنصل جنوى منذ عام

---

(٢٥١) Aboulféda, Géogr., II, 1, p. 282 ;

« الأربعون قرية » فى مجاورات سوداق مذكورة أيضا فى دبلوم لعام ١٣٩٧ ؛

(Hammer, Fundgruben, VI, 359 et ss. ; Vambery, Vigurische Sprachm numente, p. 172 et s.) ; Barbaro l. c. ; Tomaschek, Op. cit., p. 43; Aboulf., p. 319.

(٢٥٢) Rubr., p. 219.

(٢٥٣) وجد الجنويون فى الوستا ، واورسوف حصونا من عهد جستنيان ، انظر :

— Procop., éd. Dindorf. III, 262.

– يبدو أن الجنويين انهمكوا فى ترميم وتحسين هذه الحصون • انظر :

Pallas, Op. cit., II, 175 et s ; Dubois de Montpéreux, VI, 33 ; Ausland, 1840, janv., p. 70 ; Dubois de Montp., VI, 84 et s.

(٢٥٤) Scymnus, de Chio.

(٢٥٥) Act. SS. Boll. juin, p. 190.

(٢٥٦) Edrici (II, 395) ; les documents grecs dans les Act. patriarch. Cpol (I, 577; II, 66, 74, et s., 249)

١٣٧٥ (٢٥٧) . وهذا التاريخ هام لأنه يثبت لنا أن الجنويين كانوا يملكون بالاكلافا قبل أن يمتلكوا سوداق بثماني سنين . ومن الراجح أن أسطولهم استولى على هذه المدينة عنوة ، ونلاحظ أن أصحابها لم يكونوا في ذلك الحين من التتار ، ولكنهم كانوا سادة يونانيين . وتم فيما بعد ضم الأجزاء الباقية من القوطيا التابعة للتتار . ولما كان هؤلاء (أى التتار) لا يهتمون بامتلاكهم السواحل بقدر اهتمامهم بامتلاك السهوب الفسيحة في داخل القارة ، فإنهم لم يبذلوا جهدا كبيرا للاحتفاظ بهذه المنطقة ، في حين أنها كانت بالنسبة الى الجنويين كسباثمينا ، وكانت الخلجان الصغيرة العديدة المنتشرة على طول الساحل تسمح لهم بتنمية ملاحة ساحلية نشيطة ، كما كانت ملاجىء آمنة ، حتى للسفن متعددة السطوح في الأحوال الجوية المضطربة . وكان مرفأ بالاكلافا هو بطبيعة الحال من أفضل المرافىء التى يبتهج الجنويون بامتلاكها ، اذ يحميها حزام من الصخور ، فضلا عن أن بها وفرة من الأسماك ، وهو أمر لا ينبغى اهماله من ناحية مكاسب الصيد (٢٥٨) .

غير أن مساكن القوط كانت تمتد أيضا الى داخل الأراضى ، على خط الجبال المغطاة بالأشجار والأحراج التى تمتد بمحاذاة الساحل ، فى الجنوب الغربى من القرم ، والتى تقطعها وديان أنهار تشيرنايا Tchernaia ، وبلبك Belbek ، وألما Alma ، وكاتشا **Katcha** ، وصالغير Salghir ، وقد استقروا (أى القوط) فى تلك المنطقة الجبلية نفسها ، منذ البداية على ما يظهر ، وبقوا بها زمنا طويلا (٢٥٩) . وهناك ترتفع القلعة العجيبة القديمة ، قلعة مانجوب Mangoup التى كانت حاضرة القوطيا ، كما ثبت من الأبحاث التى أجراها السيد ديبوا دو مونبيرو M. Dubois de Montpéreux ، وتشرف بموقعها على حوض نهرى تشارنايا ، وبلبك . ترى هل كان الجنويون فى وقت ما يملكون هذه القلعة ؟

(٢٥٧) M. Canale (Crimea, 299 et s.); Zapiski d'Odessa, V, 175.

(٢٥٨) Atti della Soc., lig., VII, 2, p. 666 ; M. Desimoni, dans son édition de l'Atl. Lux (Atti, l.c., V, 254) ; Sdrisi, II, 395 (cf. Lelewel, Géogr. du Moyen-Age, III, 196 et s.), dan les Acta patriarch. (Pol. II, 67, (149, dans les Portulans ; de Lelewel, p. 13, et dans Thomas, p. 241 ; statut de 1449, publié dans les Atti della Soc. lig., VII, 2, p. 598 : ibid. p. 661 et ss. ; M. Thomaschek (p. 70 et s .)

(٢٥٩) Dubois de Montpéreux, VII, 225 et ss.

فقد أيد ذلك عدد كبير من المؤرخين الحديثين (٢٦٠) ، ومع ذلك فان الوقائع والوثائق الرسمية الجنوية المصدر صامتة في هذا الخصوص ، ويقول المسافرون الذين درسوا بمنتهى الدقة أطلال هذه القلعة الكبيرة أنها لم تكن بالمرة تنتمي اليهم • ولم يستطع السيد ديبوا دو موبنيرو أن يكتشف هنا أى أثر لمعمار جنوى • وقبله لاحظ موراڤيو ـ ابوستول Mourawiew-Apostol أن الانسان لا يجد في أية جهة هناك أى شعار من شعارات النبالة التي اعتاد الجنويون أن يضعوها بسخاء في مبانيهم (٢٦١)، والأمر كذلك بالنسبة الى قلاع تشركس كرمان Tcherkess-Kerman (غرب منجوب) وجفت ـ قلعة Djoufout-Kalé (بالقرب من بانحجه سراى) • ورغم آراء بالاس Pallas ، وكلارك Clarke فلا يمكن أن يخطر لنا أن الجنويين هم الذين شيدوها • ويكفى لدحض هذه الآراء دراسة الآثار التي لم تزل باقية ، دراسة دقيقة ، والاعتماد التام على المصادر التاريخية الموثوق بها (٢٦٢) • ثم انه من غير المعقول أن يقيم الجنويون مثل هذه القلاع في منطقة جبلية لا يعبرها أى طريق تجارى على جانب من الأهمية ، أو حاولوا فقط الاستقرار بها بصورة وطيدة •

ولم يتضمن المجال الاستعمارى الجنوى Cheronèse héracléotiqué (خيروينز الهرقلى) ، وهو رعن جبلى شامخ فسيح ، بارز في البحر بين خليج بالاكلافا وخليج سباستبول • وهناك أيضا خرسون Cherson القديمة ، وقد ضعف شأنها بسبب منافسة كافا لها • ولا يكفى أن نذكر رفع تلك المدينة الى درجة أسقفية لاتينية في عام ١٣٣٣ (٢٦٣) حتى يجوز لنا أن نستنتج أنها كانت تابعة من الوجهة السياسية لدولة غربية ، فهذه الواقعة تثبت فقط وجود عدد من المستعمرين التابعين للمذهب الكاثوليكى الرومانى ، واهتمام البابا بمطالبهم الروحية •

كانت خرسون تابعة اما لأباطرة طربزون أو سادة مدينة ثيودورا Théodoros (Theodori) وهم أمراء صغار من أصل يونانى ، كانوا تابعين

---

(٢٦٠) Pallas, op. cit., II, 120 ; Clarke, Voy. en Russ., II, 480 ; Serra, Storia dell' ant. Liguria, IV 66.

(٢٦١) Dubois de Montpéreux, VI, 272 et ss., 236 ; Mourawiew — Apostel, Reise durch Taurien, trar. Oertel, p. 151.

(٢٦٢) Dub. de Montp., VI, 292, 343 et s.

بانحجة سراى : مدينة تترية على مسيرة ٢٠ ميل من سمفروبول (آق مسجد) وجفت قلعة : قلعة اليهود وكانت أهم مواطن اليهود القرائين في القرم (المراجع)•

(٢٦٣) Lib. jur., II, 437, 445 ; Theimer, Monum. Polon. et Lithuan., I, 347-350; Pa pati, p. 247.

لامبراطورية طربزون منذ البداية ، ولكنهم استقلوا عنها بعد ذلك . هؤلاء السادة ، سواء كانوا سادة خرسون أو لم يكونوا سادتها ، لعبوا فيما بعد دورا هاما للغاية فى تاريخ المستعمرة الجنوية ، حتى انهم استرعوا انتباهنا . أما أصل امارتهم ، والبلد الذى خرجوا منه فهذه أمور بقيت أيضا غامضة كل الغموض .

وعلى أية حال لم يكونوا من عنصر قوطى ، ولكن من سلالة يونانية . ويدل اسم Alexis الذى يحمله الكثير منهم على قرابتهم لأسرة أباطرة طربزون . ويظهر بين هؤلاء من وقت لآخر اسم اولوبيه Olobei (أو لوغ بيه (Oulough-bey) (٢٦٤) ، ويكشف هذا عن وضعهم التبعى بالنسبة الى خانات التتار ، وأنها تبعية لا يترتب عليها نبذهم الديانة المسيحية . وكان لقبهم الكامل حسبما نستبين من بعض الكتابات : سيد مدينة ثيودورا والساحل (٢٦٥) ، وتذكرهم المصادر الغربية عادة بلقب Signori de la Tedoro (٢٦٦) وأحيانا بلقب domini Gothia (٢٦٧) . ولم يكن أمراء القوطيا فى نظر الجنويين سوى مغتصبين ، فهم يعتبرون هذا الاقليم تابعا لكافا (٢٦٨) . ومن المسلم به أننا لا نطلق هذه التسمية ، أى « قوطيا » على الشريط الساحلى الذى كان الجنويون يمتلكونه بهذا الاسم منذ عام ١٣٨٠ بمقتضى المعاهدات ، وامتلكوه دون انقطاع طالما كانت لهم مستعمرة فى القرم (٢٦٩) ، ولكننا

---

(٢٦٤) Atti della Soc. lig., VI, 113, 655, 832 (Planche).

(٢٦٥) Inscription de l'année 1427, dans Dubois de Montpéreux. Voy. autour du Caucase ; Atlas, 4e série, pl. 26; texte, VI, p. 257 et s. (= C.J. Gr. no 8742).

(٢٦٦) Voy. les Annales génoises de Stella, p. 1311, Fogl., p. 567 ; Ag. Giustiniani, p. 161, b ; les Atti della Soc. lig., VI, 113, 655 660, 811, 815 et s. ; VII, 1, p. 490, 674, 769, 867 et s.

(٢٦٧) Atti l. c., VI, 102 ; VII, 1, p. 731.

(٢٦٨) Atti, l.c., VI, 815.

(٢٦٩) نشر السيد فينيا M. Vigna قرارات تعيين لوظائف قبطانية فى قوطيا حتى اواخر عهد الاحتلال ، ويعطى قائمة بأسماء هؤلاء الموظفين فى ملحق كتابه : VII 2, p. 981 et s. ورغم السيادة التى مارستها جنوا على ساحل قوطيا ، فان بعض السادة من أصل قوطى استمروا يتمتعون بحقوقهم فى بعض القرى الداخلة فى أملاك جنوا . من ذلك اننا نرى فى الوستا ، عام ١٤٧٤ الى جانب القنصل الجنوى "dominus Luste" اسمه ديربيبردى Derbiberdi ، وكانت السلطات الجنوية ترقب بعين حذرة الاقاليم التى يستولى عليها . انظر :
Atti della Soc. lig. VII, 2, p. 412 : cf. 319.

نقصد بها كل المنطقة الجبلية التى تمتد الى ما وراء الساحل الجنوبى . هذه المنطقة لم يمتلكها الجنويون بالمرة ، ولكن خيل اليهم أن لهم حقوقا عليها لأنها ، شأنها شأن المنطقة الساحلية يسكنها قوم من العنصر القوطى. وفى مقابل هذا كان سادة ثيودورا يعتبرون أنفسهم ، على ما يحتمل السادة الشرعيين لمنطقة الساحل ، وكذا على أجزاء من القوطيا الواقعة فى الأراضى الداخلية . ألم يكن هذا اللقب « سيد الساحل » الذى كانوا يطلقونه على أنفسهم سوى لقب احتفالى يتباهون به ؟ ألا يجوز لنا أن نعتقد بأن امارتهم لم تمتد أبدا الى البحر ؟ يقول مارتن برونيوفيوس Martin Proniovius (٢٧٠) الذى زار القرم فى القرن السادس عشر ، وجمع هناك كمية من المعلومات المتعلقة بالتاريخ القديم لشبه الجزيرة قبل أن تتبع جنوا ، يقول ان بالاكلافا كانت تابعة لسادة يونانيين أدت الخلافات القائمة بينهم وتهاونهم الى تمهيد الطريق لقدوم غزاة جدد ، وكان هؤلاء الغزاة على الأرجح سادة ثيودورا . ولكن فى عصر لاحق لاستيلاء الجنويين على بالاكلافا ، كان اقليمهم ولم يزل متصلا بالبحر ، عند نقطة واحدة على الأقل . ونراهم بعد ذلك فى عام ١٤٥٥ منهمكين بانشاء سوق فى كالاميتا Calamita ، تنافس سوق كافا . وكانت مدينة كالاميتا هذه واقعة على خليج سباستبول بالقرب من انكرمان Inkerman (٢٧١) . ولكن أين نجد ثيودورو أو ثيودورا مقرهم ؟ (٢٧٢) هذا الاسم قريب الشبه من اسم أيتودور Aitodor (Hagios Theodoros) وهو اسم رعن (أنف جبل بارز على البحر) على الساحل الجنوبى ، بين ألوپكا Aloupka ويالتا . ولكن هذا الموقع كان تابعا للجنويين ، وليس به أى أثر لمدينة أو قلعة . واسم ثيودورو القديم غير معروف بالمرة للأجيال الحالية ، ولا يمكن الحصول على أى دليل عنه من أفواههم .

وبعد كثير من البحث ، توقف العلماء بنوع خاص عند موضعين . فمن جهة ، تتبع السيد ديبوا دو مونبيرو أثر ثنمان Thunmann ، وسلم تقريبا بصحة تطابق مدينة انكرمان الحالية ومدينة ثيودورى فى

---

(٢٧٠) Descriptio Tartariae, éd. Colon. Agripp., fol. 7.

(٢٧١) هذا ما توضحه خرائط العصر الوسيط : كذلك يعدد باربارو (Barbaro, Viaggi alla Tana, p. 17) — سمبالو Cymbalo وسارسونا خرسون) Sarsona (Cherson وكالاميتا .

(٢٧٢) M. Fallmerayer (Abh. der Münchn. Akad, Hist. Cl., III, 110; VI, 1, p. 69) : Hist. pol. Cpol., p. 45, éd. Bonn.

العصور الوسطى (٢٧٣) . ويؤكد السيد ديزيمونى هذا الرأى (٢٧٤) .

ومن جهة أخرى يرى السيد برون Bruun أن ثيودورى هى قلعة مانجوب نفسها التى كانت على الجبل شرقى انكرمان (٢٧٥) . والثابت أن هذين الموضعين كانا ضمن الاقليم التابع للسادة اليونانيين الذين ندرس تاريخهم (٢٧٦) . ونحن اذا فكرنا فى الأطلال الفخمة التى رآها فى كل من الموضعين برونيوفيوس فى القرن السادس عشر ، وديبوا دومونبيرو فى القرن التاسع عشر ، تحتم علينا أن نسلم بأن كلا منهما كان فى الغالب مقرا للأمراء اليونانيين . والواقع أنه بين الآثار الباقية المتناثرة بعيدا على السهل الفسيح الذى كانت ترتفع فوقه قلعة ما نجوب ، استطاع السيد ديبوا دومونبيرو أن يعيد تخطيط قصر مزين زينة نفيسة ، وكنيسة يونانية صغيرة ، وقبور يونانية أيضا ، وكذلك تعرف برونيو فيوس على كنيستين ورأى كتابات يونانية (٢٧٧) . ولكن أطلال انكرمان ، ولعلها أقل أهمية ، كانت تضم أيضا فى زمن برونيوفيوس كتابات يونانية ، وشارات نبالة فخمة ، ونسب مرشدوه بناء القصر الى أمراء يونانيين (٢٧٨) . ومع ذلك يبدو بالتقريب بين بضعة تواريخ أن كفة الميزان تميل لصالح مانجوب : ذلك لأننا نجد أولا فى بعض العقود الجنوية المؤرخة عام ١٤٧٢ ، و ١٤٧٥ اســـم شخصية كان المســـتعمرون على عـــلاقات جوار طيبة معهـــا ، ويســـمونها : (٢٧٩)

Saicus ou Saichus dominus Theodori, ou dominus Theodori et Gottie

وهناك أيضا بعض الوثائق الروسية الأصل تنبئنا بأنه فى عامى ١٤٧٤ ، ١٤٧٥ جرت مفاوضات بشأن عقد زواج بين أمير روسى واحدى بنات ايزايكو Isaiko سيد مانجوب (٢٨٠) . والحقيقة أن Isaiko, Saik هما شخص واحد ، ومن ثم تختلط ثيودورو بمانجوب . وعلى ذلك يجوز لنا

---

(٢٧٣) Voy. aut. du Caucase, VI, 257.

(٢٧٤) Nuovi studj sull' atlante Luxoro, dans les Atti della Soc. lig., V, 249.

(٢٧٥) Colon. ital. en Gazarie, p. 64 ; Giorn. ligust., I, 350 et s.

(٢٧٦) Broniov, l. c., p. 14.

(٢٧٧) Dubois de Montéreux, l. c., VI, 272 et s. ; Broniovius, l.c., p. 7.

(٢٧٨) Broniovius, p. 5.

(٢٧٩) Atti della Soc. lig., VII, 1, p. 769 ; 2, p. 195.

(٢٨٠) Karamsin, Gesch. des russ. Reichs (trad. allem.), VI (Riga, 1824), p. 69. M. Tomaschek, Op. cit., p. 53.

أن نسلم بأن مانجوب المقـر الذى حكم منه سـادة ثيودورا القسـم الأكبر من المنطقـة الجبلية جنـوبى القرم ، وجـزء من ساحل خليج سباستبول (٢٨١) ٠

واذا كان قد ثبت أن خرسون ، وانكرمان ، ومانجوب بقيت خارج الاقليم الذى يملكـه الجنويون (٢٨٢) ، فمن باب أولى لم تـكن جفت قلعـة Djoufout-Kalé (٢٨٣) تابعة لهم ٠ وقد أفاض السيد ديبوا دو مونبيرو فى شرح ذلك ضد ما أكده السيدان بالاس ، وكلارك ٠ وأمكن اثبـات أن قرقرى Kerkr (٢٨٤) (وهذا هو اسـم جفت قلعة فى العصور الوسطى) كانت فى القرن الرابع عشر تحت سيادة التتار (٢٨٥)، وأصبحت فى القرن السادس عشر مقرا لخاناتهم (٢٨٦) ٠

نستنتج من كل ما سبق بيانه أن ممتلكات الجنويين فى القرم كانت قاصرة على القسم من الساحل الجنوبى المحصور بين كافا وبالاكلافا ، ولم تمتد مطلقا الى داخل شبه الجزيرة ٠

---

(٢٨١) تذكر بعض الوقائع التاريخية الخانات القرم ان منجلى كراى Mengli-Garai قد لجأ ، بعد وفاة والده (١٤٦٦) الى مانجوب (التى كانت تابعة وقتئذ للجنويين) ؛ ولكن لما كانت مانجوب تابعة لسادة ثيودورو حتى عام ١٤٧٥ ، فاننا لا نفهم كيف ان الجنويين كانوا يمتلكونها فى الزمن المشار اليه ٠

(٢٨٢) Voy. Bruun, Colon. ital. en Gaz., p. 85 et s. ; Giorn. ligust., II, 376-378.

(٢٨٣) Voy. autour du Caucase, VI, 343.

(٢٨٤) Kerker ou Kerkri dans Aboulféda, Géogr., II, 1, p. 319; Cherchiarde dans Gios. Barbaro, p. 17 ; Ambr. Contarini, p. 63 ; Carckeri dan Schiltberger, p. 106 ; Karker et Kirkel dans le Nouv. journ-asiat., XII (1883), p. 354, 356 ; Carchere dans le Giorn. ligust., 1879, p. 482, 494.

(٢٨٥) Cf. Brun, Vol. ital. en Gazerie, p. 51, 55.

(٢٨٦) Ambr. Contarini, p. 63 ; Ag. Giustiniani ; Annali di Genova, p. 227, b ; cf. Atti della Soc. lig., VII, 1, p. 628 et s.
يذكر ابو الفدا أن « قرقرى » تعنى « أربعون رجلا » ، الأمر الذى يقتضى أن يكون اسمها « قيرق آر » وتسمى أيضا بـ « قيرق ير » وهى ذاتها مدينة « بانجة سراى » ٠
(المراجع)

سابعا ـ وسط آسيا ، والصين

كان الأوروبيون الأوائل الذين تجاوزوا سور الصين ، على قدر علمنا ، اثنين من الشنادقة من أسرة نبيلة تمارس التجارة ، مثلها مثل سائر الأسر النبيلة ، هما نيكولو ، ومافيو (ماتيو) بولو Niccolo et Maffio (Matteo) Polo . وقبل رحلتهما ، أقاما زمنا طويلا في القسطنطينية ، وكان أخوهما ماركو (الأكبر) قد استقر بها بصفة دائمة الى أن قرعزمه على اعتزال العمل والذهاب الى وطنه ليقضى بقية أيامه فى مسقط رأسه ، وربما كان هناك المقر الرئيسى لبيت الأسرة التجارى . وكانت الأمبراطورية اللاتينية لم تزل قائمة ، ولكنها كانت تسير بخطى سريعة نحو الانهيار ، وكان البنادقة يعيشون هناك كما لو كانوا فى وطنهم ، ويشتغلون فى سلام ووئام لتنمية أعمالهم التجارية . وغادر الأخوان بولو القسطنطينية فى عام ١٢٦٠ ومعهما مجموعة من الجواهر ، وبدآ بعبور البحر الأسود قاصدين صولداديا فى القرم ، وكان للبنادقة فيها وكالات تجارية ، كما كان أخوهما ماركو يمتلك البيت الذى نراه فيما بعد موضوعا لنص فى وصيته (١٢٨٠) . وكان مشروعهما الأول الذهاب الى بلاط بركة خان Berké-Khan الذى كان يقيم حينا فى سراى وحينا فى بلغار Boulgar . وبعد أن زارا المدينتين ، وتصرفا فى بضاعتهما ببيعها للخان بضعف ثمنها ، فكرا فى العودة . وفى هذه الأثناء (١٢٦٢ ــ ١٢٦٣) اندلعت الحرب بين بركة ، وبين هولاكو خان فارس ، وأغلق الطريق . ولما لم يستطعا العودة ، اعتزما مواصلة التقدم من الناحية الآسيوية ، فاجتازا

نهر الفولجا عند أوكك Oukch ، وهو مكان يقع تقريبا فى منتصف الطريق بين مقرى الخان ، بالقرب من مدينة سراتوف Saratov الحالية (١) • وبعد رحلة طويلة عبر السهوب (الاستبس) ، وصلوا الى بخارى Bokhara • وكان البلد كله مرتعا للحرب ، فأمضيا سنوات ثلاث محجوزين فى تلك المدينة ، ولم يستطعا الخلاص الا بفضل صدفة حدثت فقلبت مشاريعهما وحملتهما على مواصلة رحلتهما الى الصين : فثمة سفراء تتار موفدون من فارس الى الصين كانوا يمرون ببخارى ، فرأوا الرحالة الايطاليين ، ودعوهما الى مصاحبتهم • وأكدوا لهما أن الخان الأكبر يرغب رغبة شديدة فى رؤية أوروبيين (لاتينيين) والترحيب بهم ، وأن تلك الرحلة سوف تأتيهم بمكاسب مالية • ولم يطلب الاخوان بولو أفضل من ذلك حتى يقتنعا بالرحيل • وعلى ذلك سافرا بصحبة هؤلاء السفراء ، الأمر الذى جنبهما مصاعب وأخطارا كثيرة ، فاجتازا فى سنة واحدة آسيا الوسطى على مداها ، ووصلا أخيرا الى بلاط الخان الأكبر •

وأبدى قوبلاى سروره باستقبال المسافرين البنادقة فى بلاطه ، وامكانه سؤالهما حتى يشبع فضوله ، فكان ذلك أمرا سهلا لأنهما تعلما فى أثناء الطريق لغة التتار • وكان لهذا العاهل فكرة عظيمة عن الحضارة الأوروبية وشعور غامض بتفوق الديانة المسيحية على دين شعبه ، لذلك كان يرغب فى اقامة علاقات ما مع مسيحى الغرب • لذلك سأل الأخوين بولو أن يتفضلا بالذهاب باسمه الى روما ، بصفتهما سفيرين ، وبصحبة شخصية كبيرة من بلاطه ، ليطلبا من البابا أن يبعث اليه وفدا كبيرا (وأراد أن يضم الوفد مائة شخص على الأقل) مشكلا من رجال قادرين على تعليم شعب الصين اجمالى علوم الغرب (أى الفنون السبعة ، أو ال Trivium وال Guadrivium) ، وأن يثبتوا له تفوق الدين المسيحى على سائر الديانات • فاضطلع الأخوان بولو عن طيب خاطر بهذه المهمة الكبيرة ، ولكنهما قاما بها وحدهما ، لأن رفيقهما التتارى مرض أثناء الطريق ولم يستطع أن يتابع مسيرته معهما • وقضى الأخوان فى هذه الرحلة أكثر من ثلاث سنوات الى أن وصلا الى أوروبا (١٢٦٩) ، وفى هذه المرة مرا بلاجاتزو (اياس) • وعند وصولهما ، كان الكرسى البابوى شاغرا • ولما كان انتخاب البابا الجديد يستغرق وقتا طويلا ، فقد انقضى بعض

(١) Frahn, Notice sur l'ancienne ville mongole d'Oukek, dans les Mém. de l'Acad de St Pétersb., 7 série, Science: polit., hist. et Philol., III, 78 et ss. ; Muller, Darstellung des Stromsystems der Wolga, pp. 494 et s.

يسمى النجل التترى باسم « خوجاتال » وتخلفاف مدينة « ألاو » • (المراجع)

الوقت قبل أن يتسنى لهما تحقيق مهمتهما • وأخيرا ، فى خريف عام ١٢٧١ تقلد جريجوار العاشر تاج البابوية • وكان من أوائل الأعمال التى أداها بصفته بابا أن سلم الأخوين بولو رده على رسالة الخان الأكبر ، وعين لصاحبتهما عالمين من الرهبان الدومينيكان ، وهما على دراية وافية بشئون الشرق • وهكذا تحققت رغبة العاهل التتارى ، ولو بقدر مختصر كثيرا • ولكن قيل ان ممثلى الديانة المسيحية والعلوم الغربية ، على قلة عددهم ، لم يقدر لهما أن يطئا أرض الصين : فما أن وصلا الى آسيا الصغرى حتى تلقيا الأنباء بدنو جيش مصرى ، فتملكهما الخوف من الأخطار التى يتعرضان لها ، ومن ثم عادا أدراجهما • وعلى ذلك واصل نيكولو ومافيو(*) طريقهما بدونهما ، وهذه المرة ، حين مثلا أمام الخان الأكبر (١٢٧٥-م) وقدما اليه ماركو الصغير ، ابن نيكولو ، رحب بهم قوبلاى ، وأحسن وفادتهم ، ولكنه ميز ماركو بنوع خاص ، وسرعان ما تعلم هذا مختلف اللهجات والكتابات المستعملة فى امبراطورية الخان الأكبر ، واستطاع بسهولة أن يروض نفسه على عادات الشرق وتقاليده ، واكتسب عاما بعد عام ثقة العاهل • وتمكن قوبلاى من استبقاء الايطاليين الثلاثة فى الصين سبع عشرة سنة دون أن يعاملهم بعنف • وفى هذه الفترة ، قام ماركو باسم الخان الأكبر بعدة جولات تفتيشية فى الامبراطورية ، وأقام ثلاث سنوات فى يانج شان Jang Chan حاكما للاقليم ، وذهب أخيرا فى سفارة الى الهند • كذلك أدى أبوه وعمه خدمات للأمير ، ولكن لا يبدو أنهما كانا ، مثل ماركو يعملان فى خدمة الدولة ، بل اشتغلا بالأحرى فى الأعمال التجارية ، وبخاصة تجارة الأحجار الثمينة التى كانت من اختصاصهم • وأخيرا ، فى عام ١٢٩٢ غادر الثلاثة الصين نهائيا ، وركبوا البحر ، وزاروا سومطرة ، والهند ، وهرمز حيث نزلوا برا ، واجتازوا فارس ، وركبوا البحر من جديد عند طربزون • وبعد أن توقفوا بعض الوقت فى القسطنطينية ، ثم فى نجربونت ، وصلوا أخيرا الى وطنهم فى عام ١٢٥٩ • وفى غضون هذه الرحلة الطويلة اضطلعوا بمهام عديدة باسم قوبلاى ، فقد كلفهم بمرافقة أميرة تتارية الى فارس حيث طلب زواجها خان هذا البلد ، وكلفهم أيضا بتسليم عدة رسائل للبابا ، وملوك فرنسا وانجلترا واسبانيا وأمراء آخرين •

وهكذا ، وبسلسلة من الظروف الطارئة فى الظاهر ، قام اثنان من التجار البنادقة برحلة تتعلق بأعمالهما التجارية ، رحلة كان مقدرا لها أن تتوقف عند نهر الفولجا ، ولكنها مضت بهما حتى الصين ، وكان من أثرها أن أتاحت للأوروبيين معرفة هذا البلد معرفة تامة ، عن طريق شواهد

(*) وهما « نيقولو دا فينشزا » وجيلمو ترأيبول » • (المراجع) •

موثوق بصحتها كل الثقة . ومن بين أوصاف الصين التى دونها كتاب عرب وفرس فى العصور الوسطى ، منذ الاكتشافات الأولى التى قام بها بحارة سيراف الى الأخبار الممتعة للغاية التى رواها أشخاص من أمثال ابن بطوطة ورشيد الدين ، لا يقارن أى من كل هذا ، حتى من بعيد بما سجله ماركو بولو من ملاحظات شخصية وصور ، ليس فقط لأهم المدن وأكثرها سكانا وزائرين ، ولكن للقطر كله من النواحى الثلاث ، الاثنوجرافية والاحصائية ، والاقتصادية السياسية ، وباعتباره ابنا كريما لأمة تجارية ، لم يفته دراسة الحاصلات الطبيعية والمنتجات الصناعية فى البلاد التى اجتازها ، ودراسة طرق المواصلات ، والتجارة الكبيرة والصغيرة ، والمراكز التجارية ، ومن ثم لا تقدر ملاحظاته بثمن بالنسبة الى من يخطر لهم أن يذهبوا الى تلك المناطق النائية لعقد صفقات تجارية بها . وأخيرا فان كل ما رواه عن الترحيب الأكثر من ودى الذى استقبل به والده وعمه ، وهو بنوع خاص ، والأمن والنظام السائدين فى هذا البلد ، وثراء سكانه ورفاهيتهم ، كل ذلك أثر فى دنيا التجارة والأعمال تأثيرا قويا . ولست أتحدث هنا عن كتابه ، من حيث أسلوب التدوين السائد وقتئذ ، فلم يكن لينتشر الا فى مجالات محدودة للغاية ، وكان لابد للمعلومات الجديدة التى أتى بها أن تستغرق زمنا طويلا حتى تشيع فى علم الجغرافيا فى ذلك العصر (٢) ، ولكن أتكلم عن أحاديثه المنقولة من فم الى فم ، فى البندقية حيث صادفت أشخاصا لا يصدقونها ، وفى جنوا حيث دون كتابه بالطريقة المعروفة وقتئذ ، وتجاوز تأثير مؤلفه حدود سجنه الضيق ليصل رويدا رويدا الى الساحة العامة . ولكن لما كان الذين يهتمون بتدوين أخبار رحلاتهم ، من ألوف التجار الذين يجوبون العالم ، أقلية نادرة ، فان أسماء الغالبية العظمى من الذين اتخذوا طريقهم الى الصين على ثقة منهم بحكايات ماركو بولو ضاعت فى طيات النسيان .

ومع ذلك فنحن نعرف بعضا ممن سار على هديه . فثمة جنوى اسمه أندالو دى سافينونى Andalo di Savignone ، لم يكد يصل الى الصين حتى حظى بثقة الخان الأكبر ، مثله فى ذلك مثل ماركو بولو ، وكلفه الخان الأكبر بمهمة ، فعاد الى الغرب بصفته ممثلا للخان ، وانتهز فى عام ١٣٣٨ فرصة اقلاع أسطول بندقى فعاد به الى « امبراطورية الوسط » (غالبا عن طريق تانا) (٣) . وفى الفترة التى لم يكن « البولو »

---

(٢) Yule, M. Polo, I, introd., p. cxi et ss.

(٣) Canale, Della Crimea, II, 445 (Marin, V, 261)

ـ يفترض السيد ديزيمونى بحق أن هذا الشخص هو نفسه فرانك اندرياس Franc Andreas الذى يقرأ اسمه فى خطاب من الخان الأكبر الى البابا بنوا الثانى عشر : (Rayn., a.a. 1338, no 73) : Arch. stor. it., 4e série., I, 1878, p. 307. ـــ

الثلاثة قد غادروا الصين ، قام من طورس (١٢٩١) تاجر كبير لا يعرف موطنه ، ولـكنه ايطالى بالتأكيد ، اسـمه بتروس دى لوكالونجـو Petrus de Lucalongo بصحبة الراهب الفرنسيسـكانى يوحنا دى مونتكورفينو Jean de Montecorvino ، وكان هذا الراهب قد بشر (بالمسيحية) فى فارس ، فأراد أن يمضى الى الصين ، ويقدم هناك عظاته الانجيلية ، وحصل على خطاب توصية من البابا نيقولاس الرابع الى الخان الأكبر قوبلاى · وكانت الصين أيضا هى الغاية التى يقصدها بتروس · وذهب الاثنان أولا الى الهند عن طريق هرمز (٤) · واذ وجد المبشر هناك ، على ساحل كروماندل فى مليابور ومجاوراتها أرضـا مهيأة تماما لتقبل عظاته وتفهمها ، فانهما أقاما بها ثلاثة عشر شهرا ، مضيا بعدها الى الصين · ولم يكن للمسيحيين فى هذا البلد حتى ذلك الحين سوى كنائس نسـطورية ، فترك يوحنـا دى مونتكورفينو بها عناصر جالية كاثوليكية رومانية ، وشكلت كنائس وأديرة فرنسيسكانية كثيرة ، وآلاف من المهتدين حديثا قاعدة لهذه الجالية · وعندما بنى فى عام ١٣٠٥ كنيسته الثانية ، أقامهـا فى بكين نفسها خان بالق (Khanbaligh) أمام قصر الخان الأكبر تيمور (٥) ، وأحاطها بأديار ، ومصانع ، ومنازل · وكانت الأرض التى أقام عليها هذه الأبنية هبة من بتروس دى لوكالونجو ، رفيقه القديم فى الطريق · فهاكم اذن مثالا ثانيا لتاجر من الغرب أقام فى الصين عشر سنوات على الأقل (٦) ·

---

(٤) أخذت هذه المعلومة من خطاب لمنينتلوس دى سبوليت Meneatillus de Spel&te نقلها السيد كونستمان Kunstmann فى : Münchener gelehrte Anzeigen, des 24 et 25 déc. 1855, p. 164 et ss.

ولم يكن المؤلف الحقيقى لهذه الأنباء من الهند سوى يوحنا دى مونتكورفينو Jean de Montecorvino والواضح أن كاتب هذه الأخبار كان يعرف بالخبرة الرحلة بين هرمز وساحل كروماندل (Op. cit., p. 175) ، ولابد أن نسلم بأن يوحنا قد سلك هذا الطريق · أنظر : Yule. Cathay, I, 167, 209-218.

(٥) توفى قوبلاى عام ١٢٩٤ ·

(٦) أحسن المصادر فى شأن تاريخ البعثات الى الصين هى الرسالتان اللتان حررهما يوحنا دى مونتكورفينو فى عام ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ولا يسعنى الا أن أحيل القارىء الى ما كتبته فى هذا الخصوص فى : Zeit chr. of histor. Theol., 1858, p. 286 et ss.

واكتفى ها هنا بذكر الفقرة الوارة بالرسالة الثانية والخاصة بالتاجر بتروس دى لوكالونجو ، والمنشورة فى ٨:

— Mosheim, Historia eccl. Tartarorum, append., p. 119.

ولنستمر في متابعة تطور البعثات الكاثوليكية الرومانية في الصين ، حتى نجمع معلومات مهمة عن تاريخ البحارة فيها • فمن بين مدن الأقاليم التي شهدت اقامة كنائس وأديرة على أرضها بفضل همة وحماسة يوحنا دي مونتكورفينو ، نذكر مدينة زيتون Zayton ، وهي مركز تجاري كبير سوف نتكلم عنه فيما بعد بمزيد من التفاصيل • اذ كان بهذه المدينة كاتدرائية وأساقفة كانوا على التوالي من الرهبان الفرنسيسكان ، منهم : جيراردس Gerardus ، وأندرياس Andreas ، وبيريجرينوس Peregrinus • وكتب هذا الأخير في عام ١٣٢٦ خطابا موجها الى بيروز Pérouse مسقط رأسه حكى فيه مغامراته ومغامرات رفاقه • فنطالع في هذا الخطاب ضمن أمور أخرى — أنه هو ومساعديه كانوا يتلقون من الخان الأكبر راتبا سنويا يقال عنه باللهجة الوطنية « علفة » Alaka (٧) ، واستفسر من بعض التجار الجنويين عن قيمة هذا الراتب ، فقالوا انه يصل الى مائة ريال ذهبي (٨) • ولما كان أندرياس قد أقام في الصين دون انقطاع منذ اليوم الذي بدأ فيه يقبض راتبه الى اليوم الذي كتب فيه خطابه هذا ، وأقام في « زيتون » الثماني السنوات الأخيرة ، فلابد أنه رأى في هذه المدينة التجار الجنويين الذين تحدث عنهم • الأمر الذي يؤدي بنا الى نتيجة مهمة ، وهي أنه في عام ١٣٢٦ ، كان في مدينة زيتون الصينية تجار جنويون يزاولون أعمالا تجارية •

وثمة معلومة توضح لنا الى أية درجة كانت مصالح الكنيسة تسير جنبا الى جنب مع مصالح التجارة في هذه المدينة ، ذلك أن الفرنسيسكان لم يكتفوا بأن يشيدوا كنائس لهم وللأهالي الذين تولوا هدايتهم الى المسيحية ، ولكنهم بنوا أيضا فندقا للتجار الغربيين الذين كانت اقامتهم بالمدينة تطول بنوع ما (٩) •

وعلى أية حال فان هذه الظروف تثبت اسهام التجار الفرنجة اسهاما نشيطا في تجارة الصين ، حتى منتصف القرن الرابع عشر على الأقل • وفي هذا القرن بالذات كتب الرحالة الانجليزي موندفيل Maundeville

---

(٧) هذه كلمة عربية فارسية الأصل ، انتقلت الى اللغة المغولية ، ومعناها الأصلي علف : كلأ » وكان بعض السفراء يحصلون ايضا على « علف » ، انظر في ذلك :
— Rachid-eddin, éd. Quatremère, p. 371 ; Clavijo, Vida del gran. Tamorlan, p. 204; Desimoni, Atti della Soc. lig., XIII, 579, noi.

(٨) Mosheim, 1.c., append., p. 122.

(٩) Marignola, dans Dobner, Monum. histor. Boemia, II, 95. ; M. Yule (Cathay, II, 355).
— وقد اقام مارينولا Marignola في الصين من ١٣٤٢ الى حوالي ١٣٤٧ •

أخبار رحلاته ، والتى نطالع فيها ــ رغم أننا لا نثق كثيرا فى شهادته ــ أن تجارا من جنوا والبندقية ومدن أخرى فى شمال ايطاليا كانوا يسافرون الى كاثاى Cathay (وهذا هو الاسم الذى كان الأوروبيون يطلقونه فى العصور الوسطى على الصين ــ المترجم) ، أما بطريق البر أو البحر ، وكانوا يقضون فى رحلتهم من أحد عشر الى أثنى عشر شهرا حتى يصلوا اليها (١٠) • وليس لدينا ــ حسبما سبق ذكره ــ أى باعث للشك فى صحة هذه المعلومة • ألسنا نرى كاتبا موثوقا بصحة أخباره ، وهو اودريكو دا بوردينو Oderico da Pordenone يقول ، وهو يصف كينساى الكبيرة أنه يعرف فى البندقية كثيرا من الأشخاص الذين ذهبوا الى هذه المدينة ، وهم على استعداد لتأكيد ما قد يبدو فى أقواله من مبالغة (١١) ؟

كان للتجار الغربيين أن يختاروا بين عدة طرق تؤدى بهم الى الصين ، يذكر يوحنا دى مونتكورفينو منها طريقين (١٢) : أقصرهما ، وأكثرهما أمنا طريق برى يبدأ من القرم فى وسط آسيا ويستغرق من خمسة الى ستة أشهر ، والثانى أطول منه بكثير ، يتطلب مالا يقل عن سنتين ، ويقضى فيه المسافر كل وقته فى البحر • ولا شك أن يوحنا ، وهو يصف الطريق الثانى ، كان يفكر فى رحلته هو (١٣) • ولكن مبشرا آخر ، اودريكو دا بوردينونى اتبع الطريق نفسه تقريبا (١٤) ، كما اتبع ماركو بولو عند عودته من الصين هذا الطريق ، ولكن بالاتجـــاه العكسى • ولنرى قليلا أين يمر هذا الطريق • كان المسافر يطأ أرض القارة الأسيوية عند طربزون أو لاجاتزو (اياس) ، ثم يمضى الى طورس T ouris بطريق القوافل الذى وصفناه بالتفصيل ، ثم يجتاز بلاد الفرس حتى يصل الى هرمز مارا بيزد Yezd (١٥) ، وهناك يركب سفينة تبحر محاذية لساحل ملبار ، ثم يصعد بحذاء ساحل كرماندل ، ويبتعد فى وقت ما فيعبر فى خط مستقيم خليج البنغال فى اتجاه سومطرة ، وينهى رحلته بالالتفاف

---

(١٠) The voiage and travaile of Sir John Manudeville, Lond. 1727, p. 256, 328.

(١١) بايجان فى : Ramus, II, 255.

(١٢) فى خطابه الأول ، لعام ١٣٠٥ : Mosheim, Hist. eccl. Tartar, append. no 44 :

(١٣) Yule, Cathay, I, 201.

(١٤) Ibid. II, append., 2, p. i et ss.

(١٥) M. Pòlo, éd. Pauthier, I, 70 et ss. Oderico, l. c., p. iii.

حول الهند الصينية . وبالنسبة الى يوحنا دى مونتكورفينو ، كانت الرحلة بين هرمز والصين تنقسم الى مرحلتين ، لأنه توقف في الطريق وأقام مدة طويلة في الهند . ولم يكن الأمر يختلف عن ذلك بالنسبة الى التجار ، فقد كانوا يتوقفون بعض الوقت في ميناء أو آخر من موانىء الهند ، اذ يجدون بها فرصا للقيام بأعمال تجارية واكتساب معلومات تفيدهم فى مزاولة مهنتهم . فضلا عن ذلك كانت ضرورة نقل البضائع من سفينة الى أخرى تتطلب الكثير من التباطؤ .

ويختلف اتجاه الطريق البرى تبعا لنقطة البداية المختارة لنفرض مثلا أن تاجرا نزل من البحر في قارة آسيا عند ميناء لاجاتزو (اياس)، وأراد من هناك أن يتوغل داخل البلد ، وهو أمر عادى جدا في عصر ماركو بولو ، وكانت غايته الأولى على أية حال مدينة طورس . فلو أراد من هناك أن يذهب الى الصين عن طريق البر ، متجنبا البحر ، فعليه أن يتخذ طريق بخارى وسمرقند . ولنتذكر أنه فى بخارى التقى مبعوثون من التتار فى طريقهم من فارس الى الصين بالأخوين بولو ودعوهما للذهاب معهم . والراجح أن أول مدينة نزلوا بها بعد بخارى كانت سمرقند ، ومن المحتمل جدا أن يكون ماركو بولو قد وصف هذه المدينة تبعا للصور التى سمع تفاصيلها من أبيه وعمه (١٦) ، ذلك لأنه حين قام معهما فيما بعد بالرحلة الى الصين ، تركوا المدينة خارج طريقهم ، فرحلوا من بدخشان Badakhchan واجتازوا هضاب بامير Pamir العالية القاحلة ، وانتهوا فى حوض نهر تاريم Tarim . ويصعب تحديد الاتجاه الذى اتخذه نيكولو ومافيو بولو بعد بخارى وسمرقند . وتبعا لرواية ماركو بولو ، فانهما اتجها ناحية الشمال والشمال الشرقى حتى ختام رحلتهما ، أى من بخارى الى الصين (١٧) . ومن ثم فلابد بطبيعة الحال من الاستنتاج مع السيدين بوتييه Pothier وريختهوفن Richthofen (١٨) بأن طريقهم كان هو الطريق التجارى الذى يحاذى السفح الشمالى لجبال تيان شان . ويضيف ماركو بولو أنه يمسك عن ذكر المزيد من التفاصيل ، ذلك لأنه زار بنفسه فيما بعد كل البلاد التى عبرها أبوه وعمه فى هذه الرحلة الأولى ، وأنه سوف يصفها فى كتابه . الا أنه لا يوجد فى كتابه كله كلمة واحدة عن البلاد الواقعة شمالى جبال تيان شان ، بل يبدو أنه لم يسمع عنها قط . وكان الطريق الذى اتبعه هو نفسه يمتد جنوبى هذه الجبال ، وعلى مسافة كبيرة منها .

---

(١٦) Note de M. Yule, M. Polo, I, 172.

(١٧) Ed. Pauthier, p. 10.

(١٨) Pauthier, introd., p. xxvii ; Richthofen, China, I, 608.

لابد لنا اذن أن نقر بأنه على أية حال اذا كان نيكولو ومافيو ، في رحلتهما الأولى ، وبعد أن غادرا بخارى ، واصلا السير في اتجاه الشمال الشرقي ، فانهما لم يتجاوزا خوقند Khokand في هذا الاتجاه ، وسارا من ذلك الحين نحو الجنوب الشرقي ليصلا الى كاشغر Kachgar عن طريق ممر تيريك الجبلي Terck (١٩) · وبين كاشغر وبحيرة لوب Lop يعدد ماركو بولو مجموعة من المدن تعين في الواقع مراحل رحلته الخاصة ، ولكن لابد أنها ، كما ذكرنا قبلا قد مر بها أبوه وعمه أول مرة ذهبا فيها الى الصين · والمدن الأولى ، وكاشغر ، ويرقند ، وختن معروفة ، وذكرت مرارا ، ولكن بالنسبة الى المدن التالية « باين » Pein ، وشرشان Charchan (سيارسيام Siarciam عند بوتييه) فمن العسير تحديد مواقعهما · يقول السيد بوتييه ان «باين» لابد أن تكون هي مدينة « باى » Baï (Paï) الحالية الواقعة مع ختن على خط زوال واحد ، ولكن فيما وراء نهر تاريم على السفح الجنوبى لجبال تيان شان · وبخصوص شرشان ، يقول الكاتب نفسه انها لابد أن تكون كراشار Karachar في الشمال الغربي من بحيرة لوب ، وهي مدينة تسمى باللهجة الصينية القديمة سي-تشيو (٢٠) Si-tchéou غير أن نقطة البداية عند ماركو بولو كانت كاشغر ، ونقطة الوصول بحيرة لوب · وتبعا لتخطيط السيد بوتييه ، لابد أن النصف الأول من الطريق الذى تحدد بمحطتي يرقند وختن يتجه من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، ويصعد فجأة في النصف الثانى ممتدا شمالي نهر تاريم ! وهذا أمر مستبعد الوقوع ، ولا يسعنا أن نسلم به ، اللهم الا لأسباب تثبت صحتها · ولكن السيد يول Yule كفانا لحسن الحظ مشقة البحث في هذا الموضوع · فقد اكتشف بعد أبحاث طويلة أجراها أن الطريق الذى اتبعه ماركو بولو من كاشغر الى بحيرة لوب كان طول الوقت جنوبي نهر تاريم · فقد أثبت أولا ، اعتمادا على مصادر صينية أنه كان يوجد شرقي ختن ، في الفترات الأولى من العصور الوسطى (٢١) مدينة اسمها بيما Pima تماثل في وصفها مدينة « باين »

---

(١٩) Humboldt ; Osie centrale, III. 385 et s. ; Ritter, Asien, VII, 475 et ss.

- هذا طريق القوافل يستخدم طول السنة تقريبا : حقا انه طريق وعر جدا ، ولكنه مع ذلك أسهل من الطريق الذى يعبر هضاب بامير المرتفعة ·

(٢٠) M. Polo, I, 145 et ss.

(٢١) الى الشرق . لا الى الغرب كما تبين في الخرائط التى رسمها السيد فيفيان دو سانت مارتان :

— M Vivien de Saint-Martin, pour le voyage de Hiouenthsang ; voyez lè Mémoire qui accompagne la carte, II, 428, not. 1.

التي ذكرها ماركو بولو ، وثانيا أنه يوجد حاليا حسب المعلومات المستقاة من أفواه مسافرين حديثين ، الى الشرق من ناحية بحيرة لوب مكان يسمى شاشان Chashan يذكرنا اسمه ببلدة شرشان Charchan التي ذكرها ماركو بولو (٢٢) .

ولم نكن لنتوقف هكذا طويلا عند هـذا الجزء من وصف طريق ماركو بولو اذا كان الأمر يتعلق بمجرد طريق ضاعت معالمه ، كان يتبعه عدد قليل من الرحالة ، ولكن ما يراد معرفته هو القسم المتوسط من شريان من الشرايين الكبرى التي تربط غرب آسيا بالصين . فأول كل شيء ، يجتاز هذا الطريق قطرا مزروعا زراعة جيدة ، ومزدحما بالسكان ، ويمر بمراحل كثيرة مثل كاشغر ، ويرقند ، وختن ، وهي مدن مزدهرة ، أثرتها التجارة والصناعة (٢٣) . وابتداء من « باين » يتقدم المسافر صوب « استبس » (سهوب) رملية ، يذكر منظرها بالاقتراب من الصحراء الكبرى الرملية : ومع ذلك ففي هذا النصف الثاني من الطريق ، يجتاز المرء أيضا أماكن آهلة بالسكان (٢٤) . وبوجه عام كانت المنطقة شرقي ختن فيما مضى أكثر ازدحاما بالسكان (٢٥) ، لم يكن وجود طريق يؤدي مباشرة من ختن الى الصين دون أن يمر ببحيرة لوب (٢٦) في القرن السابع أمرا مستحيلا . ولكن في القرون التالية لم يكن ثمة من يتبع هذا الطريق الا في حالة الضرورة القصوى ، مثلما فعل سفراء شاه رخ Châh Rokh عند عودتهم من الصين ليتخلصوا من مطاردة أعدائهم (٢٧) . وهناك رواية

---

(٢٢) Yule, M. Polo, I, 176 et ss. (cf. Journal of the geogr. Soc., XLVI (1876), p. 297; Richthofen, China, I, 609 et la carte no 11.; v. les notes do Palladius sur le livre de M. Polo, publiées en extrait dans le Magazin für die Lit. des Ausl., 1876, p. 345.

(٢٣) يؤكد أقواله ماركو بولو (I, 134-144) وصف لهذه المدن مأخوذ من كتاب فارسي بعنوان Heft Iklim (الأقاليم السبعة) ، ونشره السيد كاترمير : — Quatrémère dans les Not. et extr., XIV, I. p. 474.

(٢٤) Polo, I, 145-148.

(٢٥) Quatremére, l.c.), pp. 474, 477.

(٢٦) Hiouenthsang, II, 246 et s., 428.

(٢٧) Not et extr., XIV, 1, p. 425. Cherefeddin (Histoire de Timur-bec, III, 218).
ـ كان شرف الدين أيضا يعرف طريقين من ختن الى خان بالق ، أحدهما يمر بقرى خوجة Karakhodja (بالقرب من طوفان) ويستغرق ٦١ يوما ، والثاني يمر بصحراء قفر ، ويتيح الوصول الى حدود الصين في اربعين يوما فقط . ويبدو أن الأول هو الذي يحاذي السطح الجنوبي من جبال تيان شان ، والثاني هو طريق الصحراء الذي ورد ذكره في النص : ولم يكن الكاتب يعرف الطريق الثاني الا بسماعه أقوالا مأثورة ، تعتبر جديرة بالثقة .

شاعت فى بخارى الصغرى فى القرن السادس عشر خلدت ذكرى هذا الطريق المختصر ، وعدد كبير من المدن والقرى التى لابد وأنها كانت تغطى المنطقة التى تحولت فيما بعد الى صحراء تجول فيها الجمال الهائمة . ومهما كان الأمر ، ففى عصر ماركو بولو كان الناس يمرون عادة ببحيرة لوب ، وكان المسافرون يتوقفون فى المدينة التى تحمل هذا الاسم حوالى ثمانية أيام لتهيئة دوابهم لعبور الصحراء الرملية . وكان لابد من السير شهرا فى هذه الصحراء قبل أن تظهر أول مدينـة صينية ، وهى شاتشيو ساتشيون Sha-Tchéou (Saciu) (٢٨) .

ونرى على الخريطة القطالونية ، الى جانب صـورة قافلة ، كتابة تشرح لنا انها ذاهبة الى الصين على خط مستقيم ، عن طريق لوب ، ومعها بقر ، وجمال ، وعربات . فهل حصل واضع هذه الخريطة على هذه المعلومة من أفواه التجار الذين قاموا بهذه الرحلة ، وهل نستنتج من ذلك أنه فى القرن الرابع عشر لم يزل الناس يتبعون طريق القوافل الذى يمر ببحيرة لوب ؟ انه لأمر مشكوك فى صحته ، بل يبدو لى أنه يتبع ما كتبه ماركو بولو ، فينقل على خريطته بايجاز الفصل الخاص بمدينة لوب (٢٩) . ولكن هناك شيئا واحدا يكشف عن تأثير تقارير التجار فى عصر لاحق لعصر ماركو بولو : ذلك أن واضـع الخريطة يجعـل قافلته ترحل من امبراطورية سراى Saraï (القفجاق) . صحيح أن الأخوين بولو ، قبل أن يقوما برحلتهما الى الصين بدآ بالذهاب الى امبراطوريـة القفجاق ، ولكن لم يكن ذلك بالتأكيد لينضما هناك الى قوافل ، ويسيرا معها ، فلم تطرأ عليهم فكرة الذهاب الى الصين الا فى بخارى . ولم يكن هناك قوافل ترحل من امبراطورية القفجاق الى الصـين ، ولا فى القسم من حكاية ماركو بولو المتعلق بهذه الرحلة الأولى ، ولا فى أى جزء من كتابه بوجه عام ، الأمر الذى لا ينفى وجود مواصلات تجارية أكيدة بين الامبراطوريتين التتاريتين ، امبراطورية القفجاق ، وامبراطورية كاثاى (الصين) . ولم يعرف التجار الغربيون شيئا عن القوافل التى تقوم بهذه الاتصـالات التجارية الا حين استقرت المستعمرات الايطالية فى البحر الأسود وبحر آزوف استقرارا يسمح لها باقامة علاقات معها . بقى أيضا أن نعرف ماذا كان من عادة القوافل الراحلة من بلاد القفجاق (أى من امبراطورية التتار الشمالية حسبما يقول يوحنا دى مونتكورفينو) أن تتخذ اتجاها مباشرا صوب الجنوب حتى تصل الى الصين ، مثلما فعل ماركو بولو عن

---

(٢٨) Polo, I, 149-152.

(٢٩) Not. et extr., XIV 2, p. 130-132.

طريق كاشغر ، وختن ، ولوب • ورى أن هذا لم يكن الا بطريق الاستثناء ، وأن واضع الخريطة القطالونية قد أخطأ حين جعل قوافل القفجاق التى كان ينضم اليها في عصره التجار الذين يبدأون رحلتهم من كافا أو تانا ، جعلها تمر بلوب ، أى تسير فى طريق وجد اشارة اليه فيما رواه ماركو بولو • وسوف نرى بعد قليل ، على العكس من ذلك ، أن المسافر الذاهب الى الصين عن طريق سراى كان يمر شمالى جبال تيان شان •

ولكن ، قبل أن ننشغل بطريق الشمال ، نلاحظ أنه للذهاب الى الصين عن طريق كاشغر وبخارى الصغرى ، كما فعل أفراد أسرة بولو ، لم يكن المسافر مضطرا لأن يتبع قوس الدائرة الكبيرة المتجه صوب الجنوب بالطريق الذى وصفنا مساره : فقد كان هناك بين نهر تاريم وجبال تيان شان طريق آخر أكثر استقامة ، مراحله الرئيسية هى آق صو Aksou وكوتشى Koutché ، ومن هذه النقطة الأخيرة ، وكاراشار Karachar. وبدلا من الانحراف جنوبا صوب بحيرة لوب ، يصعد الطريق الى الشمال الشرقي فيمر طورفان Tourfan ، وينضم الى طريق الشمال الذى سوف نصفه ، وينتهى معه الى واحة خميل Khamil • هذا هو الطريق الذى كان يسلكه ، كله أو بعضه مختلف المسافرين فى عصـــور متباعدة عن بعضـــها البعض ، مثـــل الحاج الصينى هوين تسانج Hiouenthsang فى القرن السابع (٣٠) ، ومبعوثى شاه رخ فى عام ١٤٢٠ (٣١) ، وتاجر الراوند الفارسى حاجى محمد فى أواسط القرن السادس عشر (٣٢) • ومع ذلك فمن المشكوك فيه أن يكون هناك تجار غربيون قد سلكوا فى العصور الوسطى طريقا يحاذى السفح الجنوبى لجبال تيان شان • وعلى ذلك فلا فائدة من الدخول فى مزيد من التفاصيل عن هذا الطريق •

ولنعد الى الطرق الشمالية القصوى التي يختار بينها المسافر الى الصين • يعطينا بالدوتشى بيجولوتى Balducci Pegolotti عنها لمحة موجزة ، وليست معلوماته مأخوذة من مذكرات رحلاته ، ولكنه حصل عليها من أفواه تجار يعرفون هذا الطريق لأنهم سلكوه • فهو يتخذ تانا نقطة بداية • فالواقع كانت هناك ميزة فى بدء الرحيل من هناك بدلا من النزول برا من البحر فى كافا أو صولداديا ، اذ كان فى ذلك اختصار فى

---

(٣٠) عند عودته من الصين ، ولكنه لم يذهب حتى كاشغر :
Hiouenthsang, I, 1-10; II, 263-266 :

(٣١) Not. et extr., XIV, 1. p. 388 et s.

(٣٢) Ramusio, Viaggi. II, 14-16; Voy. Yule, Cathay, I, ccxv-ccxx, et II, 572-576.

السفر عن طريق البر . ونلاحظ هنا أنه فى الزمن الذى قام فيه جويوم دى روبروك والأخوان بولو برحلاتهم ، لم يكن الغربيون يملكون هذه المحطة فى بحر آزوف ، لذلك تعين عليهم الانطلاق من القرم . ويذكر يوحنا دى مونتكورفينو (١٣٠٥) كنقطة بداية لطريق الصين ، بلد القوط التابع لامبراطورية التتار الشمالية (٣٣) ، ويشير هذا بعبارات واضحة كل الوضوع الى شبه جزيرة القرم التى كانت تابعة لخانات القفجاق ، ولم يزل بها كما نعلم بعض سلالات العنصر القوطى على الساحل الجنوبى . وفيما بعد حين أنشأ الايطاليون فى تانا مستوطنات لهم يجد فيها التجار الذين يريدون الارتحال عبر آسيا الوسطى نفس التسهيلات التى يجدونها فى صولدايا لاعداد ما يلزمهم فى رحلتهم الطويلة ، فلا شك أنهم يفضلون أن يبدأوا رحلاتهم من تلك المدينة (تانا) ، وكانوا يستعملون فى هذا البلد عربات ذات أربع عجلات لها غطاء من اللباد أو النسيج الكتانى (٣٤) ، تجرها دواب من البقر أو الجمال أو الخيول حسب أهمية الحمولة وطبيعة الأرض التى تسير عليها . ومن تانا الى استراخان تستغرق الرحلة خمسة وعشرين يوما على عربات تجرها أبقار ، وعشرة الى اثنى عشر يوما فقط بعربات تجرها الخيول (٣٥) . ولم تكن مدينة استراخان المشار اليها هى نفس مدينة استراخان الحالية ، ولكنها فى العصور الوسطى كانت واقعة على الضفة اليسرى من نهر الفولجا على بعد ثمانية الى عشرة فيرست verstes (مقياس روسى للطول يساوى ١٠٦٧ مترا ـ المترجم) أعلى مدينة استراخان الحالية (٣٦) ، وقد دمرها تيمور لنك . وكان اسمها باللغة التركية حاجى ترخان Hadji-Terkhan (٣٧) ، التى جعلها بيجولوتى : Gittarchan (٣٨) ، وجعلها باربارو ، وكونتارينى: Citracan (٣٩) ، فى حين نجد على بعض خرائط القرون الوسطى كلمة قريبة الشبه من الاسم التركى،وهى Agitarcham أو Azetarcham (٤٠).

---

(٣٣) Wadding, Annal. ordin. minor., VI, 69 et s.

(٣٤) V. Ibn-Batouta, II, 361 et s.

(٣٥) Viaggi alla Tana, p. 83 et s. Ambr. Contarini :
ـ يقدر كونتارينى مسيرة ثمانية ايام فقط .

(٣٦) Muller, Darstellung des Stromsystems des Wolga, p. 536, 557, 578 et s. ; Dorn, p. 75.

(٣٧) Ibn-Batouta, II, 410.

(٣٨) كتب بالاسم Gittatchan فى السطر الاول ، فى حين نقرأ Gintarchan فى السطر الرابع ، والأرجع استخدام الشكل الأخير .

(٣٩) Viaggi alla Tana, p. 18, 83 et s.

وقد وصف ابن بطوطة (٤١) هذه المدينة فقال انها مدينة جميلة . بها أسواق فسيحة ، وسوف نتكلم عن أهميتها من حيث التجارة بوجه عام .

أما طريقنا ، فانه يبدأ من استراخان ، وبدلا من أن يتجه باستقامة صوب الشرق ، فانه يصعد الى الشمال ، اذ كان لزاما أن يلتف حول دلتا نهر الفولجا وفروعه العديدة ، ومن جهة أخرى كان لسراى ، المقر الرئيسى لخانات القفجاق ، والواقع شمالى نهر الفولجا . أو بالأصح على ذراع ثانوى لنهر آقتوبا Aktouba ، كان لها جاذبية شديدة للمسافرين والتجار والمعروف أنه لا يوجد سوى مدينتين كائنتين على الضفة اليمنى لنهر آقتوبة ، تذكران بأطلالهما الشاسعة التى لم تزل ظاهرة الى الآن ، وبمظهرهما الضخم بالعاصمة القديمة لخانات القفجاق : احداهما زارف Zarev ،شرقى زاريزين Zarizyn ، والثانية سيليتريتوى Selitreunaje أو Djigit-Hadji) وتقع على مسافة أبعد الى الجنوب (٤٢) . والأولى تثير دهشة كبيرة بالأبعاد الشاسعة التى تكشف عنها الخرائب التى تغطى الأرض على مدى البصر ، وبينما الثانية تثير الدهشة بأناقة مبانيها وبذخها . والحقيقة أنه كان هناك مدينتان باسم سراى . فاذا كان اسم « سراى الجديدة »(٤٣) هو الذى يتمثل لنا فى أكثر الأحيان ، فذلك لأنه يضم ورشة لسك النقود . غير أن نعت « الجديدة » هذا كان بذاته برهانا لوجود سراى « قديمة » . ومن جهة أخرى يقول ابن بطوطة الذى زار احدى المدينتين انها تسمى « سراى بركة » (٤٣) ، ولم يكن هذا على ما يبدو الا لتمييزها عن « سراى » أخرى أطلق عليها اسم خان آخر . وبالفعل يوجد على خريطة فرامورو Fra Mauro مدينتان باسم سراى . بقى أن نعرف أيا من خرائب زارف أو سيليترينوى هى بقايا أقدم مقر لخانات القفجاق (٤٥) .

---

(٤٠) M. Yule (Cathay, II, 287).

(٤١) Ibn-Batouta, II, 141.

(٤٢) Muller, Das Stromsystem der Wolga, p. 570-577 ; Yule, M. Polo, I, 5, 6 (avec carte et plan)

من السهل معرفة موقع هذين المكانين بالرجوع الى الخريطة التى نشرتها حكومة ستراخان فى :

les Petermanns Mitheilungen, 1858 pl. 5.

(٤٣) Froehn, Die Munzen der Chane vom Ulus Dschutschi's, p. 44; Grigoriew, dans Ermans Achiv., V. 34 et s.

(٤٤) Ibn-Batouta, II, 447.

(٤٥) رأيى الذى اقتنعت به فى صالح الآخرين ، وانى فى هذا الخصوص أؤيد :

كانت سراى القديمة مقرا شتويا أنشأه « باتو » وأتم بناءه « بركة » خليفته، وقد زارها جويوم دى روبروك فى عهد باتو • وتبعا لتقديراته للمسافات (٤٦) ، فلابد أن نسلم بأنها كانت أقرب الى بحر قزوين من مدينة زارف الحالية • ثم ان العبارات التى ذكر بها فيما بعد بيجولوتى هذه المدينة لا تتوافق مع موقع المدينة الأخيرة (زارف) • والواقع أنه على فرض أن سراى كانت قائمة فى موقع مدينة زارف الحالية : فان القسم الأول من خط السير الذى رسمه بيجولوتى : تانا ـ استراخان ـ سراى ـ سراجوق Saratchouk يمثـــل تعرجا يصعب فهم علة وجوده • والأمر الذى يبدو أكثر غرابة ، ليس فى أن المســافر ينحرف فى الاتجــاه العام لطريقه من الغــرب الى الشرق ، وينعطف انعطـــافا شــــديدا صـــوب الشمال : فأهمية سراى ، وامكانية الانضمام بها الى قوافل كبيرة تبرران هذا الانحراف تبريرا كافيا ، ولكنا نتساءل عما يجبر المسافر الذاهب من تانا الى سراى على أن يمر باستراخان : فهذا ما يمكن أن نسميه رسم مثلث بدلا من خط مستقيم • ومن جهة أخرى يقدر بيجولوتى المسافة بين استراخان وسراى بمسيرة يوم واحد ، بينما تقدرها الحوليات الروسية القديمــة لينكون Nikon بيومين (٤٧) • ولكن حتى اذا سلمنــا بأن استراخان العصور الوسطى كانت واقعة على نهر الفولجا على بعد ميل (ثمانية كيلو مترات تقريبا) من المدينة الحالية ، فمن المستحيل مع ذلك الذهاب من هناك الى زارف فى يومين ، ومن باب أولى فى يوم واحد • واذا رجعنا أخيرا الى ما كتبه أبو الفدا ، نجد أن هذا الجغرافى يقول ان سراى لم تكن الا على مسيرة يومين من بحر قزوين (٤٨) • أليس فى ذلك مجموعة من الظروف التى تبدو أنهـــا تدل على الموقع الذى تشـــغله سيليترينوى على بعد حوالى اثنى عشر ميلا ألمانيا (تسعين كيلو مترا).

— M. Bruun (La résidence des Khans de la Horde d'Or. 1876, en russe).

M. Désimoni (éd. de Langele, p. 25, not. I) et M. Schmidt (dans l'étude ......citée à la note ci-dessou).

(٤٦) Guill de Rubr., p. 576 ; F.M. Schmidt, Ueber Rubruks Reise, dans la Zeitschrift der Gesellx haft fut Erdkunde 9u Berlin, 1885, p. 234 et ss.

(٤٧) Muller, Op. cit., p. 569.

« يذكر ابن بطوطة : فسرنا من السرا عشرة أيام ، فوصلنا الى مدينــة سراجوق ، ومعنى جوق : صغير • فكأنهم قالوا : سرا الصغيرة » (المراجع) •

(٤٨) Aboulf., trad. Reinaud, II, 323.

من مدينة استراخان الحالية ؟ حقا ، ان بيجولوتى وأبا الفدا لا يتكلمان الا بما سمعاه ، ولكن ابن بطوطة زار بنفسه الأماكن التى وصفها • فعند مغادرته استراخان ، صعد مجرى نهر الفولجا ووصل الى سراى فى اليوم الثالث (٤٩) • ولكنه سافر فى الشتاء ، وفى هذا الفصل ، حيث النهار قصير ، لا يستغرقه وقت طويل ليصل الى الموضع الذى توجد به سيليترينوى ، انما يقتضيه وقت أطول ليصل الى الموضع الذى تشغله زارف • وفى الآونة التى زار فيها ابن بطوطة سراى باتو ، وهى نفس المدينة التى وصفها قبله جويوم دى روبروك ، كانت ولم تزل مقرا للخانات • ولكن من زيارة أحدها الى زيارة الآخر تغير مظهر المدينة • فقد شبهها جويوم دى روبروك بالضيعة Casal ، ولابد أنها اتسعت بعد ذلك وضمت سكانا ازداد عددهم باستمرار ، وكانوا خليطا من المسلمين والمسيحيين ، وفيهم مغول ، وهم أمة سادة البلد ، واوسيتين Assettes قفجاق (قومان Cumans) ، وشركس ، وروس ، وروم • ويعج حى الأجانب والتجار بحشد خليط من فرس وأهالى بلاد ما بين النهرين ، ومصريين ، وسوريين ، وغيرهم • وكانت الأسواق فسيحة ، وأهمها سوق العبيد (٥٠) وبعد مرور ابن بطوطة بوقت قليل ، نقل البلاط مقره الى سراى الجديدة التى شيدت له فوق الموقع الحالى لمدينة زارف : واستلزم هذا التغيير دون شك نقل السوق • وثمة رواية غير موثوق كثيرا بصحتها ، تنسب انشاء المقر الجديد الى جانى بك خان (١٣٤١ – ١٣٥٧) (٥١) ، وكان ازدهارها قصير الأمد ، اذ دمرها تيمورلنك عام ١٣٩٦ (٥٢) •

ومن سراى يمتد الطريق الذى وصفه بيجولوتى فى اتجاه سراجوق (ساراكانكو) Saraïtchik-Saracanco ، ويمكن الوصول الى هذه المحطة الجديدة بالطريق البرى ، ولكن التجار المسافرين ومعهم أمتعتهم يفضلون الذهاب اليها بالطرق المائية ، وذلك لأسباب اقتصادية • وكان الطريق المائى هو الذى اختاره الراهب « المتأمل » باسكاليس Paschalis, de Victoria الذى وصف رحلته بتفصيل أكثر من وصف بيجولوتى ، لأنه قسم الرحلة الى مرحلتين : ملاحة نهرية على نهر

(٤٩) II, 446.

(٥٠) Ibn-Batouta, II, 447 et s.; Chahabeddin, p. 237 ; Aboul., l.c.

(٥١) Muller, op. cit., p. 571.

(٥٢) Hammer, op. cit., p. 362 et s.

الفولجا حتى مصبه ، وملاحة بحرية بحذاء الســـاحل الشــمالى لبحر قزوين (٥٣) ، وقدر للرحلة كلها اثنى عشر يوما ، بينما قدر بيجولوتى لها ثمانية أيام فقط • أما ابن بطوطة فانه اجتاز المسافة من سراى الى سراجوق فى عشرة أيام بعربة تجرها خيول• وكانت سراجوق على نهر ايايك Iaïk (أورال) على بعد ثمانية وخمسين فيرست verstes من مصبه فى بحر قزوين ، ويعبر الناس هناك النهر على قنطرة من مراكب • وكان خانات « القبيلة الذهبيـــة » يقيمون هناك من وقت لآخر ، وهــذا على الأقل ما يدل عليه اســـم المدينة ، ومعنــــاه « السراى الصغيرة » أى « القصر الصغير » • ونجد هذا الاســـم يتردد كثيرا باعتبـــاره مدفنا للخانات ، وورشـــة لســك النقود (٥٤) • ومن الســهل التعرف على أطلال المدينة ، ومحطة القوزاق الموجودة بالقرب منها تخلد اسم المدينة القديمة (٥٥) • مثال ذلك أن القوافل التى تمر من هناك لم تعد تتخذ نفس الاتجاه الذى كانت تتخذه فى عصر بيجولوتى ، فهى تذهب الآن من خيوة Khiva (تشـــكالوف الآن ـ المترجم) الى أورنبرج Orenbourg وقد ترك ابن بطوطة خيله عند سراجوق ، واستبدل بهــا جمالا ، لأنه بعد أن يخرج من المدينة يبدأ فى عبور صــحراء لا تجد الخيول فيهــا ما تأكله (٥٧) • كذلك اتخذ باسكاليس والتجار الذين زودوا بيجولوتى بالمعلومات ابتداء من سرايتشيك عربات تجرها جمال • وحين يسافر التجار بلا متاع ، يفضلون المضى فى خط مستقيم ، أى شمالى بحر آرال ، من سراجــوق الى اتـــرار Otrar على نهـــر ســـيحون فيصــــلون فى خمسين يوما ، فاذا كانوا يحملون بضائع ، فانهم يزورون أولا أورجانج Ourgendj ، وهى سوق كبيرة يصرفون فيها بضائعهم بربح وفير ، فلا يهمهم أن يتحولوا فى سبيل ذلك عن الطريق المباشر ، من خمسة الى عشرة أيام : فالواقع أن الطريق من سراجوق الى أورجــــانج يســـتغرق

---

(٥٣) Wadding, Annal. minor., VII, 256 et s.

(٥٤) Ibid, III, 1.

(٥٥) Hammer, Op. cit., p. 11, 252, 280, 299, 313 : Fraehn, Die Münzen der Chane des Ulus Dschutschi, p. 44 ; cf. Ausland, 1874. p. 612.

(٥٦) Charmoy, dans les Mém. re l'Acad, de St Pétersb., 6e série, polit. hist. et philol., III, 129 et s. ; Muller, Der ugrische Volksstamm. 1ére part., sect., p. 59 et ss.

(٥٧) Ibid, III, 1 ; cf. 451.
Ibn-Batouta : III, 2.

مسيرة عشرين يوما (٥٨) ، وخمسة وثلاثين الى أربعين يوما من أورجانج الى آترار . وبعد أن يجتاز المسافر الصحراء الممتدة من بحر قزوين الى ارال دون أن يلتقى بمخلوق ، يجد نفسه فجأة وقد انتقل الى شوارع أورجانج الفسيحة ، وأسواقها الجميلة التى تعج بحشد كثيف من الناس يجد صعوبة فى شق طريقه بينهم (٥٩) : وفى هذا تباين عجيب . وحين يرى المرء الأطلال المتناثرة وسط طبيعة قاحلة ، على بعد أربعة فرستات من قرية أورجانج القديمة على ذراع من نهر جيحون (٦٠) ، يتصـــور بصعوبة أنه فى زمن ما كانت هناك مدينة من أكبر مدن الأتراك وأجملها ، حسب تعبير ابن بطوطة ، قائمة على هذا الموقع ، على ضفتى نهر عميق لم يزل صالحا للملاحة حتى ترمذ Termeh (بالقرب من بلخ Balkh (٦١) . والاسم الذى عرفت به هذه المدينة فى الغرب (٦٢) هو الذى أطلقه عليها المغول والترك (٦٣) . وفى البداية سماها العرب والفرس جرجان ، أو جرجانية (٦٤) . ولما كان هناك مدينتان بهذا الاسم غير بعيدتين احداهما عن الأخرى ، فينبغى الاحتراز من الخلط بين جرجانية الواقعة على نهر جيحون بالقرب من الطرف الجنوبى لبحر أرال ، والتى نتحدث عنها هنا ، وبين المدينة الأخرى التى لها الاســـم نفســـه (واسمها الحقيقى جرجان (Djordjan الموجودة على نهر جرجان الصغير ، على مسافة غير بعيدة من

---

(٥٨) قطع ابن بطوطة هذا الطريق فى ثلاثين يوما ، دون أن يستريح الا بالقدر الضرورى .

ـ يقدر شهاب الدين (ص ٢٨٧) المسافة بين سراى وأورجينج بمسيرة شهر ونصف ، ويقدرها ابن بطوطة (II, 450 et s) بأربعين يوما .

(٥٩) Ibn-Batouta. III. 3 et ss.

(٦٠) Abbott, Narrative of a journey from Heraut to Khiva 2e éd., I, 204 et s. ; Bosiner, Reise durch die Kirgisen-steppe nach Chiwa, p. 97 et ss. ; Zimmermann, Ueber den untern Lauf des Oxus, p. 113.

(٦١) قابل ملحوظة ابن بطوطة هذه بالفقرة التى كتبها همبولت :
Humboldt. Asie centrale, II, 246.

(٦٢) Ourgandj. d'apr&s Michaud et Rachidedin ; v. Quatremème, Chehabeddin, p. 289.

(٦٣) Ourgandj. d'après Michaud et Rachidedin ; v. Quatrem&re, Chehabed- Cnehabeddin, p. 289.

(٦٤) Chehabeddin, p. 232, 265, 289; Sprenger, Die Post-und Reiserauten des Orients, p. 32-36 ; Aboulf., Géogr., II, 2, p. 209 et s. ; Chemseddin, p. 310.

الزاوية الجنوبية لبحر قزوين (٦٥) • وأولى هاتين المدينتين ، تلك التى تهم بحثنا هذا تحمل أيضا اسم خوارزم • وهو اسم الاقليم الذى كانت عاصمته • وفى القرون الأولى لعصر الخلافة ، كانت هذه المدينة واقليمها يشكلان بنوع ما موقعا متقدما للحضارة العربية ، ويزاولان حركة تجارية نشيطة من « الأوغوز » الترك Gozzes عند بحر أرال ، ومع الخزر عند بحر قزوين • وفيما بعد خضعا للسيادة التركية ، وصارا جزءا من امبراطورية السلاجقة الكبرى ، وبلغا أوج عظمتهما فى القرن الثانى عشر • وفى هذه المدينة احتفظ أحفاد قائد عينه السلاجقة حاكما لها بمقرهم بها ، ثم أعلنوا استقلالهم وغزوا امبراطورية تمتد من الهند الى نهر الفرات ، ومن الخليج الفارسى الى نهر الفولجا : وكانت هذه هى امبراطورية شاهات خوارزم ، ولكنها كانت قصيرة الأمد ، اذ قضى عليها جنكزخان قضاء مبرما (١٢٢٠) • وأنزل المغول بمدينة جرجانية (خوارزم) بنوع خاص أشد أنواع العنف والقسوة (٦٦) • وانا لندهش حين نعلم أنه بعد انقضاء قرن من الزمان على هذه الكارثة ، وتحت سيادة خانات القفجاق (٦٧) عادت المدينة التى كابدت كل هذا البلاء ، فاكتظت بالسكان ، واستردت رخاءها التجارى الذى حظى باعجاب ابن بطوطة • وكان التجار الغربيون يعرفون بخبرتهم أن هذه المدينة سوق يصرفون بها بضائعهم ويربحون منها (٦٨) • لذلك أوصى بها بيجولوتى لكل الراغبين فى التخلص من سلعهم قبل أن يواصلوا السفر • وقبل أن نترك أورجانج ، ونتوغل شرقا فى أعقاب بيجولوتى ، نتوقف لحظة لنقول بضع كلمات عن طريق آخر للمواصلات بين تانا وأورجانج ، وكان معاصروا بيجولوتى يعرفون هذا الطريق ، والمسافرون الى الصين يسلكونه من وقت لآخر • هذا الطريق يعبر بحر قزوين • وكان الراهب الفرنسيسكانى الاسبانى

---

(٦٥) Abouif., l. c. II, 1, p. 77, not .; II, 2, p. 18 et s. ; Chemseddin p. 314; Vivien de Saint-Martin, Huns Ephtalites, dans le: Annal. dss voy., 1849, III, 9 et s.

وكان الميناء أبسكون • Abeskoun

(٦٦) Le chroniqueur Albéric de Trois-Fontaines (Pertz, SS., XXIII, 911).

(٦٧) Ibn-Batouta, II, 382 ; III, 4 ; Vambéry, Geschichte, Bochara's oder Transoxaniens, p. 149, 191, not. 1.

(٦٨) فى الامكان أن نعرف المنتجات التى كانت موجودة فى أسواق أورجانج من فترة من كتاب فى القرن الخامس عشر : عنوانه :

Segreti per colori

ونشره ميرى فيلد : Orig. trea tise , p. 375 et s.

المجهـول الاســم الذى زار مرتين منطقـة بحـر قزوين يعرف جيـدا هذا الطريق ، ووضع له التخطيط الآتى (٦٩) : فمن ساحل بحر أزوف ، يمضى (المسافر) جنوبا الى أبخازيا Abkhasie ، وجورجيا (بلد الملك دافيد) ، وأرمينيا الكبرى ، ويصل الى بحر قزوين عند دربند (باب الأبواب) Derbend (Porta del ferro) ، ويعبر البحر من طرف الى آخر ، ويمر بحذاء جزيرة كولالى Koulali ، ويتجه الى خليج ال Monuments (حاليا Mertvoy Koultchouk مرتفوى كولتشـوك) وينزل برا عند ترستارجو Trestargo (يوجد هذا الاسم على الخريطة القطالونية) ، ومن هنـاك يمضى الى أورجانج بطريق البر • وقـد انهمك الراهب الفرنسيسكانى المجهول من ١٣٤٠ الى ١٣٥٠ فى جمع عنـاصر وصـفه للعالم : وعن هذا الجزء تحدث عما رآه بنفسه ، لأنه سلك هذا الطريق عند عودته من كاثاى (الصين) • فقد رحل من أورجانج ، ومضى حتى ركب البحر فى خليج ال Monuments ، ولكن بدلا من أن ينزل برا فى دربند ، نزل فى موضع يبعد جنوبا (جوداسبا Godaspa) ، ومنه رحل الى طورس Tauris • ومع ذلك فهو يعين الطريق الذى حددنا معالمه باعتباره واحدا من الطريقين الأكثر أمنا للوصول الى كاثاى (٧٠) • ورغم أننا نتقبل بياناته بشىء من الحرص والتحفظ (٧١) ، فلابد لنا من أن نقر بأنه من المحتمل أن يكون هذا الطريق قد سلكه من وقت لآخر بعض المبشرين والتجـار • ولا ننسى أن سـواحل القوقاز كانت معروفة عند الغربيين ، وأن عبور بحر قزوين لم يكن عندهم أمرا غير عادى •

ولنعـد الى بيجولوتى : فهو يذكر بعـد أورجانج مبـاشرة الترار Altrarre ، وهى أترار Otrar عند المؤرخين والجغرافيين العرب ، واسمها القديم فاراب ، وهى من أهم مدن شمال تركستان (٧٢) ، وتقع شمال نهر سيحون ، ونجد هـذا الاسـم مذكورا كثيرا مع اسمى مدينتين مجـاورتين : ينجى Jenghi ، وطراز (٧٣) • تمـر به بكثرة

---

(٦٩) Libro del conoscimiento, p. 81.

(٧٠) ويعتبر أن الطريق الثانى يجتاز آسيا الصغرى ، وسيواس ، وطورس ، ووسط آسيا •

(٧١) القسم الذى يتناول وسط آسيا هو بالذات الذى يعبر عن مزاعم غير اكيدة ، الى جانب وقائع صادقة لا سبيل الى دحضها ، مثال ذلك ان المؤلف يدعى انه توقف عند قلعتى جوت Got وماجوت Magot اى عند قلعتى جوج وماجوج Gog et Magog

(٧٢) Aboulf., Annal. moslem., II, p. 457,619.

(٧٣) Aboulf., Géogr., II, 2, p. 216, 220 et s., 224; V. Quatremère, Chehabeddin, dans Not. et extr., XIII, 225, note.

المســـافرون والقوافل منـــذ زمن بعيـــد قبـل أن يبـــدأ التجـــار الغربيون المخاطرة بارتيـاد هـذه البقـاع • فملك أرمينيا هيثوم الأول Hethoum Ier مثلا مر هناك عند عودته من قره قوروم Karacorum مقر خانات المغول (٧٤) • وينبئنا تاريخ جنكيزخان أن أترار كانت على طريق القوافل الممتد من خورازم الى وسط آسيا ، لأن الغاء هذه الحركة التجارية بأمر حاكم أترار كان دليلا على نشوب حرب مع « محمد » شاه خوارزم (عام ١٢١٩ والأعوام التالية) (٧٥) •

ويقـــدر بيجـولوتي المســـافة من أترار الى أرماليكو (المالق) Armalecco-Almaligh ، وهي المحطة التالية بمسيرة خمسة وأربعين يوما ، وفي حسابه هذا يأخذ في اعتباره ضرورة نقل البضائع على ظهور الحمير • ويقدر شهاب الدين زمنا أقل لقطع مسافة مساوية لهذه تقريبا ، فيقول ان المسافة من ينجي (المجاورة لأترار) الى المالق تتطلب مسيرة عشرين يوما (٧٦) ، ولابد أنه أخذ في إعتباره مسافرين يحملون بضائع أقل • ولسوء الحظ لم يعين أي منهما اتجاه هذا الطريق • كان لابد أولا من اجتياز السهوب (الاستبس) الفسيحة المقفرة ، وفيها يسيل نهر طلاس Talas (الذى يعطى اسـمه أيضا للمدينة القائمة على ضفافه) ، ونهر جو Tchoui (٧٧) • وبعد مرحلة أخيرة ، اما عبر الوهاد جنوبي بحيرة بلخش Balkach ، واما جنوبا عبر الجبـال التى تطوق بحيرة Issik-Koul (٧٨) ينفـــذ المســـافر الى وادى نهـــر ايـــلى Ili الأهل بالسكان ، والذى ينتج بوفرة ، بفضل تربته الخصبة ومناخـه المعتدل عشبا وقمحا وفاكهة وخضروات (٧٩) • ويروى نهر ايلى هذا كل اقليم جنغاريا Dzoungarie قبـل أن يصب في بحيرة بلخش • وفي حوض هذا النهر قامت مدينة المالق (٨٠) ، أو ايمالش ، أو ارماليكو

---

(٧٤) Kiracos de Gantzag, dans Brosset, deux historiens arméniens, p. 179.

(٧٥) Erdmann, Temudschin, p. 359 et ss. ; Ibn-Batouta, III, 23 et s.

(٧٦) Not. et extr., XIII, p. 224 et s.

(٧٧) Bretschneider, Notes on chinese mediaeval travellers to the West (Changhai, 1875), p. 34 et s., 50, 75, 115 ; Notices of the mediaval geography (Lond. 1876), p. 36-38, 226.

(٧٨) La carte catalane (éd. Buchon et Tastu, p. 132 et s.) ; carte de Frà Mauro (Zurla, p. 34).

(٧٩) Chehab-eddin (op. cit., p. 245).

(٨٠) Carte de Frà Mauro (éd. Zurla, p. 34).

Almalech, Aramalech, Armalecco (٨١) ، وسماها الغربيون Emalech (٨٢) ، وسماها العرب والفرس المالق Almaligh (٨٣) ، وسماها الصينيون اليمالى Alimali (٨٤) ، واقتبست المصادر الصينية هذا الاسم من كلمة Alim a (اليما) ومعنـاها فى اللهجة الجنغارية « تفاح » ، لأن البلد غنى بأشجار التفاح (٨٥) • ومن المسلم به بعامة أن المالق هى نفسها مـدينة كولجا Kouldja (بالصـينية يى ننج Yi-ning) وكان كلابروث Klaproth أول من أبدى هذا الرأى (٨٦) ، واستند برأيه هذا على ما جاء بمعجم فى التاريخ والجغرافيا صدر بأمر الحكومة فى بكين • الا أن بيانات العلماء الذين كلفوا رسميا بتحرير هذا المعجم غير جديرة بالثقة العمياء التى حظوا بها حتى ذاك الحين • ولم ير كلابروث نفسه ملزما بمجاراتهم دوما فى كل ما يبدون ، ذلك لأنه فى عام ١٨٣٣ بحث عن المالق Almaligh فى مجاورات كورغوس Korghos شمالى غربى كولجا على نهر اليماتو Alimatou رافد نهر ايلى (٨٧) • ويكتفى السيد برتشـنايدر Bretschneider بالتسليم بأن المالق القديمة كانت موجـودة فى نفس الاقليم الموجـودة فيه مدينـة كولجا الحالية (٨٨) • ويتبين من المعلومات التى تقدمها مذكرات أسفار الرحالة الصينيين ومصادر أخرى أنها كانت واقعة فى السهل الذى ترويه مياه نهر ايلى • بقى أن نعرف ما اذا كان هذا النهر يمر بالقرب منها أو بعيدا عنها • فتبعا لرواية شرف الدين عن حملة شنت فى هذه المنطقة فى عهد تيمور لنك ، يبدو أن المالق كانت واقعة جنوبى النهر (٨٩) • وتبعـا

---

(٨١) Pa calis, dans Wadding, l.c. ; Marignola dans Dobner, p. 86.

(٨٢) Carte catalane, p. 135.

(٨٣) Chehab-eddin, l. c., p. 224, 245 ; Ibn-Batouta, III, 17 et s., 29, 41, 49 ; Rachid-eddin, p. 147 (éd. Quatremére).

(٨٤) Voy. l'Itinéraire de Change-té (1259), dans Bretschneider, Notices, p. 71 et ss., et note de la p. 33.

(٨٥) Bretschneider, l.c., p. 33, 50, 114; Baber, Memoirs, p. 1 ; Klaproth, dans le Journ. asiat., 2 série, XII, p. 263.

(٨٦) Klaproth, Beleuchtung und Widerlegung der Forschungen von. J. J. Schmidt (Paris 1824), p. 81.

(٨٧) Nouv. journ. asiat., XII, 283 : cf. Journ. asiat., 4 série, VIII, 425.

(٨٨) Notes on Chinese travellers, p. 33 ; Natices of the mediaeval geography, p. 140 et ss., 154 not.

ليوميـــات رحـــلة هيثـــوم ملك أرمينيـــا ، والتى كتبت عقب عودته من زيارة قام بها المانجو Mangou ، خان التتار (١٢٥٤ ـ ١٢٥٥) ، نستنتج ، على العـكس من ذلك ، أنهـــا فى الشـــمال (٩٠) ٠ـ وقد زعم البعض حديثا انه يتعرف عليها عند الحصن الروسى فيرنوى Vernoye ، ولكن هذا بعيد بكثير (٩١) ، فهذا الحصن المشيد على فرع جنوبى لنهر ايـلى ، الالماتنكـا Almatinka (أى المـاتى Almaty الصغير (٩٢)) اسمه الحقيقى الماتى ، ولكن هذا الاسم شائع منذ التاريخ القديم ، ويطلق على عدة مجارى مائية ، وجبال ، وأماكن فى حوض نهر ايلى ، ونجده كثيرا بحيث لا نستطيع أن نعتمد عليه لتحديد موقع المالق تحديدا صحيحا دقيقا ٠ ترى هل يمكن اكتشاف بقايا هذه المدينة ؟ كانت هذه المدينة فضـــلا عن ذلك حاضرة عشيرة فى العصـــور السابقة على جنكيزخان (٩٣) ، وفيما بعد صارت مقرا للأسرة الحاكمة التى أسسها جغتــاى Djagatai ، ابن جنكيزخان (٩٤) ، ومن أهم المــدن فى الامبراطورية التى حكمتها هذه الأسرة (٩٥) ، والتى أطلق عليها العرب اســم مافران ـ نهر Maveran-nahr ، وسماها الغربيون « امبراطورية الوسط » imperium-medium (٩٦) ، (imperium Medorum, Medeia) Mèdes (٩٧) ٠ ومن ناحيـــة التجارة ، لعبت المالق دورا بالغ الأهمية باعتبارها محطة وسطى بين غرب آسيا ، والشرق الأقصى ،

---

(٨٩) ظفرنامة : Cheref-eddin, Hist. de Timeour, éd Pétis de la Croix, II, 67. ; Rachid-eddin, p. 146 et s.

(٩٠) Bretschneider, Notices, l.c., p. 226.

(٩١) Petermann, Mittheilungen, 1868, p. 402, 404.

(٩٢) Stanislas Julien, Journ. asiat., 4e série, VIII p. 394, 408, 425, 443.

(٩٣) Erdmann, Temudschin, p. 314, 339 ; Journ. asiat., 6e série, IX, 59.

(٩٤) Ibn-Batouta, III, 41.

(٩٥) Chehab-eddin, p. 232, 234.

(٩٦) يشار بهذا الاسم الى القطر الواقع بين كاثاى (الصين) من جهة وفارس ، والقفجاق من جهة أخرى ٠ انظر على سبيل المثال :
Marignola, p. 86 "Armalec imperii medii"

(٩٧) Paschalis, l.c.; Carte catalane, p. 135 ; Yule, Cathay, I, 234 et s. ; Le cod. N du Libro del conosçimiento p. 90. not. 8.

فكان التجار المسلمون الذاهبون الى الصين يتقابلون عندها مع الأوروبيين الذين يقومون بالرحلة نفسها ، أو يقيمون هناك بعض الوقت : مثل ذلك التاجر الذى هلك فى عام ١٣٣٩ فى عملية اضطهادية ضد المسيحيين . فالأمير الحاكم وقتئذ ، وهو « على سلطان » مسلم شديد التعصب للاسلام ، فقضى في تلك المناسبة على بعثة كاثوليكية ناجحة أنشأها منذ وقت قليل فى الماليغ الأسقف ريتشسارد دو بورجونى Richard de Bourgogne بمعاونة الأخ باسكاليس ، دى فيتوريا Baschalis, de Vittoria (اسبانيـا) . وثمة تاجر ، يسميه مارينولا Marignola جيلوتس Gillotus ويسميه وادنج Guillelmus Mutinensis mercator Januensis استشهد مع المبشرين (٩٨) .

ولنعد الى خط سير بيجولوتى من حيث تركناه . فبعد المالق ، يقفز فجأة مسافة لا تقل عن مسيرة سبعين يوما : فأول محطة يذكرها ينتمى اسمها الى الامبراطورية الصينية .

وسوف نعمل على سد هذه الثغرة . فالمواصلات شاقة بين حوض نهر ايلى والصين ، وهى مستحيلة على خط مستقيم : فهناك عائق يتكون من خط من جبال منيعة . فلو أراد الانسـان أن يتجنب هـذه العقبة بالاستدارة صوب الجنوب فعليه أن يعبر جبال تيان شان ، ومع ذلك لا يوجد من المالق الى الصين سوى طريق واحد ، هو ممر موسور دابان Moussor-Daban أو ممر تشيبارليه Tchéparlé (٩٩) الواقع على الطرف الشرقى من سلسلة الجبال (١٠٠) . حقا ، عند خروج الانسان من الممر الجبلى يصادف طريقا مطروقا يحاذى السفح الجنوبى لجبال تيان شان ، ولكن لابد للوصول الى هذا الطريق من البدء باجتياز مساحات شاسعة مغطاة بالثلج ، وهـذا طريق يستحيل على القوافل أن تجتازه . لابد اذن من البحث عن اتجـاه آخـر . فبالابتعـاد عن المالق ، يبدأ

---

(٩٨) Wadding (Annal ord. min., nos 7, 8); Marignola (dans Dobner, p. 86).

ـ توجد اسماء القساوسة الذين استشهدوا فى ذلك الحين الى :
Marcellino da Cicezza, Miss. francesc., VI, 18.

ـ وبخصوص « على سلطان » ، انظر :
Khondemir, trad. Defémery, dans le Journ. Asiat., 4e série, XIX 274 et s.

(٩٩) Journ. Asiat., 4e série, VIII, 248 et ss. ; Ritter, Asien, I, 329 et ss. ; Humboldt, Asie centrale, II, 27 et ss.

(١٠٠) Semenov, dans Petermann, Mittheilungen, 1858, p. 362.

الطريق الكبير لغـرب آسـيا في الصـين بالصعود شمالا : ولابد من هذه الناحية من اجتياز جبال تالكى Talki أو بورخورو Borokhoro وهذه العملية ليس فيها صعوبات كبيرة بفضل وجود مضيق جبلى يسمى (باب الحديد Porte de fer (١٠١) • وفيما وراء سلسلة الجبال هذه يحاذى الطريق بحيرة سـايرام Saïram ، أو سـايرم Saïrim ، أو سوتكول Soutkol (بحيرة اللبن) (١٠٢) ، ويجتاز السهل الذى يرويه نهر بوروتالا Borotala ثم يميـل الى الجنوب الشرقى ، ويسـتمر الى اورومستى Ouromsti أو بيش بالق Bichbaligh (أى خمس مدن) (١٠٣) •. وابتداء من هذه المدينة ، يتشعب الطريق • فان كان فى خطة المسافر أن يزور قره قوروم ، العاصمة الكبرى لمنغوليا ، أو المرور بهذا الاقليم للوصول الى الصين ، فانه يتجه الى الشمال الشرقى ، فيمر بقراخوجة Karakhodja (١٠٤) ، وواحة خاميل Khamil أو هامى (بالصينية) (١٠٥) ، وهناك يدخل فى صحراء جوبى الكبرى حيث يصل فى نهايتها القصوى الى الحدود الصينية •

هـذا الطريق الكبير كان موجودا كمـا وصفناه ، منذ تأسيس الامبراطورية المغولية على يدى جنكيزخان ، وهو الطريق الذى سـلكه الفيلسوف المشهور تشانج ـ تشون Tchang-tchoun فى عام ١٢٢١ حين استدعاه جنكيزخان الى سمرقند (١٠٦) • ومن هذا الطريق عاد هيثوم الأول ملك أرمينيا الى بلده فى شتاء عام ١٢٥٤/١٢٥٥ بعد زيارته بلاط الخان الأكبر منكو فى قره قوروم أو مجاوراتها (١٠٧) • ومن هناك مر

---

(١٠١) Journ, asiat., l.c., p. 418 ; Bretschneider, Notes on Chinese mediaeval travellers, p. 32 et s., 71 et s. ; Fr& Mouro, carte universelle (éd. Zurla, p. 32) ; Tchang-tchoun, (Bretschneider, l.c., p. 32).

(١٠٢) Journ. asiat., 2e série, XII, p. 282 et s., 4e série., VIII, p. 445 ; Breschneier, l.c.

(١٠٣) Klaproth, Mémoires relat. à l'Asie, II, 355 et ss. ; Breschneider, Notices of the mediaeval geogr., p. 133 et ss.

(١٠٤) Not. et extr., VIII, 234 et s. :

(١٠٥) مدينة واقعة بجوار طورفان • انظر :

Not. et extr., VIII, 234 et s., not. XIV, 1, 389; Cheref-eddin, Hi t. de timurbec III 217 ; Jour. asiat., 4e série. VIII. 241 : Yule. Cathay, III, 275 ; Yule, M. Polo, I, 193 ; Bretschneider, notices ; p. 109 et s. ; Dobner, Monum. hist. Boem., II, 86, 123.

ـ مر الراهب (المتأمل) مارينيولا من هناك عام ١٣٤٠ •

(١٠٦) M. Bretschneider (Notes on chinese travellers. p. 15-16) ; M. Pauthier, dans le Journ asiat 6e sér. IX, 39 et ss.

(١٠٧) Brosset, Deux historiens arméniens, p. 176 ; M Pauthier, (Nouv. journ-asiat., XII, 278 et s.) et M. Bretschneider (Notices of the mediaeval-geography, p. 223 et s.).

في عام ١٢٥٩ الصيني شانج ــ تي . Chang-te حاملا رسائل من منكو لأخيه هولاكو (١٠٨) • وشهد هذا الطريق نفسه مرور جيوش عظيمة ، كالجيش الذي سيره هولاكو لغزو الخلافة في بغداد (١٠٩) • ولم يعرف ماركو بولو وجود هذا الطريق ، ولم يعرفه الغربيون الا من اليوم الذي استقروا فيه في تانا ، وبدأ تجارهم ومبشروهم ينضمون الى قوافل القفجاق ، وذكره المؤرخون والجغرافيون والفرس والعرب ابتداء من أوائل القرن الرابع عشر ، وعلم « وصاف » wassaf أنه يلزم أربعة عشر يوما للذهاب من المالق الى بيش بالق ، وأربعة عشر يوما من بيش بالق الى خان بالق (بكين) (١١٠) • ولم يذهب ابن بطوطة نفسه الى المالق ، ولكنه سمع من بعض تجار أرض الرافدين (من كربلاء على الفرات) أنه للذهاب الى الصين كانوا يمرون عادة من خوارزم (أورجانج) المالق (١١١) • ويوضح شهاب الدين بخطوط عريضة (حوالى عام ١٣٦٠) الطريق من سمرقند الى الصين فيذكر من المحطات الوسطى أترار (يينجى) ، والمالق ، قراخوجة ، وكامتشيو (انظر فيما بعد) (١١٢) ، وقد حصل على هذه المعلومات من تجار مصريين وسوريين ، لأن هؤلاء بدأوا أيضا في حوالى تلك الفترة في سلوك طريق الشمال بصفة منتظمة • وقبل ذلك ، أى حين كان أمراء وأهالى البلاد التى يشقها هذا الطريق من الوثنيين ، لم يكن هؤلاء التجار يمرون من هناك الا للضرورة القصوى • ولكن منذ أن اعتنق بعض الأمراء الاسلام ، وأجبروا شعوبهم على اعتناق الاسلام ، تغيرت الأحوال وبدأ التجار المسلمون يأتون زرافات ووحدانا الى هذه الناحية في الزمن الذى تسيد فيه تيرماشيرين Termachirin على خانية الجغتائية Djagataï (حوالى ١٣٣٠) ، وكان هذا

---

(١٠٨) Bretschneider, Notes on chinese travellers, p. 57-99.

(١٠٩) رغم اننا لا نعرف تفاصيل هذه الحملة ، خطوة خطوة ، فالثابت ان الجيش قام في ربيع عام ١٢٥٣ من مجاورات قره قوروم ومر بالمالق • انظر :

— M. Abel Rémusat (Nouveaux mélanges asiatiques, I, 173 et ss) et Pauthier (M. Polo, p. cxxxiii et ss).

ــ ما قدمه هذان المؤلفان تحت عنوان « حملة هولاكو » ليس الا خط السير الذى اتبعه شانج تي •

— V. Bretschneider, Notes on the chinese travellers, p. 60, 62.

(١١٠) Hist de la Perse (achevée en 1311), trad. Hammer- Purgstall, I, 24.

(١١١) Ibn-Batouta. III, 17.

يذكر هذا الرحالة وجود حركة تاريخية بالقوافل بين سراى ، وخوارزم •

(١١٢) Not. et extr., XIII, 223 et ss.

الأمير شديد التعصب للاسلام ، ومن ثم أحسن وفادة هؤلاء التجار ، وأبدى لهم كل عطف ومودة (١١٣) ٠

يتبين من كل ما سبق ذكره أنه في القرن الرابع عشر ، كان تجار الغرب ، مسيحيون ومسلمون يفضلون سلوك طريق الماليغ للذهاب الى الصين ، أى طريق الشمال ، وهو الطريق الذى كان يسلكه المغول والصينيون منذ قرن مضى ٠ ولم يبق لنا ما نتحدث عنه سوى القطاع الأخير من الرحلة ٠ لقد رأينا أن المسافر كان يصل الى تخوم صحراء جوبى عند واحة خاميل (هامى) (١١٤) ٠ ويطلق بيجولوتى على أول محطة بعد الماليغ اسم Camexu ، أما السيدان فورستر Forster (١١٥) وكارل ريتر Karl Ritter (١١٦) فيعتقدان أنها هى خاميل Khamil ذاتها ولكنهما نسيا أن بيجولوتى يقدر المسافة بين المحطتين بمسيرة سبعين يوما ٠ ولكى نقارب الحقيقة ، لابد أن نترك Camexu (كامكو) وراء صحراء جوبى ٠ وحين يترك المسافرون الصحراء وراء ظهورهم ، يدخلون الصين ذاتها ، وهناك ، على مشارف الصحراء يقابلون شا ـ تشيو Sha-tchéou (مدينة الرمل) (١١٧) ، وبعد مسافة ما كان ـ تشيو Kan-tchéou عاصمة اقليم الحدود (اقليم كان ـ سو Kan-sou الحالى) (١١٨) ٠ ها هى ذى

---

(١١٣) Not et extr., III, 238 et ss. ; cf. Hammer, Geschichten der Ilchane, II, 195 270, 284; Journ. asiat., 4e série, XIX 272; Ibn-Batouta, III, 31 et ss.

(١١٤) وليس عند بحيرة لوب كما يقول السيد بيشيل M. Peschel ! فهو يخلط بين طريقين مختلفين ٠

(١١٥) Geschichte der Entdeckungen im Norden, p. 189.

(١١٦) Asien, I, 357, not 73.

(١١٧) Marco Polo, éd. Pauthier, p. 152 ; Not. et extr., XIV, 1, p. 394 et s. ; Voyages au Thibet, trad. Stein-Nordheim); Cheref-eddin (Hist. de Timurbec, III, 216 ; Abderrazzak (Not et extr., l.c., p. 393).

(١١٨) "Campicion ou Campichice", dans Marco Polo, éd. Pauthier, I, 165, éd. Yule, I, 197 : "Kamtchéou", dans l'itinéraire de Samarkand à la Shine, de Chehab-eddin, Not et extr., XIII, 223, et dans celui de l'ambassade de Châh-Rokh, ibid. XIV, 1, p. 396 ; "Compion" dans l'itinéraire du persan Hadji Mohammed, publ. par Ramusio, II, 14.

كامكسو التى ذكرها بيجولوتى (١١٩) والظاهر أن اسم كامكسو يشبه اسم خان سو أكثر مما يشبه اسم خاميل ، كذلك تتوافق المسافات التى قدرها بيجولوتى فى الفرض الأول أكثر مما تتوافق فى الفرض الثانى . نضيف أن شهاب الدين يقدر المسافة من المالق الى كان تشيو بمسيرة أربعين يوما ، ويختلف هذا التقدير كثيرا عن السبعين يوما التى قدرها بيجولوتى .

وبمتابعة بيجولوتى ، يتعين عند مغادرة كان تشيو مواصلة السفر خمسة وأربعين يوما على ظهور الجياد قبل الوصول الى نهر لا يظهر اسمه مع الأسف فى المخطوط الوحيد لكتاب بيجولوتى الموجود فى حوزتنا . وهنا ثغرة حاول السيد سبرنجل Sprengel (١٢٠) أن يملأهـا ، فافترض أنه يقرأ فى هذا الموضع كلمة كاراموورن Karamouren ، وهـذا هو الاسم الذى كان يعرف به نهر هوانج هو Hoang-ho فى عهد السيادة المغولية (١٢١) . ويرى السيد يول Yule فى ال fiumana لبيجولوتى القنـاة الكبيرة ، أو القنـاة الامبراطورية (١٢٢) . ويبدو لى أن السيد رشتهوفن Richthofen (١٢٣) هو أول من اكتشف الحقيقة : ففى رأيه أنه يجب التسليم بأن هـذه التسـمية تنطبق على تان هو Tan-ho رافد نهر هان Han ، وهذا النهر صالح للملاحة مثل نهر هوانج هو و « القناة الامبراطورية » ، ويتوافق اتجاهه مع اتجاه الطريق .

والواقع أن الطريق الذى رسمه بيجولوتى يبتعد عن مجرى الماء الكبير المقصود للوصول الى بلدة يسميها كاسيه Cassai . ويؤكد السيد يسشيل Peschel أنه من المستحيل العثور على هذه المدينة (١٢٤) . والاسم التالى ، وهو فى الوقت نفسه آخر اسم فى القائمة هو خان بالق Khan-baligh (بكين) . والحقيقة أنه من العبث البحث فى هذا

---

(١١٩) Humboldt (Asie centrale, II, 217) et M. Yule (Cathay, II, 288 et M. Polo, I, 199 note. MM. Betschnider (Notices of the mediaeval geography, p. 109) et Richt-hofen (China, I, 613).

(١٢٠) Gesch. der Wichtigsten geogr. Entdeckungen, 2e éd. Halle, 1792, p. 265.

(١٢١) Marco Polo, ér. Pauth., II, 359, 450 463.

(١٢٢) Cathay, II, 288.

(١٢٣) China, I, 613 et s. ; cf. p. 310, 324 ; II, 700.

(١٢٤) Gesch. der Erdk, p. 156, note. 3.

الاتجاه عن مدينة اسمها قريب الشبه من اسم كاسيه • ولكن لا ننسى أن الغـــاية من خـط السـير الذى رسـمه بيجولوتى فى كتـابه : Auvisamento del viaggio del Cattajo ليس فقط خان بالق ، ولكنه ينصح أيضا التاجر (١٢٥) حين يصل الى النهر المشار اليه أن يبادر بزيارة المدينة التجارية الكبيرة خنساى Khinsaï ، وبعد ذلك يصعد شمالا صوب العاصمة • فلو سلمنـا بأن كاسيه Cassai هى نفسهـا خنساى (١٢٦) ، فذلك من جهة لأن بيجولوتى يصفها بأنها بلدة تجارية كبيرة ، وهذا كما نعلم ينطبق تماما على خنساى ، ومن جهة أخرى لأننا نجد فى كتب أخرى اسم كاسيه (١٢٧) مذكورا باعتباره تحريفا لاسم خنساى ، أو مشتقا من خانساى Khansaï (١٢٨) ، وسوف تتاح لنا فرصـة الحديث عن هذا السوق • ومن هناك يقدر بيجولوتى مسـيرة ثلاثين يوما (١٢٩) الى خان بالق ، الغاية النهائية والطبيعية للرحلة ، ذلك لأنها عاصمة المملكة ، وفى الوقت ذاته مركز مواصلات القطر كله وتجارته (١٣٠) •

وبجمع أيام السير التى ذكرها بيجولوتى ، من محطة الى أخرى ، بدءا من تانا الى الصين ، نجد فى المجموع حوالى تسعة أشهر أو أكثر اذا استخدم المسافر عربات تجرها الأبقار من تانا الى استراخان ، ثم التف عن طريق أورجانج • وللتحقق من صحة هذه البيانات ، نحتاج الى رواية كتبها مسافر اتبع بالضبط خط السير هذا الذى رسمه بيجولوتى : ولسوء

---

(١٢٥) للذهاب الى خان بالق لم يكن من المحتم المرور بكاسيه :
"puoi andare in Cassai :

(١٢٦) M. M. Sprengel, Op. cit., p. 265, ûuntsmann, Hist. polit., Blaetter, xxxviii, 797 et s., Elie de la Primaudaie, Etudes sur le commerce du Moyen-Are, Paris 1848, p. 158, Yule, Cathay, II, 288, Richthofen, China, I, 613.

(١٢٧) وهو الاسم الذى وجدناه فى :
Le Livre de l'estat du grant Coan (éd. Jacquet, dans le Nouveau journal a iatiques, VI), p. 66, et dans le Portulano Mediceo, d'après M. Yule, l'c.

(١٢٨) Aderico de Pardenone (Yule, l.c., II, app., p. xxvi) et Marig-nola ,p. 95) :
ـ يكتب هذان المؤلفان Campsai, Cansai

(١٢٩) يحسب مؤلف « مسالك الابصار » اربعين يوما :
V. Quatremère, Rachid-eddin, p. lxxxix : 1
ويقدر ابن بطوطة (IV, 204) ٦٤ يوما •

(١٣٠) Pegol., p. 3.

الحظ يعوزنا عنصر المراجعة هذه . وفى المتوسط ، يبدو أن بيجولوتى بالغ كثيرا فى حساب الزمن . وتبعا لشرح من الشروح المثبتة على خريطة بمتحف الكاردينال بورجيا Bargia ، وضعت فى مستهل القرن الخامس عشرة ، لاتستغرق هذه المسافة كل هذه المدة (١٣١) . كذلك يقدر شهاب الدين (١٣٢) بأربعة شهور فقط مدة الرحلة من سمرقند الى خان.بالق (بكين) . وعلى أية حال ففى مقدور المسافرين فرادى أن يصلوا الى الصين أسرع مما قدره بيجولوتى ، خاصة اذا استفادوا من المحطة الامبراطورية التتارية (١٣٣) . وبفضل هذه الوسيلة استطاع المبشر يوحنا دى مونتكورفينو (١٣٠٥) الذى أصبح فيما بعد كبير أساقفة خان بالق أن يقطع فى خمسة الى ستة أشهر المسافة بين القرم (terra Gothorum) والصين (١٣٤) .

ويستنتج من المعلومات التى جمعها بيجولوتى من أفواه التجار الذين سلكوا هذا الطريق ــ لأنه لا يحكى الا ما سمعه ــ أن فى وسع الانسان أن يسافر فى هذا الطريق بكل أمان ، ليل نهار ، فيما عدا الجزء الواقع بين تانا وسراى ، حيث يصادف أحيانا عصابات من التتار الذين يرتادون الطرق الكبيرة (١٣٥) ، ويكفى أن ينضم حوالى الستين من المسافرين بعضهم الى بعض ليقطعوا هذا الجزء من الطريق دون أن يتعرضوا لأية أخطار . وبوجه عام كان الأهالى المستقرون فى البلاد التى يمر بها المسافر يحترمون « الفرنجة » ، ولم يكن يخشى أى عدوان من ناحيتهم ، اللهم

---

(١٣١) Santarem Essai sur la cosmographie du Moyen-Age, III, 277.

(١٣٢) Not. et extr. XIII, 224 et s .

(١٣٣) Voy. d'Ohsson, Hist. des Mongols, I, 406 et s. ; II, 481 ; Hammer, Gesch. der Ilchane, I, 63; II, 168 et s., 355 ; Not. et extr., XIV, 1, p. 395 ; Marco Polo éd. Pauthier. I, 335 et ss. ; Oderico da Pordenone, dans Yule, l.c., p. xxxiii., Livre de l'estat du grant Caan, l.c., p. 62.

ــ الى جانب البريد « الرجل » الذى يقوم بنقل الرسائل العادية ، كان يوجد بريد يستخدم الخيل لنقل رسائل الدولة والموظفين ، والسفراء لدى الخان أو الدول الأجنبية . ويبدو أن التجار كان يمكنهم أيضا الحصول على تصريح باستخدام الخيول التى كانت دائما على أهبة الاستعداد فى محاط البريد . ويخصوص اسم يام Yam أو جام Djam الذى يطلق على محطات البريد هذه ، انظر :

— Bretschneider, Notices of the med. geogr., p. 11.

(١٣٤) Wadding, Annal ord. min., VI, 69 et s.

(١٣٥) Yule, Cathay, II 287.

الا فى الأوقات التى تعم فيها الفوضى ، كما فى الفترات التى يخلو فيها العرش (فلا يكون هناك حاكم) • ولكى يتسنى الاتجار مع الأهالى ، كان لابد من استخدام مترجم كفء • وكان التاجر المسافر فى حاجة الى اثنين من الخدم ، وفى بعض الأحيان يصطحب امرأة ، ويجب أن يكون كل واحد من هؤلاء ملما باللهجة « القومانية » cuman (١٣٦) ، أى التركية • والواقع أن القبائل التركية الأصل كانت تشكل غالبية سكان الامبراطورية المغولية • وكان يطلق فى الغرب على لغتهم اسم اللغة « القومانية » لأن قبيلة القومان التى استقرت شمال البحر الأسود ، وانتشرت فى منطقة الدانوب الأدنى ، كانت ، من بين جميع القبائل التركية هى التى توغلت أكثر من غيرها فى أوروبا ، وكانت لهجتها معروفة أيضا باسم لغة « الأويغور » ouigoure • وثمة وثيقة رسمية (دبلوما) حررت فى القرم عام ١٣٨٠ (وسوف نتكلم عنها فيما بعد) تنبئنا بأن هذا الاسم lingua ugaresca لم يكن مجهولا عند الغربيين (١٣٧) • يقول جويوم دى روبروك إن لغة الأويغور هي أصل اللغتين التركية والقومانية ، وهذا صحيح ، لأن قبيلة القومان هى أكثر القبائل التركية تحضرا ، وعندها دخلت اللغة التركية القديمة لأول مرة فى الأدب المكتوب (١٣٨) • ولم يكن فى شمال آسيا كلها لغة أكثر انتشارا من لغة القومان (أو الأويغور) هذه ، وهى قريبة الشبه من اللغة التى يتحدث بها الأتراك الشرقيون فى الوقت الحاضر • وقبل أن ينطلق الراهب « المتأمل » الاسبانى بسكاليس متوغلا فى بلاد المغول للتبشير ، درس فى « سراى » اللغة والكتابه الايغورية • وفى أواخر حياته التبشيرية كان يعظ فى حوض نهر ايلى باللغة الايغورية ، ولا شك فى أن الأهالى كانوا

---

(١٣٦) يزعم السيد ريشتوفن أن اللغة الفارسية كانت فى ذلك العصر هى اللغة « الكاملة » فى آسيا ؟

"lingua franca"، وهذا غير صحيح • انظر :

-- M. Richthofen (China, I, 593 ...)

(١٣٧) ترجم هذا الدبلوم مترجم من أهالى كافا اسمه لوكينو كاليجبالى Luchino Caligepalli • وفى مناسبة أخرى ترجمت امرأة يونانية لقنصل كافا خطابا من خان التتار • انظر :

— Atti della Soc. lig., IV, rendic., p. 61.

وفى عام ١٣٣٣ ـ كما رأينا ـ ترجم مبشر دومينيكانى لبنادقة تانا دبلوما أصدره أزبك خان مكتوبا بلغة قومانية •

(١٣٨) Guill de Rubr., p. 289 ; Jean da Piano de Carp. p. 651 ; Klaproth, Reise i nden Caucasus, II, 487-576 ; Adel Rémusat, Recherches sur les langues tartares, 1, 253 et ss.

يفهمون ما يقول ، بل استطاع آن يمضى الى موطن الأويغور ، أى الى مشارف صحراء جوبى ، وهو واثق من أن القوم يفهمون أحاديثه ، رغم آن اللغة المستخدمة فى ذلك الاقليم كانت لهجة أخرى من اللهجات التركية (١٣٩) . وكان هذا أيضا هو شأن التجار الذين يريدون اجتياز وسط آسيا ، فاذا وجدوا مشقة فى تعلم هذه اللغة ، اضطروا الى استطحاب أشخاص يتكلمونها . وهناك قاموس (١٤٠) ، كتب فى عام ١٣٠٣ ، يجد فيه المرء أسماء الأشياء الأكثر استعمالا فى الحياة العادية ، وذلك بثلاث لغات : اللاتينية ، والفارسية ، والقومانية (١٤١) ، ولابد أنه ألف لصالح المسافرين الغربيين وبخاصة التجار الذاهبين الى بلاد التتار أو بلاد الفرس . ونرى فى هذا القاموس أسماء مجموعة من السلع التجارية (١٤٢) ، ليس فقط الشرقية المصدر ، كالتوابل والأحجار الكريمة ، ولكن أيضا المنسوجات المصنوعة فى الغرب ، ولم تكن لتوجد فى هذا القاموس الا لأنها كانت تستورد فى وسط آسيا . ولمعرفة مؤلف هذا القاموس ، لا جدوى من البحث عن اسمه ضمن أسماء المبشرين (١٤٣) ، فلابد أن يكون تاجرا من شمال ايطاليا ، وبالأحرى جنويا ، أكثر منه بندقيا (١٤٤) : فثمة تعبيرات ومصطلحات تسربت الى لاتينية القاموس تكشف عن اللهجة الجنوية المعتادة ، كما أنه لم يتردد فى عام ١٣٠٣ على بلاد التتار سوى الجنويين (١٤٥) .

---

(١٣٩) انظر خطاب هذه الشخصية فى : Wadding, VII, 256 et

(١٤٠) يوجد هذا القاموس ضمن المجموعة التى أوصى بها الى الجمهورية (البندقية) بتراركا Franc. Petrarca تحت عنوان: Cod. Marc. DXLIX ؛ ونشره كلابروت فى كتابه : (Mém. relat. à l'Asie, III, 113-256)

(١٤١) Blau, Volksthum und Sprache der Kumanen ; Zeitschrift der deutschen morgent. Ges., XXIX, 556 et ss.

(١٤٢) Cod. Cuman., p. 91 et ss. 105 et s.

(١٤٣) ومع ذلك فهذا هو ما فعله الناشر الأخير (لهذا القاموس) ، فلم يهتم كثيرا بالمصطلحات المتنوعة الخاصة بالسلع التجارية ، بل اهتم بالامثال التوازنية والأبائية (الكنسية) ، والطقسية فى ملحق (القاموس) .

(١٤٤) هذا هو رأى السيد روزلر : M. Roesler, Romanische Studien, p. 338.

(١٤٥) الحجج التى أبديت تأييدا للجنسية الجنوية لمؤلف القاموس : (Cod. Cuman, p. cxxii et s., addit, p. 27) تناولها ثانية وأيدها السيد ديزيمونى فى بحثه الخاص Cod. Cuman فى : l'Archiv. stor. ital., 1881.

ولنعد مرة أخرى الى خط سير بيجولوتى • اذ نجد على طول الطريق الذى يصفه وسائل منوعة للانتقال ، من عربات تجرها أبقار أو خيول أو جمال ، أو حمير وخيول للركوب • ومع ذلك فهو ينصح التجار بتجنب الأمتعة الكثيرة المعيقة ، وعليهم لذلك ، اذا كانوا يحملون أصوافا من جنوا أو البندقية أن يتخلصوا منها ببيعها فى أورجانج ، والا يحتفظوا الا بأكثر السلع دقة ورقة • وبخلاف هذه الأمتعة ، يلزم فى الكثير من الأحيان التزود بالمؤن الغذائية لعدة أيام • وبالنسبة لتاجر يسافر ومعه ترجمان وخادمان وبضائع أو نقود قيمتها ٢٥٠٠ دينـار ذهبى ، تبلغ نفقـات الرحلة من تانا الى الصين ثلثمائة أو أربعمائة دينار ذهبى (١٤٦) • ولا يذكر بيجولوتى رقما لاجمالى نفقات العودة ، ولكنه يقول فقط ان تكلفة حمولة عربة تبلغ خمسة وعشرين دينـارا ذهبيا (١٤٧) ، ويشمل هذا الرقم مصاريف الغذاء ومرتبات الخدم • فاذا حسبنا قيمة الدينار الذهبى باثنى عشر فرنكا بالعملة الحالية ، نرى أن الرحلة تتكلف فى الذهاب من ٣٠٠٠ الى ٤٨٠٠ فرنك ، وفى العودة ٣٠٠ فرنك لحمولة

(١٤٦) يقول بيجولوتى عن النقود "Sonmi d'argento" Pegolotti, p. 3, 5, 6. وال Somma أو بالأحرى ال soumo كانت سبيكة صغيرة فضية ثقلها ٤٥ saggi تساوى بالنسبة لعملة « تانا » ٢٠٢ اسبر aspres وقيمتها الجارية ١٩٠ اسبر ، أو خمسة يالات ذهبية من العملة الغربية وبقرار اصدار مجلس شيوخ البندقية ، قدر قيمة ال sommo بمبلغ ١٩٠ اسبر بالنسبة للمبالغ التى تدفع للخزانة العامة فى تانا سدادا للرسوم الجمركية ، و ١٥٠ اسبر عن اجرة شحن الفراء والحرائر المشغولة ، وحدد قيمته بمبلغ ١٢ libra grossorum انظر : (Canale, Crimea, II, 444) • ويتحدث ابن بطوطة عن سبائك فضية تسمى بلغـة البـلد صومة وجمعهـا الصوم تستعمل كعملة متداولة فى امبراطورية القفجاق ؛ ويقول ان ثقل سبيكة من هذه السبائك تساوى خمس اوقيات • ويذكر السيد هامر :

(Gesch. der goldenen Horde, p. 224).

فقرة لوصاف Wassaf يقول فيها انه كان يوجد ايضا عملات Saoum ذهبية ، ويضيف ان هذه كانت مستعملة فى اللغة الدارجة لدى العثمانيين • وكان الروس فى العصور الوسطى ، مثلهم مثل التتار يستعملون عادة سبائك فضية صغيرة غير مضروبة • انظر :

(Herberstein, Moscovia, dans Ramus, II, 159, ed. de 1583).

وبخصوص تنوعات قيمة ال sommo انظر الحسابات التى اجراها السيد ديزمونى فى :

— Archiv. stor. ital. 3e série, III, 109 e ts. Atti della soc. lig., IV, Renrie, p. 55 et s, et suppl. à l'ouvrage de M. Belgrano, Della vita privata dei Genovesi, 2e éd.

(١٤٧) Yule, Cathay, II, p. 293.

العربة الواحدة ٠ ومهما كان الطريق الذى يسلكه التجار للوصول الى الصين ، سواء عبر صحراء جوبى ، أو بعد رحلة طويلة على سفوح الجبال، فلابد أنهم يشعرون بالراحة والأمان عند رؤيتهم هذا القطر الخصيب ، ذى الزرع الجيد الوفير ، والذى يفوق سائر الأقطار بتنوع منتجاته (١٤٨) ٠ ويزداد هذا الشعور رسوخا فى نفوسهم حين يلحظون فى كل طبقات المجتمع رفاهية عامة ، وأخلاقا كريمة ، ويتبين لهم عناية الحكومة بالسهر على حياة كل انسان وما يملك ٠ وفى العصر الذى دخل فيه الغربيون الصين لأول مرة ، كانت ، رغم خضوعها لحكم سادة أجانب ، هم المغول ، تتمتع برخاء كبير ٠ وقبل ذلك كان البلد منقسما الى جزءين : القسم الشمالى وتحكمه أسر أجنبية ، وهو المعروف للغرب باسم كاثاى Cathay (١٤٩) ، والقسم الجنوبى الذى بقى فى أيدى أباطرة وطنيين ، ويسميه صينيو الشمال « مانتسو » Mantsou (١٥٠) ٠ وقد زال هذا التقسيم منذ أن نجح الخان الأكبر قوبلاى فى اخضاع نصفى الامبراطورية ، وكثير من الأقاليم المتاحة لها ٠ ولم تعد هناك أية عقبة تعترض الاتصال بين الشمال والجنوب ٠ ولكى يضمن قوبلاى تموين « خان بالق » (بكين) ووصول القمح والأرز من الجنوب ، أمر باجراء مشروعات عظيمة لترميم القناة الكبيرة ، وانشاء طريق يوازى هذه القناة لمسافة تقدر بمسيرة أربعين يوما (١٥١) ٠ وتحققت هذه الغاية ، وكذلك

(١٤٨) Ibn-Batouta, IV, 254.

(١٤٩) الاسم الحقيقى هو خطاى Khitai وهو مشتق من اسم قبيلة Khitans انظر :

— Quatremère, Rachid-eddin, p. XCI, Richthofen, China, I, 580 et s.

(١٥٠) ومن ثم اسم مانجى Mangi الذى أطلقه ماركو بولو على هذا البلد ٠ انظر :

Oderico da Portenone (Yule, l.c., p. xxiii) et Jean Marignola (Dobner, p. 110)

– كان صينيو الشمال يعتبرون أن حضارتهم ترجع الى عصر أقدم من حضارة اخوانهم فى الجنوب ، ويسمون هؤلاء (أى أهل الجنوب) بان تسى ومعناها (ابناء البرابرة) ٠ انظر :

Pauthier, M. Polo, p. lvii, 352, 452 ; Yule, Cathay. I, 103; M. Polo, II, 106.

– كلمة مانشين ، وبالأصح ماهانشين ، أى الصين الكبرى ، تماثل كثيرا الاسم السابق ذكره ، ولكن لا يجوز الخلط بينهما ، ونجدها مستعملة عند رشيد الدين وغيره ٠ هذا الاسم ، استعمل لدى الهنود ، والذى انتقل منهم الى الفرس ينطبق بوجه عام على الصين الجنوبية ٠ انظر :

— Quatremère, l.c., p. lxxxvi et ss., xcii. ; Yule Cathay, p. cxviii.

(١٥١) Rachid-eddin Deserintion de la Chine. trad Klaprath Journ. asiat., 2e série, XI, 341 et ss. ; Marco Polo, éd. Pouthier, p. 481.

صارت الوشائج التى كانت تربط فيما مضى شقى الامبراطورية وثيقة ٠
وكان قوبلاى رجلا منظمة من الطراز الأول ، ففى الوقت الذى أرسى فيه دعائم متينة لسيادة الأمة المغولية ، احتفظ بقدر المستطاع بالتقاليد الادارية الشائعة فى الدولة الصينية القديمة ، واستخدم الايرادات الهائلة التى تضعها ثروة البلد تحت تصرفه فى الانفاق على مجالات الصالح العام ٠ وكانت المبادلات التجارية تزود الخزانة بأموال جسيمة (١٥٢) ٠ وعمل أيضا على انماء مصادر الايرادات ببناء الطرق والقنوات (١٥٣) المناسبة والمريحة ، وقد رأينا مثلا لها فيما ذكرناه من قبل ٠ وعندئذ غطت السفن الكثيرة مياه الأنهار والترع ، ونشرت فى ربوع الصين المنتجات الوطنية ، والسلع الأجنبية المستوردة بطريق البحر (١٥٤) ٠ وكانت الأغلبية العظمى من سكان المدن تمارس التجارة والصناعة ، بل كان ثمة تجار كبار يرحلون من مدن داخلية مثل تا ان فو Taian-fou (١٥٥) الى الهند وبلاد أخرى (١٥٦) ٠ ولابد أنه كان هناك أيضا عدد أكبر من هؤلاء التجار فى المدن الساحلية التى يقلع منها كل دقيقة سفن شراعية خيزرانية متجهة الى الهند (١٥٧) ٠ وفى مقابل ذلك كانت موانىء الصين تستقبل تجارا من الهند ٠ وفى هذا العصر لم تكن « امبراطورية الوسط » (١٥٨) ــ (وهو اسم كان يطلق فيما مضى على الصين باعتبارها مركز العالم ــ المترجم) مغلقة فى وجه الأجانب ، كما صارت فيما بعد ٠ فلم يكن قوبلاى يتحمل فقط الأجانب دون اعتبار لدينهم ، ولكنه كان يرغب أيضا فى حضورهم ، ويجتذبهم الى بلاطه ، ويرفعهم الى مناصب عالية ، وهناك أمثلة كثيرة لذلك بين المسيحيين والمسلمين ٠ وفيما يختص بالتجارة ، فقد أتيحت لنا الفرصة قبلا للكلام عن الغربيين القلائل الذين سافروا الى الصين ٠ أما التجار القادمون من البلاد الاسلامية (١٥٩) ،

---

(١٥٢) Polo, p. 477 et r. , 531 et s.

(١٥٣) زرع اشجارا على طول الطريق ٠ انظر :
— Rachid-eddin, l.c. p. 344 ; Polo, p. 342.

(١٥٤) Polo, p. 366, 439, 448, 463, 477 et s.

(١٥٥) Thai-Yuen-fou, au 2nd de Pékin.

(١٥٦) الفصل التاسع والعشرون عن مملكة تا ان فو ٠ Polo, p. 353.

(١٥٧) Ibn-Batouta, IV, 304; V. 81, 88-91, 94, 100.

(١٥٨) Polo, p. 527, 529 et s.

(١٥٩) لم تكن السفارات العربية التى ذكرت كثيرا فى الحوليات الصينية فى الغالب سوى بعثات ينظمها بعض التجار :
— Bretschneider, On the knowledge, etc., p. 11 et s. et ailleurs.

والأخص من فارس ، فبانهم كانوا أكثر عـددا · حقا ان هذا الأمر طرأ عليه بعض التغيرات : من ذلك أن بعض المسلمين الذين دعوا ذات يوم الى مائدة قوبلاى ، رفضـوا ، طاعة لأوامر دينهم أن يأكلوا من أطباق معينة ، ومن ثم غضب الخان الأكبر من هذه الاهانة ، وأحفظه ذلك عدة سنين على اخوانهم فى الدين ، فقل وفود المسلمين لدرجة أحدثت خللا خطيرا فى ايرادات الجمارك ، وانتهى الأمر بأن ألغى قوبـلاى الاجراءات الكيدية التى كان قد أمر بها (١٦٠) · وبغض النظر عن هذه الواقعة ، يتفق كل المؤلفين الذين كتبوا عن الصين فى عهد السيادة المغولية فى القول بأن المسلمين أنشأوا مستوطنات لهم فى أكبر مدن الصين ، وانطلقوا منها فى كل الاتجاهات دون أن يزعجهم أحد · وكان أكبر هذه المستوطنات دون شك هو مستوطن خنساى Khinsai ، فهذه المدينـة كان بهـا ثلاثة مساجد ، وكان للمسلمين فى زيتون Zeiton وكانتون Canton وخان بالق أحياؤها الخاصة يعيشـون فيهـا تحت سـلطة مشايخهم وقضاتهم (١٦١) ·

وكانت التجارة مركزة بنوع خاص فى المدن الساحلية أو على الأقل المتصلة مباشرة بالبحر · وفى الجنوب كانت كانتون تفتح ميناءها للسفن التجارية الهندية · صحيح أن اسم كوانج ــ تونج Kouang-toung الصينى الشكل لا أثر له فى أخبار الرحلات ، ولكننا نجد فى هذه الأخبار اسم صين الصين Sin-Assin أو صين كالان Sincalan (١٦٢) اللذين يدلان على المدينة نفسها · والمعروف أنه طالما كانت الصين الجنوبية تشكل امبراطورية على حدة ، ولأمد طويل ، كان الهنود والفرس يسمونها « الصين الكبرى » ماهاتشين Mahatchin أو ماتشين Matchin · وكثيرا ما كان الشرقيون يطلقون اسم بلد أجنبى على العاصمة أو على احدى المدن المهمة ، التى تمثل فى نظرهم البلد بأجمعه ، وينطبق هذا على الحالة التى ندرسها · فكانتون أول ميناء كبير يقابله البحارة فى جنوب الصين ، ومن

---

(١٦٠) D'Ohsson, Histoire des Mongols, II. 490 et ss.

(١٦١) Ibn-Batouta, IV, 258, 269 et s., 273 et s. ; 284 et s., 294 ; Binaketi, dans Quatremère, Raschideddin, introd, p. lxxxviii, et note de la page suivante ; Oderico de Pordenone, dans Yule, Cathay, II, append., 1, p. xxvi.

(١٦٢) أيد تماثل صين الصين Sin-Assin و صين كالان Sin-Calan مع كانتون السادة :

-- Reinaud (Relations, II, 24, note), Lassen (Indische Alterthuskunde, IV, 890), Defrémery (Ibn-Batouta, IV, 92, 271) ; Yule (Cathay, I, 105).

:م أطلقوا عليها اسم البلد صين كالان Sin-calan ومعناهـا الصين الكبرى (كلمة كالان بالفارسية معناها : كبير) أو صين ، وانتقل هذا الاسم ،ليس فقط الى العرب والفرس (١٦٣) ، ولكن أيضـا الى الرحالة الغربيين (١٦٤) • كانت كانتون فى ذلك الحين من أهم مدن الصين ، فكان الكثير من الأجانب ينزلون من السفن بها ويستقرون هناك بصفة دائمة ، ويبدو من جهة أخرى أنها كانت نقطة انطلاق الكثير من التجار الصينيين ، وبها حوض لبناء السفن ، ويجرى عن طريق هذا الميناء حركة تجارية نشيطة لتصدير الخزف الصينى•وحين زارها أودريكو دا بوردنيونى Oderico di Pordenone أثارت دهشته الحركة المستمرة للسفن الداخلة فى المرفأ والخارجة منه ، فلم يسعه الا أن يقول ان ايطاليا كلها لا تملك حركة تجارية بحرية مماثلة لنظيرتها فى تلك المدينة وحدها (١٦٥) •

والى الشمال قليلا ، تقع مدينة زيتون ، وهى حاليا تسون ــ شاو ــ فو Tsuen-tchéou-fou (مقاطعة فو ــ كيين Fo-kien) ، وكان اسمها فيما مضى تسى ــ تونج Tsé-thoung ، ولكن الفرس والعرب عدلوا هذا الاسم على طريقتهم فجعلوه « زيتون » وهى كلمة معروفة فى لغتهم (١٦٦) • وكان أبو الفدا يعرف قبلا هذا الاسم ، اذ سمعه من تجار سافروا الى تلك الجهة (١٦٧) ، أما ابن بطوطة الذى وصف فيما بعد هذه المدينة ، فانه تحدث عما رآه بنفسه ، اذ نزل الى البر فى تلك الناحية ، كما ركب هناك البحر عند عودته منها ، على متن سفينة شراعيـة خيزرانيـة متجهة الى الهند (١٦٨) • والآن أصبح ميناء تسوين شاو فو مملوءا بالرمال ، ولكنه

---

(١٦٣) Ibn-Batouta, IV, 92, 255 et s., 268, 271 et ss. ; Rachid-eddin dans Eliot, Hist. of India, I, 71 ; Yule, l.c.

(١٦٤) Oderico di Pordenone, p. xxiv ; Marignola, p. 110 (dans Dobner); la Carte catalane, (p. 142).
ــ أما ماركو بولو فانه لم يطلق عليها هذا الاسم •

(١٦٥) Oderico, l.c. ; Ibn-Batouta, l.c.

(١٦٦) كانوا على حق الى حد ما ؛ والواقع أن شجر الزيتون لا ينمو فى مجاورات هذه المدينة ، ولا فى الصين كلها (ابن بطوطة ، الجزء الرابع ، ص ٢٦٩) .. الا أنه يجنى بها ثمار نبات ال Fleococcus oleifera الذى يسميه الصينيون « تونج » Thoung ويوجد هذا النبات فى مجاورات المدينة • ويشكل اسمه المقطع الثانى من اسم المدينة • انظر :

Klapprouth, dans le Journ. asiat. V (1824) : p. 41-44 ; Pouthier, M. Polo, p. 528.

(١٦٧) Géogr., II, 2, p. 123 et s. ; Cf. Richthofen China, I, 496.

(١٦٨) IV, 269 et ss., 304. Rachid-eddin : voy. Journ. asiat., 2e série, XI, 457 ; Elliot, Hist. of India, I, 71.

كان فى ذلك الحين ميناء ممتازا (١٦٩) ، واعتبره ابن بطوطة أوسع ميناء فى العالم ، اذ كان يستقبل عددا هائلا من السفن القادمة من الهند ومن جزر الأرخبيل الهندى ، تجلب اليه التوابل، وسلعا ثمينة ، وبخاصة الفلفل بكميات هائلة ، حتى ليمكن القول بأنه يصل الى هناك من هذه السلع مائة ضعف الكميات التى تمر بالاسكندرية فى طريقها الى أوروبا ٠ وفى هذا الميناء يتقابل تجار جنوب الصين كله ، ويبحثون عن السلع الواردة من وراء البحار لتصريفها فى داخل البلاد (١٧٠) ٠ كانت المدينـة واسعة ، وبهـا مسلمون مقيمون اقامة دائمة ، وغربيون لهم بهـا مستودعاتهم (ومنهم بنوع خاص الجنويون) ويشكلون دعامة مهمة للسكان ، ويسهمون بنصيب فعال فى الحركة التجارية (١٧١) ٠

ولم تكن زيتون آخر ميناء تتردد عليه سفن المحيط الهندى ، اذ كانت هـذه السـفن تتقدم شـمالا حتى مصب نهر تسـيين ــ تانج Tsien-Tang حيث ترسو عند خان ــ فو Kan-fou (١٧٢) ، ميناء خنسـاى Kinsaï عاصمة المقاطعة ٠ وسبق أن رأينا أن خان ــ فو كانت منذ أقدم العصور مقصد البحارة العرب والفرس ، وفى عصر ماركو بولو كان مرفؤها مملوءا بالسفن التجارية الذاهبة والآتية بين هذا الميناء وبين الهند (١٧٣) ٠ وتشير المصادر الصينية المعاصرة الى خان ــ فو على أنها من أهم المكاتب الجمركية فى البلد (١٧٤) ٠ ويمكن ، عند الضرورة الا تتوقف السفينة هناك ، بل تمضى الى خنساى نفسها ، وهى مدينة كبيرة ، ومن أهـم المراكز التجـارية فى الصـين ، وهى الآن ــ هانشـو ــ فو Hang-tchéou-fou عاصمة مقاطعة تسى كيانج Tsé-Kiang ، وكانت لزمن طويل مقرا لأسرة سونج Song (١١٢٧ ــ ١٢٧٦) ، وتحمل وقتئذ اسم كنج ــ سى King-sse فقط ، أى عاصمة (الصين الجنوبية) ، وهذا الاسم حوره الفرس والعرب ، وحتى الغربيون الى خنساى ، وخنسا ،

---

(١٦٩) Marign dans Dobner, p. 95.

(١٧٠) Marco Polo, p. 258-531 ; la legende de la carte de Frà Mouro, dans Zurla, p. 38.

(١٧١) Ibn-Batouta, IV, 269 et ss. ; Oderico da Pordenone, p. xxiv ; Marign., l.c.

(١٧٢) Klaproth : Journ. asiat., V (1824), p. 35-41 ; Richthofen, China, I, 570, 584.

(١٧٣) Marco Polo, p. 498 et s.

(١٧٤) Pauthier, Polo, p. 531 et s.

وكساى (١٧٥) . وتبعا لكل الأوصاف التى تركها الرحالة والجغرافيون فى العصور الوسطى ، كانت هذه المدينــة ذات أبعــاد شاســعة . يقول حمد الله مصطفى (حوالى عام ١٣٤٠) (١٧٦) انها كانت على الأقل أكبر مدينة فى الشرق كله ، بل يبالغ بعض المسافرين (١٧٧) فيقولون انها أكبر مدينة فى العالم . ويقول ماركو بولو ، وماربنيولا Marignola (١٧٨) دون مواربة انها أجمل وأغنى المدن وأكثرها ازدحاما بالسكان . ويشهد أودريكو دابوردينونى (١٧٩) أن خنساى تفوق سائر المدن بوفرة وتنوع السلع المعروضة فى أسواقها . وكان للمدينة علاقات تجارية واسعة ، وبها ثروات هائلة (١٨٠) ، وأنشأ بها تجار أجانب من بــلاد وديانات مختلفة وكالات تجارية ، ويقيمون بهــا بصفة عابرة (١٨١) . وتدين خنساى بهذا الرخاء من جهة لاتساعها ، ولأهلها الذين اعتادوا الرفاهية ، ومن جهة أخرى لموقعها على ضفاف نهر يتشعب فى داخل المدينة نفسها ، وهذا ظرف من شأنه أن يسهل الاتصالات بالبحر ، ومن جهة أخرى أيضا ، الى القناة والطريق اللذين يمتدان لمسافة تقطع فى أربعين يوما ، وتصلها بخان بالق ، عاصمة الشمال الجديدة (١٨٢) . وكانت هذه العاصمة ، عاصمة الشمال والصين كلها مركزا تجاريا كبيرا (١٨٣) ، وكانت متصلة اتصالا مباشرا ، برا وبحرا بالمدن الساحلية الكبيرة التى تفرغ عندها السلع الأجنبية ، فكانت تتلقى بأكبر قدر من السهولة منتجات جنوب الصين

---

(١٧٥) Rachid-eddin, dans le Journ. asiat., 2 série, XI, 456 et s ; 1 dans Elliot, Hist. of India, I, 71 ; dans Quatremère, p. xciii, Binaketi, ibid, p. lxxxii et s. ; Aboulf., Géogr., II, 2, p. 122-124 ; Ibn-Batouta, IV, 283 et ss. ; Marco Polo, p. 491 et ss. ; Oderico da Pordenone, p. xxvi ; Marignola, dans Dobner, p. 95, 110 ; Le Livre de l'estat du grant Caan, p. 66 : Regol., p. 1, 2.

(١٧٦) Quatremère, Rachireddin, p. lxxxviii.

(١٧٧) Ibn-Batouta.

(١٧٨) Marco Polo, p. 492 ; Margin., p. 95.

(١٧٩) Oderico, l.c. ; cf. Le livre de l'estat du grant Caan, l.c.

(١٨٠) Marco Polo, p. 494.

(١٨١) Oderico, p. xxvii ; Ibn-Batouta, IV, 284 et 3.

(١٨٢) Messalek alabsar, cité par Quatremère, Rachid-eddin dans le Journ. asiat., 2e série, XI, 343.

(١٨٣) Pegol., p. 3 ; M. Polo, p. 313, 318.

– « خان بالق » هو فى الحقيقة اسم هذه المدينة باللغة التركية ؛ وكان اسمها بالصينية تاى‌تو Tai-tou (اى العاصمة الكبيرة) وهو الاسم الذى اطلقه عليها مؤسسها .

العديدة المنوعة . وكان وجود البلاط وعدد كبير من الشخصيات الرفيعة بها يجذب اليها الكثير من التجار الذين يريدون تصريف بضائعهم بها . لذلك كانت المنتجات الوطنية والأجنبية ترد اليها من جميع الأنحاء . ولكن الحرير كان السلعة المتفوقة على سائر السلع ، فيصل هناك بكميات خيالية : ويقدر ماركو بولو مجموع ما يدخل منه كل يوم من خلال أبواب المدينة بألف حمولة من حمولات العربات .

ترى هل كان بين البضائع المكدسة فى مخازن المدينة الصينية الكبيرة وحوانيتها بضائع واردة من أوروبا ؟ هذى مسألة مشكوك فى صحتها . وعلى أية حال يمكن التسليم بأن الغربيين الذين يتبعون الطريق البرى لم يكونوا يثقلون كاهلهم ببضائع كثيرة ، ولابد أنهم اتبعوا النصيحة الممتازة التى أسداها اليهم بيجولوتى ، فكانوا بوجه عام يبدلون بهذه البضائع نقودا قبل أن ينطلقوا عبر السهوب والصحارى فى وسط آسيا . أما الذين يمرون بطريق الهند ، فليس من المحتمل أن يواصلوا رحلتهم الى غايتها ومعهم البضائع التى أخذوها منذ بداية الرحلة ، ولابد انهم كانوا يتخلصون منها فى الطريق ، ويحصلون بدلا منها على نقود أو بضائع أخرى يضمنون تصريفها فى الصين . وكان الغرض الرئيسى من رحلتهم شراء منتجات صينية وتوريدها الى أوروبا . ولكن عند وصولهم الى الصين ، يجدون فى انتظارهم أمرا يخيب آمالهم ، اذ يعلمون هناك أن المعادن الثمينة لا تستخدم كأداة للمبادلات التجارية ، والتاجر الوطنى نفسه يحول كل ما عنده من ذهب وفضة الى سبائك يخزنها عنده ، ويستخدم العملات الورقية فى أعماله العادية ، وعلى الأجنبى أن يفعل مثله فيستبدل بكل نقوده عملات ورقية حتى لا يبقى بلا عمل (١٨٤) . وكانت للعملات الورقية سعر الزامى ، ويعتبر رفضها تمردا على الحكومة عقوبته الاعدام (١٨٥) ، ذلك لأن الخان الأكبر نفسه هو الذى يتولى صنع هذه العملات الوقية فى مقره ، ويصدرها فى القطر كله . ويصنع الورق من شبكير (١٨٦) نوع من شجر التوت (١٨٧) Morus papyrifera Linn (الشبكير ،

---

(١٨٤) Ibn-Batouta, IV, 259 et s.

(١٨٥) Marco Polo, p. 325.
– كان الذين يعرضون للتداول عملات ورقية يتعرضون للعقوبة نفسها . انظر :
— Ibid, p. 321, note : cf. Livre de l'estat du grant Caan, p. 61.

(١٨٦) Makrizi, dans Silvestre de Sacy, Chrestomathie arabe, I, 251.

(١٨٧) Marco Polo, p. 320 et ss. ; Chahabeddin, p. 223 ; Marco Polo,
– يبدو ان هذا الشكير يشبه القطن فى شكله وملمسه .

قشرة دقيقة بين اللحـــاء والخشب الصلب فى ســـاق النبـــات "د
المترجم) • وبالنسبة الى المبالغ الكبيرة ، تصنع عملات من الحرير ، ولكنها
لا تستخدم فى المعاملات ، وتصنع بالعكس من ذلك عملات ورقية تسمى
جاو Tchao (١٨٨) ، وهى قسائم (كوبونات) مختلفة القيمة ، يتمثل
أقلها بعامة فى كل البلاد بعملات نحاسية (١٨٩) • ولدمغ هذه الأوراق
النقدية ، استعمل فى البداية النقش على الخشب ، ثم استبدل به فيما
بعد النقش على النحاس • وتحمل الأوراق النقدية حروفا وأرقاما حمراء
وسوداء (١٩٠) ، وعليها دمغة الخان الأكبر (١٩١) • وعلى من عنده أوراق

ancien texte publié par la Société de géographie, p. 384; Oderico da Pordenone (l.c., p. xxvi) ; Jord. Catal. (p. 58) et Hayton (dans Grgnaeus, Nous orbis, Bas. 1555, p. 402 et s.).

(١٨٨) كانت العملة الورقية الصينية تسمى بالش • Balich
(Pegolotti, p. 1, 3)
ريسميها (Yule, Cathay, II, 289, 294) : balisci" M. Yule.

ـ وكلمة بالش تطلق على قيمة معينة ، وكانت مستعملة فى كل البلاد الخاضعة السيادة المنغولية حتى فى البلاد التى لم تعرف العملة الورقية • ويبدو انها كانت تطلق فى الاصل على سبيكة من ذهب او فضة ، ثم صارت تطلق على مبلغ من الذهب او الفضة المسكوكة بنفس القيمة :

ـ وهكذا كان هناك : بالش ذهبى ، وبالش فضى وبالش ورقى ، ولتمييز الاخير ،
Quatremère, Rachid-eddin, I, 319, 320 et s. : Yule, Cathay, I, 115-117.
سمى بالش ـ جاو •
(Not. et extr., XIV, 1, p. 503) balich-tchao

ـ يقول ابن بطوطة (IV, 260) ان ٢٥ عملة ورقية تساوى « بالشت » ، وان البالشت يساوى دينارا ذهبيا • ويقول اودريكو دا بوردينونى (p. xxvi, xxix) ان البالش يساوى خمس عملات ورقية ، وان البالش يساوى ريالا écu ذهبيـــا ونصف ، ويعادل هذا فى الحالتين من ١٥ الى ١٩ فرنك • اما بيجولوتى فانه يصل فى حسابه الى النتيجة نفسها تقريبا (p. 1, 2) فهو يحسب أن ٤ « بالش » تســاوى خمسة ريالات ذهبية • ونحن بذلك مختلفون عما قدره وصاف Wassaf الذى يقدر قيمة « البالش » (كعملة ورقية) بعشرة دنانير •

ويرى وصاف أن البالش الذهب والفضة يزنان ٥٠٠ مثقال (٢½ كيلو جرام) ويساوى البالش الذهبى ٢٠٠٠ دينار والفضى ٢٠٠ دينار والورقى ١٠ دنانير لكنه فى حديثه عن سفارة عام ٦٩٧ـ٧٠٤ هـ يذكر ان البالش لا يساوى غير ستة دنانير • والمقصود بالدينار هنا هو العملة الفضية التى تزن ٣ مثاقيل • (المراجع) .

(١٨٩) Marco Polo, p. 323 et ss. et les notes de M. Pauthier ; Yule. M. Polo, I, 381 et s. ; Biot. Mém. sur le système monétaire des chinois ; Journ. Asiat., 3e série, IV, 446.

(١٩٠) Jord. Catal., l.c. ; le Livre de l'estat du grant Caan (p. 66).

(١٩١) M. Polo, p. 324 ; Pegol., p. 3 ; Hayton, l.c.

يرى ماركو بولو أن الموظفين المختصين يضعون اسماءهم واختامهم اولا ، ثم يتولى كبيرهم وضع الخاتم الملكى المصبوغ بالزنجفر القرمزى (الفصل الثامن عشر) • (المترجم)

منها أوراقا جديدة بعد خصم ٣٪ من قيمتها (١٩٢) • ولم تدفع الحكومة أبدا قيمة الأوراق المالية التى تقدم الى مكاتبها عملات معدنية ، وكان من المستحيل عليها أن تفعل ذلك ، لأن تحويل المعادن الثمينة الى عملات نقدية فى عهد السيادة المغولية لم يكن يتمشى مع الاصدار السنوى الضخم للعملات الورقية • وفى البداية لم تكن النقود المعدنية تسك بالمرة ، وعندما تقرر سكهـا ، لم يجر ذلك الا بكميات قليلة • وترتب على عدم امكان استبدال الفضة والذهب بالأوراق النقدية انخفاض قيمة هذه الأوراق ، حتى انه فى عام ١٢٨٧ على سبيل المثال ، لم يبلغ سعر الأوراق وقت الاصدار سوى نصف قيمتها الاسمية • وليس هناك مجال لاستعراض كيف أن هذا الانخفاض كان يتزايد باستمرار ، حتى انتهى بخراب البلد ، وسقوط السيادة المغولية • وكانت العملة الورقية من ابتكار ملوك الصين القدامى ، فقلدهم الملوك المغول (١٩٣) ، ولكنهم أساءوا استخدامها • ويبدو أن ماركو بولو لم يفطن الى الأخطـــار الجسيمة التى تحيق بهذا الاستخدام السيء للعملات الورقية ، أو لعله لم يرد أن يعترف بذلك ، وربما دهش من رؤيته الخان الأكبر يسدد نفقاته بنقود ورقية ســهل الحصول عليها ، والانطباع الذى استشعره قد أربك حكمه ، وربما أيضا لم يواجه المسألة الا من وجهة نظر التجار الضيقة ، فالواقع أنه حين كان التجار يحضرون ذهبهم أو فضتهم ، أو حتى حجارتهم الكريمة ، أو موادا أخرى الى مصرف (خان بالق) المركزى ، أو الى مكاتب المصارف فى المدن الثانوية (١٩٤) ، فانهم يستلمون فى مقابلها نقودا ورقيـــة بسخاء ، وكانت هذه النقود الورقيـــة عملة شائعة سهلة الحمل ، لا يجرؤ انسان على رفضـــها (١٩٥) • ويمضى بيجولوتى فيؤكد أن اســتعمال النقود الورقية لم يتسبب فى أى ارتفاع لأسعار السلع (١٩٦) • ومن المحتمل

---

(١٩٢) Hayton (op. cit.,

يؤكد ابن بطوطة ان حامل الورقة المالية لا يتحمل اية خسارة عند مبادلتها • ولكن ماركو بولو (ص ٣٢٧) و le Livre de l'estat du grant Caan, p. 67. يزيدان هذا الخصم ؛ ويتحدث شهاب الدين ايضا عن حدوث خسارة طفيفة •

ويذكر بربارو : (Barbaro, Viaggio alla Persia, p. 44) ان اباطرة أسرة منج اعتادوا ان يحلوا كل سنة محل العملات الورقية المتداولة عملات ورقية جديدة ، ويحتجزوا من حامليها ما قيمته ٢٪ عملة فضية •

(١٩٣) M. Biot (Journ asiat., 3 série, III, IV), et les notes de M. Pauthier (Marco Polo, p. 319 et ss) ; la petite notice de Klaproth, sur l'origine du papier-monnaie (Mém. relat. à l'Asie, I, 375 et ss.).

(١٩٤) Pauthier, Polo, p. 321.

(١٩٥) Marco Polo, p. 326.

(١٩٦) P. 4..

أنه لو استفسر بعض الوطنيين الذين يعرفون الأسعار فى فترة كان فيها اصدار العملة الورقية يتم فى حدود معقولة ، لخالفوا رايه · ولكن التاجر الأجنبى لم يكن فى وسعه أن يجرى تلك المقارنة ، وتبدو له المنتجات الصينية التى يحصل عليها فى مكانها رخيصة الثمن للغاية بالنسبة الى القيمة التى تصل اليها فى أوروبا · فالحرير مثلا ، بفضـــل خصوبة البلد ، كان يجلب الى الأســـواق بكميات كبيرة فيبقى بها من ثم بسعر منخفض · ويعتقد ابن بطوطة أن الحرير لم يكن له أية قيمة اذا لم يطلبه التجار ، ذلك لأن دود القز الذى ينتجه لا يتطلب عناية كبيرة (١٩٧) ·

والواقع أن الحرير هو أثمن منتجات الصين كلها ، وهو المنتج الذى يطلبه تجار الغرب قبل أى شىء · وفى كل حين ، ووسط وصف مدينة ما ، يتوقف ماركو بولو ليتحدث عن زراعة شجر التوت ، وعن وفرة محصـــول الحرير الخام ، والأقمشـــة الحريرية الجميلة ، أو الحريرية المختلطة بالذهب ، والتى يعرف الصينيون نسجها على أنوالهم (١٩٨) · والحرير الخام ، والأقمشة الحريرية هما السلعتان اللتان يذهب التجار لاحضارهما من أسواق الصين · واذا كان المبشر أودريكو دا بوردينونى يعلم أنه فى سوزوماتو Suzomato سنجوى ماتو عند ماركو بولو ، وهى الآن تسى ننج تشيو Tsi-ningtchéou فى مقاطعة شان تونج) (١٩٩) كان أربعون رطلا من الحرير تتكلف أقل من ثمانية Solidi grossorum (٢٠٠) ، حتى فى أوقات الغلاء ، واذا كتب بيجولوتى أن فى الصين يمكن فى نظير un Sommo d'argento (أى خمسة دنانير ذهبية) الحصول على ١٩ الى ٢٠ رطلا من الحرير الخام ، أو ثلاث قطع أو حتى ثلاث قطع ونصف قطعة من قماش حريرى دمقسى (موشى أو مشجر) ، أو ثلاث قطع ونصف قطعة الى خمس قطع من البروكار الذهبى (الديباج ــ نسيج مقصب بخيوط الحرير والذهب ــ المترجم) (٢٠١) ، فان هذين المؤلفين ليسا الا صدى لما يردده التجار الايطاليون الذين كانوا يمارسون التجارة فى الصين · ومؤلف كتاب De l'estat du grant Caan حيث يتحدث عن المواد التى يصدرها التجار الأجانب من الصين ، يذكر أيضا الحرير

---

(١٩٧) Ibid, IV, 258 et s.

(١٩٨) Polo, p. 317, 352, 353, 362, 435, 437, 439, 441, 465, 469, 471, 488, 511, 524.

(١٩٩) Voy. Pauthier, Polo, p. 444 ; Yule, Polo, II. 100 et s. (Cathay. I, 126).

(٢٠٠) Cathay, II, app. I, p. xxx.

(٢٠١) Pegol. p. 4.

الخام والمنسوجات الحريرية ، والديباج المذهب (٢٠٢) ، ويذكر فضلا عن ذلك التوابل ، ويعبر عنها بلفظة جامعة قد تكون مطاطة ، فقد تشمل مثلا المســك ، والراوند ، وجذور الخولنجان (نبــات طبى من الفصــيلة الزنجبيلية – المترجم) • ونجــد تفاصيل لهذه الحاصــلات المختلفة فى اضافات بآخر الكتاب • وقد يتعجب القارىء من أننا لم نقل كلمة واحدة عن الشاى الذى هو فى عصرنا الحاضر من أهم صادرات الصين : ذلك لأننا لا نجد له أثرا فى العصور الوسطى ، لا فى كتب التجارة ، ولا فى التعريفات الجمركية • وقد يحملنا صمت ماركو بولو (٢٠٣) والمبشرين بشأنه – مع أنهم يصفون بأدق التفاصيل عادات الصينيين وتقاليدهم – على الاعتقــاد بأن المشروب الفائق للبلد التى تنتجه لم يكن معروفا فى العصور الوسطى • ومع ذلك فهذا غير صحيح : فتبعا لبعض المصــادر الوطنية ، ترجع عادة شرب الشاى فى الصين الى زمن أكثر قدما ، ولم يكن الشاى مجهولا خارج الصين ، وقد انتشر أولا عند العرب قبل أن ينتشر عند الأوروبيين (٢٠٤) • وفى الغرب لم يبدأ الناس شرب الشاى الا فى القرن الثامن عشر (٢٠٥) •

---

(٢٠٢). Ed. Jacquet, p. 67.

(٢٠٣) M. Pauthier (p. 384, not., 386) ; Yule, Polo. II, 37 et s.

(٢٠٤) Relat., p. 40.

(٢٠٥) Ritter, Asien, II, 229 et ss., Meyer, Geschichte der Botanik, II, 276; Meyen, Pflanzengeographie. 460.

الفترة الثالثة

الانحطـــاط

استنفاد قوى أمم (البحر المتوسط التجارية ،
انســـداد طرق آســـيا ، فى الداخل والخارج ،
اكتشاف البرتغاليين طريقا جديدا ٠

أولا : العثمانيون ، والروم ، والفرنجة في شبه جزيرة البلقان

١٣٨١ - ١٤٥٣

أتاح صلح تورينو (١٣٨١) للدول التى كان لها علاقات مع دولة الروم Romanie أن تستعيد نشاطها التجارى الذى انقطع زمنا طويلا ، وأصبح فى مقدورها ضمان مصالحها التجارية ، اما بعقد معاهدات أو بوسائل أخرى • وفى هذه الأثناء طرأ على الوضع السياسى للبلاد التى تشملها هذه المنطقة تغيرات شديدة ، وتبين بوضوح يزداد يوما بعد يوم أن المستقبل للعثمانيين • فمن أندرينوبل Andrinople (حاليا أدرنة - المترجم) حيث استقروا وثبتوا أقدامهم ، وكانت لهم بمثابة قاعدة للعمليات الحربيــة ، انتشرت قواتهم التى لا تقهــر ، وأوقعت الدمار والخــراب بالبلاد التابعة للسلاف (الصقالبة) ، الجنويين ، والبيزنطيين • وتقلص مركز الامبراطورية البيزنطية حتى أصبح مثلثا صغيرا محصورا بين بحر مرمرة والبحر الأسود • وكان الاقليم الصغير الذى احتفظ به الأباطرة فى مقدونيا حول سالونيك ، واقليم ميترا Misithra (اسبرطة) اقطاعية لفرع صغير من أسرة باليولوجوس ، مفصولة عن المركز بأراضى شاسعة يملكها الأتراك والصقالبة والفرنجة ، بالاضــافة الى بضع جزر شمالى الأرخبيل ، وهذى كل ما تبقى من الامبراطورية البيزنطية • وكان من الضرورى تراخى الروابط الادارية بين هذه الممتلكات المتناثرة ، فلم يعد يجمعها اتحاد أو ترابط ، ولم تعد الامبراطورية القديمة تفرض احترامها

على أحد ، لا على أصدقائها ، ولا على أعدائها • وزيادة فى الاذلال ، فقدت الامبراطورية كل شىء ، حتى استقلالها منذ أن أصبح الامبراطور يوحنا الخامس فى شيخوخته تابعـا للسـلطان ، وتحت امرته من الوجهـة العسكرية •

ترى هل تدير أمم الغرب التجارية ظهرها للنجم الغارب ، وتسعى للقاء الشمس المشرقة ؟ فى مثل هذا السؤال المتعلق بالمصلحة ، لم يكن التفوق العسكرى ، واتساع الممتلكات الاقليمية هما العنصرين الوحيدين اللذين يتعين بحثهما • فهناك من وجهة السياسة التجارية عناصر أخرى تستحق أن تؤخذ فى الاعتبار • لقد شملت الفتوحات العثمانية السهول الممتدة جنوبى البلقان وهى التى اشتهرت بزراعة الحبوب • غير أن أهم مدينتين فى المنطقة ، وهما مركز الصناعة والتجارة فيها ، القسطنطينية وسالونيك بقيتـا فى أيدى الروم (١) ، وكان للأمم التجارية فيهمـا مستعمراتهما وأحياؤها وقنصلياتها ، وتتمتع فيهما منذ قرون بامتيازات منوعة ، وتقيم بهما علاقات مع شعب يقدر الفنون السلمية • ولم تكن تجارة الغرب مضطرة للاعتماد على السلاطين الذين أسكرتهم انتصاراتهم ، ولا على رعاياهم الذين لم تهذبهم المدنية بعد ، من أجل أن يحظوا بضروب من التشجيع تقارب ــ ولو من بعيد ــ ما حصلوا عليه من الروم • كان شعار الغزاة هو : محاربة المسيحية • وكان لا مفر من نشوب قتال ، من يوم لآخر بينهم وبين الفرنجة المقيمين فى اليونان • حقا ، كانت هناك بضعة مواقع على الساحل ، والتى يحتلها الايطاليون هى وحدها المهددة ، بصفة وقتية ، ويبدو أن الجزر كانت أقل تعرضا للتهديد • وهناك بنوع خاص ركزت الدول التجارية جهودها الاستعمارية ، وكانت تتلقى من حين الى حين زيارة القراصنة الأتراك الذين كانوا يوقعون بها الهلاك والدمار ، ويأخذون سكانها عبيدا لهم ، أو يجبرونهم على الهجرة • ولكن طالما لم يكن العثمانيون يملكون أسطولا امرتهم ، لم يكن يخشى من جانبهم احتلال دائم • وجاءت فرصة أول اصطدام بين العثمانيين وبين الجنويين والبنادقة ، حين اندلعت حرب بين البندقية ، وأراجون ، وبيزنطة من جهة ، وبين جنوا من جهة أخرى • وفى غضون المعارك التى استطالت فى سنتى ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، لم ير أمير البحر البندقى الذى اضطرته الظروف للاقامة مـدة طويلة على سـواحل الأقاليم التابعة لحـكم الأمير الكبير أورخان

---

(١) حاصر العثمانيون سالونيك أول مرة عام ١٣٨١ واخفقوا ، وبعد ذلك استولوا عليها عدة مرات فى أعوام ١٣٨٧ ، ١٣٩١ ، ١٤٠١ وفى كل مرة كان احتلالها اياها وقتيا — Séadeddin, Chronica della casa ottomana, trad. Bratutti, p. 120 ; Chalcoc., I, 47; Chrou. byx. éd. Jos. Muller (dans ses Bysant. Analekten: Sitzungsberichte der Wiener Akad., phil. hist. Cl., IX, 1852), p. 394 ; Ducas, p. 50 ; Hopf, art. Griechenland, Op. cit., lxxxvi, 71.

Orkhan (٢) ، لم ير ضرورة لزيارة الأمير • وبتصرفه هذا الذى يدل على الازدراء ، أهان كرامة الأمير ، وعلى العكس من ذلك أظهر أمير البحر الجنوى احتراما شديدا للأمير أورخان ، وعقد معه معاهدة تحالف • وحين انتهت الحرب ، بقى أورخان حليفا وصـديقا لجمهورية جنوا ، وكانت طلباته تحظى دائما عندها بكل ترحيب ، حتى إن وصلت فى ظروف غير مناسبة (٣) • وفي عهد خليفته مراد الأول بقيت العلاقات بين الفوتين على ما كانت عليه • وكان هذا الوضع ملائما لتقدم الحركة التجارية بين أهالى بيرا والعثمانيين • وفى عام ١٣٧٢ وصلت الأمور الى حد اثارة الشكوك والقلق فى نفس البابا جريجـوار الحادى عشر الذى كان يدبر بفـكره مشروعات تتعلق بشن حرب صليبية (٤) والثابت أن التحالف المذكور كان قويا ، ذلك لأنه فى معـاهدة بتاريخ ٢ نوفمبر ١٣٨٢ ، تعهد الجنويون بمسـاندة الامبراطور يوحنا وابنه اندرونيقوس ، وحفيده يوحنا حيال الجميع ، وضد الكافة ، ولكنهم نصوا (فى المعاهدة) على استثناء لصالح مراد وأتراكه (٥) • وأولى المعاهدات التى عقدت بين جنوا والعثمانيين ، وبقيت محفوظة لنا ، تحمل تاريخ ٨ يونية ١٣٨٧ • وكان فى بيرا آنئذ مندوبان مفوضـان من قبل جمهـورية جنوا : جنتيلى دبى جريمالدى Gentile dei Grimaldi ، وجيانونى دل بوسـكو Giannone del Bosco وبعـد أن وقع المفوضـون فى قصر البودستات معـاهدة تجـارية مع سـفراء بلغـار ، ذهبـا الى معسـكر مراد الذى كان موجودا وقتئذ فى مايانا Maillana ، وهناك أجريا مفاوضات ، دونت نتيجتها أولا باللغة اليونانية ، ولم تترجـم إلى اللاتينية الا فيما بعد (٦) • فما أعظم الفرق بين هذه الحال وبين العصر الذى كان فيه التجار الجنويون يتمتعون فى امبراطورية الروم بمزايا عديدة متنوعة ! والآن قبل مراد اعفاء رعاياه من الرسوم الجمركية عند الدخول فى بيرا والخروج منها ، ووافق على أن يستبدل بهذه الضريبة رسم إنتاج بسيط قدره ٨ قراريط عن كل مائة هيبربر من قيمة البضـائع ، عند البيع ، وعنـد الشراء (٧) • ومع ذلك استمر يقتضى من الجنويين سداد الرسـوم المحددة فى المعاهدات السابق عقدها مع أبيه ، ومعه هو ، واكتفى بمنحهم نفس الإبراء الممنوح

---

(٢) Cantacuz., III, 228.

(٣) Atti, della Soc. lig., XIII, 124-127.

(٤) Raynald, a. a. 1372, no 29.

(٥) Atti della Soc. lig., XIII, 133 et ss.

(٦) Silvestre de Sacy dans Not. et extr., XI, 1, p. 59 et ss. ; M. Belgrano dans les Atti della Soc. lig., XIII, 146 et ss.

(٧) كان له فى بيرا وكيل تجارى ، يتحتم على الأهالى أن يسددوا له ما كان قد دفعه بالزيادة عن هذه الضريبة •

للمسلمين والروم والبنادقة فى خصوص مشتروات الحبوب التى تجرى له مباشرة أو لوكلائه ·

يدل انعقاد هذه المعاهدة التركية الجنوية التى أشرنا اليها آنفا على أن البنادقة سبقوا فحصلوا من الباب العالى على مزايا لتجارتهم · وأظهر مراد الأول استعداده للتنازل لهم فى اقليمه عن موقع صالح لأن ينشئوا فيه مستوطنا لهم · وأقر أوريو باسكواليجو Pasqualigo بايل القسطنطينية أن الشروط المطلوبة مستوفاة فى اسكدار (أسكوتارى) · هذه البلدة (أو الحى) لها ميناء جيد ، وبمد سلسلة عند مدخل الميناء ، واضافة بعض التحصينات ، يمكن تزويد الميناء بما يكفل السفن ملجأ آمنا · وفى عام ١٣٦٨ أوفدت حكومة البندقية سفيرا خاصا مكلفا بمتابعة المفاوضات ، وكان عليه فى هذه المناسبة أن يعمل للحصول لمواطنيه على الاعفاء من رسوم الدخول والخروج فى الموقع الذى سوف يقام عليه المستودع المطلوب التنازل لهم عنه ، وبوجه عام الحصول على كل الحقوق والمزايا التى يمكن انتزاعها من العاهل (٨) · هذه المفاوضات لم تترك لها أى أثر ، ونجد فى عام ١٣٨٤ من جديد مفاوضات معلقة لنفس الغرض ، وهو التنازل عن موقع صالح لانشاء مستعمرة · وفى هذه الفترة قدم الى البندقية وفد تركى ، وفى مقابل ذلك أوفد مارينو ماليبيرو Marino Malipiero الى بلاط مراد ، وكان عليه ، بالاضافة الى الغرض الخاص بمهمته (٩) أن يبذل كل ما فى وسعه للحصول لصالح البنادقة على الغاء الضرائب المفروضة على القمح الذى يشترونه من الاقليم التركى ، أو على الأقل خفض هذه الضرائب الى نصف هيبربر (دوكا : نقد ذهبى قديم فى البندقية — المترجم) للصاع الواحد (مكيال قديم) ، وكذا أحسن الشروط الممكنة لمشتروات الشب ·

وواصل البنادقة معيشتهم مع الأباطرة البيزنطيين كما كانوا يعيشون معهم من قبل ، مع توثيقهم الروابط مع كبار الأمراء العثمانيين · وكان السفراء الموفدون الى اندرينوبل (أدرنة) مكلفين فى الغالب بأداء بعض المهام عند مرورهم بالقسطنطينية · ومع ذلك فالعجيب أن يتبين لنا كثير ، اعتبارا من هذه الفترة جفاء السفراء البنادقة فى علاقاتهم بالأباطرة الروم ، فكلما اتضح اعسار هؤلاء الأمراء ، وتزايد طلبهم المعونة من الغرب ، وظهر اقتراب امبراطوريتهم من الانهيار ، زال بالتدريج نفوذهم القديم · فهل تريدون برهانا على ذلك ؟ فى عام ١٣٢٤ حضر السفير لويجى كانتارينى

---

(٨) Monumenta spectantia hist. Slav. merid., IV, 92 et s.

(٩) Instruction du 22 juill. 1384 : Taf et Them. inéd ; Romanin, III, 255.

Luigi Contarini أمام الامبراطور يوحنا الخامس ، متأهبا لتهديده ، وصرح له بأنه لن يوافق على تجديد المعــاهدات الا اذا تكفل الامبراطور مقدما بتعويض البنادقة ، على حساب الخزانة عن كل الحجوزات والمصادرات التى أجراهــا الامبراطور اندرونيقوس اضرارا بهم ، ورفض كل مطالبة مضادة لصالحهم • وبالفعل ، انصرف السفير دون أن يعقد معاهدة جديدة • وفى عام ١٣٨٦ ، كلف مارينو ماليبيرو ، بتعليمات مسلمة اليه بأن يقدم من جديد نفس المطالب ، وأن يختصر مدة اقامته بالقسطنطينية اذا أصر الامبراطور على رفضه (١٠) • ومع ذلك ففى عام ١٣٩٠ ، فى حياة يوحنا الخامس نجح مفاوض كفء وهو فرانشسكو فوسكولو Francesco Foscolo فى تجديد المعاهدات القديمة المبرمة بين البندقية وبيزنطة ، وأدرج فيها بضعة بنود اضافية قليلة الأهمية (١١) •

ومهما كان تقدير البندقية لنفوذ الامبراطور اليونانى وهيبته ضعيفا ، فانها حرصت مع ذلك على الا تترك القسطنطينية تقع فى أيدى الأتراك ، وراقبت بعين يقظة احتفاظها باستقلالها • على أن الموقف ازداد خطورة عن ذى قبل منذ أن اعتلى بايزيد عرش السلاطين (١٣٨٩) (١٢) ، وأتــاح عمل من أوائــل الأعمال التى قام بهــا التنبؤ بمــا كان يدور بخلده من مشروعات : ذلك أن الامبراطور يوحنا قد أحاط موضع اقامته بتحصينات ، فأجبرته تهديدات السلطان أن يهدمها دون ابطاء (١٣) • ومات الامبراطور كمدا من جراء ذلك ، تاركا العرش لابنه مانويل (١٣٩١) : وللحال اقترب بايزيد من القسطنطينية وضيق عليها الحصار ، وقطع كل صلة لها بالخارج ، فصارت فى ضيق شديد (١٤) • وخاطب مانويل العديد من الدول الغربية طالبا معونتهــا (١٥) وحتى يقوى مساعيه ، وضع عام ١٣٩٤ خطة للطواف بنفسه فى أنحاء أوروبا • وقد أبانت له حــكومة البندقية الأخطار التى قد تنجم عن غيابه أمدا طويلا عن بلده ، وضرورة تواجد رئيس الدولة فى عاصمته حرصا على أمنها (١٦) • غير أن النصيحة

---

(١٠) Taf et Thom. ; des extraits (des documents d'archives) dans le Commem. reg., III, p. 166, no- 168 ; p. 171, no 187.

(١١) Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 135 ; trad. latine dans Taf. et Thom., inéd. (Regeste dans les Commem., III, 297, no 347).

(١٢) Livres de la Masseria de Péra pour les années 1390 et 1391 (Atti della Soc. lig., XIII, 151 et ss.)

(١٣) Ducas, p. 47 et s.

(١٤) Ibid. p. 49 et s.

(١٥) Ibid p. 50.

(١٦) Monum. Slav. merid., IV, 332 et s.

الجيدة لا تكفى ، اذ لا مناص من تعزيزها بعمل فعال ، وارسال الأسطول البندقى · وبدلا من ذلك لم تتصرف رئاسة البندقية الا بحرص شديد ، لأن عددا كبيرا من مواطنيها كان موجودا فى اقليم السلطان لأعمال تجارية : فمن شأن اعلان الحرب آن يعرضهم لأشد الأخطار على أرواحهم وأموالهم التى تقدر بمبالغ ضخمة (١٧) ·

حقيقة أن بايزيد ، قبل ذلك بزمن قليل أمن الرعايا البنادقة فى كل اقليمه ، سواء كانوا قادمين من البندقية أو من كريت أو نجربونت أو مودون أو كورون ، ووعد بأن يترك لهم فى الامبراطورية العثمانية كلها (١٨) المزايا التى كانوا يتمتعون بها فى عصر « سادة » بالاتيا والطولوجو « Seigneurs de Palatia et d'Altoluogo (١٩) اللذين أصبحا الآن من ممتلكاته ، الا أنه لا يجوز فى حالة نشوب حرب الاعتماد على مجاملات من ناحيته · وكانت أول فكرة طرأت على رئاسة البندقية هى اللجوء الى التدخل الدبلوماسى لدى بايزيد لصالح مانويل · الا أنه فى ذلك الحين ، كان ملك المجر ، ودوق برغنديا ، وسادة فرنسيون آخرون قد استجابوا لالحاح امبراطور الروم ، وراحوا يستعدون لشن حملة ضد الترك · وبناء على دعوته اضطرت البندقية أن توافق على تجهيز أسطول صغير ليقوم بهجوم بحرى مضلل تحت امرة توماسو موتشينجو Tommaso Mocenigo ، بينما يغزو الجيش المتحالف الاقليم التركى عن طريق وادى الدانوب (٢٠) · وفى الطريق ضم موتشينجو اليه سفنا من رودس ، ولسبوس (وكان الجنويون قد اشتركوا فى الحلف) ، وخلص أهل بيرا الذين كان الترك يضيقون عليهم الحصار ، وكانوا من ثمة على وشك الاستسلام (٢١) ، ووصل الى البحر الأسود فى الوقت المناسب

---

(١٧) Monum. Slav. merid., IV, 341, 343.
ـ هى الوقت الذى أعلن فيه مانويل اعتزامه الرحيل من أجل الحصول على الأموال اللازمة للدفاع ، عرض على رئاسة البندقية أن يبيعها جزيرة ليمنوس ، ولكنها رفضت ·

(١٨) معاهدة ابرمت عام ١٣٩٠ مع فرانشسكو كويرينى ، سفير البندقية · انظر :
— Taf. et Thom., inéd. Regest dans les Commem. III, p. 207, no 346 ; cf. no 341 et 342) ; cf. Manum. Slav. Mérid., IV, 280.

(١٩) الدبلوم المشار اليه يضفى على سيد الطولوجو لقب Zebebi وهو خضر بيك · وكان أمير منتشا هو سيد بالاتيا · Ducas (p. 18)

(٢٠) Monum. Slav. merid., IV, 338-343, 359-361, 363, 373-376, 378 ; cf. Hopf, art. Griechenland op. cit., LXXXVI, 61 ; Romanin, III, 331 et s.

(٢١) Ducas (p. 51) ; Taf. et Thom., inéd., Commem. regest., III, p. 241 et s., nos 40, 41 ; Atti della Soc. lig., XIII, 953 et ss. 965 et ss.

ليلتقط على متن سفينة ملك المجر الهارب(٢٢)٠وبينما كان من جانبه يؤدى عملياته ، شن الجيش البرى معركة نيقوبوليس Nicopolis المشهورة (٢٨ سبتمبر ١٣٩٦) وخسرها ، وكانت كارثة فادحة ٠ وكان عدد كبير من البارونات الفرنسيين من اسمى المراتب أقل حظا من الملك سجسموند Sigismond فوقعوا فى يدى بايزيد ، وأرسلوا أسرى من نيقوبوليس الى بروسة (بورصة الآن) Brousse ٠ وعندئذ سنحت الفرصة للاقرار بفائدة التنظيم الذى أعده الايطاليون للعلاقات بين الغرب والشرق ، وأرسل العديد من البلاد المتحالفة مندوبين عنها للاستفسار عن مصير البارونات المختفين ، ومر معظم هؤلاء بالبندقية ، ومعهم خطابات توصية يرجو فيها سادتهم من حكومة البندقية تسهيل مهمتهم ، وأن يبعثوا للأسر التى تهمها الأمر بكل المعلومات التى استطاعت الحكومة أن تحصل عليها (٢٣) ٠ وفيما يتعلق بجمع الأموال اللازمة لدفع فدية الأسرى ، أمكن تحقيق ذلك على أحسن وجه بفضل الآراء الممتازة التى أبداها شخص من أهالى لوكا Lucca) Lucques بالايطالية) يدعى دينو رابوندى Dino Rapondi (يسميه الكتاب الفرنسيون Digne Respondc)(٢٤) ، وهو تاجر جملة ، ومتعهد لوازم بلاطات فرنسا وبرغنديا ، له وكالات تجارية فى باريس ، وبروج ، ومونبيلييه ٠ يقول هذا الشخص ان أول شىء يتعين عمله هو الاتصال بتجار جنوا أو البندقية ، أو الجزر التابعة لهاتين الجمهوريتين ، لأن هؤلاء التجار اعتادوا الذهاب والاياب فى كل البلاد التى فتحها « الكفار » (يقصد المؤلف المسلمين) لممارسة أعمالهم التجارية (٢٥) ، وكان له فى خيوس مراسل ، هو التاجر الكبير بارتلوميو بيللجرينو Bartolommeo Pellegrino وكان يباشر أعمالا تجارية فى آسيا الصغرى ، ومعروفا بشخصه لدى السلطان بايزيد ، وكان المطلوب اثارة اهتمامه بانجاح المفاوضات ، وهذا ما تحقق بالفعل ٠ ومع ان اسمه لا يظهر فى الترتيبات التى اتخذت بنوع خاص لجمع فدية الأسرى (٢٦) ،

(٢٢) Sanuto, Vite, p. 763 ; Commem., III, p. 245, nos 56 et ss.

(٢٣) نجد مجموعة من هذه الخطابات فى :
Coll. des doc. inéd., mél. hist, III, 158 et ss.
– بعثت برئاسة الجمهورية الى فرنسا بالمعلومات التى استطاعت الحصول عليها ٠
انظر :
— Commem. reg., III, p. 247, no. 67 et s.

(٢٤) l'art. Rapondi, publ. par M. Vallet de Virville dans la Nouv. biog. génér., et Tisserand, Paris et ses historiens au XIV et au XV sièces, p. 336 eiss.; Mél. hist, cités ci-dessus, III, 553 et ss.

(٢٥) Froissart, Oeuvres, éd. Keroyn de Letténhove, XV, 356 ; XVI, 31.

(٢٦) Froissart, XVI 27 et ss. ; une charte datée de "Micalici in Turchia, 24 juin 1397" et communiquée par M. Kervyn dans ses annotations de l'éd. de Froissart, XVI, 261 et ss.

الا أن سجسموند ملك المجر خصص لهذا الغرض مبلغ مائة ألف دوكا قدمها له دينو رابوندى (٢٧) ، وكان الذين قدموا أكبر القروض بعده فرانتشسكو جاتيلوزيو Francesco Gattilusio ، صاحب لسبوس (ناب عنه انصالدو سبينولا Ansaldo Spinola (٢٨) ، ثم أخوه نيكولو Niccolo صاحب اينوس AEnos (ناب عنه نيكولو جريو Nicc. Grillo ، وأكمل المبلغ تاجر من بيرا يدعى جسبارو دى باجانى Gasparo de Pagani ، وبودستات فوليا نوفا Frglia Nuova (فوجة الجديدة) ، ونيكولو باتيريو Niccolo Paterio (٢٩) ، ودفع كل منهما نصف المطلوب وقد استرد الأغلبية العظمى من البارونات الفرنسيين حريتهم بفضل تدخل السلطات المالية الجنوية ، ولكن مات عدد منهم فى الأسر حين كانت المفاوضات جارية ، ودفن بعضهم فى كنائس بيرا (٣٠) ٠ وعند رجوع الأسرى الى أوطانهم ، اقترض كونتات نفير Nevers ولامارش Lamarche أيضا من جمهورية البندقية بوساطة دينو ريبوندى مبلغ خمسة عشر ألف دوكا (٣١) ٠ وبعد موقعة نيقوبوليس ، أنذر بايزيد الامبراطور بأن يسلمه مفاتيح القسطنطينية ، ولكن الامبراطور رفض الانذار (٣٢) ٠ وأصدرت رياسة البندقية الى أمير البحر موتشنيجو أمرا بأن يبذل كل ما فى وسعه لتأمين سلامة المدينة والمستعمرة البندقية (٣٣)٠ الا أن تهديدات السلطان لم تنفذ بالمرة ، واتجه موتشينجو الى البندقية ، وفى هذه الأثناء وجد الامبراطور نفسه مهددا من منافس له على العرش ، يسانده بايزيد ، ولم يكن هذا المنافس سوى يوحنا ، ابن أخيه ٠ وتوقع الامبراطور اللحظة التى يجبر فيها على الخروج من القسطنطينية ، وتحسبا لذلك عقد العزم على تسليم العاصمة الى جمهورية البندقية ، وعرض أن يمنحها أيضا جزر أمبروس ولمنوس ٠ ورفضت رئاسة البندقية هذه العروض ، وشجعت الامبراطور على الثبات ، وزودته فى الوقت نفسه بقاعدة للمقاومة بأن جهزت قوادس (سفنا حربية) لحماية المستعمرة

---

(٢٧) Commem. reg., III, p. 259 et s., no 116, p. 270, nos 161-166 ; Mél. hist., cit. III, 190 et ss.

(٢٨) Ducas, p. 53 et le Rabbi Joseph (Chronicles, éd. Bialloblotzky, I, 252) ; Froissant, XVI, 258 et s.

(٢٩) Froissart, XVI, 263 ; M. Hopf : art. Giustiniani, dans Ersch et Gruber, op. cit., LXVIII, 329.

(٣٠) Clavijo, p. 72 ; Ducas, Not, p. 559. et s. éd. Boun.

(٣١) Commem. reg., III, p. 247, no 70 ; p. 249 et s., nos 78-80.

(٣٢) فى عام ١٣٩٧ تلقى بودستات بيرا مرارا من حكومته الامر بأن يتعامل مع بايزيد :

— Atti della Soc. lig. XIII, 175.

(٣٣) Mon. slav. merid., III, 386 et s.

البنـدقية ، وحذت جنوا حذوها بالنسـبة الى مستعمراتها (٣٤) · ومن جهة أخرى وجه الامبراطور نداء جديدا الى الغرب ، وراحت شخصيات موثوق بها تطوف أوروبا نيابة عنه (٣٥) · وفى هذه المرة لم تفشل مهمة هؤلاء كل الفشل ، فقد أرسل شارل السادس ملك فرنسا فيلقا بقيادة المرشال دو بوسيكو de Boucicaut انضمت اليه فى الطريق تعزيزات جاءت من جنوا والبندقية ورودس ولسبوس · وطهـر بوسيكو النواحى المجاورة للقسطنطينية من العصابات التركية التى تغير عليها (١٣٩٩) · وعند عودته ترك للدفاع عن المدينة فرقة صغيرة تحت قيادة شاتوموران Châteaumorant · وكان من المتوقع ، من لحظة الى أخرى أن تتجدد غارات العدو ، وبخاصة لأن مانويل اعتزم التغيب عن البلد مدة طويلة : فقد سافر الى الغرب بأمل الحصول ، بنفوذه الشخصى على مساندة أطول امدا ، ومن ثم غادر القسطنطينية فى ١٠ من ديسمبر ١٣٩٩ ، ولم يعد اليها الا فى صيف عام ١٤٠٣ · وفى هذه الفترة الطويلة تركت كل من جنوا والبندقية هناك أربعة قوادس لحماية العاصمة وغلطة (٣٦) · ومع ذلك كان من المحتمل أن تسقط المدينتان فى غضون هذه الفترة فى أيدى الأتراك ، لولا وقوع حدث لم يكن فى الحسبان ، وذلك بظهور تيمور لنك · فقد أقبل الغازى العظيم من وسط آسيا على رأس عشائره ، وهاجم بايزيد ، وهزمه هزيمة نكراء ، وأسره (١٤٠٢) · ولم يكن هذا الغزو فجائيا أو طارئا ، فقد استثارته القوى المسيحية فى أوروبا · ذلك أن يوحنا ، ابن أخ مانويل ، والذى كان قائمـا بالوصـاية على العـرش فى القسطنطينية فى غياب الامبراطور ، والبودستات الجنوى فى غلطة اتصلا بتيمور لنك عن طريق امبرطور طربزون ، وشرحا له ما كانا فيه من ضيق وشـدة ، وأهابا به أن يشن الحرب على بايزيد ، وأبديا اسـتعدادهم لمعاونته ، وأن له من ثم الجزية التى كانت المدينتان تدفعانها من قبل لبايزيد (٣٧) · وأوفد اليه شارل السادس رسالة تلو رسالة ، ولم يكف

(٣٤) Mon. Slav. merid., III, 398 et ss., 402 et s.
— وفى غضون هذه السنوات أجرت البندقية مرارا ، هى وجنوة مفاوضات مع بايزيد ، وترددت فى ذلك بين السلم والحرب · انظر :
Hopf, art. Griechenland, op. cit., DXXXVI, 64, 65.

(٣٥) من بين هؤلاء جنوى اسمه ايلاريو دوريا Ilario Doria انظر :
Doc. sulle relaz. tosc, p. 146 : Rymer, Foedera, VIII. 65, 82 et s., 174 ; Raynald, a.a. 1399, no 3.

(٣٦) Le livre des faicts du mareschal de Boucicaut, p. 247-253; Stella, dans Murat., XVII, 1154, 1157, 1167, 1176.

(٣٧) انظر الخطاب الذى ارسله تيمورلنك الى الوصى على عرش القسطنطينية فى ١٥ من مايو ١٤٠٢ ، فى :
— Sanuto, p. 797 et s. ; M. Fallmerayer, Gesch. Trapez unts p. 224-228, et la relation de Clavijo, p. 98.

المبشرون الدومينيكان الذين أدوا فى تلك المناسبة دور وكلاء ملك فرنسا عن الاشادة بقوته وبالحروب التى خاضها ضد الترك (معركة نيقوبوليس ، وايفاد بوسيكو الى القسطنطينية) (٣٨) • ولا ننسى أن شارل السادس استقبل فى هذه الآونة الامبراطور مانويل فى بلاطه بحفاوة عظيمة ، واستضافه من صيف عام ١٤٠٠ حتى خريف عام ١٤٠٢ ، وفضلا عن ذلك كانت عنده كل البواعث للاهتمام بشئون الامبراطورية البيزنطية ، لأنه أصبح ، باذعان جنوا اذعانا طوعيا فى عام ١٣٩٦ سيدا لهذه المدينة ، وبالتالى للمستعمرات الجنوية ، كذلك كان الرهبان الذين حملوا الى تيمور لنك استغاثة ســـكان القسطنطينية وبيرا عملاءه (٣٩) • لذلك يستحيل علينا أن نؤيد رأى سيلفستر دى ساسى Silvestre de Sacy فهذا الكاتب العالم لا يرى فى رسائل شـــارل السادس الى تيمور لنك الا مجرد خطابات يوصى فيها الملك (شارل السادس) العـــاهل المغولى القوى بالمبشرين المكلفين بتسليمه الخطابات • حقا ، قد تكون التوصية ذات فائدة لهم ، ولكن ينبغى لنا أن نقر بأن الأمر كان يتعلق بالحرب المطلوب شنها على بايزيد : يؤيد ذلك بوضوح الترجمة اللاتينية لاجابات تيمور لنك (٤٠) • أما تيمور لنك ، فانه كلمـــا تأهب لشن حرب ضد أمير قوى وقائد محنك مثل بايزيد ، كان يبدأ بعقد محالفات مع العالم المسيحى • ففى الوقت الذى أوفد فيه الى بيرا بعثة تحمل هدايا (٤١) ، عهد الى أحد المبشرين الدومينيكان ، وهو يوحنا رئيس أساقفة « سلطانية » برسائل الى جنوا والبندقية (٤٢) • ويبـــدو أنه كان يبغى أن يوفق بين عمله وعمل الايطاليين والروم ، فيحارب هؤلاء على متن البحار ، فى حين يقاتل هو برا ، ولعل هذا يفسر تفسيرا كافيا السبب الذى من أجله طلب الى طربزون أن تضع عشرين قادوسا تحت تصرفه ، فى حين طلب من القسطنطينية وبيرا قوة عســـكرية مماثلة (٤٣) • وفضلا عن ذلك ففى وسع السفن الحربية لهذه الأمم أن تسدى له خدمة كبيرة بأن تمنع الفرق التركية من المرور من أوروبا الى آسيا : ويبدو أن الروم وأهالى بيرا قد

(٣٨) Silo. de Sacy, Mém. sur une correspondance inédite de Tamerlan avec Charles VI, dans les Mém. de l'Acad. des Inscr., VI, 1822, p. 470, et ss.

(٣٩) Voy. dans les Documents, publ. par Silv. de Sacy, p. 474, 478, 479.

(٤٠) الحقيقة أن هذه الترجمة تختلف كثيرا عن النص الأصلى ، ولكن س • دو ساسى يقر بصحة التواريخ التى تنسبها الى الوقائع التاريخية •

(٤١) Stella, p. 1194 ; Canuto, p. 798.

(٤٢) Silv. de Sacy, l.c., p. 479, 515.

(٤٣) Sanuto, l.c. ; cf. Ahmed Arabsiadès, Vita Timuri, éd. Manger(II, 261.

وعدوه بذلك (٤٤) ، بل رفع أهالى بيرا علمه فى المدينة (٤٥) ، ولكنهم اكتفوا بذلك ولم يفعلوا شيئا لمؤازرته أو لاعاقة تحركات الأتراك ، حتى أنهم بعد هزيمة بايزيد فى أنقرة Ancyre (فى ٢٨ من يولية ١٤٠٢) لم يساعدوه فى القضاء على فلول الأتراك الهاربين والمحصورين فى البسفور ، بل شوهدت سفن جنوية تأخذهم وتنقلهم من الساحل الآسيوى الى الساحل الأوروبى . أما السفن البندقيـــة فانها ، على العكس من ذلك لم تهيىء ملاذا الا للروم المسيحيين الذين اضطروا للفرار (٤٦) . وأنذر تيمور لنك المظفر يوحنا الوصى على عرش القسطنطينية بالخضوع ودفع الجزية (٤٧)، وكان الانذار موجها أيضا لأهالى بيرا ، وهذا لا شك فيه لأنهم كانوا قبل الحرب قد وعدوه بدفع الجزية ولم يكن تيمور لنك فى حاجة الى الحاح ، فقد قام للحال وفد من القسطنطينية ، فوجد الخان على استعداد للموافقة على طلبـــاته ، وعاد الوفد من هذا اللقـــاء بوعد من الخان بتقديم تعزيز قوامه ٢٠٠٠٠ جندى مغولى لمواصلة الحرب ضد الأتراك (٤٨) . وفى هذه الأثناء واصل تيمور لنك زحفه المظفر الى الساحل الغربى لآسيا الصغرى ، فاستولى على أزمير من فرسان رودس (ديسمبر ١٤٠٢) وأجبر مدينتى فوكاية على الاستسلام ودفع الجزية ، وتلقى ولاء أعيان خيوس (٤٩) . واختفى فجأة بنفس السرعة التى ظهر بها ، ولم تطأ قدمه أوروبا ، وانمحت بالكلية آثار مروره بآسيا الصغرى .

وما أن رحل تيمور لنك حتى نهض الترك سريعا من آثار النكبة التى حاقت بهم ، رغم الخلافات الداخلية التى مزقت امبراطوريتهم : فقد تنازع أبناء بايزيد بضراوة فى سبيل العرش ، وسعى الابن الأكبر ، سليمان (ويسميه الروم والغربيون Musulman) للحصول على مساندة الروم واللاتينيين له ، ولم ينتظر عودة مانويل الذى كان يعتزم تولى مقاليد الحكم

---

(٤٤) Clavijo, p. 98.

(٤٥) Stella, l.e. ; Fogl., p. 524; Giustin., fol. 167.

(٤٦) Sanuto, p. 795 et s. ; Clavijo, p. 99 ; Giustiniani, p. 168. La Chronique de Trévise, dans Murat., SS., XIX, 801.

ـ تحكى هذه الوقائع أن عددا كبيرا من سكان آسيا الصغرى رحلوا الى اليونان ، هربا من غزو تيمورلنك ، وذلك على متن سفن يونانية وجنوية وبندقية وقطالونية ، وحصل منهم قباطنة هذه السفن على مبالغ طائلة نظير هذه الخدمة .

(٤٧) Charefeddin-Ali, hist. de Timour-bec, trad. Pétis de la Crois, IV, 37-39 ; Péice, Mahommedan history, III, 404 et s.

(٤٨) Sanut. p. 800.

(٤٩) Cherefedin, IV 56-59 price l.c. 417 et s. ; Duc p. 75 et s.

بعد غياب تجاوز ثلاث سنوات ، بل اتصل بيوحنا الوصى على العرش ، وبجمهورية البندقية (٥٠) • وكلفت الجمهورية بييترو زينو ، صاحب اندروس Andros أن يتفاوض معه باسمها • وفى عام ١٤٠٣ نجح الدبلوماسى القدير بجهود مكثفة أن يحمل كل الأطراف على قبول عقد معاهدة تسوى بكيفية ارتاحت لها كل قوى المنطقة الرومانية علاقاتها بالامبراطورية التركية (٥١) : فقد شكلت عصبة higa تضم الوصى يوحنا ، والبندقية عن جزرها ، وجنوا عن جزيرة خيوس ، وهيئة فرسان القديس يوحنا عن جزيرة رودس ، وتظهر أسماء هذه القوى فى المعاهدة بصفة جماعية • ويعطى السلطان فى المعاهدة أولا ضمانات تسرى على أعضاء العصبة كلهم ، ويفتح كل موانىء الامبراطورية التركية لتجارها ، ولا تزيد الضرائب ، أما الرسم الدائم على تصدير القمح فيبقى ثابتا يسعر هيبربر للصاع • وفضلا عن ذلك يوافق السلطان على أنه لا يجوز للسفن التركية أن تدخل الدردنيل (٥٢) أو تخرج منه دون تصريح من الامبراطور الرومى ، ومن أعضاء العصبة كلهم • يلى ذلك اشتراطات خاصة بكل من القوى المتحالفة : فالسلطان يرد لامبراطور الروم سالونيك ومجاوراتها ، التى وضع افرينوس بك Evrenosbeg حديثا يده عليها ، ويتناول له شمالى بحر مرمرة عن اقليم أوسع من الاقليم الذى تركه له بايزيد ، ويلغى الجزية التى كان يدفعها لأبيه (٥٣) ، ويصرح للجنويين أنه لن يفرض عليهم أية جزية عن ممتلكاتهم فى البحر الأسود ، ويعفى جزيرة خيوس من الجزية التى كانت تدفعها حتى ذلك الحين الى صاحب الطولوجو

---

(٥٠) Hopf, art. Griechenland, op. cit., LXXXVI, 65.

(٥١) Coll. des doc. inéd., mél hist., III, 178 et ss. ; M. Hammer, Geschichte des osmanischen Reichs, II 607 et ss.

— لتحديد تاريخ المعاهدة ، يمكن البحث بين تاريخ وفاة بايزيد (٩ مارس ١٤٠٣) ووفاة تيمورلنك (أول أبريل ١٤٠٥) • ويسلم الناشر الجديد (للمعاهدة ، بالحد التاريخى الأول ، بحجة أن سليمان لم يكن فى وسعه أن يتخذ لنفسه لقب سلطان آل عثمان قبل وفاة أبيه ، وبالحد الثانى لأنه فى الوقت الذى أبرمت فيه المعاهدة ، كان المعتقد أنه فى الامكان نشوب حرب جديدة مع تيمور لنك • الا أن تيمور لنك عاد منذ عام ١٤٠٣ الى أعماق آسيا ، ولم يعد أحد ، فى عامى ١٤٠٤ ، ١٤٠٩ يفكر فى عودته الى سواحل آسيا الصغرى • ومن جهة أخرى ، فان يوحنا باليولوجوس الذى تصفه المعاهدة بأنه ملك الروم لم يشغل منصب الوصى على العرش الا الى حين عودة مانويل ، وابتداء من صيف عام ١٤٠٣ لم يعد فى الامكان أن يظهر اسمه فى المعاهدات ، بجانب اسم عمه مانويل ، الا بصفته وصيا مشاركا • وعلى ذلك فانى أجعل هذه المعاهدة فى عام ١٤٠٣ ، وليس فى نهايتها ، وانما فى ربيعها •

(٥٢) "Passa insir de la boche ni de sora ni de sofo".

(٥٣) Duc. p. 73.

(أفسيس) وقدرها خمسمائة دوكا (٥٤) ، ويستنزل خمسمائة دوكا من الجزية التى كانت تدفعها عن فوجة الجديدةFoglia Nuova، ويعد البندقية بأن يرد لها كل الأقاليم التى فقدتها خلال الحروب السابقة ، وأن تضع الجمهورية يدها على مدينة أثينا ، واقليم يبلغ طوله خمسة أميال (الميل مقياس طول رومانى يبلغ ألف خطوة – المترجم) الى داخل الأراضى ، على ساحل اليونان فى مواجهة جزيرة أيوبيا Eubée (٥٥) • وفيما يختص بالشخصيات التى تتمتع بحماية البندقية ، يتعهد السلطان بألا يطلب من جاكوبو الأول Jacopo 1er مركيز بودونزا Bodonitza بجزية تزيد عما كان يدفعه حتى ذلك الحين ، وأن يعفى دوق ناكسوس Naxos من الجزية التى يدفعها لسادة الطولوجو وبالايتا (من أسرتى آيدين Aïdin ، ومنتشا Mentèche

تكشف لنا هذه المعاهدة عن أمور كثيرة : فهى تدلنا ، فى مستهل القرن الخامس عشر على عدد كبير من المستعمرات الغربية فى الشرق الأدنى الخاضعة لسلاطين آل عثمان ، وأمراء آسيا الصغرى من التركمان • ومن المزايا الأساسية لهذه المعاهدة تخفيف هذا الخضوع تخفيفا جزئيا • وفيما يختص بالتوسع الاقليمى الذى صرح به للبنادقة فى بلاد الروم ، فان هذا الموضوع يحتاج الى بضع كلمات لتفسيره • فان الرغبة فى كسب أقاليم فيما بعد أوروبا لم تكن عند البنادقة سوى نتيجة للأهمية الكبرى التى أولاها الوطن الأم لتملك جزيرة أيوبيا • ولما كانت قيمة هذه الجزيرة معروفة من قبل ، فان هذه القيمة ازدادت وتضاعفت منذ أن حاصر الترك عاصمة امبراطورية الروم ، فصارت واقعة لا محالة فى أيديهم • وامحى بالتدريج أهمية المستعمرة البندقيــة فى القسطنطينية بعد أن كانت فى يوم من الأيام أول مستعمرة لأمتها فى بلاد الروم ، ونقطة ارتكازها هناك ، وانتقلت أهميتها الى نجربونت (حاليــا أيوبية) • وزادت أهمية هذه المستعمرة منذ زوال الأسرتين : دالى كارتشيرى dalle Carceri ، وجيزى Ghisi (٥٦) ، وارتفع فى الوقت نفسه سلطا البايلات • ففى عام ١٣٨٣

---

(٥٤) Voy. Ducas, p. 162 et s.

(٥٥) Sathas, Doc. inéd., II, 121.

Sathas, Doc inéd., à l'hist. de la Grèce, II, 10, 52 et ss., 76, 79 ; III, 306 et ss., 322, 344 et ss.

(٥٦) اعتبارا من عام ١٤٠٠ ، تقرر ان تقوم كل سنة فى شهر سبتمبر سفينة تبحر من البندقية الى نجربونت ، ذهابا وايابا ، وتتوقف فى طريقها عند كورفو ، ومودون ، وكورن لتفرغ بها بضائع ، وتشحن بضائع أخرى ، ولكن يحتمل الا يكون هذا الاجراء قد استمر زمنا طويلا • انظر : Sathas, l.c., III, 9 et s., 32 et s.

وفى العادة لم تكن نجربونت رأس خط المواصلات البحرية ، فكانت الســفن اليونانية تتوقف عندها قليلا ثم تواصل طريقها الى القسطنطينية •

توفى نيكولو الثانى والى كارتشيرى مالك ثلثى الجزيرة ، توفى مقتولا ، ولم يترك أبنـاء شرعيين ، واستولت الجمهورية كمـا كانت تريد على « البارونيتين » اللتين تشكلان ارثه واحتفظت لنفسها بملكية القلاع وأوجبت بصفتها صاحبة السيادة الاقطاعية على أتباعها أن يقدموا لها مباشرة ولاءهم . وفى عـام ١٣٩٠ توفى آخر أفراد أسرة جيزى ، مالكـة ثلث الجزيرة ، توفى وهو فى سن الطفولة . وتمسكت الجمهورية بوصية مزعومة لكى تثبت حقوقها فى الارث ، فألغت البارونية ووضعت الاقليم تحت الادارة المبـاشرة لبايل بجربونت . ومنذ تلك اللحظـــة أصبحت الجمهورية صاحبة السيادة الوحيدة على الجزيرة . وان تتابع الاجراءات التى اتخذتهـا للدفاع عن الاقليم وحمايته ، واهتمامهـا الدائم بتحسين الزراعة ، وتقدم التجارة (٥٧) ، وزيادة السكان (٥٨) ، مما تكشف عنه المراسيم التى كانت تصدرها لتثبت لنا أنها لم تهمل واجباتها بصفتها صاحبة السيادة (٥٩) . ولما كانت الجزيرة تكاد تلامس القارة كان لابد للجمهورية أن تهتم بمن يكون فى حيازته الاقليم المجاور للجزيرة ، ولم يكن فى مقدورها أن تتصدى بقوة السلاح لغزو الترك تساليا (١٣٩٦) ولوكريس ، ولكنهـــا مع ذلك احتفظت فى تســـاليا بمدينة فتيليون Phtélion التى كان يحكمها حكام recteurs تابعـون لهـــا (٦٠) . واستمرت أسرة جورجيو Giorgio البندقيـــة حائزة لماركيزية بودونتزا Bodonitza (جنوبى ثيرموبوليس Thermopyles) التى اكتسبتهـا بالزواج فى عام ١٣٣٨ . وكان ميناء بودونتزا أحد منافذ تسويق قمح تساليا (٦١) ، ولم تكن الاقطاعية الصغيرة التى تحمل هذا الاسم تدين بوجودها الطويل الأمد الا للحماية المستمرة التى كانت تحظى بها من ناحية البندقية ، فى المعاهدات التى أبرمتها (أعوام ١٤٠٣ ، ١٤٠٨ ، ١٤٠٩) حتى اليوم الذى استولى عليها فيه الترك عنوة فى عام ١٤١٠ ، ومع ذلك سمح الترك بترميمها بصفة مؤقتة ، ثم دمروها تدميرا تاما فى عام ١٤١٤ (٦٢) . وفى هذه الأثناء بذلت الجمهورية جهودها لتكسب

---

(٥٨) كانت الفراغات التى تحدث كل سنة فى تعداد سكان الجزيرة بسبب غارات الترك المتواترة تعود فتملأ بوصول مهاجرين من الجنسية الألبانية . انظر :
Sathas, l.c., II, 79, III, 287 et s.

(٥٩) Hcpf. art. Griechenland, op. cit., LXXXVI, 30 et ss., 136 et ss. ; p. ex. Cathas, op. cit., III, 95.

(٦٠) Hopf. l.c., p. 17, 28, 63 ; Sathas, l.c., 32 ; II, 55, 131, 264 ; 95, 129, 152, 223, 345, 430 et s., 451 et s., 463.

(٦١) Brochart, Advis directif. Coll. des Chron. belg., Namur, IV, 307.
- نجد ثمة بناء ميناء مشار اليه باسم روندونيسيا Rondonicia
وأقول ان هذا الاسم هو نفسه Bodintza

(٦٢) Hopf., art. Griechenland, op. cit., p. 71, 74, 75 ;

أرضا فيما وره الأوريبا Euripus ، وبفضل تضافر بعض الظروف الخاصة ، وجدت نفسها وقد أصبحت سيدة على أثينا • ففى الفترة التى نتحدث عنها لم تعد دوقية أثينا فى أيدى « الشركة القطالونية » ، فثمة فرع من بيت اكشيانولى Acciandi ، وهى أسرة فلورنسية من أصحاب البنوك حصلت على أملاك اقطاعية شاسعة فى المورة Morée ، وأقامت بها بصفة دائمة ، وكان مقرها كورنثة Corinthc ، ومن هناك ألقت شباكها على أثينا وطيبة • وفى عام ١٣٨٥ أوفد نيريو كشيانولى Nerio Accianoli حاكم كورنثة ، كما كان قبله نيكولو ، أبوه بالتبنى ، ما وراء المضيق جيشا من الجند المرتزقة ، كلفه بانتزاع دوقية أثينا من أيدى القطالونيين • وتقهقر القطالونيون شيئا فشيئا حتى صاروا محصورين فى آخر معقل لهم فى أكروبول أثينا ، واستسلموا فى عام ١٣٨٧ • وعند وفاة نيريو فى عام ١٣٩٤ أوصى ببيوتى ، ومقرها طيبة لأنطونيو Antonio ابنه الطبيعى • أما مدينة أثينا فانه وهبها لكنيسة مادونا بارثينون Madone du Parthénon ، وذلك بنص غريب فى وصيته ، وفى الوقت نفسه وضع هذه الكنيسة فى حماية البندقية • وعلى هذا النحو وجدت جمهورية البندقية نفسها حائزة لمدينة أثينا ، وتولى حكم المدينة على التوالى أربعة بودستات بنادقة من عام ١٣٩٥ الى عام ١٤٠٢ • هذا التدبير لم يرض أنطونيو ، ومن أول يوم أعلن عزمه على استرداد أثينا ، وانتهى به الأمر الى الاستيلاء عليها عنوة ، ولكنه لم يبسط سيادته الا على المدينة وحدها ، أما الأكروبول فقد قاومت سبعة عشر شهرا • وجهز بايل نجربونت جيشا لنجدتها ، وتولى بنفسه قيادة الجيش ، ولكنه انهزم ووقع فى الأسر • ولم يكن للحامية من بديل سوى الاستسلام ، وهذا ما فعلته (٦٣) • وتأثرت جمهورية البندقية لفقدها هذا الموقع ، واستغلت المفاوضات التى أجرتها فى عام ١٤٠٣ مع السلطان فحملته على أن يؤيد حقوقها على أثينا • وكان أنطونيو اكشيانولى تابعا للسلطان • وبذل الحاكم كل ما فى وسعه لتحقيق رغبة الجمهورية ، ولكن تابع

– تذكر من بين الوثائق التى استخدمها السيد هوف بنوع خاص ، تلك التى نشرت فى :

Les Mon-Slav. merid., IX, 90 et dans Sathas, l.c., II, p. 210, 270 et s.

(٦٣) يحتوى كتاب السيد ساثاس (M. Satlhas, II, 3, 6, 7, 45, 75) على خمس وثائق خاصة باحتلال البنادقة اثينا • ففى وثيقة ٢٢ اغسطس ١٤٠٢ نرى ان العدو يحتل المدينة ، والقلعة وحدها هى التى تواصل المقاومة • وتعبأ فرق عسكرية جديدة للتصدى للقائمين بالحصار • (ibid. II, 91 et s)

وفى ٧ من اكتوبر يعلم الناس فى البندقية ان الحملة الجديدة قد اخفقت ، وان بايل نجروبونت وقع فى الأسر ، ويعين محله توماس موتشيجو ، ويمنح سلطات مطلقة للتفاوض مع اكشيانولى (٣٠ اكتوبر) : II, 101; 1, 4 et s.

السلطان قاومه ، واضطرت البندقية في النهاية أن تترك له المدينة بشرط أن يعترف للجمهورية بسيادتها على المدينة (٦٤) • وابتداء من عـــام ١٤٠٧ عاش أنطونيو على أساس من حسن الجوار مع البندقية ونجربونت • وفي معاهدة ١٤٠٣ ، نرى السلطان يتنازل للبندقية ، بالاضافة الى أثينا عن اقليم على الســاحل في مواجهة جزيرة أيوبيــة ، دون تحديد دقيق للاقليم • ولأول وهلة ، قد يبدو لنا أنه اقليم غير محدد المعالم ، يمكن اختياره فيما بعد • الا أنه يتبين من بعض الوثائق الرسمية التى نشرها حديثا الســيد ساتاس M. Sathas (٦٥) أن هذا الاقليم هو ليقونيا Lycaonie • وهنا ، كما فى حالة أثينــا لم تحقق الجمهورية بغيتها بالكامل ، لأن أنطونيو لم يقبل أن يتنازل الا عن المدن المفتوحة ، واحتفظ لنفسه بالمواقع الحصينة (٦٦) • وحتى في هذه الظروف ، وبالنظر الى أن ليقونيا اقليم خصب غني بالحبوب ، فان هذا التنازل لم يكن أمرا يستهان به (٦٧) •

وفي هذه الآونة كانت جمهورية البندقية تريد التوسع فى ممتلكاتها الاقليمية فى اليونان ، وكانت تعتمد على نفسها أكثر مما تعتمد على السادة الصغار ، من روم وفرنجة للدفاع عن هذه البقاع ضد السلاطين الذين كانوا يخشون مواجهتها مباشرة • وعلى ذلك ابتهجت الجمهورية حين رأت بيترو كورنارو Pietro Cornaro يغدو سيدا على أرجوس Argos ونوبليا Nauplie والأقاليم التابعة لهاتين المدينتين ، وذلك اثر زواجه من ابنة جي دانجيان Guy d'Enghien ووريثته ، وهو آخر بارونات ارجوليس من الفرنجة (١٣٧٧) • وعنــد وفاة بيترو كورنارو بعد ذلك باحدى عشرة سنة ، دون أن يترك أبناء ، استردت الجمهورية أملاكه بالشراء من أرملته ، وحصلت بذلك على ميناء جيد على الساحل الشرقى للبلوبونيز (٦٨) ، هو ميناء نوبليا ، فوضعت يدها عليه فى الحال • أما عن أرجوس ، فقد سبق اليها تيودور الأول Théodore 1er طاغيــة ميزيثرا ، فاضطرت الجمهورية الى محاربة هذا الأمير الشرس عدة سنوات قبل أن تستطيع ضم البارونية الى أملاكها (١٣٩٤) (٦٩) • ودعا سكان

(٦٤) هذا هو موضوع معاهدة ٣١ مارس ١٤٠٥ :
Commem. reg III, p. 309, no 2 ;
— Sathas, II, 135.

(٦٥) Doc., II, 6 et s., 230 et s., 418, 420, 455, 457.

(٦٦) Ibid, II, 183.

(٦٧) Hopf, op. cit., p. 25 et s., 58-69, 70-72, 90.

(٦٨) Ibid, p. 25 ; Commem. reg., III, p. 195 nos 301, 303.

(٦٩) Hopf, op. cit., p. 49-56 ; Commem. reg., III, p. 206, no 343 ; p. 207, no 345; p. 209, no 352 ; p. 223, no 408.

البلد بالولاء للجمهورية ، ولم يندموا على ذلك البتة ، فقد تتمتع بلدهم ، تحت سيادة الجمهورية بعهد جديد من الرخاء (٧٠) وانتقلت العدوى الى البلاد المجاورة ، وأسهم السكان الروم فى مونمبازيا Monembasia (٧١) فى سقوط هذا الموقع الحصين فى أيديها (١٤١٩) ، ولكن هذا الفتح كان مؤقتا ، سريع الزوال ٠

ولم يكن سلوك الجمهورية موجها فقط برغبتها فى بسط سيادتها أو زيادة ثروتها ، اذ كانت المصالح التجارية داخلة دوما فى اعتبارها ٠ من ذلك مثلا أن العنصر اليونانى الذى يتمثل فى طغيان ميزيثرا (اسبرطة) كان سائدا حتى ذلك الحين ، فلم اذن أصرت البندقية على أن تحصل بها ـ كما رأينا ـ على ميناءى مونمبازيا ونوبليا ؟ وذلك لأن سلع التصدير فى هذه المنطقة كانت كثيرة ، نجد فيها الأنبذة الفاخرة فى مونمبازيا (مالفوازييه Malvoisie (٧٢) ، وحرائر ميزيثرا ، وكانت صناعة الحرير مزدهرة بها (٧٣) ، والملح والزبيب فى أرجوليس (٧٤) ٠ وطالما كانت الجمهورية سيدة أثينا ، كانت أبواب أتيكا مفتوحة لتجارها الذين يأتون اليها طلبا للتين والزبيب (٧٥) ، ولحرائر طيبة ، على فرض أنها لم تزل تصنع فى هذه المدينة ، تحت سيادة أسرة اكشيانولى ٠ ولم يكن من الجائز شحن كل منتجات الممتلكات البندقية ، سواء منها الحرير أو الشمع ، الخ المرسلة من اليونان الى الوطن الأم الا فى سفن بندقية (٧٦) ٠ ولا شك أن التجار البنادقة كانوا يستوردون أيضا بعض السلع من اليونان ، ولكن معلوماتنا قليلة فى هذا الخصوص ، ويبدو أن الجوخ كان المادة الرئيمسية لهذه التجارة (٧٧) ٠

وبخلاف ما حصلت عليه الجمهورية من ممتلكات اقلنيمية ، مما سبق ذكره ، حصلت أيضا على ممتلكات أخرى ، أقل منها أهمية فى الواقع ، وهى فى جزر الأرخبيل ٠ ولما توفى جورجيو جيزى الثالث ، كانت الجمهورية قد استولت على ميراثه : ثلث جزيرة أيوبية ،وجزيرتى تينوس Tinos وميكونوس Mykonos ، وكانت هذه الجزر تنتج عسلا وشمعا وحريرا ، الا أن ايرادات الخزانة بها كانت تتناقص عاما بعد عام فتصير

---

(٧٠) Hopf op. cit., p. 74.

(٧١) Ibid. p. 79, 86.

(٧٢) Hopf, op. cit., p. 78.

(٧٣) Ibid, p. 86,1 113, 116.

(٧٤) Ibid. p. 25, 57 ; Sathas, Doc. II, 124.

(٧٥) Ibid. p. 50, 52, 55.

(٧٦) Sathas, III, 438.

(٧٧) Ibid. III, 380 et s., 423, 460.

غير كافية لتغطية النفقات ، فقد كانت تكاليف اقامة ادارة خاصة بهـا يرأسها عمداء recteurs ، وسـفينة حربية صغيرة تتـولى حمـاية هذه الجزر من غازات الترك المتواترة تشكل أعباء تفوق الأرباح (٧٨) • وكان سادة جزر الكيكلاديس الأخرى ، وغالبيتهم من أصل بندقي مقتنعين بأنه لا أمان لهم ان لم يتحدوا مع البندقية ، ولم يكن هناك ما يمكن أن يحول اتجاه هذا التيار الفكرى • وفى عام ١٣٨٢ استولى المغتصب فرانشسكو كريسبو Francesco Crispo على دوقية ناكسوس Naxos ، وانتقلت جزيرة أندروس من يدى بييترو زينـو الى يدى سـومارييا Sammaripa (من فيرونا) (٧٩) • ولم تغير هذه الأحداث من الرأى العام • وفى كل فى ناكسوس واندروس ، ارتاح الأهالى حين قررت الجمهورية ، إعتبارا بوضع الجزيرتين المعرضتين لغارات العدو ، أن تسمح لسفينة حربية أن ترسو كالعادة عند كل منهما لحمايتها ضد الترك • ولكن الشىء الذى أسهم اسـهاما فعالا فى طمأنينة أمراء هاتين الجزيرتين هو أنهم ذكروا بالاسم فى المعاهدات التى أبرمتها الجمهورية مع السلاطين ، وهذا ما اعتادت أن تفعله • وفى حين راحت الجمهورية تزيد ممتلكاتها فى اليونان ، أحيانا باتباع سياسة بارعة ونشيطة ، وأحيانا ببذل المال ، وأحيانا بقوة السلاح ، أخذ دور جنوا يتناقص بالتدريج فى الشرق الأدنى ، حتى تلاشى تماما : وكان هذا نتيجة لسلسلة من الثورات الداخلية ، آخر حدث فيها خضوع الجمهورية لملك فرنسا (١٣٩٦) ، ولم تعد بطبيعة الحال تهتم بالتوسعات الاقليمية • وفى فترة غزوات بايزيد وتيمور لنك ، استطاعت مستعمرات بيرا ، ولسبوس ، وخيوس ، ومدينة فوجة أن تخرج من الكارثة سالمة على الأقل • ورأينا أن معاهدة عام ١٤٠٣ أتاحت لها بعض التخفيف فى الجزية التى وافقت على دفعها لجيرانها الأقوياء • وفى هذه الأثناء كان كل ما فعله الوطن الأم لصالح مستعمراته ، على قدر علمنا ، أن أرسل بضع سفن حربية لحماية القسطنطينية وبيرا ، وأصدر فى عام ١٣٩٨ مرسوما صغيرا بناء على طلب بورجوازى بيرا (٨٠) • وفى الآونة التى صارت فيها الكارثة وشيكة لم تنج هذه المستعمرة بفضل أسطول جنوى ، وانما نجت بفضل أسطول بندقى • وفى عام ١٤٠١ عين المارشـال دو بوسيكو حاكما على جنوا من قبل ملك فرنسا ، وكان قد حارب الترك من قبل ، أولا فى نيقوبوليس ، ثم فى القسطنطينية حيث قاد جيشا مساعدا ، ووجد فى جنوا أسطولا ممتازا ، وعلى أهبة الاستعداد ، وكانت تلك فرصة

---

(٧٨) Ibid. I, 14 et s., 32 et s. ; II, 55, 75, 145 et s., 147 et s., 163 et s., 168 et s. 192, 225 ; III, 4 et s., 144, 181 et s., 238, 261, 305, 362-365, 411-413, 414 et s., 432, 439 et s., 448 et s.

(٧٩) Sathas, I. 199-208.

(٨٠) Atti della Soc. lig., XIII et ss.

مناسبة ليواصل تنفيذ مشروعاته الصليبية ، ذلك لأنه ـ كما نعلم ـ لم يتخل عنها أبدا • وبدأ بأن عين الفارس (الشوفالييه) شاتوران الذى كان موضع ثقته قائدا عاما للمستعمرات الجنوية فى بلاد الروم والبحر الأسود (٨١) • وفى عام ١٤٠٣ ، عند مرور الامبراطور مانويل عائدا من باريس الى القسطنطينية ، زوده ببضع سفن حربية لحراسته ، وللدفاع فى الوقت نفسه عن المستعمرات (٨٢) • أما هو فقد أبحر بعد قليل على رأس أسطول كبير زوده كل من جاتيلوزى Gattilusi لسبوس ، واينوس ، و « ماهون » خيوس بتعزيز من سفينتين حربيتين (٨٣) • وكان الهدف الأول للحملة هو جزيرة قبرص • ولكنها تحولت من فورها لتوجه ضرباتها الى المسلمين فى آسيا الصغرى ، ومصر ، وسوريا ، والى البنادقة حين تسنح الفرصة ، واستولت من هؤلاء الأخيرين على عدة سفن ، ونهبت فى بيروت مخازن مملوءة بسلع ثمينة يملكها البنادقة • وفى البندقية أخذ القوم حذرهم من هذه الحملة منذ اللحظة الأولى ، ودعموا حاميات مودون وكورون (٨٤) • وعندما عاد بوسيكو من سوريا ، مر على مرأى من سواحل المورة ، فوجد أمامه بازاء جزيرة سابينزا Sapienza أمير البحر البندقى كارلو زينو الذى ألقى عليه درسا قاسيا (أكتوبر ١٤٠٣) (٨٥) وفى أعقاب هذه الهزيمة ، اشتد النزاع ، وقاسى من أهواله بحارة الأمتين • وتربص الجنويون باعدائهم فى بيرا ، وجعلوا يأسرون السفن البندقية المارة هناك عائدة من تانا ، فكانت هذه السفن تتحاشى عبور البسفور ، ومن ثم تفرغ شحناتها قبل مدخل المضيق ، عند اسكيتوبوليس Scythopolis ثم تنقلها برا الى القسطنطينية • ومع ذلك عمل الامبراطور على الأقل على ايقاف الأعمال العدوانية بين جنويى بيرا وبنادقة القسطنطينية ، ونجح فى هذا السبيل • وعقدت البندقية الصلح مع جنوا فى ٢٢ من مارس ١٤٠٤ (٨٦) • غير أن هذا التاريخ انما يوضح فقط نهاية فترة النزاعات الحادة : فقد نشأ عن تحديد التعويضات

---

(٨١) Stella, p. 1200 ; la Coll. des doc. inéd., Mél. hist., III, 172 et ss.

(٨٢) Stella, p. 1196 ; Sanut., p. 789 ; Le livre des faicts de Boucicaut, p. 269.

(٨٣) Le livre des faicts de Boucicaut, p. 270, 287.

(٨٤) Satha, Doc., II, p. 106.

(٨٥) Le livre des faicts de Bouicaut, p. 266 et ss. ; Stella. p. 1196 et ss. ; Dandolo, p. 517 ; Sanuto, p. 786-400 ; Boucicaut : Commem., III, p. 294, no 275.

(٨٦) Clavijo, p 62, 74, 78 ; Sanuto, p. 792 et s., 806, 835 ; Romanin, IV, 10 ; Commem., III, p. 295, no 276, nos 277-286 et 292 ; Sathas, Doc., I, 9-11 ; II, 120, 132.

صعوبة لا آخر لها ، فلم تنته الخلافات بصورة قاطعة الا بمعاهدتى ٢٣ يولية ١٤٠٦ و ٣٠ ديسمبر ١٤١٠ (٨٧).

وترتب على خضوع جنوا للملك فرنسا تعقيدات أخرى . ذلك أن حكام خيوس mahons كانوا من طبقة الشعب ، وتبعا للعقد المبرم بينهم وبين الوطن الأم ، يتحتم وقف فاعلية حقوق السيادة والقضاء التى لجنوا على الجزيرة اذا سمحت الجمهورية بأن يفرض عليهــا نظام خلاف النظام الديموقراطى (٨٨) . واستنادا الى هذا النص ثار « الماهون » صائحين « يحيا شعب سان جورج » وعزلوا الموظفين الذين أوفدهم بوسيكو ، وأعلنوا استقلالهم (ديسمبر ١٤٠٨) . وثورة المستعمرة الجنوية هذه تشبه الى حد ما ثورة المستعمرين فى كريت ضــد البندقية منذ قرابة أربعين سنة مضت : فكما أن هؤلاء الأخيرين فكروا فى أن يلقوا بأنفسهم فى أذرع الجنويين الأعداء التقليـديين لوطنهـــم الأم ، فان أفراد أسرة جستنيانى ، حكام خيوس طلبوا مساعدة البنادقة الذين أذنوا لهم بالفعل بالتزود بالمؤن والأسلحة من الاقليم البندقى . الا أن هذا الوضع لم يدم أكثر من ستة أشهر ، فما لبث أسطول أرسله بوسيكو تحت امرة كورادو دوريا أن أنهى حركات الاستقلال هذه ، فاستسلمت قلعة خيوس فى ٣٠ من يونية ١٤٠٩ (٨٩) . والواقع أن « الماهون » كانوا بتمردهم فى هذا الظرف بالذات يدافعون عن حقهم الصريح ، لذلك أظهر المنتصر تساهلا فى عقابهم ، الا أن الوشائج التى كانت تربط المستعمرة بالوطن الأم تقطعت ، ومن ثم نشبت حرب أهلية استخدمت فيها قوى كان من الضرورى تكاتفها ازاء الأخطار الخارجية .

حقا ، كان عند العثمانيين فى هذه الآونة أمور كافية لشغلهم فى عقر ديارهم ، فكان فى وسع المستعمرات الغربية أن تتنفس الصعداء . وفى حين كان محمد الابن الثانى لبايزيد ، والمقيم بمدينة بورصة يحكم بحزم وعزم وطن العثمانيين والأقاليم الأســيوية ، كان سليمان ابنــه الأكبر يحكم بتراخ الأقاليم الأوروبية . ولما كانت الأسواق الرئيسية فى بلاد الروم لم تزل فى أيدى المسيحيين ، كان ذلك فى صالح الأمم التجارية الغربية . وبفضل طبيعة سليمان السلمية تمتعت القسطنطينية ومجاوراتها بفترة طويلة من الهدوء . وبمقتضى معاهدة عام ١٤٠٣ ، استرد مانويل

---

(٨٧) Commem., III, p. 314 et ss., nos 18-27 ; p. 322 et ss., nos 48 et s. ; p. 333 et ss., no 79 ; p. 336 et s., no 81 ; p. 347 et s., nos 115 et s., p. 380 et s., nos. 220 et s.

(٨٨) Lib. jur., II, 568.

(٨٩) Stella, p. 217-1220 ; Hopf, art. Giustiniani, op. cit., p. 319.

حيازته لسالونيك ، وأوفد اليها ابن أخيه بصفته وصيا (٩٠) • أما موسى Moussa خليفة سليمان ، وابن بايزيد ، فكان ذا طبيعة مختلفة : كان محبا للقتال ، ضرب الحصار أمام القسطنطينية ، وأمام سالونيك ، ولكنه فشل في الجهتين ازاء مقاومة الروم (٩١) • ولم تكف جمهورية البندقية عن اقامة علاقات دبلوماسية وثيقة مع الأميرين • وفي عام ١٤٠٦ أرسلت الى سليمان ، مع فرانشسكو جستنياني عهودا بصداقة وثيقة ، وأكدت له رغبتها في أن تظل معه في سلام ووئام ، مهما كان الأعداء الذين قد يحاربهم ، وفي نظير هذه العهود ، طلبت منه أن يكفل لتجارها حرية التنقل في امبراطوريته ، والابقاء على السعر الحالي للضرائب الخاضعين لها ، والتصريح باقامة قنصل بندقي في اقليمه (٩٢) • ولم تصل الى أيدينا المعاهدة المبرمة بين سليمان وهذا السفير ، ولكن معنا الوثيقة التي صدق بها موسى على هذه المعاهدة • واتصل موسى بمندوب من بايل القسطنطينية ، فأكد له حسن نواياه من ناحية البنادقة ، وعزمه على أن يبقى معهم في سلام ، وأطلق سراح سفن كان قد أسرها قراصنته • وفي لقاء أذن به لجاكوبو تريفيزانو Jacopo Trevisano الموفد لتحيته من قبل الجمهورية ، وعده بألا يرفع الضرائب على التجار ، وألا يتعرض للممتلكات البندقية • وفي الوثائق التي نستقي منها هذه المعلومة ، نجد أسماء كورون ، ومودون ، ونوبليا ، وفتليون (المعفاة من الجزية بمنحة خاصة) ونجربونت ، وتينوس ، وميكونوس (ميكون) (٩٣) •

واستمر انشقاق الامبراطورية العثمانية أكثر من عشر سنين ، وقدر لمحمد الأول ، بعد أن كان قابعا في امارة بورصة أن يدعم الوحدة ، ويعيد بذلك قوة الامبراطورية • وفي أثناء الحرب الأهلية التي أسفرت عن هذه النتيجة العظيمة ، راعت البندقية الحياد التام ، ومع ذلك قدمت تهانيها للمنتصر عن طريق فرانشسكو فوسكاري (٩٤) • الا أن محمد قد أدرك أن البندقية هي العدو الذي لابد من قتاله بأي ثمن ، العدو القادر على اقامة العراقيل في طريق العظمة النامية للامبراطورية العثمانية ، ومن ثم أرسل

---

(٩٠) Ducas, p. 79.

(٩١) Duca p. 92 et s., Phrantzès, p. 87 ; cf. Sanuto Vite dei-dogi, p. 880.

ـ رفضت البندقية ان تساهم في الدفاع عن القسطنطينية ، بدعوى انها تعيش في وئام مع الترك :
— Hopf., Griechenland, op. cit., p. 75.

(٩٢) Schafarik, Acta archivi veneti spectantia ad historiam et reliquorum Slavorum meridionalium, 1er fasc., Belgrade, 1860, p. 384 ; Manslav. merid. IX, 56, 102 et s., 105.

(٩٣) Sathas, II, 262 et ss. ; Commem., reg., III, p. 354, no 137.

(٩٤) Hopf, op. cit., p. 75 ; Sanuto, Vite dei dogi, p. 893.

فى مناسبات مختلفة أسطوله يخرب جزيرة يوبية ، وجزر الكيكلاديس ، وفى هذه الحملات ، تذرع برغبته فى القضاء على غطرسة سادة اندروس ، وناكسوس اللذين أثار سلوكهم المتعجرف حفيظته الى أقصى درجة . الا أنــه فى ٢٩ من مايو ١٤١٦ شن أمير البحر البندقى بييترو لوريدانو Pietro Loredano حربا فاصلة ضد هذا الأسطول على مرأى من جاليبولى وهزمه هزيمة ساحقة (٩٥) . ولفترة طويلة ، تجنبت البندقيــة والباب العالى الاصطدام المباشر ، فكانت هذه المعركة أول عمل عدائى مكشوف بين القوتين . وكانت البندقية تملك تفوقا بحريا أكيدا يكفل لها النصر . وفى معاهدتى ١٤١٦ ، ١٤١٩ اضطر السلطان أن يوافق على تنــازلات كثيرة (٩٦) : من ذلك أنه كف عن اقتضاء جزية من دوق ناكسوس ، بصفته مواطنــا بندقيا (٩٧) ، وصرح بمنح البنادقة الحرية التامة فى التعامل مع القراصنة الأتراك الذين يغيرون على جزر الأرخبيل والدردنيل على أنهم أعداء (٩٨) . أما سلوك الجنويين فكان بالنسبة اليه شيئا آخر . ففى عام ١٤١٥ حارب عدوا لدودا للعثمانيين ، وهو جنيد Djoneid أمير أزمير ، وحاصره فى عاصــمته ، ونجــد من بين حلفــائه ، الى جانب العديد من الأمراء التركمان ، والرئيس الأكبر لهيئة فرسان القديس يوحنا ، نجد جاكوبو جاتيلوزيو Jacopo Gattilusio ، أمير لسبوس ، ومستأجر مزارع فوجة القديمة ، وجيوفانى أدورنو Giovanni Adorno مســتأجر مزارع فوجة الجــديدة ، والبودســتات ، رئيس « ماهون » خيوس (٩٩) ، وجدير بالذكر أن هؤلاء كان عندهم بواعث جدية لوضع سفنهم تحت تصرف محمد : فقد أصبح جنيد جارا شديد الازعاج . وبعد أن اســتولى محمــــد على أزمير ، منح حلفـــاءه ، وهو يوفـــر بلطف كل طلباتهم . وحصل « الماهون » على ترخيص بمزاولة التجارة فى كل أنحاء الامبراطورية العثمانية ، وتعهد لهم محمد بأن يسمح لكل من يريد المتاجرة مع جزيرة خيوس ، حتى ولو كان من أعداء الترك بالتنقل فى حرية . ومع ذلك فان الماهونية Mahone كانت ملزمة بدفع جزية سنوية

---

(٩٥) Romanin (VI, 71 et ss.); Sanuto : Vite dei dogi_ p. 901 et ss. ;
– قبل هذه الأحداث ، أعدت تسليحات فى الأرخبيل ، مع استمرار التفاوض .
أنظر : — Monum. Slav. merid, XII, 196 et ss.

(٩٦) Hopf, op. cit., p. 75-77.

(٩٧) Taf. et Thom., inéd.

(٩٨) Romanin, IV, 75.

(٩٩) Ducas, p. 106.
– دوكا هو الوحيد الذى يشير الى هذه الحقيقة .

قدرها ٤٠٠٠ دينار ذهبي (١٠٠) • وللحصول على ايجارة جديدة مدتها عشر سنوات لاستغلال مناجم الشب ، اضطر المزارع الماهونى مستأجر فوجة الجديدة ، وهو جيوفانى أدورنا أن يقبل ايجارا سنويا لا يقل عن ٢٠,٠٠٠ قطعة ذهبية (١٠١) •

ولم يكن لتغير الحاكم أى أثر فى وضع المستعمرين الجنويين فى هذه المناطق : كان هؤلاء يظهرون المذلة لمراد الثانى كما كانوا يظهرونها لأبيه بايزيد الأول ، الى حد أن استجدى بعض أعضاء مستعمرة بيرا من مراد موادا ونقودا (٣٠٠ هيبربر) لبناء برج عال حصين ، وعدت الجالية بأن تنقش عليها شارات السلطان • وكان هذا السلوك شاذا يفوق الحد المحتمل ، واستنكرت حكومة الوطن الأم بعبارات قاسية ما فى هذا السلوك من دناءة وخسة ، وقالت فى خطابها انها ما زالت بحمد الله على قدر كاف من الثراء يتيح لها أن تنفذ فى بيرا أعمال التحصينات الضرورية (١٠٢) • ومن جهة أخرى ، شوهد اثنان من الجنويين ، جيوفانى ادورنو ، وبيرسيفالى بالافيشينى ، وهما من مزارعى الماهون فى فوجة الجديدة يقدمان للسلطان خدمات ذات شأن ، ويزودانه فى حدود امكانياتهما بالوسائل الكفيلة بالقضاء على خصومه ، ودعم سلطانه • ووضع جيوفانى أدورنو تحت تصرف مراد أسطولا وفرقة من الجند ، كثيرة العدد ليحارب بها المغتصب مصطفى (١٤٢١) • وكان مراد قد هزم خصمه فى آسيا ، واستطاع بمعاونة الأسطول أن يطارده فى الجانب الآخر من الدردنيل • وساهمت الفرقة العسكرية بنصيب فعال فى غزو جاليبولى ، وتبعته فى مسيرته المظفرة حتى اندرينوبول (أدرنة) ، واعترافا منه بهذه الخدمات ، تنازل لأدورنو عن مبلغ ٢٧٠٠٠ قطعة ذهبية ، وكان أدورنو مدينا بهذا المبلغ ضمن الجزية المفروضة عليه ، ومنحه حق التمتع بايرادات جمارك فوجة الجديدة مدى الحياة ، ووهب له قصر بيريتيوريون Périthéorion الحصين الواقع على شاطىء تراقيا ، غربى اينوس ، تجاه ثاسوس • وبفضل هذا التنازل اكتسبت تجارة جنوا محطة جديدة على موقع ملائم (١٠٣) • وبعد بضع سنوات ، أقدم بيرسيفالى بالافيشينى خليفة أدورنو المباشر فى مزرعة فوجة الجديدة مراد فى اخضاع خصم آخر له هو « جنيد »

---

(١٠٠) Foglietta, p. 582.

(١٠١) Ducas, p. 164.

(١٠٢) Atti della Soc. Lig. VIII, 187 ,Lettere du 15 Avril 1424).

– فى هذه الآونة كانت جمهورية جنوا تعمل على حمل السلطان على عقد الصلح مع امبرطور الروم :

— Ibid, IV, rendie. p. 48 et s.

(١٠٣) Ducas, p. 164-181 ; Atti della Soc. lig., XIII, 264 et s.

الذى سبق أن ذكرناه ، فحوصر هذا الأخير فى قلعة هيبسيلا Hypséla (١٠٤) الواقعة على الشاطىء فى مواجهة جزيرة ساموس ، وكانت هذه القلعة ملجأه الأخير • وحاصره بالافيشينى من ناحية البحر بثلاث سفن حربية استأجرها من خيوس ، كما حاصره ٥٠٠٠٠ر٥٠ جندى عثمانى من ناحية البر (١٠٥) • وحين اجتاز مراد فى زحفه المظفر الأقاليم الآسيوية الغربية ، تنافس ماهون خيوس ، وصاحب لسبوس فى تقديم تهانيهم اليه (١٠٦) •

وظن مانويل أنه من الأجدر به ، لكى ينقذ امبراطوريته أن يتبع الخطة العكسية ، ويؤيد مطالب مصطفى ، فجلب هذا السلوك على عاصمته كارثة جديدة • ذلك أن مراد ، وقد انتصر على عدوه ، أثار غضبه على الامبراطور اليونانى ، فأتى وضرب حصارا أمام القسطنطينية فى صيف عام ١٤٢٢ • ودافع الروم بشجاعة اليائس ، وصدوا المحاصرين ، وأحرقوا معداتهم الحربية الثقيلة (١٠٧) • ونجت القسطنطينية مرة أخرى • ولكى يتعزى مراد من جراء هذه الهزيمة حاول غزو عاصمة الامبراطورية اليونانية الثانية ، واذ شدد الترك الحصار على سكان سالونيك ، رأى هؤلاء أن طريق الخلاص الوحيد الباقى لهم هو أن يلقوا بأنفسهم فى أحضان جمهورية البندقية ، فدعوا سادة الجمهورية الى أن يضعوا أيديهم على المدينة • وكان من قبيل الحظ السعيد للجمهورية أن تنال بهذا العرض مدينة ساحلية كبيرة ، آهلة بالسكان (١٠٨) ، وفى موقع ملائم للتجارة كل الملاءمة (١٠٩) ، فلا يسعها أن تدع هذه الفرصة تفلت من يدها • وعلى ذلك قبلت (فى عام ١٤٢٣) هذا العرض ، ووعدت بارسال الجيوش

---

(١٠٤) Hopf, art Giustiniani, op. cit., p. 321.

(١٠٥) Ducas p. 194.

(١٠٦) Ibid, p. 196.

(١٠٧) اشترك البنادقة بشجاعة فى الدفاع بقيادة بايلهم بنديتو ايمو • انظر :
Hopf, art. Griechenland, op. cit., LXXXVI, 81.

– وفى هذه الآونة اتخذت الجمهورية اجراءات تستهدف ضمان أمن السفن الحربية البندقية المتجهة الى القسطنطينية طربزون ، ووضع سفن تحت تصرف التجار المقيمين فى القسطنطينية لتضمن لهم ملجأ فى حالة الضرورة • انظر •
Sathas, Doc., I, 119 et ss.

(١٠٨) كانت المدينة تضم انئذ ٤٠٠٠٠ ساكن • انظر :
Cron. Dolfino, cit. dans Sathas, l.c., IV. p. xx, not. 3.

(١٠٩) كان لسوق سالونيك وقتئذ اهمية كبيرة من حيث تجارة الأصواف ، حتى كان من صالح تجارة البندقية أن تتولى الانفاق على تجهيز سفينة حربية مهمتها حراسة السفن التجارية اعتبارا من نجربونت ، وحمايتها من القراصنة الترك :
Sathas, Doc., II, 175 et s., 218 et s.

والمؤن ، وأضافت فى رسالتها قائلة (١١٠) ان سالونيك سوف تغدو « بندقية ثانية » • وكان حاكم المدينة هو الأمير أندرونيك باليولوج ، وهو رجل عليل يمقت السلطة ، ومن ثم لم يتصد لهذا التحول الا بمقاومة هزيلة ، وانتهى به الأمر الى التنازل للجمهورية عن سالونيك فى مقابل مبلغ ٥٠٠٠٠ دوكا • وللحال أوفدت الجمهورية الى المدينة دوقا duca وقبطانا capitano ، ودعمت استقرارها فى البلد بضمها كساندريا Cassandria وبلاتانيا Platanea • واستاء مراد استياء شديدا حين رأى البنادقة ينتزعون منه سالونيك ، فيجد بدلا من اليونانيين (الروم) ذوى الميول القتالية الضعيفة جنودا غربيين محترفين • لذلك ، فمنذ البداية ، ورغم ما بذلته الجمهورية حياله من جهود ودية وسلمية ، اتخذ ازاءها موقفا عدائيا • وحينما تقدم منه نيقولا جورجيو Nicc. Giorgio أول مفاوض موفد من قبل الجمهورية ، رفض مقابلته ، وأمر بالقبض عليه وسجنه (١١١) • وأخيرا ، فى عام ١٤٢٧ وافق على ترك المدينة فى أيدى البنادقة ، ولكنه وضع لذلك عدة شروط (١١٢) : أولها أن يستمر فى تحصيل ١٠٠٠٠ آسبر aspres من ايرادات المدينة ، بخلاف حصيلة الرسم المفروض على الملح ، حسب العادة المتبعة فى الفترة الأخيرة من سيادة الروم • ثانيا ، أن يكون فى سالونيك قاضى تركى يتولى الفصل فى المنازعات المتعلقة بالديون بين السكان الترك ، وأن يكون مقر هذا القاضى فى داخل المدينة ، وتبقى القضايا الجنائية من اختصاص العمداء البنادقة rectcurs • وأخيرا الا يصادف التجار والقوافل التركية أية صعوبات فى دخول المدينة • والغالب أن البنادقة لم يسعفهم الوقت لتنظيم مستودعات ومنشئات تجارية على نطاق واسع حين أغار الترك على المدينة وحاصروها للمرة الثانية : وفى هذه المرة كان مراد هو الذى قاد بنفسه أعمال الحصار • وكانت الحامية اللاتينية ضعيفة ، والسكان اليونانيون غير متعاطفين مع سادتهم الجدد ، ومن ثم انهارت سيادة البندقية بسرعة غير متوقعة (٢٩ من مارس ١٤٣٠) • ورغم قصر فترة احتلال الجمهورية لسالونيك ، فان هذا الاحتلال كلفها أكثر من ٧٠٠٠٠٠ دوكا (١١٣) • وفى هذه الآونة كانت الجمهورية شديدة القلق من ناحية

---

(١١٠) Duc. p. 197 sathas, Doc., I, 133 et ss, 141 et ss.

(١١١) Sathas, Doc., II, 175 et s.; 218 et s.

(١١٢) نظرا لعدم وجود النص الاصلى للمعاهدة . فانى أعطى هنا موجز المعاهدة حسبما وجدته فى رومانن (Romanin, IV, 99 et s.) مع التحفظ بشان تاريخ ٢٠ أبريل ١٤٢٦ الذى اعتبره غير صحيح : فالواقع ان السلطان لم يصدق على مقدمات المعاهدة التى وضعت فى جاليبولى ، تصديقا مؤقتا الا فى شهر نوفمبر : — Sathas, l.c., I, 182 et ss.

(١١٣) Zinkeisen Gesch. des osman. Reiches in Europa, I, 558-570; Hopf, art. Griechenland, op. cit., p. 82, 87-89.

نجربونت (١١٤) ، ولذلك فانها حين انعقد الصلح في ٤ من سبتمبر من السنة نفسها ، شعرت بمنتهى السعادة اذ حصلت من السلطان على وعد بأن يترك سائر ممتلكاتها في أمن وسلام وأن يمنح التجار البنادقة في امبراطوريته حرية التنقل ومزاولة التجارة (١١٥) .

وثمة حافزان أثرا في البندقية تأثيرا حاسما في خصوص تملكها سالونيك : فمن جهة رغبتها في أن تستخلص من فتوحات العثمانيين أجزاء الامبراطورية اليونانية القديمة التي لم يزل في الامكان تخليصها ، ومن جهة أخرى حاجتها الى انقاذ كل ما يمكن انقاذه من الرخاء التجاري القديم . هذه الأسباب هي التي أوحت الى مجلس شيوخ البندقية بفكرة توسيع أملاكها في المورة . فبخلاف الأقاليم التي يحكمها الطغاة اليونانيون ، وممتلكات الجمهورية المجموعة حول مودون وكورون من جهة ، وحول أرجوس ونوبليا من جهة أخرى ، وكانت بتراس ضمنها في فترة ما ، كانت هناك دوقية أخايا Achaïe مع البارونيات التابعة لها . كانت هذه الدوقية قد فقدت ما كانت قد حظيت به من قوة وازدهار في عهد أسرة فيلهاردوين Ville hardouins ، وبدأ انحطاطها في عهد أمراء أنجو Anjou الذين كانوا ينتدبون عنهم حكاما يمثلونهم في الدوقية . وكانت الامارة في العصر الذي وصلنا اليه بحكمها منذ عام ١٤٠٤ سنتريون زكريا Centurione Zaccaria الذي كان من قبل سيدا على دمالا Damala وكالاندرتيزا Chalandritza ، فلم يكن بذلك الا بارونا قديما وصوليا ، ومن ذلك الحين تبدى كل شيء . وطمع ورثة زكريا في الامارة ، حتى قبل وفاته ، وكانت البندقية ضمن الطامعين فيها . وفي عام ١٤٢٢ كلف مجلس شيوخ البندقية دولفينو فينير Dolhino Venier أن يدرس على الموقع موارد البلد من وجهة الانتاج ، وامكانيات الدفاع ، وأسفرت الدراسة عن نتيجة طيبة . عندئذ باشر مجلس الشيوخ مع مختلف حكام المورة سلسلة من المفاوضات ، تستهدف غاية واحدة : دعم سيادة البندقية على القسم الفرنجي من البيلوبونيز . واحتفظت الجمهورية لنفسها بالحق في احتلال هيكسا مليون Hexamilion ذلك السور الحصين المشهور الذي يجتاز مضيق كورنثة من طرف الى آخر ، مما كان يستلزم من ناحيتها التصدي لزحف الأتراك . غير أن هذا لم يكن الموضوع الوحيد في المفاوضات ، فقد كان لمصالح التجارة نصيب فيها . فالواقع أن فينير كان مكلفا ، بين ما كلف به ، بالتعرف على منتجات البلد ، فذكر تقريره الذهب والفضة والرصاص والحرير والعسل والشمع والقمح والزبيب

---

(١١٤) في عام ١٤٢٦ تلقت حكومة البندقية من نجربونت Duc., p. 201.
عرائض تطالب فيها بالحاح شديد حمايتها من الترك Sathas, Doc., III. 306 et ss.
(١١٥) Romanin, IV, 236.

والدواجن (١١٦) • ومع ذلك لم تستطع البندقية أن تتغلب على مقاومة تيودور الثانى ، طاغية ميزيثرا ، واضطرت أن تكف عن محاولتها • وبعد انقضاء بضع سنين ، كان الروم هم الذين احتلوا القسم الفرنجى من المورة ، وبسطوا عليه سيادتهم (١٤٣٢) • وجعل الطاغية توماس Thonas مقره فى كلارنزا Clarenza العاصمة القديمة لهذا القسم من شبه الجزيرة ، وكان بذلك مفصولا عن تيودور الثانى بممتلكات الأمير قسطنطين المقاتل الجسور الذى أضاف الى ممتلكاته فى عام ١٤٤٢ ميزثيرا • ومن ذلك الحين لم يعد فى المورة من الحكام سوى أمراء أسرة باليولوجوس ، وكانوا فى البداية ثلاثة ، ثم اثنين ، واحتفظت البندقية بالممتلكات التى عددناها آنفا ، باستثناء بتراس Patras (١١٧) •

وكان امتلاك البندقية لسالونيك ، وما بذلته من جهود لجعل المورة دولة قوية وموحدة دلالات لا تخفى على بصيرة مراد ، أثبتت له بوضوح متزايد أن النضال ضد العثمانيين هو الهدف الرئيسى لسياسة الجمهورية فى الشرق • وقد رأينا فيما سبق أن محمد الأول كان يعتبر الجمهورية أخطر عدو له ، وثبت له ذلك مما عاناه معها • وفى هذه الأحوال كان الاقليم التركى ، بالنسبة الى تجارة البندقية مملوء بالأخطار ، وكان لابد من قدرة كبيرة من الجرأة غير العادية لمواجهة مخاطرها (١١٨) • ترى ما فائدة التأكيدات بالأمن والحرية المدرجة فى المعاهدات لصالح التجارة ، وما فائدة احتفاظ الجمهورية بقنصلية تجارية بسالونيك عند تسليم المدينة للترك ، حين انقطعت العلاقات بين الأمتين ؟ والأسوأ من ذلك أن الترك ، وهم السادة المطلقون على مضيق الدردنيل ، كانوا مسيطرين على طريق القسطنطينية والبحر الأسود ، ولم يكونوا فى حاجة الى أسطول خاص بهم حتى يجعلوا عبور هذا الطريق أمرا شبه مستحيل بالنسبة الى القوى البحرية الغربية • ويبدو أن السلاطين الأوائل لم يدركوا أهمية موقع جاليبولى الرائع ، فتركوا

---

(١١٦) Sanuto, Vite dei dogi, p. 948.
يذكر بيساريون Bessarion أيضا بعضا من هذه المنتجات ، ويضيف اليها النبيذ ، واللحم والجبن ، والصوف ، والقطن ، والكتان ، والأرجوان ، انظر :
Wadding, Annal. ord. min., a. a. 1459.

ــ عرفت مقاطعة بتراس بنوع خاص بتنوع منتجاتها ، ومن ثم جذبت اليها دواما جمعا كبيرا متنافسا من التجار البنادقة :
Sathas, Doc., I, 41, 77 ; II, 263 ; III, 76, 169 et s.

(١١٧) Hopf, art, Griechenland, op. cit., p. 80 et s., 86 et s., 108-110.

(١١٨) ومع ذلك لم يزل هناك فى اندرينوبل مستعمرات تجارية بندقية وجنوية •
انظر خطاب الراهب الفرنسسكانى بارثولوميوس من جنوا ، بتاريخ ٣ فبراير ١٤٤٣ فى :
Wavrin, Anchiennes chroniques d'Engleterre, éd. Dupout, II, 4 ; Tafur, p. 152 et s.

حصونه تتهدم وتغدو أطلالا . وكان بايزيد هو أول من اهتم بترميمها ، وشيد برجا ضخما عند مدخل الميناء . وبأمر من ابنه سليمان قام جنوى من أسرة نجرو Negro يعمل في خدمته ببناء برج مماثل على الشاطىء الآسيوى المقابل لجاليبولى عند لامبساك Lampsaque (١١٩) . وفي خمى هذه التحصينات أنشأ محمد العناصر الأولى لأسطول حربى ، وكانت جاليبولى بمثابة ترسانة لبناء السفن ، وميناء . ومنذ عام ١٤١٦ عرف البنادقة ما كان مخبأ هناك : ذلك أن أسطولا صغيرا من سفن تجارية كان عائدا من طربزون ، ومن القسطنطينية ، فوجد أسطولا تركيا اعترض طريقه حيال جاليبولى ، واستطاع أن يشق طريقه بالقوة ، الا أن العدو تعقبه حتى نجربونت وناوشه . وفي عام ١٤٢٧ كانت ثلاث سفن بندقية متجهة الى بلاد الروم Romanie ، فهاجمها عند الموقع نفسه أسطول تركى كبير ، أسر سفينتين واستطاعت الثالثة أن تعتصم بجزيرة خيوس (١٢٠). وتجددت هذه الوقائع بلا شك كلما اندلعت الحرب بين البندقية والباب العالى . ومع ذلك لم تحدث أية انقطاعات طويلة الأمد فى الحركة التجارية تضطر معها البندقية أن تتخلى عن علاقاتها بالبلاد الواقعة وراء الدردنيل . والواقع أنه فى « الوقائع البندقية » وبخاصة فى الوثائق التى نشرها السيد ساثاس M. Sathas ، يرد فى كل العصور ذكر سفن تانا وبلاد الروم (القسطنطينية ، وطربزون) ، ونرى أنها كانت تقوم برحلاتها كالمعتاد ، ولا تذكر المصادر المشار اليها عدد السفن التى يتكون منها عادة تلك الأساطيل التجارية ، الا أن دانجلور d'Anglure ، وهو حاج فرنسى (١٣٩٦) يذكر أن فى عصره كان يبحر كل سنة أربع سفن من البندقية الى القسطنطينية (١٢١) .

وعلى ذلك واصلت الحركة التجارية مع القسطنطينية مسيرتها المعتادة ، وبقيت مستعمرة البندقية فى تلك المدينة ، ومعها « بايلها » (١٢٢) ، واهتمت الجمهورية من وقت لآخر بأن يصدق الامبراطور اليونانى على معاهداته القديمة معها . وهناك على ما نعلم وثائق تصديق على المعاهدات مؤرخة بالسنوات ١٤٠٦ ، ١٤١٢ ، ١٤١٨ ، ١٤٢٣ ، ١٤٣١ ، ١٤٣٦ ، ١٤٤٢ ، (١٤٤٣) ، ١٤٤٧ ،

---

(١١٩) Duc., p. 19, 88.

(١٢٠) Sanuto, Vite dei dogi, p. 899, 997.

(١٢١) Anglure, Le Saint voyage, p. 99.

(١٢٢) فى حوالى عام ١٤٤٠ ، اجريت ترميمات فى كنيسة سان مارك وقصر البايل الذى تخرب جزء منه :

— Hopf, art. Griechenland, op. cit., p. 110.

١٤٥٠ (١٢٣) . وكان البايلات هم الذين يتولون غالبا هذه المهمة ، وكانت الجمهورية تتحاشى ارسال وفود خاصـــة لهذا الغرض . ولما لم يكن الامبراطور يقيم مندوبين دائمين عنه فى البندقية ، كان عليه أن يرسل اليها وفودا كلما دعت الحاجة الى ذلك (١٢٤) . وكانت المعاهدات فى كثير من الأحيان تنسخ حرفيا ، الواحدة من الأخرى ، وهى على كل حال متماثلة من حيث موضوعها ، ولا تضيف شيئا جديدا على الاتفاقيات الســابقة عليها . وكان كل شىء يسير تبعا لنمط قديم : فالحركة التجارية لم تكن فى الظاهر نشيطة بدرجة كافية تستدعى اثارة مسائل جديدة أو فرض قواعد جديدة . ومن وقت لآخر ، وبمناسبة تجديد المعاهدات ، يتناقش الامبراطور مع الجمهورية بعض الشىء (١٢٥) ، فيشكو من أعمال التهريب التى تثقل كاهل المستوطنين دون وجه حق ، كما تقول ، ولكن لا يترتب على ذلك خلق مصاعب جديدة تؤدى بخطورتها الى قطع العلاقات . وكانت رئاسة الجمهورية تبدى بوجه عام ودا واستعدادا لتقديم الخدمات والمعونات. وحين وحد البنادقة جهودهم وجهود البابا أوجين الرابع ، مواطنهم ، فى مجمعات فرارى وفلورنسا الدينية من أجل اجتماع كنائس الشرق والغرب ، فانهم عملوا فى مصلحة الامبراطور يوحنا السادس (١٤٢٥ ـ ١٤٤٨) . والمعروف أن هذا الأمير كان يعتمد على هذا الاجتماع لاستثارة اهتمام الغرب بمصالحه ، والحصــول على مساهمة أكثر فعالية فى الدفاع عن القسطنطينية . وقد حضر بنفسه الاجتماعين لتحقيق هذا المشروع الكبير (١٤٣٧ ـ ١٤٤٠) . وللذهاب الى هناك ، غادر القسطنطينية فى حراسة أسطول بندقى وترك عاصمته فى حراسة فرقة من الجند المرتزقة قدمت من كانديا ، وعاد اليها على متن ســفينة بندقية . وفى ذهابه ، ثم فى عودته ، توقف عند البندقية حيث استقبل فيها بكل مظاهر التكريم (١٢٦) . وأبدى المستوطنون البنادقة فى القسطنطينية ، هم أيضا ، فى أكثر من مناسبة اهتماما بالمفاوضــات الجارية لصــالح الاتحاد (١٢٧) . الا أن

---

(١٢٣) Miklosich et Muller, Acta graca, III, 144 et ss., 153 et ss., 163 et ss., 177 et ss., 186 et ss., 216 et ss. ; Sathas, I, 153 ; regestes dans les Commem., III, p. 313, no 16 et p. 361, no 161 ; Hopf, Griechenland, op. cit., p. 115.

(١٢٤) Emmanual Chrysoloras en 1406, Nic. Monojani en 1416 : Commem., III, p. 312, no 14 ; Mon., Slav., merid. XII, 217.

(١٢٥) Sathas, I, 159 ; Mon. Slav. merid., XII 161-163.

(١٢٦) Sanut, p. 1043 et ss., Doc. p. 212-215, Phrantz., p. 181, et ss.

(١٢٧) Zhishman, Die Unions-verhandlungen ZWischen der orientalischen und romischen Kirche (Wien 1858), p. 11, 105, 118.

البندقية أثبتت للامبراطور نواياها الطيبة فى شأن التعاون العسكرى بنوع خاص ، فوضعت تحت تصرفه فى عام ١٤٣٨ ثلاث سفن حربية ، وفى عام ١٤٤٤ عشر سفن للدفاع عن القسطنطينية (١٢٨) • وكان لها أن تعتمد على النوايا الطيبة وحسن المعاملة للتجار البنادقة من جانب رعايا الامبراطور ، كنتيجة لهذه السياسة •

ولنلتفت الآن الى الجنويين : ترى ماذا كانت طبيعة علاقاتهم بالترك والروم فى هذه الآونة ؟ يتبين لنا أولا فى هذا الخصوص فرق عجيب بين الوطن الأم وبين المستعمرات فى الشرق الأدنى • كان فى المستعمرات الجنوية طائفة كبيرة تعمل على أن تعيش على أطيب ما يمكن من العلاقات مع الترك ، حتى تبقى هذه المستعمرات حية بأية صـــورة كانت تحت سيطرتهم • لذلك لم تكن هذه الطائفة تهتم كثيرا بتجنب المشاحنات مع الامبراطور اليونانى ، حتى انها كانت أحيانا تدخل معه فى منـازعات سافرة : أما الوطن الأم (جنوا) فانه كان ينظر بعين القلق الى العدو وهو يظهر متهددا فى كل الأنحاء ، ومن ثم يرى هـذه المنازعات غـير ملائمة بالمرة (١٢٩)،وكان يهتم كل الاهتمام بالحفاظ على النظام البيزنطى (١٣٠)• لأن سيطرته عليه كانت ضعيفة ، وفى وسعه (أى الوطن الأم) أن يمارس حقوق السيادة على مستعمراته • وفى رأى حكومة جنوا أن أحسن طريقة للحفاظ على هذه السيادة هى الاكتفاء بتزويد المستعمرات بالتعزيزات اللازمة ، فى هدوء (١٣١) ، وتجنب القطيعة الصريحة مع السلطان (١٣٢)، والعناية باقامة علاقات ودية معه (١٣٣) • هذا الأسلوب فى النظر الى الأمور أدى بها أحيانا الى نتائج بعيدة المدى • من ذلك أنه فى عام ١٤٣١ ، حين أغار البنادقة على خيوس ، ولم تستنح الحكومة الجنوية أن تبعث برسالة الى مراد الثانى ترجوه فيها أن يقدم المعونة لسكان الجزيرة ، ويمنع البنادقة من ترميم حصون تنيدوس Tenedos تنفيذا لشرط قديم منصوص عليه فى معاهدة صلح تورين Turin (١٣٤) • وبعد عشر سنوات (١٤٤٤) ، حين دخل لادسلاس ملك هنجاريا فى حرب ضـد الترك ، أرسل البابا الى هلسبونت لمعونته أسطولا مكلفا بمنع السلطان

---

(١٢٨) Sanuto, p. 1059, 1114.

(١٢٩) Atti della Soc. lig., XIII, 196.

(١٣٠) من أجل هذا توسطت جنوا بكثير من الحماس ، فى عام ١٤٢٤ ، لاعادة العلاقات السلمية بين الباب العالى وبيزنطة : Ibid. 187.

(١٣١) فى عام ١٤٤٢ ، اتخذت الحكومة الجنوية فى هذا الصدد موقفا يتعارض مع مشروعات البابا بشأن الحرب الصليبية • Atti, l.c., p. 206 et s.

(١٣٢) Atti, l.c., p. 190, 197 et s., 207.

(١٣٣) Atti, l.c., p. 219 ; Laon. Chalcoc.,

(١٣٤) Hopf art. Giustiniani, p. 321.

من نقل جيشه من آسيا الى أوروبا · ماذا فعل الجنويون عندئذ ؟ لقد أعاروا سفنهم (١٣٥) للعدو ليسهلوا له هذه العملية (١٣٦) · ولا عجب في هذه الأحوال من أن يلقى التجار الجنويون كل ترحيب من جانب الأتراك · وفي عام ١٤٣٧ استأجرت شركة مؤلفة من جنويين فقط مناجم الشب في آسيا الصغرى ، واليونان ، ولسبوس ، فصارت في علاقات أعمال مباشرة مع السلطان (١٣٧) · وثمة تاجر جنوى كبير يدعى فرانشسكو درابيريو Francesco Draperio يمارس أعمالا تجارية في كل أنحاء تراقيا وآسيا الصغرى ، كان يحظى بترحيب مراد الثانى به (١٣٨) ·

وقد أتيحت لنا فيما سبق فرصة للحديث عن مختلف المنازعات التى وقعت بين مستعمرة بيرا والأباطرة اليونانيين · وقد نشبت احدى هذه المنازعات في عام ١٤٢٨ لأسباب مجهولة ، لكنا نعرف فقط أن مستوطنى بيرا جهزوا سفينتين حربيتين ، مما يدل فى الظاهر على حالة حرب معلنة (١٣٩) · وفي عام ١٤٣٣ تفجر نزاع جديد بسبب الرسوم الجمركية التى يتعين دفعها في غلطة (١٤٠) · وفي هذه الآونة أقلع أسطول حربى من جنوا متجها الى القرم لاعادة غزو بالاكلافا Balaclava · وكان أمير البحر كارلو لوميللينو Carlo Lomellino الذى يقود هذا الأسطول مكلفا ، لا بالاستيلاء على القسطنطينية كما يزعم لاؤفينكوس كالكوكونديلاس Laonicus Chalcocondylas، وانما بالضغط على الامبراطور لكى يكون أكثر مرونة وتساهلا · وبالفعل ، عند عودة لوميللينو ، ألقى مراسيه أمام غلطة ، واتفق مع مواطنيه المستعمرين أن يستولى عنوة على

(١٣٥) لتكوين هذا الاسطول ، قدمت البندقية ست سفن حربية ، وكاندى أربعا ، ونجروبنت اثنتين ، والامبراطور اليونانى ستا ، وهذا على الاقل ما يخبر به حاج أوجسبرج المجهول الهوية ، الذى كان يرتحل فى تلك الآونة فى الأرخبيل ، انظر :
— Archiv von Herrig XL, 322.

(١٣٦) M. Zinkeisen (Gesch. des osm. Reichs, I, 688) ; la Chronique de Wavrin (éd. Dupont, II, 70 et ss.)

(١٣٧) Doc. Sulle relaz. tosc., p. 169.

(١٣٨) Cyriacus Anconitanus, dans Targioni Tozzetti, Relazioni d'alcuni viaggi fatti in diverse parti della Toscana, V, 418, 422, 450 et ss. (Atti della Soc. lig., XIII, 977-986).

ـ وحتى فى زمن محمد الثانى ، اقام هذا الشخص مرارا فى بلاط العاهل التركى Atti, l.c., XIII, 263.

(١٣٩) Atti della Soc. lig., XIII, 196; cf. 188.

(١٤٠) فى عام ١٤٢٣ ، وبسبب المطالبات الجمركية المبالغ فيها ، كان على دوق ميلانو ، وكان انئذ عاهلا لجنوا ، أن يستمع الى احتجاجات ضد ادارة الامبراطورية اليونانية :
— Atti IV, rendic., p. 49 et s.

أسوار القسطنطينية (١٤٣٤) ٠ وكان لسوء حظه قد أخفق فى القرم ، فعاد من هناك وقد وهنت قواه ، ومن ثم دافع الروم بشدة ٠ ولما يئس من النجاح ، كف عن القيام بمحاولات جديدة ، وأقلع عائدا الى ايطاليا ٠ وواصل المستعمرون الجنويون وحدهم القتال وأمطروا القسطنطينية وابلا من القذائف ، ودافع الروم ضد غلطة كما فعلوا من قبل ، وحوصر المستعمرون فى مدينتهم من كل جانب ، وقطعت عنهم كل اتصالات بالخارج ، واضطروا الى الاستجابة لطلبات الامبراطور فى مسألة الحقوق المتنازع عليها ، ومسألة زراعة الكروم خارج غلطة ، بالاضافة الى مسائل أخرى خاصة بدفع تعويضات عن الخسائر التى وقعت للقسطنطينية بسببهم ، وتقديم الولاء للامبراطور برفع العلم اليونانى على أسوار غلطة (١٤١) ٠ ونشير أخيرا الى نزاع وقع بين بيرا وبيزنطة بشأن رجل أرمنى هارب ، وكل ما نعلمه عن هذا النزاع هو أن جنوا اعتمدت على حدوث تغيير فى الهيئة الحاكمة لتهدئة النزاع ٠ واذ حدث فى هذه الفترة أن انتقل التاج الامبراطورى من يوحنا السادس الى قسطنطين دراجازيس Constantin Dragazès (١٤٤٩) (١٤٢) ، فمن المحتمل أن يكون أمل جنوا قد تحقق ٠

وكنا نود أن نعلم بالتفصيل الوضع الداخلى لمستعمرة بيرا ، الا أنه تنقصنا الوثائق فى هذا الخصوص بصورة يرثى لها ٠ وفى خطاب خاص بتاريخ ٢٢ من يونيو ١٤٣٣ يتحدث تاجر يدعى امبريالى تونسو Imperiale Tonso عن الهدوء الذى يسود الحركة التجارية ، وركود السوق (١٤٣) ٠ غير أن هذه معلومة فردية ، وربما لم تكن الحالة السيئة التى يشير اليها كاتب الخطاب سوى حالة عارضة ، ولا يجوز التعجل بالاستنتاج من ذلك دون أدلة كافية بحدوث أزمة طويلة الأمد ، أو أن نعمم ، فنقر بأن تجارة جنوا كانت وقتئذ فى انحطاط : فلم يكن الدردنيل أو البسفور مغلقا فى وجهها ، وكانت البلاد الخاضعة للسيادة العثمانية مفتوحة لها ، والتجار الجنويون يلقون بها كل ترحيب وود ٠ ومن هاتين الوجهتين كان الجنويون أسعد حظا من البنادقة ، غير أن البلاء الأكبر كان يأتى من غارات الترك المتواترة على القسطنطينية ، وكانت الضواحى تعانى بالطبع من عواقب هذه الغارات ٠ ومع كل حصار جديد ، تتوقف الحركة

---

(١٤١) المصدر الوحيد الذى يمكن الرجوع عليه فى هذه النقطة هو :
— Chalcoc. p. 284-286.
(الترجمة اللاتينية فيها عيوب كثيرة) ٠ وتتحدث « الحوليات الجنوية » عن حملة لوميللينو ، ولكنها لا تقول انه هاجم القسطنطينية ٠

(١٤٢) Atti della Soc. lig., XIII, 219 et s.

(١٤٣) Ibid,X III, 202.

التجارية بعض الوقت . ولا شك أن انعدام الثقة بالمستقبل لم يكن ملائما للمشروعات التجارية الطويلة المدى . ومع ذلك ففى الخارج لم يكن ثمة شيء يدل على حدوث أى انهيار فى الحركة التجارية . ويتحدث كاتب فلورنسى يدعى بونديلمونتى Buondelmonti (١٤٤) عـام ١٤٢٠ عن جمال المدينة ، كما زارها كيركوس الانكونى Cyriacus d'Ancône عدة مرات ، ووجدها فى كل مرة أجمل مما كانت فى المرات السابقة (١٤٥) . ويشيد طافور Tafur الاسبانى بجمال المدينة ، وأسوارها الهائلة ، ويقدر عدد سكانهـا بالفين ، أغلبهم من الروم ، ولكن التفوق كمـا يقول كان للجنويين ، وكلهم تجار أثرياء يقومون بعمليات تجارية كبيرة مع سواحل البحر الأسود ، وسوريا ، ومصر ، والغرب ، ويذكر وجود عدد كبير من السفن بصفة دائمة ، تشحن البضائع ، أو تفرغها فى الميناء (١٤٦) .

وفى عهـد « البودستات » بورويل جريمالدى Borruele Grimaldi حين أقبل الأتراك وضربوا الحصـار أمام القسطنطينية ، كان القوم قد أقاموا أمام أسـوار بيرا لحماية الموقع برجا مكرسـا للقديس ميشيل S. Michel (١٤٧) ، وقـام خليفته بلداسـارى ماروفـو Baldassare Maruffo بتوسـيع وتعلية الأسـوار من جهـة البحر (١٤٨) . وفى عام ١٤٤٧ ، فى عهد لوكينو دى فاتشيو Luchino de Facio ، وعام ١٤٥٢ فى عهـد أنجيلو جيوفانى لوميللينو Angelo Giovanni Lomellino آخر البودستات ، كان العمل جاريا فى دعم التحصينات (١٤٩) . كانت المدينة منذ بضع سنين تبدو من الخارج بمظهر رائع . فهل تفككت الادارة الداخلية للمستعمرة ؟ أو بقيت بمستواها المتوسط ، مستوى الادارات السابقة ؟ من الصعب الاجـابة عن ذلك . وثمة رجـال بارزون ، مثل سبينيتا Spineta (١٤١٤ ــ ١٤١٦) الذى اشـتهر بالحكمـة والنزاهة (١٥٠) ، وبلدا سارى ماروفو الذى دون أهالى بيرا الألقاب التى

---

(١٤٤) Liber insularum archipelagi, éd. Sinner, p. 125.

(١٤٥) L.c., p. 417.

(١٤٦) Tafur, p. 182, 186.

(١٤٧) Buondelmonti, l.c. ; Mas Latrie, Notes d'un voyage archéologique en Orient : Bibliothéque de l'école des chartes, 2e série, II, 492.

(١٤٨) Cyriacus d'Ancone, op. cit., Mas Latrie, l.c., p. 493.
انجز ماروفو هذا بناء برج على الواجهة الشرقية .
Mas Latrie, ibid., p. 495.

(١٤٩) Mas Latrie, ibid. p. 494 ; Guglielmotti, Storia della marina pontificia, II, 180.

(١٥٠) Sieila, p. 1276.

منحوها ايام اعترافا منهم بفضله ، وذلك على لوحة رخامية لم تزل تشاهد بالقرب من باب « اجرى كابوسى » Egri Kapoussi (١٥١) ، وهـؤلاء الرجال خلفهم أحيانا موظفون يقبلون سرا من الأباطرة اليونانيين نقودا أو يستغلون الفقراء المعدمين (١٥٢) • وكانت حكومة الوطن الأم تضطر في الكثير من الأحيان أن تتولى الدفاع عن فقراء المستعمرة الذين كانت استغاثاتهم تصل الى مسامع جنوا • ومن بين الاتهامات التى كانت توجه الى هؤلاء الموظفين ، بخلاف الاختلاسات (١٥٣) ، فرضهم ضريبة فادحة على الموتى ، وقد هاجر نتيجة لذلك أكثر من مائة أسرة فى غضون بضع سنوات (١٥٤) ، واضـطرت الحـكومة أن تلغى هذه الضريبة فى عام ١٤٤٨ • والحقيقة أن هذا السبب ليس بكاف لتبرير العديد من الهجرات ، وأنه ينبغى الأخذ فى الاعتبار الأخطار التى يتعرض لها السكان من كثرة ظهور الأتراك : وكانت كل هجرة تترك فراغا فى عدد المدافعين عن المدينة •

وبدأت السـفن المتجهة الى الجنوب ، بعد خروجهـا من مضيق الدردنيل ، تحاذى جزيرة تنيدوس المنعزلة ، فتقابل أولا جزيرة لسبوس مقر الفرع الأكبر لأسرة جاتيلوزيو الجنوية Gattilusio ، وقد رأينا ما كان لثروات هذه الأسرة ، وأنسابها العظيمة من أصداء على اسم الوطن الأم • وبسط ثالث الأمراء الذين حكموا لسبوس ، وهو دورينو جاتيلوزيو (١٤٢٧ وما بعدهـا) أملاكه الى مدى بعيـد ، اذ تلقى جزيرتى لمنوس وثاسوس بمثابة إقطاعيتين له من قبل الامبراطورية البيزنطية • وفضلا عن ذلك كان أفراد هذه الأسرة ، من أب الى ابـن مستأجـرين لفوجـة القديمة ، واحتفظوا بهذا الامتياز طالما كانت « ماهون » خيوس مالكة لها • وثمة فرع صغير لهذه الأسرة ، استقر فى جزيرة اينوس ، واقتفى أثر فرعه الأكبر • وتسلم السيد الثـانى لجزيرة اينوس ، وهو بالاميد Palamède (١٤٠٩ ــ ١٤٥٥) من الامبراطور اليونانى ، بصفة اقطاعية جزيرتى امبروس Imbros ، وساموثراس Samothrace (١٥٥) • وهكذا كانت أكبر جزر بحر ايجه فى أيدى أمراء من جنس جنوى ، وكان فى وسع بحارة هذه الأمة أن يغامروا فى أمان تام بارتياد هذه المناطق ، فى حمى القلاع التى يحتلها مواطنوهم (١٥٦) ، ويوفر لهـم كل ميناء ،

---

(١٥١) Mas Latrie, l. c., pp. 493.

(١٥٢) Atti della Soc. lig., XIII, 185 et s.

(١٥٣) Ibid. p. 186, 194.

(١٥٤) Ibid. 212 et s.

(١٥٥) Hopf, art. Griechenland, op. cit., p. 150 et ss.

(١٥٦) لم يزل يشاهد فى كل هذه الجزر أطلال قلاع وأبراج عصر جاتيلوزى ، ويوجد على معظمها شارات الشرف التى تصور أسلحة الأسرة أو أسماءها بحروف متشابكة =

عند الضرورة الملجأ ضد مطاردة القرصان . ووجدت التجارة فى هذه الجزر تسهيلات لم تكن موجودة من قبل . ورغم فقر هذه الجزر ، كان بها على الدوام بعض الغذاء من حاصلاتها الطبيعية . ومن الوجهة السياسية ساد بين الجمهورية الجنوية وفرعى أسرة جاتيلوزى اتفاق تام ، وكانت الجمهورية تعرف أنه فى حالة قيامها بعمليات بحرية فى منطقة الشرق الأدنى فانها تستطيع الاعتماد على عدد من سفن حربية يقدمه لها هؤلاء الأمراء ، ولم يفتها أبدا أن تتضمنهم فى المعاهدات التى تبرمها مع قوى أخرى (١٥٧) . فضلا عن ذلك كان أفراد أسرة جاتيلوزى يدفعون الجزية للسلاطين ، وكان شغلهم الشاغل أن يعيشوا فى سلام معهم (١٥٨) . وكانت « الماهون » مالكة جزيرة خيوس تابعة هى الأخرى للسلاطين ، فكانت مطمئنة من جهتهم . وفى النصف الأول من القرن الخامس عشر كانت توجه جل اهتمامها — باستثناءات قليلة ، ودون أن تنشغل بأية مسائل خارجية — الى زراعة المصطكة (الصمغ) وفواكه الجنوب ، واستغلال مناجم شب فوجة Phocée والاتجار بهذه المحاصيل . ومنذ أن تحدد سعر قنطار المصطكة بصفة نهائية بمبلغ ٤٥ جنيها (فى ١٩ من أبريل ١٤١٧) (١٥٩) ، أصبحت هذه السلعة تدر وحدها دخلا سنويا يبلغ حوالى ٢٠٠٠٠ جنيه . وفى ذات مرة ، خلال شتاء ١٤٣١ / ١٤٣٢ تعرضت هذه المستعمرة لخطر شديد من ناحية البنادقة . وفى هذه الآونة وضعت جنوا نفسها تحت حماية أدواق ميلانو ، وكان الدوق الحاكم ، فيليب مارى فيسكونتى ، وهو رجل شديد الطموح يحارب البندقية ، واتسعت الأعمال الحربية حتى بلغت الأرخبيل . وكانت عاصمة جزيرة خيوس وقتئذ محاصرة بأسطول بندقى قوى تحت امرة اندريا موسينيجو ، وامتد الحصار أكثر من شهرين (من ١١ نوفمبر الى ١٧ يناير) ، وأبدى البودستات رفائيلو مونتالدو فى الدفاع شجاعة وبراعة ، واضطر

= (مونوجرامات) ، وفى الكثير من الاحيان كتابات تعرف بأن هذه الصروح قد شيدها الأمراء أنفسهم فرانشسكو فى لسبوس عام ١٣٧٣ ، وبالاميد فى ساموتراس) أو ضباطهم . انظر :

Conze, Reise auf den Inseln des thrakischen Meeres, p. 37, ss et s., 80-82, 108. ; Reise auf des Insel Lesbos, p. 5.

(١٥٧) Documenti riguardanti alcuni dinasti dell' Arcipelago, p. p. Luxoro e Pinelli-Gentile, dans le Giorn. ligust., I, 220 et s. ; II, 85 et s., 90-93; III, 314 et s., V, 350, 354 et s., 359 et s, 365 et s.

(١٥٨) خطاب حرره فى ١٤٤٠ دوج جنوا الى دورينو جاتيلوزيو : Ibid. II, 296. ينصحه فيه بالا يرسل سفينة حربية لنجدة القسطنطينية ، الا اذا كان فى استطاعته أن يتذرع تفسيرا لهذا الايفاد ، بحجة ما ، كالرغبة فى حماية بيرا ، أو غير ذلك .

(١٥٩) Hopf, art Giustiniani, op. cit., p. 333.

موسينيجو في النهاية أن ينصرف بسفنه ، ويتخلى عن مشروعه . وكانت جنوا قد أرسلت أسطولا لنجدة مستعمراتها ، فلما وصل الأسطول كان الأمر قد انتهى ، ومع ذلك أرادت جنوا أن تجرى أعمالا ثأرية ، فخربت جزر ناكسوس واندروس ويوبية ، ثم استولت على قلعة كاريستوس ، واستردت مفاتيحها وسلمتها لجزيرة خيوس (١٦٠) . وهكذا عانى الشرق الأدنى من عواقب تنافس الجمهوريتين تحت أنظار العدو المشترك الذى كان تهديده لهما يشتد يوما بعد يوم ، واقترب الوقت الذى سوف ينقض فيه بقوة على جزر الأرخبيل .

الآن وقد عرفنا وضع أكبر أمتين تجاريتين غربيتين في بلاد الروم ، فلننظر فيما صارت اليه القوى من الدرجة الثانية والثالثة في الأهمية . ففى أواسط القرن الرابع عشر ، نشر القطالونيون قوات عسكرية كبيرة في المياه اليونانية ، ولعله قد تبادر الى الأذهان في وقت ما أنهم سوف يكتسبون هناك وضعا مماثلا لوضع البنادقة والجنويين ، ولكن ما بذلوه من جهد كان فوق ما تتحمله امكانياتهم . وفي القرن الخامس عشر لم يبق لهم شيء من قواتهم هذه ، الا أنهم تركوا خلفهم شراذم من القراصنة راحوا يعبثون فسادا في مياه البحر المتوسط والأرخبيل (١٦١) . وكان هؤلاء القراصنة يتجمعون أحيانا فيشكلون أساطيل صغيرة تغير على جزر المنطقة ، ومنها على سبيل المثال جزيرة خيوس (١٦٢) . ومع ذلك كان لدولة قطالونيا ممثلون آخرون في الشرق الأدنى ، وكانت السفن التجارية كثيرا ما تأتى من برشلونة فتزور موانيء الأرخبيل والدردنيل . ولقد سبق أن رأينا أن ملوك أراجون عملوا منذ زمن بعيد على الحصول من الأباطرة من أسرة باليولوجوس على ضمانات لحسن الاستقبال ، ومزايا تجارية لرعايا أراجون في القسطنطينية . ومنذ عام خفضت الرسوم الجمركية الى ٣٪ بالنسبة لهم . وفي عهد يوحنا السادس أراد بعض الموظفين اليونانيين أن يحصلوا على ٤٪ ، ولكن سلطات برشلونة (١٦٣) طالبت باعادة تثبيت الرسم بسعر ٣٪ ، وهو الذى فرضته المعاهدات (١٤٤٨) . وكثيرا ما كانت الحكومة اليونانية تعتقل تجارا قطالونيين

---

(١٦٠) لمزيد من التفاصيل انظر :
Hopf, op. cit.1, p. 323 et s.; Les Miscell di storia patria, VI, 545 et ss.

(١٦١) Voy. p. ex. Duc., p. 332, 338; Chalcoc., p. 519 et s.

(١٦٢) Stella, a. a. 1411, p. 1238-1240.

(١٦٣) Lettre du 24 mai 1448 Capmany, Mem., II, 272 et s., p. 266.
كان تخفيض الرسوم سابقا على المفاوضات التى جرت بين العاملين اللذين كانا يحكمان وقتئذ (عام ١٢٩٠) .

أو تصادر بضائعهم بحجة أن واحدا من مواطنيهم قد فر دون أن يسدد ديونه ، فكانت سلطات برشلونة تحتج على هـذا الاسلوب فى عقـاب الأبرياء عوضا عن المذنبين • ولسنا نعرف ما أسفرت عنه هذه الاحتجاجات، على أنه لم يكن فى القسطنطينية سوى تجار قطالونيين يمرون بها مرورا عابرا ، فلا يقيمون بها الا الوقت الضرورى جدا لانجاز أعمالهم (١٦٤) • وتسجل المصادر وجود تجار من هذه الأمة فى مستعمرات لهم (١٦٥) ، يدبر شئونهم قناصل يحصلون بصفة كوتيمو Cotimo (حسب تعبير الايطاليين) رسما قدره ١٪ عن السلع التى يستوردها مواطنوهم • وكان لهؤلاء القناصل سلطة عليا على الصقليين المقيمين بالقسطنطينية • ويوجد — حسب خطابات اعتمـاد lettres de provision ، ووثائق تاريخية أخرى — قناصل قطالونيون فى القسطنطينية فى السـنوات ١٤٢٨ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٧ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٨ ، ١٤٥٣ (١٦٦) • ولايمكننا أن نثبت الشيء نفسه بالنسبة الى بيرا ، لأنه لا يوجد بخصوص هذه المدينة سوى خطاب اعتماد واحد فى عام ١٣٨٣ (١٦٧) • بل يبدو أن قنصلية بيرا قد ألغيت بعد ذلك وضمت الى قنصلية القسطنطينية • وكان من اختصاص القنصلية الأخيرة أولا الاقليم الصغير الذى لم يزل من أملاك الامبراطور اليونانى ، ثم الامارات التى يحكمها طغاة المورة • ومع ذلك فثمة جزء من شبه الجزيرة كان خارج ولايتها القضائية ، لأن بلدة مودون كان لها قنصل قطالونى خاص • وكان الأمر كذلك بالنسبة الى كانديا (١٦٨) • وكان القطالونيون يتاجرون أيضـا فى جزيرة رودس ، ولذا نجد تجارا من برشلونة قد استقروا بها (١٦٩) لا لمزاولة التجارة ، وانما غالبا للاشتراك فى الحركات الأساسية التى جرت بين مركز هيئة فرسان القديس يوحنا وبين السلطات الاقطاعية التابعين لقضائها فى اسبانيا • وكان هذا هو السبب نفسه الذى جذب فى عصر سـابق بعض أصحاب المصارف من فلورنسا ومونبيلييه وناربون •

وفى العصر الذى ندرسه ، لم يعد ثمة ذكر للبروفنسيين فى منطقة

---

(١٦٤) Capmany, II, 247.

(١٦٥) Zhishman, Die Unionsverhandlungen Zwichen der orientalischen und römischen Kirche, p. 118.

(١٦٦) Capmany, II, 218, 231 266, 278 ; append., 61, 66 et s. ; Doc. sulle relaz. tosc., p. 169-172 (logia, curia consulatus) ; Leon. Chiensis, dans les Atti della Soc. lig., XIII, 246, 256 ; Phrantzés, p. 252 et s., 293., p. 238.

(١٦٧) Capmany, II, 168.

(١٦٨) Ibid. II, 232 et s. ; app., p. 50-60, 77 et s.

(١٦٩) Ibid. II. 278 ; IV, app., p. 5.

الأرخبيل وبنطس كلها . وحتى فى القسطنطينية وبيرا ، قلما نجد أثرا لهم ، من وقت لآخر (١٧٠) . ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف بالنسبة لمدينتين واقعتين احداهما فى مواجهة الأخرى ، على ضفتى البحر الأدرياتى ، هما أنكونا ، وراجوزة : وتذكرهما المصادر فى الفترات الأخيرة من العصر الوسيط ، وهما تمارسان بنوع خاص تجارة نشيطة جدا مع البلاد التابعة للروم والعثمانيين . فقد كان لأنكونا على الدوام مستعمرة تجارية فى القسطنطينية ، وكانت تجدد قناصلها كل ثلاثة أعوام ، وعند اختيارهم تأخذ فى اعتبارها أحيانا من يفضلهم الامبراطور اليونانى ، ولم يمنعها ذلك من ايفاد مبعوثين خصوصيين (١٣٨٠ ، ١٣٩٢) للدفاع بهمة عن مواطنيهم ، والعمل على الغاء الاجراءات الضارة بتجارتهم (١٧١) . وكان ملاحـــوها يجوبون دوما المينــــاه اليونانيـــة : فلتشيرياكو بيتزيكولى Ciriaco Pizzicolle الذى زار بيرا مرارا ، أولا كتاجر ، ثم كعالم أثرى لم يكن يسافر الا على متن سفن أنكونية . ونجد هنا مثالا لتأثير دراسة الآداب القديمة على التجار المثقفين ، فاقامتهم الطويلة فى الأماكن التقليدية لبلاد الاغريق القديمة كانت تنمى فى نفوسهم حب البحوث الأثرية . وقد جاب بيتزيكولى كل أنحاء اليونان والأرخبيل وســواحل آسيا الصغرى لاكتشاف آثار العصور القديمة وتسجيل الكتابات والنقوش والعملات كلها الخ ، وساعده كثيرا فى أبحاثه الجنويون الكثيرون المقيمون فى الشرق الأدنى (١٧٢) .

ولنعد الى موضوعنا حيث يبقى علينا أن نتعرف على الأنكونيين من وجهة أخرى فقد كانت أنكونا تطمح فى منافسة القوة التجارية الكبرى فى البحر الأدرياتى ، ولكنها هبطت بسبب ضعفها الى مرتبة ثانوية ، ومن ثم وثقت علاقتها بأعداء البندقية . ونفهم من ذلك أنها كانت ملزمة ، أسوة بجنوا — أن تبدى للأتراك آيات الصداقة ، فزودهم البحارة الأنكونيون بالأسلحة الحربية المهربة ، وبلغت هذه التجارة حجما كبيرا حتى أعلنت حكومة البندقية فى سبتمبر ١٤٣٠ أنها سوف تضطر الى اعتبار كل سفينة

---

(١٧٠) مع ذلك كان فى ميناء القسطنطينية وقت استيلاء الاتراك على المدينة سفينة بروفنسية . انظر : Phrantzès, p. 238.

(١٧١) Makuscev, Monum. hist. Slav. merid., 1, 161-163.
— يبدو بوجه عام ان انكونا كانت راضية من المعاملة الطيبة التى يلقاها مواطنوها فى القسطنطينية ، وكان ذلك باعثا على تنظيم استقبال رسمى فى المدينة عام ١٤٣٠ احتفالا بمرور جزء من الخطابات التى كتبها فى غضون رحلاته ، نشرها : Ibid., p, 162 et s.

(١٧٢) نشر جزء من الخطابات التى كتبها فى غضون رحلاته ، نشرها :
— M. Mehus dans l'Itinerarium Cyriaci Anconitani et par M. Targioni Tozzetti dans les Relazioni d'alcuni viaggi fatti nella Toscana, V, 408 et ss.

انكونية تحاول عبور الدردنيل عدوا لها وتعاملها على هذا الأساس (١٧٣) ٠ وفى الآونة التى أعلنت فيها البندقية عن عزمها هذا كانت فى حرب مع مراد الثانى ، وكان أسطول بندقى متأهبا أمام جاليبولى : ولا نعرف ما اذا كان هذا التهديد قد أعقبه تنفيذ ما ، ولكن ليس هذا هو ما يهمنا ، اذ يكفينا أن نعرف أن البندقية قد تبينت الصداقة القائمة بين الأنكونيين والترك ٠ وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن يلقى التجار الأنكونيون كل ترحيب فى الأقاليم التركية ، وحتى ولو لم يجلبوا معهم معدات حربية ، وتتفتح لهم الكثير من الأسواق التى كانت مغلقة فى وجه غيرهم ٠

أما عن راجـوزة ، فان تجارهـــا لم يقتصروا على مزاولة التجـارة البحرية ٠ فمنذ العصر الذى اهتممنا فيه بأمرهم ، كانوا قد ضـاعفوا رحـلاتهم وصـــلاتهم بالطرق البرية التى تعبر شبه جزيرة هيمـوس Hémus واعتادوا عقد معاهدات مع الأمراء السلاف (الصقالبة) ، ولم يفتهم أبدا أن يجددوا هذه المعاهدات (١٧٤) ، حين كانوا يجدون مصلحتهم فى ذلك ٠ ومن جهة العثمانيين الذين كانوا كل يوم يغيرون على اقليم الصقالبة ، فانهم تركوا تجار راجوزة يجتازون الحدود دون أية صعوبة ٠ كان الباعث على هذا التساهل هو أن حكومة راجوزة كانت تنتهز كل فرصة لتعزز علاقتها الودية مع بلاط أندرينوبل ٠ وبهذا الصدد كان يسعدها ألا ترى كونتا بندقيـا يحكمها ، فلا تلتزم بأن تجعل سياستها متمشية مع سياسة البندقية ٠ وتغيرت الحالة فى عام ١٣٥٨ ، وكانت البندقية آنئذ قد تنازلت عن راجوزة لملك هنغاريا الذى ترك لها حرية التصرف بلا حدود تقريبا ٠ وأتاح لها هذا الوضع أن تتجنب النزاع مع السلاطين ، وأن تجعلهم دواما على علاقة طيبة معها ، بايفاد سفارات اليهم ، وتقديم هدايا لهم فى الأوقات المناسبة ٠ والحقيقة أنها اضطرت مرارا لأن ترفع قيمة الجزية التى تدفعها لهم ، ولكن هذه التضحية كان يعوضها كثيرا الأرباح التى تحصل عليها من التجارة ٠ وفى الفترة التى ندرسها ، ذكرت « حوليات راجوزة » مختلف المعاهدات ، أو تجديدات المزايا القديمة التى منحها السلاطين لراجوزة (١٧٥) ٠ وقد نشر السـيد ميكلوسيش Miklosich ترجمة باللغة الصربية لاثنتين من هذه الوثائق ، موقعا عليهما بامضاء مراد الثانى فى عامى ١٤٣٠ ، ١٤٤٢ (١٧٦) ٠

ولم تمنع هـــذه الصـــداقة مع الأتراك تجار راجوزة من زيارة

---

(١٧٣) Makuscev, l.c., p. 168 et s.

(١٧٤) Miklosich, Mon. Serb, passim.

(١٧٥) Luccari, l.c., p. 82, 88, 95, 96.

(١٧٦) Manum, serb., p. 362 et s, 409 et s.

القسطنطينية التى كانت ولاتزال فى أيدى اليونانيين ، وزيارة المورة التى سبق أن طرد الفرنجة منها ، وبقيت فيها الامارات فى أيدى الطغاة من السلالة اليونانية • وكانت حكومة وطنهم الأصلى تقيم فى كل الأنحاء علاقات تفتح لهم الطرق •

وفى عام ١٤٥١ ، أى قبل سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك ، وقبل فتحهم المورة بتسع سنوات تلقى من يدعى فولزو بوبالى Volzo Boboli من حكومته تكليفا بأن يمضى لزيارة أمراء أسرة باليولوجوس كلهم على التوالى ، وكانوا لايزالون واضعين أيديهم على أملاكهم التى توارثوها • وفى شهر يونية كان بوبالى فى القسطنطينية فى بلاط الامبراطور قسطنطين دراجازيس الحادى عشر • وفى شهرى يولية واغسطس زار الطاغيتين توماس ، وديمتريوس أخوى الامبراطور ، ومقر الأول منهما كلارنزا Clarenza ويحكم القسم الغربى من المورة ، ومقر الثانى ميزيثرا Misithra ويحكم القسم الشرقى من شبه الجزيرة (أخايا Achaïa) وعرض بوبالى على الامبراطور رغبة أهالى راجوزة فى اقامة قنصل بالقسطنطينية ، والحصول على قطعة أرض ليبنوا عليها سكنا للقنصل وكنيسة ، ونال ما طلبه • وكذلك أذن الامبراطور لمواطنى راجوزة بالاقامة فى عاصمته دون تحديد لعددهم ، وحدد لهم الرسوم الجمركية بسعر ٢٪ للاستيراد والتصدير • وقرر أيضا أنه فى حالة المطالبة بسداد الديون ، فعلى الرعايا اليونانيين الذين يشتكون من رعايا راجوزة أن يقدموا شكواهم لقنصل هذه المدينة ، وبالعكس ، على تجار راجوزة أن يطلبوا حضور الرعايا اليونانيين أمام المحاكم الوطنية • وفى الحالة التى يرحل فيها أحد رعايا راجوزة دون أن يكون قد سدد ديونه ، تلتزم الحكومة اليونانية — بدلا من مطالبة أحد مواطنيه الأبرياء بسداد الديون ، واعتباره مسئولا عن ذلك — بأن تبعث بطلب رسمى بهذا الخصوص الى حكومة راجوزة التى عليها ، من جانبها ، أن تجبر المذنب على سداد ديونه (١٧٧) •

وكان نص التنازلات التى منحها الطاغية توماس لتجار راجوزة مدونا بعبارات متماثلة ، بل أحيانا متطابقة : وتنطبق على الذين يكتفون بزيارة الأماكن التجارية فى اقليمه ، وكذا الذين يرغبون الاقامة فى الاقليم ، وهؤلاء يدير شئونهم قناصل ينتخبونهم انتخابا حرا • والفرق الوحيد هو أن الأمير لا يقتضى رسم ال ٢٪ الا من البيوع بالتجزئة ، أما بالنسبة

---

(١٧٧) Taf. et Thom., Griech. Orig. Urk. Zur Gesch. des Freistaats Ragusa, dans les Sitzungsberichte der Wiener Akad., philos. hist. cl. VI 1851), 529-531 ; Miklosich et Muller, Acta graeca III, 222-220. 228-230.

للبيوع بالجملة فيكتفى برسم قدره ١½٪ (١٧٨) • أما ديمتريوس فكان أكثر كرما ، اذ منحهم اعفـــاء تاما من الرســـوم الجمركية والضرائب المحلية (١٧٩) •

ويكفى القاء نظرة سريعة على الخريطة لندرك أن المورة كانت من أوائل البلاد التى زارتهـــا بحرية راجوزة التجارة ، فهذى مســألة جوار • وبالاجمال ، كانت المعاهدات التى تحدثنا عنها منذ هنيهة دليلا فقط على عـودة العلاقات القديمة • ومنذ القرن الرابع عشر كان تجار راجـوزة يستوردون الى أنكونا حرير كلارنزا أو مجاوراتها ، وحرائر المورة (١٨٠) • وفى الوثيقة التى نقلنا منها هذه المعلومة ، نجد أيضا ذكرا للتوابل والسكر والحرير الواردة من بلاد التتار Tatarie وجزاريا Gazarie (القرم) : وفى هـــذا فكرة عظيمة عن علاقات راجوزة التجارية ، تثبت لنا أن هـــذه العلاقات كانت ممتدة الى ما وراء البلاد التى تحدثنا عنها من قبل •

واذا كانت كل الأمم التجارية التى ذكرناها على علاقات تجارية منذ عهد بعيد مع الأقاليم الواقعة فى شبه جزيرة هيموس فانه • يبقى علينا أن نتحدث عن قادم جديد ، الا وهو « فلورنسا » حيث ينبئنا بيجولوتى أن أهالى فلورنسا كانوا يتمتعون فى زمانه بتخفيض فى الرسوم الجمركية فى الامبراطورية البيزنطية ، مما يؤكد وجود معاملات سابقة بين الدولتين • فاذا كان تجار فلورنسا يتوغلون فى أقصى بقاع الشرق ، ومعهم منتجاتهم الصناعية ، وبخاصة المنسوجات الصوفية ، فانه من الطبيعى أن توجد هذه المنتجات فى القسطنطينية (١٨١) ، والمورة ، وجزر اليونان • ولكن فلورنسا واقعة فى قلب ايطاليا ، ولا يمتد اقليمهـــا الى البحر ، ولكى تصدر منتجاتهـــا الى الشرق الأدنى كانت مضطرة لأن تلجأ الى موانىء أجنبية بعيدة ، مثل جنوا ، وأنكونا ، والبندقية • فقد ذكر توماســو موتشينجو Tammaso Mecenigo دوج البندقية فى أواخر أيامـــه فى خطبة مشهورة وجهها الى كبـــار الموظفين المجتمعين حـــول فراش موته (١٤٢٣) ، وهو يفكر فى ثروات وطنه الهائلة : « تعلمون أن الفلورنسيين يرسلون الينا كل سنة ستة عشر ألف قطعة من الجوخ ، نبيعها فى بلاد

---

(١٧٨) Taf. et Thom., Griech. Orig. Urk., lc., p. 531-533 ; Mikl et Muller, l.c., p. 230-232.

(١٧٩) Taf. et Thom., Griech. Orig. Urk., l.c., p. 533-535 ; Mikl. et Muller, l.c., III, 232-234.

(١٨٠) هذه المعلومة مأخوذة من معاهدة بتاريخ ٢٢ اكتوبر ١٣٧٢ بين راجوزة وأنكونا ، نشرها •

— Makuscev, l.c., p. 111 et ss.

(١٨١) Pegolotti, 6p. 20).

البربر (شمال أفريقيا) ، ومصر ، وسوريا ، وقبرص ، وبلاد الروم ، وكاتلديا ، والمورة ، واستريا (يوغسلافيا) ، ويسلمون لنا فضلا عن ذلك سلعا من كل نوع ، تصل قيمتها الى ٧٠٠٠٠ دوكا كل شهر ، أى ٨٤٠٠٠٠ دوكا فى السنة ، ويشترون منا فى مقابل ذلك أصوافا من فرنسا ، وقطالونيا ، وجوخا قرمزيا ، وأصوافا مندوفة ، وحريرا ، وخيوطا حريرية وفضية ، وأحجارا كريمة (١٨٢) . غير أن الفلورنسيين لم يكونوا دائما مضطرين للمضى بعيدا الى هذا الحد بحثا عن ميناء التصدير : فقد كان بالقرب منهم ، فى تسكانيا نفسها ، ميناء بيزا ، تحت تصرفهم . ومنذ زمن قديم ، كانوا يصدرون عن هذا الطريق جزءا من سلعهم . وثمة معاهدات أبرمت فى عامى ١٢٥٤ ، ١٢٥٦ كفلت لهم مرور بضائعهم عبر مدينة بيزا ، معفاة من الرسوم الجمركية ، وذلك بالنسبة للسلع المرسلة الى هذا الميناء (١٨٣) . ولو لم يضطرب الوفاق بين المدينتين ، لما فكر الفلورنسيون بالمرة فى أن يحولوا تجارتهم عن ميناء بيزا ، ويعهدوا ببضائعهم الى بحارة من غير البيزيين . الا أن النزاع بين الجولفيين والجبليين ، ذلك الذى أدى الى انقسام ايطاليا كلها ، جعل من فلورنسا وبيزا عدوتين لدودتين . وبقى ميناء بيزا فترات طويلة مغلقا فى وجه الفلورنسيين : فأحيانا كانت البحرية البيزية ترفض أن تقدم لهم خدماتها ، وأحيانا كان يبدو للفلورنسيين أنه من غير الصواب أن يلتمسوا خدمات البحرية البيزية . ولكى يخرجوا من هذا المأزق جربوا أن يستأجروا سفنا فرنسية كان قباطنها يأتون لاستلام بضائعهم من مراسى موترون Motione وبييترازنتا Pictrasanta (١٨٤) ، الا أن هذين المرسيين لم يكونا آمنين بدرجة كافية . عندئذ تحولت أنظارهم صوب ميناء فسيح يتمتع بحماية جيدة ، ذلك هو تالاموني Talamone الواقع على بعد ثمانية أميال تقريبا شمالى رعن مونتى أرجنتارو Monte Argentaro فى اقليم سيينا Sienna (الرعن ، انف جبل ، شاخص وداخل فى البحر — المترجم) ، وكان هذا من حسن حظ هذه المدينة (سيينا) بصورة غير متوقعة ، فشرعت بحمية فى تحسين الميناء والطريق المؤدى اليه . وفى عام ١٣١١ ، طلب بالدوتشى بيجولوتى Balducci Pegolotti المعروف من حكومة سيينا تصريحا لمواطنيه بان يذهبوا ببضائعهم الى هذا الميناء ، بطريق البر والبحر (١٨٥) ، فأجيب الى طلبه . وتجددت

---

(١٨٢) Romanin, IV, 94 et s.

(١٨٣) Ammirato, Stor. fior., II, 191, 107.
— رسم الدخول (رسم الجمرك) المذكور لم يطبق الا على السلع المستوردة . .

(١٨٤) Reumont, Lorenzo dé Medici, I, 94.

(١٨٥) Archiv, stor. ital., 3e série, XII, 2 part, p. 72-74.

المعاهدة فى عام ١٣٥٦ • وعندما أريد انتهاك هذا الامتياز (فى عامى ١٣٢١ ، ١٣٤٣) فى ميناء بيزا ، رد الفلورنسيون على ذلك وفى أيديهم هذه الوثيقة (المعاهدة) ، فتركوا الميناء وحولوا مخازنهم الى تالامونى وترتب على ذلك فى كل مرة نكبة تحل بمدينة بيزا ، ذلك لأن فلورنسا كانت من جهة تصدر بالفعل بضائع أكثر مما تصدره بيزا نفسها ، ومن ثم تفقد بيزا وميناؤها للحال موردا لمكاسب أكيدة ، ومن جهة أخرى كان هناك تجار من جنسيات أخرى يقتدون بالفلورنسيين ، ويستفيد من ذلك ميناء تلامونى • فاستشاط البيزيون غيظا ، وأرادوا منع السفن التجارية من دخول الميناء والخروج منه ، ولكن الفلورنسيين وأهالى سيينا احتاطوا لذلك ، فاستخدموا سفنا حربية بروفنسية وجنوية • وهزمت السفن البروفنسية سفن بيزا قبالة تلامونى ، كما حطمت السفن الجنوية سلسلة ميناء بيزا • ومع ذلك انتهى العداء بالتصالح فى عام ١٣٦٤ • وفى عام ١٣٦٩ تولى رئاسة حكومة بيزا رجل يكن لفلورنسا مشاعر الود والصداقة ، وهو بييترو دى جامباكورتى Pictro dé Gambacorti • وكان من أوائل أعماله أن أعاد الى الفلورنسيين امتيازاتهم القديمة • ولما كان ميناء تلامونى غير ملائم بالنسبة الى بعده ، ومضر بالصحة بسبب الملاريا ، فان هذه الحال ، بالاضافة الى استعادة الفلورنسيين امتيازاتهم ؛ حملتهم على هجرة تلامونى نهائيا ، وعاد ميناء بيزا مرفأهم للتصدير (١٨٦) •

ومع ذلك اشتدت رغبة الفلورنسيين فى أن يكون لهم ميناء خاص بهم • فأين يجدون مثل هذا الميناء ؟ عند مصب نهر ارنو ، طبعا • ولكن كان لابد لهم لذلك من اخضاع بيزا التى فقدت عظمتها السابقة ، وخضعت منذ عام ١٣٩٩ لآل فيسكونتى Visconti ، وهم أجانب • ولم يكن غزو بيزا بالأمر العسير ، ولا يحتاج الى قوات كبيرة ، لأن سادة المدينة أنفسهم باعوها ، وسلموها بالخيانة • وفى ٩ من أكتوبر عام ١٤٠٦ دخل الفلورنسيون المدينة • ولسوء الحظ ، بالنسبة الى باقى الاقليم ، أى الجزء الذى يهمهم بالأكثر كان المرشال دوبوسيكو Boucicaut حاكم جنوا الفرنسى قد سبق فوضع يده على ميناء بيزا ، وليفورن Livourne (ليفورنو بالايطالية) ، وكان على الفلورنسيين أن ينتظروا ست عشرة سنة قبل أن يجدوا الفرصة المناسبة • وحانت هذه الفرصة أخيرا : فقد كان تومازو دا كامبوفريجوزو Tommaso da Campofregoso ، دوج جنوا فى حاجة ملحة للمال لمواجهة أعدائه ، فعرض عليه الفلورنسيون المال اللازم له ان تنازل لهم عن الميناءين • وفى ٢٧ من يونية ١٤٢١ اتفق

(١٨٦) Capponi Storia della republica di Firenze, I, 265-274 : Pagnini, Della decima, II, 22-26.

الطرفان على مبلغ مائة ألف ريال ذهبى ، وتم عقد الصفقة (١٨٧) . ثم بدأ ميناء بيزا القديم يمتلىء بالرمال ، وأوشك أن يعدو غير صالح لرسو السفن ، الا أن ذلك كان يقابله نمو ميناء ليفورنو ، جاره ووريثه المختار . وكان من شأن امتلاك الفلورنسيين هذا الميناء أن جعلهم فى وضع استغنوا به عن السفن الأجنبية(١٨٨) ، وأنشأوا بحرية خاصة بهم . وفى ٢٨ من نوفمبر ١٤٢١ عين موظفون جدد أطلق عليهم لقب « قنصل البحر » Consoli del maré ، وتشمل اختصاصاتهم انشاء ترسانة بحرية ، وتنظيم خدمة لطرادات تتولى حماية الميناء ، وبناء سفن تجارية كبيرة ، وتجهيزها بالمعدات والرجال . وثمة مراسيم متعاقبة (١٤٢٢ ، ١٤٢٣) خولتهم سلطات مطلقة ، لايفاد معتمدين سياسيين الى الاسكندرية والقسطنطينية من جهة ، بغرض تمهيد الطرق لخدمات ملاحية جديدة مقترحة ، من جهة ، ومن جهة أخرى لتعيين قناصل مكلفين بالسهر على مصالح مواطنيهم فيما وراء البحار (وذكر بالاسم فى المرسوم مناصب قناصل الاسكندرية وجزر البليار (١٨٩) . وكان هناك بالفعل مستوطنات تجارية فى أغلب المحطات المهمة فى الشرق ، فلم يكن مطلوبا انشاء مستوطنات بها . وأتاحت امكانية توثيق علاقات مباشرة مع المنافذ التجارية لفلورنسا مزيدا من الثروات والرخاء . وهناك حقيقة من نوع آخر اسهمت أيضا فى هذا الرخاء : فعندما ضمت فلورنسا اليها جمهورية بيزا ، فانها حلت بذلك محلها ، وأصبحت وريثتها الشرعية ، وصار لها بهذه الصفة الحق فى المطالبة بكل الممتلكات والحقوق التى كانت لتابعتها هذه فى الشرق الأدنى . ولم تتوان فى هذه المطالبة : ففى عام ١٤١٦ قدمت التماسا لمانويل عن طريق بورجوازى فلورنسى يدعى بتينو بارتولى Bettino Bartoli يقيم فى القسطنطينية ، طلبت فيه من الامبراطور أن يتكرم فيصرح لها بأن تضع يدها على الكنيسة والرواق الخارجى اللذين سبق التنازل عنهما لبيزا ، ويتفضل بنقل الامتيازات القديمة اليهم ، وتعهدت من جانبها بترميم المبانى التى أهملتها المستوطنة البيزية حتى صارت خرائب ، وأن يبعث فى تجارتها مع القسطنطينية نشاطا وحيوية لم تعرفهما حتى ذلك الحين (١٩٠) . ولا يبدو أن المفاوضات قد انتهت الى نتيجة فى حياة مانويل . ولما تباطأ تنظيم مرفق بحرى ، فان فلورنسا

---

(١٨٧) Canale, Storia di Genova, IV, 145, 178 et s. ; Pagnini, l.c., p. 30.

(١٨٨) Bened Dei (p. 275).

– ينسب Bened Dei الى هذا الطرف كراهية البنادقة للفلورنسيين .

(١٨٩) Doc. sulle relaz. tosc., p. 279-283.

(١٩٠) Doc. sulle relaz, tosc. p. 149 et s.

لم تستحث الأعمال الا باعتدال شديد • وفى عام ١٤٢٩ كلفت سفينة تجارية كبيرة لتقوم بأول رحلة الى القسطنطينية ، وصدر الأمر لربابنتها أن يتخذوا اجراءاتهم لاتمام الرحلة مرتين على الأقل فى غضون ثمانية عشر شهرا (١٩١) • ولم يتم افتتاح خدمة بحرية منتظمة بالفعل الا فى عام ١٤٣٦ • ففى هذا التاريخ أقلعت عدة سفن محملة بالبضائع متجهة الى القسطنطينية ، وعلى متنهـــا بعض التجار • وفى خطابات التوصـــية للامبراطور ، والتى سلمت لهؤلاء التجار من قبل السلطات الفلورنسية ، ذكرت هـــذه البعثة على أنهـــا الأولى التى ســافرت من فلورنســا الى القسطنطينية (١٩٢) • وبهذه المناسبة طالبت الجمهورية الامبراطور من جديد أن يتكرم بمنحها مزايا مماثلة لتلك التى يتمتع بها تجار الأمم الأخرى ، وجرت فى عام ١٤٣٠ مفاوضـــات فى هذا الخصوص مع وفد يونانى (١٩٣) • ولكن الامبراطور تمنع ، ولم يمنح ما طلب منه الا بمناسبة انعقاد المجمع الدينى فى فلورنسا للعمل على الجمع بين الكنيستين اليونانية والرومانية • والمعروف أن الحكومة الفلورنسية بذلت جهودا مضاعفة لنقل المجمع الى داخل المدينة • ولما كانت رغبة الامبراطور أن يحضر اجتماعات المجمع ، فقد وضـــعت الحـكومة تحت تصرفه سفينتين لاحضـــاره مع الشخصيات الكنسية الكبيرة التى تصاحبه ، وعينت سفينتين أخريين للدفاع عن العاصمة فى غياب العاهل ، وعرضت مبلغا يتراوح بين ستين ألف ومائة ألف ريال لنفقات المجمع • ولما تم لها ما أرادت ، أعدت استقبالا رائعا لأعضاء المجمع ، وبخاصة الامبراطور يوحنا ، واليونانيين بوجـــه عام (١٩٤) • وعند رحيل الامبراطور فى شهر أغسطس ١٤٣٩ ترك قرارا ذهبيا — اعترافا بشكره — يتضمن مجموعة من الامتيازات منحها لتجارة فلورنسا (١٩٥) ، ويعطى الفلورنسيين حق الانتفاع بكنيســة القديس بطرس بالقسطنطينية ، وكانت حتى القرن الرابع عشر ملكا للبيزيين ، وكذا بدار بلديتهم القديمة ، مع الترخيص لهم برفع العلم الفلورنسى الى جوار العلم اليونانى ، وسمح لهم بشراء أو بناء ثلاثة بيوت لايواء التجار

---

(١٩١) Ibid., p. 283 et s.

(١٩٢) Ibid., p. 162 et s.

(١٩٣) Ibid. p. 156.

(١٩٤) M. Cecconi dans les Study storici sul concilio di Firenze ; les Doc. sulle relaz. tosc., p. 159 et ss.

(١٩٥) Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 200 et s. ; les Doc. sulle relaz. toc., p. 174 et ss. ; Pagnini, Della decima, II, 230 et ss.

— فى هذه المناسبة منح يوحنا بلدية فلورنسا الحق فى تعيين موثقين عقـود امبراطوريين : انظر • Miki et Muller, l.c., J. 195 et ss. ; Doc. sulle relaz. tosc. p. 172 et ss.

الذين يمرون هناك ، وزيادة هذا العدد اذا دعت الحاجة الى ذلك ، وأقر د• «قومون» فلورنسا بالحق فى أن يعين فى المستقبل قناصل يتولون فى القسطنطينية ادارة مستوطنة أمتهم هناك ، ويتمتعون بسلطات قضائية أسوة بسائر القناصل • وبقيت الرسوم الجمركية محددة بنسبة ٢٪ • فهذا المرسوم يحدد تاريخ انشاء مستوطنة فلورنسية فى القسطنطينية بصفة منتظمة ، وكان الفلورنسيون يعيشون حتى هذا التاريخ فى حمى السيادة القطالونية • واذ كانوا فى ١٥ من نوفمبر ١٤٣٧ فى حاجة الى أن يسجلوا في ساحة القضاء عقدا يظهرون فيه بصفتهم مشترين فى سوق كبيرة للشب ، كان مسجل القنصلية القطالونية الفلورنسية هو الذى تلقى العقد فى دار البلدية القطالونية (١٩٦) • كذلك فانه اعتبارا من تلك الآونة بدأت الخدمة البحرية بين فلورنسا وبلاد اليونان تتخذ مسارها المنتظم (١٩٧) • وثمة قرار أصدره « قنصل البحر » بتاريخ ٢٧ مارس ١٤٤٧ يحدد بالترتيب الآتى المواقع التى يتعين على السفن الرسو عندها على طريق القسطنطينية : مودون ، نجربونت ، جاليبولى ، ذهابا وعودة ، فضلا عن خيوس ، ورودس عند العودة (١٩٨) • وكان هناك عدد من التجار الفلورنسيين المقيمين بصفة دائمة فى رودس ، وكان الدفاع عن مصالحهم موضوعا لمكاتبات نشيطة بين حكومتهم وبين هيئة فرسان القديس يوحنا (١٩٩) • كذلك لم تكن التجارة مع جزيرة خيوس أمرا جديدا ، غير أنه لما كانت هذه الجزيرة مستعمرة جنوية ، وكان الفلورنسيون على علاقة أفضل بالبنادقة والقطالونيين ، فانه يبدو أنهم لم يجدوا فى هذه الجزيرة ترحيبا كافيا بهم ، والا كيف نفهم لماذا كان عليهم أن يدفعوا هناك ضرائب ، حتى على البضائع غير المبيعة ، فلذلك لم يكن متبعا معهم فى أية جهة أخرى (٢٠٠) • وعلى الرغم من هذا الاجحاف كانت خيوس ، مع رودس ومودون من المواقع التى ترسو عندها السفن الفلورنسية فى طريقها الى الاسكندرية وبيروت (٢٠١) •

وحين كان تنظيم خدمات ملاحية الى مصر وسوريا من جهة ، والى

---

(١٩٦) Doc. sulle relaz. tosc. p. 169-172.

(١٩٧) Ibid. p. 284- et s.

– يتعلق الموضوع بتنظيم رحلة لعام ١٤٤٤ •

(١٩٨) Doc. sulle relaz. tosc., p. 291 et s. ; cf. Amari, Dipl. arab., pp. p. 51.

(١٩٩) Doc. sulle relaz. tosc., p. 291 et s. ; cf. Amari, Dipl. arab., dans l'Archiv. stor. ital., 4e série, VIII, 164.

(٢٠٠) انظر مطالبات فى هذا الشان (١٤٣٠) فى :
les Doc. sulle relaz tosc., p. 155 et s :

(٢٠١) Amari, Lipl., arab., p. 442 : app., 62.

بـلاد اليونان من جهـة أخرى ، ولم يزل فى حيز البحث والنقاش فى فلورنسـا ، أوفد أمير من أصل فلورنسى ، هو أنطونيو اكتشـايولى ، دوق أثينا Antonia Acciaiouli ، المتحمس لرخاء بلده — فى بعثة الى مواطنيه شخصـا يدعى رينالدو ميتزولا Rinaldo Mezzola دعاهم لتنظيم حركة تجارية مع دوقيته • ورحبت الحكومة الفلورنسية بهذا العرض ، وكلفت تومازو الديروتى Tommaso Alderotti أن يبلغ شكرها للدوق ، على أن يترجم عطفه هذا باعفاءات للأشخاص ، وامتيازات للتجارة تعادل على الأقل الامتيازات التى يتمتع بها البنادقة والجنويون ، وعلى السفير أن يجعل هذه الرغبة واضحة (٢٠٢) • ولم يخب هذا الأمل : فقد صرح أنطونيو اكتشـايولى أن فى عزمه خفض الرسـوم الجمركية والضرائب الى نصف السـعر المعتـاد بالنسبة الى التجار الفلورنسيين ، وأن يعـاملهم مسـتقبلا على قدم المسـاواة مع البنـادقة والقطالونيين والجنويين (٢٠٣) • وكان على الديروتى أن يذهب من بلاط دوق اثينا الى بلاط كارلو الأول توكو Carlo 1er Tocco أمير كفالونيا Céphalonic وأمه من أسرة بوندلمـونتى Buondelmonti الفلورنسـية (٢٠٤) لأداء مهمة مماثلة • وكان هذا الأمير وقتئذ شخصية عظيمة : فقد ضم لامارته الجزيرية اقليم ابيروس مما أتاح له أن يتخذ لنفسه لقب « طاغية الرومان » ، وكان من جهة أخرى سيد كلارنزا Clarenza وأقاليم أخرى بالمورة • ولابد أن مهمة الديروتى كللت بالنجاح ، اذ كانت خطابات سيد فلورنسا الى كارلو مليئة بالشكر لآيات الود التى أبداها الأمير للسفير ، وللمزايا والمعونة التى قدمت لقباطنة السفن والتجار الفلورنسيين (٢٠٥) • ولكن سيادة فلورنسا ، مع اهتمامها بتوثيق أطيب العلاقات مع الأمراء من أصل فلورنسى ، لم يفتها أن تعتنى بكسب صداقة سادة المورة الطغاة من أرومة يونانية • وفى عام ١٤٤٦ تلقت مبعوثا من الطاغية قسطنطين الذى نجده بعد ذلك فى بيزنطة حيث كان آخر أباطرتها (٢٠٦) • وتقول الوثيقة التى استقينا منها هذه المعلومة ان هذا المبعوث قدم الكثير من

---

(٢٠٢) أمر فى ٢٢ يونية ١٤٢٢ ، وخطاب فى ٢٥ منه فى :
les Doc. sulle relaz. tosc., p. 152 et 3. ; Pagnini, Della decima, II, 226 et s.

(٢٠٣) Miklosich et Muller Acta graeca, III, 205 et ss. ; Doc. sulle relaz. tosc., p. 153.

(٢٠٤) Doc. sulle relaz. tosc. p. 152.

(٢٠٥) Doc. sulle relaz. tosc. p. 154 et s.

(٢٠٦) يقر السيد هوف :
M. Hopf art. Griechenland, op. cit., lxxxvi, 112.
ان هذا الطاغية dispotus ليس الا قسطنطين ، وهو رأى سديد •

الأنباء السارة ، من بينها دون شك أكثر من نبأ يتعلق بالتجارة (٢٠٧) .
وكان ديمتريوس Démetrius خليفة قسطنطين قد أقام بعض الوقت في فلورنسا في فترة انعقاد المجمع المسكوني ، واحتفظ هناك بأحسن الذكريات . وأتيحت له في عام ١٤٥٠ فرصة ايفاد عميل يدعى اثناس لاسكاريس Athanase Lascaris الى ايطاليا ، كلفه فيما كلفه من أشياء أخرى أن يتقدم لحكومة فلورنسا ، وينبئها بأنه اذا أراد تجار فلورنسا أن يعقدوا صفقات تجارية في بلاده ، فان سيده يعدهم بتخفيض الرسوم الجمركية بمقدار نصف السعر المعتاد ، والاعفاء التام من سائر الضرائب (٢٠٨) . وليس من الثابت أن فلورنسا أتيح لها الوقت للاستفادة من هذا العرض ، لأن كل ما تبقى من السيادة اليونانية في المورة قضى عليه الأتراك في عام ١٤٦٠ ، ووقع ديثريوس نفسه في الأسر واقتيد الى القسطنطينية .

غير أننا انسقنا الى ما بعد حدود هذا الفصل ، وآن الآوان للعودة الى تاريخ الامبراطورية اليونانية . حيث كان الامبراطور يوحنا يأمل ، باستثارته اتحاد الكنيستين الرومانية واليونانية أن يحصل على مساعدة الغرب ، ولكن لم يتحقق له ذلك فقد كان الغرب ممزقا بصراعات داخلية ، ولدى أمرائه ما يكفى من المشاغل والهموم في بلادهم (٢٠٩) ، ثم ان مشروعات الحرب الصليبية جعلتهم فاترين متخاذلين . وقد رأينا الى أى مدى صارت مسألة الامبراطورية اليونانية عديمة الأهمية في نظرهم ، حين بدأ السلطان الجديد محمد الثانى الذى خلف أباه مراد الثانى في شهر فبراير ١٤٥١ يعد عدته لغرض لا مجال للشك فيه ، ألا وهو فتح القسطنطينية . وأجاب محمد عن التهانى وآيات الولاء التى رفعها اليه بمناسبة ارتقائه العرش سفراء الأمراء المسيحيين في الشرق الأدنى ، نذكر منهم لسبوس وخيوس وغلطة (٢١٠) ، فقدم لهم وعودا وضمانات سلمية للغاية . وبناء على طلب لورنزو مورو Lorenzo Moro سفير البندقية (في ١٠ من سبتمبر ١٩٥١) جدد محمد الثانى

---

(٢٠٧) Doc. sulle relaz. tosc.. p. 178.

(٢٠٨) Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 205 et s. ; Doc. sulle relaz. tosc., p. 177 et s.

— لم يضع ديمتريوس يده على ولايته في المورة الا في سبتمبر ١٤٤٩ ، وجرت مهمة لاسكاريس في ايطاليا في عام ١٤٥٠ ، انظر : Hopf, oj. cit., p. 112, 116.

(٢٠٩) من هذه الناحية ، يبدو أن فيليب « الطيب » دوق برجنديا هو الاستثناء الوحيد ، انظر في ذلك :

de Barante, Hist. des dusc de Bourgogne, avec notes par Gachard (Brux. 1838), II, 117,

(٢١٠) Doc, p. 233.

المعاهدات التى أبرمتها الجمهورية مع أسلافه ، واقر بنوع خاص بندا من بنود هذه المعاهدات ، يتعلق باعفاء دوق ناكسوس من جميع الضرائب والجزى (٢١١) . ومع ذلك فانه ما لبث أن خلع عن وجهه القناع وكشف عن مشروعاته حيال القسطنطينية . والمعروف أن أول عمل قام به فى هذا السبيل هو بناء حصن « روميلى حصارى » Roumili Hissari على الضفة الأوروبية للبسفور ، وذلك فى صيف عام ١٤٥٢ (٢١٢) ، وأصدر أمره الى قائد الحصن بأن يوقف كل السفن التى تمر أمامه ، سواء كانت آتيـة من جنوا أو البندقيـة أو القسطنطينية أو كافا أو طربزون أميسوس ، أو سينوب ، وأن يقتضى منها اتاوات ، فان رفضت فعليه أن يطلق عليها المدافع ويغرقها (٢١٣) . ولنا أن نتصور ما كان لهذا الاجراء من ضرر يحيق بالتجارة الايطالية . ويحكى أن ثلاثة من القباطنة البنادقة كانوا عائدين من البحر الأسود ، فمروا على مرأى من روميلى حصـارى فى شهرى نوفمبر وديسمبر ١٤٥٢ ، ورفض الثلاثة الاستجابة لانذار الأتراك : واستطاع اثنان منهم خداع العدو والهرب دون أية خسائر ، ولكن الثالث ، واسمه أنطونيو ريزو Antonia Rizzo كان سىء الحظ ، فغرقت سفينته ، وحكم عليه بالاعدام « بالخازوق » وضربت أعناق معظم بحارته . وسارع البايل البندقى فى القسطنطينية جيرولامو مينوتو Girolamo Minotto بارسال مندوب الى السلطان لمحاولة انقاذ حياتهم ، ولكنه وصل متأخرا (٢١٤) . وكان هناك فى مواجهة روميلى حصـارى حصن « أناضـولى حصـارى » الذى شيده من قبل « بايزيد » (٢١٥) : فكان فى مقدور محمد بسيطرته على هذين الموقعين أن يغلق حسب مشيئته كل اتصال بين القسطنطينية والبحر الأسود ، أى تجويع أهالى القسطنطينية . وبعد أن أتم كل هذه الاستعدادات شرع فى حصار المدينة فى ٦ من أبريل ١٤٥٣ . وكانت جنوا والبندقية على علم تام بمدى ارتباط مصالحهما بالأحداث الوشيكة . وكانت القسطنطينية وضواحيها قد أصبحت وطنا ثانيا لمئات من مواطنى الجمهوريتين ، وكان

---

(٢١١) Romanin, IV, 245 ; Sanuto, Vite, p. 1154-1155.
ـ أضيف هذا البند الى معاهدة الصلح لعام ١٤٥٤ .

(٢١٢) Ducas, p. 237 et ss. ; Phrantzès, p. 233 et s.s. ; Chalcoc., p. 283 ; Critobulos., dan Muller, Fragman. hist. grac., V, 1, p. 58 et s. ; Nic. Brabaro, Giornale dell' assedio di Constantinopoli, éd. Cornet (Vienne, 1856), p. 1. ; Atti della Soc. lig., XIII, 222.

(٢١٣) Ducas, p. 346.

(٢١٤) Barbaro, l.c., p. 2, 3, 5 ; Duc., p. 248 ; Zorzi Dolfin, éd. Thomas (Münchn. Sitzungsber., 1868, II, 1), p. 8 et s.

(٢١٥) Hammer, Geschichte des osmanischen Reichs, I, 235.

لكل منهما بها أملاك عامة وخاصة تعتمد بمبالغ طائلة ، وكان سقوط القسطنطينية يعنى قطع الاتصالات مع مستوطنات بنطس ، أى ضياع هذه المستوطنات . ولذلك بذل قسطنطين دراجازيس Constantin Dragazès كل ما فى وسعه لكى يحافظ على نوايا البنادقة الطيبة حياله . فمن ذلك أنه الغى كل الضرائب المفروضة حتى ذلك الحين على تجارة الوسطاء ونجار الرقيق البنادقة ، ومنح البنادقة حق تصدير الأنبذة معفاة من الرسوم والضرائب ، الخ (٢١٦) . وحين أوفد سفراء الى الدول الغربية يلتمسون مساعدتها ، عززت الجمهوريتان بقوة مساعيهما فى هذا السبيل ، ولكن لابد من القول بأنهما لم يحظيا الا بنجاح طفيف (٢١٧) . وكانت البندقية وقتها منهمكة فى القارة فى حرب ضد دوق ميلانو ، ومع ذلك جهزت أسطولا من عشر سفن حربية وضعته تحت قيادة يعقوب لوريدانو Jacopo Loredano . ولسوء الحظ تأخر اقلاع الاسطول ، انتظارا لوصول مدد يكون ذا أثر فعال ، ولوصول السفن التى وعد البابا والفونس ملك نابولى بارسالها . وحين أبحر الأسطول كان الوقت قد فات (٢١٨) . ومع ذلك كان فى ميناء القسطنطينية منذ أواخر عام ١٤٥٢ سفينتان حربيتان بندقيتان ، وكان عند قائدهما جبرييل تريفيزانو Gabriello Trevisano أوامر بالمعاونة فى الدفاع عن المدينة ، وحراسة ثلاث سفن تجارية كبيرة قادمة من طربزون ، ووصلت هذه السفن بالفعل (٢١٩) . وكان المتوقع من يوم لآخر أن يضرب الحصار حول المدينة . وشكلت السفن الثلاث ، والسفن التى تولت حراستها وحدة عسكرية قوية يمكن أن تكون ذات فائدة كبيرة فى الدفاع عن المدينة . وكان كل من يهمه الدفاع عن المدينة يود الاحتفاظ بهذه السفن . وبطبيعة الحال شارك فى هذه الرغبة الجالية البندقية فى القسطنطينية ، ورئيسها البايل ، لأن وجود هذه السفن فى الميناء كان الى حد ما ضمانا لأمن الأشخاص والبضائع . واذ قررت جمعية من كبار رجال السلطة فى المدينة فى اجتماع لها بكنيسة القديسة صوفيا بقاء السفن فى الميناء ، فقد دعا البايل الى انعقاد مجلس المستوطنة البندقية الكبير فى ١٤ من ديسمبر ١٤٥٢ فى كنيسة القديس مرقس (٢٢٠) . وقرر المجلس ـ ونذكر بهذه

(٢١٦) Romanin, IV, 245, not 3.

(٢١٧) Raynald, a.a. 1452, xxviii, 605 ; Barbaro, Giornale, doc. p. 71-73 ; Romanin, IV, 248 ; Atti della Doc. lig. XIII, 224 et s.

(٢١٨) Sanut., p. 1148 ; Romanin, IV, 248, 254, 260, not. 1. ; Raynald, l.c., p. 610, 614, Barbaro, p. 66. ; M. Va t (Le siège et la prise de Constantinople, Revue hist., mai et juin 1880, p. 14) ; Barbaro, p. 34.

(٢١٩) Barbaro, p. 3; 68-71.

(٢٢٠) Barbaro, p. 6, 8.

المناسبة أنه أدى خدمات جليلة فى الدفاع عن المدينة أثناء الحصار (٢٢١)ـ قرر استبقاء قباطنة السفن الخمس تحت مسئوليته ، والاحتجاج على رحيلهم ، وتهديد كل منهم اذا لم يمتثل لهذا القرار بالحكم عليه بغرامة قدرها ٣٠٠٠ دوكا (٢٢٢) • وعلى ذلك بقيت السفن راسية فى القرن الذهبى ، وقاتلت بنجاح السفن التركية ، واستطاعت أن تنزل بعضا من بحارتها لتعزيز حامية أسوار الموقع وأبراجه • واشترك بايل البنادقة جيرولامو مينوتو بنفسه فى الدفاع ، وشغل موقعا بالقرب من قصر هيبدومون Hebdomon ، وتجمع حوله غالبية التجار التابعين له ، ووضعوا أنفسهم رهن اشارته ، واضطلع آخرون بمهام كبيرة فى مواقع أخرى (٢٢٣) ••

وفى حين تناست جمهورية البندقية وجاليتها فى القسطنطينية كل الأمور فى سبيل الدفاع عن القسطنطينية ، لعب قسم كبير من الجنويين دورا شديد الغموض • حقا ، كان جنويو بيرا فى كثير من الأحيان فى نزاع مع اليونانيين ، ولكن ذلك لم يمنعهم من الاعتراف بأن المعيشة تحت سيادة اليونانيين ، وهى سيادة حليمة ضعيفة أفضل لهم من المعيشة فى النظام التركى المستبد • لذلك شاركوا فى الجهود المبذولة لمنع الأتراك من الاستيلاء على القسطنطينية • على أنه لما كان من المرجح أن المدينة سوف تسقط رغم كل شىء ، فانه لم يكن يضيرهم أن يحموا ظهورهم ، وحين أصبح الحصـــار وشيكا ، طلبوا من جنوا تعزيزات للدفاع عن تحصيناتهم • وفى غضون العشر سنوات الماضية كانوا قد أكملوا هذه التحصينات وزادوا عليهـا ، فأرســل اليهم الوطن الأم رجالا ومعـدات حربية (٢٢٤) • ولكن بدلا من أن يرتضى الجنويون الوضع صراحة ، بعثوا وفدا الى السلطان يعرفه برغبتهم فى الاحتفاظ بعطفه ، ومراعاة تنفيذ المعاهدات بأمانة واخلاص • وأكد لهم محمد الثانى مشـاعر وده

ـ كانت كنيستا القديس مرقس S. Marco والقديسة مريم S. Maria كما نعلم ملكا للبنادقة •

(٢٢١) Ibid. p. 16, 28, 37, 38.

(٢٢٢) Ibid. p. 5-11; Duc. p. 265.
Phrantzès (p. 238) et Léonardo de Chio, (p. 242).

ـ لم نعدد كل السفن التى طبق عليها هذا الاجراء ، وحتى يكتمل هذا التعداد ، ينبغى أن نضيف ثلاث سفن بندقية ، وثلاث سفن كريتية : انظر :
— Barbaro, p. 3, 4 ; Phrantz., p. 238.

(٢٢٣) Voy. Mordtmann, Die Belagerung und Eroberung von Constantinopel. p. 45 et ss.

(٢٢٤) Fogl., p. 602 ; Giustin., fol. 205 ; Duc. p. 265 ; Barbaro, p. 20.

وصداقته بشرط أن يكفوا عن مساعدة سكان القسطنطينية (٢٢٥) ، ولما لم يكن يأمن اليهم ، فانه أقام فرقة كبيرة من الجند على المرتفعات التى تقوم عليها بيرا الحديثة لمراقبة ضاحيتها (٢٢٦) ، بينما راح يهاجم المدينة من الجانب المقابل . ولم يكن مخطئا فى ريبته ، فقد أثار أهالى بيرا أنفسهم شكوكه من ناحيتهم : والواقع أنهم بينما كانوا يذهبون كثيرا لزيارة الفرقة العسكرية التركية القائمة بالرقابة أمام أسوارهم ، مظهرين للسلطان آيات الود والصداقة ، ويحملون اليه كل الأشياء التى يمكن أن تكون نافعة للجند أو مستحبة لهم ، كانوا من جهة أخرى ينتهزون ظلام الليل للذهاب الى القسطنطينية ، ويقاتلون فى اليوم التالى الى جانب اليونانيين (٢٢٧) . وكان السلطان يعلم ذلك : ومن ثم اذا أغرقت مدفعيته بعض السفن التجارية الجنوية أو هدمت بعض منازل بيرا لا يستبد به القلق ، واذا اشتكى أهالى بيرا من فعاله هذه ، كان يرفض بجفاء الاستماع اليهم (٢٢٨) . ولكن اذا كان لدى السلطان ما يثير استياءهم منهم ، فان اليونانيين وأصدقاءهم كان عندهم المزيد من دواعى الاستياء . ففى ذات يوم شرع الأتراك في نقل سفنهم بطريق البر ، من بشكطاش Bechiktach إلى الحوض الداخلي للقرن الذهبي حيث وضعوها بالقرب من ترسانة بيرا البحرية (٢٢٩) . واتهم أهالى بيرا بأنهم ساعدوا الأتراك فى هذا العمل بتقديم نصائحهم ، وبمعونات عملية نشيطة (٢٣٠) . ولم تثبت صحة هذا الاتهام ، غير أنه حين قرر مجلس الدفاع شن غارة للاستيلاء على هذه السفن ، كانوا هم (أى الجنويون) الذين أفشوا السر ، ومن ثم أخفق المشروع (٢٣١) . ومع ذلك لا يسعنا الا أن نؤكد المساعدة التى تلقاها اليونانيون فى محنتهم من فرقة عسكرية رائعة هرعت اليهم من جنوا وخيوس (٢٣٢) . هؤلاء الجند ، لم يسلكوا سلوك النفاق والخبث الذى اتبعه مواطنوهم فى بيرا ، وانما انقطعوا قلبا وقالبا لشئون الدفاع .

---

(٢٢٥) Ducas. p. 267; Zorzi Dolfin, l.c., p. 15.

(٢٢٦) Chalcoc., p. 383, Phrantz., p. 237.

(٢٢٧) Duc., p. 275 ; Leon. Chiens., l.c., p. 239 ; Zorzi Dolfin, l.c., p. 15 ; Lettre écrite de Pèra, dans les Not. et extr. XI, 75 ; Atti della Soc. lig., XIII, 230.

(٢٢٨) Phrantz., p. 259 ; Duc., p. 278 et s. ; Barbaro, p. 35.

(٢٢٩) Barbaro, p. 27 et s.

(٢٣٠) Mordtmann, (p. 59) : Sanuto (p. 1148) ; Mahbaro (p. 27, note marginale) ; Leon. Chiens., l.c., p. 241 ; Zorzi Dolfin, p. 16.

(٢٣١) Duc. p. 277 ; Barb., p. 29-33 ; Sanut., p. 1149 ; Zorzi Dolfin, p 20.

(٢٣٢) Maddimann, p. 45 et ss.

ويستحق الذكر فى المرتبة الأولى منهم موريتزيو كاتانيو Maurizio Cattaneo الذى شق لنفسه بالقوة ، وهو على رأس ثلاث سفن جنوية وسفينة يونانية طريقا وسط الأسطول التركى ، واخترق القرن الذهبى ، ثم داقع ببسالة عن قسم من أسوار القسطنطينية (٢٣٣) . الا أن البطل الذى يجب أن يعلن عن اسمه بين سائر الأبطال هو جيوفانى جوجلييلمو لنجو Giovanni Guglielmo Lango من آل جستنيانى فى خيوس ، كان حتى ذاك الحين يمارس ، على سفينتين ومعه بضع مئات من الرفاق المدججين بالسلاح مهنة القرصنة وراح يوقع الدمار بجزر الأرخبيل . ولما اقترب الأتراك عرض خدماته على الامبراطور اليونانى ، فتولى ادارة شئون الدفاع ، واحتفظ لنفسه بموقع من أهم المواقع ، وأشدها خطورة : ذلك هو باب رومانوس Romanus حيث أبدى شـجاعة ومعرفة بالعلـوم العسكرية لايقاف تقديم القائمين بالحصار ، وكان حقيقة روح الدفاع . وحين جرح فى هجوم ٢٩ مايو ، ولم يحتمل ما أصابه من أوجاع وآلام ، كان لا مناص من نقله على متن سفينته ، ومات فى خيوس بعـد بضعة أيام . ومن ذلك الوقت انتهى كل شىء ، وتحطمت المقاومة (٢٣٤) .

واجمالا ، فان كل ما أبداه الامبراطور وعدد من اليونانيين من بسالة لم يمنع سقوط المدينة قبل الأوان ، واذا كانوا قد استطاعوا اطالة الدفاع ؛ فذلك بفضل معاونة بحارة السفن الايطالية المدربين ، والمستوطنين البنادقة ، والقطالونيين وغيرهم ، وكذا الجنويين الذين كانوا يخرجون سرا من بيرا ليدافعوا بسواعدهم . كان كل ذلك يشكل وحدة تقدر بحوالى ثلاثة آلاف رجل (٢٣٥) بذلوا كل ما فى طاقتهم بشجاعة وبطـولة فى الدفاع عن الأسوار والميناء . ولما سقطت القسطنطينية فى أيدى الأتراك ، لم يبق أمام التجار الأجانب سوى الفرار من مدينة أمست غير مضيافة لهم ، فهرب البعض منهم على متن السفن التى استطاع معظمها النجاه (٢٣٦) ، ووقع البعض الآخر أسرى فى أيدى المنتصرين ، اما فى اللحظات الأولى ، واما فى

---

(٢٣٣) Leonard. Chiens, l.c., p. 241, 245 ; Barbaro, Giornale dell' assedio, p. 23 ; Phrantzés, p. 247 et ss.

(٢٣٤) Critobulos, p. 74, 80 et s., 93 et s. ; Leonard. Chiensis, p. 237 et s., 243, 254, 247, 253; P. 241, 246 253, 263, 293 ; Barbaro, p. 13, 55 ; Tedaldo, p. 23, 88 et autres ; Mordmann, p. 141. Ellissen, Analekten, III, introd,. p. 75 et ~. ; suppl., p. 85, 103.

(٢٣٥) Leon. Chiens., p. 244.

(٢٣٦) استطاعت بعض السفن التجارية البندقية أن تهرب فى لحظة وقوع الكارثة ، منها سفينة قادمة من تانا ، واثنتان من كافا ، وواحدة من طربزون ، وكانت كلها متجهة الى البندقية ، ولكنها أوقفت عند مرورها قبالة القسطنطينية : وأنقذ الجنويون على الاقل ثمان سفن تجارية . انظر : Barbaro, p. 57-59.

الأماكن التى اختبأوا فيها (٢٣٧) أما جيرولامو مينوتو ، بايل البنادقة ، وقنصل القطالونيين (ويسميه فرانتزيس : بتروس جوليانوس) فقد قطع رأساهما فى اليوم التالى (٣٠ مايو) بأمر السلطان ، وقطعت رؤوس أبنائهما وبعض مواطنيهما ٠ واذا كان الاعدام قد اقتصر على هؤلاء ، فان من كانوا مهددين به ، لم ينجوا منه الا بفضل جشع السلطان وباشواته الذين أخذوا منهم مبالغ طائلة كفدية لهم (٢٣٨) ٠ وتذكر قوائم باربارو Barbaro أن ثلاثة وثلاثين من النبلاء البنادقة قد تمكنوا من الفرار ، ووقع من هؤلاء النبلاء فى الأسر تسعة وعشرون ، وبيعوا بيع الرقيق ، ومع ذلك استطاعوا جميعا أن يستردوا حريتهم بدفع الفدية ، وعادوا الى وطنهم قبل انقضاء سنة على وقوع الكارثة (٢٣٩) ٠ واستمرت أعمال السلب والنهب ثلاثة أيام ، ولا شك أن المستوطنات التجارية تكبدت خسائر فادحة ٠ ويقول تيدالدى Tedaldi ان خسائر البنادقة بلغت ٤٠٫٠٠٠ دوكا (وفى قول آخر ٥٠٫٠٠٠ دوكا) (٢٤٠) ، وخسائر الجنويين لا حصر لها (٢٤١) ٠ وفيما يختص بالبنادقة والجنويين ، نلاحظ أن البنادقة قدروا بأنفسهم خسائرهم ، ويقولون انها بلغت رقما أكبر ، يقدر بمائتى ألف دوكا ، يضاف اليها مبلغ مائة ألف دوكا ، قيمة خسائر الكانديين (٢٤٢) (أهالى كانديا ، وهى جزيرة كريت — المترجم) ، فى حين نجا الجنويون الذين كان أغلبهم يقيمون فى بيرا ، من السلب والنهب ٠ ومع ذلك فالحقيقة أنهم عانوا أكثر من أية أمة أخرى من عواقب الفاجعة ٠ فالواقع أن عددا كبيرا من أهالى بيرا استبد بهم الفزع حين رأوا القسطنطينية فى أيدى الأتراك يعملون فيها القتل والنهب : وكان من المتوقع بين لحظة وأخرى أن تغزو الجماعات المظفرة هذه الضاحية ، فتفعل بها ما فعلته بالمدينة ٠ ودرءا لهذا المصير بعث البودستات انجيلو جيوفانى لوميللينو Angelo Giovanni Lombellino (٢٤٣) الى السلطان وفدا يحمل اليه هدايا ويسلمه مفاتيح بيرا ، ويلتمس عطفه ٠ ولما كان ينتظر من السلطان اجابة طيبة ، فانه ناشد السكان أن يبقوا هادئين ، وطلب من قباطنة السفن الايغادروا الميناء ، وأغلق الأبواب لكى يمنع الفرار الجماعى ، وربما

(٢٣٧) Barbaro, p. 55, 57-5 ; Tedaldi, p. 29 et s., Ducas, p. 296-298.

(٢٣٨) Barbaro, p. 59, 66 ; Phrantzès, p. 293; Chalcoc., p. 399 ; Leon. Chiens., p. 256.

(٢٣٩) Barbaro, p. 60 et s. ; Sanuto, p. 1150 et s. Romanin, IV, 527.

(٢٤٠) استطاعت السفينة البندقية التى فر تيدالدى Tedaldi على متنها أن تحمل معها مبلغا قدره ٠٠٠ ٢٠ دوكا ٠

(٢٤١) Tedaldi, p. 30 et s.

(٢٤٢) Sanuto, p. 1151 ; Zorzi Dolfin, p. 51 ; Romanin, IV, 300.

(٢٤٣) Ducas (p. 296 et s.) ; Ckalcocondylas. (p. 400) ; Atti del la Soc. lig. XIII, 229-233 ; Atti della Soc. lig., VI, 19-21 ; Leonardus du Chio (Ibid., XIII, 257).

أيضا لمنع النهابين من دخول المدينة (٢٤٤) • وجاء أحد القادة الأتراك ، ويدعى زغنوس باشا fiaganos Pacha الى بيرا منذ أول يوم ليعلن بها سيادة محمد (السلطان) ، وفعل ما فعله البودسنتات ، اذ حث السكان على البقاء فى هدوء ، وقال لهم ان الجنويين هم أصدقاء الأتراك وحلفاؤهم ، عليس هناك ما يخافون منه • ورغم كل شيء ، كانت النفوس واجفة ، ولاذ جمع من السكان بالسفن فى جنح الليل ، ومعهم النساء والأطفال وأقلعوا بها • وغضب السلطان من ذلك غضبا شديدا ، وصرح للسفراء بأنه يريد أن تسلم المدينة بلا قيد ولا شرط ، ولم يخف عنهم أنه على علم تام بسلوك أهالى بيرا أثناء الحصار • ولم يستطع السفراء الا بمشقة كبيرة أن يحصلوا منه على وعد بعدم الاعتداء على حياة مواطنيهم وأموالهم • وفى هذه الظروف لم يكن أمام سكان بيرا الا أن ينتظروا ما يحلو للسلطان أن يقرره بشأنهم • وتنفيذا لأمر السلطان حرر زغنوس باشا وثيقة (٢٤٥).تسجل رغباته ، حررها فى صورة «فرمان» ، وهذا ملخصها : لن تهدم بلدة بيرا (٢٤٦) ، ويحتفظ السكان ببيوتهم ، وحوانيتهم وكرومهم ، وطواحينهم ، وبضائعهم ، وسفنهم ، ولن يؤخذ منهم نساؤهم أو أبناؤهم ، ولن يجبر هؤلاء الأبناء على الانخراط فى سلك الانكشارية ، وتبقى كنائسهم مكرسة للديانة المسيحية ، ولكن لا يجوز لهم أن يبنوا كنائس جديدة ، أو أن يقرعوا الأجراس البرونزية أو الخشبية فى الكنائس القديمة ، وألا يقيم الأتراك بينهم ، فيما عدا من يكلفهم السلطان بمهام الاشراف والرقابة ، ويحظر على جنود الانكشارية وعبيد السلطان أن يقيموا فى بيوت الأهالى ، ويتمتع السكان بحرية مزاولة التجارة برا وبحرا ، ولا يقام فى طريقهم أية عقبات ، ولا يدفعون أية ضرائب • ولتجار جنوا أيضا الحرية التامة فى التنقل ، ولكنهم يخضعون لقوانين الضرائب • وأن يعفى أهالى بيرا من أعمال السخرية ، ولكنهم يدفعون جزية (خرج) (٢٤٧) • وللمستوطنين

---

(٢٤٤) Barbaro, p. 57 et s.

(٢٤٥) يوجد النص الاصلى اليونانى لهذه الوثيقة فى :

— Hammer, Gesch. des osman. Reich, I, 675 et ss. ; Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 287 et s. ; les Atti della lig., XIII, 226 et ss.

M.M. Muller et Belgrano

(٢٤٦) لا نستطيع أن نجد فى هذه الوثيقة وعدا خالصا من السلطان بالا يهدم اسوار الموقع وهنا ، وفى كل المواضع ، تعين كلمة castium المدينة التى استولى عليها الترك ، وهذا ما يشير اليه بحق السيد ديزيمونى •

— M. Desimoni, dans le Giorn. ligust., I, 223 et s. :

(٢٤٧) كانت هذه الضريبة ، حسبما يقول Cei, l.c. تساوى « موكا » واحد عن الفرد الواحد •

أن يعينوا من بينهم واحدا من كبار أعيانهم يتولى الاشراف على تنفيذ القوانين ، ومراعاة العرف فى الشئون التجارية • ولا مجال بطبيعة الحال للحفاظ على نظمهم القانونية ودستورهم • والفقرة الوحيدة التى يمكن أن تفسر على هذا الوجه تبدو لى أنها تعنى فقط أن الوعود التى تتضمنها هـــذه الوثيقة هى وعود باتة ، وتبقى كذلك • ومما يذكر أيضا أن الوثيقة توضح فى سطورها الأولى أن بيرا شأنها من الوجهة القانونية شأن سائر المدن التركية •

وللأسف يصعب تحديد تاريخ هذه الوثيقة • فأولا ، فان الاشارة الى الشهر غير صحيحة بالمرة : فبدلا من جمادى الثانى (من ٩ يونية الى ٧ يولية) يجب أن تقرأ جمادى الأولى (من ١٠ مايو الى ٨ يونية) (٢٤٨)• وثانيا ، حل محل التاريخ الاشارة الى العقد الأخير من الشهر المذكور • فمن المستحيل علينا اذن أن نعرف بالتأكيد ما اذا كان هذا الفرمان قد نشر فى اليوم التالى للاستيلاء على القسطنطينية (٣٠ مايو) كما هو المسلم به بوجه عام ، أو فقط فى الاسبوع الأول من شهر يونية (٢٤٩) الذى يقع فى العقد الأخير من شهر جمادى الأول • بعبارة أخرى ، من الجائز أن هذا الفرمان قد حمله وأتى به السفراء الأول الذين أوفدهم البودستات لوميللينو الذى استبقاه السلطان الى جواره حتى اليوم التالى ، كما يحتمل أن بابيـــلانو باللافيتشينى Babilano Pallavicini ، وماركو دى فرانكى Marco de Franchi اللذين يظهــر اســماهما فى الوثيقـــة كانـا ضمن وفد ثان ، الا أنه يصعب تأكيد أى من هذين الرأيين • ويحملنـا خطاب لوميللينو الذى استقينا منه المعلومات السابق ذكرها على الاعتقاد بأن السلطان صرف فجأة السفراء الأول • ويضيف البودستات أنه اعتبارا من تلك اللحظة انقطع تماما عن تصريف الأمور التى تكفل البورجوازيون بتصريفها • ومن جهة أخرى ذكر فى الفرمان أن باللافيتشينى وفرانكى قد انتدبهمـا « أرخونت » (وهو وال فى اليونان القديمة — المترجم) المستوطنة ، ومنحا لقب « أرخونت » • ويبدو أنه يتعين ارجاع زمن مهمتهما الى الزمن الذى ترك فيه لوميللينو للبورجوازية تقرير الاجراءات الواجب اتخاذها • ومع ذلك لم تكن استقالة لوميللينو اختيارية تماما كما يقول البعض •• فقــد ذكر كالـــكوكونديلاس Chalcocondylas (٢٥٠) ان زغنوس باشا قد عين فى ٢٩ من مايو موظفا يتولى ادارة شئون بيرا باسم السلطان ، فلم يعد ثمة مكان للبودستات القديم الى جانب هذه الشخصية •

---

(٢٤٨) من العسير أن نصدق أن موقف « غلطة » بالنسبة الى الغازى المظفر لم يتم تسويته قبل بداية شهر يولية • ثم ان لوميللينو Lomellino يشير بكل وضوح الى هذا الفرمان فى خطابه المؤرخ ٢٣ يونية •

(٢٤٩) M. Hammer, (op. cit., p. 678, not. c.)

(٢٥٠) Chaleac, p. 401.

ولكن حتى بافتراض أن السلطان لم يعين حاكما على المستوطنة الا فيما بعد ، حين غادر القسطنطينية وعاد الى مقره الأصلي ، وهذا ما يبدو أن لوميللينو كان يقصده بقوله ، فان مجرد اعلان سيادة السلطان على بيرا قد أنهى بذاته وظيفة البودستات الجنوى (٢٥١) • وعندما ظهر الفرمان الذى لم يترك لأهالى بيرا سوى محكمة من نوع المحاكم التجارية ، ترك لوميللينو قصر البودستات ، واعتزل فى منزل خاص ، ثم عاد الى القصر بالحاح شديد من أفراد الطبقة البورجوازية الذين رجوه أن يبقى به الى يوم رحيله مستقبلا (٢٥٢) •

وبعد انقضاء خمسة أيام على سقوط القسطنطينية زار السلطان بنفسه بيرا ، وشرع فى اجراء احصاء لسكانها ، فاكتشف بها عددا كبيرا من المنازل المغلقة التى هجرها أصحابها • وأصدر السلطان أمرا بجرد أموال الغائبين ، وحدد مهلة ثلاثة شهور يستطيع هؤلاء العودة فى غضونها وتسلم أموالهم ، فاذا انقضت هذه المهلة تصادر الأموال لصالحه • وسافر رسول من السلطان الى خيوس حيث يوجد بها عدد من أهالى بيرا الذين هاجروا اليها ، ومع الرسول خطاب من لوميللينو يناشدهم فيه العودة • وأخطر البودستات أيضا البندقية بأن فى وسع تجارها أن يسحبوا بضائعهم المخزونة فى بيرا قبل انقضاء المهلة المحددة •

بقى التحسب للحالة التى تحاول فيها المستوطنة ، بمؤازرة أسطول أو جيش مرسل من قبل دولة غربية أن تتمرد على السيادة التركية : ومن ثم عمل السلطان على القضاء على الوسائل التى تحقق لهم ذلك ، واضطر أهالى بيرا أن يسلموا أسلحتهم ومعداتهم ، واستولى الأتراك على مدافعهم ، ولم تبق الأسوار سليمة الا من ناحية البحر ، أما من ناحية البر فقد هدمت بعض الأجزاء الرئيسية فى التحصينات ، ودمرت بعض المبانى المتقدمة والأبراج ، ذكر منها برج « الصليب المقدس » La Sainte Croix القائم على مرتفع ، وردمت الخنادق • وعلى هذا النحو أصبح الموقع ، كما يبدو

---

(٢٥١) خطاب فرانشسكو جستنيانى الى دوج جنوا ، انظر : Atti, VI, 20.

(٢٥٢) ثم انه مع ذلك كان قد وصل الى نهاية مدة خدمته فغادر بيرا فى شهر سبتمبر عائدا الى وطنه • انظر : Atti, XIII, 224 ; VI, 21. —

واضحا ــ غير صالح بالمرة لمقاومة أى جيش برى (٢٥٣) ٠

واعتبار من تلك اللحظة هبطت مكانة بيرا حتى صارت تقريبا فى مرتبة قرية تركية ، يدفع سكانها المسيحيون الجزية ، ويعيشون تحت سلطة « عبد » من عبيد السلطان ، ولم يبق عندهم أمل فى التخلص من هذا الخضوع ٠

---

(٢٥٣) وحتى من جهة البر لم تهدم التحصينات lq.هدما جزئيا : وقد وضع الجنويون عليها ، على ارتفاع معين شعارات شرف بكتابات ورسومات رمزية ، وكانت هذه الشعارات تشاهد هناك حتى عهد قريب ٠

ثانيا ـ العثمانيون

عندما عاد محمد الثانى الى اندرينوبل (حاليا أدرنة) بعد استيلائه على القسطنطينية ، هناك شخصيات مختلفة على انتصاره : منها ممثلو « ماهون » خيوس ، وأمراء لسبوس (١) • ومع ذلك لم يكن لهؤلاء ما يبعثهم على الابتهاج للأحداث الأخيرة التى غيرت وجه الأمور على البسفور ، اذ كانوا يتوقعون من حين الى آخر أن يشاركوا بيرا مصيرها الذى لاتحسد عليه • وكلما جهز الأتراك أسطولا جديدا فى جاليبولى ، انتاب الأرخبيل وبنطس اضطراب شديد (٢) • واعتقد الأمراء الصغار فى هذه المناطق أن الوسيلة الوحيدة لاطالة وجودهم فى مراكزهم هو أن يدفعوا الجزية للسلطان • وكان أول ما يهم السلطان أن يستغل الرعب الذى يوقعه فى نفوسهم فيستنزفهم على مهل ، ومنذ الأسابيع الأولى التى أعقبت سقوط القسطنطينية ، قيل فى بيرا ان محمدا كان فى عزمه أن يطلب من سكان خيوس دفع الجزية (ضريبة الرأس) (٣) ، ولكن النبأ كان سابقا لأوانه • وانتظر السلطان لحين عودته الى اندرينوبل ، وهناك ، حيث أقبل

---

(١) Critobul. p. 102 ; Duc., p. 314.

(٢) Atti della Soc. lig., VI, 20.

(٣) Lettre, de Lomellino, ibid. XIII, 231.

السفراء يهنئونه ، أعلن أن على خيوس أن تدفع له مستقبلا جزية قدرها ٦٠٠٠ دوكا بدلا من ٤٠٠٠ ، وتدفع لسبوس ٣٠٠٠ (٤) واكتفى بذلك مؤقتا ، وبدأ أمراء الأرخبيل يتنفسون الصعداء •

فماذا فعل الوطن الأم فى الغرب فى تلك الآونة ؟ هل كان يميل الى الحرب ، أو يريد أن يجرب الأسلوب الدبلوماسى ؟ لقد قيل الشىء الكثير ضد الحرب : فهو حل ميئوس منه فالحرب تثير حفيظة السلطان ، فيصب جام غضبه على الجنويين الذين يمكنه أن يصل اليهم ، ومن ثم يعجل بخراب المستوطنات • وأخيرا فان الحرب تتطلب مالا ، والخزانة العامة خاوية أكثر من أى وقت مضى • ومع ذلك فحين نادى البابا نيقولا الخامس عن طريق سفرائه بشن حرب صليبية عامة ، لم تجرؤ جنوا أن تبقى فى المؤخرة ، نظرا لأنها الدولة الأكثر اهتماما بهذا الموضوع ، وكانت تخشى أن تجلب على نفسها اللعنات من كل الجهات ، وأن ترى ـ فى حالة نجاح الحملة الصليبية ـ البنادقة أو غيرهم يستولون على الأقاليم الجنوية فى الشرق الأدنى (٥) • ولم تؤد كل هذه الضوضاء الصليبية الى أية نتيجة : وكان اشتراك الجمهورية فى حرب صليبية عملا جنونيا ، اذ لاقدرة لها على القتال وهى على ما هى عليه من ضعف واعياء • فكان من الضرورى اذن اللجوء الى الدبلوماسية • وعادت الجمهورية الى رأيها الأول الذى أبدته عندما تلقت نبأ سقوط القسطنطينية وبيرا ، أى ايفاد بعثة تتكفل بتهدئة السلطان ، واثارة المشاعر السلمية فى نفسه • ومنذ ٢٨ من سبتمبر ١٤٥٣ انهمك الدوج فى اعداد الوسائل الكفيلة بجمع الموارد غير العادية الضرورية للصرف على تجهيز هذه البعثة ، لأن الميزانية العادية لم تكن كافية للانفاق عليها (٦) • ومع ذلك تأخر البت فى هذه الأمور حتى ١١ مارس من السنة التالية : وفى هذا التاريخ تم تعيين لوتشيانو سبينولا Luciano Spinola وبالدراساى ماروفو Baldassase Maruffo (٧) ، وسوف نلخص ما صدر اليهما من أوامر • حيث كان على المبعوثين أن يتوجها فى أقرب فرصة الى بلاط السلطان ، ويتوقفا فى الطريق عند خيوس وبيرا لكى يحصلا على المعلومات اللازمة من السلطات ومن ذوى الخبرة ؟ وعليهما أن يجتهدا فى معرفة ما يمكن أن يطلباه من السلطان دون أن يفرطا فى كرامتهما ، مع الأمل فى

---

(٤) Duc., p 314 ;
ـ انظر أيضا خطاب حاكم رودس فى : ...Paoli, Cod. dipl.. II, 131.

(٥) Atti della Soc. lig., XIII, 259 et ss.

(٦) Ibid, VI, 21-23.

(٧) Ibid, XIII, 261 et s.,

الحصــــول على بعض النجاح • وعليهما ، عنــدما يؤذن لهما بمقابلة السلطان ، أن يذكراه بعلاقات الود والصداقة التى كانت قائمة على الدوام بين أسرته وبين الجمهورية ، ويهنأنه على اســتيلائه على القسطنطينية ، ويضيفان الى ذلك أن فتحه المدينة يوفر المزايا العديدة من نواح مختلفة ، وأنه من المأمول أن تتمتع المدينة تحت سيادته باشراقة جديدة ، ويجب عليهما أيضــا أن يوضحا للســلطان أن بيرا محكوم عليها لســوء الحظ بالتدهور ، لأنها فى حالتها تلك معرضة لكل أنواع الغارات ، فلا تستطيع أن تتصدى لها وتدافع عن نفسها ، ومن ثم تتردد التجارة فى أن تودع فى مخازنها كميات كبيرة من البضائع • عليهما اذن أن يرجوا من السلطان أن يأذن بترميم الأسوار والأبراج ، واعادة المدينة الى جمهورية جنوا ، ولابد أن يقنعا السلطان بأن فى هذا العمل منفعة وشرفا له ، اذ ســوف تتدفق على المدينة من جديد الأحجار الكريمة ، والمنسوجات الصوفيــة والحريرية ، وسوف يجد هناك تحت تصرفه الكميات التى يريدها من هذه السلع • فاذا طرح السلطان على بساط البحث مسألة فرض جزية على الجمهورية فينبغى لهما ألا يقبلا المناقشة فى هذه المسألة الا اذا كانت هناك أسباب تحملهما على الاعتقاد بأن السلطان يفكر جديا فى اعادة بيرا الى الجنويين • فان رفض السلطان ما يطلبانه ، فلا يبقى لهما سوى أن يوصياه بمعاملة هذه المستوطنة معاملة انسانية ، ويبلغاه أمانى السكان أنفسهم • فاذا نجح المبعوثان فى الحصول على الاسترداد المأمول • فعليهما اجراء القرعة بينهما ، فالفــائز منهما يبقى فى بيرا بصفة بودستات ، ويبذل كل ما فى وسعه لترميم التحصينات والخنــادق • وينبغى لهما الا ينسيا أن من النقاط الأساسية فى مهمتهما أن يحصلا من السلطان على تعهد رسمى كتابى بأن يلغى فى امبراطوريته كل عائق فى ســبيل حرية التجارة والملاحة التجارية الجنوية ، وحرية الدخــول فى البحــر الأسود والخروج منه • ويجب عليهما أيضا أن يطلبا من السلطان نيابة عن مدينة جنوا أن يرخص لها بأن تأخذ كل سنة من اقليمه كمية معينة من القمح • وعليهما أخيرا أن ينبهاه أنه استولى على ممتلكات خاصة فى بيرا ، وأن العدالة الحقيقية تقضى بدفع تعويض عن ذلك • ونحن نتذكر أن محمد (السلطان) قد حدد مهلة ، اذا انقضت تعرض للبيع أموال سكان بيرا الذين هاجروا منها ، ولكنه لم يبال بما أمر به ، فأجــرى بيع هذه الأموال أو نقلها الى أندرينوبل (٨) •

ومن العسير أن نفهم كيف كانت حكومة جنوا تأمل فى أن تحمــل

---

(٨) Atti della Soc. Lig., VI 20.

محمد الثانى على أن يرد لها بيرا (٩) • ويمكننا أن نفترض أنه بناء على نصيحة الجنويين المقيمين فى خيوس ، وبيرا ، وأندرينوبل ، ووثوق المبعوثين مقدما من النتيجة التى سوف يسفر عنهـا مسعاهما ، فانهما لم يحاولا القيام بهذا المسعى ، وقيل لهما فضلا عن ذلك أن يجعلا سلوكهما مطابقا لما ينصح به أهالى البلاد • وعلى أية حال فالمؤكد أن أموال الجنويين لم ترد بالمرة • وبالاجمال فان هذه البعثة الأولى لم تحصل على أية نتيجة : فقد طلب السلطـان دفع جزية عن كافا ، ولم تكن السلطات المخولة للسفيرين تسمح لهما بمناقشة هذا المطلب ، والراجح أنهما انتهزا هذه الفرصة لقطع مفاوضات كانت تتخذ اتجاها سيئا (١٠) • وعند العودة ، توفى ماروفو فى الطريق ، أما سبينولا ، فقد أريد تكليفه بمهمة ثانية لدى السلطان ، ولكنه تنحى عنها معتذرا بأن حالته الصحية لا تسمح له بذلك •

ولم تكن البندقية أقل من جنوا تأثرا بسقوط القسطنطينية : فقد أعـدم بايلها ، ووقع أكثر من خمسـمائة من مواطنيهـا ورعيتهـا فى الأسر (١١) ، وضاع من تجارها ثروات كبيرة : وكانت هذه كلها نوائب لابد أن تتأثر بها • على أن ذلك لم يكن كل شىء ، فان انتصار الأتراك زاد من قوتهم زيادة كبيرة ، وبخاصة فى البحار ، ومن ذاك الحين كان للبندقية ما تخشاه على ممتلكاتها ورعاياها فى اليونان • وتبعا لما ذكره أحد الأدباء ، وهو فيللفو Filelfo (١٢) اقترح الدوج فرانشسكو فوسكارى درء التعديات المحتملة من ناحية الأتراك بالقيام بهجوم عاجل ومبـاشر • ونوقش الاقتراح فى مجلس الشيوخ ، ولكن تغلب الرأى المخالف • ومن قبـل ، عنـدما بعث أمير البحر جاكوبو لوريدانو الى القسطنطينية بأسطول لحمـاية المدينة ، كان عليه أن يدير تحركات الأسطول بحيث لايترتب عليها توريط الجمهورية فى حرب مع السلطان ، وفضلا عن ذلك ألحق به دبلوماسى يدعى بارثولوميو مارتشيللو ، مهمته أن يعمل — ان أمكن ذلك — على عقد اتفاق بين الامبراطور والسلطان (١٣) • ولما استولى الأتراك على القسطنطينية ، زاد الأمر وضوحا ، اذ كان يقتضى الحفاظ على السلم مع السلطان حتى لاتتعرض الجمهـورية لمزيد مـن

---

(٩) لم تكن الآمال التى خالجت النفوس عند أعلان مشروعات الحرب الصليبية التى كلف بها دوق برجنديا قائمة على أساس صحيح • انظر : Ibid. VI, 284 et s.

(١٠) Ibid. XIII, 267 et s.; VI, 118 et ss., 123 et s., 298.

(١١) كان من بين الاسرى كثير من أهالى كريت • Romanin, IV, 527.

(١٢) Zinkeisen, Gesch. des osman. Reichs in Europa, II, 19.

(١٣) Romanin, IV, 254, 527,

الخسائر • وعلى ذلك صدر الأمر لأمير البحـــر لوريدانو بحماية الجزر المسيحية ، وبخاصة نجربونت ، بينما يتوجه مارتشيللو لمقابلة السلطان، أولا ليطلب منه اطلاق سراح الأسرى البنادقة ، ثم ليمهد الطريق لاستعادة العلاقات السلمية • وبالفعل نجح مارتشيللو فى ١٨ من أبريل ١٤٥٤ فى وضع أسس اتفاق (١٤) : وضم الاتفاق دوق ناكسوس Naxos بصفته تابعا للبندقية وحدها ، وليس تابعا للسلطان • وسوف نتنصر بالاشارة فى هذه الوثيقة الى النقاط التى لها صلة بالتجارة وبمستوطنة القسطنطينية • فالشيء الذى يلفت النظر أولا هو التصريح للجمهورية بأن تعين فى القسطنطينية — كما كان الأمر من قبل — « بايلا » مكلفا بادارة شـــئون الجالية البنـــدقية ، وبالقضـــاء فى المسائل المدنية بين مواطنى البندقية (١٥) • وصدر الأمر الى السوباشى Soubachi (حـــاكم المدينة) بأن يتخذ — بناء على طلب البايل — الاجراءات الضرورية لازالة العقبات من طريق ممارسته واجباته القنصلية بحرية ولم يرد فى الاتفاق أى ذكر لحى خاص أو الممتلكات بلدية خاصة بالجالية التى يدير شئونها هذا البايل ، أو الاحتفاظ لها بهذه الممتلكات وهذا الحى (١٦) على أنه كان المفهوم ضمنا أن فى وسع الرعايا البنادقة أن يقيموا فى العاصمة ، أو فى أى مكان آخر فى الامبراطورية التركية ، ويكون لهم فيها عبيد ، ويموتون ويحررون وصاياهم بها ، ويستطيعون أن يتنقلوا ذهابا وايابا ، مثلما تستطيع الســـفن البندقية أن تدخل ميناء القسطنطينية وتخـــرج منه دون صعوبات أو مضايقات •

وفى حالة وفاة أحـــد المســـتوطنين البنـــادقة أو غرقه ، توضع أملاكه فى حماية السلطات • وتفرض ضريبة قدرها ٢٪ على البضائع التى يبيعها المستوطنون ، أما البضائع التى لايستثمرها أصحابها فيمكن اعادتها معفاة من الرسوم والضرائب ، كما تخضع البضائع التى يشترونها ليصدروها لضريبة ٢ ٪ وتعفى من الضرائب ســـبائك الفضـــة ، والنقود المسكوكة ، ولكن يجب على البنادقة أن يسلموا لخزانة السلطان كل الفضة غير المسكوكة ، وكل القطع الفضية التى يجلبونها ، وذلك ليجرى سكها بدار ســـك النقود السلطانية • ولا مانع من اســـتيراد العبيـــد

---

(١٤) Romanin IV, 528 et ss. ; Sanuto, Vite dei dogi, p. 1154-1158; Marin, VII, 283-281.

(١٥) 'In civil rezer et governor et justitia administrar."

(١٦) فى اضافة بتاريخ لاحق ، نص على ان فى وسع البنادقة ان يمتلكوا حوانيت وكنائس حتى ذلك الحين تحت تصرف الانكونيين •
Hopf, Griechenland, l.c., 116.

النصارى من البحر الأسود ، أو نقلهم والمرور بهم (١٧) ، أما العبيد النصارى الذين يباعون داخل البلد فتدفع عنهم ضريبة ٢٪ • وعلى العكس ، لايجوز للبنادقة أن يحتجزوا عبيدا مسلمين للاتجار بهم ، ومن يعثر عليهم من هؤلاء العبيد عند البنادقة يطلق سراحهم فورا دون تعويض • ويتعهد السلطان أخيرا بأن يجبر الجنويين فى بيرا ، المدينين لرعايا بنادقة أن يسددوا ما عليهم من ديون •

هكذا كانت شروط اعادة العلاقات مع السلطان ، كما هى مدونة فى المعاهدة حقيقة بأن تكون مقبولة ، غير أن الوضع كان أكثر جمالا على الورق منه فى الواقع • فعند الأتراك ، كان الأمير والشعب بعيدين كل البعد عن المدنية ، حتى ان البنادقة الذين اضطروا للعيش فى بيئتهم قد أسفوا كثيرا على الوقت الذى أمضوه مع اليونانيين ذوى الأخلاق المهذبة ، والأساليب السلوكية الرقيقة • وكان من المتوقع فى كل لحظة أن يحتد السلطان ، أو يغضب غضبا مفاجئا وعنيفا ، أو يعتدى على حقوق الناس • فاذا كان الموقف عسيرا ، وخطرا أحيانا بالنسبة الى ممثلى الأمم الأجنبية ، فانه كان أشد عسرا وخطرا بالنسبة الى البايل البندقى ، بسبب تواتر الصراعات المسلحة بين أمته وبين الأتراك • كان الأتراك فخورين بتفوقهم العسكرى الأكيد ، ويعاملون التجار الأجانب بكل وقاحة وغطرسة ، وكان سلوكهم هذا متباينا كل التباين مع سلوك اليونانيين ذوى الأخلاق الحميدة فى علاقاتهم مع الغير • غير أنه كان من بين الأمور الجديدة التى على البنادقة أن يعتادوها منذ الآن والتى ، كان أصعبها التخلى عن المزايا والمنافع التى انتزعوها على التوالى من الأباطرة البيزنطيين الضعاف ، وهى أمور تستحق الدراسة ، من عادات جديدة ، وضرائب مرهقة • ومثال ذلك ، كان البنادقة فى زمن الأباطرة اليونانيين يتمتعون قرونا طويلة بالاعفاء التام من الرسوم الجمركية • ولابد من الآن أن يعتادوا دفع هذه الرسوم دون أى أمل فى اعفائهم منها •

وعندما تم الصلح فى الظروف التى ذكرناها آنفا ، تأهب التجار البنادقة لمزاولة تجارتهم فى أحوال أقل ملاءمة مما كانت عليه من قبل ، فكان مجال الأعمال محدودا بالضرورة ، وسط شعب فظ يحارب فى عدة جبهات ، وفضلا عن ذلك قلت الأرباح بسبب الالتزام الجديد بدفع الضرائب ، ومع هذا ، كان من المستحيل الاعتماد بنوع ما على بقاء حالة السلم • وكانت نزعة الغزو عند العثمانيين ، وطموحهم الذى لاحد له

---

(١٠) Teste هى الكلمة الصحيحة ، وهى الموجودة فى Romanin ، أما نص سانتو فانه يذكر كلمة "cose" التى ترجمها السيد Zinkeisen على أنها « ملكية » ، وهذا لا معنى له •

حقيقين بأن يغدوا مصدرا للمنازعات بينهم وبين الأمم الغربية التى كان لها ممتلكات اقليمية فى الشرق الأدنى • وعلى أية حال كان من المتوقع ، عاجلا أم آجلا نشوب صراع حاسم بين أكبر قوة بحرية فى الغرب وبين الباب العالى ، ذلك لأنه ازداد وضوحا يوما بعد يوم أن الباب العالى لم يكن فى عزمه الاكتفاء بفتوحاته فى القارة ، فكان يصبو الى التفوق البحرى فى الأرخبيل ، وفى بنطس • وعمل محمد الثانى فى حماس على بناء أسطول مهيب (١٨) ، وكان قرب موانىء القسطنطينية وجاليبولى عنصرا من عناصر النجاح فى هذا الشأن • غير أن انشاء مركز عسكرى قوى لم يكن هو كل شىء : ففى وسع أسطول للعدو ، فى خلال معركه بحرية أن يقوم بغارة جريئة مفاجئة على الأسطول التركى فيدمره • ودرءا لهذا الخطر ، شيد عند مدخل الدردنيل قلعتين تحملان هذا الاسم• ومن ذلك الحين كان على كل سفينة ، قبل أن تعبر القناة ، أن تتوقف هناك حتى يجرى تفتيشها (١٩) •

وتجنبت البندقية بكل حذر كل ما من شأنه أن يشعل قبل الأوان المعركة الفاصلة ، وعبثا حاول البابوات نيقولا الخامس ، وكاليكست الثالث ، وبنوع خاص بيوس الثانى (نيكولومينى) بعبارات حماسية متعجلة أن يستثيروا الدول الغربيــة لتشن حربا صليبية عامة تضطلع البحرية البندقية فيها بالدور الرئيسى ، فلم تتحرك الادارة البندقية التى كان لها من الخبرة السياسية الفائقــة ما جعلها تميز ما فى هذه المشروعات الكبيرة من غرور وأســاس ضعيف ، ولا تعرض مصالحها التجارية للخطر بتورطها فى مثل هذه الحروب • وعندما كانت الجمعيات والمؤتمرات السياسية تنعقد ، وتدور فيها المناقشات حول موضوع الحرب الصليبية ، كان السفراء البنادقة يلفتون الأنظــار بتغيبهم أحيــانا ، ووصولهم متأخرين كثيرا فى أحيان أخرى ، أو أنهم لايملكون السلطات التى تخول لهم الالتزام بأى عمــل ، ويضعون أحيــانا ثالثة شروطا مستحيلة (٢٠) • واستطاع كاليكست الثالث ، دون أن يخرج البندقية من تحفظها أن يجهز بنفسه أسطولا ، ويرسله الى الأرخبيل تحت قيادة لودوفيكو سكارامبى Lodovico Scarampi d'Aquilée الذى أوقع بالأتراك بعض الأذى واستولى على جزر ناكســوس ، وســاموتريس (باليونانية ساموثريكى) •• Samothrace ، وليمنوس (١٤٥٦)

---

(١٨) Chalcoc., p. 489, 529; Critob., p. 127, 146.

(١٩) Chalcoc., p. 529 et s. ; Critob., p. 146 et s., 151.

(٢٠) Voigt Enea Silvio de Picco-lomini, II, 109, 122, 135, 176, 185; III, 18, 44, 62, 69.71, 74, 76.

التى عادت بذلك ـ مؤقتا ـ الى السيادة المسيحية ، ولكنه حاول عبثا تحريض سكان خيوس وليسبوس ، وأمبروز (٢١) على التمرد على سادتهم الجدد .

واذا كانت حكومة البندقية قد تحاشت ظاهريا أية اثارة ، الا أنها كانت تعمل بجد على التسلح ، لأنها تعلم أن دورها سوف يأتى ، وأن أملاكها لن تنجو من هجمات الأتراك . ولكن لم يحن الأوان بعد . وكان لدى البحرية التركية وقتئذ مهام كثيرة تؤديها فى القسم الشرقى من الأرخبيل . ففى ربيع عام ١٤٥٥ قامت البحرية التركية . بأول مهمه حربية لها ، وكانت الحملة موجهة ضد جزيرة رودس حيث كان فرسان القديس يوحنا الذين يحتلونها يفضلون أن يعيشوا فى سلام مع الأتراك ، وأن يقيموا علاقات حسن الجوار مع كارية وليقية ، ولكنهم رفضوا بإباء أن يدفعوا الجزية التى طالبهم بها السلطان (٢٢) ، ومن ثم دافعوا عن الجزيرة دفاعا بطوليا . وقبل أن يصل الأسطول التركى الى رودس ، توقف عند خيوس ، وطالب أمير البحر السكان ، باسم مولاه بمبلغ ٤٠٠٠٠ دوكا . مدعيا أن « الماهون » مدين بها لفرانشسكو درابيريو ، التاجر المشهور الذى كان يحظى برعاية العثمانيين ، ولما رفض السكان الاقرار بهذا الدين ، أغار على حقول الكروم والحدائق وخربها . وعندما عاد الأسطول التركى من حملته الفاشلة على رودس ، خاف سكان خيوس من أن تتكرر أعمال التخريب السابقة ، وفضلوا أن يشتروا سلامتهم بدفع مبلغ ٢٠٠٠٠ دوكا (٢٣) . ولم يمنع ذلك السلطان فى السنة نفسها من تجهيز حملة ثانية هدفها بنوع خاص جزيرة خيوس . ولكن هبت عاصفة على الأسطول ، وأضرت به ، فلم يستطع الاقتراب من الجزيرة ، ولم يمنعه ذلك من ايقاع أضرار جسيمة بالماهون ، واستولى الأسطول على فوجة الجديدة Phocée ومصانع الشب الشهيرة بها . (أول نوفمبر ١٤٥٥) ، وفوجىء التجار الجنويون الموجودون بالمدينة ، وجردوا من كل ما يملكون ، وسيقوا الى القسطنطينية حيث بيعوا بيع

---

(٢١) نجد تفاصيل ممتعة لهذه الجملة فى : Guglielmotti, l.c., II, 216 et ss.
ويبالغ هذا الكاتب بعض الشىء فى نتائجها . انظر فى هذا الموضوع .
— Duc., p. 338; Chalcoc., p. 469 ; Critobul., p. 118 et s.

ـ واذ لم يعرف البابا ما عساه ان يفعل بالجزر التى غزاها سكارامبى ، فانه وهبها لبنك سان جورج بجنوا ، الا ان البنك تراجع حيال النفقات التى قد يستلزمها الدفاع عن الجزر ضد السلطان ، ومن ثم رفض الهبة .

Atti della Soc. lig., VI, 937 et s.

(٢٢) Duc., p. 319-327 ; Critobul., p. 197 et s.

(٢٣) Atti della Soc. lig., VI, 300.

العبيد (٢٤) • وفى الربيع التالى جهز السلطـــان حملة جديدة ضـــد خيوس ، ولكن الماهون دفع عنها الخطر بأن وافق على رفع الجزية السنوية الى ١٠٫٠٠٠ دوكا ، وبدفع تعويض قدره ٣٠٫٠٠٠ دوكا عن سفينة تركية غرقت فى قتال جرى بين أهالى خيوس وبين الأتراك (٢٥) • وضمنت هذه التنازلات للجزيرة فترة طويلة من الهدوء • والآن حــان دور أسرة أمراء جاتيلوزى Gattilusi • ففى عــام ١٤٥٥ توفى كل من دورينو الأول Dorino 1ed رئيس فرع الأسرة الأكبر ، وبالاميد Palamède رئيس الفرع الأصغر • ولم يقدر لدورينو الثانى خليفة بالاميد أن يتمتع طويلا بامارته « اينوس » Aenos : فثمة شركاء له فى الميراث ، رفض اجابتهم الى مطالبهم فلطخوا سمعته لدى السلطان ، بأن اتهموه باعداد ثورة ، كما قدم بعض الموظفين الترك المستخدمين فى ناحية مجــاورة له شكوى ضده • وانتهز محمد الثانى فرصة وجود دورينو فى ساموتريس ، مقامه الشتوى ، فوجه أسطولا الى اينوس ، وقام بنفسه على رأس جيش برى فحاصر الموقع من جهة البر (يناير ١٤٥٦) • ولم يبد السكان أية مقاومة ، وقبلوا الحاكم التركى الذى عين حاكما للمدينة ، ونهب الترك قصر دورينو وبيوت المترددين عليه ، وسارع دورينو بمغادرة ساموتريس، والذهاب الى اندرينوبل حيث قدم نفسه السلطان الذى خصص له اقليما فى البر ، ولكنه فر بعد بضعة أيام ، ولاذ بجهة بعيدة عن الامبراطورية التركية (٢٦) وكانت جزيرتا أمبروز وساموتريس فى عهد الامبراطورية البيزنطية تابعتين لامارة اينوس ، فترك السلطان حق استغلالهما لآخر أمراء اينوس ، بالاميد جاتيلوزيو فى مقابل دفع جزية قدرها ٢٠٠٠ دوكا عن كل من الجزيرتين (٢٧) وبعد استسلام اينــوس ، أقلع للفور أمير البحر التركى الذى غزاها من ناحية البحر متجها الى أمبروز ، واستبدل الحكم التركى بحــكم جاتيلوزى (٢٨) • وكان لابد بالضرورة أن يصيب ساموتريس المصير نفسه فور رحيل دورينو الثانى •

وهكذا آلت الى الســـيادة التركيــة كل أملاك الفرع الأصغر لأسرة جاتيلوزى ، فى الأرخبيل وفى اليابسة • واذ قضى محمد الثانى على سيادة

---

(٢٤) Duc., p. 331-334 : Critobul., p. 198 ; Hist. polit. Copl. éd. Bonn., p. 26; Bened. Dei, dans (Pagnini) Della decima dei Fiorentini, II, 250.

(٢٥) Uuce, p. 335

(٢٦) Critobul., p. 111-114 ; Seadeddin (Saidino, Cronaca de' Turchi, trad. Beatutti) II, 18 ; Duc., p. 335 et Chalcoe., p. 469.

(٢٧) Ducas, p. 328 ; Critobul., p. 103.

(٢٨) Critobul., p. 114.

هذا الفرع ، فانه وجه اهتمامه الى الفرع الاكبر من الأسرة ، وكان رئيسه منذ عام ١٤٥٥ دومنيكو ، أمير لسبوس ، فأنبأه بأن دفعه الجزية لا يكفي ، وعليه أن يتقدم بنفسه الى الباب العالي ليؤدي يمين الولاء ، فأطاع دومنيكو (سبتمبر ١٤٥٥) • واحتفاء بقدومه ، أوعز اليه بأن يدفع عن جزيرة لسبوس ضعف الجزية التى كان يدفعها حتى ذاك الحين ، وأن يهدى للسلطان جزيرة تاسوس ، وحصل على تخفيض فى قيمة الجزية ، فحددت بمبلغ ٤٠٠٠ دوكا ، بدلا من ٦٠٠٠ (٢٩) فى مقابل التضحية بالجزيرة •

وبعد بضعة اشهر ضاعت منه فوجة القديمة التى كانت فى حيازته بصفته مستأجرا لها بالميراث عن الماهون (٣٠) وفى ربيع السنة التالية ثار أهالى جزيرة ليمنوس ضده (٣١) ، أو بالأحرى ضد أخيه نيكولو الذى كان قد إستلم الجزيرة كاقطاعية له ، وقدموا الطاعة للسلطان (٣٢) وبوجه عام كان العنصر اليونانى من سكان الجزر ، فى أثناء صراع اللاتينيين ضد الأتراك ، يؤدى دورا محفوفا بالشبهات • فمن ذلك أنه فى جزر ليمنوس ، وساموتريس ، وتاسوس التى غزاها أسطول البابا • فى عام ١٤٥٦ كما رأينا من قبل ، كان فى الوسع منذ البداية التنبوء بأن احياء السيادة المسيحية فى هذه الجزر لن يستمر طويلا ، فلم تلبث الحاميات التى أقامها هناك الكاردينال ، سفير البابا أن سحقها السلطان • وفى جزيرة ليمنوس ، قدم اليونانيون مساعدتهم للأتراك (٣٣) واذ تبين أن سكان ساموتريس وتاسوس أقل ميلا للخضوع فقد أمر السلطان بأخذهم عنوة ونقلهم الى القسطنطينية مع سكان فوجة القديمة • وفوجة الجديدة (٣٤) وفيما يختص بآل جاتيلوزى ، فان السلطان لم يغفر للأمير دولينيكو • ايواءه فى جزيرته لسبوس بعض القراصنة القطالونيين الذين كانوا يغيرون على الأقاليم التركية ويوقعون بها الدمار ،

---

(٢٩) Duc., p. 328-330.

(٣٠) Ibid., p. 335.

(٣١) فى عام ١٤٥٦ عرض سيد يونانى كبير ، اسمه جورجيوس روموكاتوس أن يسلم جمهورية البندقية جزيرتى لمنوس وأمبروس :
فى البداية ، كان محمد قد ترك لأسرة جاتيلوزى حق استغلال هذه الجزيرة نظير دفعها جزية قدرها ٢٣٢٥ دوكا : Ibid, p. 326.

(٣٢) Ibid, p. 335 et s.

(٣٣) Critobul., p. 128 et s.
Satha, Doc., I, 231.

(٣٤) Leon Chalcac. p. 470. Critobul., p. 1130 : Hist. polit. Cpol. p. 26.

ويخضعون السكان على طول الساحل ، وعند مرور الأسطول البابوى بجزيرة لسبوس انضم اليه هؤلاء القراصنة واشتركوا معه فى القتال ٠ وهكذا استحق سلوك الجزيرة العقاب ٠

ففى عام ١٤٥٨ انقض أسطول تركى على الجزيرة ، ولكن قائده اكتفى بتخريب الريف ، وفشلت كل المحاولات التى بذلها للاستيلاء على المواقع الحصينة (٣٥) ٠ ومع ذلك أشرفت السيادة الافرنجية على نهايتها ، وكان آخر أفراد أسرة جاتيلوزى قد استولى على السلطة فى عام ١٤٥٨ بعد قتل أخيه ، فحاصره محمد الثانى وهو فى عاصمته وأجبره على الاستسلام فى ١٩ من سبتمبر ١٤٦٢ ، وعلى التنازل له عن ملكية الجزيرة ، وأرسله الى القسطنطينية مع عدد كبير من الأشخاص المختارين من بين الأعيان والأثرياء وهناك أعدموا خنقا (٣٦) ٠

ولم يعد لجنوا ، كما كان لها من قبل أساطيل حربية كبيرة ترسلها الى الأرخبيل (٣٧) ٠ ومع ذلك كان من الأهمية الكبرى لبحريتها التجارية أن تكون هذه الجزر فى أيدى أمراء متمدنين من ذوى المشاعر الطيبة ٠ ولم يستطع الوطن الأم أن يزود جزيرتى خيوس ولسبوس بوسائل دفاعية أكثر من جيش قوامه مائتا جندى من المرتزقة ، وسفينتان حربيتان ، فضلا عن أن هذا المدد الضعيف لم تتول الدولة تجهيزه ، بل جهزه بنك سان جورج (٣٨) ٠ وكانت قوة الجمهورية قد شلت بسبب الحرب الطويلة التى خاضتها ضد الملك الفونس ، ملك أراجون ، والصراعات الداخلية بين أسرتى فريجوزى Fregosi وأدورنى Adorni ، وخضوعها للسيادة الأجنبية التى لجأت اليها فى محنتها ٠ وبعد أن خضعت لملك فرنسا ، ألقت بنفسها فى أحضان دوق ميلانو (٣٩) ٠ حتى لو لم يكن الأمر يقتضى منها شيئا خلاف القيام

---

(٣٥) Duc., p. 338 ; Chalcoc., p. 519 ; Critob., p. 126.

(٣٦) Duc., p. 345 et s., 511 et s. ; Chalcoc., p. 523 et ss. ; Critob., p. 144 et ss. Leonardus Chiensis, De Lesbo a Turcis capta epistola, éd. Hopf.

(٣٧) Atti della Soc. lig., VII, 221.

(٣٨) Atti della Soc. lig., VI, 317, 641, 800 et ss. ; VII, 77 et s., 108, 159 et s. ; V. 429 ; Guistiniani, Annali di Genova, fol. 212; Hoph, art. Giustiniani, op. cit., p. 322 ; Giorn. ligust., 1878, p. 354, 359 et ss., 364 et ss. ; Atti della Soc. lig., VII, I, p. 549 et s.

(٣٩) فى عام ١٤٦٤ ، ذهب الى ميلانو سفراء لدعوة الدوق فرنسوا سفورزا الى قبول سيادته على مدينتهم وأبنائهم بأنه سوف يكون بذلك سيدا على ثاسوس ولسبوس ، وهذا وعد بشىء لا يمكن الوفاء به ٠ انظر :
Giustiniani, Annali di Genova, fol. 220, b.

بعمليات حربية ضد الأتراك بالاشتراك مع قوى أخرى ، كما كان الأمر قبلا فى مؤتمر مانتو Mantoue عام ١٤٥٩ (٤٠) ، فقد كان لابد لها أن تكف يدها بسبب نفاد خزائنها ، وضياع استقلالها السياسى .

ومن هذه الوجهة كان الاعتماد بالأكثر على البندقية لأن وضعها المالى لم يكن قد أصيب بقدر ما أصيبت به مالية جنوا : ولكنها انتظرت بحرص وفطنة الفرصة المناسبة لكى تشن الحرب بحيث لايكون ثمة مجال للتراجع . كانت البندقية ترصد اللحظة التى يعتزم فيها الأتراك الاستيلاء على ممتلكاتها فى الأرخبيل والمورة ، ووجدت أن هذه اللحظة آتية قبل الأوان . وكان فقد هذه الممتلكات بالنسبة الى الجمهورية يعنى القضاء على تفوقها فى المياه اليونانية : فهذا التفوق لم يكن متوقفا على قوتها البحرية فحسب ، ولكن أيضا وبنوع خاص على عدد المحطات التى أنشأتها ببراعة فى المنطقة كلها ، وكفاءة هذه المحطات . ولنلق نظرة سريعة على هذه الممتلكات بدءا بمنطقة الجزر . لقد رأينا من قبل أنه كان فى جزر الكيكلاد جزيرتان أو ثلاث جزر فقط تنتميان مباشرة الى البندقية . ولكن كلما امتدت سيطرة الأتراك ، وصارت تتهدد المنطقة ، اعتمدت الجمهورية بالأكثر على اخلاص أمراء الجزر ، الكبار منهم والصغار ، وكلهم منحدرون من أسر بندقية . وكانت سفنها الحربية دائما على ثقة من أن تجد لدى هؤلاء الأمراء كل ترحاب ، ولم يكن هؤلاء الأمراء يشعرون بأقل قدر من الأمان الا حين ترسو احدى هذه السفن فى موانيهم . ومن بين الجزر التابعة مباشرة للبندقية كان لجزيرتى يوبية وكريت أهمية كبيرة . وفضلا عن ذلك كانت البندقية تمتلك منذ عام ١٤٥١ جزيرة ايجينا Egine التى آلت اليها بالميراث من أسرة كاوبينا Caopina (٤١). ومنذ عام ١٤٥٣ ، امتلكت جزر سكيروس ، وسكياثويس ، وسكوبيلوس فى مجموعة جزر سيورادس الشمالية : وقد عززت سيادتها على هذه الجزر فى أعقاب تسوية أجرتها مع السكان الذين حرموا من قاعدتهم السياسية بسقوط الأمبراطورية اليونانية ، ومن ثم أرادوا أن يضعوا أنفسهم تحت حماية دولة مجاورة (٤٢) . وكانت الجمهورية ولازالت تمتلك على اليابسة مدينة فتليون الصغيرة Phtélion فى مواجهة جزيرة أيوبية ، وأرجوس Argos ونوبليا Nauplie باقليميهما ، ، وأخيرا مودون

(٤٠) Voigt, Enea Silvio Piccolomini, III, 67 ; III, 691, 702 et s. : Atti della Soc. lig., VII, 217 et ss.

(٤١) انظر المعاهدة المبرمة فى هذا الشأن فى ٦ من مارس ١٤٢٥ فى : athas, III, 281 et s.

(٤٢) Hopf. art. Griechenland, op. cit., p. 141 et s. ; Annali de Sief. Magno ; les Chron-romanes, p. 197, et s.

Modon ، وكورون Coron ، بالاضـــافة الى أقاليـم ممتـدة على طول ساحل البحر الأدرياتى وخليج لبانتو Lépante .

كان الأتراك يقتربون شيئا فشيئا ، وكان للقضاء على دوقية أثينا التى كان محمد الثانى يستعد مدة طويلة لاسقاطها (١٤٥٦ ـ ١٤٦٠) ، وموت فرادشســكو الثـانى آخر أمراء أسرة اكشيايولى Acciaiouli ، وقد أعدم بأمر السلطان ، كان لكل ذلك أثره فى حدوث تغيير كان له صدى شديد فى البندقية • وكان قرب دوقية أثينا من نجربونت مصدرا لعلاقات طيبة ومبادلات وافرة : ونجد هناك فى حوالى عام ١٤٥٠ ممثلا لبيت روتسينى البنـــدقى Ruzzini ، كما نجد بعد فترة قصيرة نبيلا من البندقية يدعى بارتولوميو كونتاريني الذى أتى الى أثينا لأعمال تجارية، وتزوج أرملة الدوق نيريو الثانى Nerio II (١٤٥٣) ، وبفضل نفوذه تبوأ عرش الدوقية لفترة قصيرة (٤٣) • أما مع الأتــراك ، فان روابط الجيرة لم تكن تظهر بأنها سهلة ، ومن يضمن ألا يســتغل الأتراك هذه الروابط فيشنون غارات على جزيرة يوبية ؟ وأمسى الخطر وشيكا حين دفع الأتراك غزواتهم صوب البيلوبونيز • واجتهدت البندقية فى دعوة الأمراء الصغار الى الوحدة ، لأنها الوسيلة الوحيدة للحفاظ على تبعية شـــبه الجزيرة للعالم المسيحى • ولكن الأمراء الطغاة رفضوا أن يكون سلوكهم متمشيا مع سلوك البندقية ، ولم يستطيعوا مع ذلك أن يتفاهموا مع بعضهم بعضا • وبعد انقضاء سبع سنوات على سقوط زميلهم الطاغية السابق قسطنطين ، آخر أباطرة القسطنطينية اختفوا هم أيضا • وبقيت البندقية منذ عام ١٤٦٠ وحدها فى البيلوبونيز فى مواجهة الأتراك • ومن بين المدن التى كان يمتلكها اليونانيون من قبل مدينة واحـــدة آلت الى البندقيـــة ، فى القســـمة ، تلك هى مونمبازيا Monembasia (مالفوازيبه Malvoisie) التى وضع سكانها أنفسهم تحت وصاية البندقية فى عام ١٤٦٢ (٤٤) أما باقى المدن فكانت فى أيدى الترك الذين مالبثوا أن أدركوا أن هذه المدن لاتكفيهم •

وفى ٣ من أبريل ١٤٦٣ ، وبحجة ما ، استولى الأتراك بغارة مفاجئة على مدينة أرجوس الحصينة ، وكانت بداية حرب استمرت ست عشرة سنة • وكانت البندقية مستعدة ، ولم تنتظر هذه الغارة لكى تشن الحرب • ولم يكن فى عزمها أن تدافع فقط عن ممتلكاتها القديمة ، وانما كانت تطمح على الأقل فى غزو المورة كلها ، وكان هذا الطموح فى نظر شعب

---

(٤٣) Hopf, art. Griechenland, op. cit., p. 119, 128.

(٤٤) Ibid., p. 130.

تجارى كالبندقية غنيمة مغرية ، لأن هـذا الاقليم كان يغل ، برسـوم الجمارك وحدها عائدا يبلغ ٣٠٫٠٠٠ دوكا (٤٥) • ولكى تبقى مسيطرة على السواحل ، كان لابد لها أن تطرد الأتراك من داخل شبه الجزيرة •

وفى البداية سارت الأمور على ما يرام ، وجرى الغزو بسرعة ، ولكن ما لبثت الظروف الحربية أن تبدلت ، ذلك أن الأتراك لم يتوقفوا أمام أسوار شيدها البنادقة بعرض مضيق كورنثـة ، بل اجتاحوا المورة من جديد ، وتقدموا حتى صاروا تحت أسوار نوبليا ، وضربوا حولها الحصار، وجرت الأمور على هذا المنوال فى جزر الأرخبيل • ولم يكتف أمراء البحر البنـادقة بمهمـة الدفـاع ، بل قامـوا بغزو ليمنوس ، وأمبروس ، وساموترِيس ، وهاجمـوا لسبوس (٤٦) • وحملوا أثينـا على الاشراك معهم ، واحتلوا اينوس • الا أن ظهور أسطول قوى أرسله السلطان غير مجرى الأمور ، فلم يستطع البنادقة الاحتفاظ بغزوة واحدة من الغزوات التى قاموا بها ، فضلا عن أن هذه الحرب كلفتهم ضياع جزيرة يوبية ، وهى نقطة الارتكاز التى يعتمدون عليها لبسط سيادتهم على بحار المنطقة وجزرها • وفى عام ١٤٧٠ تقدم محمد الثانى أمام أسوار نجربونت على رأس قوات برية وبحرية كبيرة • وفشلت أربع هجمات متعاقبة • وتحت قيادة زعمـاء ذوى عزم وخبرة ، نذكر منهم بنـوع خاص البايل باولو اريتزو Paolo Erizzo الذى صمد بقوة خلف تحصينـات منيعة ، صمدت الحامية بشجاعة كل الهجمات ، وكانت واثقة من وجود أسطول نيكولو داكانالية Niccolo da Canale عن كثب ، فقد كان هـذا الأسطول مكلفـا بتحطيم جسر المراكب الذى أقامه الأتـراك بين الجزيرة والقارة ، وقطع التموين والذخائر عن العدو ، ومهاجمة أسطوله وتدميره • ولكن أخطأ البنادقة فى الاعتماد على هذا الأسطول فانه لم يتحرك ، بل انتظر طويلا بجبن وبلادة وصول التعزيزات حتى انهارت الحامية بعد أن خارت قواها أمام هجمة خامسة وجهت صوب أضعف جزء فى الأسـوار

(٤٥) هذا على الاقل ما يقوله البابا بيوس الثانى فى مذكراته :

— Commentarii (Francof. 1614), p. 314 et s.

(٤٦) فى رسالة عاجلة بتاريخ ٢٥ يونية ١٤٦٤ تبدى الحكومة أسفها لفشل هذا الهجوم :

— Sathas, I, p. 244.

(١٢ يولية) (٤٧) • وعندما اقتحم الأتراك الموقع نشب قتال مرير فى الشوارع ، فقتل معظم السكان الايطاليين ، بما فيهم النساء والأطفال ، وصمد جزء من الحامية بعض الوقت داخل القلعة • وأخيرا استسلمت الحامية ، وأعدم أفرادها غدرا • وترتب على سقوط الحاميـــة ضياع الجـــزيرة كلهـــا • وعلى الضفة المقـــابلة استسلمت فتليون بدورها (١٤ يولية) بعد دفاع باسل • أما كاناليه ، فقد قام بمحاولة فاشلة لاستعادة نجربونت • وعرضت حكومة البندقية أن تستردها بالمال (٤٨)• ولكنها قوبلت برفض بات من جانب السلطان الذى صـــمم على الا يعقد الصلح الا بشروط رأت الجمهورية أنهـــا مجحفة ومخزية • وعلى ذلك وجدت رئاسة الجمهورية نفسها مضطرة لمواصلة الحرب رغم أنها كلفت خزانتها نفقـــات بلغت فى المتوسط ١٢٠٠٠٠٠ دوكا (٤٩) • أما على اليابسة فقد تحولت المعارك فى السنوات الأخيرة صوب الشمال ، ناحية ألبـــانيا ، وفريولى Fruiol ، وفى البحـــر ، وجه الأســـطول البندقى جهـــوده ، بنجـــاح ، الى مـــوانىء آســـيا الصغرى ، مثـــل أزميـــر ســـتالية ، وســـيكون Sequin ، وكوريكوس قوريقـــوس Korykos وسلفكة Sclefkè ، وسببت لهذه الموانىء أضرارا جسيمة • وكان لهذا التغيير فى اتجاه العمليات الحربية ما يبرره • وفى هذه المعارك ، تحملت البندقية وحدها تقريبا كل أعباء القتال : فلم تقدم لها الدول الغربية سوى مساعدات طفيفة غير منتظمة • وفى هذه الظروف زاد اهتمامها بالتحالف مع أوزون حسن (أوزوم كاسان) Auzoun-Hassan ; Uzùm Cassan أمير التركمان القوى والوحيد من بين أمراء الشرق الذى كان فى وسعه أن ينافس السلطان العثمانى • وبواسطة طرق يستطيع شعب من التجار مثل الشعب البندقى وحده أن يعرفها ويستخدمها ، توغل سفراء من الجمهورية حتى قلب بلاد الفرس حيث تحكم هذه الشخصية، واستقبلت البندقية فى مقابل ذلك سفراءه • وتم الاتفاق بين البندقية وبينه بخصوص العمليات

---

(٤٧) فى خصوص غزو الترك نجربونت ، يتعين أن نذكر من بين الأخبار الايطالية المعاصرة :

الأخبار الثلاثة التى جمعها السيد بوليدورى Polidori فى :
— l'Arch. stor. ital., Append IX, p. 395 ;
Giac. Rizzardo, La presa di Negreponte, éd. Cicogna (con doc.), Venez. 1844 ;
— Lettera di Giacomo Pugliese dans Malipiero, Annali, p. 56 et ss.;

— رواية رسمية حررت فى البندقية للبابا ، ويتألم الكاتب لفقد الجزيرة •

انظر :

Monum. Hung. hist., Acta extera, V, 184 et s.

(٤٨) Romanin, IV, 350 et s.

(٤٩) Malipiero, Annali, p. 66.

العسكرية التي ينبغي القيام بها ، والشروط اللازمة لعقد الصلح ، وتزويده بمدفعية الحصار • وقدمت جنوا مساعدتها لحلفائه امراء فرامان لكي يستعيدوا ممتلكات آبائهم في قليقية • وفي أثناء المفاوضات ظهر الأسطول البندقي على السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى ، وأطلع أوزون على مدى قدرته وكفاءته • ولسوء الحظ خابت الآمال التي انعقدت على انتصارات هذا الأمير : فقد انهزم في معركة ترجان Terdjan الكبرى (٢٦ يولية ١٤٧٣) ، ولم يعد يحارب ، ومن ثم رفض الاستماع الى الحاح جمهورية البندقية ، ودوق برجنديا (٥٠) في خصوص الحرب •

وهكذا أصاب البندقية في النهاية الارهاق الشديد من جراء هذه الحروب حتى انها فضلت قبول شروط مجحفة على أن تواصل الحرب (٥١) • ولم تضطر فقط لأن تبدد الأمل في استعادة أرجوس ، ونجربونت ، ولكن كان لابد لها أن تتنازل عن جزيرة ليمنوس أيضا ، كما فقدت في ألبانيا أسكوداري (اشقودرة) Scutari وغيرها • وقبل السلطان عن طيب خاطر أن يضم الى المعاهدة دوق ناكسوس الذي أصبح بعد سقوط نجربونت معزولا ومعرضا للغزو ، وكان للجمهورية في القسطنطينية ، كما كان لها قبلا بايل يتولى القضاء بين مواطنيه • والزمت حكومة البندقية بأن تدفع للسلطان كل عام على يد ممثلها مبلغ ١٠٠٠٠ دوكا في مقابل التصريح لها بممارسة التجارة في اقليمه(٥٢)• وذكر مؤرخ بندقي اسمه ماركو سابيلليكو Marco Sabellico أن هذا البند الأخير في معاهدة الصلح كان يتعلق بنوع خاص بتجارة البحر الأسود ، أما مارن Marin فانه يمضي الى أبعد من ذلك فيقول ان هذا المبلغ هو الثمن الذي فرضه السلطان ليفتح للبنادقة سوق البحر

(٥٠) نجد عرضا ممتازا للمفاوضات التي جرت بين البندقية وأوزون حسن في :
Berchet, La republica di Venezia et la Persia (Torno 1865), p. 1-21.
– ونشر السيد Cornet جزءا من الوثائق الخاصة بهذه المفاوضات في كتابين بعنوان :
— Le guerre dei Veneti nell' Asia, 1470-1474 et Lettere di Gio:afatte Barbaro.
– ونشر الباقي السيد Berchet نفسه في الكتاب السابق ذكره •
– وبخصوص دوق برجنديا انظر :
Dc la Coste, Anselme Adorne, p. 289 et ss. ; Messager des sciences histor., 1881, p. 25 et s.

(٥١) Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 295 et ss. ; Navagero, p. 1159 et s. ; Sanuto, p. 1210 ; Malipiero, p. 121 ; Sabellico, p. 802 ; Miklosich et Muller, III, 298.
– وقع جيوفاني داريو السفير البندقي على معاهدة الصلح في ٢٥ من يناير ١٤٧٩ ، وفي اليوم التالي وقع السلطان فرمانا ، انتدب به لطفي بك السيد للذهاب الى البندقية للعمل على التصديق على المعاهدة ، وتم ذلك في ١٥ مايو •

(٥٢) Malipiero : "per conto do merconjia".

الأسود التى أجبر الجنويون على الخروج منها بعد سقوط كافا (٥٣) . وينبئنا ماليبيرو Maliera وهو كاتب عليم ببواطن الأمور أن فقرة من التعليمات المبلغة الى المفوض البندقى تصرح له أن يدفع للسلطان مبلغا قدره ٨٠٠٠ الى ١٠٠٠٠ دوكا للحصول منه على ترخيص بالملاحة فى البحر الأسود ، الا أن المعاهدة نفسها لاتحتوى على شيء يشير الى سوق محددة (٥٤) . والواضح أنه اذا كانت المعاهدة تنص على منح البنادقة حرية التجارة فى كل أنحاء الامبراطورية العثمانية ، فان هذا البند يمنحهم ـ بذاته ودون حاجة الى نص صريح ـ الحق فى زيارة موانيء البحر الأسود دون صعوبة ، وهذه الموانيء كلها تقريبا أصبحت تابعة للامبراطورية العثمانية . ويعطى المؤرخ نافاجيرو Navagero تفسيرا آخر للبند المشار اليه ، فيقول ان مبلغ الـ ١٠٠٠٠ دوكا هذا هو مبلغ اجمالى يدفعه التجار البنادقة للسلطان الذى له فى مقابل ذلك أن يعطى لكل فرد على حدة حق الدخول فى امبراطوريته والخروج منها (٥٥) على أننا وسوف نرى فى خصوص اشتراطات معاهدة الصلح لعام ١٤٨٢ أن الرسوم الجمركية لم تلغ . وعلى أية حال فان معاهدة ١٤٧٩ كفلت للتجار البنادقة . لفترة معينة ـ الحق فى عبور الدردنيل والبسفور دون عائق ، وحرية التنقل فى الاقليم التركى ، وفى الفترة من معاهدة الصلح لعام ١٤٥٤ الى بدايات حرب ١٤٦٣ أبدى السلطان محمد الثانى شيئا من المحاباة للتجار البنادقة ، اما اعترافا منه للبندقية بالجميل لموقفها السلمى ، واما اعتبارا بأن الجنويين (أسرة جاتيلوزى) هم فى مقدمة الأعداء الذين اعتزم مهاجمتهم ، ومن ثم عهد الى التجار البنادقة باستغلال الشب فى فوجة ، ومناجم النحاس ، ومصنع الصابون ، ودور سك النقود ، والجمارك (٥٦) . وصار فى وسع البايلات البنادقة الذين أعيد تعيينهم فى القسطنطينية طبقا للمعاهدة أن يضطلعوا بمهام وظائفهم دون أية صعوبات خلاف تلك التى تلازم المواقف (٥٧) غير أنه منذ نشوب الحرب تغير وجه الأمور فجاة . ففى البداية القى السلطان فى

---

(٥٣) Sabell., l.c. ; Marin, VII, 193, 197.

ـ هذان الكاتبان يتحدثان عن ٨٠٠٠ دوكا فقط .

(٥٤) تذكر معاهدة ١٤٨٢ من الموانى التى تتردد عليها البحرية التجارية البندقية ، القسطنطينية ، وغلطة ، وطربزون ، وكافا ، ولكن هذه مجرد أمثلة :
Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 314 ; V. aussi, p. 346.

(٥٥) Navagero, l.c. ; Hammer, II, 169, et Zinkeisen, II, 433 et s.

(٥٦) Benedetto Dei, Cronica, dans Pagnini, II, 254 et s.

(٥٧) Stef. Magno, dans Hopf, Chron. gréco-rom., p. 199, 200, 201 Sanuto, Vite, p. 1153; Diar. Parm., dans Murat., XXII, 365 ; Romanin, IV, 309 et s., 324.

السجون البايل باولو باربارجو وكل البنادقة الذين اعتقلهم ، حيث مات الكثير منهم ، وصودرت أملاكهم (٥٨) ، واستطاع عدد منهم أن يفر ، ومنهم ، مستأجرا مزارع الشب بارتولومبو زورزى ، وجيرولامو ميشيل ، وكانا مدينين وقتئذ للسلطان بمبلغ ١٥٠٠٠٠ دوكا • وتبعا لمعاهدتى ١٤٧٩ ، ١٤٨٢ ، تلتزم الجمهورية بضمان سداد المبلغ (٥٩) وأفلس عدد كبير من البيوت التجارية البندقية فى القسطنطينية ، واندرينوبل ، وجاليبولى ، وفوجة ، وبروسة (٦٠) • وبعد قليل ، وفى مشهد مؤلم ، قطعت رؤوس أسرى الحرب البنادقة المرسلين من البيلوبونيز الى القسطنطينية (٦١) • وفى غضون الحرب اعتقل محمد مجموعات كبيرة من التجار البنادقة ، والقى بعض النبلاء من أعلى البرج الذى كانوا مسجونين فيه ، الخ (٦٢) • وفى هذه الظروف تناقص بطبيعة الحال تعداد الجالية البندقية فى القسطنطينية ، ولم يبق منها الا أفراد صمدوا بها رغم كل شىء ، منهم أنطونيو ميشيل Antonio Michiel الذى كان عنده فى عام ١٤٦٦ متجر للشب فى القسطنطينية (٦٣) ، وكان من المستحيل تقريبا أن تعيد الجالية تشكيل هيئتها بضم القادمين الجدد اليها ، فقد حظرت رئاسة الجمهورية منذ نشوب الحرب رحيل السفن التجارية الكبيرة الى القسطنطينية (٦٤) ، فضلا عن أن الخوف من قسوة الأتراك كان كافيا لايقاف الحركة التجارية •

واعتبارا من عام ١٤٧٩ اجتهد الطرفان فى تجنب نشوب المعارك الكبيرة : ومع ذلك لم تنعدم الظروف التى تشعلها • ففى أواخر أيام محمد الثانى قام بحملات فى البحر الأيونى ، وفى البحر الأدرياتى أثارت القلق فى البندقية ، ومن جهة أخرى كانت المثيرات الصادرة من الخارج

---

(٥٨) Dei, p. 254, 278 ; Navagero, p. 112.

ـ يزعم نافاجيرو أن بارباريجو مات فى السجن ، وهذا غير صحيح فالحقيقة أنه قد أطلق سراحه بعد حين ، وشغل من جديد منصب البايل فى عام ١٤٦٥ : Romanin, IV, 324.

(٥٩) Navagero, p. 1133, 1145, 1159 et s., 1169 ; Dei, p. 262.

(٦٠) Ben Dei (p. 235 et s.)

ـ يذكر « بن دى » هذه الواقعة ، ويزعم أن هذه الافلاسات قد ترتب عليها افلاس عدد من البيوت التجارية الفلورنسية •

(٦١) Ibid. p. 256 et s., 238.

(٦٢) Malipiero, p. 39.

(٦٣) Ibid. p. 258, 216, 242.

(٦٤) Malipiero p. 11.

تعمل على اخراج رياسة الجمهورية من تقاعسها : الا أنها كانت دائما ، ورغم كل شيء تتراجع أمام احتمال قطع العلاقات • وعندما توفى محمد الثانى خلفه بايزيد الثانى (١٤٨١ — ١٥١٢) ، وهو عاهل ذو طبيعة أكثر حبا للسلام (٦٥) واستجابة للتهانى التى أتى له بها أنطونيو فيتورى Antonio Viturri باسم الجمهورية ، منح بايزيد الثانى الجمهورية فى ١٦ من يناير ١٤٨٢ شروطا أفضل من التى كانت لها فى عهد الحكومة السابقة (٦٦) • فأولا ، أبرأها من مبلغ ١٠٠٠٠ دوكا التى كانت ملتزمة بدفعها كل سنة • وثانيا ، رخص لها بأن تدفع مبلغ ٥٠٠٠٠ دوكا على ثلاثة أقساط ، وهو قيمة الثلث الأخير من الدين الذى تركه مزارعو الشب عند فرارهم • وأخيرا خفض من ٥٪ الى ٤٪ رسوم الاستيراد التى كانت مفروضة على التجار البنادقة حتى ذلك الحين (٦٧) ، وضمن من جديد تثبيت البايل بكل حقوقه واعفاءاته التقليدية • ولكن هذه الفقرة لم تنفذ الا لمدة عشر سنوات • ففى عام ١٤٩٢ علم أن البايل جيرولامو مارتشيللو أرسل لحكومته رسائل مرموزة ، فأمره بمغادرة البلد خلال ثلاثة أيام ، وأعلن أنه من المستحيل عليه بعد ذلك أن يتحمل فى بلاطه وجود بايلات بنادقة أو غيرهم من السفراء الأجانب المقيمين فى بلده ، لأنهم ، بكتاباتهم السرية يذيعون فى الخارج أسرار حكومته • ثم أنه وجه دعوة الى التجار البنادقة حثهم فيها على البقاء فى امبراطوريته دون أن يخشوا شيئا • ولما أبدت رياسة الجمهورية بعض القلق ، طمأنها مؤكدا أنه لايفكر البتة فى خرق السلام • وبذلت الجمهورية مساعيها لحمل السلطان على الرجوع فى قراره ، ولكنها وجدته ثابتا لا يلين ، وقضت جالية البندقية سنين طويلة متعاقبة دون أن يكون لها رئيس (٦٨) •

وأخيرا ، فثمة دول ايطالية كانت تحسد البندقية على ما تتمتع به من رخاء ، فحرضت السلطان عليها : وكانت اللحظة مواتية ، اذ كانت البندقية تتقدم فى الشرق الأدنى تقدما أقلق السلطان ، ففى عام ١٤٩٨

---

(٦٥) فى غضون تمرد قام به جنود الانكشارية قبل اعتلاء هذا الامير العرش ، نهبت بيوت الأثرياء البنادقة والفلورنسيين بالقسطنطينية :
Diarium Parmense, p. 376.

(٦٦) Miklosich et Müller, Acta graeca, III, 313-318 ; Navagero, p. 1166.

(٦٧) Navagero, p. 1168.

(٦٨) Malipiero, p. 141 et s., 148, 152 ; Navagero, p. 1200 ; P. 27; Sanuto, Diarii, I, 323, 399 ; II, 139, 700.

حلت الجمهورية فى قبرص محل الملكة كاترين : فمنذ وفاة دوق ناكسوس، جيوفانى الثالث من آل كريسبو Crispo الذى قتل بخنجر طعنه به أحد القتلة ، حكمت الجمهورية الجزيرة وملحقاتهـا عن طريق حـكام تابعين لها (٦٩) • وعلى ذلك بدأ السلطان يعد معداته الحربية • ولم يعد التجار البنادقة يشعرون بالأمان ، ومن ثم اعتزموا مغادرة القسطنطينية ، وتصدير بعض ما يملكون عن طريق راجوزة ، ولكن حاكم القسطنطينية قبض على القافلة التى جهزت لهذا الغرض ، وباع ما تحمـل من سلع ، وقبض على التجار (٧٠) وسجنهم فى قلعة تشرف على البحر الأسـود (يولية ١٤٩٩) (٧١) • وعندئذ بدأت المعارك فى اليونان • وفى أثناء القتال ظهر جيش تركى كبير أمام أسوار مودون ، وكانت تحصينات هذا الموقع مشهورة بمناعتها ، ومع ذلك تمكنت المدفعية التركيـة فى بضعة أسابيع أن تحدث بها ثغرات نفذت منهـا جموع العدو فى ٩ ، ١٠ من أغسطس (٧٢) • وفى يوم ١٦ منه حل بكورون نفس المصـير (٧٣) • غير أن البندقيـة أصابت نجـاحا صغيرا كان فيـه بعض العزاء عن هذه السلسلة من الهزائم : فقد اسـترد البنادقة من الأتـراك موقع زونكيو Zunchio (نافارينو ــ حاليـا ميناء ببلوس فى البيلوبونيز) • وراودهم الأمل حينا فى أن يجعلوا من هذا الموقع قاعدة لعمليات حربية يستردون بها مودون وكورون ، ولكنهم فقدوا هذا الموقع نهائيـا فى ٢٠ من مايو ١٥٠١ (٧٤) •

ولنتذكر ما سبق أن قلناه بشأن أهمية مودون وكوردن بالنسـبة لبحرية البندقية ، الحربية والتجارية ، ومن ثم نفهم لماذا قرر مجلس

---

(٦٩) Hopf, art. Griechenland, op. cit., p. 165.

(٧٠) كان اهم هؤلاء التجار ، شخص يدعى اندريا جريتى ، وكان يحيط حكومة البندقية علما بكل ما يحدث فى تركيا (Sanuto, Diarii, I, 880) ؛ وكان بايزيد يعلم ذلك ، ومن ثم عامله بشدة :
P. Bembo, p. 153 ; Sanotu, Diarii, III, 1555 et s. ç IV, 254).

وقد صودرت ممتلكات اسرة جريتى ، واعلن السلطان استعداده لتعويض كل دائنيها الذين يقدمون مستندات صحيحة • وكان بيت « نازى » الفلورنسى فى مثل هذه الحالة ، وأعطت الحكومة الفلورنسية لوكيلها خطابات توصية للسلطان ولقنصل فلورنسا بالقسطنطينية :
Doc. sulle relaz tosc., p. 249 et s.

(٧١) Sanuto, Diarii, III, 15, 129, 131, 146, 181, 184. 1223, 1458, 1489, 1491, 1500, 1521, 1523, 1525, 1551-1558.

(٧٢) Sanuto, Diarii, p. 445 et s.

(٧٣) Sanuto, Diarri, III, 770.

(٧٤) Ibid, IV, 47-49, 328.

العشرة بذل كل ما فى المستطاع لانقاذ هذين الموقعين الحصينين ، وبررت قرارها هذا بأنه من المهم للجمهورية أن تحافظ على تفوقها البحـــرى ، ولماذا تعهد الرؤساء الدينيون فى المورة بالدفاع عن البلد ضد العدو حتى الرمق الأخــير • كانوا يدركون أن الأمــر يتعلق بخــلاص جمهــوريه البندقية أو بدمارها ، وبالعالم المسيحى كله ، وفيما بعد ، حين أبلغت حكومة البندقية الدول الصديقة بضياع مودون ، ذكرت فى رسائلهـــا اليهم المدينة بانهـــا « العش الذى كانت تلوذ به فيمـــا مضى كل السفن الذاهبة الى الشرق الأدنى » (٧٥) • وبعد كل الخسائر التى تحملتهـــا البندقية فى هذه الحرب المشؤومة ، اضطرت أيضا فى سبيل السلام أن توافق على التنـــازل عن ســـــانت مــورة Saint-Maure (جـــزيرة بالبحر الأيونى) ، وكان هذا أحد الشروط الأولى (٧٦) التى كانت أساسا لمعاهدة الصلح فى ١٠ من أغسطس ١٥٠٣ (٧٧) • وتضمنت هذه المعاهدة بنودا أخرى يصعب على أمة تجارية كالبندقية أن تقبلهـــا • ولكن اندريا جريتى Andrea Gritti ، وهو دبلوماسى قدير ، نجح فى أن يدخل بها بأثر رجعى بعض التخفيفات (٧٨) • من ذلك أن السلطان وافق على اعادة تعيين بايل للبنـــادقة فى القسطنطينية ، وكانت المعـــاهدة فى نصها الأول تقضى بتغيير هذا الموظف كل سنة ، فتوصل جريتى على أن يكون التغيير كل ثلاث ســنوات • وفيمـــا يختص بالجالية البنـــدقية طلب السلطان اخضاع كل مواطن بندقى مقيم فى الامبراطورية العثمانية منذ سنة لضريبة الرأس (الجزية) ، فنجح جريتى فى تغيير هذا البند ، فتم الاتفـــاق على الا يطبق هذا الالتزام الا بعـــد ثلاث ســـــنوات من اقامة المواطن •

وعند رحيل جريتى من القسطنطينية تـرك بهـــا لوناردو بمبو Lunardo Bembo نائبا للبايل ، وكانت التعليمات الجديدة الصادرة لهذا الموظف توصية بالأخص بأن يكون فى خدمة رعيته ، وأن يعمـــل على اطلاق سراح البنادقة المسجونين ، ويقـــدم عنـد الضرورة يد المساعدة لمبعوثى دوق ناكسوس • وكان التعســـاء الذين عادوا من

(٧٥) Hopf, op. cit., p. 166 et s. ; Sanuto, Diar., III, 445 ; Sathas, Doc., I, 318 et s.

(٧٦) Sanuto, Diaru V. 42 et SS. ; Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 344 et ss.

(٧٧) Sanuto. V. 77. ; la relation d'Andrea Gritti (dans Albéri Relaz., degli ambosc. venet., III, 3, p. 9 et ss. ; en abrégé dans Sanuto, Diar., V, 449 et ss), Sanuto, Diar, IV. 302; 319 et s., 328, V 18 et s. 22, 26, 41 et s, 75-77, 727, 431, Miklosich et Muller, I.C., p. 340 et ss.
Romanin, V, 152-154.

(٧٨) Sanuto, Diar., V. 454 ; Miklosich et Muller, 1.c., p. 355.

الأسر ، سواء كانوا من آسرى الحرب ، أو من ضحايا القراصنة يصلون دائما فى حالة يرثى لها من البؤس والفاقة ، وكانت مهمة توفير احتياجاتهم عبئا ثقيلا على البايلات : ومن ثم أوصى جريتى حكومته بالا تكون شحيحة فى صرفها مرتب بمبو ومن يخلفه (٧٩) • ولم يكن موضوع المرتب ، لسوء الحظ هو كل شيء ، فمهما كان هذا المرتب مرتفعا فانه لم يكن ليغير شيئا من الصعوبات والمخاطر المقترنة بالمنصب ، لذلك كانت الحكومة تجد مشقة فى العثور على من يقبل تولى هذا المنصب ، فلم ينتظم التعيين فيه هذه المرة الا فى عام ١٥٠٧ (٨٠) • ولم تضطرب العلاقات بين البندقية والباب العالى فى السنوات الأخيرة من عهد بايزيد ، خلافا لما كان متوقعا • وأصبح فى الامكان التفكير من جديد فى ارسال سفن تجارية الى القسطنطينية بطريقة رسمية • ومع ذلك قدم فى عام ١٥٠٤ اقتراح الى مجلس آل بريجادى Pregadi بتنظيم هذه الخدمة مع استخدام محطات متوسطة فى زانتى Zante (جزيرة بالبحر الأيونى) نوبليا Nauplie ، ولم يحصل الاقتراح على موافقة أغلبية الأصوات • وثمة من يدعى أنطونيو دى بولو Antonio di Polo كان يعتزم الابحار الى القسطنطينية على متن سفينة شراعية صغيرة (كرافيل) ومعه سلع ثمينة ، فطلب حراسة للسفينة ، فلم يحصل على موافقة بذلك الا لغاية مدخل الدردنيل (٨١) • ونشبت حرب أهلية شغلت كل اهتمام السلطان ، وكانت البندقية هى الأخرى فى صراع مع جيرانها الذين كانوا ينازعونها أملاكها على اليابسة ، يساندهم حلف قوى مع رابطة كمبرى Cambrai ، ولم يكن فى وسعها أن تقاوم بقواتها وحدها ، ومن ثم لم تفكر فى العودة الى محاربة السلطان لاستعادة محطاتها التى فقدتها فى الشرق الأدنى ، بل التمست مساعدته ضد الامبراطور مكسيميليان (٨٢) ، فقدم لها السلطان العون الذى طلبته ، وعندما اعتلى العرش سليم الأول ابن بايزيد أوفدت لتهنئته أنطونيو جستنيانى • وقبل السلطان الجديد تجديد المعاهدات القديمة ، ولكنه رفض رفضا قاطعا منح

---

(٧٩) Gritti, Relaz., l.c., p. 42 et s. ; Sanuto, Diarii, V, 77, 273, 448 et s., 729, 750, 760 et ss. etc.

(٨٠) Préface à la Relation d'Ant. Giustiniani, dans albéri, I.c., p. 46.

(٨١) Sanuto Diarü, V, 857, 902.

(٨٢) Romanin, V. 234., 253 et s. 365 et s.

— فيما قبل ، عرض الامبراطور وفلورنسا على السلطان ان يتحالف معهما وان يتقاسمون بالتراضى اقليم البندقية ولكنه رفض • انظر :

Romanin. V. 253 ; Rawdon, Brown Calenrar of tate papers, venetain, II, p. 44, no. 100.

الامتيازات الجديدة التى طلبهـا منه السفير ، وكانت تتعلق بشــهادة المسيحيين ضد الرعاية الترك فى المسائل المتنازع عليها ، ووصايا الرعايا البنادقة المتوفين فى الاقليم التركى ، وأخــيرا مدة تولى وظيفة البايل ، وكانت رئاسة الجمهورية ترغب فى زيادة ســنة واحــدة لهذه المدة (أربع سنوات بدلا من ثلاث) (٨٣) .

ولما كان سليم الأول منهمكا فى حروبه فى فارس وسوريا ومصر ، فانه لم يكن فى صراع جدى مع البندقية ، وتقع مدة حكمــه على قصرها (١٥١٢ ــ ١٥٢٠) أحداث ذات أهمية كبرى لتجارة البندقية والغرب كله . فالواقع أن هذا الأمير هو الذى بسط سيادة آل عثمان على سوريا ومصر . واعتبارا من ذلك العهد ، كانت السفن التجارية الأوروبية أينما اتجهت ، شمالا عبر البسفور والبحر الأسود للوصول الى كافا أو طربزون، أو شرقا الى بيروت أو طرابلس أو الاسكندرية فانها لابد وأن ترسو فى اقليم تركى . ومنذ القضاء على الممالك السلافية (الصقلبية) الجنوبية ، ولم يعد البنادقة يستطيعون الوصول الى القسطنطينية عن طريق البر كما كانوا يفعلون من قبل دون أن يمروا بأقاليم تركية ، فكانت القوافل التى تخرج من سبالاتو Spalato أو راجــوزة أو مــن أية نقطــة على شــاطىء البحر الأدرياتى ، وتقطع بالعرض الشريط الضيق من الأرض الذى يشكل دلماشيا (اقليم بيوغوسلافيا بحذاء شاطىء الأدرياتى) ، تدخل للتو فى اقليم تركى . وقد وصفت الطرق التى تتبعها هذه القوافل فى أخبــار زمن لاحق : فالطريق الذى يبــدأ من راجــوزة قد وصف فى ثــلاثة كتب : Delle cose dé Turchi لبنديــــو رامبــراتى Denedetto Ramberti (١٥٣٤) (٨٤) ، ووصف الطريق الذى يبدأ من سبالاتو فى: la Descrizione del viazo del constantinopoli لكاتيرينو زينو Caterino zeno (٨٥) . وكانت محطات المبيت على الطريق الأول هى تريبنيه Trebinje وفوتشا Fotcha ، وعلى الطريق الثانى ليفنو Livno (كليمنو Climno) ، وسيرابيفو Serajevo (ســـيراليو Serraglio) ، ويلتقى الطريقــان عنــد بليفليه Plevlge حيث سطا فريق من اللصوص فى عام ١٥٢٩ على قافلة بندقية كبــيرة

---

(٨٣) Romanin, V, 366; Relation de Giustiniani dans Albéri. l.c., p. 45 et ss.

(٨٤) Dans les Viaggi fatti da Vientia alla Tana, etc., p. 109 b-143. a. ; Agostino, Scrittori veneti, II, 568 et s.

(٨٥) Ed. Matkovie, dans les Starine de la société philotechnique d'Agram, X 1878.

ونهبوها (٨٦)٠ ومن هذه النقطة يجتاز الطريق الموحد بريبولى Prepolje على نهر ليم Lim ، ونوفى بازار Novibazar وفيهـا بعض المنشآت للبنادقة (٨٧) ٠ وابتـداء من نيش Nich (أو نيس) ٠ يختلط الطريق مع الطريق الكبير الممتد من بلجـراد الى القسطنطينية ، ويمر بالقرب من صوفيا ، وفيليبوبولى Philippopli ، وأندرينوبل (حاليا أدرنة) التى كان لها وقتئذ أهميـة تفوق أهميـة القسطنطينية باعتبارها سوقا تجارية (٨٨) ٠ وأخيرا ، وبعد مسيرة ثلاثين يوما ، يصل المسافر الى عاصمة الامبراطورية التركيـة ٠ ومع أن الحـركة التجارية بالقوافل بين البحر الأدرياتى والبسـفور لم تبدأ نشـاطها الا فى القرن السادس عشر ، فاننا نسلم دون تردد أنها ترجع الى العصور الوسطى ، غير أنه لايسعنا أن نتتبعها حتى تلك العصور ، فقد وصلنا الى مشارف العصور الحديثة (٨٩) ٠ الا أننا نستطيع ببضع كلمات أن نتتبع حتى العصر الحديث قصة الممتلكات التى احتفظت بها البندقية فى الشرق الأدنى فى الفترة التى تنتهى عندها العصور الوسطى ٠

فعلى اليابسة لم تكن البندقيـة تملك سوى مدينتين حصينتين ، هما نوبليا ، ومونمبازيا : وقد استولى عليهما الترك فى عـام ١٥٤٠ ٠ ومن عـام ١٥٣٦ الى عـام ١٥٣٨ قضى خير الدين بربروسا المشهور على عدد كبير من الامارات الجزيرية التى كانت يحكمها أسرة من أصل بندقى ، وانتزع من البندقية بعضا من ممتلكاتها المباشرة ، ايجينا ، وباثموس Pathmos ، ومن جزر سبورادس الشمالية ، سكيروس ، وسكيانوس، وسكوبيلوس ، حتى لم يبق لها فى صلح عام ١٥٤٠ من هذه المجموعة سوى جزيرتى تينوس وملكونوس اللتين احتفظت بهما حتى عام ١٧١٨ ٠ وفى عام ١٥٦٦ اجتاحت عاصفة جديدة جزر الأرخبيـل ، فقد انتزع بيالة باشا Pialèh pacha جزيرة ناكسوس من جاكوبو الرابع Jacopo IV آخـر أدواق أسرة كريسبو ، وجزيرة أندروس من آل سامارييـا Samaripa ٠ وكانت كل جزيرة تسـقط فى ايـدى الترك ، حتى ولو كانت تنتمى الى أسرة مستقلة ، تحمل طابعا من التفوق

(٨٦) Ramberti p. 114, a.

(٨٧) Cat. zeno. l.c. p. 8.

(٨٨) Ibid., p. 16.

(٨٩) الى من يرغبون فى دراسة علاقات البندقية الدبلوماسية مع الباب العالى بعد العصور الوسطى أن يرجعوا الى الأجزاء الثلاثة والخاصة بالأتراك فى :

— Relazioni degli ambasciatori veneti, éd. Alb&re : dans l'étude de M. Belin intitulée : Relations diplomatiques de la republique de Venise avec la Turquie (Journ, asiat., 1876, nov.-déc., p. 381 et s).

البحرى البندقى • وبقيت جزيرة كانديا (كريت) وحدها صامدة ، ولكن فى حالة سيئة للغاية ، فقد خربتها الزلازل ، وفتك بسكانها الطاعون ، وأفقرتهم الضرائب المرهقة • ومن ٢٥٫٠٠٠ الى ٢٦٫٠٠٠ دوكا التى كانت الجزيرة تدفعها للخزانة ، كان القسم الأكبر منها يأتى من تصدير النبيذ الذى كانت الزيادات غير المعقولة فى الضرائب تعرقله من وقت الى آخر • وكان أسوأ ما فى الأمر ندرة وصول السفن الكبيرة : فلم يعد الأمر فى ذلك كما كان من قبل حين كانت السفن السورية تتوقف عند الجزيرة فى ذهابها وعودتها ، وتفرغ بها شحنتها من المنسوجات الصوفية والتوابل (٩٠) • وكانت جمهورية البندقية قد أهملت هذه المستعمرة سنين طويلة ، وأخيرا حين اهتم جاكوبو فوسكارينى Jacopo Foscarini (الحاكم العام provediteur) بين عامى ١٥٧٤ ، ١٥٧٧ باجراء اصلاحات بالجزيرة ، كان الوقت قد فات لتحقيق تحسينات مستديمة ، فكثيرا ما كان العدو يغير عليها ، وكانت النفقات اللازمة للدفاع تستنفد مالية المستعمرة المضطربة • وأخيرا قرر مراد الرابع فى عام ١٦٦٨ وضع حد لمشكلتها فأرسل اليها حملة استولت عليها نهائيا •

ومنذ سقوط لسبوس (١٤٦٢) لم نعد نعرف شيئا عن المستعمرات الجنوية الواقعة فى الامبراطورية البيزنطية القديمة ، ويمكن تلخيص تاريخها فى بضعة سطور • فمستعمرة بيرا عاشت فى الظلمات حياة شاقة ، ثمة مثال واحد يكفى لايضاح كيف كان السلاطين يعاملون الأفراد البائسين الباقين على قيد الحياة من المستعمرة القديمة • ففى عام ١٤٧٦ غرقت سفينة محملة بشحنة ثمينة جمعت فى حوض البحر الأسود من أجل السلطان ، وكان غرقها بخطأ من القبطان ، على الأقل حسبما ادعى البعض • ودون أن يتوفر لدى السلطان معلومات كافية عن هذا الحادث ، قبض على مواطنى القبطان ، وهم أبرياء من الخطأ الذى اقترفه ، وأجبرهم على دفع قيمة الشحنة المفقودة كلها (٩١) • ولم يكن فى مقدور هؤلاء المواطنين أن يقاوموا هذا العمل التعسفى ، ومن ثم رضخوا له ولم يمنعهم ذلك من استخدام كل ما فى طاقتهم لتدبير دسائس ضد البنادقة ، خصومهم القدامى ، ويتحدوا مع الفلورنسيين للحيلولة دون استقرار السلام بين الباب العالى والبنادقة (٩٢) •

---

(٩٠) Sanuto, Diarii, II, 467 et ss., III, 839.

(٩١) Bened. Dei, p. 270.

(٩٢) Sanuto, Vite, p. 1183.

أما مستعمرة خيوس الجنوية ، فانها كانت فى أواخـــر العصور الوسطى ، ومازالت فى القرن الأول من العصر الحديث فى حالة من الرخاء أفضل من الحالة التى كانت عليها بيرا • وكانت جنوا ، كما عرفنا – قد تنازلت عن هذه الجزيرة لآل جستنياني • فلم تتعرض الجماعة التى تملك الجزيرة للنهب والسلب من جانب الأتراك ، لا لأنها تمتلكقوات عسكرية كبيرة تستخدمها لفرض احترامها على الأتراك ، اذ كان كل ما لديها من جيش وأســـطول لايزيـد على فرقة يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثمـائة وثمانمائة جندى من المرتزقة ، وسفينة حربية واحدة ، وكانت التعزيزات التى يرسلها اليها الوطن الأم أحيانا ، فى الأوقات العصيبة (٩٣) قاصرة على أشـياء قليلة • وتوالت عليهـا التهديدات والمكائد من كل نـوع ، وغارات القراصنة ، انما أجأ الماهون ، ليحول دون تفكير السلاطين فى غزوهم الى وسيلتين : أولاهما : الا يفعـل شيئا من شأنه أن يعكر صفو السلام ، وثانيهما : أن يواظب على سداد الجزية المفروضة على الجزيرة ، وكانت محـــددة فى عــام ١٤٥٥ بمبلغ ١٠٠٠٠ دوكا ، زيـدت الى ١٢٠٠٠ (٩٤) فى حوالى عام ١٥٠٠ ، وبلغت أخيرا مبلغ ١٤٠٠٠ دوكا• والواقع أن الماهون لم يكن فى حـالة تسمح له بدفع مثــل هذه المبالغ لو ضعفت الحركة التجارية فى خيوس كمـــا ضعفت فى ســائر جزر الأرخبيل • غير أن حالة هذه الجزيرة كانت مختلفة بنوع خاص • فمن جهـــة لم يزل انتـــاج « المصطكة » على المســتوى الذى كان عليه من قبل ، فكانت هذه المادة مطلوبة كمـــا كانت قبلا ، وكانت فى القـــرن السادس عشر تغل ســـنويا للماهون دخـــلا قدره فى المتوســـــط ٩٥٣٠٠ دوكا ، وكان هذا الانتاج الذى اختصت به الجزيرة يجلب اليها دوما التجار الغربيين • ومن جهة أخرى ، اذا كان مرور السفن القادمة من البحر الأسود والقسطنطينية ، وتوقفها بالجزيرة أخذ يتناقص ، فانها (أى الجزيرة) لقربها من سواحل آسيا الصغرى كانت على علاقة تجارية دائمة مع هذا القطر • وكانت جنوا ، أو بالأحرى الماهون ، تملك هناك ميناء آهلا بالسكان ، هو ميناء باساجيو Passaggio ، ترد اليه ، وتتركز فيه منتجات آسيا الصغرى ، ومنه تنقل الى عاصمة الجزيرة ، ولم يكن هذا الميناء محصنا • ففى عام ١٤٧١ أغار عليه فجاة أمير البحر البندقى موتشينجو Mocenigo أثناء جولة له فى تلك الأنحاء ،

---

(٩٣) Giustinian, Annali, p. 226, 230, 251 ; Atti della Soc. lig., VII, VII, 2. p. 93 et ss.

(٩٤) Martin von Baumgarten, p. 613.

(٩٥) Hopf. art Giustiniann, p. 333.

واستولى عليه ، ونهب ما فيه ، وحمل جنوده السجاجيد المطرزة ، والحرائر المزخرفة بألوان منوعة ، وشملات ، وأشياء أخرى ثمينة تقـــدر بمبالغ جسيمة (٩٦) ، ولعل هذه المعلومة تعطى فكرة عن كمية السلع التى كانت ترد الى الجزيرة ، وتأتى تجارة الغرب للحصول عليها (٩٧) ٠

وربما كان من المحتمل أن يتمتع الماهون بهذا الوضع زمنا طويلا لو لم تحدث فى عام ١٥٦٤ أزمة أصبح من المستحيل عليه بسببها أن يدفع الجزية ، وكان هذا من الأمور التى لايتسامح فيها السلاطين بالمرة ٠ وفى عيد الفصح عام ١٥٦٦ ظهر أسطول تركى كبير بقيادة « بيالة باشا » فجأة على مرأى من الجزيرة ، وأسر أمير البحـــر غدرا زعمـــاء الماهون ، ومن ثم استسلم له أفراد الجالية دون مقاومة بعد أن حرموا من قادتهم ٠ ومما يذكر أن فى الأزمة التى أثارت هذه الكارثة ، تركت جنوا بصورة مخزية مستعمراتها تعتمد على مواردها الخاصة فقط (٩٨) ٠

وقد رأينا أن البندقية والباب العالى كانا فى صراع متواصل ، أحيانا فى سبيل السيادة البحرية فى المياه اليونانية ، وأحيـــانا لتملك بعض الأقاليم التى ادعت الأولى (البندقية) الاحتفـــاظ بها لأنهـــا بمثابة نقط ارتكاز لقوتها التجارية ، فى حين طالب بها الثانى (الباب العالى) باعتبارها أجزاء مكملة للأمبراطورية اليونانية ، وترتب على ذلك حدوث انقطاعات مستمرة فى التجارة بين الأمتين مما عرقل نمو هذه التجارة ، ومن جهـــة أخرى لم تكن سياسة الغزوات التى يتبعها السلاطين تراعى مصـــالح الممتلكات الجنوية ، والأسر التى من أصل جنوى ، فى الأرخبيل ، وفى البحر الأسود ، حتى تحولت الصداقة القديمة التى يكنها الجنويون للترك الى شعور بالشك والنفور والحقد الشديد ، وهو أيضا شعور بالعجز ، يؤثر تأثيرا مدمرا على العلاقات التجارية ٠ وكان وضع فلورنسا فى هذا الصدد مختلفا كل الاختلاف : ذلك لأنها كانت حديثة العهد بالرخـــاء ، ولم تكن تملك شيئا فى الشرق ، ومن ثم لم تفقد به شيئا (٩٩) ٠ وكان

---

(٩٦) Coriol. Cepio, De Mocenici gesti (Basil. 1544), p. 8, 9.

(٩٧) كان للبندقية هناك قناصل حتى القرن السادس عشر :

— Sanuto, Diarü, pascsim.

(٩٨) ما سبق ذكره مأخوذ فى أساسه من مقال « جوستنيانى » للسيد هوف :

— Giustiniani de M. Hopf. dans Er ch et Gruber.

(٩٩) كانت دوقية أثينا بنوع ما اقليما فلورنسيا طالما حكمتهـــا أسرة أكشـــيابولى Acciaiuoli واستفادت تجارة فلورنسا بكل الامتيازات التى كفلها لها هذا الوضع ٠ المؤرخ الفلورنسى بنديتو دى من أفواه مواطنيه الذين أقاموا فى البلدة من أجل أعمالهم التجارية ، الرواية التى يحكيها بشأن الأحداث التى صاحبت نهاية هذه الدوقية ٠

فى وسع السلطان التركى أن يمد فتوحاته فى اليونان دون أن يمس أى اقليم فلورنسى ، واذا قابلت أساطيله علما فلورنسيا ، لم يكن هذا العلم مرتفعا على سفن حربيــة ، وانما كان بالأكثر يرفرف فوق قوافل صغيرة من سفن تجارية • ويبدو أن الاثنين (السلطان ، وفلورنســـا) أدركا امكانية توثيق علاقات تجارية دائمة بينهما • وفى عــام ١٤٥٥ أعــربت بلدية فلورنسا لمحمد الثانى عن شكرها للحفاوة التى اســتقبل بهــا مواطنيها فى الامبراطورية العثمانية ، ورجته أن يستمر فى منحهم حرية التجارة ، وأضافت ــ فى رسالتهــا اليه ، أن لها رغبة قوية فى توثيق علاقات تجارية مع رعاياه (١٠٠) • وحظت الخدمة الملاحية بين فلورنسا والقسطنطينية ، والتى كانت منتظمة قبلا فى عهد الأباطرة البيزنطيين بتشجيعات رسمية جديدة ولما كان من المتوقع دائما الاصطدام بقراصنة، وكان وجود السفينة منعزلة وحدها يعرضها لخطر الوقوع فى الأسر ، فقد ضم فى عام ١٤٥٧ الى السفينة الوحيــدة التى كانت تؤدى الخدمة البحرية منذ البداية سفينة ثانية ، ثم ســفينة ثالثة فى عام ١٤٦١ ، وكانت المراسى النظامية (فى عام ١٤٦٠) هى : فى الذهاب ، خيوس وجاليبولى ، وفى العودة جاليبولى ، ويشحن منها القطن ، وفوجيــــة Foglia ، وخيوس ، وكان على قائد الأسطول الصغير أن ينهى أعماله بالقسطنطينية فى مهلة محددة ، فاذا نجح فى كسب بعض الوقت أذن له أن يمد رحلته الى كافا وطربزون • وكان من العسير العثور على مجهزين لسفن بلاد الروم Romanie ، ومع ذلك لم يــكن فى المستطاع التخلى عن هذه الخدمة البحرية ، اذ كان فى ذلك امتهان لكرامة البلد ، واضرار بصالح التجارة ، وبدأت الحكومة بأن تكلفت بنفقــات تجهيز احدى السفن ، ثم اعتمدت فيما بعد اعانات لمجهزى السفن (١٠١) • ومع كل هذه المزايا ، لم توفق بالمرة فى اطلاق رحلة واحدة منتظمة كل سنة : والواقع أنه تحتم مرتين أو ثلاث مرات تأجيل الانجاز حتى لا تواجه السفن فى طريقها أساطيل حربية تركية تعمل فى الأرخبيل • ومع ذلك كانت البضائع بوجه عام غير كافيــة لتكملة شحنة سفينتين أو ثلاث • وجدير بالذكر أنه بخلاف هذه السفن ، كانت تبحر أيضا الى القسطنطينية سفن تجارية يستأجرها بعض الأفراد ، ذلك لأن فلورنسا لم يكن ينقصها تجاراً أثرياء بدرجة تسمح لهم بالاستغناء عن الوسائل التى توفرها لهم

(١٠٠) Doc. sulle relaz. tosc., p. 182.

(١٠١) Ibid. p. 293-313.

ــ نجد فى صفحة ١٨٦ من هذا المرجع خطاب توصية موجها الى السلطان ، أعطته حكومة فلورنسا للتجار الفلورنسيين •

الحكومة · فمن هؤلاء التجار من يسافر بطريق البر الى أنكونا ، ومنها يركب سفينة تلف حول البيلوبونيز الى أن تصل الى القسطنطينية (١٠٢)· أو ينزل برا عند راجوزة ويمضى فى طريق يؤدى به الى المكان الذى يقصده عبر الأراضى التركية (١٠٣) · وكان هذا الطريق (١٠٤) هو الذى يتبعه عادة ، فى الذهاب والعودة قناصل فلورنسا وسفراؤها الموفدون الى القسطنطينية ، وكان لهم فى هذا الطريق مزية ، اذ يجدون فى راجوزة قنصلا من أمتهم (١٠٥) · أما التجار الفلورنسيون الذين يسافرون الى القسطنطينية فى سفن أنكونية فانهم يشعرون بشىء من الحيرة عند وصولهم : فالى من يدفعون الرسوم الواجب دفعها الى القناصل : الى قنصل فلورنسا أم الى قنصل أنكونا ؟ ولما أخذ رأى حكومة فلورنسا فى هذا الموضوع قررت أنه يتعين فى هذه الحالة أن يؤخذ فى الاعتبار جنسية السفينة ، لا جنسية الشحنة ، ومن ثم يدفع الرسم الى قنصل أنكونا (١٠٦) وهناك أيضا طريق ثالث يتبعه بعض التجار : فبعد أن يمروا بأبوليا Pouille ويصلوا بطريق البر الى لتشيه Lecce ، ولكنهم بجنوب ايطاليا) ، يركبون السفن الى أفلونا avlona (بوليا ـ يلقون بها كل أنواع المصاعب مع السلطات التركية (١٠٧) · ولعلنا ندهش من تفضيل التجار الفلورنسيين للطرق البرية : فالسبب فى ذلك على الأرجح ، أنهم يتجنبون لقاء القراصنة الذين يغيرون على جزر الأرخبيل وينهبونها ، أو لقاء سفن تابعة لأمم معادية وكثيرا ما أدت هذه اللقاءات الى مصادمات (١٠٨) ينجم عنها فى كل مرة خسائر جسيمة تصيب التجارة ، وربما كانوا يقصدون تصريف سلعهم فى الأقاليم التركية ·

---

(١٠٢) Doc. sulle rèlaz. tosc., p. 200.

(١٠٣) Ibid. p. 260 et s.

كانوا أحيانا يركبون سفينة راجوزية أن وجدت فى الميناء على أهبة الاقلاع متجهة الى القسطنطينية ·

(١٠٤) Doc. sulle relaz. tosc., p. 228 ; Makuscev. Monum. his. Slav. merid., I. 1, p. 463 et s., 467, 469, 474 et s., 477.

(١٠٥) Ibid. p. 463 ; Cf. (Pagnini) Della decima. II, 48.

(١٠٦) Ibid. p. 204, 216.

(١٠٧) Ibid.. p. 218, 238, 242, 253 et s. ; Sanuto, Diarii, V, 615. (Doc. sulle relaz. tosc, p. 200 s).

(١٠٨) مثال ذلك : فى عام ١٤٦٤ قبالة تنيدوس ، مع قرصان اسبانى وعام ١٤٨٤ ، قبالة بولونيا مع بعض البنادقة (ibid., p. 236) ؛ وفى عام ١٤٨٨ قبالة لنوس مع جنويين (ibid, p. 239) ، وفى عام ١٥٠٨ مع القبطان التركى كمالى وفى عام ١٥١٠ بين رأس ماليا Cap Malée وشيرا Cerigo مع بنادقة (ibid. p. 260)·

ان ما ذكرناه آنفا يفسر لنا كيف أن جزءا من ايجارات السفن (النول) الذى تعتمد عليه الحكومة كان يضيع عليها ، وأيضا السبب فى أن عددا قليلا جدا من مجهزى السفن هو الذى يتقدم لأداء هذه الخدمة البحرية . الا أن هذا لم يكن هو كل شىء : اذ تأتى العراقيل أحيانا من الخارج . ففى عام ١٤٦٣ أوفدت جمهورية البندقية بنوع خاص سفيرا الى فلورنسا ليقنع السلطة الحاكمة بألا ترسل فى تلك السنة أية سفن الى الشرق الأدنى ، متذرعة بأن الأتراك يمكن أن يستولوا على هذه السفن ويسلحوها ويستخدموها ضد المسيحيين ، وبخاصة البنادقة ، اذ كانت البندقية وقتئذ فى حرب معهم ، وتملك أسطولا على أهبة الاقلاع. فأجابت الحكومة الفلورنسية بأنه قد تم صنع أقمشة صوفية كثيرة ، وتم شراء سلع كثيرة لتصديرها فى الرحلة البحرية القادمة ، وأنه قد فات الأوان لالغاء استعدادات الرحيل ، فضلا عن أن وجود هذه السفن فى تركيا مفيد لحماية الكثير من التجار الفلورنسيين الموجودين بها ، ثم ان موعد وصول هذه السفن الى تلك النواحى يجعل خطر ضمها الى الأسطول التركى خطرا وهميا (١٠٩) . ويبدو أن اهتمام البنادقة بالبحرية الفلورنسية فى هذا الظرف أمر غير طبيعى ، ولابد أنه يخفى دسيسة ، ذلك ببساطة أنهم يريدون الحيلولة دون سيطرة الفلورنسيين على سوق القسطنطينية فى الوقت الذى يكونون هم فيه ـ أى البنادقة ـ منشغلين بمحاربة الأتراك .

والواقع أن القسطنطينية كانت مسرحا لمنافسة شديدة بين البنادقة والفلورنسيين ، وكانت هذه المنافسة فى المجال التجارى مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعداء السياسى القائم بين الجمهوريتين : فقد كانت فلورنسا فى ايطاليا تكافح بضراوة لحفظ التوازن الذى تهدده توسعات البندقية الاقليمية . وكانت رؤية البندقية متورطة بمفردها فى حرب مع الترك فرصلة غير متوقعة ، وحيث يأمل الفلورنسيون فى قرارة نفوسهم ألا يخرج البنادقة من هذه الحرب الا وهم منهوكو القوى ، ومن أجل ذلك يتحتم بكل ثمن الا تتحول هذه الحرب الى حرب أوروبية ، ولما ضغط عليهم البابا بيوس الثانى ليشتركوا فى هذه الحرب ، رفضوا ، وعللوا رفضهم باستحالة استدعاء سفنهم التجارية ومواطنيهم فجأة من تركيا (١١٠) . وحين اكتسبت البندقية فى الشرق حليفا قويا فى شخص أوزون حسن ،

---

(١٠٩) Rinuccini, Ricordi, p. xci.

الواقع ان ثلاث سفن كبيرة أبحرت تحت امرة لويجى بيتى : Dei, p. 238.

(١١٠) Voigt, Enea Silvio Piccolomini, III, 76, 687, 691.

خابت آمال الفلورنسيين ، ومن ثم حاولوا مختلف الدسائس لينتزعوا من البنادقة ثمار هذا النجاح (١١١) • ولكن لم يكن كافيا عزل البندقية ، بل كان من الضرورى أيضا اثارة غضب السلطان عليها ، وتزويده بكل الوسائل الكفيلة بهزيمتها هزيمة ساحقة • وتكفل بعض الفلورنسيين بالاستحواذ على وسائل كتبها بعض التجار البنادقة ليضعوها تحت انظار السلطان • وكلما كانت هذه الرسائل موسومة بالكراهية للعاهل التركى، وكشفت عن خطط حكومة البندقية ، زاد ارتياح فلورنسا (١١٢)• واجتهد القنصل الفلورنسى ميناردو أوبالدينى Minardo Obaldini في أن يزود السلطان بكل المعلومات الكفيلة بايذاء البنادقة (١١٣) كتب « بن – ديى » Ben Dei في صالح الفلورنسيين يقول ان السلطان القى التجار البنادقة في السجون في بداية الحرب وانتقلت مساكنهم الى خصومهم ، ومن ذلك الحين تعزز تفوق الفلورنسيين في القسطنطينية بصورة لاجدال فيها ، وكانوا يحضرون مجالس السلطان ، ويبدون له في علانية مشاعر الود والصداقة ، ويقيمون الأعياد العامة احتفالا بانتصاراته• وأخيرا فانهم أبدوا براعة في اقناعه بالأهمية التى صارت لأمتهم في مضمار التجارة ، وفى اكتساب ثقته حتى استثاروا بذلك حقد البنادقة ، وجنويين يرا وسائر الأمم الايطالية المهتمة بتجارة الشرق الأدنى (١١٤) • وفى عام ١٤٦٦ شاع في نفوسهم الخوف على مراكزهم من نتائج المفاوضات التى كانت جارية بقصد التوصل الى عقد مصالحة بين البندقية والسلطان، ومن ثم اتفقوا سرا مع الجنويين على افشال هذه المفاوضات (١١٥) • وبدأ الرأى العام يقلق من هذه الألفة القائمة بين فلورنسا والباب العالى ، وتثور المشاعر من وقت لآخر فتكشف عن خبايا النفوس فى هذا الخصوص • وفى أعماق هذه الحركة لم يكن من العسير معرفة أن الغيرة التى أثارها الرخاء التجارى الذى تتمتع به فلورنسا كانت هى السبب الرئيسى فى كل هذا الانفعال ، ومع ذلك رأت حكومة الجمهورية الفلورنسية أنه لابد لها من الاهتمام بهذه الحال ، ومن ثم أوقفت مؤقتا رحيل السفن الى القسطنطينية ، واستدعت اليها رؤساء البيوت التجارية المنشأة بهذه العاصمة • وامتثالا لهذا الأمر قام هؤلاء الرؤساء

---

(١١١) Malipiero, Annali veneti, p. 87.

(١١٢) Dei, Cronica florent., l.c. p. 254 et s., 259.

يتبجح « ديى » بأنه اشترك فى هذا العمل • انظر ص ٢٥٧ •

(١١٣) Sanuto, Diarii, VIII, 145.

(١١٤) Dei, l.c., p. 254-262.

(١١٥) *Malipiero*, p. cs ; *Sanuto*, p. 1183.

بتحصيل كل ما أمكنهم تحصيله من أموال ، ورحلوا ومعهم كل ما يملكون على سفن أنكونية ، هاجمها أسطول بندقى صغير (فى خريف ١٤٦٧) فناله مودون ، فاستولى عليهـا ونهب ما فيها • ولكى تبرز البنـدقية فعلتها هذه ، تذرعت بحجة بادية الزيف (١١٦) فادعت أن الفلورنسيين يستحقون هذا المصير لأنهم ساندوا السلطان بقوة السلاح •

ولم يدم طويلا انقطاع الملاحة بين فلورنسا والقسطنطينية • ففى عام ١٤٦٥ مرت « الغليونيات » (سفن شراعية قديمة تشبه فى شكلهـا الغليون ـ المترجم) الفلورنسية المتجهة الى القسطنطينية بجزيرة خيوس ، ونبت العبارات الواردة بخطاب الشكر الموجه من حكومة فلورنسا الى الطاعون لحفاوته ببحارتها أنه كان فى نية الحكومة ارسال بعثة مماثله فى عام ١٤٦٦ (١١٧) •

عندئذ حدث الانقطاع فى حـركة الملاحـة الذى قلنا عنه كلمـة فى الفقرة السابقة ، وامتد هذا الانقطاع حتى عام ١٤٧٢ • وفى هذه السنة اقلعت من جديد سفينتان الى القسطنطينية • ولما استفسر السلطان عن سبب هذا الغياب الطويل ، تعلل الفلورنسيون ، ضمن ما تعللوا به من أسباب ، بالفتك الذريع الذى أنزله الطاعون بسكان الامبراطورية العثمانية كلها ، وبخاصة فى الموانىء التى يتردد عليها الفلورنسيون (١١٨) •

ثم ان استدعاء رؤساء البيوت التجارية الفلورنسية لم يعقبه توقف الحركة التجارية أو الغاء المستوطنـة الفلورنسية فى القسطنطينية ، وبقيت الجالية الفلورنسـية بالمدينة مع قنصـلها • فقط ، فى خـلال بضع السنوات هذه قل عدد أفراد الجالية بسبب الطاعون ، ولأسـباب أخرى • ولما كان عـدد الموتى بسبب الطـاعون ، وعـدد الأفراد الذين هاجروا هربا من الطاعون كبيرا ، كان لابد لحكومة فلورنسـا أن تتخذ اجراءات جدية للحفاظ على أموالها (١١٩) •

ولم تقفل البيوت التجارية الفلورنسية ، ذلك لأننـا نرى فى قائمة

---

(١١٦) Doc. sulle relaz. tosc., p. 208-210.

خطاب حررته الحكومة الفلورنسية لدحض هذا الاتهام الذى ابلغ به سفراء بنادقة انلك ماتياس mathias ملك هنغاريا •

(١١٧) Doc. sulle relaz. tosc., p. 205.

(١١٨) Ibid.. p. 217.

(١١٩) Ibid. p. 206 et s. ; Lettre de 1467.

فى عام ١٤٦٩ انتشر وباء آخر فتك بالكثير من الفلورنسيين :

Dei. p. 262 et s.

البيوت التجارية التى تتمتع بحماية القنصل ميناردو أو الدينى فى عام ١٤٦٩ أن عددها فى تركيا يبلغ الخمسين (١٢٠) ٠

ومن ثم ينبغى أن نقر أنه فى غياب الرؤساء الذين استدعتهم حكومتهم تولى الوكلاء ادارة المتاجر ٠ وكان هناك على الدوام قادمون جدد تجذبهم الى البلد الرغبة فى الاثراء (١٢١) ٠ وبين عامى ١٤٧٠ ، ١٤٨٠ حظرت فلورنسا من جديد ابحار السفن ، ولكن هذا الحظر لم يوقف حركة الهجرة : وكان هذا الاجراء قد اتخذ بسبب الوضع السياسى فى ايطاليا ، وأبدت الحكومة الفلورنسية للسلطان تفسيرات مقنعة فى هذا الشأن (١٢٢) ٠

ولم تتغير معاملة محمد الثانى الطيبة للفلورنسيين (١٢٣) وقدم برهانا محسوسا لآل ميديتشى Medicis بأن أمر بالقبض على قاتل جوليانو دى ميديتشى وتسليمه (١٢٤) ، ومع ذلك وقعت فى داخل المستوطنة اضطرابات لاتشرف الأمة ، وسببت لها أضرارا مادية ٠ فشمه عدد من المستوطنين عملوا على الخلاص من سلطة القنصل ، وخاطبوا فى ذلك الموظفين الترك الذين يبدو أنهم يؤيدون تمردهم ٠ فانعدم تماما الاتحاد الواجب بين المستوطنين ، وربما كانت الصراعات الحزبية التى فرقت الوطن الأم قد مدت فروعها الى هناك (١٢٥) ٠

وعندما تولى بايزيد الثانى العرش (١٤٨١) أهملت حكومة الجمهورية الفلورنسية تقديم تهانيها اليه على يد مبعوث لها ٠ وفى عام ١٤٨٢ أوفد السلطان الى فلورنسا سفيرا له يدعى اسماعيل ٠ قال هذا السفير ان سيده يأسف لعدم رؤيته أى ممثل لفورنسا بين ممثلى الدول التى كانت صديقة لأبيه ، ومع ذلك فهو يرغب فى عودة الملاحة التجارية بين فلورنسا والقسطنطينية ٠ وهو على استعداد لمعاملة الفلورنسيين بروح الود والمحاباة التى كان يعاملهم بها أبوه ، وتعهده بأن يشترى منهم خمسة آلاف قطعة من الجوخ كل سنة ، ووافق على اعفائهم من ضريبة ما كانوا يدفعونها حتى ذلك الحين (١٢٦) ٠ ورحبت الحكومة بهذه العروض:

---

(١٢٠) (Pagnini) Della decima, II, 303.

(١٢١) Doc. sulle relaz. tosc., p. 217, 237.

(١٢٢) Ibid. p. 230.

(١٢٣) Ibid, p. 211, 217, 222 et s.

(١٢٤) Doc. sulle relaz. tosc., p. 222 et s., 225 et ss., 230 et s.

(١٢٥) Ibid., p. 210, 219, 234, et s.

(١٢٦) Doc. Sulle relaz. tosc., p. 235.

وردا على هذا الاجراء من جانب السلطان أوفدت في عام ١٤٨٨ أندريا دى ميديتشي في مهمة الى السلطــان • ولنفحص التعليمات المعطـــاة لهذا السفير : لنرى فيها أن عليه أن يسعى للحصول على اقرار بالامتيــازات التى منحها محمد الثانى ، وأنه سوف يجد الوثيقة الأصلية عند قنصل فلورنسا فى القسطنطينية ، فاذا أبان له القنصل ورابطة التجار ثغرات ما فى هذه الوثيقة ينبغى سدها لصالح تجارة فلورنسا ، فعليه أن يطلب لمواطنيه مزايا أكبر • وثمة نقطة مهمة ينبغى الا ينساها ، تلك هى أن يحصل للقنصل الفلورنسى على الاختصاص فى القضاء المدنى والجنائى جميع القضايا المتعلقة بمواطنيه وحدهم ، والحق المطلق فى تقديم شهود لاثبات الوقائع فى كل القضايا بين فلورنسيــين ورعايا أمم أخـــرى ، وأخيرا الحق فى النطق بالحكم فى قضايا من هذا النوع اذا لم يكن للرعايا الأجانب فيها قنصل • ونتبين النقاط الآتية فى الفصل الخاص بالمطالبات: ذلك أن الفلورنسيين الذين يسافرون من لتشيه الى أفلونا يعــانون عند وصولهم الى هذا الميناء صعوبات كثيرة من جانب السلطات التركية ، وفى الامكان تجنيبهم هذه المضايقات بالترخيص لهم بركوب السفن التركية هذا أولا • وثانيا ، فكثيرا ما يحدث أن يضطر هؤلاء التجار الى نقـــل بضائعهم من بلدة الى أخرى ، فيجبرون على دفع الرسوم مرتين أو ثلاثا ، بينما يكفى لتخليصهم من هذا الارهاق أن يستلموا ايصالا من المحصل فى أول ناحية يمرون بها • ويجب على السفير أخيرا أن يحصل على معلومات صحيحة عن الكيفية التى يؤدى بها القنصل القائم بالعمـــل واجبـــات وظيفته ، وأن ينبه المستوطنين بالا يكون فى تصرفاتهم ما يشين اســم فلورنسا (١٢٧) ولسنا نعرف لســوء الحظ شـــيئا عن نتـــائج هذه المأمورية ، فلا يوجد فى الوثائق أى أثر يدل على المزايا التى كان يتعين أن يعود بها السفير ، ولا المزايا التى حصل عليها سلفه • والواقع أن الملف الذى يحمـــل عنـــوان Capitula consulum Romaniae لايحتوى الا على قوانين ولوائح خاصة بالمستوطنة ، وهى تتعلق بمسائل لاتقتضى اتفاقا مسبقا مع السلطان • وفى عام ١٤٩٩ ذهب سفير جديد اســـمه جيرى ريزالينى Geri Risaliti الى بلاط بايزيد حاملا تعليمات مماثلة تماما للتعليمات التى كان يحملها أندريا دى ميديتشى : فكان عليه هو أيضا أن يطلب اقرار المزايا القديمة ، واحضار وثيقة التنازلات المحررة باللغتين اليونانية واللاتينية ، أو على الأقل اليونانية لأنها كانت لاتزال

---

(١٢٧) Doc. Sulle relaz. tosc. p. 238 et s.
نجد الشكاوى من سوء سلوك عدد كبير من المستوطنين فى صفحة ٢٥٢ (عام ١٥٠٢) •

اللغة الرسمية التى يستخدمها الباب العالى فى معاملاته مع الأمم الأخرى . وقد ضاعت هذه الوثيقة مثل غيرها ، والمعروف فقط أن السفير قد استقبل هناك استقبالا طيبا (١٢٨) . وعلى العموم كانت الخطابات المنوعة الموجهة الى السلطان من قبل الحكومة الفلورنسية ، وبخاصة خطابات التوصية على القناصل الجدد أو التجار ، تنبىء عن ثقة كبيرة بروح العدالة والعطف التى يتحلى بها السلطان (١٢٩) ومع ذلك ففى عام ١٥٠٥ احتجت حكومة فلورنسا على فرض ضريبة قيمية قدرها ٥٪ فى مدينة كاستلنوفو Castelnuovo عند مدخل خليج كاتارو (كوتور — من خلجان البحر الأدرياتى بيوجوسلافيا) ، وكانت هذه الضريبة الباهظة لاتطبق على المسافرين القادمين بطريق البحر ، ولكن تطبق على القادمين بطريق البر ، وهؤلاء يشكلون أغلبية التجار الفلورنسيين (١٣٠) لذلك طلبت حكومة فلورنسا من السلطان الغاء هذه الضريبة . فهذه المعلومة تنبئنا بأن الخدمة البحرية التى أنشأتها الحكومة الفلورنسية قد ألغيت نهائيا على وجه التقريب بعد أن تكرر انقطاعها . وفى عام ١٥٠٠ أبلغ السلطان بوصول سفينة تجارية (١٣١) ، ولكن انتهى منذ زمن بعيد أمر « غليونيات » (سفن شراعية صغيرة شكلها كشكل الغليون — المترجم) الجمهورية التى كانت تسافر فى مجموعات ، تضم كل مجموعة ثلاث سفن . وجرت الحركة التجارية بسفن أجنبية ، فكان القسم الأكبر من هذه الحركة يتبع الطرق البرية . ولكن لم تضعف الحركة التجارية بالمرة : ففى عام ١٥٠٧ أحصى فى القسطنطينية من ستين الى سبعين تاجرا فلورنسيا ، قدرت أعمالهم السنوية بمبلغ ٥٠٠٫٠٠٠ الى ٦٠٠٫٠٠٠ دوكا، وأكسبهم ثراؤهم سلطة كبيرة ، فأوقعوا بالبنادقة كل ما استطاعوا ايقاعه من أذى (١٣٢) .

وكذا كان للبيوت التجارية الفلورنسية الرئيسية وكالات فى القسطنطينية ، وبنوع أساسى فى بيرا ، وهى الضاحية التى كانت الحى الذى يقطنه الغالبية العظمى من المسلمين(١٣٣) واعتبارا من عام ١٥٠٠ اتخذ القنصل (قنصل فلورنسا فى القسطنطينية ، وبيرا ، وليفانتس)

---

(١٢٨) Ibid. p. 242 et ss., 245 et s. ; Makuscev, l.c., p. 463 et s.

(١٢٩) Doc. sulle relaz tosc., p. 238, 240 et s., 244 et s., 247-249, 251 et s., 254 et s., 256-258.

(١٣٠) Doc. sulle relaz. tosc., p. 255.

(١٣١) Ibid., p. 247.

(١٣٢) Rapportde Jac. Contarini, dans Sanuto, Diarii, VII. 19.

(١٣٣) Ramberti, dans les viggi alla tana, p. 117, b-118, a.

بأمر السلطان لقبا تركيا : الأمين émin (١٣٤) ويتــولى مهــام وظيفته بوجه عام لثلاث سنوات • وكان لكل رعية فلورنسية يقيم فى اقليم تركى ، أو يمر به الحق فى أن يتمتع بحماية القنصل ، وعليه أن يصدع لأوامره ، ويخضع لقضائه •

وللقنصل الحق فى معاقبــة المخالفـــات ، وأن يســـلم للسلطات التركية ، أو يطرد من البلد كل فاجر لا يرتدع ، وكل متشرد ومجرم ، ويحكم فى القضايا بين الفلورنسيين ، أما موثق العقود بالقنصليـــة ، ويختار من بين كتبة العدل المعتمدين بفلورنسا ، فانه يتولى تحرير محاضر جلسات القنصلية ، والانتخابات ، الخ ، وكتابة الايصـــالات ، واثبات النفقات وللقنصل الحق فى تحصيل بعض الرســـوم على السلع التى يستوردها مواطنوه ، وثلث الغرامات ، ولا يجوز له أن يزاول التجارة ، ويدفع القنصل بنفسه مرتبات موثق العقود والترجمـــان ، ويدير مالية المستوطنة ، ويتولى مراجعة حساباته مرتين فى السنة لجنة مشكلة من اثنين من المراجعين يختاران من أفراد الجالية فى القسطنطينية أو بيرا • ويخصص صندوق يتكون من الرسوم والضرائب التى تحصل عن بعض السلع لصرف مرتب كاهن الكنيسة ، والانفـــاق منه على اقامة الشعائر الدينية • ويتمتع الفلورنسيون ، شأنهم شأن سائر الأمم التجارية (١٣٥) بحرية العقيدة ، وكانت كنيسة سان ميشيل فى بيرا تحت تصرفهم فى أوقات معلومة (١٣٦) •

كانت الأسواق التى فضل الفلورنسيون الاستقرار بهـــا ، بعد القسطنطينية وبيرا هى ادرينوبل وجاليبولى وبروسة (بورصة) (١٣٧) ويذكر المؤرخ « دبى » هذه السوق الأخيرة على أنها من أحسن الأسواق ، اذ يجد الانسان فيها واردات من التوابل • وكان التجار الفلورنسيون الذين يزورون الأسواق التركيـــة يمرون فى طريقهـــم اليهـــا بجزيرة خيوس (١٣٨) ، وبها قنصل لفلورنسا ، ومن عام ١٤٦٨ الى عام ١٤٧٠

---

(١٣٤) Doc. sulle relaz. tosc., p. 246. 338.

(١٣٥) Diar. Parm, p. 365.

انظر ملاحظة عامة عن تسامح السلاطين فى :

(١٣٦) المذكور بعاليه ليس الا موجزا للوائح الادارية الصادرة للمستوطنة من ١٤٨٨ ١٥١٢ والمنشورة فى : Doc. sulle relaz. tosc. p. 313 et ss.

(١٣٧) انظر قائمة باسم البيوت التجارية الفلورنسية لعام ١٤٦٩ فى :
— Pagnini, Della decima, II, 303 ; Doc sulle relaz. tosc., p. 244, 320-325 ; Ati-della Soc. lig.. 424 ; VI, 841.

(١٣٨) Dei, p. 205.

شغل هذا المنصب أحد أعضاء الماهون ، ويدعى بيرنابو باتريو (١٣٩) Bernabo Paterio ، فكانت العلاقات بين فلورنسا والماهون على مايبدو طيبة ، ولسنا نعرف سوى مثال واحد لنزاع قام بينهما فى عام ١٤٦١ : فقد احتجز موظفو جمارك الجزيرة بضائع على متن سفن فلورنسية لأن أحد رعايا فلورنسا واسمه بيرناردو سالفياتى Bernardo Salviati رفض أن يدفع لأحد سكان الجزيرة واسمه جابرييل جستنيانى Gabriele Giustiniani مبلغا جسيما كان مدينا له به على ما يبدو (١٤٠) • وكان الفلورنسيون فى رحلاتهم ، اما الى القسطنطينية ، أو الى مصر أو سوريا يمرون كثيرا برودس فيجدون بها فى كل زمان مواطنين لهم مقيمين بالجزيرة ، اما كتجار ، واما كمصرفيين • وكان للتجارة برودس أهمية كبيرة حتى رأت الحكومة الفلورنسية فى عام ١٤٨٣ أنه من المفيد أن تبعث اليها جيوفانى جائيتانى Ciovanni Gaetani ليطلب من الرئيس الأعلى أن يقرر بعض التخفيفات لصالح التجارة (١٤١) ، ومع ذلك فان رودس ، شأنها شأن خيوس ، لم تكن سوى محطة وسطى ذات أهمية ثانوية لتجارة الشرق الأدنى •

سبق أن تكلمنا بعاليه عن السفن الأنكونية التى كانت تنقل البضائع الفلورنسية الى القسطنطينية (١٤٢) أو الى راجوزة • غير أن البحرية الأنكونية كانت تخدم التجارة الوطنية (تجارة انكونا) قبل أن تخدم الأجانب • ونحن نعلم أن هذه المدينة كانت قبل سقوط القسطنطينية على علاقات ودية للغاية مع الأتراك ، ومن ثم لم تصب الكارثة بدرجة محسوسة تجارتها فى الشرق الأدنى • ورغم أنها كانت خاضعة لسيطرة البابوات ، الا أن هؤلاء لم يحاولوا الاساءة الى التفاهم الودى القائم بين الطبقة البورجوازية فى تلك المدينة وبين « الكفار » (يقصد المسلمين ـ المترجم) • فقط حدث فى عام ١٧٤٥ أن أصدر البابا سكست الرابع Sixte IV نصيحة لرعاياه الأنكونيين بأن يمنعوا رحيل سفينتين تجاريتين كبيرتين كانتا متأهبتين للاقلاع الى القسطنطينية • وكان السلطان وقتئذ يجهز حملة ضد العالم المسيحى فكانت هاتان السفينتان معرضتين لأن يستولى عليهما السلطان ويضمهما الى أسطوله ؛ ورأى البابا أنه من الأفضل الكف

---

(١٣٩) Ibid., p. 207, 211.

(١٤٠) Doc. sulle relaz. tosc.. p. 190 et s.

(١٤١) Ibid, p. 236 ; p. 218, 220-224, 260-265.

(١٤٢) Paoli, Co. dipl., II.. II, 178 et s.

نجد مثالا آخر منشور بابوى لعام ١٥١٣ ، منشورا فى :
Pao'i. Cod. dipl. II, 178 et s.

فى تلك الآونة عن تصدير البضائع الى القسطنطينية ، أو على الأقل عدم تصديرها الا فى سفن لاتصلح لتحويلها الى سفن حربية (١٤٣) • وكثيرا ما كانت الحروب تعيق الحركة التجارية بين أنكونا والقسطنطينية ، الا أن تجار أنكونا كانوا يتمتعون دائما بالحظوة لدى السلاطين (١٤٤) ، وكانت مصالحهم يمثلها أو يدافع عنها قناصل يشغلون مناصب ثابتة ، وسفراء خصوصـــيون (١٤٥) • كذلك منح بيير (بطــرس) دوبســـون Pierre d'Aubuson الرئيس الأعلى فى رودس الأنكونيين فى عام ١٥٠٠ جواز مرور بقصد تيسير تجارتهم فى الجزيرة (١٤٦) •

لقد ذكرنا حتى الآن أسماء أهم المدن الايطالية التى أقامت علاقات تجارية مع الدولة العثمانية ، الا أن هذا التعداد لايكون كاملا ان أهملنا مـــدينة ســـيينا Sienne • وعلى العمـــوم كان أهالى سيينا يعهدون الى غيرهم القيام برحلات طويلة المدى ، وقلما ترددوا على الشرق ، فاذا احتاجوا الى توابل ذهبوا فى طلبها الى البندقية ، حيث كان النسيج هو صناعتهم الرئيسية ، وكان لمنتجات هذه الصناعة أسواق فى فرنسا وأســـبانيا وانجلترا وألمانيا أكثر مما كان لها فى الشرق الأدنى • ففى أواخر العصور الوسطى ، أدركوا أنه فى الامكان تصريف هذه المنتجات بصورة مربحة فى تركيا • ومن ذلك الحين تواجد فى القسطنطينية بصفة دائمة عدد من تجار هذه الأمة ولم يكن بين هذا الوضع وبين الرغبة فى أن يكون لسيينا قنصل فى القسطنطينية مثل سائر الأمم التجارية سوى خطوة واحدة ، فأعربت حكومة سيينا عن هـــذه الرغبـــة فى خطاب وجهته للسلطان فى ١١ من أغسطس ١٤٨٩ ، والتمست فيه موافقته على تعيين أول من يتولى هذا المنصب ، وهو شخص يدعى نيكولاس Nicolas ، وهو طبيب وفيلســوف من مواليـــد سيينا (١٤٧) • ومع ذلك ، وبعـــد تجربة استمرت ثلاث سنوات ، اضطرت للاعتراف بأن الجالية صغيرة العدد فلا تستحق أن يكون لها كيان خاص بها ، وأن الصفقات التى تجريهـــا ليست مهمة بحيث تبرر الانفاق على قنصـــل خاص • وعلى ذلك رجت جمهـورية فلورنســا أن تاذن لمواطنى سيينا أن ينضـــموا للفلورنسيين ،

---

(١٤٣) Makuscev, Monum. Slav. merid., p. 171.

(١٤٤) Ibid. p. 172, 165.

(١٤٥) Ibid., p. 22, 3464.

(١٤٦) Ibid, p. 164 et s.

(١٤٧) Luciano Banchi, I porti della maremma Senese durante la republica ; Archiv. stor. ital., 3e serie, X, 1, p. 68 et s. ; XII, 2e part, p. 53 et s.

تحت حماية قنصل فلورنسا ، فاجيبت الى طلبها (١٥٠١) (١٤٨) ٠

والى جانب الايطاليين أمكن لتجار راجوزة (الآن دوبروفنك ، مدينة بيوجوسلافيا ـ المترجم) أن يحظوا برعاية السلاطين ، وأن يحصلوا منهم على جوازات مرور (١٤٩) تكفل لهم حرية استخدام طرق القوافل حتى البسفور ، والبحر الأسود ، ومصاب نهر الدانوب ٠ وللأسف لم يترك لنا أي من أولئك الذين قاموا بهذه الرحلات في العصور الوسطى بيانا بخط سيره ٠ وقد عرفنا بفضل بندقي يدعى رامبرتي Ramberti (أنظر فيما سبق) الطريق الذى اتبعه هؤلاء عادة للوصول الى القسطنطينية ، وكان هذا الطريق خطرا فى بعض نقاطه ، ويستحيل استخدامه تقريبا في مواضع أخرى ٠ وفى خصوص محطة من محطات هذا الطريق ، وهى فوتشا Fotcha (يسميها كوزا Cizza) يذكر صراحة أن البضائع المصدرة من راجوزة الى القسطنطينية وبالعكس كانت تمر بهذه المحطة (١٥٠) ٠ وفى بعض المحطات الكبيرة ، وبخاصة الواقعة منها عند تلاقى الطرق المهمة ، كان للراجوزيين مستوطنات ، بعضها آهلة بالسكان ، ويتجمع حولها عادة سائر اللاتينيين ، نذكر منها على سبيل المثال مستوطنات نوفي بازار Novi-Bazar (١٥١) ، وصوفيا (Sredez) Sophia (١٥٢) ، وتتار بازارجيك Tatar-Bazardjik ، وفيليبولى ، وأندرينوبل (١٥٣) ، نذكر بجانبها أيضا مستوطنات كيليا Kilia ، وآكيرمان Ahjerman (ولو أنها واقعة فى منطقة بسارابيا (Bessarbic حيث وجد بها الأتراك ابان غزوهم اياها بعض مواطني راجوزة ، فنهبوا حوانيتهم ومخازنهم (١٥٤) ٠ وكان الراجوزيون يشبعون كبرياءهم باقامة كنائس

---

(١٤٨) Doc. sulle relaz. tosc.. p. 250 et s.

(١٤٩) جوازات مرور موقعة من محمد الثانى ، أحدهما عام ١٤٨٠ ، والآخر بلا تاريخ ، وجواز مرور موقع عليه من بايزيد الثانى عام ١٤٨١ ، وآخر من سليم الأول عام ١٥١٧ ٠ انظر :

Miklosich, Mon. serb., p. 523 et s,, 524 et s, 526 et ss., 550 et ss. ; cf. Luccari, p. 96, 101, 127 ; Engel. Gesch von Ragusa, p. 196.

(١٥٠) Ramberti, l.c., p. 113, a.

(١٥١) Ramberti, p. 114, a. ; Caterino gen. p. 8.

(١٥٢) Ramberti, p. 115, a ; Cat. Zen., p. 10 ; Luccari, p. 115.

وكان هناك محلات تجارية كبرى للمنسوجات الصوفية يملكها راجوزيون ٠

(١٥٣) بخصوص هذه الأماكن الثلاثة ، انظر :

Jirecek., Die Heerstrasse, etc., p. 131-133.

(١٥٤) Luccari, p. 116.

فى هذه المستوطنات ، تقام فيها الشعائر الكاثوليكية الرومانية (١٥٥) ·

نفهم من ذلك أنهم وجدوا البابوات على استعداد للسماح لهم بالاتجار مع الأتراك « الكفار » · ففى عام ١٤٦٧ منحهم البابا بولس الثانى تصريحا بهذا الخصوص ، بلا تمنع من جانبه (١٥٦) ·

ومن بين السلع التى كان تجار راجوزة يذهبون لاحضارها من البلاد الخاضعة لحكم الترك ، نذكر بنوع خاص الفراء ، والشمع ، والفلفل ، والجلود الرقيقة المدبوغة التى اختصت بصنعها اندرينوبل ، والذهب والفضة من مناجم صربيا ، ويصنع منها فى راجوزة التحف الفنية (١٥٧) · غير أن تجارة التصدير هذه لم تكن لها نسـبيا أهمية كبيرة : ذلك أن الراجوزيين كانوا يستوردون الى تركيا بنوع خاص المصنوعات الأوروبية ، فكانت حرائر وأصواف تسكانيا تصل عن طريق أنكونا الى سوق راجوزة حيث أعدت المصانع لتشغيلها (١٥٨) · ومن هناك تنتشر هذه المشغولات فى داخل البلاد · وكانت هذه السوق تتلقى أيضا من مختلف أنحاء الجزيرة سلعا أخرى مصنوعة خصيصا لتركيا (١٥٩) · وعلى هذا النحو كانت راجوزة مركزا كبير الأهمية للمبادلات التجارية بين الشرق والغـرب · واستمر هذا الوضع حتى عصرنا الحاضر ، موردا كبيرا للربح لتجارة راجوزة ·

ونجد أخيرا القطالونيين بين الأمم التى مازالت تحت السيادة التركية بقنصل فى القسطنطينية · وفى السنين الأخيرة من العصور الوسطى كانت برشلونة تتلقى بضائع ترد اليها مباشرة من القسطنطينية · وكان بحوذتها دائما سفن فى المياه اليونانية · ولكن لابد من الاعتراف بأنه اذا كانت سفنها التجارية كثيرة العدد فان القراصنة لم يكونوا أقل عدد منها · ولنا أن نؤكد أن القنصلية القطالونية فى خيوس لم تكن تظل باقية هناك حتى

---

(١٥٥) مثال ذلك ، كنيسة سانت مارى فى اندرينوبل انظر :
Luccari , p. 89 (a.a. 1431) ;
Gondola Matteo, Relazione dello stato della religione nelle parti d'Europa sotto-poste al dominio del turco, dans Banduri, Imperium orientale.. II (éd. Paris). p. 104.

(١٥٦) Farlati, Illyr. sacr., VI, 180.

(١٥٧) Philippus de Diversis, cité dans Appendini, Notizie sulle antichita de Ragusei, I, 232 ; Ramberti, l.c.. p. 116 a. ; Jiracek : Die Handels trassen und BergWerke en Serbien und Bo nien. l.c..

(١٥٨) Appendini, I, 233, 234.

(١٥٩) Phil. de Divers., ibid, 233.

آخر أيام السيادة المسيحية فى الجزيرة لو لم يكن وجودها هناك ضروريا لصالح تجارة برشلونة (١٦٠) ٠

نتبين من كل ما سبق ذكره أن الامبراطورية العثمانية لم يكن يعوزها تردد التجار الغربيين عليها : فكان بعض هؤلاء التجار يجوبون أنحاء البلاد مستخدمين طرق القوافل ، ويقدم البعض الآخر اليها بطريق البحر ، ويزورون الموانىء والسواحل ٠ فهل كانوا يجدون هناك السلع الثمينة العديدة التى كانت تشكل فى مجموعها بالنسبة اليهم جاذبية تلك البقاع ؟ فيما مضى ، حين كان البيزنطيون سادة البلاد كانوا يؤدون بأنفسهم نشاطا كبيرا فى مضمار التجارة ، وبخاصة التجارة البحرية ، وان لم يفعلوا ذلك فانهم كانوا على الأقل يتركون الميدان حرا للغربيين ، ويقيمون لهم الوسائل الكفيلة بأستخدام نشاطهم فى كل فروع التجارة ، واستيراد منتجات المناطق النائية ٠ ولكن الأمر مع الأتراك كان على عكس هذا تماما : فلم يكن للأتراك أى ميل للتجارة ، أو أى تفكير فى الاشتغال بها ، بل ان ولعهم الشديد بالفتوحات كان فى ذاته سببا فى نشوب المنازعات المستمرة بينهم وبين أمم الغرب التجارية الرئيسية ٠ فكان الأتراك شرسين ، مدمرين ، محوا من الوجود الأسواق الرئيسية التى كان يمارس فيها فرنجة الشرق نشاطهم بحذق وبراعة ، واستعبدوا عددا كبيرا من المستوطنين ، وأجبروا آخرين على الهرب والعودة الى أوطانهم ، وانتزعوا حرية الحركة والاستقلال اللازمين لرخاء التجارة من أولئك الذين كانت لديهم الشجاعة لأن يبقوا هناك ، أو اضطرتهم الظروف للبقاء ، وعملوا — فى سبيل مصلحتهم الخاصة — على محو تفوق البندقية البحرى ، ذلك التفوق الذى كان مصدر ربح للتجارة ، فى حين كان تفوقهم البحرى غير مثمر بالمرة ، وحيثما عززوا تفوقهم ، تحول التفوق الى قرصنة مطلقة العنان ٠ وبتشجيعهم الراجوزيين والفلورنسيين والأنكونيين على حساب البنادقة والجنويين ، نموا فى بلدهم أهمية دول من الدرجة الثانية قضى عليها أن تبقى على مستوى أدنى من الأخيرتين من حيث روح المغامرة واتساع الموارد ٠ وفى عهد رخاء مخازن البنادقة والجنويين ، فى تانا ، وكافا ، وطربزون كدس فيها هؤلاء كميات هائلة من أثمن السلع من الهند والصين وفارس وروسيا ، تلك السلع التى يشحنونها على متون سفنهم ، وينقلونها الى ما وراء البسفور ، ويجلبونها ، بصفة جزئية على الأقل الى أسواق القسطنطينية وبيرا ٠ والآن أصبحت هذه المخازن خاوية ، وكان الأرمن وحدهم يزاولون فيها بمشقة بالغة بحارة محدودة ٠ وفكر الفلورنسيون بعض الوقت فى قيام سفينة بالرحلة من كافا ومن طربزون ، ولكن ليس

(١٦٠) Capmany, Mem., I, 2e part., p. 75 ; II, 328; opp., p. 62, 65.

هناك ما يدل على أنهم حققوا هذا المشروع ، ولنا أن نشك فى أنه تحقق ، مادمنا نعلم أنهم لم يستطيعوا أبدا أن يضمنوا استمرار الخدمة الملاحية الى القسطنطينية بكيفية منتظمة ، فاضطروا الى التخلى نهائيا عن المشروع • كتب « ديى » فى نقده البنادقة بلهجة مترفعة متكلفة أن الفلورنسيين وهم مواطنوه ، بتوثيقهم العلاقات مع بروسة ، تمتعوا بمزيتين : تفوقهم على البنادقة فى الحصول على التوابل ، والقطن ، والشمع ، وفتحوا مقابل ذلك ، فى بروسة سوقا لتصريف أصوافهم ، فى حين لم يستطع البنادقة الحصول فى الاسكندرية على التوابل الا بشرائها نقدا (١٦١) • ومن المحتمل أن الظروف لم تسمح للبنادقة بمبادلة بضائعهم بالتوابل ، ولكن الشيء المؤكد أن سوق بروسة لم يكن فى وسعها أن تضاهى سوق الاسكندرية من حيث وفرة السلع وتنوعها ، وأن نفقات النقل بالقوافل كانت ترفع كثيرا من ثمن التوابل • وقد أغفل « ديى » واقعة اعترف بها فى فقرات أخرى (١٦٢) ، وهى واقعة تستخلص أيضا من مصادر أخرى (١٦٣) : ذلك أن البنادقة كانوا يزورون بروسة ، وكان لهم بها وكالات تجارية •

ومع أن الأمبراطورية التركية أسسها شعب آسيوى ، الا أن صلاتها بآسيا نفسها كانت قليلة ، وبخاصة علاقاتها بالبلاد التى تزود منتجاتها التجارة بغذائها الرئيسى • وكما أكدنا من قبل ، لم يعد للغربيين الذين كانت التجارة فيما مضى تمر بأيديهم وجود هناك : فالقوافل التى أصبحت من ذلك الحين هى التى تنقل منتجات الشرق عبر آسيا الصغرى ، لم يكن فى وسعها أن تحل محل السفن البندقية والجنوية التى كانت فيما مضى ترحل الى بنطس لاحضار هذه المنتجات ، وتعود بها الى البسفور • وأخيرا فان الحروب التى تتجدد فى كل حين بين سلاطين آل عثمان ، وبين أمراء قرامان ، والمعارك الضارية التى كان السلاطين يشنونها ضد أمير التركمان أوزون حسن ، وفتور علاقاتهم بملوك الفرس من الأسرة الصفوية ، كانت كلها عقبات عزلت القسطنطينية عن الشرق الأقصى ، وجعلت من المستحيل أن تصل اليها التوابل وسائر منتجات تلك المناطق (١٦٤) • ومع ذلك لم

---

(١٦١) Pagnini, II, 241.

(١٦٢) Ibid. p. 235.

(١٦٣) Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 349.

(١٦٤) كان الاتراك انفسهم يرسلون سفنا الى الاسكندرية ودمياط حيث يأخذون منها شحنات من التوابل ؛ ولكن هذه السفن كثيرا ما كان يعترضها قراصنة يستولون على شحنتها ويحملونها الى رودس حيث يبيعونها بثمن بخس • (Pasi, p. 47)

ينعدم نهائيا وجود هذه المنتجات بالقسطنطينية : يذكر بازى Pasi (١٦٥) فى كتابه « التاجر » بين السلع التى كانت موجودة فى سوق القسطنطينية الراوند ، والمسك ، والترنجـان (عشب معمر فى أوروبا وأمريكا ، تستعمل أوراقه فى إكساب الأطعمة والأشربة نكهة طيبة ، وكان يستعمل فى الطب ـ المترجم) ، ويقول ان البنادقة كانوا يحضرون من هناك هذه المواد ، وعقاقير أخرى • ولكن هذه المواد أخذت تتناقص هناك شيئا فشيئا • وكانت المواد التى تصدرها الامبراطورية التركية تتكون فى معظمها من المنتجات الأهلية ، المشغولة والطبيعية • فمن المنتجات المشغولة شملات أنجورة (حاليا أنقرة ، عاصمة تركيا ـ المترجم) ، والسجاجيد ، والخيتان، جلد الماعز المدبوغ بأيدى الصناع الترك على ضفتى البسفور • ومن المنتجات الطبيعية ، الشمع ، والشب (١٦٦) ، واللكك ، والحب القرمزى ، والقطن ، والقمح • واعتادت البندقية أن تأخذ من تركيا كميات هائلة من الحبوب ، ومن ثم يظهر بصورة واضحة رد فعل الحروب مع الباب العالى على التجارة ، اذا استطالت هذه الحروب ، ولو قليلا (١٦٧) •

وفى نظير المواد التى يأخذها الغرب من تركيا ، كان يمونها بكميات كبيرة من مصنوعاتها ، وبخاصة المنسوجات الصوفية والحريرية • والمعروف أن الفلورنسيين بارعون فى صناعة الجوخ والحرير ، وأن السلع التى تخرج من مصانعها تتصرف بسهولة ، ليس فقط فى الغرب كله ، ولكن أيضـا فى تركيا ، وبخاصـة فى بعض المدن كالقسطنطينية ، وبيرا ، وأندرينوبل ، وجاليبولى ، وسالونيك ، وبروسة (١٦٨) •

وكلما كان الموضوع يتعلق بسلع مستوردة الى القسطنطينية على سفن فلورنسية ، كان المؤلفون يذكرون حتما المنسوجات الصوفية ، وبخاصة الثمينة منها ، والمنسوجات الحريرية الموشاة أو غير الموشاة بالذهب (١٦٩) • وقد رأينا أن الأفراد من حاشية السلطان كانوا يقبلون على شراء منتجات المصانع الفلورنسية • الا أن المنسوجات الصوفية التى تباع فى تركيا لم تكن كلها مجلوبة من فلورنسا • من ذلك أنه فى عام

---

(١٦٥) Pasi, p. 43 et ss., 144.

(١٦٦) Gobellinus, Comment., p. 185 et s.

(١٦٧) Guichardin, Storia d'Italia, lib. VI, T. II, p. 51, éd. Fribourg, 1774.

(١٦٨) Dei. p. 240 et s., 275 et s.

(١٦٩) Doc. sulle relaz. tosc. p. 208, 245, 236, 265, 324 et s., 327, 335, 338, 340, 342, 346, 357-359.

١٥٠٩ ، كانت البندقية مهددة من جميع الأنحاء ، وعلى وشك الانهيار ، ومن ثم اضطرت الى التماس التحالف مع تركيا • وفى غضون المفاوضات حاولت أن تنتزع من صناع راجوزة وفلورنسا وأنكونا وجنوا طلبات المنسوجات الصوفية الموجهة اليها من قبل السلطان ، ومن أجل ذلك أوضح له السفير البندقى أن الأرباح التى تحصل عليها هذه الجمهوريات من بيع منسوجاتها الصوفية تساعدها على صنع اسلحة تستعملها فى محاربة البندقية ، وأنه من الأفضل له (أى للسلطان) أن يوجه طلباته هذه الى البندقية اذ يجد عندها نفس السلع بالأسعار نفسها (١٧٠) •

---

(١٧٠) Romanin, V. 234

ثالثا ـ آسـيا الصغرى التركية

بتتبعنا مسيرة العثمانيين المظفرة عبر الأقاليم الأوروبية للامبراطورية اليونانية ، يتبين لنا ، منذ ظهورهم على مشارف القارة الأوروبية أنه قد استقر بينهم وبين الأمم التجارية الغربية صلات مختلفة الطبيعة ، ولابد لنا أن نأخذ من بينها فى الاعتبار الصلات التجارية . ومن هنا كانت ظاهرة تثير الدهشة لأول وهلة . ذلك أنه منذ النصف الأول من القرن الخامس عشر ، كان يزور اندرينوبل (أدرنة) عاصمة الأتراك الأولى تجار بنادقة ، وقطالونيون ، وجنويون ، وفلورنسيون ، بل ان عددا من هؤلاء التجار استقر بهم المقام بهذه المدينة (١) . وتجلى رد الفعل الطبيعى لهذه العلاقات حتى فى أجزاء آسيا الصغرى التى يسكنها الترك ، وبخاصة بروسـة (بورصة) عاصمتهم القديمة .

والواقع أنه اذا كانت اندرينوبل مفتوحة للغربيين فلماذا تكون بروسة مغلقـة فى وجوههـم ؟ وعنـدما زار برترانـدون دو لا بروكيير Bertrandon de la Broquière ـ وهو سائح فرنسى من النبلاء ـ هذه المدينة وجد بها الكثير من التجار الفلورنسيين ، ونزل عند واحد منهم ، وقابل بها تجارا جنويين ، ورأى ثلاثة من هؤلاء يبتاعون توابل من القافلة السورية التى كان قد سافر معها ، وفى عزمهم الذهاب بها الى سوق بيرا (٢) . ومنـذ زمن بعيد كانت القوافل السورية تعبر دائما آسيا

---

(١) Bertrandon de la Broquière, Voyag d'outremer, p. 560.

(٢) Ibid, p. 550-552.

الصغرى بانحراف ، متبعة الطريق المتجه من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى ٠ ولكن كانت آسيا الصغرى كلها فى ذلك الحين فى أيدى أمراء مسلمين ، وكانت القوافل نفسها مكونة من أشخاص مسلمين ، ولم تكن غايتها القسطنطينية فقط والتى لم يزل يحتلها اليونانيون ، وانما كانت تقصد بالضرورة بروسة ، عاصمة العثمانيين كذلك ٠ وكان لابد لأهالى بيرا ، لكى يحصلوا على السلع التى تجلبها هذه القوافل أن يذهبوا بأنفسهم الى هناك (الى بروسة) لشرائها ٠ وكان عدد كبير من التجار ، الفلورنسيين بنوع خاص قد أقاموا بها منشآت تجارية ٠ وتمتاز هذه الناحية أيضا بأن لها علاقات بوسط آسيا : كانت هذه المدينة تستقبل قوافل كثيرة آتية من طورس Tauris (حاليا تبريز ، عاصمة أذربيجان الايرانية ـ المترجم) (٣) ٠ وكان بالمدينة سوقان ، احداهما للمنسوجات الحريرية القطنية ، والأحجار الكريمة ، واللآلىء ، والأخرى للقطن الخام ، والصابون الأبيض (٤) ، فكانت بذلك مصدر اغراء للغرب ٠

...

ولكن بروسة كانت أيضا مركزا سياسيا مهما ، حيث كانت موطنا لأقوى عشائر آسيا الصغرى ، وأكثرها شراسة وميلا للقتال ، وليس لها نظير فى هذه الناحية ٠ ولم تكن الامارات التركمانية الصغيرة المستقرة فى غرب آسيا الصغرى فى حالة تسمح لها بأن تقاوم طويلا غزوات العثمانيين ٠

...

وفى حملة قصيرة الأمد شنها السلطان بايزيد (١٣٩٠) على أمراء صاروخان Saroukhan وايدن Aidin ، ومنتشا Mentèchè لم يكن أمام هؤلاء من بديل سوى الخضوع أو الفرار ٠ ولم يكن ثمة شىء أقل من تدخل تيمور لنك لاعادة هذه الامارات الى وجودها السابق بصفة مؤقتة : فأبناء بعض الأمراء الذين خلعوا من عروشهم ، ووفود مبعوثة من قبل سادة ألطولوجو Altolucgo ، وبالاتيا Palatia (٥) ، توجه هؤلاء التماسا لمساعدة تيمور لنك ضد المغازى ٠ واذ انتصر تيمور لنك على بايزيد فى معركة أنقرة (١٤٠٢) فانه أعاد الأمراء الذين خلعهم بايزيد فأجلسهم

---

(٣) Clavijo, p. 215 ; Tafur, p. 185.

(٤) Berirandon de la Broquiere, Voyage d'outremer, p. 550.

(٥) Clavijo, p. 198.

على عروشهم(٦) • فمن هؤلاء الأمراء ايياس (Elias) Ilyas أمير منتشا (٧) واستطاع هذا الأمير أن يحتفظ بالامارة التى كان قد تلقاها من أبيه الى أن توفى فى حوالى عام ١٤٢١ ، ونقلها الى ورثته ، ولكن هؤلاء لم يتمتعوا بها طويلا • ففى عام ١٤٢٦ اضطروا الى التخلى عنها الى أحد معاونى السلطان العثمانى • وحتى السنوات الأخيرة حافظت جمهورية البندقية على علاقاتها مع هذه الامارة مثلما كانت لها مصالح فى بالاتيا حيث نشأت مستوطنة صغيرة من مواطنيها • وفى حوزتنا معاهدتان فى عامى ١٤٠٣ ، ١٤١٤ ، الأطراف المتعاقدة فيهما هم : من جهة البندقية ، ممثلها فى المعاهدة الأولى ماركو فالييه Marco Falier دوق كريت ، وقع عنه سفيره ليوناردو ديللايورتا ، وفى الثانية أمير البحر ببيترو تشيفرانو Pietro Civrano ، ومن جهـــة أخرى ، فى المعاهدتين الأمير الياس بك • وقد نشر السيد ماس لاترى Mas Latrie المعاهدة الأولى (٨) ، ولم يكن يعرف شيئا عن الثـــانية (٩) • ونسب لقب dominus Palatie (صاحب بالايتا) الى الياس بك فى عنـــوان معـــاهدة عـــام ١٤٠٣ ، ولكنه لم يذكره بعدها فى نص المعـــاهدة : واستنتج المؤرخ الكبير من هذا العنوان أن صاحبه أمير صغير ، اقليمه محصور بين ولاية ألطولوجو وامارة منتشا (كارية) ، وقاصر على مدينة بالاتيا ، مع شريط ضـــيق من الأرض على طـــول الساحل (١٠) • ولكن هذا غير صحيح • فالياس بك هذا هو نفسه أمير منتشا ، وكان يحكم اقليما شاسعا ، والدليل على ذلك أنه استطاع أن يجهز جيشا قوامه ستة آلاف رجل مسلح (١١) •

أما المعاهدة الثانية فانها تمحو أى شك فى هذا الخصوص ، لأن الياس بك مذكور فيها بصفة رسمية،مرة بصفته سيد منتشا ، ومرة أخرى بصفته سيد بالاتيا واقليم منتشا كله • كانت امارة منتشا والسواحل المجاورة ، أوكارا حقيقية للقراصنة ، تشكل خطرا مستمرا على البحرية

(٦) Ducas, p. 79 et s. ; Laon Chalcoc., p. 168.

(٧) Ducas, p. 18, 80 et s., 106, 116 ; Hammer, Gesch. des osman. Reichs, I, 424. ets.

لا يذكره لافنيكوس شالكوكونديلاس الا باسم « سيد منتشا » • انظر :
p. 65, 168, 214 ; M. Stanley Lane Poole, dans le Journ. of the asiatic Society of Great Britain and Ireland, N.S. XIV, 4e part, p. 776, 780.

(٨) Mas Latrie ; Commerce d'Ephése et de Milet au moyen âge, dans la Biblioth. de l'Ecole res chartes, s'série, T.V. (1864), p. 226 et ss.

(٩) Taf. et Thom., inéd. ; regeste dans les Commem., III, p. 374, no 205.

(١٠) De Mas Latrie : Commerce d'Ephèse et de Milet an moyen-âge, dans la Biblioth de l'Ecole des chartes, 5e sér., V, 122.

(١١) Ducas, p. 81.

التجارية ، والممتلكات الاستعمارية البندقية : وكان للجمهورية مصلحة كبرى في حماية هذه الممتلكات من اعتداءات القراصنة • ففي المعاهدة الأولى يعطي الياس بك كل التأكيدات والضمانات المطلوبة في هذا الشأن • ويبدو أن المستوطنة التجارية البندقية التي كانت موجودة من قبل في بالاتيا قد أصابها الانحلال ، والبيوت التي أقام بها فيما مضى تجار بنادقة احتلها الأتراك ، ومن ثم صرح الأمير للبنادقة باستردادها بطريق الشراء ، او أن يبنوا بيوتا جديدة على قطعة ارض يمنحها اياهم بلا مقابل ، ويعدهم فضلا عن ذلك بالانتفاع بكنيسة سان نيكولاس التي كفلت لهم ملكيتها المعاهدات السابقة • ويدير شئون المستوطنة قنصل يعينه دوق كريت • وفيما يختص بالسلع التي يصدرها أو يستوردها البنادقة ، يحدد السعر القانوني للرسوم الجمركية بنسبة ٢٪ ، ويعفى من هذه الرسوم الصابون، والمنسوجات الصوفية ، والشمع ، والفراء ، والشب • وهذه شروط طيبة للغاية ، ولا تضيف اليها معاهدة ١٤١٤ أي شيء مهم • ومن غير المحتمل ان تكون هذه الاتفاقيات قد روعيت عندما انتقلت الامارة الى أيدى العثمانيين ، وحتى الياس نفسه ، لم يهتم بتنفيذها الا حسبما يحلو له ، ولم يمنعه ذلك من أن يرسل قراصنته يعتدون على البنادقة في كانديا ، ومودون ، وكورون : ولم يكن للجمهورية من وسيلة لردع هؤلاء القراصنة الا بأن تكلف سفنها الحربية القيام بجولات متواترة أمام سواحل الامارة (١٢) • ومن هذه الوجهة لم يبق سيد الطولوجو بمنأى عن سيد منتشا ، ومن ثم جلب نفسه على نفسه اجراءات الردع هذه •

وتنتهي قصة امارة تكة Tekke كما انتهت قصة امارة منتشا • وقد رأينا أن امير تكة ، فقد ستالية التي كان يقيم بها ، ثم استعادها بعد اثنى عشر عاما من ملك قبرص (١٣٧٣) ولكن لمدة قصيرة ، اذ انتزعها منه خصم شديد الخطورة ، من اخوانه في الدين • واذ خاف الأمير من تهديدات مراد الأول سلطان العثمانيين ، فانه رأى من الصواب أن يترك له البلد • وفي عام ١٣٩١ أتم بايزيد فتح الاقليم فيما عدا مدينتي ستالية واستنانسن Istenos (١٣) • وأدى تدخل تيمورلنك الى انتزاع الامارة من سيادة العثمانيين بعض الوقت ، وبعد ربع قرن من الزمان لم يعد للامارة كيان

---

(١٢) Sathas, Doc. inéd., II, 246 et s. ; Moneum. Slav. méricion. XII, 199.

ستالية : هي انطالية أو اتالية Attaleia وقد ورد ذكرها في الحروب الصليبية باسم ستالية Satalia • وقد جاء ذكرها مرارا في حروب تيمور لنك باسم « عدالية » :

(١٣) Hammer. Gesch. des osman. Reichs. I, 200, 221 ; Chalcos,. p. 66.

خاص بها (١٤) وربما قل تردد التجار الغربيين على ستالية بعد أن صارت مجرد بلدة عادية ، ولكن تجارتها مع مصر لم يطرأ عليها أى تغيير ذى شأن (١٥) ٠

وفى القرن الخامس عشر كانت موانىء بالاتيا ، ستالية ، وكانديلور هى التى يصـــدر منها الغالبية العظمى من منتجات آسـيا الصـغرى الى الاسكندرية ودمياط ، ومن هذه المنتجات نتبين الشـمع ، والعسـل ، والزعفران ، والسمسـم ، والعفص ، والحرير ، والصـوف الرقيق ، والسختيان الأحمر (جلد ماعز مدبوغ وملون ـ المترجم) والسجاجيد ، وكذا العبيد من الجنسين ٠

وكانت ستالية متخصصة فى خشب السفن والقار ٠ أما بالاتيا فلم يكن لها بحرية خاصة بها ، ويتولى نقل السلع المصدرة منها الى مصر جنويون من خيوس (١٦) : ولكن بالنسبة الى الميناءين الآخرين فانهما كانا يتوليان بأنفسهما شئون التصدير ٠ وكان بستالية وكانديلور ترسانات يشتغل بها بحارون مسيحيون ، وتخرج منها سفن فى ضخامة السفن التى تسافر من البندقية الى موانىء الفلاندر ، وكذا مع الأسف سفن يركبها قراصنة ومجهزة لمطاردة السفن التجارية الغربية (١٧) ٠ وكانت ستالية أهم الموانىء الثلاثة ، وتجلب سفنها من الاسكندرية ، السوق العالمية الكبيرة ، سلعا ثمينة ، وتستقبل تجارا مصريين وسوريين : وكانت المخازن القائمة على ضاحية المدينة ، عند الميناء تحتوى دائما على كميات كبيرة من الفلفل ، والقرفة ، والقرنفل ، والبخور ، والسجاجيد ، الخ ٠ وفى عام ١٤٧٢ أقبل بييترو موتشينجو Petro Mocenigo يهاجم المدينة بأسطول حربى ، وحاول أن يستولى على قلب المدينة ولكنه فشل ، ومع ذلك استولى من ضاحيتها على غنائم ثمينة تشمل بالأخص التوابل (١٨) ٠ وقد ترك أحد المشتركين فى هذه الحملة قصة يرى فيها السيد زينكيزن M. Zikesen دليلا على أن ستالية كانت فى تلك الفترة المستودع الرئيسى لتوابل الهند وفارس (١٩) ٠ غير أن فى هذا الرأى بعض المبالغة : فاذا

---

(١٤) Hammer, op. cit., 320, 343, 365, 425 ; Stanley Lane Pool. l.c., p. 775, 779.

(١٥) Ghistele p. 329.

(١٦) Piloti,. p. 366.

(١٧) Piloti. p. 371 ; cf. Chemseddin p. 318.

(١٨) Copio. De Petri Mocenici gestis, (Basil-1544). p. 25-29 ; Malipiero, Annali veneti I, 74 et s. Bernabei di documenti storici delle città e terre Marchigiane, I, 189 et s.

(١٩) Gesch. des Osman. Reichs in Europa. II 404, not. 2.

كانت ستالية وقتئذ أكبر سوق التوابل فى آسيا الصغرى (٢٠) ، فانه لا يمكن التسليم بأن لها نفس الأهمية بالنسبة لسائر أنحاء العالم ، وبخاصة الغرب .

أما كانديلور (علايا Alaïa) فقد ذكرت لأول مرة فى القرن الخامس عشر فى مذكرات بوسيكو Boucicaut (٢١) : فقد زار المرشال بوسيكو هذا الميناء ابان رحلته الى الشرق الأدنى (١٤٠٣) ورأى فيه مخازن وحوانيت ملأى بوفرة من السلع (٢٢) . ولم يكن السكان يكتفون بصلاتهم التجارية بمصر ، ولكن كانت لهم صلات بقبرص ، وكان هذا أمرا طبيعيا . بالنسبة لقرب الجزيرة منهم ، انما كان لهذه الصلات بواعث سياسية . وبفضل حماية أمراء قرمان الأقوياء المستقرين فى أملاكهم بجنوب شرقى آسيا الصغرى يقاومون العثمانيين بعزم وقوة ، استطاعت « علايا » أن تفلت من سيطرة العثمانيين . من هؤلاء الأمراء ، أمير يدعى لطفى بك Lautfy bey ، عقد مع يوحنا الثانى ملك قبرص فى عام ١٤٥٠ معاهدة ، تعهد فيها العاهلان بالمحافظة على علاقات حسن الجوار بينهما ، وأن يعاملا تجار البلدين معاملة ودية (٢٣) والواقع أن ملوك قبرص أرسلوا مرارا قوات لنجدة كانديلور . ومع ذلك كان مصير الامارة مصيرا لا مفر منه : فقد ضمت فى عام ١٤٧١ الى الامبراطورية العثمانية (٢٤) .

كانت البندقية تنظر الى فتوحات العثمانيين التدريجية بآسيا الصغرى بانزعاج لا يقل عن انزعاج ملوك قبرص منها . وعندما أوقع محمد الثانى

---

(٢٠) Malip., l.c., p. 74.

ـ ينبغى على ما يبدو ارجاع بداية العلاقات التجارية بين راجوزة ، وكانديلور الى عام ١٣٦٦ ، انظر :

Luccari, Ristretto degli annali di Ragusa, p. 63.

(٢١) Le livre des faicts du maréchal de Boueicant, dans Michaud et Poujoulat. Coll. de mém. II, 271.

(٢٢) نشرت هذه المعاهدة باللغة الاصلية (اليونانية) فى :

Miklosich et Muller, Acta et diplom. graeca medii aevi, III, 284 et s.

مع ترجمة فرنسية فى :

Mas Latrie, Hist de Chypre, III, 64-66.

(٢٣) Malipiero Annali veneti, I, 69 ; de Mas Latrie, Hist de Chypre, III, 175, 321, 335 ; Hammer, Gesch. des osman, Reichs, II, 104.

(٢٤) III, 175, 321, 335 ; Hommer, ge ch. des osman, Reiche, II, 04.

ضربته القاضية بالأمبراطورية البيزنطية ، سافر جيوفاني مونشينجو الى ايكوينوم (حاليا قونية) ليعقد بهـا معاهدة مع ابراهيم بك أمير قرامان Karaman ، وهو واحد من خصوم العثمانيين القلائل الذين مازالوا صامدين : وربما لم يكن ذلك من قبيل الصدفة المجردة • وبمراجعة نص المعاهدة (٢٥) ، لا يبدو لنا أن لها أى مدى سياسى ، فهى معاهدة تجارية فحسب • ولكن فى خطاب ابراهيم المرفق بالمعاهدة اشارة الى اتفاقيات شفوية أخرى تقصد عدوا مشتركا لا يمكن أن يكون غير سلطان العثمانيين• ومن المستحيل تفسير الامتيازات الواسعة النطاق التى منحها هذا الأمير فى الشئون التجارية بدون قيام تحالف مسبب بمصلحة دفاعية مشتركة : فقد تخلى عن مطالبة التجار البنادقة بأية ضريبة تجارية فى داخل ولاياته، ورخص لهم باستعمال موازينهم ومكاييلهم فى الصفقات التى يعقدونها مع رعاياه ، ووافق على أن تقيم الجمهورية أينما شـــاءت قنصـــلا يتمتع باختصاصات قضائية ، وفندقا للتجار الذين لهم مع ذلك حرية السكن خارج الفندق • ولسنا نعرف مدى استفادة البنادقة من هذه الامتيازات • وحتى وفاة ابراهيم بك فى عام ١٤٦٣ لم يعكر شىء صفو السلام فى امارة قرامان ، والثابت أن البنادقة استفادوا من عشر سنوات أمضوها فى هدوء ملائم لمزاولة التجارة • ولكن اضطر أبناء ابراهيم بك الى مغادرة البــلاد فى أعقاب حربين خاسرتين ضد السلطان العثمانى ، ورغم تحالفهم مع أوزون حسن أمير التركمان ، ومعاونة أسطول بندقى لهم ، لم يستطيعوا البتة استعادة ملكيتهم للاقليم الذى ورثوه • وحدد انتصـــار محمد الثانى الحاسم على أوزون حسن فى معركة ترجان الكبرى Terdjan مصير امارة قرامان ، فاعتبارا من تلك اللحظة خضعت آسيا الصغرى كلها لســيادة العثمانيين •

وكان الساحل الشمالى لآسيا الصغرى قد شملته فتوحات العثمانيين• ولكن قبل أن نتكلم عن نهاية الامارات المتناثرة على طول هذا الساحل ، ينبغى لنا أن نعود قليلا الى الوراء • ففى غضون الفترة السابقة ، رأينا السيادة العثمانية تمتد فتنبسط على بيثينيا كلها Bithynie (اقليم قديم ، شمال غربى آسيا الصغرى ــ المترجم) • وكان أمراء قصطمونى Kastemouni وهم من جنس تركمانى يحكمون وقتئذ مساحة واسعة من ذلك القطر ، شرقى هذا الاقليم ، فى اقليم بفلغونية Paphlagonie ، وتحيط

---

(٢٥) توجد هذه المعاهدة المنعقدة فى قونية فى ١٢ فبراير ١٥٤٣ (١٤٥٤ تبعـا للتاريخ العام) فى :

Romanin. Storia di Venezia, IV, 523 et ss., et dans la Coll. des doc. inéd., mél. histor., III, 209-212, 213.

أملاكهم بأرضين يونانيتين ، هما مدينتا بونتو هيراكليا (بوندريكلى Ponto Herakléa (Punderkli (٢٦) ، واما ستريس Amastris
(أماصرة Amasserah) (٢٧) • وفى مستهل النصف الثانى من القرن الرابع عشر كانت هاتان المدينتان تابعتين للأباطرة البيزنطيين ، ولكن هؤلاء الأباطرة كانوا يشعرون باستحالة احتفاظهم بهما • وانتقلت هيراكليا الى أيدى الترك فى عام ١٣٦٠ ، اما بسبب تهاون المدافعين عنها ، واما ببيعها للترك بيعـا صحيحا (٢٨) ، وشاركتها أما ستريس مصيرها ، ولكن لا يعرف متى أو الكيفية التى حدث بها هذا التغيير فى نظام الحكم • وفى أواخر القرن الرابع عشر ، كانت هذه المدينة يحكمها أمير لا نعرفه الا بالاسم المحرف ـ على ما يبدو بوضوح ـ الذى أعطاه اياه المؤرخ فرانتزيس Phrantzès ، وهو « دينوس » Dinos : واذ انتزع منه بايزيد هذه المدينة فى حوالى عام ١٣٩٣ ، فانه راح ، أسـوة بغيره ، يلوذ بتيمورلنك (٢٩) • ويبدو أن جمهورية البندقية أقنعت السلطان بأن يعطيها هذه المدينة ، ربما لأنها تعاونت معه تعاونا فعالا فى استيلائه عليها بأن زودته بأسطول صغير • وعلى أية حال نجد لأول مرة ، فى عام ١٣٩٨ ذكرا لقنصلية بندقية فى أماستريس (٣٠) ، ولم تكن هذه القنصلية تعتبر أنها قائمة فى اقليم أجنبى ، ذلك لأن كلافيجو Clavijo الذى كان موجودا بالمدينة فى عام ١٤٠٤ ذكرها باسم سماسترى Samastri على أنها مدينة جنوية ، كما ينسب اليها المؤرخ البيزنطى دوكاس Ducas هذه الصفة نفسها (٣١) • ونرى على بعض خرائط العصور الوسطى ، الى جانب اسم سماسترى علما جنويا ، ولا يجوز أن نعتبر هذه المستوطنة من أقل مستوطنات بنطس أهمية : لأنه فى العصر الذى جعلت فيه الحكومة الجنوية لـلمدينة كافا نوعـا من السـيادة فى البحـر الأسـود احتفظت لنفسـها بالحق فى تعيين قنصل سماسترى وسـكرتيره • وقد حصنت المدينة ، ولم يزل فى امكان أى انسان فى الوقت الحاضر أن يتعرف بسهولة ، من الشرائط التى تشـكل زخـرفا متميـزا ، وشـعارات النبـالة التى

---

(٢٦) Sanuto, dans Hopf, Chroniques gréco-romanes, p. 145 ; Aboul-féda, Géogr., trad. Reinaud, II, 1, p. 39 ; II, 2, p. 142 ; Nicéph. Grég., I, 429 ; Cantacuz., II, 599.

(٢٧) Geogr. Acrop., p. 20 ; Cantacuz., l.c.

(٢٨) Clavijo p. 79 ; Cf. Miklosich et Muller, Acta graeca, II, 102 et s.

(٢٩) Phrantzès, p. 82, 83 ; Hammer. I, 227 et 3.

(٣٠) Atti della Soc. Lig., XIV, 103, 110.

(٣١) Clavijo, p. 80 ; Duc., p. 163.

تعلو الأبواب . ومن دلالات أخرى على الأصل الجنوى لقسم على الأقل من هذه التحصينات (٣٢) • وكان قنصل كافا يتولى لزمن طويل صيانة تحصينات الحامية ، ولكننا نري فيما بعد أنه منذ عام ١٤٤٩ أصبح هذا التكليف من اختصاص بودستات بيرا • وفي وقتنا الحاضر أهمل ميناء ساماسترى المزدوج • ومن المستحيل الآن أن نعرف مدى نشاط الحركة التجارية هنـــاك ، وما اذا كان عنصرها الأســـاسى هو الانتقال بين القسطنطينية وطربزون ، أو بين آسيا الصغرى والقرم • وانا لنصادف اسم هذه المدينة هنا وهناك في المصادر الجنوية (٣٣) ، ودائما في مناسبات لا علاقة لها بالتجارة •

ويتحدث الرحالة الاسبانى تافور Tafur أيضا عن سـينوب Sinope على أنها قلعة جنوية (٣٤) ، ولكنه مخطيء في ذلك • فقد كان أمراء قصطمونى Kastemouni يتمسكون بقوة بهذه المدينة ، وعندما انتزع منهم العثمانيون قسما كبيرا من أملاكهم ، بقيت سينوب عاصمة لهم ، وفيها أقام آخر أمراء هذه الأسرة حين استسلم للعثمانيين ، وتنازل لمحمد الثانى عن آخر مخلفات امارته (٣٥) •

فمن الثابت اذن أن السيادة الجنوية لم تمتد مطلقا لتصل الى هناك ، ولكن الصحيح هو وجود مستوطنة جنوية ، قليلة الأفراد ، ولكنها مزدهرة، خاضعة لسلطة أمراء سينوب ، ونجد أسماء بعض قناصلها في بعض وثائق القرن الخامس عشر (٣٦) • ولا يذكر التاريخ مصير المستوطنة البنـــدقية •

كانت سماسترى اذن مدينة جنوية خالصة ، وسينوب مدينة تركية بهـــا جالية جنـــوية : أما سمسون ــ سيمســو Samsoun-Simisso فكان لها طابعا آخرا • حين كانت مكونة من مدينتين ، مدينة تركية ، ومدينة جنوية ، واقعتين على خط مستقيم ، تحيط بهما الأســوار ، ويعيش سكانها دائما في ريبة من بعضهما بعضا ، ومع ذلك يحترم سكان

---

(٣٢) Ritter, Kleinasien, I, 770 et s.

(٣٣) Olivieri. Carte e cronache manscritte, p. 75, 122, Canale, Della Crimea, I, 246 ; II, 349 ; Atti della Soc. Lig., VII, 2, p. 595, 677 ; Agost. Giustiniani, Annali fol. 182, 186.

(٣٤) Tafur, p. 158.

(٣٥) Hammer. Gesch des osman, Reichs, I, 227, 373, 417 et -. ; II, 51 et s.

(٣٦) Olivieri. Carte e Cronache. p. 75 ; Atti della Soc., Lig., IV. (Rendic.), 48 ; VI, p. 129 ç VII, 2, p. 676.

كل مدينة منهما ممتلكات سكان المدينة الأخرى (٣٧) وعندما استولى بايزيد على المدينة الاسلامية سمسون ، ترك المدينة المسيحية سيميسو تعيش فى أمن وسلام • وفى عهد مراد الثانى انهارت هذه المدينة وصارت اطلالا ، فأذن السلطان بترميمها • وتذكر بعض الوثائق الجنوية فى أواخر القرن الرابع عشر ومستهل الخامس عشر قنصلية ما فى سيميسو ، وكان القنصل تعينه الحكومة الجنوية • ونرى أيضا فى هذه الوثائق أن حامية المدينة هم جنود مرتزقة جنويون (٣٨) • ولا يوجد فى القانون الأساسى لعام ١٤٤٩ أية اشارة تخص هذه المستوطنة ، وهذا ما يدعو الى الريبة فى أن المستوطنة لم يعد لها وجود •

وفيما يختص بالمسائل التجارية ، فانا لا نعلم شيئا عن سينوب أو سيميسو أو سماسترى • ومع ذلك فالثابت أن هذه المدن قد ارتقت من كونها محطات عادية على طريق طربزون التجارى ، فأصبحت أسواقا مستقلة ، توزع فى البلاد المجاورة منتجات الصناعة الأوروبية ، وتصدر المنتجات المحلية ، كخشب البناء ، والشب ، والنحاس ، والفضة المستخرجة من المناجم الغنية بتلك المنطقة (٣٩) ، والصوف ، ووبر الماعز من قطعان الماشية الكثيرة التى ترعى فى ذلك القطر ، وكذا جلد الماعز المدبوغ والملون « السختيان » فى قصطمونى ، الخ • والثابت أن تجارة التصدير هذه كانت تروج هذه السلع فى الغرب ، وكذا فى الشمال ، اذ كانت هناك حركة ملاحية مستمرة فى المستوطنات الجنوية من بنطس الى كافا ، عاصمتها ، والى تانا •

---

(٣٧) Ahmed Arabsiades, Vita Timuri, éd. Manger, II, 287 ; Schiltberger, Reisen, éd. Meumann, p. 63-65 ; Clavijo, p. 82.

(٣٨) Atti della Soc. Lig., XIV, p. 103, 110 ; IV (Rendic.), p. 48 ; Canale, Della Crimea, II, 346 ; Ducas, p. 163.

(٣٩) شهاب الدين : ص ٣٢٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٥ • — Vinc. Bellovac. spec. hist., XXXI, 143.

رابعا : نهاية امبراطورية طربزون

اتسم النصف الأول من القرن الخامس عشر ، بالنسبة لمستوطنة طربزون الجنوية بسلسلة من النوائب · فأولا ، اندلعت الحرب بين جنوا وطربزون في عهد الكسيوس الرابع لأسباب نجهلها ، وفي أثناء ذلك هزم أمير البحر الجنوى كوزما تاريجو Cosma Tarigo على رأس ثلاث سفن حربية أسطول الكسيوس ، واستولى على دير محصن ، وحوله الى ساحة عسكرية ، واضطر الأمبراطور أخيرا أن يدفع تعويضات ، وصرح له بأن يسدد دينه هذا عينا (بالنبيذ والبندق) ، وعلى أقساط (١) · وبعد انقضاء بضع سنين ، ثار أهالى طربزون ضد الجنويين ، واجتاحوا حيهم ونهبوه ، ولم يقرر الأمبراطور اعادة الحي للجنويين الا بعد أن تلقى من الحكومة الجنوية مذكرة تهديدية شديدة اللهجة (٢) · وترك يوحنا الرابع (كالو يوحنا Kolojohannès) الأمـــور تجرى على عواهنها ، فأهين الجنويون وعوملوا أسوأ معاملة في مختلف أنحاء الأمبراطورية ، وفي العاصـــمة نفســـها · وقد وجه اليه دوج جنـــوا « جيـــانو فريجوزو » Giano Fregozo خطـــابات تأنيب وتحقير ،أجاب عنها الامبراطور ــ ولابد

(١) Stella, p. 1275 et la charte du dernier février 1418, dans Not. et extr., XI, 79-81.

(٢) بتاريخ ٢٨ من يناير ١٤٢٥ : نشرها السيد هوف :
— M. Hopf dans les Sitzungsberichte der Berliner Akad., févrie 1862, p. 88 et s., et par M. Vigna dans les Atti della Soc., Lig., IV, rendic. p. 50.

من التسليم بأنه كان على حق فى اجابته هذه ـ بأن اشتكى من بعض الرعايا الجنويين الذين يرفضون الاذعان لقوانين الأمبراطورية · واذ دعاه الدوج لأن يوفد الى جنوا سفيرا لاصلاح الأخطاء التى ارتكبها الطرفان ، فانه كلف بهـــذه المهمـــة شخصـــا يدعى جورجيـــوس أميروزيوس Georguis Armiruzius ، ولكن هذا الشخص أبدى ادعاءات مبالغا فيها تسببت فى فشل كل محاولات الصلح (٣) · ولم يكن هذا النزاع قد تم تسويته عندما نشرت مجموعة قوانين جديدة لمستوطنات بنطس (١٤٤٩) ، وتسرى هذه المجموعة القانونية أيضا على مستوطنات طربزون ، وتعطينا فكرة عن تنظيمها الداخلى · فعلى رأس ادارة المستوطنة كالمعتـــاد قنصل تعينه الدولة الأصلية جنـــوا ، يحيط به موظفون دائمـــون : هم موثق العقود ، وترجمان ، وقسيسان ، وحاجبان ، وخادمان · وما أن يتسلـــم القنصل مهام وظيفته ، حتى يباشر اختيار « القدامى » الأربعـــة ، وهم مستشاروه الحقيقيون فى أعماله الرســـمية ، وموظفان يتوليان ادارة الشئون المالية ، وأخيرا مندوبان يجريان التحقيق فى ادارة سلفه · ويتولى كل واحد من هؤلاء مهام وظيفته سنة واحدة فقط ، وعند انتهاء هذه المدة يخلون أماكنهم يشغلها غيرهم · ومن حيث الشئون المالية ، يجب على المستوطنة أن تكون مكتفية بذاتها ، بمعنى أن ايراد الضرائب المفروضة على السلع التى يستوردها أو يصدرها الرعايا الجنويون ، وهى محدودة بنسبة ١٪ أو ١½٪ حسب الحالة ، بالاضافة الى الغرامات ، لابد فى الأصل أن تغطى المصروفات العادية والاضافية ، بما فيها مرتبات الموظفين · فاذا لم تكف هذه الايرادات ، فيجب سد العجز بفرض ضريبة اضافية يدفعها أفراد الجالية (٤) ·

وعلى هذا ، نشهد فى هذه الفترة منازعات دموية بين الجنويين وأباطرة طربزون : وتختلط المطـــالب بالادعاءات من الناحيتين دون أن يتسنى التوفيق بينها ·

أما من جهة البنادقة ، فاننا نشير الى معاهدتين ، الا أن مضمونهما لا يدل على أن الغرض منهما وضـــع حداً لأى نزاع · كانت احدى هاتين المعاهدتين بتاريخ ١١ أبريل ١٣٩١ ، أتى بها الى البندقية ماركو جستنياني

---

(٣) Atti della Soc. Lig., IV, rendic., p. 51 et s. ; XIII, 218 et ss. (documents des années 1447-1449).

(٤) Atti della soc. lig. VII, 2, p. 669-671.

(٥) Marin, VI, 275-277, Taf. et Thom., inéd. ; les Commem., III, p. 226, no 419.

– يبدى الناشر أن الوثيقة من غير تاريخ ، ولكن الراجح انها لعام ١٣٩٥ ·

Marco Giustiniani(٥) ، وهو من قباطنة السفن الحربية ، والثانية بتاريخ ١٣٩٦ عهد بأمرها الى البايل جياكومو جوسونى Giacomo Gussoni (٦) نصت المعاهدة الأولى على تخفيض الضرائب التى تحصل عند البيع والشراء بمقدار النصف ، أما المعاهدة الثانية فانها ليست الا ترديدا للمعاهدة الأولى • وفى عام ١٤١٦ زار البندقية سفير من طربزون (٧) ، غير أن الغرض من زيارته هذه لم يزل بلا تفسير ، حتى يومنا هذا •

واستمرت الخدمة البحرية المنتظمة بين المدينتين منذ وقت بعيد فى مسيرتها المعتادة ، ونجد دليلا على ذلك فى كتاب التاجر الفلورنسى أوزانو Uzzano الذى حرره فى عام ١٤٤٢ ، حيث يذكر المؤلف فى كتابه هذا تاريخ اقلاع السفن البندقية الى بلاد الروم وطربزون (من ١٨ الى ٢٠ يولية) (٨) • ومع ذلك لابد أن نسجل حقيقة مهمة : ذلك أن غالبية المصادر اللاحقة لا تتحدث الا عن سفينة من طربزون (٩) • وكان من سوء حظ احدى هذه السفن أنها عند عودتها من طربزون دخلت فى ميناء القسطنطينية فى اللحظة التى تأهب فيها الأتراك لحصارها (١٤٥٣) ، ومن ثم منعت من مواصلة سيرها ، بل وأجبرت على التعاون مع سفن أخرى فى الدفاع عن المدينة (١٠) •

ومنذ اليوم الذى احتل فيه الأتراك القسطنطينية واستقروا فيها تراكمت المصاعب بطبيعة الحال على الايطاليين فى طريق طربزون ، وأصبحت الصلات بين المستوطنات المستقرة فى هذه المدينة وبين أوطانها الأصلية عسيرة للغاية ، فلا عجب اذا لم يعد منصب رئيس المستوطنة فى طربزون منصبا مرغوبا فيه • لذلك نرى فى عام ١٤٥٤ جاليوتو سبينولا Galeotto Spinola ، وبعده ليوناردو دوريا Leonardo Doria اللذين عينا لمنصب قنصل جنوا فى طربزون يرفضان هذا الشرف : ولم يمنع ذلك من العثور على مرشحين آخرين : وكان هناك دائما من يشغل المنصب حتى آخر أيام المستوطنة (١١) • نذكر مع ذلك ، ومن باب العلم بالشىء ،

---

(٦) Tof. et Thom., inéd. ; regeste dans les Commem., III, p. 244. et s., no 54.

(٧) Sanuto, Vite dei dogi, p. 900.

(٨) Uzz., p. 104.

(٩) Sathas, Doc. inéd., II, 160, 161 ; II, 67, 100.

(١٠) Barbaro, Assedio di Constantinopli, p. 4, 59.

(١١) Atti della Soc., Lig I, p. 191. 125, 130, 292, 529, 594, 721 et s., 645, 833, 896 et s. ; VII, 1, p. 106 ; VII, 2, p. 953 et s.

قصة مدينة تجارية ايطالية أقامت خلال الفترة المفجعة علاقات مع امبراطورية طربزون • فهناك معاهدة تجارية بتاريخ ١٤ ـ ١٥ ديسمبر ١٤٦٠ تنص على أن للفلورنسيين الحق فى أن يكون لهم فى طربزون فندق وقنصلية ، وتحدد لهم رسم الدخول بنسبة ٢٪ وتعفيهم من رسم الخروج ، الخ • وقد أبرمت هذه المعاهدة مع بلدية فلورنسا ، باسم داود ، آخر أباطرة طربزون بواسطة سفير يدعى ميشيل ديلى الديجيرى Michele degli Alddighiere أو ميخائيل اليجيريس Michael Alighieris حسب النص اللاتينى للصيغة الختامية (١٢) •

ولكن هل كان اليجيرى هذا ممثلا حقيقيا معتمدا من امبراطور طربزون ؟ يمكن طرح هذا السؤال ، لأن هذا الاسم نجده فى ظروف أخرى بين أسماء لأشخاص يزعمون أنهم يمثلون أمراء من الشرق ، وقد اعتبر هذا فى الأوقات الأخيرة من قبيل الغش والتضليل (١٣) • فهؤلاء الأشخاص أتى بهم الراهب الفرنسيسكانى لوى دوبولونى Louis de Bologne وطافوا وقتئذ بلاطات أوروبا محاولين استثارة حرب عامة ضد العثمانيين • ونذكر أنه فى تلك الآونة بذل كل من البابا بيوس الثانى فى الغرب ، وآخر أباطرة طربزون : كالو يوحنا ، وداود فى الشرق جهودا لعقد تحالف كبير ضد تلك القوة التى أصبح تقدمها شيئا مخيفا • وكان الأخيران قد ضما لمشروعهما ليس فقط جيرانهما أمراء جورجيا المسيحيين ، ولكن أيضا أمراء مسلمين غيورين من تفوق العثمانيين تفوقا كبيرا (١٤) • وفى هذه الآونة كان لوى دو بولونى يجوب الشرق نائبا عن البابا لاستثارة أعداء الترك • وفى عام ١٤٦٠ ظهر ثانية فى الغرب بصحبة بعض الأشخاص الذين يقولون انهم سفراء للعديد من الأمراء الشرقيين ، وقدموا للاعتماد خطابات محررة بأسلوب مفخم ، وموقع عليها بامضاء هؤلاء الأمراء (١٥) ، واجتازوا هنغاريا والنمسا الى أن وصلوا الى البندقية حيث استقبلوا بحفاوة ، ومن هناك ذهبوا للقاء البابا بيوس الثانى الذى سلمهم خطابات توصية للعديد

---

(١٢) Doc. Sulle relaz tosc., p. 186 et s.

(١٣) سوف أوضح فيما بعد أن هذا الاتهام لا ينطبق على ممثل طربزون : ولا أود أن أفعل الشيء نفسه بالنسبة للآخرين ؛ ومع ذلك فاننى أبدى أنه يصعب أن نفهم كيف تأتى للأول أن يعرض نفسه للشبهات بأن يجوب أوربا كلها فى صحبة مضللين من هذا النوع •

(١٤) Fallmerayer, Gesch. von Trapezunt. p. 258 et ss.

(١٥) Gobellini (pii II) commentarii, p. 127 et s. ; Voigt. Enca Silvio de Piccolomini, III, 643 et ss., MM. Falmerayer (op. cit., p. 263 et ss) et Brosset (Hist de la Géogrie, addit. et éclasirciss. p. 407-411).

من الملوك والأمراء (١٦) . وفي شهر مايو ١٩٦١ كانوا في فرنسا ، في بلاط شارل السابع ، . ثم رحلوا في الشهر نفسه للقاء الدوق فيليب دوق برجنديا فوجدوه في سنت أومير Saint-imer (١٧) ، ثم زاروا جاند Gand (جنت — مدينة ببلجيكا — المترجم) من ٤ الى ٨ يولية (١٨) ، وعادوا الى روما عن طريق فرنسا في شهر أغسطس . ونجد في وثائق ذلك العصر في كل مرة يرد فيها ذكر هؤلاء السفراء الشرقيين ، في السطر الأول أو الثاني ، بصفة سفير لداود امبراطور طربزون اسم شخص يدعى ميشيل Michel أحيانا على حدة ، وأحيانا مقترنا باللقب (اسم الأسرة) « البيجيريوس » Aligerius, Algeorii Alguri(Alchiere, Aldigeriis وقد جذب هذا الشخص الأنظار بنوع خاص في جاند ، ولوحظ هناك أنه يجيد الكلام بالايطالية ، وفي فلورنسا القى خطابا باللاتينية (١٩) ، واستقبل هناك بحفاوة لأنه من أصل فلورنسي ، وينتسب لأسرى داني(٢٠) ، وسلم دوق برجنديا رسالة من داود (٢١) ، في نصها دليل على الاتهام بالتضليل . ولندرس قيمة هذا الاتهام . فأولا ، كان النص الأصلي لهذه الرسالة ، على ما يقال — مختلفا عن النص الموجود في حوزتنا . هذا محتمل ، ولكن لا ننسى أن هذا النص الاصلي مكتوب باليونانية ، وأنه عند ترجمته الى اللاتينية ، يحتمل أن يكون المترجم قد دس فيه عبارات زائفة الى جانب الأجزاء الأصلية الصحيحة ، وهذا المترجم غير معروف . ثانيا : المعاهدة المبرمة مع جمهورية فلورنسا خلال هذه الرحلة بواسطة البيجيريوس هذا باسم امبراطور طربزون لا تشوبها ريبة التزوير ، وتتضمن تفاصيل تثبت أصالتها بصورة أكيدة ، بحيث لا مجال للشك في صفة الوكيل المفوض لداود ، وهي الصفة المنسوجة لهذه الشخصية . وهناك أخيرا ، في وثيقة أخرى لا صلة لها برحلة السفراء الشرقيين في

(١٦) Wadding, Annal. minor., XIII, 156 ; lettre au duc de Bourgogne, dans les Aeneoe Sylvii epistotae (Opp. Basil. 1551), no 376 ; lettre analogue adressée à Florence : Doc. sulle relaz. tosc., p. 185.

(١٧) Jacq. du Clarcq. dans Buchon, Choix de chroniques, VIII, p. 1172; document des archives d'Ypres, cité par M. Gachard dans les note de L'Hist. des ducs de Bourgogne de la Garaute (Brux. 1838), II, 179 et s.

(١٨) Dagbaek der Gentsche collatie witg door Schayes (Gent. 1842), p. 441-443.

(١٩) Ibid. l.c. ; Doc. selle relaz. tosc., p. 188.

(٢٠) Ammirato, Stor. florent., a. a. 1460.

(٢١) Aeneoe Sylvii epistoloe, no 377.

عامى ١٤٦٠ ، ١٤٦١ ، نجد اسم الشيفالييه (فارس) ميخائيل دى البجيرى Michael de Aligeri ، وهو تاجر كبير فى طربزون ، زار بنفسه ، أو زار وكلاؤه مرافىء البحر الأسود ، وذلك فى عام ١٤٧٠ ، أى فى فترة كانت فيها طربزون قد انتقلت منذ زمن بعيـــد الى أيدى الأتراك (٢٢) ٠

وفى خطاب بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٤٦٠ ، شكرت فلورنسا بحرارة الامبراطور لما قدمه لها من آيات المودة ، والمزايا التى منحها للتجـارة الفلورنسية عن طريق سفيره (٢٣) ٠ ولسوء الحظ لم يسمح الوقت للجمهورية لتختبر مدى صداقة الأمبراطور : فلم تمضى سنة واحدة حتى دخل محمد الثانى بحملة واحدة مظفرة مدينة سينوب (١٤٦١) (٢٤) ، واحتل طربزون ، وقضى على الأمبراطورية ، وساق آخر الأباطرة أسيرا الى القسطنطينية ٠ وأصاب هذا الانقلاب التجارة الايطالية بضربة قاضية ، اختفت بعدها من تلك السوق زمنا طويلا ٠

---

(٢٢) Atti della Soc. lig., VII, 1, 677.

(٢٣) Doc. sulle relaz. tosc., p. 189.

(٢٤) Duc, p. 340 et ss., Chalcoc., p. 485 et ss. ; Critobul., p. 137-142 ; Monum. Hung. hi t., acta extera. IV, 92 et ss., ; 101. ; Zinkisen, Gesch des osman. Reichs in Europa, II, 335 et ss. ; Voigt, Enea Silvio, III, 656, not. ; Berchet, la rupublica di Venezia e la Parsia (Torino, 1865), p. 100 ; Muller, éd. de Critobul., p. 127 ; Doc. sulle relaz. tosc., p. 296, 302.

خامسا : نهاية مستوطنات شاطىء بنطس الشمالى :

أعقبت الفتوحات التى قام بها الجنويون فى القرم فى أواخر الفترة السابقة ، سنوات طويلة من السلام والهدوء • ومع ذلك لم يخطر لأحد أن يضع ثقته فى المعاهـدات وحدها ويهمل الاجراءات الضرورية لأمن المستوطنات ، ومن أهمها اقامة تحصينات حول المواقع الأكثر أهمية ، وحياتها • وقد رأينا أن كافا حاصرها مرارا جانى بك نفسه • وبعد بضع سنوات قام جوفريدو دى زواجلى Goffredo di Zoagli الذى تولى أعمال القنصل سنتى ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ باتمام التحصينات (١) • كذلك قام جاكوبو سبينولا Jacopo Spinola وبييترو جازارو Pietro Gazaro وبنيد يتو جريمالدى Benedetto Grimaldi الذين شغلوا هذا المنصب على التوالى ببناء أسوار تحيط بالضواحى (٢) • ولم تزل هذه الأسوار الجنوية الى الآن ، بخنادقها وأسطحها تشكل دائرة فسيحة حول مدينة فيودوسيا الحديثة Féodosie (كافا قديما — المترجم) • وعلى طرفى المدينة ، على شاطىء البحر ، ترتفع حصون منيعة • وعلى الناحية الجنوبية الغربية قلعة كبيرة ، وعلى ناحية كيرتش Kertch حصن بأسوار ذات سمك غير

---

(١) Stella, dans Murat., SS., XVII, 1095 ; Nicéph. Grég. (II, 684 et ss.)

(٢) أوفد الثلاثة معا الدوج ليوناردو دى مونتالدو (١٣٨٣ — ١٣٨٤) Stella l.c. حتى يتعاونوا فى أداء مهام القنصل •

عادى (٣) ويحمى الموقع من جهة البر برج كان البابا كليمنت السادس قد دفع تكاليف بنائه من ماله الخاص • وثمة سؤال يتبدى فى هذا الخصوص : هل كان هذا هو برج سنت انطوان S. Antoine ، أو برج سنت قسطنطين S. Constantin الوارد ذكره فى المصادر الجنوية (٤) ؟ لا نستطيع الاجابة عن هذا السؤال • وكان لا غنى عن وجود قوات كبيرة لحراسة كل هذه المنشئات والأسوار والأبراج • ففى زمن الحرب كان مفروضا على كل المواطنين القادرين على حمل السلاح أن يؤدوا الخدمة العسكرية (٥) ، أما فى الأوقات العادية ، فكان هناك حامية دائمة من جنود مرتزقة (٦) • وكانت الترسـانة تحتوى على قطع من العتاد الحربى والأسلحة ، مرسلة من الوطن الأم ، أو تشتريها السلطات المحلية ، أو مقدمة كمنح من قناصل يعرفون مدى واجباتهم ، أو من موظفين آخرين عند مغادرتهم البلد (٧) •

وكانت سوداق Soudak التى فتحها الجنويون أخيرا تبدو كموقع أكثر حصانة من كافا ، وبقيت كافا قبل كل شىء قصبة البلد ، ومدينة تجارية • وعلى أسوار سوداق كتابة تحدد سنة ١٤١٤ تاريخ الانتهاء من أعمال التحصينات (٨) • وتتكون مجموعة التحصينات من مركز للحراسة محاط بأسوار يتولى الحراسة الدائمة أعلاها حراس خصوصيون ، والبوابات مزودة بجسور متحركة ترفع كل مساء فتلغى كل اتصال بالخارج أثناء الليل • وكان مركز الحراسـة محميا بقلعتين ، تسـمى احداهمـا Castrum S. Crucis والثانية Costrum S. Elioe ، ولم تزل أطلالهما حتى وقتنا الحاضر ذات منظر مهيب • وترتفع الضخرة الجيرية المشيد عليها القلعتان ارتفاعا عموديا تقريبا فوق سطح البحر ، ولا يمكن الوصول اليها

---

(٣) Palla , Reise in die südlichen Statt halterschaften Russlands. II, 261 et s. ; Dubois de Monpéreux, V. 285 et ss. MM. Aderico (Lett. ligust., tav. 1-10), Waxel (Recueil des antiq. trouvées sur les bords de la mer noire, nos 20-22) et Jurgiewicz (Sap., V, 159-168).

(٤) Atti della Soc. Lig., VII, 2, p. 6/5, 613, 627 ; cf. la note de M. Vigna. VI, p. 103.

(٥) فى زمن السلم ، كان هناك بجبنة دائمة خمسون رجلا لخدمة المنجنيقات والقذائف : — Atti della Soc. Lig., XIV, p. 104.

(٦) Atti della Soc. Lig., VII, 2, p. 612 et ss. ; Canale, I, 261 et s.

(٧) Atti della Soc. Lig., VII, 2, p. 585, 627 ; Off ; Gaz., p. 409.

(٨) Sap., V, 163 et s.

الا من جزئها الخلفي على شكل شرفة • وعلى هذه الشرفة شيدت القلعة السفلى ، وهى محاطة بسور محصن بعشرة أبراج ، بعضها مربع ، وبعضها مستدير ، وفى الوسط يرتفع البرج الذى يخترقه باب الدخول الوحيد ، ويحمى هذا الباب مبنى متقدم • وبأعلى القلعة السفلى ، وهى أكبر القلعتين ، تبدو على صخرة عمودية قلعة أخرى أصغر منها ، ويتوج النتوء العلوى برج مربع متصل بسائر أجزاء الحصن بسور يتبع قط الذروة • وكان قنصل سوداق ، فى عهد السيادة الجنوية يتولى فى الوقت نفسه مهام حاكم الموقع المحصن ، لذلك كان محظورا عليه أن يبيت خارج مقر عمله ، والا أقيل • ويدير شئون كل من القلعتين نائب حاكم • وكانت مهمة تموين الموقع المحصن بالأغذية والأسلحة ، وصيانة التحصينات معهودة الى مجلس خاص بالتموين ، فى حوزته ، للانفاق على مصروفاته صندوق يتكون من ضرائب يدفعها السكان ، وحصيلة الغرامات (٩) •

نذكر أيضـــا حصنا ثالثـا مهما ، هو حصـــن سمبالو Cembalo (بالاكلافا Balaclava • وكانت القلعة الحقيقية Castrum S. Nicolai مشيدة على مرتفع يحد الميناء من الشرق ، ومن هذا المرتفع ينحدر يمنة ويسرة سوران يتصلان أحدهما بالآخر بأسفل الساحل بسور ثالث يمتد على طول الميناء ، وعلى طرفى هذا السور برجان يقع أحدهما ناحية قرية بالاكلافا الحالية ، والثانى مشيد عند مدخل الميناء ويشرف عليه بالكامل ، نظرا لضيق المدخل • ويبدو أن هذين البرجين كانا يشكلان فى الوقت نفسه جناحى القلعة السـســفلى الموضــــوعة فى حمـاية القديس جورج S. Georges (١٠) ، ويحدد قانون عام ١٤٤٩ عدد أفراد الحامية النظاميين فى القلعتين (١١) •

---

(٩) فى الامكان معرفة التنظيم الادارى لهذه المستوطنة فى عهد السيادة الجنوية بقراءة القانون التنظيمى لمدينة صولداديا لعام ١٤٤٩ انظر :

Atti della Soc. Lig. VII, 2, p. 652 et ss.
45. 64 ; 3e série. pl. 29 ; Pallas, op. cit., II, 222 et ss. ; Mourawiew. Dubois de Montpéreux : (Texte, V, 323 et ss., Atlas, 2e série, pl. Apostol. Reise nach Taurien. 160 et s. : Oderico. Lett. ligust., tav. 11-14; Waxel, Receuil d'antiq., nos 17-19 Dubois de Montpéreux, V, 352, 357 et s. ; Jurgiewicz. Sap., V. 169-175 ; M. Phil. Bruun : pour l'histoire de Soudak (Odessa, 1871).

(١٠) Atti della Soc. Lig., VI, p. 279.

(١١) Ibid VII, 2, p. 661 et ss.

— أطلال حصون بالاكلافا موصوفة فى :

Demidoff Reise in dic Krim. trad. Neigebaur. II, 44.

ويكرس لها Dubois de Montpéreux فصلا خاصا ، مع منظر فى الأطلس ، المجموعة الثانية اللوحة ٦٤) •

انتهت كل هذه المستوطنات بتشكيل مجمع كبير ، وصـار من الضروري وضع تنظيم داخلي ، وجرى هذا العمل الى جانب بناء التحصينات التي تحميها من الخارج • وفي جنوا ، لم يكن المكلفون بوضع النظم القانونية لمستوطنات بنطس يعتقدون بامكان بلوغ الكمال في أول مرحلة • وقد أوفدت الى هناك مرارا لجان مكلفة باجراء دراسة ميدانية لحالة المستوطنات واحتياجاتها • مثلما أوفد بورجوازيو كافا عدة مرات مندوبين يحملون مطالبهم ورغباتهم (١٢) فكان أصحاب الشأن يستمعون اليهم دائما باهتمام شديد • وفي عام ١٣٩٨ كان في جنوا اثنان من هؤلاء المندوبين نيكولو دوتو Niccolo Dotto ، وجاسباريه سبينولا Gaspare Spinola وكانت شكاواهم تتعلق بموضوعات شتى : منها أولا أن موظفي جنوا كانوا يحدثون مجموعة من البدع ، أو يتساهلون في أمرها اضرارا بالمستوطنة ، وثانيا أن الادارة تطلب من الجالية سداد ما دفعه بعض الأشخاص من أموال للصرف على نفقات غير عادية ، وأنها توافق على طلبات لا مبرر لها يتقدم بها اليها بعض الأفراد ليسدد لهم صندوق البلدية ما لهم على الغير من ديون ، الخ • الا أن مهمتهم الرئيسية كانت الحصول على بسط نوع من السيطرة لمدينة كافا على سائر المستوطنات الجنوية في بنطس • وفي ١٠ من أبريل ١٣٩٨ أصدرت لجنة مستوطنات جنوا ، ردا على المطالب مجموعة من القرارات (١٣) تتغيا اصلاح ادارة بلدية كافا ، وفرض نوع من الرقابة أكثر صرامة على تصرفاتها • من ذلك مثلا أنها أقرت حقا مطلقا لأفراد الطبقة البورجوازية برفع شكاواهم للقنصـل ، وبالعكس أعطت القنصل اختصاصا في أن يعين بالاتفاق مع مستشاريه ، ومع لجنة التموين اشخاصا في مجموعة من وظائف المستوطنات ، في كافا أو في غيرها من مستوطنات بنطس ، ولم تحتفظ لجنة مستوطنات جنوا لنفسها بالحق في التعيين الا بالنسبة للمناصب التالية ، وهي مناصب مهمة : أولا ، قناصل كافا وسيميسو ، وبالاكلافا ، وطربزون ، وساماسترى ، ويضيف ملحق القرار الصادر في ٢٨ أكتوبر ١٣٩٩ قناصل تانا ، وصولداديا (١٤) ، وثانيا ، المفوضين بادارة مالية كافا ، masdarii ، وثالثا ، موثق العقود

= وقد نقل الى جنوا معظم الأحجار التي نقشت عليها الكتابات التسجيلية وشعارات النبالة • انظر : Canale, Crimea, II 343-345 ; Sap., V, 165 et s.

(١٢) لم تكن الطبقة البرجوازية في حاجة الى موافقة القنصل لكي تتصرف على هذا النحو ، وكان محظورا على القنصل حظرا باتا ان يضع اية عراقيل في سبيل سفر المندوبين او يتدخل في وضع تعليمات لهم :
Atti della Soc. Lig., VII, 2, p. 629 et s.

(١٣) Atti della Soc. Lig., XIV 101-110.

(١٤) Canale, Della Crimea, I, 241.

أو الأمناء الملحقين بالقنصلية أو الخزانة بكافا (١٥) . هذا القرار زاد بدرجة كبيرة من سلطات قناصل كافا ، وكان في التعيين ، في عهد سريان لائحة ٣٠ اغسطس ١٣١٦ قاصرا على منصب قنصل صولجات وحده (١٦) : أما الآن فقد أصبح في وسعهم أن يطلقوا على أنفسهم ، كما فعلوا أحيانا لقب « قنصل الجزاريا كلها » (أى القرم) ، أو « قنصل البحر الأسود وامبراطورية جزاريا » (١٧) . وبالاجمال فان هذا التقنين الاستعماري ينسب الى كافا دور المركز السياسي والعاصمة ، أحيانا لمجموعة مستوطنات البنطس ، وأحيانا لقسم من هذه المستوطنات .

وفي عام ١٤٣٤ حلت لوائح جديدة محل لوائح عام ١٣٩٨ (١٨) : ولم تكن هذه اللوائح قد نشرت بعد ، ولكن لا أهمية لذلك ، لأنه ينبغي لنا الآن أن نتكلم بمزيد من التفاصيل عن عمل تشريعي أكثر أهمية ، صدر فيما بعد من لجنة مستوطنات جنوا . واذا كانت الطبقة البورجوازية في كافا توفد الى جنوا من وقت لآخر مندوبين يدعون الى اجراء تعديلات في القوانين الاستعمارية ، فان لجنـة المستعمرات كانت توفد أحيانا الى كافا مندوبين لمراجعة اللوائح السارية المفعول في مستوطنات بنطس . وقد كلف بارنابا ديي فيفالدي Barnaba dei Vivaldi مع آخرين بمهمة من هذا النوع ، وعند عودته أودع مكتب لجنة المستعمرات مشروعا كاملا لاصلاح لوائح كافا والمستوطنات المجاورة لها ، وكان هذا المشروع بمثابة الأساس لتشريع جديد . وبعد أن استمعت لجنة المستعمرات لعدد من سكان كافا ولخبراء في هذه المسائل أطلعتهم على المشروع ، أصدرت قانونا كاملا ، عرف باسم « قانون آخر فبراير ١٤٤٩ » (١٩) . ولا يسعنا أن نقدم هنا تحليلا كاملا لهذا القانون ، ولكنا نكتفي بأن نقتبس منه بعض الفقرات كلما سنحت لنا الفرصة بذلك في دراستنا التنظيم الاستعماري ،

---

(١٥) استثنى مرسوم تكميلي بتاريخ ١٨ ابريل ١٣٩٨ صراحة من الموظفين الذين يتولى قنصل كافا تعيينهم أمناء (سكرتيرين) قناصل سميسو ، وبالاكلافا ، وصولداديا ، وطريزون ، وساماستري .
انظر في ذلك : Atti della Soc. Lig XIV, p. 109 et s.

(١٦) Off. Gaz., p. 390.

(١٧) Oderico, Lettre ligust., p. 150 et s. ;
Canale, Della Crimea, I, 345 ; Not. et extr., XI, 53 et s., 62.

(١٨) لا تعرف هذه اللوائح الا من المقتبسات التي نشرت في :
Canale, Della Crimea, I, 243 et ss.

(١٩) M. Murazakiewitch, dans les Mémoires (Szapiski) de la Société d'histoire et d'archéologie d'Odessa, V, 631-837 (en 1865) ; et depuis (en 1879), par le P. Vigna, dans les Atti della Soc. Lig. VII, 2, p. 567- 680.

دون أن نلتزم بترتيب المواد • ومع ذلك ، فقبل أن نتقدم كثيرا فى هذا الشأن ، يحسن بنا أن نعرض بعض الملاحظات ذات الصفة العامة •

وكلما مد الجنويون فتوحاتهم على الساحل الجنوبى للقرم تضاعفت فرص اتصالهم بأفراد من جنسيات وديانات مختلفة • ولم يكن فى وسع السلطات الجنوية فى سوداق وتشيمبالو أن تستغنى عن مترجم يتقن اللغات اللاتينية واليونانية والتترية ، وكان لابد فى هاتين الناحيتين من تحرير الرسائل والوثائق باليونانية ، ومن ثم كان هناك كتبة خصوصيون لهذا الغرض من موظفى الدولة • مثال ذلك كان القنصل فى سوداق يحتاج الى مثل هؤلاء الكتبة من أجل صلاته بثمانية عشر دارا كائنة فى ضاحية المدينة (٢٠) • وفى مدينة سوداق نفسها كان العنصر اليونانى ممثلا تمثيلا قويا ، حتى انه فى بعض المصالح التى تديرها لجان ، كان نصف أعضاء اللجان من اللاتينيين ، والنصف الآخر من اليونانيين (٢١) • ولدينا فى هذا مثل للثقة التى يوليها سادة البلد هذا القسم من السكان ، وكذا تعلق السكان بسادتهم • والحاقا بهذا المثال الذى يدل على المساواة بين اليونانيين فى الشئون البلدية ، نضرب أيضا مثلا بالأسقفيات اللاتينية التى أنشئت حديثا فى صولداديا وتشيمبالو (٢٢) ، وهى تعيش فى سلام ووئام مع الأسقفيات اليونانيـــة القديمة فى صولداديا وقوطيا Gothia (اقليم بالقرم ــ المترجم) (٢٣) • ولم يضع نظـام الحكم الجنوى أية عراقيل فى علاقات بطريرك القسطنطينية مع نواب الأساقفة فى القرم ، ولم يمنع تمتعه بالأموال والحقوق التى يملكها فى يالتا Yalta (مدينة جنوبى القرم ــ المترجم) • ولم يمنع الأساقفة اليونانيين فى القرم من حضور « السينودس » (المجامع الكنسية) فى القسطنطينية ، أو من أن يعهد لقضـــاء البطريرك بالمنـــازعات العديدة المتعلقة بتعيين حـدود أسقفياتهم (٢٤) •

أما بخصوص السكان التتار ، ففى وضعهم الكثير من الصعوبات • ولما كان وجود عدد كبير من المسلمين فى مدينة كافا يمثل خطرا كبيرا

---

(٢٠) Atti, l.c., p. 655, 660, 664 ; ibid. p. 677 et ss.

(٢١) ibid. p. 656, 658.

(٢٢) Lequien, Oriens Christianus. III. 1103 et ss. ; Canale, Della Crimea, I, 273, 279 et s. 304 et s. ; Atti, l.c. p. 655, 714 et ss.

(٢٣) Lequien, op. cit., I, 1244 et s. ; Acta SS. Boll., 26 Juin, p. 190 et ss. Acta patriarch. Cpol., éd. Miklosich et Muller, passim, v. la table.

(٢٤) Acta patr. Cpol., I, 577 ; II, 67, 69 et ss. , 74 et s., 148 et s., 249.

على السيادة المسيحية ، فقد حظر عليهم الاحتفاظ بأسلحة فى بيوتهم (٢٥)٠

وكان التتار بالتأكيد أكثر المسلمين عددا ، يخضعون هم ومواطنوهم المقيمون في مجاورات كافا لسلطة موظف خاص يقيم فى كافا ، تطلق عليه الوثائق والقوانين المدونة باللغة الايطالية لقب تيتانو titano (-nus) أو زيتان Zittan (cittain) (٢٦) ٠ وواضح أن هذه الكلمة مشتقة من الصورة القديمة لكلمة تودون Tudun ، وهو لقب كان يطلقه الأبر Avares والخزر Khazares وشعوب أخرى تركية الجنس (كان التتار يستخدمون لغة الترك الشرقيين) على الحكام ونواب الملوك (٢٧) ٠ فهذا « التودون » كان اذن يقوم حيال التتار المقيمين فى كافا وضواحيها بدور ممثل أميرهم ، وبعد أن يقيم التتارى مع أسرته فى كافا أو ضواحيها سنة واحدة يخرج من سلطة التودون ، ويصبح رعية جنوية يخضع لسلطة القنصل (٢٨) ٠ وفى القضايا التى تقوم بين التتار والجنويين ، يحكم القنصل فى القضايا التى يكون فيها التتارى هو المدعى ، ويحكم التودون حين تكون المطالبة القضائية صادرة من جانب المواطن الجنوى (٢٩) وكان فى كافا فضلا عن ذلك موظف من الجمارك التترية يتولى تحصيل الرسوم باسم خان القفجاق Kiptchak (٣٪ غالبا) (٣٠) هذا الرسم هو الدليل الوحيد على أن الأرض التى يحتلها الجنويون تنتمى أصلا الى التتار ، فهو ليس من نوع الجزية ، وكان القنصل يتمتع فى كل تصرفات ادارته باستقلال تام عن ملوك القفجاق ٠ وكانت لجنة مستعمرات جنوا تهتم اهتماما شديدا بألا يجرى أى تصرف يفترض واجبا من التبعية لهؤلاء الأمراء ، أو يعتبر سابقة بهذا المعنى ٠ ومنذ عام ١٣١٦ تقرر أن وضع تابع خان القفجاق أو زوجته يتعارض مع وظيفة القنصل (٣١) ٠ وفيما بعد ، فى القرن الخامس عشر صدرت قرارات تحظر على سكان كافا أن يبيعوا أية سلعة سواء لهذا الخان أو لواحد من أعضاء بلاطه ، أو أعيانه ، أو لأحدموظفي جماركه ، أو عقد أية صفقة معهم ، وحظر على كل جنوى

---

(٢٥) Atti della Soc. Lig., VII, 2, p. 669 et s.

(٢٦) Not. et extr., XI, 55 ; Olivieri, Carte e cronache, p. 73, 74; Atti, l.c., p. 650.

(٢٧) M. Kunik (Berufung der schwedischen Rodsen. II, 258 et ss.) ; l'Etymologicum megnum (Lips. 1816, I, 763) ; Tomaschek, Die Goten in Taurien, p. 20 ; Kuun, Addit ad. cod. cuman., p. 6.

(٢٨) Atti, l.c., p. 650.

(٢٩) Not. et extr., l.c., Olivieri, l.c.

(٣٠) Not. et extr., l.c. ; Cf. Atti, l.c., p. 627, 637.

(٣١) Off. Gaz., p 401.

أن يستأجر أو يشترى ملاحات امبراطورية القفجاق ، كلها أو جزءا منها ، أو ايراداتها (٣٢) ، أو أن يدخل فى مزاد تأجير مزرعة تابعة لجمارك التتار ، ويرسو عليه المزاد ، ومحظور على أى فرد من سكان كافا كلهم أن يقبل هدية من أمير تتارى ، أو يأوى تتاريا فى منزله ، أو يجرى حديثا مع مبعوث من الخان قبل أن يتحدث معه القنصل (٣٣) . واذا كانت الحكومة لأسباب سياسية تبذل كل ما فى وسعها لاقامة العراقيل فى طريق كل ما من شأنه أن يوثق علاقات ودية بين بورجوازى كافا وبين تتار القفجاق ، فان المستوطنين والتتار فى كافا وضواحيها كانوا يعيشون معا فى حالة متبادلة من الريبة والعداء المقنع بنوع ما ، ولم يكن ثمة شىء يخفف من حدة هذه الحال بسبب تواتر الحروب بين الجنويين والتتار .

من جهة التكوين الداخلى للمستوطنات ، وادارة شئونها ، يتجلى تفوق كافا بنص القانون الأساسى لعام ١٤٤٩ . فالمندوبون العموميون Syndics généraux للمدينة يشكلون محكمة تختص بالنظر فى تصرفات كل موظفى المستوطنات الجنوية التى تشرف على البحر الأسود ، وبحر ازوف ، ولها اذا اقتضى الأمر أن تحيل الى ساحتها هؤلاء الموظفين ، وتحكم بالعقوبات على المذنبين منهم (٣٤) وقنصل كافا هو وحده الذى لا يخضع لقضائهم . ويعرف هذا القنصل فى مقدمة القانون الأساسى بأنه :
« Caput et primordium dictoe civitatis (Caphe) et
totiud maris majors im impero Gazarioe » .

وفى القسم الثانى نجد تعدادا للمستوطنات التى جعلت تابعة لكافا (loci subditi civitati Caphe) . فبخلاف مدن القرم الأخرى ، صولداديا ، وبالاكافا ، ومدن بحر آزوف ، تانا وقوبا Copa ، يشمل هذا القسم سباستبوليس ، وطربزون ، وسينوب (٣٥) . والحقيقة أن هذه التبعية على درجات . فبالنسبة للمدن الواقعة بجوار العاصمة ، تكون تبعيتها أشد ، وينبه على قناصر هاتين المدينتين (صولداديا وبالاكلافا) أن يمتثلوا لأوامر قنصل كافا ، والا أقيلوا . واذا بدا لأحد الخاضعين لقضائهم أن يحتج على حكم صدر منهم ضده ، أو أن يشكو من ادارتهم

---

(٣٢) Vigna, Atti della Soc. Lig., VI, p. 816 ; VII, 2, p. 53, 408, 411, 418.

(٣٣) Canale, I, 244 ; Atti. VII, 2, p. 53, 627, 636 et s., 645 et s.

(٣٤) Atti della Soc. Lig., VII, 2, p. 587 et ss.

ـ كان لطربزون مندوبوها العموميين ، ولكن على هؤلاء ، بعد ان يتموا التحقيق فى قضية أن يرفعوا أوراقهم ، أسوة بسائر الموظفين الى مندوبى كافا العموميين :
— Ibid. p. 671.

(٣٥) Ibid. p. 381, 652 et ss.

فعليه أن يرفع استئنافه أو مطالبه لقنصل كافا أو وكلائها العموميين (٣٦)٠
وكانت الضرائب المتحصلة من صولداديا وبالاكلافا تسلم لكافا ، وبالعكس كانت خزانة كافا تقدم أموالا لهاتين المدينتين لدفع مرتبات الموظفين ، وجنود الحامية ، والانفاق منها على صيانة التحصينات (٣٧) ٠ ويقوم بتفتيش الحاميات والتحصينات فى فترات محددة مفتشون ينتدبهم قنصل كافا (٣٨) ٠ أما المدن الأكثر بعدا فانها تتمتع باستقلال أكثر بقليل ٠ ومع ذلك كان قنصل تانا يتلقى جزءا من مرتبه عن طريق أمين خزانة كافا ، وكان هذا الأخير حتى عام ١٤٤٩ يدفع أيضا مرتب قنصل سينوب ، وكان الجنود المرتزقة الذين يشكلون حامية سمسون مقيدين فى قائمة الأشخاص الذين يمونهم أمناء خزانة كافا بجرايتهم (حصتهم من طعام وشراب) خلال السنة المالية ١٤٢٣ ـ ١٤٢٤ (٣٩) ٠ وبالنسبة لهذه المستوطنات البعيدة كانت التبعية ملحوظة فى المجال المالى أكثر منها فى المجال القانونى ، وكانت سماسترى منفصلة عن دائرة اختصاص كافا بسبب بعدها عنها ٠ وينص رسوم لعام ١٤٣٤ على أنه يجب على قنصل كافا أن يرسل الى سماسترى مبالغ تكفى لصرف مرتبات جنود الحامية ، والانفاق على طعامهم وعتادهم ، وأن يبعث الى هناك بمفتشين كلما أمكن ، مع أخذ المسافة فى الاعتبار ، ويقدم له هؤلاء تقارير عن حالة الموقع ٠ وثمة مرسوم آخر لعام ١٤٤٩ يقر نصا سابقا فيلحق ادارة سماسترى بادارة مستوطنة بيرا اعتبارا بسرعة الاتصالات بينهما : ولا يجوز لخزانة مدينـة كافا فى المستقبل أن تتكفل بأكثر من نصف نفقـات مستوطنة سماسترى (٤٠) ٠

وكان من شأن امتلاك امبراطورية استعمارية شاسعة بهذا القدر أن خلق لجنوا وضعا استثنائيا فى البحر الأسود ، وشعورا بقوتها ، وأوحى لرؤساء الجمهورية بثقة كبيرة فى أنفسهم لم تكن لديهم من قبل : لذلك كان من الطبيعى أن يفكروا فى الحد من منافسة سائر الأمم التجارية فى موانىء البحر الأسود التى لم تكن خاضعة لسيادة جنوا المباشرة ، ان لم يكن فى القضاء نهائيا على مثل هذه المنافسة ٠ وبعد أن نازع الجنويون البنادقة بقوة السـلاح ، ولسنوات عديدة امتلاك جزيرة تنيدوس (٤١)

---

(٣٦) Ibid., p. 659, 6664.

(٣٧) Ibid. p. 594, 653, 661 et s.

(٣٨) Reglements de 1434, dans Canale, Della Crimea, I, 246 ; Atti, l.c., p. 504 et s.

(٣٩) Atti, l.c., p. 675, 676 ; Canal, Della Crimea, II, 340.

(٤٠) Canale, Della Crimea, I, 246 ; Atti, l.c., p. 595, 677.

(٤١) اعادت هذه الحروب بشكل خطير تجارة البندقية مع البحر الأسود ٠ انظر :
— Dandolo, p. 443 et s. ; Chron. Tarvis, dans Murat., XIX, 756.

تكشفت فجأة كنه الفكرة التى اتبعوها ، وذلك فى غضون المفاوضات التى انتهت فى عام ١٣٨١ بعقد معاهدة تورين • ويخلص من الحجج التى أدلى بها السفراء الجنويون أنه يجب ، حسبما يقولون التخلى عن سوق تانا : فطالما استمر البنادقة يترددون عليها كان على الجنويين أن يفعلوا مثلهم ، ولا يمكن أن يترتب على ذلك سوى وقوع منازعات بين الأمتين ، فتتعرض بضائعهم دائما لأن يستولى عليها المسلمون : فالأجدر أن ينص فى معاهدة الصلح على الا تصل سفن الأمتين المتنافستين الى هناك ، أو بالأحرى الا تتجاوز من الآن فصاعدا مدينة كافا : واذا جاء البنادقة الى كافا فانهم سوف يلقون بها معاملة طيبة اسوة بمن فيها من جنويين • ورد المفوضون البنادقة على هـذه المقترحات بغاية الوضـوح بأنه لا توجد قوة بشرية تستطيع أن تمنع بحريتهم من ارتياد البحر الأسود فى كل الاتجاهات ، فالبحر ملك للجميع • وقرر الكونت اميديه دو سافوى Amédée de Savoie الذى اختير حكما أن مطالب الجنويين لا سند لها على الاطلاق ، واكتفى فى حكمه بفرض الحظر على ميناء تانا لمدة سنتين ، وأنه ينبغى للجنويين والبنادقة مراعاة تطبيق هذا الحظر تجنبا لفرص النزاع بين خصمين لايزالان متأثرين بحدة الحرب الأخيرة (٤٢) • وبطبيعة الحال تسبب توقف التجارة مع تانا ، على قصر مدته ــ فى خسـائر حاقت بالبنادقة تفوق خسائر الجنويين الذين كان لهم فى كافا مستودع مجاور للسوق المحظورة ، بل انهم ربحوا من هذا التوقف ، لأن كثيرا من التجار الذين كانوا حتى ذلك الحين يترددون على تانا اضطروا لأن يقصدوا كافا لاجراء مشترواتهم بها (٤٣) • الا أن خطة الجنويين أخفقت اجمالا لأنهم لم ينجحوا فى منع البنادقة منعا باتا من دخول تانا •

وفى نهاية المهلة المحددة (٤٤) ، استعادت الأمم التجارية علاقاتها بتانا • وفى عام ١٣٨٩ ، مر بهذه المدينة بيمن Pimen رئيس الأساقفة الروس وهو فى طريقه من موسكو الى القسطنطينية ، وسماها (آزوف تانا) Azov Welche ووجد بها منشئات هذه الأمم فى أوج ازدهارها (٤٥) • وبعد بضع سنوات ، كان ظهـور تيمور لنك حدثا مشئوما فى تاريخ المستعمرة • ومن ١٣٨٧ الى ١٣٩٦ شن الغازى الجسور ثلاث حملات مظفرة ضد تقتاميش خان Toktamich Khan ، وهو من أقـوى الأمراء

---

(٤٢) Casati, La guerra di Chioggia, p. 191 et s., 209 et s., 234, 254.

(٤٣) Dan. Chinazzo, dans Murat., XV, 802.

(٤٤) نظم الجنويون فى هذه الآونة رقابة بحرية لمنع اية سفينة من الاقتراب من تانا • — Cibrario, Della economia politica del medio evo, 4e éd., p. 494.

(٤٥) Karamsin, Gesch. des russ. Reichs, V, 95 ; Bruun, Colon. ital en Gazarie, p. 46.

الذين حـــكموا القفجـــاق • وفى الحملة الثـــانية ، فى عـــام ١٣٠١ تقـــدمت قليلا بعض فصـــائل الجيش المنتصر حتى وصلت الى مجاورات آزوف ـ تانا Azov-Tana (٤٦) ، وفى نهاية الحملـة الثالثة التى انتهت بهزيمة خان القفجاق هزيمة ساحقة (أغسطس ١٣٩٥) أغار تيمور لنك على بلد الخان ، ودمر كل شيء فى طريقه ، وتوقف هو نفسه على مرأى من المدينـــة • وبعث اليه المستوطنون الغربيون ، من بنـــادقة وجنويين وقطالونيين ، وأهالى بسكاى الاسبان Biscaïens وغيرهم (ونحن ننقل هنا ما عددته « حولية تريفيز » Chronique Trévise) وفدا يحمل اليه الهدايا ، بأمل أن يحصلوا منه على اذن ببقائهم فى أحيائهم حيث يسكنون وأن يزاولوا أعمالهم فى هدوء وســـلام • ووعد تيمور لنك بتنفيذ كل ما طلب منه ، بل وأكثر ، وعند رحيل الوفد ، أرسل معهم الى تانا مرافقا من الأعضاء الرئيسيين فى بلاطه • ويبدو أن أغلبية الغربيين قد انخدعوا بهذه المعاملة الودية ، غير أن البعض منهم لم ينخدعوا بها ، واذ علموا بقرب وصول تيمور لنك نفسه ، فانهم طلبوا اللجوء الى السفن الراسية فى الميناء ، وكان من بينها لحسن الحظ سفن بنـــدقية كبيرة من التى تسافر بانتظام الى تانا مرة فى السنة ، فى فترة محددة (٤٧) • أما الذين لم يفعلوا ذلك ، فقد أدركوا بعد فوات الأوان أن مودة تيمور لنك ليست الا نفاقا ، وأن الشخصية الكبيرة فى بلاطه ليست الا جاسوسا • وكان دخول الفاتح المدينة مصحوبا بكل ضروب العنف والقسوة التى لم يسلم منها غير المسلمين ، أما النصارى الذين أمكن أسرهم ، فقد نهبت بيوتهم وحوانيتهم ودمرت ، ومات الكثير منهم فى أغلال العبودية ، واســـتطاع آخرون شراء حريتهم والعودة الى أوطانهم بعد أن دفعوا الفدية ، الا أن ممتلكاتهم بقيت بالطبع عند الذين استولوا عليها (٤٨) وقد نشر السيد كاناليه M. Canale (٤٩) مقتطفات من الوثائق البندقية ، يتبين منها أنه بعد رحيل تيمور لنك عملت الجمهورية جاهدة على ترميم الخرائب المتراكمة فى الحى البنـــدقى ، وبخاصة المبانى العامة كالكنائس ، ودار

---

(٤٦) Charmoy, Expédition de Timor-i-Lenk contre Toqtamiche, dans les Mém. de l'Acad. de S. Pétersb., 6e série, Polit. hist. et philol., III, 122.

(٤٧) كانت البندقية ترسل الى تانا كل سنة أسطولا من ست الى ثمانى سفن تجارية :
— Marin, IV, 104 ; V, 193 ; Barbaro, p. 18, b.

(٤٨) Chronic. Tarvis., dans Murat., XIX, p. 802 et ss. ; Cheref-eddin Ali. Hist. de Timour-lenk trad. Péti de la Croix, II, 365 ; Sanuto, Vite dei dogi, p. 763 ; Hammer, Goldene Horde, p. 340-364; Weil, Gesch. der Chalif., V, 55 et r.

(٤٩) Della Crimea, II, 462-467.

القنصلية والتحصينات ، واعتمدت لهذا الغرض مبالغ طائلة • ولابد أن هذه الحصون كانت تشكل مجموعة رائعة ، كما وصفها جيوفانى بمبو Giov. Bembo (٥٠) • وكان البنادقة يملكون بخلاف الأسوار والأبراج التى تحيط بحيهم فى المدينة قلعة خارج المدينة ، فوق مرتفع ، على جانبيها برجان يمكنهم أن يضعوا فى حماها كل ما يملكون اذا أغار عليهم عدو من الخارج • وقد أصاب الجنويين ما أصاب البنادقة من ويلات ، ولابد أنهم بذلوا ما بذله هؤلاء من جهد وحماس فى استعادة ما فقدوه • الا أن الغازى ترك فى طريقه آثارا أخرى لم يكن من الميسور لسوء الحظ ازالتها • ففى شتاء عام ١٣٩٥/١٣٩٦ دمر استرخان Astrakhan ، وحرق سراى Saraï مقر خانات القفجاق (٥١) ، وبذلك حلت بمدينة تانا كارثتان لا سبيل الى اصلاح ما ترتب عليهما من دمار • ومع ضياع سوق سراى ، فقد تجار تانا المورد الرئيسى الذى يحصلون منه على منتجات الشمال ، وعلى الرقيق (٥٢) وفضلا عن ذلك كانت استراخان وسراى المحطتين الأوليين على طريق القوافل الكبير الذى يصل تانا بوسط آسيا والصين • ويؤكد السيد ايلى دولا بريموديه Elie de la Primaudai (٥٣) أن تيمور لنك دمر أيضا محطتين أخريين على الطريق نفسه ، هما أورجانج Aeurgendj (مدينة قديمة بوسط آسيا بتركمانستان ــ المترجم) ، والمالق Almaligh (مدينة بالصين ــ المترجم) ، وبخصوص المدينة الأخيرة ، وجدت فقط أن جيشا من جيوش تيمور لنك مر بالقرب منها فى عام ١٣٩٠ (٥٤) • أما أورجانج فقد دمرت تماما فى عام ١٣٨٨ ، ولكن أعيد بناؤها فى عام ١٣٩١ ، ومن ثم يمكن التسليم بأنه اذا كان هناك انقطاع طرأ على التجارة فى هذه الناحية ، فان هذا الانقطاع لم يدم سوى ثلاث سنوات (٥٥) • بقى أن نعرف ما اذا كان الطريق من تانا الى خان بالق Khanbaligh (حاليا بكين ــ المترجم) الذى وصفه بيجولوتى لم يزل مطروقا فى عهد تيمور لنك • وهذى مسألة أخرى : فمن المحتمل أن تكون التجارة قد هجرت هذا الطريق من قبل ، ومن ثم فان تدمير استراخان وسراى لم يؤثر ــ من حيث منتجات الشرق الأقصى ــ فى تانا • الا أن

---

(٥٠) Epistola ad Andr. Anesinum, éd. Mommsen, op. cit., p. 600.

(٥١) Cheref-eddin, l.c., p. 280 et s. ; Hammer, op. cit., p. 362 et s.

(٥٢) كانت سراى تمتلك بالأخص سوقا كبيرة للعبيد : أبو الفدا (Géogr., II, 1, p. 323). شهاب الدين ص ٢٨٧) •

(٥٣) Etudes sur le commerce au moyen-âge (Paris, 1848), p. 158.

(٥٤) شرف الدين ، الجزء الثانى ، ص ٦٧ •

(٥٥) المرجع السابق ، ص ٣ ــ ٥ •

استراخان ، بسبب موقعها فى أقصى شمال بحر قزوين ، كان لها أهمية كبيرة من حيث كونها ممرا ومعبرا للحركة التجارية • وقد نمت الحركة التجارية في هذا البحر نموا كبيرا حفز بعض الغربيين على الذهاب هناك ، ومزاولة القرصنة (٥٦) •

فالواقع أنه كان هناك مجال للاستيلاء على غنائم ثمينة ، لأن شحنة السفن التجارية كانت تتكون أساسا من حرير السواحل الجنوبية (٥٧) ، أو توابل الهند التى تجلبهـــا القوافل حتى استراباد Asteralbad (ميناء على بحر قزوين ــ المترجم) • وسوف نرى فيما بعد أنه قد نشأت سوق جديدة فى سمرقند ، عاصمة امبراطورية تيمور لنك ، وكانت منتجات آسيا ترد اليها من جميع الجهات ، ولا شك أن جزءا من هــذه المنتجات كان يتسرب من هناك الى تانا عن طريق أورجانج واستراخان على الأقل طالما بقيت استراخان على قيد الحياة • وبعد اختفاء هذا الوسيط زال فرع كامل من التجارة • كانت توابل الهند وحرير فارس ترد من قبل الى تانا بكميات كافية لتموين التجار البنادقة وحدهم ، كميات تملأ ست الى سبع سفن كبيرة فى السنة ، ولكنها صارت أكثر ندرة واتخذت طريقها الى سوريا (٥٨) • ومع ذلك ، كانت التجارة مع آسيا لم تزل باقية بقاء جزئيا ، وكانت تجارة الشمال والرقيق ما زالت مجزية بدرجة كافية ، وكانت مصائد نهر الدن تنتج أرباحا مرضية (٥٩) ، لذلك فان أحدا من البنادقة أو الجنويين لم يحكم بأن الموقف ميئوس منه لدرجة تقتضى التخلى عن هذه السوق (٦٠) •

الا أن الموقف تدهور بسرعة ، اذ توالت الغارات • ففى ١٠ من

---

(٥٦) Graberg V. Hemsö, Annali di geographia e di statistica, II, (Genova, 1802). p. 289 ; Olivieri, Carte e cronache, p. 66 ; Gios. Barbaro, Viaggio alla Tana, p. 4, 6.

(٥٧) Clavijo, p. 114.

(٥٨) Barbaro, l.c., 18, b. 19 ; Ambr. Contarini, ibid. p. 93, b, 84.

(٥٩) Barbaro l.c., p. 8, b, 9, 10.

(٦٠) تدل المستندات التى نشرها السيد ساثاس على وجود حركة تجارية بين البندقية وتانا فى السنوات ١٤٠١ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ ، ١٤١١ ، ١٤١٥ ، ١٤١٩ ، ١٤٣٠ :

M. Sathas (Doc. inéd., II, 33, 72, 118, 261 ; II, 123, 196, 395).

ــ ورأى الرحالة البلجيكى لانوى (Lannoy, Aeuvres ; éd. Potvin, p. 64) سفنا للبندقية قادمة من تانا (١٤٢٢) • وثبتت لنا الأحداث التى وقعت فى تانا عامى ١٤١٠ ، ١٤١٩ أن قنصلية البندقية كانت لم تزل موجودة هناك فى هذين التاريخين ؛ ونجد براهين اخرى على ذلك فى :

Les Commem. reg., III, p. 189 et s., no 264, dans Sathas, l.c., III, 434, et dans Canale, Della Crimea, III, 461 et ss.

أغسطس عام ١٤١٠ اقتحم خان القفجاق بولاد بك فجأة فى جنح الظلام مدينة تانا على رأس كوكبة من الفرسان ، وقتل عددا كبيرا من النصارى ، ونهب بيوتهم • وتحكى الوقائع البنـدقية أن كل تجار هذه الأمة ، فيما عدا القنصل الذى فر ، وليس عليه سوى قميصه ، قد وقعوا فى الأسر ، وأن خسائرهم فى البضائع وغيرها بلغت أكثر من ١٢٠٫٠٠٠ دوكا • واستمر خليفة هذا الخان ، وهو تيمور خان ، ابن قتلغ تيمور محتلا هذه المدينة ، وعامل التجار البنادقة بها معاملة المسجونين • ويضيف كاتب هذه الأخبار أن الجنويين كانوا فى هذا الوقت يتمتعون وحدهم بميزة ممارسة التجارة ، مما يثبت أن غارة بولادبك كانت موجهة فقط ضـد البنادقة ، وأنه ترك الجنويين فى أمن وسـلام ، ان لم يكن قد شملهم برعايتـه • وفى عـام ١٤١٨ ، تقـدم الخان كريم بردى Lichebardo (والراجح هنا أنه كريم بردى Kerimberdi) تحت أسوار مدينة تانا على رأس جيش قوامه ١٠٠٫٠٠٠ رجل بحجة التـدخل لفض نزاع بين المستوطنين الجنويين والبنادقة • واذ أدرك القنصـل جورجيو كابيللو وبضعة أشخاص آخرين المصير الذى ينتظرهم ألقوا بأنفسهم فى قارب ليصلوا به الى سفينة كانت قريبة من الشاطىء ، الا أن القارب انقلب بهم ، وغرقوا كلهم • وبعد قليل اقتحم الخان المدينة ونهبها وخربها • وارتفع عدد التجار البنادقة الذين هلكوا فى هذه الواقعة الى ما لا يقل عن ستمائة وأربعين ، وفقد آخرون حريتهم وأموالهم التى قدرت بمبلغ ٢٠٠٫٠٠٠ دوكا (٦١) • وكما رأينا من قبل ، كان لهجمات التتار هذه صلة بالمنازعات الناجمة عن المنافسة بين البنادقة والجنويين • وفى احدى هذه المنازعات القى فى السجن عدد من البنادقة الموجودين فى كافا : وردا على هـذه الاهانة أرسلت حكومة البندقية الى مياه بنطس فى سبتمبر عام ١٤٣٢ أسطولا يضم ست سفن حربية بقيادة ستيفانوس كونتارينى ، وكانت التعليمات الصادرة اليه أن يوقع بجنوبى كافا كل ما يمكن ايقاعه من أذى ، ويتسلم المسجونين البنادقة فى هذه المدينة ، ثم يقاتل جنويى تانا ، الا اذا عقدت الأمتان وقتئذ معاهدة صلح • ولسنا نملك أية معلومات عن نتائج هذه الحملة (٦٢) •

وعلى الرغم من كل هذه الأحداث المؤسفة ، اعتمد البنادقة عدة آلاف من الدوكات لترميم أسوارهم ومبانيهم المحصنة فى تانا ، فشيدوا برجا جديدا ، ومخازن ، ومنازل : وأسهمت كل سفينة فى هذا العمل ، وكان

---

(٦١) Sanuto (Vite dei Dogi, p. 854, 856, 898, 932) ; Hammer, Goldene Horde, p. 370 et ss. ; Le Continuateur de Dandolo, p. 524.

(٦٢) Sathas, Doc. inéd., I, 193 et ss.

عليها أن تشحن قبل اقلاعها طنين من الجير (٦٣) بدأ تشييدها من ناحية بلاد الشركس (٦٤) وكان الجنويون يملكون أيضا في هذه المنطقة ، في قوبا Copa مدينة بمنطقة بحر آزوف ــ المترجم) مستوطنة أقل أهمية ، منظمة على الأخص لغرض الصـيد وتجارة الرقيق ، وكان لهم فيهـا قنصل (٦٥) يقيم في كافا ، ولكنه يذهب كل سنة في فصل الربيع الى قوبا ، ومعه وفد من أمناء الخزائن والمستشارين مختارين بعدد مساو من اللاتينيين واليونانيين (٦٦) • وهناك ، بعد التفاهم مقدما مع أمراء البلد من تتار ، أو شركس يحدد ثمن السـمك للفصـل ، وبعـد ذلك تبدأ عمليات البيع والشراء ، ويشتغل البعض في تمليح السمك ، واعداد « الكافيار » • وعندما يحل فصل الخريف ، وينتهي موسم الصيد ، يعود القنصل الى كافا ، ولا يأتي الى قوبا الا في الربيع التالي (٦٧) ، وفي أعقابه على الأرجح عدد كبير من التجار الجنويين • ولكي يوثق الجنويون صلتهم بمستوطني تانا وقوبا ، بذلوا جهدا كبيرا للحفاظ على حرية المرور في المضيق الذي يشكل مدخل بحر آزوف • وفي هذا الخصوص ، كان مما يثلج صدورهم رؤيتهم أسرة جنوية ، هي أسرة جيزولفي (Ghizolfi) Guidulfi تحتل ماتريجا Matrega ، وهي مدينة معروفة منذ زمن بعيد ، وتؤسس بها حكومة اقطاعية • وبقي أعضاء هذه الأسرة ــ وكانوا تابعين لأسرة من أمراء شراكسة أو تتار لا يعرف مقرهم ، وتابعين لكافا في الوقت نفسه ، وكانت كافا عاصمة كل المستوطنات الجنوية في بنطس بحيث تستطيع حكومتها أن تمدهم بكل الموارد المالية والعسكرية ــ بقوا زمنا طويلا مالكين اقطاعيتهم • ولم تفقد ماتريجا أهميتها ، وكان قباطنة السفن الغربية يتوقفون بسفنهم في هذا الميناء الصديق ، عند انتقالهم من البحر الأسود الى بحر آزوف • ونعرف أربعة أجيال من هذا الفرع من أسرة جيزولفي : جيوفاني Giovanni حـوالي عام ١٤١٩ ، وسـيمون Simone حوالي عام ١٤٢٤ ، وأبناء عمومته ، أبناء فنتشينزو Vincenzo وأخـيرا زكريا Zaccaria ، حفيد سيمون ، والذي طرده الترك كما سنرى فيما بعد (٦٨) •

---

(٦٣) Canale, Della Crimea, II, 462 et ss. ; Sathas, III, 377.

(٦٤) Atti della Soc. Lig., VII, 2, 676.

(٦٥) Canale, Della Crimea, I, 313 ; II, 353 ; Olivieri, Carte e cronache ms., p. 75, 122 ; Atti della Soc. Lig., l.c., p. 607, 608, 671 et ss., 739 et s.

(٦٦) كان سكان قوبا Copa خليطا بالنسبة نفسها •

(٦٧) Atti della Soc. Lig., VII, 2, p. 671 et ss.

(٦٨) في الامكان تتبع تاريخ أسلاف زكريا بالاطلاع على المفاوضات التي جرت بينه وبين بنك سان جورج في عام ١٤٧٢ : Atti, l.c., VII, 1, p. 481 et ss. —

وعلى الضفة الأخرى من المضيق ، عند فوسبورو Vosporo (بسفور القرم ، حاليا كيرتش - المترجم) كان للجنويين فى أواسط القرن الخامس عشر محطة وقنصلية ، سوف ندرسهما • واذا كان امتلاك محطتى فوسبورو وماتريجا المتوسطتين يوفر للجنويين تسهيلات كبيرة فى المواصلات مع بحر آزوف ، فان هذه التسهيلات كانت أولا فى صالح تجار كافا • ومن جهة أخرى كانت تجارتهم ممتدة فى اتجاه الجنوب الشرقى حتى منجريليا Mingrélia ، وهو اقليم مجاور للبحر الأسود ، على السفح الجنوبى للقوقاز ، ومدنه الرئيسية وقتئذ سباستبول ، وباطوم : وكان التجار الجنويون بوجه عام يبدون نشاطا كبيرا بهذا البلد ، وكانت كافا تحتكر انتاج الملح احتكارا شبه مطلق ، وكانت هذه السلعة وحدها مصدرا لحركة تجارية نشيطة بنوع ما (٦٩) ولم تقتصر أعمالهم على هذا النطاق فقط : ففى حوالى عام ١٤٠٠ مضوا قدما حتى سلطانية Soultaniéh فى فارس ، وهذه الرحلة طويلة ولكنها بلا شك مثمرة ، فهذه المدينة كانت وقتئذ من أكبر المراكز التجارية فى آسيا ، وأسواقها ممتلئة بالسلع التى تجلبها القوافل من كل أنحاء العالم ، ويشاهد بها بنوع خاص ، فى موسم أسواق الصيف عدد كبير من تجار البلاد المسيحية ، وبالأخص من تانا وطربزون (٧٠) •

واذا لم تكن القرم قد عانت مباشرة من غزوات تيمور لنك ، فان هذه الغزوات كان لها تأثير خطير غير مباشر على مصيرها • فبعد سقوط تقتاميش Toktamich ، استطاع الأمير أديغا Edegou أن يستولى على كل ما تبقى فى القفجاق من قوى حية ،دون أن ينسب لنفسه لقب الخان • وأراد أحد أبناء تقتاميش أن يقاومه ، ولكنه اضطر للفرار ، ولجأ الى كافا ، وتعقبه أديغا الى هناك ، وتأهب لمهاجمة المدينة ، فدب الذعر فى السكان ، وأجبروا ابن الخان المخلوع على أن يبحث له عن مأوى فى

Les Libri della masseria di Caffa.
Canale, Della Crimea, I, 311, et Giorn. ligust., I, 343 :
Bruun, Notie. sur les col. ital. en Gazarie, p. 32-34 ; le Giorn. ligust., I, 343 et s.

(٦٩) Barbare, Viaggio alla Tana, p. 16 ; Ambr. Contarini, p. 64, 65, 78.

- بقيت قنصلية سباستبول زمنا طويلا • نجد شواهد لذلك لسنتى ١٤٢٧ ، ١٤٣٩ فى :

Atti della Soc. Lig., VII, 2, p. 607 et s., 676 et s.

(٧٠) Clavijo, p. 116.

جهة أخرى ، وتوسلوا الى اديجو أن يصالحهم (٧١) • وفى هذه الأثناء تفككت امبراطورية القفجاق • وبعد انقضاء فترة قصيرة على هذه الأحداث ، انفصل تتار القرم عنها وكونوا خانية مستقلة استمرت منفصلة بضع عشرات السنين الى أن ضمت الى الامبراطورية التركية تابعة لها • وأعلن حاجى كراى Hadji Guerai أول خانات القرم الحرب على مستوطنة كافا ، ولم يدعها لحظة فى هدوء وسلام • وبذل المستوطنون جهودا غير مجدية لتسكين غضبه ، ولكنه رفض رفضا باتا الاستماع الى سفرائهم • ولما استبد بهم اليأس والقنوط ، لم يجدوا وسيلة أخرى سوى التماس معونة الوطن الأم • وفى الوقت نفسه تلقت جنوا من القرم نبأ سيئا آخر : ذلك أنه فى عام ١٤٣٣ دبر سكان تشيمبالو (بالاكلافا) اليونانيون مؤامرة ضد النظام الجنوى ، وطردوا الحامية ، وأخضعوها لألكسيوس ، سيد تيودورو Theidoro (٧٢) • ولم يكن هذا كل شيء : فقد ازدادت الأمور اضطرابا حين تورطت الجمهورية فى نزاع مع الامبراطور اليونانى يوحنا الخامس بشأن جمارك غلطة • ولانهاء هذه المشكلات كلها ، أرسلت جنوا أسطولا يقل فرقة قوامهـا سـتة آلاف جندى بقيادة كارلو لوميللينيو Carlo Lomellino ، برنامج مهمته : أولا ، اخضاع تشيمبالو ، ثم اجبار حاجى كراى على مصالحة كافا ، وأخيرا حسم الخلاف مع الامبراطور يوحنا • واتجه لوميللينو أولا الى تشيمبالو ، ونجح فى استرداد المدينة ، واخماد الثورة • ولما استتب الأمن فى هذه الجهة ، انتقل الى كافا ، ولم يتوقف عندها ، بل مضى مباشرة الى صولجات التى كانت على ما يبدو مقر خان القرم (٧٣) • ولما لم يكن الجنود الجنويون يتوقعون هجوما يقع عليهم ، فانهم ساروا دون حذر ، وتقـدموا فى الطريق ففوجئوا بالتتار يغيرون عليهم ، ويوقعون بهم هزيمة منكرة ، وقتلوا القسم الأكبر منهم • ومع من بقى منهم حيا يرزق ، أبحر لوميللينو من كافا الى القسطنطينية فوصلها فى حالة شديدة من الضعف والاعيـاء لا تسمح له بأن يمارس ضغطا مجديا على الامبراطور (٧٤) •

(٧١) Clavijo, p. 195-197 ; Hammer, Goldene Horde, p. 345, 352, 353, 364 et ss. Oderico, p. 184 et s.

(٧٢) يتحدث عن هذه الشخصية الكتابة اليونانية المنقوشة عام ١٤٢٧ ، وقد أصبحت اخته مارى فى عام ١٤٢٦ زوجة لأول مرة لأمير طربزون الذى صار فيما بعد الامبراطور داود :
Panarétos, dans Fallmerayer, Trapez. Orig. Fragm., dans les Abh. der bayer. Akad., hist. Cl., IV, 1, p. 40, 69, 108.

(٧٣) زار جوبيير دى لانوى القرم عام ١٤٢١ ، وأطلق على خان التتار الذى كان يحكم آنئذ شبه الجزيرة لقب « امبراطور Guillebert de Lannoy. Sal at

(٧٤) Laon. Chalcoc., p. 294 et s. ; Stella, p. 1311 at s. ; Ag. Guistin., p. 161, b ; Sanuto. Vite dei Dogi, p. 1036.

غير أن هذه الشدائد كلها لم تكن شيئا يذكر الى جانب النكبة التى اصـــابت المستوطنات الغربية فى البحر الأســـود باستيلاء الترك على القسطنطينية • فحتى ذلك الحين كان الترك ســـادة الضفة الآسيوية للبسفور ، وبعد ذلك احتلوا احتلالا مستديما كل مواقع الضفة الأوروبية • وقد زود محمد الثانى بمدافع كثيرة حصنى روميلى حصارى ، وأناضولى حصارى ، أولهما حديث البناء ، وثانيهما أقدم منه ، ويقع الاثنان أحدهما قبالة الآخر في أضيق مكان للمرور ، فأصبح في وســـعه أن يمنع أى اتصـــال بين الجمهوريات الايطالية ومستوطناتهـا فى بنطس (٧٥) • ولا حاجة بنا الى الاستنتاج بأن وجود هذه المستوطنات أصبح أمرا مشكوكا فيه • ولم يكن سكان كافا بنوع خاص يعلقون أنفسهم بآمال وهمية فى هذا الخصوص • وكانت فكرة أنهم مهددون ، ان آجلا ام عاجلا بهجوم تركى تملأ نفوسهم رعبا • والواقع أن المدينة اذا لم تتلق نجدات من الغرب فانها لن تستطيع مقاومة أى جيش مهما كان صغيرا ، وهذه النجدات كان فى وسع الأتراك أن يمنعوا مرورها ، كما أن السلطات كانت فى حالة يرثى لهـا ، لا تشجع النفوس • وحاول المستوطنون جاهدين أن يجدوا حولهم حلفاء لهم ، ولكنهم لم يجدوا من هو على استعداد لمعاونتهم ، اللهم الا صاحب « قوطيا » اليونانى ، ولكن هذا كان خاضعا للتتار ، ولم تكن ميوله الطيبة تترجم بتصرفات عملية • أما خان التتار ، حاجى كراى فانه أطلق العنان من ذلك الحين لكراهيته للمستوطنة (٧٦) • وكثيرا ما انتزع بعنف من سلطات كافا هدايا لأفراد أسرته ، وفى كل مرة كان يلقى طاعة عمياء مشوبة بالذل والهوان ، مما جعله يفترض أن قليلا من الجهد يكفيه للقضاء على مقاومة المدينة (٧٧) • ولكى يحقق أغراضه عقد اتفاقية مع محمد الثانى ، على أن يهاجم الأخير الموقع من البحر ، فى حين ينقض جيش على المدينة من ناحية البر ، وفى حالة النجاح تبقى المدينة فى أيدى الخان ، فى حين يحمل الترك على سفنهم الســـكان ، وكل ما يستولون عليه من منقولات • وبالفعل ، فى صيف عام ١٤٥٤ ، أقلع أسطول تركى قوامه ست وخمسون سفينة قاصدا البحر الأسود ، فأغار أولا على مونكاسترو Moncastro – حاليا اكرمان ، ميناء على البحر

– منذ عام ١٤٢٣ قامت مستوطنة بيرا بمحاولة لاعادة احتلال شمبالو :
Atti della Soc. Lig., XIII, 201.

– كذلك يتحدث الرحـالة تافور Tafur عن غارة الجنويين على صولجـات وفشلها •

(٧٥) Atti della Soc. Lig. VI, 20, 33.

(٧٦) Ibid. p. 102 et s.

(٧٧) Ibid, p. 88 et s.

الأسود ـ المترجم) التى أبدت مقاومة شديدة ، ثم استولى عنوة على سباستبول ، على شاطىء القوقاز ، وتوقف أخيرا قبالة كافا ، فى ١١ من يولية (٧٨) : وبعد بضعة أيام وصل خان القرم تحت أسوار المدينة على رأس جيش قوامه ستة آلاف فارس • وفى هذه المرة اكتفى الحلفاء بالتهديد ، فلم يكونوا واثقين من قدرتهم على الاستيلاء على المدينة (٧٩) ، واكتفوا بقبول رهينة عرضتها عليهم سلطات كافا ضمانا لدفعها جزية سنوية قدرها ستمائة « سوم » Sommi (٨٠) • واذ استبد الرعب بالسكان فانهم عرضوا دفع الجزية للخان قبل وصول العدو (٨١) ، لكى يبددوا الزوبعة التى تجمعت فوق رؤوسهم • أما من ناحية الترك ، فقد اقتصرت حملتهم فى هذا البقاع على أعمال الاستكشاف ، ولكنهم قبل أن ينصرفوا ، جمعوا أتاوة من سكان قوطيا الذين لا قدرة لهم على المقاومة (٨٢) • وسبق ظهور الأسطول أمام أسوار كافا وصول سفير مكلف بأن ينذر السلطات بدفع جزية للسلطان (٨٣) • وبعد انصراف الأسطول أجيب السفير بأن المدينة تابعة لبنك سان جورج ، وأن على السلطان أن يتفاهم مع البنك بشأن الجزية المطلوبة (٨٤) •

وفى هذه الأثناء ، انقطعت أخبار جنوا التى كانت منشغلة بحرب لا تنتهى ضد الفونس ، ملك أراجون (٨٥) • ولكى نأخذ فكرة عن مدى عجز مالية جنوا ، يكفينا أن نعلم أنه لم يكن فى استطاعتها أن تستخلص من خزائنها مبلغا تافها يقدر بحوالى ٨٠٠٠ جنيه لتدفع منه نفقات سفارة

---

(٧٨) هذا هو التاريخ الذى يشير اليه موثق عقود قنصلية كافا :
— Atti, VI, 103.

يحدد أسقف كافا تاريخ وصول الأسطول التركى : ٤ أغسطس ، ويقدر قوته بستين سفينة •

(٧٩) اقتحم عدد من الاتراك المدينة وحاولوا اشعال النيران بها ولكن محاولتهم باءت بالفشل :
— Ibid. p. 105.

(٨٠) كانت قيمة « السوم » وقتئذ تساوى ٢ ¾ دوكا ، ومن ثم فان الستمائة سوم تساوى تقريبا ١٦٠٠ دوكا ، أى ١٩١٤٠ ليرة بالنقد الحالى :
— Desimoni Atti della Soc. Lig., IV. rendic., p. 56 et VI, p. 65.

(٨١) Atti della Soc. Lig., VI, 89.

(٨٢) Ibid. p. 89 ; Chalcoc., p. 261.

(٨٣) Atti della Soc. Lig., XIII, 231, 267 et s.

(٨٤) Atti della Soc. Lig., VI, 109.

(٨٥) كان الناس فى جنوا على علم بما كانت عليه كافا من ضيق شديد :
Atti della Soc. Lig. XIII, 222.

أريد ايفادها الى السلطان لاسترضائه (٨٦) ، وكان من المستحيل عليها بالأحرى أن تجهز أسطولا لحماية مستوطناتها فى بنطس • ولحسن الحظ كان فى المدينة سلطة تملك من رؤوس الأموال أكثر مما تملكه الحكومة ، وتحمل هذه السلطة اسم Uffizio di S. Giorgio (مكتب ، أو وكالة سان جورجيو) ثم صـــار اسمها فيما بعد Banca di S. Giorgio (بنك ، أو مصرف سان جورجيو) الذى اشتهرت به (٨٧) • كانت شركة كبيرة مؤلفة من بعض دائنى الدولة ، تكونت فى عام ١٤٠٧ من اندماج عدة جمعيات أو أسر كانت فى وقت ما قد أقرضت الدولة مبالغ من أجل مشروعات للصالح العام ، وضمنت لها الايرادات العامة فوائدها ، اما فى الوطن الأم ، أو فى المستوطنات • وعند تكوين هذه الشركة استلم أعضاؤها عـــددا كبيرا من السندات أو الأســهم luoghi مناسبا لنصيب كل منهم فى الدين العام ، وتعطيهم هذه الأسهم الحق فى أرباح سنوية متغيرة ، ويتولى ادارة الشركة لجنة مشكلة من ثمانية أعضـاء يطلق عليهم لقب حمـــاة ، أو محافظون ، Protecteurs ويتجـــدد تشكيل هذه اللجنـة كل عام بطريق الانتخاب • وبالنظر الى الامتيازات العديدة التى تتمتع بها الشركة ، والاستقلال الذى تكفله لهـــا هذه الامتيازات بالنسبة الى الدولة ، وأملاكها العقارية الواسعة ، والعدد الذى لا حصر له من الوكلاء المختلفى الهوية الذين تستخدمهم لتحصيل الرسوم والضرائب ، والفوائد التى تدفعها الدولة بصفة ضمان ، وتدبير المبالغ المتحصلة على هذا الوجه ، وتوزيع الأرباح على المساهمين، كانت الشركة بمثابة دولة داخل الدولة • ومن جهة أخرى فان رؤوس الأموال الضخمة التى تملكها ، وما اشتهرت به من صدق وأمانة وكفاءة فى ادارة أعمالها ، كل ذلك كفل لهـــا ثقة الأفراد بها ، ثقة لا حد لها • وفى هذه الظروف كان من الطبيعى أن تقترح لجنـــة المســـتعمرات المكلفة برعاية مصالح المستعمرات أو المســتوطنات على الدوج أن يتنـــازل عن المســتوطنات لهـــذا البنـــك ، باعتبـــاره السلطة المالية الوحيدة القادرة على حماية مصالحها من الضياع • وانعقدت جمعية تضم « المحافظين » وأكبر المساهمين ، وأقرت الاقتراح بـ ٢٤٨ صوتا مقابل ٢٧ صوتا (٨٨) ، وبررت قبولها الاقتراح بأنه يترتب على رفضه

---

(٨٦) Atti della Soc. Lig., VI, 6, 21-23.

(٨٧) بخصوص أصل بنك سان جورج وتنظيمه انظر القصة الموجزه التى أعطاها جستينو جستنيانى :

Agostino Giustiniani, dans les Annali di Genova, p. 171; Foglietta, p. 529 et s. ; Serra, Storia dell' antica Liguiria, III, 69-72 ; IV, 295-313 ; Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 368 et s.

(٨٨) Atti della Soc. Lig., VI, 24 et ss.

انعقدت هذه الجمعية فى ١٢ من نوفمبر ١٨٥٣ •

ضياع المستعمرة ، وبالتالى الغاء الايرادات الكبيرة التى تحصل عليها الشركة بصفتها وريثة حقوق « شركة دائنى الدولة فى القرم la Compera di Gazzeria » (٨٩) وعلى ذلك ففى ١٥ من نوفمبر ١٤٥٣ أعلن الدوج بييرو دى كاميوفريجوزو Piero di Campofregoso وكبار موظفى الدولة التنازل رسميا والى الأبد الى بنك سان جورج عن مستوطنة كافا وكل الممتلكات الجنوية الأخرى فى بنطس ، لا عن حق الانتفاع فقط ولكن بصفة ملكية كاملة ، وأقر للبنك بكل سلطة للتشريع ، وتعيين الموظفين الذين يختارهم ، وممارسة حقوق السيادة والقضاء ، بما فيه القضاء العالى • وقيل فى المداولات ان هذا القرار يبرره أولا ثقة المتنازلين التامة بأمانة « المحافظين » لأنهم ينتخبون عادة من صفوة الطبقة البورجوازية ، وفى الامكان الاعتماد علهم فى الا يعينوا فى وظائف المستوطنات سوى الأشخاص الجديرين بالاحترام ، وثانيا باعتبار الموارد الضخمة التى فى وسع الشركة أن تتصرف فيها على أحسن الوجوه فى الحالة الحاضرة ، وبنشاطها المعتاد (٩٠) •

وأثبت المحافظون صحة ما اشتهروا به من سرعة فى العمل بأن دفعوا للدوج فى اليوم التالى للاتفاقية مبلغ ٥٠٠ جنيه (١٤٣١٠ ليرة) وهو المبلغ المتفق عليه نظير التنازل (٩١) ، وخاصة بأن اتخذوا اجراء بعد آخر لصالح المستوطنات • فأولا ، قرروا ضمانا للاتصال بكافا بوسائل فى مأمن من نزوات الترك ، انشاء خدمة بريدية برية بين جنوا وهذه المستوطنة (أى كافا) ، وسرعان ما انتظمت هذه الخدمة ، فأتت للمستوطنة بأول نبأ خاص بوضع يد بنك سان جورج على المستوطنات ، وقوبل هذا النبأ هناك بمزيد من السرور ، وبعث آمالا جديدة فى المستقبل (٩٢) • وفى هذه الأثناء ، سافر بطريق البحر وكيلا البنك المفوضان سيمون جريو Simone Grillo ، وماركو كاسينا Marco Cassina ، ومعهما فرقة من الأتباع قوامها مائتا شخص ، وشحنة من الأسلحة • ووصلت السفينتان الى بيرا ، الا أن القباطنة ارتكبوا خطأ بنزولهم الى البر ، فاعتقلهم الترك غدرا • واذ حرم طاقم السفينتين من رؤسائهم ، وانقسموا فيما بينهم ، فانهم قرروا الرجوع الى جزيرة خيوس ، والتوقف هناك انتظارا لتحسن الأحوال (٩٣) • وهكذا حرم هذا الحادث السيء مستوطنة كافا من

---

(٨٩) Canale, Della Crimea, II, 350 et ss. ; Atti della Soc. Lig., VI, 25 ; Wiszniewski, l.c., p. 24 et s., 86 et ss.

(٩٠) Atti della Soc. Lig., VI, 32 et ss. ; (Not et extr., XI, 81 et ss.)

(٩١) Ibid. VI, 44.

(٩٢) Ibid. VI, 44 et s., 86 et s., 87 et s., 102.

(٩٣) Atti della Soc. Lig., VI, 106.

نزلوا ثانى مرة فى خيوس فى الثانى من يونية •

الامدادات التى كانت فى حاجة اليها درءا للأخطار . وكلما طال انتظار الامدادات اشتد جزع الأهالى ، اذ كانوا يتوقعون أن تهاجمهم فى الربيع القادم قوات سلطان الترك ، وربما قوات خان التتار المنضمة اليها (٩٤) . وفى هذا الموقف الحرج أوفدت سلطات كافا سفراء لاستقصاء نوايا السلطان الحقيقية . وعلم السفراء أن السلطان يكتفى بجزية سنوية قدرها ٢٠٠٠ دوكا تدفعها كافا ، وأنه على استعداد لمنح السفن التجارية حرية المرور فى البسفور نظير دفعها رسما معقولا . وكانت سلطات كافا مستعدة لقبول هذين العرضين ، ذلك لأنه ، حتى بالاضافة الى احتمال وقوع أحداث تسىء الى الحالة الحاضرة ، فان استطالة الحرب مع الترك لابد أن يترتب عليها صعوبات ونفقات طائلة . ولكن كان هناك أمر ثالث بدا لهذه السلطات أنه يتجاوز اختصاصها : ذلك أن السلطان طالب بتسليمه سماسترى . وغادر السفراء القسطنطينية دون أن ينجزوا شيئا ، وحل محلهم غيرهم فى شهر أكتوبر ، غير أن كافا لم تعقد آمالا كبيرة فى فصاحتهم أو فى الهدايا التى حملوها معهم لتحويل عزم السلطان عن مشروعاته الخاصة بالغزو (٩٥) . وشيئا فشيئا شاع القلق فى النفوس : ففى ٢٨ من سبتمبر ١٤٥٤ أقلعت من الميناء سفينة على متنها تجار جنويون وفى عزمهم المغامرة بعبور البسفور ، كما غادر المدينة سرا عدد من السكان قاصدين العودة الى وطنهم بطرق أخرى ، وترتب على ذلك ازدياد الفراغات فى صفوف المدافعين الذين كانوا فى الأصل قليلين بالنسبة الى خطوط التحصينات الكثيرة التى يتحتم حراستها ، وازدادت الهمم والغرائم فتورا عند من تبقى فى المدينة من السكان (٩٦) . وكان لابد من وجود شخص قوى العزيمة للحد من نزعة الفرار هذه ، وكبح روح التذمر التى كانت تتجلى من وقت لآخر فى صورة ثورة تنشب بين عامة الناس : وكان هذا أيضا باعثا على ازدياد الرغبة فى وصول مندوبى بنك سان جورج (٩٧) ، وأدى غموض الموقف ، وتوقف المواصلات البحرية مع الغرب الى وقف الأعمال التجارية . عندئذ ظهور أمر جديد ، ان شوهد خان التتار وهو يمنع الواردات الآتية من الداخل من مواصلة طريقها المعتاد ، ويوجهها الى مواقع على الساحل خارج الاقليم الجنوى ، مثل فوسبورو Vosporo (كيرتش) ، وكالاميتا Calamita (بالقرب من انكرمان) ، ويرسل البضائع والعبيد فى سفن يملكها اما الى سمسون Samsoun أو الى أسواق

---

(٩٤) Ibid. VI, 105, 112 et s., 114, 116.

(٩٥) Ibid., VI, 196 et s., 110, 115, 117.

(٩٦) Ibid. VI, 109, 114 et s. 116..

(٩٧) Ibid, IV, 1II, 117.

أخرى فى حوض البحر الأسود (٩٨) ٠

وفى هذه الأثناء ، أصدر « محافظو » بنك سان جورج الى مندوبيهم أمرا بألا يطيلوا اقامتهم فى خيوس ، وأن يذهبوا الى كافا بأى ثمن حتى ولو اضطروا الى الانتقال الى سفينة أخرى ، وأن يتركوا خلفهم قسما من أتباعهم (٩٩) وعلى ذلك عزم هؤلاء « المحافظين » على المضى فى طريقهم ، فمروا فى ٣ من يناير ١٤٥٥ على مرأى من القسطنطينية ، وتعرضوا فى البسفور لقصف المدافع ، ولكنهم نجوا منها دون خسائر ، ووصلوا أخيرا الى كافا ، ولم يكن معهم سوى مائة رجل (١٠٠) ٠ وكان « المحافظون » ومازالوا يأملون فى الوصول الى تسوية بالطرق الدبلوماسية ، فأرادوا أن يتعرفوا على موقف السلطان ، وما اذا كان فى الامكان شراء السلام بالمال ٠ ولابد أن حجتهم كانت ضرورة التفاهم بشأن الجزية التى ينبغى أن تدفعها كافا ، وعينوا لهذا الغرض لوتشيانو سبينولا Luciano Spinola فى بعثة ثانيـة لأندرينوبل (أدرنة) (١٠١) ٠ غير أن سبينولا رفض التوجه مرة أخرى للقـاء السلطان ٠ ولم تعرف من جهة أخرى نتيجة المساعى التى بذلتها البعثة الموفدة من كافا ، ومن ثم بقيت الأمور كما كانت عليه لبعض الوقت (١٠٢) ٠ وأخيرا علم أن كافا اشترت السـلام بقبولها دفع جزية سنوية قدرها ٣٠٠٠ دوكا بندقى ؛ ولم تشمل الاتفاقية سماسترى (١٠٣) ٠

ولم تمنع معـاهدة الصلح هذه الأتراك من أن يطلقوا مدافعهم على سفينتين أرسلهما الى كافا « محافظو » بنك سان جورج ، وذلك عند مرور السفينتين بالبسفور ، ومع ذلك نجحت السفينتان فى العبور ٠ وفى ٢٢ من أبريل عام ١٤٥٥ انزلت السفينتان فى كافا أسـلحة وعتادا ، وخمسمائة جندى من المرتزقة ، كان جزء منهم موجها الى سماسترى لتعزيز حاميتها ، فقد صمم « المحافظون » على الا يتركوا هذه المستوطنة للسلطان دون أن يكلفوه فى ذلك ثمنا غاليا (١٠٤) ٠ وقبل ذلك بقليل استطاعت

---

(٩٨) Atti della Soc. Lig., VI, 111.

(٩٩) Ibid. VI, 92 et ss., 119 et s., 122 et s.

(١٠٠) Ibid. VI, 269, 299, 300.

(١٠١) Atti della Soc. Lig., XIII, 266 et -.

(١٠٢) Abid. VI, 118-122, 123 et s., 298.

(١٠٣) Ibid, p. 299.

(١٠٤) Ibid. p. 127 et s., 130 et ss., 134 et ss., 140 et s., 150 et ss., 153 et s., 253 et ss., 270, 282 et ss., 287 et ss., 290 et ss., 293 et ss., 297, 303 et ss., 312, 323 et ss., 326 et s., 328 et ss. 341, 387, 539.

سفينتان أخريان مجهزتان فى خيوس أن تصلا الى كافا دون أن يصيبهما مكروه ، على ما يبدو (١٠٥) . وتولى مهندس يدعى جيوفانى بتشينينو Giov Piccinino موفد من قبل « المحافظين » ترميم حصون كافا ، فى حين ظام القنصل المعين حديثا فى صولداديا بترميم حصن الموقع (١٠٦) والى جانب هذه الأعمال الضرورية فى المقام الأول ، عمل المحافظون على اصلاح الادارة الاستعمارية ، فاستبدلوا بالموظفين القدامى ، الطاعنين فى السن ، والمهملين ، والجشعين ، والمرتشين ، وكلاء أكثر تقديرا لواجباتهم ، وأكثر أمانة ونزاهة (١٠٧) . وسرعان ما أثمرت جهـودهم فى اعـداد مستعمراتهم لتكون قادرة على الدفاع عن نفسها ، وتحسين أحوالها المادية والمعنوية ، فاستعاد السكان طمأنينتهم (١٠٨) ، واعتزم البعض ممن كانوا قد فروا العودة بناء على الدعوة التى وجهت اليهم فى هذا الخصوص (١٠٩) ولسوء الحظ ، لم يلبث الناس أن سمعوا كلاما عن زيارات سفير زكى لبلاط خان التتار (١١٠) ، الشىء الذى يدل على أن خطر الغزو لم يزل قائما . وفضلا عن ذلك ظهر شبح المجاعة : ذلك لأن بضـــعة الموانى المسيحية فى البحر الأسود مثل مونكاسترو (حاليا اكرمان) ، وليكوستوما Licostoma التى كانت ثروتهـا تعتمد على تجارة الحبوب ، كانت تعانى هى نفسهـــا من القحط ، وكان الأتراك يقطعون الطـريق على واردات الغرب (١١١) . وفى عام ١٤٥٥ ، كانت سفينة آتية من جنوا محملة بشحنة من الحبوب ، فأغرقها الترك بطلقات المدافع . وفى عام ١٤٥٦ ، توقفت قافلة بحرية تحمل ٢٥٠ جنديا ، و ٧٧٨٢ كيسا من القمح متعطلة عند جزيرة خيوس ، اذ لم يجرؤ قباطنتها على مواصلة السير الى أبعد من ذلك (١١٢) . وكانت هذه الارسالية بالذات باهظة التكاليف ، لأن القمح كان بالمثل نادرا تقريبا فى جنوا ، ندرته فى المستوطنات . وبسبب الأخطار الملازمة للرحلة الى كافا كانت الرحلة فى هذه الأصقاع تتكلف ضعفين أو ثلاثة أضعاف أية رحلة أخرى (١١٣) . مع كل هذا وجد بنك

(١٠٥) Atti della Soc. Lig., VI, p. 303, 387.

(١٠٦) Ibid p. 304, 310, 321 et s., 369 et s.

(١٠٧) Ibid. p. 313 et s., 314 et s., 319 et s., 344 et s., 351 et s.

(١٠٨) Ibid. p. 289, 296 et s., 326, 334, 387.

(١٠٩) Ibid. p. 193, 610 et s., 927, 830.

(١١٠) Ibid. p. 343, 360, 366, 518.

(١١١) Ibid. p. 305, 337, 343, 358 et s., 368, 379 et s., 383, 388, 513, 518, 532 et s., 534, 536 et s., 549 et s.

(١١٢) Ibid. p. 537, 544 et s., 546 et s., 554 et ss., 574-578, 585 et ss., 590, 592 et ss., 600 et ss., 611 et s., 641 et s., 665 et s.

(١١٣) Ibid. p. 514, 518, 537,

سان جورج نفسه مضطرا لضغط نفقاته فى المستوطنات (١١٤) خوفا من استياء مساهميه الذين نقصت أرباح أسهمهم من ٧٪ الى ٤٪ (١١٥) . وأصبحت الحالة ملحة لايجاد وسيلة للخروج من هذا المأزق. وتبين فى الأفق حل لهذه المسألة : أليس فى الامكان ترك كافا لمواردها الخاصة ؟ واعترض القناصل على ذلك بأنه من الصعب زيادة الايرادات بزيادة الضرائب ، وقالوا انه لم يبق فى المدينة سوى عدد قليل من التجار ، وبخاصة التجار الأثرياء، وانه من الخطأ الشديد زيادة الأعباء على الأرمن واليونانيين ، وعامة الأهالى غير الجنويين (١١٦) . الا أن التجارة لا يمكن أن تزدهر من جديد (١١٧) طالما تعرضت وسائل نقل الحبوب للغرق فى البسفور . ولم يعد تجار الرقيق المسلمين يظهرون فى كافا ، وبدأوا كذلك يهجرون كالاميتا (بالقرب من انكرمان) (١١٨) منذ أن استولى مارينو تشيكالا Marino Cicala على سفينة أقلعت من سينوب وبها شحنة من العبيد . ورغم هذه الملاحظات فرض بنك سان جورج بضع ضرائب بصفة مؤقتة ، واتبع نظام شراء بعض المناصب التى كانت تمنح بالمجان ، وأمر باتخاذ اجراءات صارمة ضد المدينين للخزانات العامة (١١٩) ، وعمل فى الوقت نفسه على خفض المصروفات ، لأن القناصل اشتكوا من خطاباتهم من نقص الموارد الضرورية لمواجهة المصروفات العادية ، فضلا عن مواجهة المصروفات الاستثنائية (١٢٠) ، وطلبوا ثلثمائة رجل بصفة دائمة للدفاع عن المدينة ، فقرر « المحافظون » أنه يكفى لذلك مائة وخمسون أو مائتا رجل على الأكثر . وحدد القناصل بثلاثة عدد السفن اللازمة لخدمة المستوطنة ، فأجاب « المحافظون » أن هذا العدد أكبر من اللازم . وكان أكبر ما يشتكون منه هو الجزى (جمع جزية) التى يتعين عليهم دفعها للسلطان ولخان التتار ، وفى هذا يقول المحافظون ان بنك سان جورج لا شأن له بذلك ، وأن الملتزمين بدفعها هم سكان كافا (١٢١) ، ويقولون ان لهم الحق إما فى الغاء هذه الجزى أو على الأقل خفضها ، ذلك لأن الترك أعداء ،

---

(١١٤) Ibid. p. 388.

(١١٥) Ibid. p. 475, 736 ; Cuneo, l.c., p. 307.

(١١٦) Atti della Soc. Lig., VI, p. 366

(١١٧) Ibid, p. 366 et s.

(١١٨) Ibid. p. 586.

(١١٩) Ibid. p. 661.

(١٢٠) Ibid p. 366.

(١٢١) فى عام ١٥٤٩ تقرر أن يوزع هذا العبء على السكان بالتساوى على قدر المستطاع : Ibid. p. 919 ; VII, 1, p. 427.

على استعداد دائم للهجوم متى استطاعوا ذلك ، أما التتار ، فان منازعاتهم الداخلية لابد أن تنتهى الى حل فى مصلحة الجنويين (١٢٢) • وهكذا ، فبعد انقضاء الحظر الأول ، تحولت الميول السخية التى أبداها المحافظون حيال المستوطنات الى روح اقتصادية مفرطة : وهناك فقط حالات القوة القاهرة التى حملت المحافظين من وقت لآخر على الخروج على هذا المبدأ • من ذلك أنه جاء حين أصبح من العسير فيه شغل مناصب المستوطنات ، وازداد رفض الناس شغل هذه المناصب لسببين : الأخطار الملازمة لها ، وعدم كفاية المرتبات • وتقرر على مضض رفع مرتب قنصل كافا ، وجعل لسنتين مدة شغل وأآلف أخرى أقل أهمية حتى يتوفر لشاغليها زمن أطول يتمتعون خلاله بمرتباتهم (١٢٣) •

ولم تكن الجهود التى يبذلها بنك سان جورج لصالح مستوطنات البحر الأســود منعزلة : فقد أبدى البابوات ، ومن بينهم بنوع خاص كالكست الثالث Calixte III اهتماما شديدا بهذه المراكز المتقدمة من العــالم المسيحى ، فأمروا بجمع الصــدقات فى الاقليم الجنوى والبلاد المجاورة ، وتنازلوا لصالح بنك سان جورج عن الأعشار التى كان كهنة الأسقفيات يرسلون عادة حصيلتها الى روما ، ولم يغرب عن بالهم البتة المصالح الخاصة بمستوطنات جنوا فى بنطس ، رغم انشغالهم بالاعداد لحملة صيلبية عامة ضد الترك (١٢٤) • الا أن الحرب الصيلبية التى كان يحلم بها كالكست الثالث ، وبيوس الثانى لم تنشب بالمرة ، وانتهت استعداداتهم بارسال أسطول منع الترك على الأقل من الاعتداء على جزر الأرخبيل ، ووفر الأمن للامارات بهذه الجزر خلال سنتى ١٤٥٦ ، ١٤٥٧ • أما مستوطنات بنطس فانها انتظرت دون جدوى ظهور الأسطول القوى المظفر القادم من الغرب ليضع حدا لما هى فيه من ضيق وشدة •

وفى عام ١٤٥٩ تلقت جنوا نبأ مؤسفا : ذلك أن هناك عجزا كبيرا فى مالية مستوطنة كافا واقتضى الأمر سرعة علاج هذا الوضع ، ومن ثم

---

(١٢٢) ابدى المحافظون هذا الرأى فى ثلاث رسائل بتاريخ ٢ مارس ، ٢٢ مارس ، ٢٧ ـ ٢٩ نوفمبر عام ١٤٥٦ •

(Ibid. p. 536 et ss., 585 et ss., 657 et ss.)

ـ وقد حررت تعليمات ٨ نوفمبر ١٤٥٨ بنفس المعنى :

— Ibid. p. 808 et s.

(١٢٣) Atti della Soc. Lig., VI, p. 735, 737 et s., 849 et s., 752, 799 et s., 906 ; VII, 1, p. 109, 267.

ـ وقد زيد مرتب نائب قنصل كافا ، ومدت فترة خدمته الى ثلاث سنوات •

(١٢٤) انظر قائمة هذه الأعشار فى :

Ibid. p. 2224 et ss., 445 et ss., 678 et ss.

أرسل محافظو البنك مبلغ ١٨٠٠ « سومو » (السومو يساوى ٦ أو ٧ ليرات جنوية) بصفة معونة استثنائية ، مع تعليمات جديدة بشأن التوفيرات التى يجب اجراؤها ، ومنها انقاص عدد الجنود المرتزقة فى كافا الى مائة جندى ، وثلاثين فى سماسترى ، وخفض المرتبات ، والضغط على مدينى البلدية ، الخ (١٢٥) • وكان انقاص الجنود سقطة أدركوا سريعا مداها : (١٢٦) فقد حدث فى عام ١٤٦٠ أن ذاع نبأ بأن السلطان يتأهب لارسال حملة فى البحر الأسود ، ومن ثم بادروا بارسال سفينتين تحملان مددا قوامه مائة وخمسون رجلا الى كافا (١٢٧) • غير أن النبأ كان سابقا لأوانه ، ولم يظهر العدو • وفيما عدا حربا مع سيد سيئوب فى شتاء ١٤٥٨ ــ ١٤٥٩ ، وهى حرب لا نعلم شيئا عن أصلها أو نتيجتها (١٢٨) ، كانت كافا تعانى فى تلك الفترة من متاعبها الداخلية أكثر مما تعانى من الغارات الخارجية • أما فى سماسترى فكانت الحال غير ذلك • حيث كانت سماسترى منذ زمن بعيد تدفع الجزية للأتراك (١٢٩) ، ومع ذلك ففى عام ١٤٥٩ (١٣٠) ظهر محمد الثانى بغتة أمام أسوار المدينة ، ويبدو أنها استسلمت دون مقاومة ، ونقل المنتصر بالقوة ثلثى السكان الى القسطنطينية (١٣١) • وبضياع سماسترى لم يفقد الجنويون فقط أهم ممتلكاتهم فى البحر الأسود ــ على حد قول السيدين هامر Hammer (١٣٢) ، وزنكيزن Zinkeisen (١٣٣) ــ وانما فقدوا كذلك محطة بحرية جيدة ، ومأوى مناسبا على طريق طربزون وكافا • ولم يكن يخفى على أحد فى جنوا أن سماسترى كانت أكثر المستوطنات الجنوية تعرضا للأخطار (١٣٤) ، لذلك خصتها جنوا بنصيب من امدادات الجنود وشحنات الأسلحة والقمح التى كانت ترسلها الى كافا • وفى غضون السنتين التاليتين لحق بسينوب وطربزون نفس المصير ، كما رأينا من قبل •

---

(١٢٥) Ibid. p. 910 et ss., 914 et ss., 820 et s.

(١٢٦) فى عام ١٤٦٥ زيد عدد جنود الحامية من جديد الى مائة وخمسين جنديا : Ibid. VII, 1, 372.

(١٢٧) Atti della soc. Lig., VII, p. 32, 45 et s. 47 et s., 50 et s. 56 et s. 57 et ss., 62-69, 74 et s., 80.

(١٢٨) Atti, VI, 900.

(١٢٩) Ibid. XIII, 269.

(١٣٠) بخصوص هذا التاريخ ، انظر : Critobul, éd. Muller, p. 126 et s.

(١٣١) Chalcoc. p. 460 et s. ; Critobul., p. 126.

(١٣٢) Gesch des osman. Reichs, II, 50.

(١٣٣) Gesch des osman, Reichs in Europa, II, 337.

(١٣٤) Atti della Soc. Lig., VI. 818.

وسلمت المنشات الجنوية شـمالى البحر الأسـود من الغزو الى حين (١٣٥) . وقد اكتفى السلطان مؤقتا بالجزية التى كانت تدفعها له مدينة كافا منذ عام ١٤٥٤ ، وابتداء من هذه السنة واظب بنك سان جورج على دفع الجزية بانتظام . واستمرت الأمور على هذا النحو حتى عام ١٤٦٥ . وفى هذه السنة أقلعت سفينة من ميناء كافا ، وبها صقور مرسلة الى السلطان ، ولكنها هلكت فى الطريق ، ومن ثم طلب السلطان دفع علاوة على الجزية قدرها ستمائة دوكا (١٣٦) . ومع الجار القوى الآخر ، حاجى كراى خان القرم ، كان الحفاظ على الوفاق والسلم يتطلب جهدا أقل(١٣٧) . ومع الأمراء الأقل أهمية ، مثل بنديان دى مينجريلى Bendian de Mingrelie الذى تتبعه سباستبول (١٣٨) ، واتيين « فويفود » فالاشيا Etienne voivode de Valachie

وتتبعه مـدينة مونكاسترو ، تجنبت جنـوا بقـدر الامكان كل نزاع حتى لا تتعرض تجارتها للتحريم ، أو تتورط معهم فى تعقيدات لا نهاية لها ، فاذا كان عند المواطنين الجنويين أو من يتمتعون بحماية جنـوا أية مطالب ضد هؤلاء الأمراء ، كان من الأفضل تأجيل النظر فيها بدلا من استخدام القوة لتحقيقها ، مهما كانت المطالب صحيحة (١٣٩) . وفى كافا نفسها ، اجتهد محافظو البنك فى حسم كل أنواع الخلاف بين السكان ، والحفاظ على العلاقات الطيبة بين الرعايا اليونانيين والأرمن (١٤٠) : اذ كان من الضرورى ، فى حالة هجوم العدو على المدينة أن يواجه المغير سكان متحدون . ومن جهة أخرى كانت الأعمال الخاصة بانجاز التحصينات وتقويتها تنفذ بهمة بتوجيه مهندسين غربيين . وعملت دور الصـناعة (الترسانات) على سد الفراغ الناشىء ، لا من ضرورات الحرب فحسب ،

---

(١٣٥) Giorn. lig. II, 379.

(١٣٦) Atti della Soc. Lig., VII, 1, 370, 550, 731.

يقول دبى Dei (فى Pagnini, II, 249) انه لابد ان يكون فى الجزية التى تدفع سنويا للسلطان خمسون صقرا للصيد .

(١٣٧) Atti della Soc. Lig., VII p. 339, 456, 371, 401, 443.

(١٣٨) Ibid. p. 883 ; Gios. Barbaro, Viaggio alla Tana, p. 16.

(١٣٩) Atti, VII, p. 338 et s., 357, 534.

(١٤٠) Ibid, p. 277 et ss., 347 et s., 362 et s. 374, 487; VII, 2, p. 30 et s., 35 et s., 101 et ss., 105 et s., 118 et s.

فى عام ١٤٢٩ أحصى ما لا يقل عن ٣٠٠٠٠ أرمنى فى كافا ، وكانوا يشكلون فى عام ١٤٧٥ ثلثى عدد سكان المدينة :

Atti della Soc. Lig., V, 415 ; Ibid. VII, 2, p. 343.

وانما بالأكثر من الاختلاسات والسرقات المتكررة ، واعتنى بأن تكون مخازن المؤن مليئة على الدوام ؛ ولعلاج حالات نقص الميـــاه حفر صـــهريج خاص (١٤١) • وتحسنت الأحوال المادية ، واستردت التجارة ما كانت تتمتع به من رخاء (١٤٢) ، وبفضل هذه الاجراءات عاد الشعور بالطمأنينة فى النفوس •

وكانت المدافع التركية التى تطلق فى البسفور تثير الرعب فى الحركة التجارية ، وتضر بها كثيرا ولم يزل يحدث هنا وهناك فى الفترة التى نتحدث عنها بعض التوقف فى الحركة التجارية (١٤٣) ولكن بوجه عام كانت السفن التجارية الغربية تعبر البسفور دون أن تصاب بأذى ، بشرط خضوعها لتفتيش مزعج ، ودفعها رسما للمرور (١٤٤) • وها هو مثال ذلك : فقد أراد محافظو البنك أن يضمنوا انتظام وصول قمح كافا الى جنوا • ولكن كيف يمكن تحقيق هذا الغرض ؟ انتهز محافظو البنك فرصة رحيل بعض المبعوثين لتسليم السلطان جزية كافا ، فطلبوا منهم أن يعرضوا عليه الاقتراح التالى : ذلك أنه اذا وافق على الترخيص بتصدير ٥٠٠٠ الى ١٠٠٠ « سمرى » Simri من القمح سنويا من كافا الى جنوا فانهم يتعهدون بأن ينقلوا على السفن نفسها عند عودتها سلعا من التى يطلبها رعاياه ، أو على الأقل من التى تخضع لرسوم مرتفعة تتزود بها خزائنه (١٤٥) • ثم ان تجار قمح كافا كانوا يعقدون صفقات مع المسلمين والمسيحيين على حد سواء أينما سنحت لهم الفرصـة بذلك ، ولنا أن نتصور أن تجار الرقيق لم يكونوا أقل منهم نشاطا فى هذا المجال (١٤٦) • وكانت السفن التجارية تخرج من ميناء كافا فتطوف بسـواحل البحر الأسود كلهـــا • كذلك كانت المرافىء الجنوية فى كافا ، وصوالدديا ، وتشيمبالو يتردد عليها تجار فالاشيا ، وطربزون ، وجورجيا (١٤٧) •

---

(١٤١) Ibid. p. 370, 374, 407, 412, 465 et s., 490 et s., 492, 529 et s., 533, 564, 730 et s. etc.

(١٤٢) Ibid. p. 363, 369, 432.

(١٤٣) Ibid p. 105, 412.

(١٤٤) فى عام ١٤٦٠ ، وافقت حكومة فلورنسا على رحيل سفينة أو سفينتين الى البحر الأسـود ، بغـرض زيارة موانى طربزون وكافـا ، مارة بالقسطنطينيـة • ولكن اذا كان هذا المشروع قد تحقق ، الأمر الذى لم يثبت ، فان هذه الرحلة كانت استثناء من القاعدة التى كانت تراعيها السفن التجارية الفلورنسية :
Doc. sulle relaz. tosc. p. 296.

(١٤٥) Atti della Soc. Lig., VII, 1, p. 339 et s., 359.

(١٤٦) Ibid, p. 401.

(١٤٧) Ibid. VII. 2, p. 371 ; 2, p. 617, 677, 874.

ولم تزل الصلات التجارية مع بحر أزوف قائمة • ومع ذلك حانت اللحظة التى يفقد فيها ميناء فوسبورو (كيرتش) الواقع عند مدخل هذا البحر كل ما له من أهمية • وكان الجنويون قد تلقوا قبل عام ١٤٢٩ تنازلا عن هذه المدينة من خان للتتار لا نعرف اسـمه ، وكان الشرط الوحيد الذى وضعه الخان لتنازله هـذا هو ابقاء مكتب للجمارك يعمل لحسابه (١٤٨) • فأنشأ الجنويون هناك قنصلية : نتبين ذلك فى النظام القانونى لعام ١٤٤٩ (١٤٩) ، ولكنا لا نعرف سـوى اسمين من أسماء القناصل : أنطونيو كاراتو Antonio Carato فى عام ١٤٥٥ ، وفرانشسكو فييسكى Francesco Fieschi فى عـام ١٤٥٦ (١٥٠) • وبعد ذلك قرر بنك سان جورج أنه لا فائدة من ابقـاء قنصل فى هذا الموقع ، بل لقد تساءل البعض فى عام ١٤٧١ عما اذا كان من الأفضل هدم المدينة حتى لا تكون مرتكزا للأتراك فى حالة هجومهم (١٥١) • وعلى ذلك اتخذت تجارة الخبوب التى كانت مصدرا للحركة والنشاط فى هذا الميناء اتجاها آخر ، وانسحبت معها الحياة منه (١٥٢) • وعلى عكس ذلك ، احتفظت تانا ببعض الأهمية ، باعتبارها مرفأ لاعادة التصدير ، ولذلك احتفظ كل من الجنويين والبنادقة فيها بأحيائهم المحصنة وقناصلهم (١٥٣) • ومن السهل اثبات قائمة كاملة تقريبا بأسماء القناصل الجنويين ، فى حين لا نجد فى بعض الأوقات (١٤٦٤ — ١٤٧١) اسما لقنصل بندقى الا فى مناسبة شكاوى الجنويين من موقفه العدائى ودسائسه (١٥٤) • فهل

---

(١٤٨) Ibid. p. 733 ; Olivieri, Carte e cronache, p. 75.

(١٤٩) Ibid. p. 372 et s., 377.

(١٥٠) Atti, VII,2 , p. 598.

(١٥١) Ibid., p. 835, 872 ; Atti, VII, 1, ps 701 ; VII 2, p. 976.

(١٥٢) Ibid. p. 733 ; Pegol. ., p. 39.

(١٥٣) "Castra" : Atti della Soc. Lig., VII, 1, p. 780.

أصدر محافظو بنك سان جورج تعليمات بشـأن الاصـلاحات والترميمات اللازم اجراؤها فى « القلعة الجنوية » :

Ibid, VI, p. 909 ; VII, 1, p. 351, 481 ; VII, 2, p. 104.

انظر أيضا : Tafur, p. 165.

(١٥٤) فى خصوص القنصلية الجنوية فى الآونة التى كانت فيها المستعمرة تابعة لبنك سان جورج •

انظر • Atti della Soc. Lig., VII, 2, p. 965 et ss.

ونعرف أسماء بعض قناصل البندقية • انظر :

— Ibid. VII, 1, p. 338, 733, 780.

لم تزل سوق تانا تتلقى منتجات الشرق ، أم أنها كانت مختصة بمنتجات الشمال فقط ؟ ليس في الامكان الاجابة عن هذا السؤال • أما قوبا Copa فلم تكن سوى مركز لصيد السمك يتردد عليه تجار كافا للحصول على السمك المملح والكافيـار (١٥٥) • ونحن نعلم يقينـا أنه كانت هناك مستعمرة تجارية بها قنصلية (١٥٦) ، وخزينة مالية (١٥٧) ، ومكتب للموازين والمكاييل (١٥٨) ، ووظيفة لكاهن (١٥٩) ، ومن ثم لم تكن قوبا في ذلك الأوان ناحية صغيرة ، الا أنها كانت لسوء الحظ محاطة بأقوام من جنس شركسى ، أو gétique كما تقول الوثائق الجنوية ، وهم على استعداد دائم لمهاجمة السفن التجارية ونهبها ، ولم يكن مناص من ارســال سفن حربية من كافا ، من حين الى حين لردعهم (١٦٠) • ولالقاء درس قاس عليهم ، حظرت حكومة كافا في عام ١٤٧١ على كل رعاياها دخول ميناء قوبا • وما لبث أهالى قوبا أن شـعروا بأثر هـذا الحظر عليهم حين افتقدوا الملح اللازم لحفظ أسماكهم ، وكان الملح يأتيهم من القرم بنوع خاص • فأوفدت كافا مبعوثها كافالينو كافالو Cavalino Cavalo للتفاوض مع سيد قوبا وعدد من صغار أمراء هذه المنطقة لاجراء تسوية في هذه المسألة (١٦١) ، فما لبث المبعوث أن توصل الى التفاهم معهم ، وحصل منهم على وعد بأن يحسنوا مستقبلا معاملة التجار الغربيين ، والسفن التجارية الغربية • ولم يمنع ذلك سيد قوبا من ازعاج بعض المواطنين الجنويين في السنة نفسها ، واقتضى الأمر أن يفرض عليه شروط الصلح والسلام • وقد زود بالمواد اللازمة لبناء قلعة ، فكان هذا العمل خطأ كبيرا ازاء شخص مثله لا يوثق به ، ومن ثم اعتزم بنك سان جورج هدم القلعة ، ولكن لم يتوفر له الوقت اللازم لتحقيق هذا المشروع قبل سقوط كافا (١٦٢) •

يذل بنك سان جورج كل ما فى وسعه لاقرار السـلام بين الامتين فى تانا ، وخاصـة فى السنوات التى سبقت الكارثة النهائية • انظر : Ibid, VII, 2, p. 28 —

(١٥٥) Ibid, VI, p. 194, 280 ; VII, 1, p. 790.

(١٥٦) Ibid. VI, p. 54, 90 et s. 280 e ts., 346 ; VII, 1, p. 271, 527, 784.

(١٥٧) Ibid. VII, 1, 527.

(١٥٨) Ibid, VI, 1, 71, 186, 271 351.

(١٥٩) Ibid. VII, 1, 527, 734.

(١٦٠) Ibid, VII, 1, 731, 779.

(١٦١) Ibid, VII, 1, p. 784 ; VII, 2, p. 212, Cf. Barbaro, Viaggio alla Tana, p. 15, b.

(١٦٢) Atti della Soc. Lig. VII, 1, p. 779, 784 812, 883 ; VII; 2, p. 55, 57, 211 et ss.; 617, 653, 730.

كان للظاهرة الشائعة في الأرخبيل (بحر ايجه) ، ظاهرة انشاء امارات صغيرة ، يؤسسها مواطنون من جمهوريات ايطاليا التجارية ، نظير لها في منطقة البحر الأسود ، ولو أنها على نطاق أصغر . من ذلك أنه في عام ١٤٥٥ كان جنوى يدعى ايلاريو دي ماريني Alario de Marini يمتلك امارة باتيساريوم Batiarium ، وهي الباشـــتار Bachtar الحالية على شاطىء بحر أزوف (١٦٣) . وكان سكان هذه الامارة يدفعون الضريبة لكافا ، حاضرة المنطقة (١٦٤) ، وفي مقابل ذلك كان لماريني الحق في حماية سلطات المستعمرة ، واتيحت له الفرصة لطلب هذه الحماية ، وبخاصة في تلك السنة ١٤٥٥ لطرد مغتصب ، وتحقق له هذا المطلب . وكان المورد الرئيسي لثروة المدينة هو تجارة السمك والكافيار (١٦٥) .

وكان لبيت جيزولفي Ghizalfi الجنوى في ماتريجا Matrega وضع مماثل لوضع آل ماريني دي باتياريوم . فسيمون جيزولفي الذي سبق أن تكلمنا عنه ، مات على ما يبدو قبل عام ١٤٤٦ (١٦٦) ، في الفترة التي وصلنا اليها ، حيث كان الأمير الحاكم حفيده زكريا . وحدث له (أي لزكريا) في شبابه أزمتان شديدتان . ففي عام ١٤٥٤ ظهر أسطول تركي يضم ستين سفينة متهددا أمام ماتريجا . وفي عام ١٤٥٧ ثار السكان يساندهم أمراء من الشركس ، وحاولوا قطع علاقة التبعية التي تربطهم بكافا (١٦٧) . وبعد ذلك خلق مجموعة من المتاعب لسلطات كافا ، وكلفها ثمنا فادحا بتدخله بصورة تعرض الجنويين للخطر في المنافسات التي كانت تجرى بين الطامعين التتار في الملك (١٤٦٤ ـ ١٤٦٦) (١٦٨) . وفي حوالي عام ١٤٧٠ ، خاصمه بصورة مباشرة الأمير الشركسي كاديبلدي Cadibeldı ، ومن ثم تعرض شخصه لخطر جسيم . وهزم ، واستولى كاديبلدي على ماتريجا ، الا أنه أظهر كرما فأعاد له ماتريجا (١٦٩) . وكان هذا الشخص دائم الجدال مع قناصل كافا ، وبنك سان جورج ، فلم يقنع بالمطالبة بجنود من المرتزقة لم يكن يدفع أجورهم ، بل سمح لنفسه ، بتصرف شخصي ، أن يضيف ضرائب جديدة الى الضرائب القديمة .

---

(١٦٣) في خصوص هذا الموقع انظر مقال السيد برون :
— M. Bruun sur Schiltberger, dans les Sitzungsberichte der bayerisch. Akad, 1870, I, 4, p. 447 et s. ; Giorn. likust., I, 346.

(١٦٤) Statut de 1449 : Atti, VII, 2, p. 637.

(١٦٥) Atti della Soc. Lig. VI, 358 et s.; Atti, VII, 1, p. 846.

(١٦٦) Canale, Della Crimea, I, 311.

(١٦٧) Atti della Soc. Lig., VII, I, p. 846.

(١٦٨) Ibid. p. 338 et s., 369, 439, 531.

(١٦٩) Ibid, p. 945.

ومع ذلك ففى عام ١٤٧٢ توصلوا الى وضع اتفاقية غير دقيقة : فتعهد جيزولفى بألا يرفض الطاعة لقناصل كافا بشرط الا يقتضيه هؤلاء أى شيء خارج الاتفاقيات (١٧٠) ٠

وعلى مسافة أبعد بقليل من ساحل القوقاز نجد مابا Mapa أو ماباريوم Maparium واسمها الحالى أنابا Anapa (١٧١) ، ولابد أنه كان هناك آنئذ مستعمرة جنوية بلا قنصلية لأن السكان كانوا يدفعون ضرائب ورسوما لكافا ٠ وفى حوالى عام ١٤٢٣ كانت خزانة هذه المدينة (كافا) تمنحهم مبلغا سنويا للانفاق على التحصينات (١٧٢) ٠ وعلى الساحل نفسه ، مستعمرة جنوية أخرى ، هى سباستبولى Scbastopoli ، كانت مزدهرة فيما مضى ، ولكنها تدهورت سريعا ٠ وما كادت هذه المستعمرة تشرع فى ترميم الخرائب التى سببها أسطول تركى فى عام ١٤٥٤ كما ذكرنا من قبل ، حتى فاجأتها هجمة شنها الأبخاز Abkhastd ، فوقع كل الجنويين تقريبا فى الأسر ، ولم ينج منهم الا قليل استطاعوا الفرار ، منهم القنصل جيراردو بينيللى Gherardo Pinelli الذى فقد كل ما يملك ، ولجأ الى كافا (يونية ١٤٥٥) ٠ وقررت سلطات كافا قطع الصلات التجارية مع سباستبولى الى حين صدور أوامر أخرى ٠ وحدث أن عين بنك سان جورج قناصل للسنتين التاليتين ، ولكن من المشكوك فيه أن يكونوا قد استلموا مهام منصبهم ٠ ويبدو مع ذلك أنه قد نشأت بالتالى مستعمرة صغيرة من التجار الجنويين : كذلك أعيد تنظيم القنصلية ٠ ولما كان من اختصاص قنصل كافا تعيين القناصل فى المراكز الثانوية ، فمن المحتمل أن يكون هو الذى عين هؤلاء القناصل (١٧٣) ٠

هنا تنتهى قصة محاط التجارة وصيد السمك ، والمستعمرات والامارات المتناثرة على طول السواحل شرقى القرم ، وكانت تابعة لمستعمرة كافا التى كانت تبسط عليها حماية ضعيفة ، فكان وجودها وقفا على أهواء عدو يطوقها من كل النواحى ٠ ولم يكن زوال هذه المستعمرات يؤثر فى التجارة بوجه عام : حتى تانا نفسها لم تعد تؤدى دورا فى هذا الخصوص ٠ بقى لنا قبل أن تفرغ من هذا الموضوع أن نتحدث عن مستعمرة جنوية

---

(١٧٠) Atti della Soc. Lig., VII, 1, p. 531, 550, 841 et ss.

(١٧١) Lelewel, Portulan, p. 14.

(١٧٢) Les cartulaires de la Massaria de Caffa ; le statut de 1449 (Atti, l.c., VII, 2, p. 637) ; un document de 1472 (ibid, VII, 1, p. 843).

يبدو أن أسرة جنوية عاشت مدة طويلة فى هذه المدينة : اتابا ٠

(١٧٣) Atti, VI, 317 et s., 266, 531, 549 ; VII, 2, p. 28, 957-960.

واقعة في شمال غربي القرم · فعند مصب نهر دنيبر ترتفع قلعة أثرية اسمها Castrum Ilicis, castello di Lerici (١٧٤) مشتق من اسم النهر نفسه : ذلك لأن الاسم الذى أطلق على نهر دينبر فى معظم الخرائط الايطالية للعصور الوسطى هو Ellexe أو Erexe ، وأطلق عليه الرحالة باربارو Barbaro اسم Elice ، وسماه السفير البندقى كونتاريني Leresse (١٧٥) · وقد أقام هناك عدد من الجنويين منشأة فى عصر غير معروف · ثم هدمت القلعة ، ربما هدمها التتار ، وقررت الحكومة الجنوية التخلى عن هذه المنشأة · ومع ذلك ففى حوالى عام ١٤٤٨ تولى جنويان : جوليانس دى جويزالدس Julianus de Guizaldis وجريجوريوس دى توريليا Gregorius de Turrilia اعادة بناء القلعة · واتخذت الحكومة الجنوية اجراءات شديدة لمنع تنفيذ هذا المشروع (١٧٦)، ويبدو أنها نجحت فى ذلك · ولكن بعد بضع سنين اشترى الاخوة سيناريجا Senarega القلعة من التتار ، وأعادوا بناءها بنفقات طائلة ، وجعلوا منها ملجأ للمسيحيين الهاربين من سجون التتار ، وكانوا يدفعون فديتهم عند الضرورة · وفى شهر مايو عام ١٤٥٥ كان فى القلعة بعض مواطنى فالاشيا دى مونكاسترو الذين تم دفع فديتهم على هذا النحو : غير أن هؤلاء الأشقياء انتهزوا ظلام الليل ففتحوا الأبواب لعدد من أهالى مونكاسترو ، وكانت الحامية صغيرة لا قدرة لها على المقاومة ، فوقع فى الأسر اثنان من الاخوة سيناريجا ، ونقلوا الى مونكاسترو ، واستولى الخونة على كل ممتلكاتهما · وكانت سلطات مونكاسترو ، قد اشتركت فى هذه المؤامرة · وأطلق بيبر ، فويفود فالاشيا السفلى الذى تتبعه المدينة ، أطلق سراح أحد الأخوين ، وأذن له بأن يثأر من مونكاسترو ووعده بأن يرد له قلعته ، ولكنه غير بعد ذلك وجهة نظره ، ورفض التخلى عن القلعة · وحاولت سفينة حربية مرسلة من كافا استعادة القلعة بالقوة، ولكنها فشلت · ولم ير بنك سان جورج ما يدعو لشن حرب يمكن أن يتسع نطاقها · ولم يعد الاخوة سيناريجا الى قلعتهم ، وكانوا قد استغلوا

---

(١٧٤) M. Desimoni : Atti della Soc. Lig., V, 245, 248 ; Sanuto (Diarii, I, 757).

بحث فيما مضى عن هذه القلعة على شاطىء بلغاريا ؛ وكان للسيد ديزموني الفضل فى العثور على موقعها الحقيقى · كذلك ذكرها السيد سانوتو ·

(١٧٥) Lelewel, Portulan, p. 12 ; Thomas Periplus des Pontus Euvinus, l. c., p. 260-262 ; Bruun, dans le Bulletin de l'Acad. de S. Pétersb., I (1860), p. 379 ; Viaggi fatti da Vinetia alla Tana, p. 4, 62.

(١٧٦) Atti della Soc. Lig., XIII, 219.

موقعها الممتاز عند مصب النهر الصالح للملاحة فى مزاولة التجـارة • والواقعة ثابتة ، ذلك لأنه من بين الغنـائم التى استولى عليها مواطنو فالاشيا فى الليلة التى استولوا فيها بغتة على القلعة ، ذكر بنوع خاص « كمية كبيرة من البضـــائع » ، كما ذكر قناصل كافا ضياع ليريتشى Lerici كسبب من أسباب نقص ايرادات الجمارك (١٧٧) •

ولما كانت كافا بمثابة حاضرة لسائر المستعمرات ، فان محافظى بنك سان جورج كانوا عادة يزودون كل قنصـل جديد بمعلومات عن البلاد المجاورة التى توثق معها تلك المستعمرات صلات نشيطة للغاية ، وهذه البلاد هى :

١ ـ خانيات التتار •

٢ ـ امبراطورية طربزون •

٣ ـ اقليم صاحب ثيودورو théodoro

٤ ـ فلاشيا السفلى ، وفيها بنوع خاص بلدية مونكاسترو (١٧٨) ، وكانت هذه المدينـة يشار اليهـا بنوع خاص ، وهى مدينة ليكوستوم Licostomum على أنهـــا مستودع للقمح الذى تستورده كافا (١٧٩) • وربما كانت الجبال المغطاة بالغابات فى قوطيا Gothie والواقعة فى املاك صاحب ثيودورو تورد أخشابا للبناء • أما سهول التتار فكان بها صوف الماشية وملح المستنقعات • وفى نظير ذلك كانت جنوا تصرف فى كل هذه البلاد المنتجات المصنوعة فى الغرب •

وبالضرورة كانت سياسة الأمراء الذين يحكمون مختلف أنحاء القرم موضوعا لاهتمام جمهورية جنوا وقلقها بصفة دائمة • وسبق أن رأينا أن حاجى كراى خان التتار أقام فى مستهل عهده مع السلطان العثمانى تحالفا موجها ضد كافا نفسها ، وكان سادة ثيودورو يخضعون له بدرجة تجعلهم لا يتأثرون بها • وتأثرت علاقات الجوار بهذا التحالف (١٨٠) • وبالاجمال كان هناك عدوان متصلان بجوانب المستعمرة : وللتخلص من العدو الأول استثارت حكومة جنوا ضـده خصما ساندته ، ويبدو أنه تغلب عليه بعض الوقت • وفى أعقاب ذلك ، وطد حاجى كراى سلطانه ،

---

(١٧٧) Atti della Soc. Lig., VI, 307 et ss., 337, 343, 358, 365 et s., 539, Cf. VII, 1, p. 460 et 3., 490.

(١٧٨) Ibid. VI, 815 ; VII, 1, p. 867.

(١٧٩) Ibid, VI, 109, 115, 368.

(١٨٠) Ibid, VI, 304, 361.

ومن ثم غير سياسته (١٨١) • وحتى وفاته فى أواخر صيف عام ١٤٦٦ (١٨٢) أظهر للجنويين نوايا طيبة • وحدث هذا التحول نفسه فى الاتجاه السياسى لدى سادة تيودورو (١٨٣) ، ولعلهم لم يكونوا يجهلون أنه قد أعد فى كافا خطة لغزوهم (١٨٤) • واذا كان الموقف قد تحول بهذه الصورة الملائمة ، فان محافظى بنك سان جورج كانوا على حق فى أن ينسبوا الى أنفسهم الفضل فى هذا التحول : فالواقع أنهم كانوا فى تعليماتهم المرسلة الى قناصل كافا يرددون دائما ضرورة التصرف بروح ودية مع جيرانهم ، وكانوا فضلا عن ذلك يسعون الى كسب صداقة هؤلاء الجيران بتحرير ألطف الرسائل اليهم (١٨٥) ، ولم يمنعهم ذلك من أن يحظروا على المستعمرين كل تصرف يمكن أن يؤول بأنه يدل على التبعية لهم ، أو يولد تعقيدات فى العلاقات •

وبعد وفاة حاجى كراى ، تنازع ورثته بشأن تركته • وفى البداية تغلب ثانى أبنائه نور دولت Nour Devlet (١٨٦) • ولكن فى عام ١٤٦٧ ، وعلى الأكثر عام ١٤٦٨ أسقطه الابن السادس منجلى كراى Mengli Guerai • وزودت حكومة كافا هذا الأخير بمدد من الجنود المرتزقة • وبعد انتصاره قدمت له خدمة أخرى بأن احتفظت فى السجن بنور دولت التعس وأربعة من اخوته • واعترافا بهذا الجميل توجه الخان الجديد بنفسه لزيارة المدينة فى عام ١٤٦٨ ، وجدد المعاهدات القديمة المبرمة مع المستعمرة ، وأبرأها من جزء من الجزية التى تدفعها (١٨٧) • وبنت جنوا آمالا عريضة على هذه الدلالات الطيبة ، وتصور القوم أنه فى حالة اغارة الترك ، فان خان القرم سوف ينحاز الى كافا • وفى شهر نوفمبر عام ١٤٧٠ بات الهجوم المرتقب وشيكا ، اذ قرر محمد الثانى فجأة رفع الجزية السنوية من ٣٠٠٠ دوكا الى ٨٠٠٠ • واشتد الاضطراب فى كافا • ولم يكن محافظو بنك سان جورج يعتقدون أنه من المستحيل تجنب نشوب حرب حتمية ، ولكن اذا لم يكن بد من اندلاع الحرب ،

---

(١٨١) Ibid. VI, 658, 616, 815 et s., 832 ; VII, 1, p. 339, 346, 371, 401, 433.

(١٨٢) Ibid. VII, 1, p. 464, 516 et s.

(١٨٣) Ibid. VI, p. 655 et s.; VII, 1, 490, 674, 868.

(١٨٤) Ibid. VI, 370.

(١٨٥) Atti della Soc. Lig., VII, 1, 490, 562, 671, 767, 769, 867 et s., 878 et s.

(١٨٦) ابو الغازى ، تاريخ المغول : ér Desmaisons, II, 187.

(١٨٧) Atti, VII, 1. p. 459 et s., 464, 487, 490; 495; 516 ets., 562; 628, 655, 674, 730, 778, 797 et ss., 806.

فانهم كانوا يعتمدون اعتمادا قويا على المقاومة التى يمكن أن تبذلها المنطقة بفضل العناية الجيدة بحصونها • ومع ذلك أرسلوا اليها تعزيزا صغيرا من صفوة من الجنود (١٨٨) • أما حكومة كافا فانها أجرت من جانبها مفاوضات مع السلطان ، واستطاعت أن تجعله يتنازل عن نصف مطالبه ، أى ٤٠٠٠ دوكا • وبدا أن هذه التسوية سوف تكفل السلام لأمد طويل ، واعتقد المحافظون أن فى وسعهم دون خطورة انقاص حامية كافا الى ١٥٠ جندى من المرتزقة أو ٢٠٠ على الأكثر (١٨٩) •

وفى هذه الآونة تحالفت البندقية مع أوزون حسن سلطان التركمان (لقب أوزون — وهى كلمة تركية — لطول قامته ، المترجم) ، وخلق هذا الأمر وضعا كان يمكن أن يصير شديد الخطورة بالنسبة الى العثمانيين • ويؤكد بنديتو ديى الفلورنسى (١٩٠) أن جنويى كافا انضموا الى هذه الاتفاقية : وهذا قطعا غير صحيح ، فها هى واقعة تثبت ما يمكنهم أن يفعلوه حتى لا يهينوا السلطان • وفى عامى ١٤٧٣ ، ١٤٧٤ مر بكافا اثنان من البنادقة : كاترينو زينو Caterino Zeno ، وامبروجيو كونتاريني Ambrogio Contarini ، وكان الأول قادما من بلاط أوزون حسن ، ومتوجهـا لزيارة عدد من الأمراء المسيحيين للتوفيق بينهم وبين الأمير التركمانى ، أما الثانى فكان يحمل للأمير رسالة من حكومة البندقية ، تدعوه فيها أن يشن الحرب على العثمانيين وحتى يستطيعا الاقامة لدى مواطنين مهما كان يتعين عليهما أن يختفيا عن الأنظار (١٩١) ، ذلك لأن القنصل الجنوى كان قد حظر على جميع السكان أن يأووا فى بيوتهم مواطنين من البنادقة ، أو أن يقدموا لهم أى نوع من المساعدات • ويضيف زينو قائلا : « ذلك لأن كافا تمتثل لأوامر السلطان وتدفع له الجزية » • وحين تصل المدينة الى هذه الدرجة من الانحطاط فانها تغدو قابلة بسهولة لغزو العدو • وكان فى وسع السلطان أن يتظاهر بالهجوم فتتحول كافا من مدينة تدفع له الجزية الى مدينة خاضعة له • وحانت الفرصة • فى عام ١٤٧٥ بتحريض من شخصية مهمة من شخصيات التتار •

---

(١٨٨) Ibid, VII, 1, p. 743, 747 et ss., 763, 768.

(١٨٩) Ibid, VII, 1, p. 764, 778, 765, 877.

(١٩٠) Dans Pagnini. Della decima. II, 249.

(١٩١) Viaggi alla Tana, p. 63 ; Ramusio Viaggi, II, 224.

— يثبت هذا انه لم يزل وقتئذ فى كافا جاليه بندقية ؛ وفى عام ١٤٧٨ كان قنصلها كريستوفر دي كاليه : انظر : Berchet, La republica di Venezia e la Persia, p. 137-139.

والمعروف أن التتار المقيمين فى كافا وضواحيها كانوا خاضعين لسلطة موظف من جنسهم يسمونه تودون Tudun ، أى الحاكم ، ويسميه الجنويون Capitano della campagno ، والمتبع الا يعينه خان القرم الا بالاتفاق مسبقا مع قنصل كافا ومستشاريه ، ولجنة تضم أربعة أعضاء تسمى Uffizio della campagna . وفى أوائل عام ١٤٧٣ توفى شاغل هذا المنصب واسمه ماماك Mamak ، وهو شخص قوى النفود ، يشغل منصبه منذ سنين عديدة . وأعقبه فى المنصب أخوه امينك Eminck وفى البداية ارتاح الجنويون لهذا الاختيار ، ولكن بعد انقضاء فترة أبدى مطالب مبالغا فيها ، ولما لم يجد سندا له من الحكومة ، غضب غضبا شديدا وبذل كل ما فى وسعه أن يبذله لاجاعة المستعمرة (١٩٢) . الا أن أرملة ماماك كانت تصبو الى ابعاده من منصبه واحلال ابنها محله ، واسمه سرتاق Sertak ، وهو شخص غير أهل لهذا المنصب ، فضلا عن أنه مكروه من الغالبية العظمى من الأهالى التتار ، ومن ثم كلفت جنويا يدعى كونستانتينو دى بيبترا روسا بأن يعمل لصالح ابنها . وحاول هذا العميل أن يستخدم الرشوة ، ولكنه كان يتعامل مع رجال معروفين بالنزاهة ، ومن ثم أخفقت أولى مساعيه . وانتظر – ليجدد المساعى – أن يتغير أصحاب المناصب . وبالفعل نجح فى عام ١٤٧٤ فى أن يضمن معاونة أحد أعضاء اللجنة المسماة Ullizio della campagna ثم أوبرتو سكوارتشافيكو ، أحد مستشارى القنصل ، وأخيرا كل من لهم الحق فى الادلاء بآرائهم فى هذه المسألة ، دون استثناء القنصل انطونيوتو ديللا جابيللا Antanioto della Gabella نفسه . وفى شهر ديسمبر عام ١٤٧٤ اجتهد هؤلاء الموظفون عديمو الضمير فى أن يقنعوا الخان بآرائهم ، ولكى يسقطوا مكانة امينك فى نفسه ، اتهموه بالتواطؤ مع الترك (١٩٣) . ووافق منجلى كراى على عزل أمينك ، ولكنه صرح بعدم امكانه وضع سرتاق مكانه ، وان اختياره وقع على طالب آخر للوظيفة ، أجدر بها ، وأكثر شعبية ، اسمه كاراى مرزا Karai Mirza . وعندما توجه الى كافا لاقامة « التودون » الجديد فى منصبه اصطدم بمقاومة شديدة . وكان اوبرتو سكوراتشيافيكو فى مقدمة المعارضين ، ولم يكن ليفوته منحة الألفى دوكا التى وعدته بها أم سرتاق فى حالة نجاحه . وفى خلال خطبة عنيفة القاها ، لم يتورع أن يحمل الخان على الاعتقاد بأنه ان لم يوافق على تعيين سرتاق ، ففى الامكان اطلاق سراح اخوته ، وهم خصومه القدامى الذين سبق أن هزمهم ، واعتقلهم الجنويون أولا فى كافا ، وكانوا آنئذ فى صولداديا (١٩٤) .

(١٩٢) Atti della Soc. Lig., VII, 1, p. 490, 735, 765 ; VII, 2, p. 56 et s., 120 et ss.

(١٩٣) M. Canale : Della Crimea, III, 346 et ss.

(١٩٤) بخصوص نقلهم الى هذا الحصن (١٤٧١) انظر :
— Atti della Soc. Lig., VII, 1, p. 799; VII, 2, p. 26, 53.

واستسلم منجلى كراى ، واستلم سرتاق مهام المنصب الذى كثر النزاع بشأنه • الا أن هذه المؤامرة ما لبثت أن ظهرت عواقبها : ذلك أن الأغلبية العظمى من نبلاء التتار انحازوا الى امينك ، وتمردوا على الخان، ودعوا السلطان العثمانى الى الاستيلاء على كافا وسائر المستعمرات الجنوية (١٩٥)٠

ولم يكن محمد الثانى فى الواقع ينتظر شيئا خلاف هذه الدعوة • وفى ربيع عام ١٧٤٥ أطلق فى البحر الأسود أسـطولا مسلحا تسليحا جيـدا (١٩٦) تحت امـرة الصـدر الأعظـم جدك احمـد باشا Gueduk Ahmed Pacha • وفى ٣١ مايو وصل الأسطول على مرأى من كافا ، وفى أول يونيـة أنزل الى البر فرقا عسكرية ، وفى اليوم التالى المدفعية ، وضرب الحصـار للحال • وانضم الأهالى التتـار الى الترك ، يقودهم امينك • ووجـد منجلى كراى نفسـه ، وقد تخلى عنه رعيته ، وخشى ألا يسـتطيع الصـمود فى قرقرى Kerkri مقـره المعتـاد ، فاغار على كافا ومعه ألف وخمسمائة فارس من الفرسان المخلصين له • كانت هذه الغزوة متوقعة منذ عدة شهور ، وكان هناك وقت كاف لاعداد وسائل الدفاع ، ومع ذلك كانت المقاومة ضعيفة • وفى الرابع من يونية انهارت الأسوار القديمة بطلقات مدافع العدو ، وكان خلف هذه الأسوار أسوار جديدة ، فبدأ العدو يقصفها بمدافعه • وكان فى الوسع الانتظار للحكم على مدى قدرة هذه الأسـوار على المقاومة • وارتعب الأهالى من ضخامة عدد المحاصرين ، وخانتهم شجاعتهم • وفى السادس منه طلبوا هدنة ، وفى اليوم نفسه استسلموا (١٩٧) تـرى هل وعدهم قائـد القوات التركية بالمحافظة على أرواحهم وأملاكهم مقابل دفع ضريبة تحسب بمبلغ ما عن الفرد الواحد (خرج) ؟ أو أن المفاوضين المبعوثين الى معسكر

---

(١٨٥) La relation d'Ag. Giustiniani (p. 226, b-227. b). ; Foglietta (p. 626 et s.)

فى حيازتنا فضلا عن ذلك تقرير عن سقوط كافا ، كتبه شاهد عيان ، وذكر تاريخه : ١٥ من اغسطس ١٤٧٥ : انظر :
M. Canale : Della Crimea, III, 346 et ss.

(١٩٦) نجد أصدق المعلومات عن تشكيل هذا الاسطول فيما رواه جاسوس من اهالى سانت مور • حضر اقلاع الاسطول من القسطنطينية فى ١٩ من مايو ، واحصى فيها ١٨٠ « قادوسا » ، ٣ « غليونيات » ، ١٧٠ سفينة شحن ، ١٢٠ سفينة مخصصة لنقل الخيل انظر :
Atti della Soc. Lig., VII, 2. p. 475 ;

وفى مصدر آخر ان عدد السـفن الشراعيـة التى تشـكل الاسـطول اقل من هذا • انظر :
Ibid, p: 488 : Sanuto (IV, 325) • ويذكر سانوتو عددا اقل بكثير

(١٩٧) Atti. l.c., p. 480.

الترك عاهدوا أنفسهم عند عودتهم أن يطمئنوا الأهالى المرعوبين ، وينبؤهم أنهم لم يقبلوا الاستسلام الا على هذا الشرط هذه نقطة بقيت غامضة ، لم توضحها (١٩٨) المصادر ، كانت المدينة تضم ٨٠٠٠ منزل ، و ٧٠٠٠٠ ساكن (١٩٩) ، وبعد أن استسلمت أمضى كل هؤلاء النـاس أياما فى انتظار مصيرهم • وكان أول من عرف هذا المصير هم الأجانب المقيمين فى المدينة ، من فالاك (أهالى فالاشيا) ، وبولنـديين ، وروس (٢٠٠) ، وجورجيين ، وشركس ، الخ : فقد صودرت أملاكهم التى بلغت قيمتها أكثر من ٢٥٠٫٠٠٠ دوكا ، أما هم ، فقد بيعوا بيع الرقيق ، أو ألقى بهم فى غياهب السجون • وفى التاسع والعاشر من شهر يونية ، التزم كل سكان كافا ، من لاتينيين ، وأرمن ، ويونانيين ، ويهود ، الخ أن يقدموا بيانات صحيحة عن أحوالهم الشخصية ، وأسرهم ، وثرواتهم ، وكانت الحجة فى هذا الاستقصاء تحديد قيمة « المخرج » • وفعـلا ، فرض المنتصر على السكان ، فى خلال الأيام التالية ضريبة (خرج) تتراوح بين ١٥ ، ١٠٠ أسبر (عملة فضية تركيـة) عن كل فرد تبعـا لحالتـه المالية (٢٠١) وفى هذين اليومين (١٢ ، ١٣ من يونية) اسـتعرض الرؤسـاء الترك كل الشـباب من الجنسين ليختاروا من بينهم عبيدا للسلطان : ويقول أحـد المؤلفين الذين كتبـوا عن هذا البحث أن ١٥٠٠ شـخص من الجنسـين (٣٠٠٠ فى رواية مؤلف آخر ، وعدد أكبر تبعا لرواية مؤلف ثالث ، منهم ٥٠٠٠ صبى) قد انتزعوا من أحضـان أسرهم ، وكان رحيلهم مشهدا يقطع نياط القلوب ، وبدا الاجراء أقسى ما يكون ، ولابد أن الصدر الأعظم كان راضيا بذلك • وما أن عاد السكان الى مزاولة أعمالهم المتعادة ، بناء على أمر الصدر الأعظم ، حتى أذاع قرارا جديدا بأن يدفع كل ساكن ، فى خلال ثلاثة أيام مبلغا يعادل نصف الثروة التى أثبتها فى اقراره ، والا حـكم عليه بالاعدام • وعوقب كل الذين

(١٩٨) Malipiaro, p. 111 : Relazione della presa di Caffa, dans Canale, III, 349.

(١٩٩) Atti, VII, 2, p. 482.

(٢٠٠) بخصوص التجار الروس بكافا ، انظر :
Karamsin, Ge ch, des Russ. Reichs VI, 68.

وفى عام ١٤٧٤ كانت قافلة من تجـار كافا عائدة من روسـيا ، وكان عليهـا أن تجتاز الاقليم التابع لعاهل موسكو ، فأغار عليهـا ونهبها عصابة من القوازق ؛ ومن ثم حصل المستوطنون على تعويض عن هذه الخسارة بأن صادروا كل ما كان يمتلكه عدد من التجار الموسكوف (من أهالى موسكو) • انظر : Atti I.C., p. 114.

(٢٠١) كان « اسبر » asgre كافا يساوى بالتقريب ١٥ سنتيما (السنتيم ١/١٠٠ من الفرنك) من عملتنا ؛ وهذا ما ذكره السيد ديزموندى فى ملحق لكتاة بيلجرانو ؛

لم يستطيعوا تنفيذ الأمر ، وهم الغالبية بأقسى أنواع العقوبات البدنية . وأخيرا صدر أمر فى ٨ من يولية الى كل السكان اللاتينيين بالرحيل الى القسطنطينية على متن سفن تركية ومعهم كل ما تبقى لهم مما كانوا يملكون . وفى ١٢ من يولية غادر كافا كل المستعمرين الايطاليين ، وهم غير مطمئنين على مصيرهم فى عاصمة العدو (٢٠٢) .

وفي غضون هذه الرحلة ، اندلعت ثورة على ظهر احدى السفن ، قتل فيها الركاب طاقم السفينة ، وفروا بها الى مونكاسترو أكرمان حاليا . ولكن حين أراد الركاب اقتسام الغنائم الثمينة التى وجدوها فى السفينة ، لم يتفقوا ، الا أن سيد أكرمان صادر كل الغنائم وطردهم من المدينة صفر اليدين (٢٠٣) . أما الآخرون فقد وصلوا الى القسطنطينية حيث خصص لهم حى من أحياء المدينة كان مهجورا حتى ذلك الحين ، ودفعوا « الخراج » للسلطان . وكان من بين هؤلاء أوبرتو سكوراتشافيكو الذى كانت قابليته للارتشاء سببا من الأسباب الرئيسية لوقوع الكارثة . وبعد مرور بضعة أيام على نزوله فى القسطنطينية قطع رأسه ، بايعاز من امينك غالبا . وسجن منجلى كراى مع البـاقى كلهم ، وبعد أن عانى ما عاناه من آلام مضنية ، نجـا من التهلكة ، ثم أعيد الى القرم ، واسترد سلطته كتابع للسلطان (٢٠٤) .

وفى هذه الأثناء واصل الترك فتوحاتهـم فى القرم ، وفى حملة واحدة سقط الساحل الجنوبى كله فى أيديهم . وتذكر المصـادر بين ما تذكره من أمـور أخـرى أن غزواتهـم انتهت بفتح قوطيـا la Gothie (٢٠٥) . ونقل برونيوفيوس Broniovius الى الأجيال التالية بعض التفاصيل التى استقاها من فم أسقف يونانى ، يقول ان صولداديا صمدت لحصـار طويل الأمد ، بفضـل دفاع حامية صغيرة ، ولكنها ذات حزم شديد ، ولم تستسلم الا بتأثير المجاعة . وعندما دخل الأتراك القلعة السفلى ، نشبت معركة ضارية فى كنيسة مشيدة فى هذا المكان ، ولقى كل من كان بها حتفه ، وبعد أن أجهز الترك على الجميع،

Pelgramo. 'avl'n rrivata dei Germovesi, 2 ed.

(٢٠٢) Canale, III, 346 et ss., le récit d'ag. Giustiniani et celui de malipiero.

(٢٠٣) Ag. Giustiniani, p. 228; M. Bruun (Col. ital. en Gaz. p. 77 et s.)

يحكى السيد برون من هذه الأحداث قصة مختلفة بعض الشىء ، استقاها من مصادر أخرى .

(٢٠٤) Hammer, Gesch, der Chane der Krim. p. 34 et ss.

(٢٠٥) Historia politica Cpol., éd., Bonn., p. 45.

كدسوا الجثث بعضها فوق بعض ، وأغلقوا الأبواب والنوافذ (٢٠٦) وزعم بعض الكتاب أن عددا من المستعمرين فروا الى الجبال ، واشتركوا دون جدوى فى الدفاع عن حصن مانجوب Mangoup ضد الأتراك (٢٠٧) الا أن المصادر لم تقل كلمة واحدة فى ذلك • ثم اننا نعرف الآن تمام المعرفة كيف جرت الأمور حتى اللحظة الأخيرة • فقد كان الأمير الكسندر ، ابن خليفة صاحب مانجوب (تيودورى) موجودا فى بلاط مولدافيا Moldavie حيث كانت أخته متزوجة من « الفويفور » ايتين Etienne ، وترك البلاط قبل سقوط كافا بقليل ليستلم قصر آبائه (٢٠٨) • وهاجمه الترك بدوره ، فهزمهم فى خمس معارك وأجبرهم على التخلى مؤقتا عن مشروعهم (٢٠٩) • مرت بضعة شهور أغار الترك بعدها عليه ، وأتمت المجاعة ما لم تقدر عليه القوة • وفى شهر ديسمبر ١٤٧٥ استسلمت القلعة ، واقتيد الأمير مع أسرته الى القسطنطينية حيث قطعت رأسه ، واحتجزت زوجته وبناته فى حريم السلطان (٢١٠) •

قلنا فيما سلف ان المستعمرات الأخرى لاقت كلها ، الواحدة بعد الأخرى هذا المصير • فأنابا anapa التى دمر تيمورلنك ضواحيها ، ولم يستطع أن يخترق القسم الرئيسى فيها ، كانت من أوائل المستعمرات التى سقطت مع أيدى الترك (٢١١) أما زكريا جيزولفى الذى طرد من ماتريجا ، فانه جمع حوله سكان المدينة الذين طردوا معه ، وقسما من سكان قوبا ، وعاش معهم بعض الوقت حياة متنقلة فى شبه جزيرة تامان ، حيث لقوا معاملة سيئة من جانب صغار أمراء الاقليم ، ولم يظفروا منهم بأية رعاية الا نظير المال (٢١٢) ، وانتهى أمره الى روسيا حيث

---

(٢٠٦) Broniovius, p. 10.

(٢٠٧) Serra, III, 234 ; Canale, Della Crimea, II, 147.

(٢٠٨) Atti della Soc. Lig., VII, 2, p. 477, 479.

(٢٠٩) Canale, Della Crimea, III, 354.

(٢١٠) Atti, I. c,. p. 488.

(٢١١) Soliyya effendi, Narrative of travels, transl. by Hammer, II, 58 et s. "ex campania propre castrum Matrice".

(٢١٢) انظر خطابا منه بتاريخ ١٢ من اغسطس ١٤٣٢ • نقله السيد بلجرانو Belgrano فى :

le Rendiconto della Soc. Lig., 1865-1926, p. 189 et s. (Atti, IV, p. ccivii et s.)

فهو يطلب بالذات من بنك سان جورج مبلغ الف دوكا هو فى حاجة اليه لهذا الغرض •

استقر بها بصفة نهائية على ما يبدو (٢١٣) . وكان سقوط تانا خاتمة الدمار الذى حاق بالمستعمرات الجنوية ، ولا علم لنـــا بتفاصيل هذا الموضوع (٢١٤) . ولزمن طويل ، استمرت بضع أسر جنوية تقيم باقليم أزوف (وهذا هو الاسم الذى حل بعد ذلك محل تانا) وتتمتع ثمة بحالة من الرخـــاء . ومـن بـين هذه الأسر ورد ذكـــر اسرة ســـــبينولا Spinola (٢١٥) . وبى كافا نفســـــها لم يتلاش اســـم جنـــوا بالكلية (٢١٦) ، فقد تجمع من بقى من الجنويين على قيـــد الحيـــاة بعد الغـــزو ، وأسســـوا بالقرب من مــــدينة باغجة سراى Baghtchèsérai مستعمرة صغيرة اكتسبت بعض الأهمية ، وحصلوا على بعض المزايا التى يسرت لهم العيش فى سلام ، ومزاولة شعائرهم الدينية (٢١٧) .

وقد تركت الســـــيادة الجنوية فى القرم آثارا عميقة بقيت ذكراها حية دهرا طويلا . وأبدت العناصر المسيحية من السكان ، ونقصد بها ليس فقط الايطاليين ، ولكن أيضا اليونانيين والأرمن ، أبدت رغبتهـــا فى العودة . ولم يكن خـــان القرم نفســـه منجلى كراى يعترض على هذه الرغبـــة ، بل انه عرض على سادة الساحل القدامى العودة . وتولى أحد المستعمرين القدامى ، وكان قد لجـــأ الى بولنـــدة ، واسمه اندريولو دا جواسكو Andereolo da Guasco ابلاغ جنوا هذا العرض . وبعد وفاة محمد الثانى (فى ٣ من مايو ١٤٨١) ألح أندرييولو على مواطنيه أن يستغلوا المنافسة القائمة بين أبناء السلطان الذين تنازعوا بقوة السلاح على ميراثه . وبالفعل ، ولما كانت هذه الأحداث متزامنة مع نشأة تحالف بين الدول المسيحية ضد الأتراك ، فقد وضعت حكومة جنـــوا مشروعا

(٢١٣) Odess Sap., V, 272-274 ; Bruun, Not. sur les colon. ital en Gaz., p. 33 et Giorn Ligust., I, 343 et ss.

(٢١٤) نجد هنا وهناك بضع كلمات فى هذا الموضوع فى :
Malipieri, Annali, p. 112 ; Relaz. della presa di Caffa, l.c., p. 352 ; 9tti, l.c. p. 488 ; Miechow, Tract. de duabus Sarmatiis, II, 2.

(٢١٥) Hieron. de Marinis, dans le Groev. thes ital, I, 1, p. 1435 ; Duller, Samml. russ. Gesch, II, 85.

(٢١٦) Broniov., p. 10 ; Demidoff, Reise in die Krim, trad. Neige-baur, II, 116.

(٢١٧) Broviov., p. 9.

- يحكى M. Siestrzencewicz (ص ٣٣٨) نقلا عن مصدر أرمنى أن منجلى كراى بعد عودته من الأسر قتل كل الجنويين الموجودين فى البلد ؛ ويبدو أنه انتقم بذلك من حاكم جنوى بالقرم القديمة Vieux-Krim (صولجات . Salgat . . : غير ان الجنويين لم يمتلكوا مطلقا هذه المدينة ؛ ومن جهة اخرى فان منجلى كان قد اظهر للجنويين الكثير من دلالات الود والصداقة بحيث لا يمكن ان نصدق هذه الحكاية .

يقضى بان تنضم الى هذا الحلف ، وأن ترسل بعض السفن الى البحر الاسود ، فى حين تدخل فرق من الجنود المرتزقة القرم عن طريق بولندة • وذهب الى هناك اثنان من العملاء بطريق البر لتمهيد المجال لهذا المشروع ؛ وهما لوديزيو فييسكى Lodisio Fieschi ، وبارتولوميو فريجوزو Bartolommeo Fregoso ، وأجاب خان القرم الذى كان عليهما أن يحيطان علما بنوايا حكومتهما أجاب عن طلبهما مقابلته بخطاب ودى للغاية (فى ٣٠ من ديسمبر ١٤٨١) • ورحب السكان المسيحيون الذين كان على العميلين أن يتصلا بهم ويتفقا معهم ، رحبوا بهذه الغاية • كذلك اعتمد القوم على زكريا جيزولفى الذى كان ولم يزل يجوب الأنحاء المجاورة لبحر آزوف ، وكان المفترض أنه على استعداد للمساهمة فى عملية اعادة البناء • غير أن الأسطول الذى كان وصوله المرتقب اشارة لاندلاع ثورة السكان المسيحيين : هذا الأسطول لم يظهر له أثر ، وتبخرت مشروعات التحالف الكبرى للدول المسيحية ضد العثمانيين ، وذهبت أدراج الرياح (٢١٨) •

---

(٢١٨) Les études de M. Belgrano dens lès Atti della Soc. Lig., IV, die, p. 46 ; l'Archiv. stor. ital., 3e serie, T. VIII, 2e part., p. 175 et s. : G. Gra so (1481) dans le Giorn. ligust, 1970, p. 321 et ss.

يوجد خطاب منجلى كراى ، وهو مكتوب باليونانية فى :

Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 282 et s.

سـادسا ـ قبرص

كان حكم بطرس الأول أزهى عصور جزيرة قبرص ، ولسوء الحظ سقط هذا الأمير صريعا بطعنة خنجر في ١٧ من يناير ١٣٦٩ ، وكان موته بداية لانحطـاط لا علاج له . فأول شيء تحملت مملكة قبرص عواقب الكراهية التي فرقت بين المستعمرين الجنويين والبنادقة . ومن قبل ، في حياة بطرس الأول استثارت هذه الانقسامات مناوشات خفيفة (١٣٦٨) أصيب في أثنائها البايل البندقي بحجرين انطلقا من صفوف الجنويين ، الا أن ذلك لم يؤد الى اراقة الدماء (١) . وحدثت مصادمة خطيرة أثناء حفلات تتويج بطرس الثاني ، والتي أقيمت في فاماجوستا في ١٢ من أكتـوبر ١٣٧٣ . فحسب التقاليد ، حضر الحفـل مندوبون عن الأمم التجـارية . وتم التتويج في كنيسـة القديس نيقولا S. Nicolas ، وعند الخروج من الكنيسة ، وفي اللحظة التي امتطى فيها الملك الشاب صهوة جواده ، أمسك البنـادقة ـ أي بايل البنـادقة بالطبع ـ العنان الأيمن للجواد ، وبهذا شـغلوا مركز الصـدارة ، أما الجنويون فانهم طالبوا بهذا المركز ، ففي رأيهم أن هذا الامتيـاز حق للبودسـتات الجنوى ، لأن أسـلاف الملك منحه اياهم بصفة رسـمية . ومن العسير علينا في الوقت الحاضر أن نثبت بصورة قاطعة صحة هذه المطالبة . الا أنه لما كانت الواقعة قد أكدها بعض المؤرخين القبارصة ، وهم لاينتمون

---

(١) Machairas, éd. Miller et Sathas, texte graec, p. 135 et s.

الى الأمتين ، وكانت رواياتهم فى تاريخ قريب كل القرب من الأحداث (٢)، كما كان الجنويون قد شغلوا فى الجزيرة دائما وضعا متفوقا ، فلا بد أن نسلم بصحة ادعائهم • واذ جرت الأمور على هذا النحو ، فقد رفض الجنويون أن يمسكوا العنان الأيسر ، ومن ثم قام جدل كاد الا ينتهى • ولاحظ بعض الشخصيات من حاشية الملك هذه الحال ، فسووا مؤقتا الخلاف بأن أمسكوا بأنفسهم الأعنة • وأعقب الحفل الدينى مأدبة أقيمت فى القصر الملكى • وهناك وجد الجنويون أنفسهم وقد وضعوا على يمين الملك ، والبنادقة على يساره ، فكان هذا موضوعا جديدا للاحتجاجات : وتبادلت الطائفتان عبارات لاذعة • وكان الجنويون قد خبأوا بأمر رئيسهم (البودستات) أسلحة تحت ثيابهم • وبعد أن انتهت الوليمة ، وكان الخصوم قد أفرغوا ما فى جعبتهم من ألفاظ مهينة ، شرعوا فى الاشتباك بالأيدى • واستل ثلاثة من التجار الجنويين الموجودين فى القاعة سيوفهم، وكان هذا بمثابة علامة لبدء القتال ، وبادر آخرون لمعاونتهم ، وكانوا حتى ذلك الحين فى الخارج ، وفى أيديهم أسلحتهم • وكان البنادقة فى انتظارهم على استعداد للدفاع عن أنفسهم • عندئذ تدخل كبار شخصيات البلاط وتصدوا لمثيرى الشغب • وسقط فى داخل القصر بعض القتلى وكثير من الجرحى من الجنويين ، وألقى بالبعض من الشرفات الى الشارع• وعندما شاع خبر الأحداث التى وقعت فى القصر هرع رعاع مدينة فاماجوستا الى حى الجنويين فاجتاحوه وحطموا خزائنه ، واستولوا على ما فيه من كتب وسجلات عامة ، ونهبوا البيوت وحوانيت التجار • وأسرع الكونت دى روهاس Rohad الى الموقع ومعه رجال مسلحون ، واستطاع أن يعيد الأمن الى نصابه • واذ رأى البنادقة وقد تجمهروا فى حيهم وتأهبوا للاشتراك فى المعركة ، فانه أجبرهم على القاء أسلحتهم (٣)،(٤) • وكانت المسئولية عن هذه الأحداث كلها تقع بالاجمال على هؤلاء لأنهم السبب فى نشوب المعركة بسبب ادعاءاتهم المبالغ فيها • ومع ذلك لابد من القول ، التماسا لعذرهم ، أنهم كانوا فى موقف الدفاع عن أنفسهم منذ اللحظة التى بدأ فيها استخدام السلاح • وفى نظر القبارصة كان الجنويون هم المذنبون لأنهم كانوا أول من استعملوا

---

(٢) Strambaldi, Amadi et Florio Bustron, dont Mas Latrie invoque le rémoignage (II, 353, not. 7) ; Machairas (l.s., 178).

(٣) Machairas, l. c., p. 178-182 ; Diomede Strambaldi (Mas Latrie, II, 351 et ss.) ; Stella, dans Murat., ſs., XVII, 1108 ; Sanuto, ibid. XXII, 678.

– وكذا فى رواية ستيفان فون جومبنبرج Stephan von Gumppenberg
القسم الخاص بجزيرة قبرص : Reyssbuch des heil. Landes, fol. 244. —

الأسلحة ، وأراقوا الدماء ، وألقوا غلالة من الأحزان على أفراح الشعب ٠ ولما دعا الملك البودستات ليسأله أن يقدم تقريرا عن أفعال مواطنيه ، لم يبد لهم البودستات أية أعذار ، بل أجاب بعجرفة : ان كان هناك أعمال قتل ونهب ، فان مواطنيه هم الضحية ٠ وبعد بضعة أيام ، غادر الجنويون كلهم فاماجوستا ، بنسائهم وأطفالهم وأموالهم ، وعادوا الى وطنهم ، وفى عزمهم طلب الثأر (٥) ٠ ولم تضيع جمهورية جنوا وقتها ، بل جهزت حملة كبيرة ٠ وفى شهر مارس ١٣٧٣ أقلعت سبع سفن حربية بقيادة داميانو كاتانيو Damiano Cattaneo ، ومهدت الطريق لسائر القوات باطلاق غارات على الجزيرة ، والاستيلاء على بعض المواقع فيها ٠ أما الأسطول نفسه ، وقوامه ست وثلاثون سفينة حربية فقد أقبل فى شهر أغسطس ٠ وفى شهر أكتوبر ظهر القائد العام بييترو دى كامبوفريجوزو Pietro di Campofregoso على مرأى من فاماجوستا ومعه ثلاث وأربعون سفينة حربية وأربعة عشر ألف جندى من الفرق البرية (٦) ٠ ولم تكن حكومة قبرص تملك جيشا يقوى على التصدى لمثل هذا العرض العسكرى : وقد يبدو أنه نظرا الى هذه الظروف ، كان يحق للحكومة أن تعتمد على مساندة البنادقة ، الا أن هؤلاء كان لديهم فى ناحية أخرى مشاغل تكفيهم : فقد قيد حركتهم اثنان من جيرانهم الخطرين ، هما فرانسوا دى كارارى François de Carrare ولويس ملك هنغاريا ، ومن ثم رفضوا التعاون مع أية جهة أخرى (٧) ٠ ولم يكن فى وسع فاماجوستا أن تقاوم أكثر من بضعة أيام ، استسلمت بعدها للجنويين الذين استخدموا الغدر والخيانة ٠ وسقط الملك الشاب فى أيديهم ، وأجبروه على أن يبعث أمرا الى بعض القلاع التى لم تزل تقاوم بأن تستسلم للمنتصرين ٠ ومع أنه لم يفقد تاجه ، الا أنه اضطر لأن يبرم فى ٢١ من أكتوبر ١٣٧٤ (٨) معاهدة تلزمه الوفاء بثلاثة أنواع من الديون : أولها مبلغ ٩٠٠٠٠ر٩٠ ريال ذهبى يدفع لأمير البحر قبل أول ديسمبر للانفاق منه على الأسطول الجنوى ، وثانيها مبلغ ٤٠٠٠٠ر٤٠ ريال ذهبى يدفع سنويا لبلدة جنوا بصفة تعويض حربى ، وثالثها ٤٠٠ر٠١٢ر٢ ريال ذهبى يدفع على اثنى عشر قسطا سنويا بمثابة تعويض للشركة الجنوية (الماهون) التى تكفلت بنفقات الحملة ٠ وأرسل أحد أعمام الملك واثنان من أبناء عمومته وعدد كبير من نبلاء البلاط وأعيانه الى

---

(٥) Machairas, p. 182-187.

(٦) Stella, p. 1104 et s. ; Machairas, p. 193-209.

(٧) Mas Latrie, II, 359 et s.

(٨) Lib. jur., II, 806 et ss.

جنـوا حيث حبسوا فى سجونها كرهائن (٩) • الا أن الضمان الحقيقى لهـذه الديون كان مدينة فاماجوستا نفسها : فقـد وضـعت الجمهوريه يدها عليها ، ومارست فيها كل السلطات المدنية والعسكرية والقضائية حتى يتم سداد الديون بالكامل ، ولم يحتفظ الملك الا بايرادات المدينة والميناء ، والموظفون المكلفون بتحصيل هذه الايـرادات هم عمـلاء الملك المرخص لهم بالاقامة بالمدينة • وكان الملك التعس يتألم بمرارة من فكرة أن أجمل وأغنى مدينة فى المملكة أصبحت فى أيدى الأجنبى ، وأنه يتعين لدخولها دفع مبالغ كبيرة • وبعد انقضاء بضع سنوات ، لم يستطع الملك أن يستمر فى هذه المعـاناة ، ومـن ثم تأهب من جديد للحرب • وبدت الظروف أول الأمر ملائمة له ، فالحرب بين جنوا والبندقية أصبحت من جديد وشيكة ، حرب تبدو شديدة الضراوة • وفى القسطنطينية بنوع خاص وقعت أحداث تراكمت ونجم عنها انفجار ، غير أن الأحداث التى جرت أخيرا فى قبرص أسهمت بعض الشىء فى هذا الانفجار • فالواقع أن الحياد الذى راعته البندقية أثناء المعارك التى دارت بين جنوا وبطرس الثانى لم تمنع عـددا كبيرا من أفراد الجالية البنـدقية من وبعـد التعاطف مع الملك والمشاركة بصورة فعالة فى الدفاع عن فاماجوستا • وبعد سقوط هذا الموقع ، احتال أكبر الأشخاص الذين حبسوا كرهائن ، وهو يوحنا دون لوزينيان Jean de Lusignan عم الملك ، على بودستات جنوا ، فهرب ، ولم يعلم أحد كيف تم له ذلك • وأشيع وقتئذ أن البايل البندقى خبأه فى منزله ، وكانت اشاعة كاذبة • فلما رفض البايل أن يجيب عن الأسئلة التى وجهت اليه فى هذا الخصوص ، أمر أمير البحر بكسر باب منزله ، وتفتيش المنزل تفتيشـا دقيقا • وعانى البايل نفسه ضروبا من المعاملة السيئة ، واقتيد أمام أمير البحر الذى احتفظ به سجينا بضعة أيام • وحيال هذه الأحداث ، وحتى لاتتكرر مثل هذه الأعمال المزعجة فى بلد يملك فيه خصوم البندقيـة سلطـة مطلقة ، أمر مجلس شـيوخ البندقية البايل وأفراد الجالية بمغـادرة جزيرة قبرص ، باستثناء الأهالى الذين عرفوا باسم Veneti albi لأنهم جعلوا أنفسهم فى حماية البنادقة ، فقد أذن لهم بالبقاء مع قنصل يدير شئونهم (١٠) • وطالبت الجمهورية مرارا بتعويضها عن المعاملات

---

(٩) فى معاهدة الصلح ، ذكر اقرباء الملك فقط باسمائهم • وبالنسبة لبـاقى الرهائن ، انظر :

— Machairas, p. 306 et s., et Bibliothèque de l'Ecole des chartes, 1873, p. 80-84.

(١٠) انظر المرسومين بتاريخ ٨ مايو ١٣٧٣ و ١٣ فبراير ١٣٧٥ فى :
Mas Latrie, II, 363 et s.

السيئة التى كابدها البايل عند تفتيش منزله ، ولكنها لم تحصل من دوق جنوا الا على وعود غامضة ، وأعذار واهية (١١) . هذه الصعوبات بالاضافة الى صعوبات أخرى أدت الى نشوب حرب عرفت باسم حرب « كيوجا » Chioggia . وما ان اندلعت هذه الحرب حتى انضم بطرس الثانى الى الحلف الذى تكون بين برنابو فيسكونتى Bernabo Vidconti دوق ميلانو ، ودوج البندقية لمحاربة جنوا برا وبحرا (١٢) . واستنادا الى هذا التحالف الذى تدعم أيضا بزواج الملك المقبل بالأميرة فالنتين دى ميلان ، مضى الملك بجيش ضرب الحصار أمام فاماجوستا . وساندت السفن الحربية البندقية التى أحضرت الأميرة (١٣٧٨) (١٣) عملياته من البحر ، كما اتفق على ذلك فى المعاهدة . وكاد هذا الهجوم المشترك ينجح ، الا أن بطرس تخلى عن المشروع (١٤) ، وكان هو الذى نقض معاهدة التحالف ، وزاد هذا من سوء موقفه ، ولم يبق أمامه سوى أن ينتظر يوما بعد يوم نتائج الثأر من جنوا . وفى هذه الأثناء قبلت القوى المتحاربة الأخرى وساطة أميدا السادس Amédée VI كونت دى سافوا ، وتوصلت الى عقد معاهدة صلح متين (معاهدة تورينو فى ٨ من أغسطس ١٣٨١) . واذ حدد أميدا مهلة أقصاها خمسة عشر يوما لاجتماع المندوبين المفوضين ، كان من المستحيل تماما على ملك قبرص أن يوفد من يمثله فى جلسات المؤتمر (١٥) ، وبذل سفراء حميه ، برنابو ، وسفراء جمهورية البندقية جهودا فاشلة لكى تشمله معاهدة الصلح (١٦) . ولاشك أن هذا كان باعثا لدوق ميلانو لأن يكف عن الاشتراك فى المفاوضات ، ولما لم يكن للبنادقة

---

(١١) رد الدوج على مطالبة من حكومة البندقية ، محررة فى عام ١٣٧٦ . انظر :
Mas Latrie, II, 364 et ss. (Commem. reg., III, p. 132, no 22)

ـ انظر الاعمال التمهيدية لصلح تورين فى :
Casati, La guerra di Chioggia e la pace di Torino, Firenze, 1866, p. 186 et s., 205, 223-225; Dondolo, p. 443; Sanuto, Vite dei dogi, p. 679.

(١٢) Mas Latriel, II, 370-372 ; Commem. reg., III, p. 136, no 42 ; p. 138, no 51 et s., p. 142 et s., no. 72.

(١٣) بخصوص وقت سفرهم ، انظر :
Osio, Documenti diplomatici trattii dagli archivj Milanesi, I, 197 et s., et Mas Latrie, III, 378.

(١٤) Dandolo, pp. 444 ; Santo, p. 881 ; Chron. Tarvi., dans Murat., ss., XIX, 761 ; Stella, p. 1109.

(١٥) Casati, l.c., p. 175-179.

(١٦) Mas Latrie, II, 378 et s.

نفس الأسباب للالحاح على هذا المطلب ، فانهم لم يجعلوا من هذا الشمول شرطا حتميا ، كذلك لم يلح أميديه على ذلك ، مع كونه الوسيط ، وهكذا ترك بطرس تحت رحمة انتقام جنوا (١٧) ، الامر الذى لم يكن تصرفا شريفا من جانب حلفـــائه • ولم يفت السفراء الجنويون أن يصفوه بأنه مصمم على اتباع أسلوب الحرب ، وطالبوا البندقية بأن تتعهد بعدم التدخل فى شئون قبرص طالما اســتمر هذا الوضـــع • فلم يستطع المبعوثون البنادقة رفض هذا الطلب (١٨) ، وفشلت كل المحاولات التى بذلت بعد ذلك للوصول الى عقد معاهدة صلح منفرد بين جمهورية جنوا وبطرس الثانى (١٩) • ولحسن حظ الأخير ، اضطر الجنويون لاستخدام كل مواردهم فى الانفاق على الحرب الأخيرة ، وخرجوا منها منهوكى القوى ، حتى انهم لم يتعجلوا تسوية حساباتهم معه • ومات بطرس الثانى(١٣٨٢) قبل أن تستعيد جنـــوا قواها بدرجة كافية لأن تجعله يكابد وطـــأة انتقامها • غير أن خليفته جاك الأول Jacques Ier كان آنئذ رهينة فى جنوا • وقبل اطلاق سراحه ، طلب منه التنازل عن فاماجوستا واقليم على شكل دائرة نصف قطرها ميلان ، والتنازل المطلق عن حقوقه كلها بالمدينة ، والايرادات التى كانت تحصل بها باسم الملك (٢٠) • وبعد أن كانت فاماجوستا مجرد رهينة فى أيدى الجنويين أصبحت ضمن أملاكها الخاصة • وبقى الدين كما هو ، وطلبت الجمهورية رهنا آخر : فاستلمت ميناء قبرصيا آخر ، هو كيرين Cérines • ومع احتلالها البلد ، وافقت على أن تترك للملك ممارسة السلطة القضائيـــة ، وتحصـــيل الضرائب (٢١) •

وعلى ذلك صار فى وسع جنوا أن تتمتع بملكيتها فاموجوستا دون أية عوائق ، وبالاستقرار المنشود ، وكانت الجمهـــورية ممثلة فيهـــا بالبودستات الذى يتولى شئون الحكم • ولكى يتجلى لأنظار الكافة أهمية

---

(١٧) Chinazzo, dans Murat, ss., XV, 802 ; Bernabo à Amédée (lettre de reproches) dans Cibrario, Storia della manarchia di Savaja, III, 363 et s.

(١٨) Casati, p. 159, 191, 231 ; Lib. jur., II, 872.

(١٩) Cibrario, l. c., p. 261 ; Mas Latrie, II, 379.

(٢٠) ومع ذلك استمرت الاعلام الملكية ترفرف الى جانب الاعلام الجنوية : وكان هذا هو العلامة الوحيدة التى مازالت تذكر بالملكية •

(٢١) نجد نص هذه المعاهدة ، المؤرخة فى ١٩ فبراير ١٣٨٣ فى :
— Speroné, Real grandezza di Genova, 1669, p. 116-137 ; Machairas (p. 337 et ss.) et Strambaldi (Mas Latrie, II, 395).

منصبه ، منح لقبا رنانا Capitanecus et Potestas (٢٢) ، ولايظهر للجمهور الا فى أبهة تتناسب مع مكانته السامية ، ولدينا شاهد على ذلك، هو الرحالة ستيفان فون جومبنبرج Stephan von Gumppenberg ، اذ يذكر فى رواية له أنه حين يتوجه الحاكم الى الكنيسة يتقدمه اثنان من نافخى البوق ، وفارس يحمل سـيفا ، فكأنه أمير من الأمراء (٢٣) وكان البودستات يبسط حمايته السامية الى ما بعد فاماجوستا وضواحيها على كل الجنويين المقيمين فى أية بقعة من الجزيرة . وكان القناصـل الجنويون يتلقون التعليمات من فاماجوستا : والمعتقد أنه كان يوجد كثير من هؤلاء القناصل فى مدن المملكة . وعلى أية حـال فالأمر ثابت بالنسبة الى نيقوسيا (٢٤) . وفى غير المهام الخاصة ، كانت كل الشئون التى يتعين معالجتها مع ملوك قبرص تمر عن طريق حاكم فاماجوستا ، واستثناء عن طريق قنصل المقر الملكى . وتتضمن هذه الشئون المسائل التى تمس أولا مصالح الجمهورية بوجه عام ، ثم تلك التى تمس عددا كبيرا من الأفراد والطوائف الجنوية . وقد رأينـا على سبيل المثال أن الحملة الكبيرة التى قادهـا فى عـام ١٣٧٣ أمير البحـر بييترو دى كامبوفريجوزو لم يمكن تنظيمها الا بفضل اسهام رؤوس الأموال الخاصة التى تكفل أصحابها بكل نفقات التسليح ، وقدم بعض أصحاب السفن ومجهزيها ، والتجار ، وكبـار أصـحاب رؤوس الأموال وصغارهم ، والكنائس ، والأديرة ، قدموا أموالهم وكونوا شركة من نوع الشركات المساهمة Maona di Cipro ، لكل عضو بها نصيب من أرباح المشروع يتناسب مع حصته (٢٥) . كذلك ففى عام ١٣٨٢ جهز بعض أصحاب السفن على نفقتهم السفن الحربية المكلفة بحراسة جاك الأول حتى قبرص ، وأعطى كل منهم ألف سهم جديد فى الشركة (٢٦) . وأخيرا فى عام ١٤٠٢ حين تقرر ارسال حملة جديدة الى قبرص للقضاء على الغارات المتوالية التى يشنها الملك جانوس Janus ضد فاماجوستا ، تكفل بعض الأفراد بنفقات الحملة وكونوا شركة مساهمـة ثانيـة باسـم nova Maona Cypri فى مقابل الشركة الأولى التى كان يطلق عليها اسم Maona vetus (٢٧) ولما كان أعضاء أسرة لوزينيان هم

(٢٢) Mas Latrie, II, 402, 482, 496 ; III, 60 ; Casati, La guerra di Chioggia, p. 90 et s.

(٢٣) Ressbuch ses heil. Landes, fol. 243 au verso.

(٢٤) Mas Latrie, III, 26, 45.

(٢٥) Ibid., II, 366 et ss.

(٢٦) Ibid. II, 406, 413.

(٢٧) Ibid, III, 368, 466 et ss., 482, 497, 514, et s., 521 et s.

الذين تسببوا فى كل هذه النفقات ، فانهم تعهدوا بسدادها كلها : وعلى ذلك صارت الشركتـــان دائنتين لملوك قبرص ، وكان لهما بهذه الصفة محصلون massarii (٢٨) يستلمون المبالغ من الجباة الملكيين ، ويرسلونها الى جنوا • وكانت تسوية الاستحقاقات موضوعا لمفاوضـات طويلة بين جنوا وقبرص ، ويترتب عليها فى كثير من الأحيان تبادل رسائل غير سارة • ذلك لأنه من ناحية ، اذا كان الدين المفروض على الملوك مرهقا فى الظروف العادية ، ويغدو فادحا حين تقل المحصولات ، أو على أثــر غارات يشنها المسلمون ، فمن ناحية أخرى كان كثير من الناس فى جنوا يعانون ضائقة مالية اذا لم تصلهم الأرباح من قبرص (٢٩) ، وفى غير هذه المسألة ، تدخل الموضوعات التى تناقش بنـــوع خاص فى نطاق العدل والشرطة البحرية ، ومن ناحية التجارة ، كانت الأمور كلها تدور حول نقطة واحـدة بالغـة الأهمية لايمكن أن تتنازل جنوا بشأنها قيد أنملة • فالواقع أن فاماجوستا كانت قبل الاحتــلال الجنوى المركز التجـارى الرئيسى لقبرص • وبعد الاحتلال ، استغلت جنوا تفوقهـا المعنـوى فانتزعت من الملوك وعدا بالا يفتحوا للتجـارة فى الجزيرة أى مينـــاء خلاف ميناء فاماجوستا (٣٠) ، ولكنها رخصت بدخول السلع الاستهلاكية، والرقيق ، والمواشى بلا قيود فى سائر موانى الجزيرة ، وخروجها منها • ثم ان هذه القيود التى فرضها الجنويون لم تسر على الملاحـة الساحليـة بين موانىء الجزيرة ، كذلك وافق الجنويون على أن يستثنوا من هذه القاعدة العامة ميناء لارنكا Larnaca من حيث تصدير الملح ، وميناء ليمســـو Limisso وبعض الموانىء الأخـــرى لتصـدير الخروب ، واحتفظ مينـــاء كـــيرين Cérines على الســـاحل الشـمالى للجزيرة بحق التبادل التجارى مع ســـاحل آســـيا الصغرى (٣١) ، المجاور له • وعلى هذا النحو ، ووفقا للمعاهدات ، وباستثناء ما رخص به للملاحة الساحلية ، الكبيرة والصغيرة ، كانت التجارة كلها متركزة فى فاماجوستا • ويتضح هنا ما كان لهذا الوضع من مشقة بالنسبة للملوك • وحتى مدينة نيقوسيا ، مقر ملوك قبرص ، لم يعد فى وسعها أن تستورد

(٢٨) Ibid. II, 406 ; III, 46.

(٢٩) Mas Latrie, II, 482, 522 ; Sperone, Real grandezza di Genova, p. 161.

(٣٠) يبدو ان هذا الاحتكار سبق النص عليه فى صالح فاماجوستا فى عبـــارة بمعاهدة عام ١٣٧٤ (Lib. jur., II, 809) • ومعاهدة ١٣٨٣ اكثر صراحة فى هذا الخصوص •

(٣١) Sperone, l.c., p 123 ; Machairas (p. 342) ; (Cf. Mas Latrie, II, 395; III, 80)

أو تصدر شيئا الا عن طريق فاماجوستا • ولم تكن جنوا لتتساهل في شيء يمكن أن يمس احتكارها (٣٢) • وقد أبانت رئاسة البندقية لجانوس Janus الى أي حد يضر هذا النص في المعاهدات المبرمة مع جنوا بمصالح البنادقة ، وبالمزايا التي تكفلها لهم الحرية المطلقة في الحركة التجارية (١٤١١) (٣٣) : ولكن ماذا كان في وسعه أن يفعله ؟ وانتقلت رئاسة البندقية من التنبيه الى التهديد ، وأعلنت عزمها على الا ترضخ لهذه الأحكام • ومن التهديد انتقلت الى التنفيذ • واذا كانت المصادر قاصرة في هذا الخصوص ، فلا شك أننا نجد أمثلة أكثر وفرة من أن نذكرها هنا • فالواقع أن السفن البندقية القاصدة الى بيروت كانت كثيرا ما تتوقف عند ليمسو ، أو بافو (بافوس) أو كيرين ، ذهابا وايابا ، أو كانت تشحن في بيسكوبي Piscopi محصولات مزارع قصب السكر التابعة لآل كورنارو Cornaro (٣٤) والتي يجب ، أسوة بغيرها من المحاصيل أن تمر بفاماجوستا (٣٥) • وثار غضب جانوس من هذا الانتهاك للمعاهدات فاحتل عسكريا مزارع بيسكوبي : ولم يدم هذا الاحتلال سوى بضع سنين ، استرد بعدها آل كورنارو حقهم في استغلال مزارعهم (٣٦) •

وقد يميل الفكر السطحي الى الظن بأن الأحداث التي أدت الى انتقال فاماجوستا من أيدي آل لوزينيان الى جمهورية جنوا لابد قد أحدثت تغيرا لصالح تجارة قبرص التي كان هذا الميناء مركزا لها ، ذلك لأن أمراء أسرة لوزينيان لم يكونوا يبعثون بأنفسهم نشاطا كافيا في الحركة التجارية في حين كانت جنوا في العصور الوسطى في مقدمة الدول التجارية الكبرى • والحقيقة أنه منذ أن صار الجنويون أصحاب السلطة المطلقة في فاماجوستا ، نهضت تجارتهم مع هذا الميناء نهضة كبيرة (٣٧) •

---

(٣٢) Mas Latrie, II, 403, 476, 496 ; III 37.

(٣٣) Mas Latrie, II 457 ;

ـ نجد الاعتراض نفسه في عام ١٤١٤ : انظر : Ibid, II, 458.

(٣٤) Ibid. II, 400, not. 2, 483, 503.

(٣٥) تتضمن معاهدة تورين لعام ١٣٨١ إحكاما خاصة بهذا الموضوع •

انظر : Lib. jur., II, 872 et s.

(٣٦) Mas Latrie, II, 503.

(٣٧) يعتقد السيد ماس لاترى Mas Latrie (II, 367) أن «ماهون» قبرص نشأ في صورة شركة تجارية بالمعنى الصحيح في حماية الدولة ، ونعتقد أنه من الصعب عليه أن يثبت ذلك • فالغالبية العظمى من « الماهونيين » تطأ أقدامهم جزيرة قبرص ، وكانوا يتمتعون في هدوء بأرباحهم دون أن ينتقلوا من أماكنهم ، وكان التجار وحدهم هم الذين يستبدلون بأرباحهم بضائع •

ولكي نعطي فكرة عن أهميــة هذا الميناء يكفي أن نذكر محتويات شحنة سفن ثلاث أرسلت من جنوا الى فاماجوستا في عامي ١٣٩١ ، ١٣٩٤ . فعند الذهاب حملت هذه السفن مجموعة هائلة من الأصواف من فرنسا ، وفلاندر ، وأسبانيا ، وفلورنسا ، ومن الحديد والقصدير ، والمرجان ، وعند عودتها جلبت معها توابل من كل نوع ، وبخاصـــة الفلفل ، وكذا السكر ، والقطن ، والأقمشة الشرقية من الأنواع المســـماة بوكاســـين Bocassine ، وشملات ، وكاموكا camocas ، وبروكار (ديباج) ، وخيوطا ذهبية ، وخردوات ، وكان عند قباطنة السفن أوامر بأن يشحنوا سفنهم قبل كل شيء ، وبقدر المستطاع توابل ، ثم قطنا ، وسلعا أقل ندرة (٣٨) ، ومع ذلك نتج عن السيادة الجنوية في فاماجوستا حركتان متضادتان . ففي حين ارتفع مجموع مبيعات الجنويين بنـــوع خاص ، وباضطراد ، فان رخاء المدينة نفسها أصابه انحطاط بوجه عام ، ومن الأسباب التي أسهمت بالأكثر في نهضة تجارة جنوا بهذه المدينة أن أمراء أسرة لوزينيان ، سادتها السابقين لم يمارسوا التجارة بأنفسهم ، بل تركوا مطلق الحرية في هذه الممارسة للتجـــار من مختلف الأمم ، وشجعوهم ، ومنحوهم الامتيازات . وما أن حل محل هؤلاء الأمراء أمة من التجار حتى وجد كل التجار القدامى المنافسين عوائق تحد من نشاطهم ، وصاروا يخشون منازعة خصوم أصبحوا أقوياء ، قادرين على سحقهم ، ومن ثم فضلوا الانســـحاب من البلد (٣٩) . ونقتبس هنا من حديث لمستشـــار قبرص ، فيليب دوميزيير Philippe de Maizières (٤٠) مقابلة أجراها بين الماضي والحاضر ، اذ يقول : « فيما مضى ، كان يدخل سنويا في ميناء هذه المدينة من ستين الى مائة سفينة ، كبيرة وصغيرة ، والتوابل ، والعطور ، والشـــملات ، والبروكار المذهب (الديبـــاج) ، والمنسوجات الحريرية ، وباختصار كل كنوز العالم تبدو وكأنها منتجات وطنية ، ومنذ أن أصـــبح العـــلم الأبيض ذو الصليب الأحمر يرفرف على المدينة ، نمت الأعشاب الشوكية في شوارعها » . ولاشك أن هذا القول فيه مبالغة شديدة ، وبخاصـــة في أوائل عهد الاحتلال الجنوى ، وهذه هي بالذات الفترة التي عاش فيها المستشار ، ولكن هذه الصـــورة في مجموعها تمثل حقيقة لا جدال فيها . وفي رأي فيليب دوميزيير أن الذي جعل فاماجوستا مكانا شبه صحراوي هو « استبداد الجنويين وطغيانهم ،

---

(٣٨) Mas Latrie, III, 774-777.

(٣٩) Piloti, p. 367.

(٤٠) Mas Latrie, II, 390

جشعهم الشديد » (٤١) • ولا ننسى أن فيليب دو ميزير شاهد منحاز : فقد منحته جمهورية البندقية حق البورجوازية (٤٢) مكافأة له على ما أبداه لها من دلائل الود والاخلاص ، ومن ثم فان روح التحزب هي التي أملت أقواله التي تعبر عن الحقد والكراهية التي أوردناها هنا • ولنا أن نستنتج اذن أن الجنويين فرضوا في ميناء فاماجوستا على سائر الأمم التجارية رسوما جمركية فادحة • ولكن هناك رأيا مخالفا لهذا ، يتبدى لنا اذا عرفنا الشروط التي وافق عليها في عام ١٣٩٥ جنوى يدعى كورادو سيجالا Corrado Cigala عندما حصل على الالتزام العام بجمارك فاماجوستا، وهي شروط كانت بالتأكيد مفروضة على أسلافه ، كما فرضت على من خلفوه • ونص في العقد على أن البنادقة لايدفعون عند الدخول وعند الخروج رسوما غير التي يدفعها الجنويون ، أي ١٪ ، و ½٪ فقط عن الذهب والفضة والأحجار الكريمة • وبالنسبة لرعايا الأمم الأخرى بوجه عام ، لايرفع السعر الجاري حتى يوم استلام الملتزم الجديد مهام وظيفته• وبالنسبة للقطالونيين والبروفانسيين ، يلتزم بالتعريفة المتفق عليها معهم في عام ١٣٩٠ (٤٣) ، ولم تصلنا أية معلومة عن هذه التعريفة • ومع ذلك يمكن التسليم بأن المستشار حين أشار الى ضروب الابتزاز ، والاجراءات التعسفية ، والمكائد من كل نوع التي كانت الأمة السائدة تمارسها في أحوال كثيرة ضد منافسيها ، لم يذكر اتهامات لا أساس لها ، وفيما يلي براهين على ذلك فيما يختص بالبنادقة حيث كان في قبرص موانيء ترسو عندها سفن تنتمي الى جنسيات خلاف الجنسية الجنوية ، ولكنا رأينا أن المعاهدات انتزعت من ملوك قبرص سلطة فتح هذه الموانيء لتجارة الغربيين • ولحسن حظ التجار الغربيين أن الحظر القديم للاتجار مع مصر وسوريا قد أهمل وصار غير معمول به ، ومن ثم استفاد هؤلاء التجار في التردد من جديد على الأماكن التي كانت مخصصة قبلا لتجارة التوابل • وترتب على ذلك أن عددا كبيرا من التجار الأجانب في جنوا صرفوا النظر عن سوق فاماجوستا ، وفضلوا عليها بيروت ، ودمشق ، وحلب ، والاسكندرية ، سواء على أنها غاية رحلاتهم ، أو لينشئوا بها وكالات تجارية (٤٤) • واذا لم تكن فاماجوستا قد تأثرت بهذا التغيير

(٤١) Ibid. II, 383.

(٤٢) Ibid. II, 272 ; Nouv. preuves, dans la Bibl. de l'Ecole des Chartes, 1874, p. 74-77.

(٤٣) Mas Latrie, III, 787 et ss.

(٤٤) Piloti, p. 366 et s.

اولريك ليمان Ulric Leman (Cod. germ. Monac., no 692, p. 46). يصدق على الواقعة (واقعة الهجرة) ويشير اليها آسفا لأنها تجعل التجار الغربيين تابعين للمسلمين • ويقول مارشيراس من جهته : Maschairas (p. 49) =

بالصورة التى وصفها فيليب دو ميزيير ، فمن المؤكد أنها فقدت الشيء الكثير •

هكذا رأينا العواقب التى نتجت للبنادقة من جراء استيلاء الجنويين على فاماجوستا • وقد استدعت حكومة الجمهورية من هنـــاك جاليتها وبايلها ، ولم تترك سوى رقيبين لحراسة منزل البايل ، ودار البلدية • وفى عام ١٣٣٨ اعتزمت سحب قرارها هذا (٤٥) الا أن حرب شـــيوجا Chioggia كانت مستعرة ، ولم تكن الظروف ملائمة لاســـتعادة الحركة التجارية بصورة جدية • وطالت هذه الحال حتى عام ١٣٨١ ، حيث أعاد صلح تورين حرية المواصلات • وفى أثناء المفاوضات التمهيدية رفضت جمهورية جنوا ــ متذرعة بحجج مختلفــة ــ الطلبات التى قدمها الرعايا الجنويون لتعويضهم عما لحقهم من أضرار بسبب تصرفات تتصل بحملة كامبو فريجوزو (٤٦) • الا أنه ما أن تحددت نصـــوص معاهدة الصلح حتى وعدت جنوا باطلاق حرية التجارة للرعايا البنادقة الذين يريدون التردد على ميناء فاماجوستا ، ومعاملتهم من حيث الرسوم التى يدفعونها كما يعامل رعاياها (٤٧) • وقد رأينا أنها أوفت بما وعدت • ولسوء الحظ ، لم يراع الضباط الجنويون فى فاماجوستا هذا الوعد ، وكثيرا ما عاملوا التجار البنادقة بخشونة ، وأصـــدروا ضدهم أحكاما تعسفية بالمصادرة (٤٨) • ومع ذلك لابد أن نضيف أنه فى الحالتين من هذا النوع ، اللتين وصلتا الى علمنا ، رفع الضحايا شكواهم فى الحالتين من فأصدرت السلطات أحكامها لصالحهم ، وتجددت الخصومات بين الجنويين والبنادقة مرارا ، وأرادت السلطات البنـــدقية أن تضــع حـــدا لذلك ، فحظرت مرارا عديدة ، فى عامى ١٤٠١ ، ١٤٠٨ على أرباب السفن والتجار الرســـو بسفنهم على ســـواحل قبرص أو اجـــراء مشتروات مـــن فاماجوستا (٤٩) • أما ملوك قبرص ، فانهم منذ أن صاروا أتباعا لجنوا بصورة مشينة ، أثاروا كثيرا من المنازعات مع البنادقة (٥٠) • فكانوا على

= انه بعد وفاة بطرس الاول ، تحولت الحركة التجارية كلها الى سورية • وان المسلمين هم الذين استفادوا من هذا الانتقال •

(٤٥) Mas Latrie, II, 364.

(٤٦) Casati. p. 186 et s., 223-225.

(٤٧) Lib. Iur., II, 373.

(٤٨) M. de Mas atr (II, 402 et s.).
ــ يذكر السيد ماس لاترى واقعتين من هذا النوع حدثتا فى عامى ١٣٩٠ ، ١٣٩٨ •

(٤٩) Mas Latrie, II, 445 ; Sathas, Doc., II 209 et s.

(٥٠) Mas Latrie, II, 400, 403.

سبيل المثال لايسمحون لهم بالتمتع بامتيازاتهم القديمة ، وحملوهم عبء الضرائب الجديدة التى فرضت فى أعقاب الحرب ضد جنوا (٥١) . وضاعف أعضاء السلك الدبلوماسى البندقى من مساعيهم — دون جدوى — حتى يردوا الى مواطنيهم التمتع الكامل بحقوقهم القديمة ، فلم يوفقوا فى مساعيهم ، لأن حرية التجارة المطلقة كانت جزءا من هذه المساعى ، وقد الغيت هذه الحرية اضرارا بمصالح كل القوى خلاف جنوا ، بسبب الاحتكار المكفول لفاماجوستا . وفى معاهدة جديدة أبرمت مع جنوا فى ٩ من ديسمبر ١٤١٠ ، سمح الملك جانس مرة أخرى بادراج النص الذى يحظر عليه أن يفتح للتجارة فى اقليم قبرص كله أى ميناء آخر خلاف ميناء فاماجوستا ، فأبدت جمهورية البندقية أنها ترى فى هذا الوضع تحديا لها ، وهددت بسحب جاليتها تماما فى غضون تسعة أشهر ، الا اذا أمر الملك باستثناء البندقية على الأقل من هذا الحكم ، ولم تعط مستوطنيها فى قبرص تصريحا مؤقتا بالبقاء هناك الا اذا أرسل الملك مبعوثا الى جنوا للمفاوضة فى اجراء تسوية بهذا المعنى . ولم يكن هذا تهديدا جديا ، فقد رفضت جنوا أن تقدم أية تضحية فى خصوص احتكارها ، ومع ذلك لم يغادر المستوطنون البنادقة جزيرة قبرص . وثمة موضوع آخر للشكوى ، يخص العبء الملقى على عاتق المستوطنين بسبب الضرائب الاستثنائية الجديدة . الا أن الملك صرح للمبعوثين بأنه يستحيل عليه أن يعفيهم منها ، ولكنه وعد بأن يعوضهم ، فيرد لهم كل سنة مبلغ ٤٠٠٠ دينار بيزنطى ، رفعه بعد ذلك الى ١٤٠٠٠ دينار . وتيسيرا له لدفع هذا الايراد السنوى ، سمح له بأن يرسل جزءا منه سلعا من منتجات الأملاك الأميرية ، مثل السكر الأسمر (٥٢) . ومع ذلك كان يتأخر دائما فى السداد ، للحكومة وللأفراد . ووقع حدث سىء زاد بعد قليل من عجز الخزانة . ففى عام ١٤٢٦ وقع جانوس أسيرا فى يد سلطان مصر برسباى ، ولم يسترد حريته الا فى عام ١٤٢٧ بعد أن التزم بدفع جزية للسلطان ، بالاضافة الى فدية قدرها ٢٠٠,٠٠٠ دوكا ، وقد اقترض جزءا من هذا المبلغ من بعض التجار البنادقة ، ذكر منهم تاجر يدعى انجيلو ميشيل Angelo Michiel . الا أن سداد هذه القروض تأخر كثيرا .

(٥١) Ibid, II. 405, 416 et ss.

(٥٢) Mas Latrie, II, 405 et s., 416 et ss., 434 et ss., 455-458.

— هذه الفقرات تضم مقتطفات من التعليمات المسلمة لمختلف المبعوثين الموفدين الى ملوك قبرص بين عامى ١٣٨٦ ، ١٤١٨ . وتعليمات اندريا زين Andrea Zane فى عام ١٤٠٦ هى وحدها التى نشرها السيد ماس لاترى فى : la Bibl. dl l'école des chartes, 1874, p. 110 et ss.

وظلت حكومة الجمهورية تطالب بها على مدى عشرين عاما فأكثر (٥٣) .
ولكى يفى يوحنا الثانى بالدين الذى عليه لمصر أمر بأن يلتزم بالضريبة الأشخاص الذين يطلق عليهم اسم Veneti-albi اذا كان لهم ممتلكات فى الجزيرة . وسبق أن رأينا أن هؤلاء الأشخاص شرقيون ، جعلوا أنفسهم فى حماية البندقية ، وأنهم بهذه الصفة يتمتعون بما تتمتع به البندقية من امتيازات ، وعلى ذلك ففرض الضريبة عليهم انتهاك لحصانة يتمتع بها البنادقة منذ زمن بعيد ، ومن ثم ألحت الجمهورية على ضرورة أن يستردوا المبالغ التى سبق أن دفعوها . وعبثا حاول الملك أن يوضح أن رجال الدين (الاكليروس) . ورهبانية القديس يوحنا ، والجنويين أنفسهم ، وكلهم معافون من الضرائب بحكم القانون ، وهم مع ذلك يسهمون فى دفع الجزية (٥٤) ، ولكن الجمهورية رفضت الاستماع الى حججه . وبوجه عام فان المهمة التى كلف بها مبعوثو البندقية لدى بلاط صقلية لم تكن سوى مقدمة لمهام أخرى . فبعد أن أتموا مهمتهم عند الملك أقاموا بقبرص سنتين بصفتهم « بايلات » (٥٥) ، ومنذ أن صارت فاماجوستا فى أيدى الجنويين ، انتقل مقر المبعوثين البنادقة الى نيقوسيا (٥٦) . وهكذا فانهم كما رأينا استهلوا كل مهمة بادعاءات ، ومطالبات ، وتهديدات وكان عزل البايل من الاجراءات التى كانت جمهورية البندقية تستخدمها كثيرا ، ولكن يبدو أنها لم تنفذ هذا الاجراء بالفعل الا مرة واحدة (٥٧) . وكان هذا الاجراء شديدا للغاية ، وكان خطراً ، لما يترتب عليه من عواقب ، فلا يتسنى اللجوء اليه كثيرا . وفى عام ١٣٩٠ صدر مرسوم يحدد من جديد اختصاصات البايل (٥٨) . وعين المرسوم مرتبا للبايل ، يتمثل فى الايراد الذى يدين به ملك قبرص للجمهورية ، وقدره ٤٠٠٠ دوكا ، ولكن عليه أن ينفق من هذا المبلغ على مصروفات خمسة خدم ، وكسوتهم ، وكاتب كنسى ، ومرود جياد ، وطباخ ، وخادمين للاسطبل ، وستة جياد ، ولم تكن الجالية تزوده بغير ثلاثة رقباء عسكريين (٥٩) تؤخذ مرتباتهم من رسوم الدمغة وايجارات

---

(٥٣) Mas Latrie, II, 30 et ss. ; Bibl. de l'Ecole des chartes, 1874, p. 136, 147-151.

(٥٤) Bibl. de l'Ecole des chartes, 1874, p. 151-158.

(٥٥) Mas Latrie, II, 405, 416, 418, 456 ; III, 102.

(٥٦) Mas Latrie, II, 420; Viggio a Gerusalemme di Niccolo da Este, p. 131 ; Geo. Bustron, dans Sathas, Bibl. graec., II, 476.

(٥٧) Bibl. de l'Ecole des chartes, 1874, p. 138.

(٥٨) Mas Latrie, II, 418-420.

(٥٩) فى عام ١٣٧٢ كان العدد محددا باثنين (Ibid. p. 362)

المنازل التابعة للجمهورية · وكان البايل ، كما كان من قبل يعاونه مجلس من اثنى عشر عضـــوا مختـــارين من بين النبـــلاء المقيمين فى قبرص : nobiles de majori consilio : وكان هذا اللقب يطلق على الأسر التى يدخـــل أعضـــاؤها بصفتهم هذه فى مجلس البندقيـــة الكبير · ويتولى اثنــــان مـــن الموظفين فى مجلس الاثنى عشر شـــــئون الخزانة والحسابات الخاصة بالجالية (٦٠) ، فاذا لم تكف رسوم الدمغـــة ، وايجارات المنازل وغيرها من الايرادات العادية لتغطية المصروفات ، كان مرخصا للمجلس بتغطيتها بفرض ضرائب استثنائية (Contimum) على السلع وممتلكات المستوطنة ، على الا تتجاوز قيمـــة هذه الضرائب نصابا محددا ·

لقد قلنا كل ما عرفناه من المصادر عن وضع البنادقة فى قبرص فى الفترة التى كانت فيها فاماجوستا فى أيدى الجنويين · وفى بداية هذه الفترة نصادف هناك البيزيين · ففى عام ١٣٧٢ أوفد كولو دى سالمولى Colo de Salmuli فى مهمـــة لدى بطـرس الثـــانى ليطلب منه تجـــديد امتيازاتهم القديمـــة (٦١) ، فأدى مهمته بنجـــاح · وعنـــدما حـــرر ترونسى Tronci حولياته ، كان تحت أنظاره « دبلوم » أصدره هذا الأمير ، ولكنـــه فقد فيما بعد ، ويضيف المؤلف بهذه المناســـبة أن فى السنة ذاتها ، ١٣٧٢ ، سافر بييترو دا فيكيانو Pictro de Vecchiano الى فاماجوستا حيث شـــغل منصب قنصـــل بيزا فى قبرص ، ويؤيد هذه الواقعـــة بوجـــه عام دفاتر حسابات مدينة بيزا (٦٢) ، حيث نجـــد مذكرتين عن مبالغ مدفوعة لبييترا دا فيكيانو عند رحيله ليشغل منصب القنصر فى فاماجوســـتا ، والمذكرتان بتـــاريخ ١٧ يوليـــة ، ١٧ أغسطس ١٣٧٣ · ولما كان هناك أيضـــا مرسوم بتاريخ ١٩ مايـــو ١٩٧٣ بتعيين شـــخص آخـــر اســـــمه مونى ديل ســــــيللاريو Moni del Sellario فى هـــذا المنصـــب نفســـــه (٦٣) ، فانه يبدو أن هناك تناقضا فى هذا الخصوص : وفى رأيى أن الطريقة الوحيدة للخروج من هذا المأزق هى التسليم بأن هذا الأخير رفض تعيينه ، وأن

---

(٦٠) فى عام ١٣٥٨ ألحق بالبايل مستشاران لرقابة الحسابات ·
Mass Latrie, II, 222.

(٦١) Bibl de l'Ecole des chartes, 1874, p. 104-106.

Tronci, Annali Pisani, p. 435.

(٦٢) مذكرة بونينى Bonaini عن الفقرة التى كتبها رونسيونى Roncicni التى تذكر بعد قليل ·

(٦٣) Bibl. de l'Ecole des chartes, 1874, p. 196 et s.

بييترو دا فيكيانو عين بدلا منه ، وفى هذه الحالة يـكون قد سـافر لا فى عام ١٣٧٢ كما يقول ترونسى ، ولكن فى عام ١٣٧٣ كما يروى رونتشيونى Roncioni (٦٤) ومهما كان الأمر ، فالثابت أن قنصلية بيزا كانت موجودة فى فاماجوستا فى أوائل القرن الرابع عشر ، وأن حى البيزيين كان يمتاز على سائر الأحياء الغربيـة بجماله (٦٥) • وكانت فلورنسا قبـل ذلك تؤدى فى الخارج دورا أهـم من الدور الذى تؤديه بيزا • فثمة اثنان من ملوك قبرص ، جـاك الأول (١٣٨٢ ـ ١٣٩٨) Jacques Ier ، وجاك الثانى le Bastard (١٤٦٠ ـ ١٤٧٣) أكرموها بأن منحا تجـارها ، بمحض ارادتهما ، امتيـازات خاصـة ، لتشجيعهم على التردد على الجزيرة • وعلى هذا النحو ، عمل الملكان على نهضـة التجـارة • وكان لجاك الثـانى بواعث خاصـة للتعاطف مع هذه الجمهـورية : ذلك لأن ثمـة فلورنسيا يدعى يانوزو سـالفياتى (٦٦) Janozzo Salviati خدمه باخلاص حين كان يدافع عن تاجه ضد منافسيه • وأظهر له الفلورنسيون اعترافهم بجميله بأن ضاعفوا علاقاتهم التجارية بمملكته • وفى عام ١٤٦٥ طلب الفلورنسيون اعفاءهم من رسوم الميـناء والعلم بالنسـبة للبضـائع التى يعيـد أصحابها تصديرها لأنهم لم يجدوا من يشتريها فى قبرص ، ولابـد أن طلبهـم هذا قد حظى بالقبول (٦٧) • ولا تنبئنا المصادر الفلورنسية الا باسم قنصل فلورنسى واحد فى قبرص، هو مايو سكوارتشيالوبى mario Squarcialupi (٦٨)، وكان لمونبيلييه وقطالونيا دائما قنصلية فى فاماجوستا ، نجد الدليل على ذلك فى وثائق خاصـة بالتعيين فى هذا المنصـب فى عـام ١٣٨١ (مونبيلييه) (٦٩) ، وعامى ١٤١٥ ، ١٤٢٩ (برشلونة) (٧٠) • وفى عام ١٤١٥ كان الشخص الذى عينته سلطات برشلونة فى منصب قنصل قطالونيـا فى فاماجوسـتا جنـويا يدعى رفائيـل دى بوديـو Raphaïl de Podio ، ولعـل هذا يبعث على الظـن بـأن الميـنـاء

---

(٦٤) Roncioni, Istorie Pisane (Arch. stor. ital., VI, I), p. 913.

(٦٥) Piloti, p. 366.

(٦٦) Doc. sulle relaz. tosc., p. 142 et s., 191 et s . ; Mas Latrie, III, 154 et ss.

(٦٧) Doc. sulle relaz. tosc., p. 2/3, 206 ;Cf. Amari, Dipl. arab., App., p. 41.

(٦٨) Mas Latrie, III, 286, not.

(٦٩) Mas Latrie, II, 268, not.

(٧٠) Ibid. III, 800 et ss. ; Company, Memorias, II, app., p. 59, 61. Capmpany, l.c., p. 53, 54,

يتردد عليه السفن التجارية القطالونية ، ولكن الجالية لم تكن كبيرة العدد بحيث يكون لها قنصل من أفرادها • ولكن هذا غير صـــحيح ، اذ ذكر صراحة فى الوثيقة الرسمية أن الجنوى المشار اليـــه ســـوف يمارس الاختصاصات الادارية والقضائية المعهود بهـــا اليه ليس فقط بشـــأن المسافرين القطالونيين الكثيرين الذين يمرون بفاماجوستا (٧١) ، ولكن أيضا بشأن القطالونيين المقيمين بها • وهناك أدلة أخرى تثبت وجود هذه الجالية • من ذلك مثلا أنه فى عام ١٣٨٧ توفى فى قبرص أحـــد وكلاء بيت تجارى قطالونى تاركا بضائع وأموالا أخرى • وفى عام ١٤٣٥ تكررت الحالة نفسها مع بورجوازى من برشـــلونة ، وفى كل من الحالتين كان الملاك أو الورثة الشرعيون الذين يدعوهم الامر للسفر الى قبرص لتسوية شـــئونهم ، يستلمون عند رحيلهـــم من سلطات برشـــلونة خطابات توصية (٧٢) • يســـتلمون عند رحيلهم من ســـلطات برشـــلونة خطابات تحمل اســـم فريد Ferrer نهبهـــا بعض القراصنة الأتراك فى عام ١٤٣٤ وخـــربوا ممتلكاتهـــا الواقعـــة فى كولوس Colossi بالقـــرب من ليميسو (٧٣) •

وهكذا كانت جزيرة قبرص ، وفاماجوستا بنوع خـاص على الدوام ملتقى التجار من مختلف الأمم • الا أن عـــدد هؤلاء تناقص سريعـــا ، كما تناقص عدد السكان (٧٤) • وفى ميزانيـــة المدينة زادت المصروفات كثيرا على الايرادات • وفى عام ١٤٤٧ أوفدت بعثة من بورجوازى فاماجوستا الى جنوا لتعرض على حكومتها الحالة السيئة التى كانت عليهـــا ماليـــة المدينـــة ، وعزت هذه الحـــالة الى ســـوء الادارة التى يتولاها قدامى الموظفين (٧٥) وبعد انقضاء بضع سنوات ، نسبت الأحوال السيئة كلها الى ضريبة جديدة فرضت فى عام ١٤٤٥ ، وقيل انها أضرت المدينة لأنها

---

(٧١) اقلعت سفن من برشلونة الى قبرص فى عامى ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ : انظر :
Ma Latrie, II, App., p. 59, 61.

ـ وتجار قطالونيون يسلمون جاك الثانى بضائع ويستلمون ثمنا لها سكرا (١٤٦٨)•
انظر : Mas Latrie, III, p. 220.

(٧٢) Capmany II, 176 et s., 223.

(٧٣) Sanuto, Vite dei dogi, p. 1037.

(٧٤) يقول الحاج ستيفان فون جومينبرج (١٤٤٩) انه يرى فى فاماجوستا أجمل البيوت ولكنها خالية مهجورة •
Reyssbuch des heil. Landes (1534), fol. 243 au verso

(٧٥) Mas Latrie, III, 35.

أزعجت التجار والبحارة (٧٦) . وقد سبق أن أوضحنا أن السبب الحقيقي لاهمال فاماجوستا وافتقارها هو الاحتكار الذى كان فى صالح جنوا : وهو احتكار بغيض بالنسبة لسائر الأمم التجارية حتى انها فضلت الاتجاه الى أماكن أخرى ، الى بيروت أو الاسكندرية . وفى عام ١٤٤٧ ارتأى لحكومة جنوا أنها وجدت علاجا للعلة التى أضنت هذه المستعمرة ، فعهدت بادارتها لوكالة سان جورج التى اشتهرت فيما بعد باسم بنك سان جورج . ونحن نعرف من قبل جمعية ملتزمى جباية الضرائب ، ومنذ عام ١٤٠٨ اندمج « الماهون » القديم القبرصى مع هذه الجمعية (٧٧) . وجاءت الأحداث مخيبة الأمل الذى انعقد على كفاءة رجال المال القائمين على رأس الشركة : فالمعاهدة التى تنازلت لهم عن ادارة المستوطنة عقدت لتسع وعشرين سنة ، الا أنهم لم يتمتعوا بهذه الوصاية الا لمدة سبع عشرة سنة . فالواقع أن مالم يستطع الكثير من ملوك قبرص الحصول عليه بقوة السلاح أو بالدسائس البارعة ، أو بعروض الاسترداد (٧٨) ، حققه جاك الثانى بهمته الشخصية ومواهبه العسكرية . فبعد حصار طويل تغلب على دفاعات فاماجوستا ، وضم هذا الموقع من جديد الى مملكته (١٤٦٤) (٧٩) ، وكان هذا بمثابة سقوط الامتياز الذى استمات الجنويون فى الدفاع عنه ، فلم يجدد جاك هذا الامتياز (٨٠) ، اذ لم يكن لديه أى باعث لمحاباة فاماجوستا اضرارا بسائر موانى الجزيرة .

ومهما كانت الخدمة التى أداها جاك الثانى للملكة باستعادته مدينة انتزعت منها منذ أكثر من تسعين سنة خدمة عظيمة ، الا أنه كان يعتبر مع ذلك مغتصبا ، ويشعر بالحاجة الى توطيد مركزه على العرش بتحالفه مع دولة كبيرة . ففى عام ١٤٦٦ تقرب الى جمهورية البندقية (٨١) . ووعد بالطبع بأن يحسن وفادة التجار البنادقة فى فاماجوستا ، وتعزيزا لصدق نواياه ، طلب من رئاسة الجمهورية أن تختار له زوجة . وفى

---

(٧٦) Ibid, III. 57,...

(٧٧) Mas Latrie, II 493 et ss. ; III, 34 et ss.

(٧٨) بخصوص عروض الاسترداد هذه ، انظر :
— Bibl. de l'Ecole des chartes, 1874, p. 130-133.

(٧٩) لم يستدل على المدينة الا يوم ٢٩ من أغسطس (Georg. Bustron, dans Sathas II, 469) بينما وقع على شروط التسليم فى ٦ من يناير . انظر :
— Flor. Bustron., dans Mas Latrie, III, 170 et s.

— وبقى الباعث على هذا التأخير بلا تفسير ، انظر ملحوظات السيد ماس لاترى :
Mas Latrie, III, 128, not., 170, not.

(٨٠) Mas Latrie, III, 486 et s.

(٨١) Mas Latrie, III 173 et s.

البداية اختارت له رئاسة الجمهورية أميرة من الأسرة الامبراطورية البيزنطية ، وهى ابنة طاغية المورة ، ولكنها علمت بعد قليل ان نبيلا ثريا من النبلاء البنادقة ، يقيم فى قبرص ، واسمه أندريا كورنارو Andrea Cornaro أوصى باختيار ابنة أخيه كاترين Catherine زوجة للملك ، ومن ثم ابدت رياسة الجمهوريه بحماس هذه الفكرة ، وعملت بكل مافى وسعها على تحقيقها : وكان هذا بالفعل تدبيرا مواتيا لصالح الجمهورية • وأبدى جاك الثانى موافقته ، وبدأت فى الحال المفاوضات التمهيدية • فليس من المستغرب اذن أن يبادر الملك فى عام ١٤٦٧ بالتصديق على امتيازات البنادقة فى الجزيرة ، ويستجيب بحماسه لمطالب الجمهورية وبعض الأفراد (٨٢) • وتمت الخطبة بالتوكيل فى السنة التالية • وفى هذه الأثناء غير الملك رأيه ، ولم يمنعه الاجراء الشكلى من البحث عن زوجة فى جهة أخرى • الا أن الجمهورية كانت تملك الوسيلة لاجباره على الوفاء بوعده ، فاستغلت حقوقها بصفتها حليفة وحامية لتمارس عليه ضغطا سلميا (٨٣) • ولما لم يكن يفوتها بالمرة مصالح تجارتها ، فانها انتهزت الفرصة وانتزعت منه امتيازا جديدا يتمثل فى الاعفاء من رسوم الدخول والخروج بالنسبة الى بضائع البندقية التى تعبر الجزيرة (٨٤) • وفى خريف عام ١٤٧٢ أتم الملك زواجه بخطيبته ، الا أن هذا الزواج لم يدم طويلا ، فقد توفى الملك فى ليلة ٥ الى ٦ من يولية عام ١٤٧٣ ، ولم يعش ابنه الذى ولد بعد وفاة أبيه سوى سنة واحدة • وتركت رئاسة الجمهورية أرملته تتمتع بعض الوقت بمظاهر السلطة ، ولكنها فى عام ١٤٨٩ أجبرتها على التنازل عن الجزيرة للجمهورية وترحل الى البندقية لتعيش بها فى عزلة •

وهكذا تعاقبت الاحتلالات الأجنبية فى قبرص : فقد استهلت احدى القوى التجارية الغربية هذه السلسلة بأن احتلت الميناء الرئيسى للجزيرة ، ثم حلت محلها دولة أخرى ولكنها وضعت يدها على الجزيرة كلها ، ولم يكن فى اعتبارها على الاطلاق أن تجعل من فاماجوستا مركزا لتجارتها فى الشرق الأدنى ، واستمرت السفن البندقية تزور بانتظام ميناء بيروت من جهة ، وميناء الاسكندرية من جهة أخرى (٨٥) • وطالما

---

(٨٢) Mas Latrie, III 176 et ss.

(٨٣) Ibid, III, 307 et ss.

(٨٤) Ibid III, 319.

(٨٥) Malipiero, Annali Veneti (dans l'Archiv. stor. ital., VII).

– يهتم هذا المؤرخ اهتماما دقيقا بتحركات السفن التجارية البندقية الكبيرة ، فيذكر فى غضون العشر سنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الكثير من رحلات هذه السفن =

لم يكن هذان الميناءان مغلقين فى وجه هذه السفن ، فان جزيرة قبرص لم تكن ، ولا يمكن أن تكون سوى محطة ذات موقع ملائم . غير أنه مع ملوك أشداء مثل سلاطين مصر ، كانت فرص الحرب متاحة فى كل لحظة ، فكان التجار البنادقة عرضة لأن يجدوا أنفسهم فى وقت ما وقد استحال عليهم أن يمكثوا فى مصر أو فى سوريا . وفى هذه الحالة تتيح لهم جزيرة قبرص ملجأ قريبا من ساحة أعمالهم التجارية ، ومن ثم يتسنى لهم مواصلة نشاطهم التجارى بشكل ما انتظارا لتحسن الأحوال. وعقدت حكومة البندقيـة العزم على أن تجمع فى يدها القوية كل مواقع بلاد الشرق الأدنى التى لم يزل العنصر الغربى والمسيحى متفوقا فيها ، وتشكل على هذا النحو سدا منيعا قادرا على صـد غزوات العثمانيين . وكانت ترى فى هؤلاء العثمانيين أخطر أعدائهـا ، فتكفلت بقتالهم . ولم يكن احتلالها قبرص سوى مرحلة فى تحقيق هذا المشروع الكبير . وبالنسبة للجزيرة ، انتهى بلا رجعة عهد رخائهـا .. الا أنه بالنظر الى تنظيم أحوال البلد ، وبخاصة تحسين الادارة المالية ، فقد نجم عن قيام نظام الحكم الجديد توقف مؤقت لافتقار البلد ، وتناقص سكانه ، كما انتعشت الصناعة والزراعة (٨٦) . وترتب على هجرة الأفراد برغبتهم الشخصية من جهة ، وغارات القراصنة واختطافهم العمال الزراعيين بنوع خاص حدوث نقص كبير فى تعداد سكان الريف : ومن ثم اهتمت حكومة البنـدقية بعلاج هاتين الآفتين لتحفظ للبلد عنصرا من السـكان لا غنى عنه (٨٧) . غير أن المدن فقدت هى الأخرى قسـما كبيرا من سكانها ، باستثناء نيقوسيا وحدها ، اذ كانت مقر الحكومة المركزية ، وتضم جمعا كبيرا من السكان العاملين ، المشتغلين بالنسيج ، وصباغة الأقمشة مثل « السميث » (نسيج حريرى تخالطه خيوط ذهبية وفضية ــ المترجم) ، والشملة ، الخ فظلت تتمتع بنوع من الرخاء ، وقد ارتفع عدد سـكانها فى عهد سـيادة البندقية من ١٦٠٠٠ نسـمة الى ٢١٠٠٠ (٨٨) . أما فاماجوستا ، فانهـا على العكس من ذلك تأثرت أمدا طويلا بعواقب

= الى بيروت والاسكندرية ، وليس منها رحلة واحدة الى قبرص ؛ والرحلة الوحيدة الى قبرص ، والمذكورة بصفحة ٦١٣ ترجع الى عهد يوحنا الثانى دو لوزينيان (١٤٥٨) .

(٨٦) من الممتع المقابلة بين الاحصائيين الخاصين بانتاج الجـزيرة والمنشورين فى : (Mas Latrie, III, 496 et ss., et 534 et s.) ، احداهما عن أواخر القرن الخامس عشر ، والثانية عن حوالى عام ١٥٤٠ . ويتبين فى الاحصائية الثانية ، تحت كل العناوين نموا فى الانتاج .

(٨٧) Mas Latrie, III, 340, 389, 457 et s.

(٨٨) Ibid. III, 487, 490, 496, 534.

الحصار الطويل الذى عانت منه فى عهد جاك الثانى . ففى أواخر القرن الخامس عشر لم يكن سكانها يزيدون على ٦٥٠٠ نسـمة ، ولم يبلغوا رقم ٨٠٠٠ الا فى حوالى عام ١٥٤٠ (٨٩) . ولكى تجذب حكومة البندقية الأجانب الى الجزيرة ، وضعت تحت تصرفهم بيوتا وممتلكات فى الريف ، وأعلنت فى كورفو ، ولبانتو ، ومودون ، وكورون ، وتوبليا (أرجوليس) ، ومونمبازيا أن كل من يرغب فى الهجرة مع أسرته الى فاماجوستا سوف يتمتع بالسفر اليها مجانا ، ويستلم فوق ذلك مؤنا وثلاثة دوكات ، كما جعل المدينة ملجأ للمجرمين المحكوم عليهم بالنفى (٩٠) . ومع ذلك لم يكن فى عزمه أن يزيد من رخاء هذا الميناء على حساب سائر مدن الجزيرة . وعلى ذلك طلب سكان فاماجوستا أن يعود ميناؤهم مركزا لتجارة التصدير والتوريد للجزيرة كلها ، وكما كانت الحال فى عهد السيادة الجنوية ، طالب سكان المدينة باحتكار استلام محصول القطن وتصنيعه ، وأن ينقل داخل أسوار المدينة جزء من مصابغ نيقوسيا : ولكن الحكومة رفضت النظر فى هذه المطالب (٩١) . ومن بين موانى الساحل الشرقى الأخرى ، كانت ليميسو (ليماسول) المهجورة ، شبه الخربة تبدو أشبه بالقرية منها بالمدينة (٩٢) أما الين Saline (لارناكا) فانها كانت تبدو بمظهر مختلف عن ذلك كل الاختلاف : فميناؤها ، الحافل دواما بالسفن التجارية ، والبيوت ، والمخازن ، والحوانيت التى تشيد بها كل يوم لصالح التجار كان مثيرا لغيرة سكان فاماجوستا (٩٣) . ومن أسباب رخاء هذا الميناء مجاورته للملاحات المشهورة . ويتبين من رواية فى عام ١٥٦٢ أن هذا الميناء كان يدخله سنويا من خمسين الى ستين سفينة تشحن ملحا فقط (٩٤) . وكان هذا المحصول يصدر الى سوريا واليونان وايطاليا (٩٥) ، والى البندقية بنوع خاص (٩٦) ، ويزود الجمهورية بدخل يقدره الرحالتان جيستل Gistele ، وكرافت Kraft بمبلغ ٢٠٫٠٠٠ أو ٣٠٫٠٠٠

(٨٩) Ibid. III, 496 534.

(٩٠) Ins'ruc'ion rour Bald. Trevisani, datées du 27 Août 1489: Ibid. III, 459 et s.

(٩١) انظر رد الدوق اجوستينو باربارجو على مطالب سكان فاماجوستا فى عام ١٤٩١ فى : Mas Latrie, III, 485 et ss.

(٩٢) Mas Latrie, III, 488; Casola, Viaggio a Gerasalemme, p. 48.

(٩٣) Ma- Latrie, III, 489.

(٩٤) Ibid., III, 554.

(٩٥) Georg. Gemnic., p. 614.

(٩٦) Mas Latrie, III, 555.

دوكا ، وهو رقم أقل بالتأكيد كثيرا من الواقع (٩٧) ، ويمكن رفعه دون خوف الى ٣٠٠٠٠٠٠ (٩٨) • وكان يجرى فى هذا الميناء حركة تجارية متنوعة : فقد اعتاد قباطنة السفن أن يتوقفوا بسفنهم هناك (٩٩) • وفى أواخر عهد سيادة البندقية ، كانت الحركة التجارية بهذا الميناء تعد أكبر حركة تجارية فى جزيرة قبرص كلها ، فكان يوجد به قطن وقمح من المحصول المحلى ، وتوابل مستوردة من طرابلس • وفى هذه الآونة كانت ليميسو قد استردت بعضا من مزيتها باعتبارها مستودعا لمنتجات الجزيرة • وبخصوص فاماجوستا ، فانها لم تعد تذكر فى النهاية على أنها مدينة حصينة (١٠٠) • لقد بذلت الجمهورية جهدا كبيرا ، وأنفقت مالا كثيرا لتجعل منها حصنا منيعا لسيادتها ، ورغم كل شيء تهاوت فى عام ١٥٧٠ أمام هجمات الترك ، وغدت الجزيرة كلها فريسة لهذا الشعب ، وخضعت لحكم القوة الغاشمة ، التى هى وسيلتها الوحيدة للسيطرة ، وتدهورت الصناعة والزراعة والتجارة سريعا ، وهوت الى أقصى درجات الانحطاط •

---

(٩٧) Ghistele, p. 251 ; Kraft, dans la Bibl. des liter. Vereins, LXI, 76.

(٩٨) Mas Latrie, III, 570 ; Georg. Gemnic, l.c.

(٩٩) Bibliothéque re l'Ecole des charles, 1874, p. 152 (Regeste de 1444).

(١٠٠) هذه المعلومات مستقاة من « كوزموجرافيا » من تاليف ايطالى غير معروف ، كتب بين عامى ١٥٦١ ، ١٥٧٠ ، ونشرت فى — Bandini, Biblioth. Leopold., III, p. 349 et ss.

سابعا ـ مصر وسوريا

رأينا فارس وآسيا الوسطى تجوبهما القوافل ، ويتمتعان بالثراء بفضل تجارة مزدهرة ، ثم نجدهما وقد عمتهما الفوضى ، وخربتهما حروب لاتنقطع ، وأصبحت الطرق التجارية غير صالحة للاستعمال • وعلى سواحل آسيا الغربية ، وفى شبه جزيرة البلقان تتلاشى يوما بعد يوم الأقاليم القليلة الباقية فى أيدى المسيحيين ، تحت الموجات العارمة للأتراك والسلاجقة والعثمانيين • وفى البحر الأسود ، والأرخبيل (بحر ايجه) ، والمضايق التى تربطهما لم يعد فى مقدور سفن الغرب التجارية أن تبحر لأنها صارت عرضة لعوائق تتجدد على الدوام • وكان لابد للتجارة ، لكى تتزود بمنتجات الشرق الأدنى ، أن ترتد الى الطرق الجنوبية • اذ تنعم مصر وسوريا فى هذه الآونة برخاء يتزايد ، حتى أواخر القرن الرابع عشر ، ويمتد طوال القرن الخامس عشر كله تقريبا ، ثم يميل هذا الرخاء الى الزوال بسبب جشع سلاطين مصر وطغيانهم غير المحتمل ، ثم يقضى اكتشاف طريق الهند البحرى على هذا الرخاء قضاء مبرما •

ونحن اذ نتتبع قصة هذه النهضة التجارية ، نكرس اهتمامنا بمصر وسوريا ، كل على حدة • ومع أن سوريا كانت من الوجهة السياسية تابعة لمصر ، فقد كان لها من الوجهة التجارية ، على العكس من ذلك أهمية شخصية فى الفترة التى سوف نستعرضها • وسوف نبدأ الكلام طبعا بما يختص بأقوى البلدان • ولكن لم يحدث خلال الثلاثين سنة الأولى من

هذه الحقبة أى حدث يستحق الذكر فى تاريخ التجارة • وبفضل هذا الهدوء استطاعت تجارة الغرب أن تواصل مسيرتها المثمرة ، خاصة وقد عادت الى وضعها الأصلى بفضل صـــلح عام ١٣٧٠ • وانا لننتهز هذه الفرصة فنستهل هذا الفصل بعرض صورة عن حالة التجار الغربيين فى مصر ، استعرناها من المعاهدات ، وأخبار الحجاج ، وحكايات الشخصيات المقيمة بالبلد •

كانت الأغلبية العظمى من السفن الأوروبية تصل الى الاسكندرية حيث كان بها عدد كبير من المكاتب التجارية التى يعقد بها مبادلات ذات أهمية كبيرة • ومع ذلك كانت هذه السفن تزور أيضـــا موانى أخـرى يجب أن نقول عنها بضع كلمات على الأقل • ففى القرن الخامس عشر كان مينـــاء دمياط لايزال يتردد عليه ســفن كثيرة (١) ، ولعل السبب فى ذلك أنه يمكن الحصول هناك ــ أحسن مما يمكن الحصـــول بميناء الاسكندرية العالمى ــ على منتجات دلتا النيل ، كالسكر • وكانت زراعة قصب السكر من أكثر الزراعات التى تجرى فى هذا الاقليم الخصيب (٢)• وكانت هيئة فرسان القديس يوحنا (الفرسان الاستبارية ــ المترجم) تقيم قنصلية بدمياط (٣) ، وتضم المدينة عددا كبيرا من اليونانيين الذين يزاولون بها تجارة منتجات بلادهم ، وبها أيضا جنويون وبنادقة (٤) • وكانت القنصلية البندقية موجودة فى الفترة التى درسناها ، ولم تزل موجودة فى فترة متقدمة من القرن السادس عشر (٥) • وفى غضون هذه الفترة كان تجار جنوب فرنسا يمارسون التجارة مع دمياط ، وبصورة عرضيه على الأقل (٦) • وفى عامى ١٥٠٧ ، ١٥٠٨ دعا السلطان قنصوره الغورى الفلورنسيين أيضا لزيارة هذه المدينة وسائر الموانىء المصرية : وذكر فى خطابه صراحة ، بالاضافة الى ميناء دمياط ، موانىء الاسكندرية ، والبرلس ، ورشيد (٧) • ولعلنـــا نطالع بدهشة هذا الاسم الأخير •

---

(١) Khalil Dhabéri (première moitié du XV siècle) dans de Sacy, Chrestomathie, arabe, II, 7, 8.

(٢) Le voyage d'Outremer de Jean Thenaud, publ. par Schefer (Rec. de voy. et de doc. pour servir à l'hist. de la georg., V (1884), p. 122.

(٣) Charte de 1403. dans Paoli, Cod. dipl., II, 109.

(٤) Thenaud, l.c. ; Ghistele, p. 183, 194.

(٥) Cod. ital. in 4e no 8 de la Bibliothèque de Berlin (p. ex p . 41, 42, 47, 61); Wilken (Abh. der Berl. Akad., ann. 1831, Hist. phil. Cl. p. 29-46) ; Sanuto Diar I, 914, 1032.

(٦) Thenaud (l. c.)

(٧) Amari, Dipl. arab., p. 219, 388.

والواقع أنه حتى أواخر القرن الخامس عشر على الأقل ، كان دخول فرع رشيد محظورا تماما على الغربيين ، سواء منهم القادمون بطريق البحر بقصد صعود مجرى نهر النيل ، أو القادمون من داخل البلد بقصد الوصول الى البحر • وكان الخطر الذى أريد بذلك درءه على نوعين : فكان المعتقد أنه فى وسع الغربيين ، بدون هذا الاحتياط دراسة كل الممرات من هذا الموقع ، واستغلال هذه الدراسة فى يوم ما لادخال أساطيل حربية فى هذا الطريق ، وربما الصعود بها فى فرع النيل حتى القاهرة • ومن جهة أخرى كانت رشيد ميناء البحرية المصرية الكبير ، وكان فى مقدور الغربيين أن يقوموا هناك بعمليات خطرة ، بحجة الذهاب والاياب • واعتقد السلاطين ، وهم دائمو الشك والارتياب ، أنهم يكونون بذلك فى مأمن من كل الاحتمالات • لذلك لم يكن لدى التجار الغربيين من وسيلة سوى استخدام الطريق البرى من الاسكندرية الى رشيد ، فاذا ما وصلوا الى هناك لايمنعهم مانع من صعود مجرى النيل على مركب يصل بهم الى القاهرة ، ويكون الأمر كذلك عند عودتهم ، اذ كان لابد من النزول برا عند رشيد ، ثم الذهاب الى الاسكندرية على ظهور الحمير أو الجمال • وقد قام الحاج مارتن فون بومجارتن Martin von Baumgaarten من الاسكندرية الى القاهرة عن طريق رشيد فى صحبة بعض التجار الايطاليين ، وقطع هانز فون توشر Hans von Tucher (من نورمبرج) الطريق فى الاتجاه المضاد بصحبة شخص بندقى اسمه دومنيكو بارباريجو (٨) • وكان البنادقة لم يزاولوا يمارسون التجارة فى رشيد فى القرن السادس عشر (٩) • وبصعود فرع رشيد يصادف المرء الى يمينه ، على مسافة قليلة من هذه المدينة فرعا آخر أصغر منه يتجه صوب البحر ، ويصل الى البرلس (١٠) • هذا الميناء المتوسط بين رشيد ودمياط كان أيضا مفتوحا للغربيين من ناحية البحر ، وكانوا يترددون عليه بكثرة بسبب مجاورته للبحيرة التى تحمل اسمه ، وكان بها سمك يصدر مقددا (مملحا ومجففا) الى رودس وكانديا (كريت) (١١) • ونجد

---

(٨) Joh. Tucher, dans le Reyssbuch des heil. Landes (1584), p. 369, b. Ghistele, p. 205; Bern de Breydenbach. Pergrinatio, p. 120 ; Fel. Fabri, III, 113 ; Geo, Gemnicensis, p. 475 ; Lannoy, p. 68.

(٩) Voy le Codex de Berlin cité plus haut, p. 40.

(١٠) Aboulf. Géogr., II, 1. p. 47, 161. ; Ibn Batoutą, I, 58.

(١١) Piloti, p. 348 ; Ibn Batouta, I, 57, 60. ; Calcachandi, Geogr. und VerWaltung von Aegypten, trad, Wüsttenfelr, Abh. de Gött Ge . der Wiss., XXV, p. 29.

اسم هذا الميناء فى بعض الوثائق الفلورنسية والبندقية (١٢) ، وبخاصة فى شأن هذه التجارة ، ويندر اغفاله فى الخرائط البحرية ، وغيرها من خرائط العصور الوسطى (١٣) ، وتحدث عنه بعض المسافرين فى ذلك العصر ، حديثا عرضيا (١٤) • وفى صدر القرن السادس عشر كان مقرا لقنصلية بندقية (١٥) •

ولنعد الى حديثنا عن الاسكندرية • عندما تصل الى الاسكندرية سفينة قادمة من الغرب ، يصعد الى سطحها بعض موظفى الميناء ، يستفسرون عن جنسيتها ، ويحصون الركاب ، ويدونون مذكرة دقيقة بأسمائهم ، وطبيعة الشحن : ثم يقدمون لحاكم (أمير) الاسكندرية تقريرا بكل هذه النقاط ، فيرسل الحاكم التقرير الى السلطان فى القاهرة ، وتبلغ هذه الرسائل بواسطة الحمام الزاجل (١٦) • وكان للمدينة ميناءان : الميناء الجديد ، ويفتح ناحية الشمال ، ويستقبل السفن المسيحية ، والميناء القديم المفتوح ناحية الغرب ، ولا يسمح بدخوله الا لسفن المسلمين ، فكان دخوله محظورا على المسيحيين ، حتى من جهة اليابسة (١٧) • وحين ترسو السفينة ، تنزع دفتها وقلوعها ، فلا تستردها الا بعد أن يكون القبطان والركاب قد سددوا كل ما هو مطلوب منهم سداده ، وأتموا استعداداتهم للاقلاع ، واستلموا تصريحا بالرحيل (١٨) • ويبدو أن الموظفين المصريين كانوا يستغلون كثيرا هذه الاجراءات ، لاعاقة رحيل السفينة بحجج تعسفية (١٩) • فاذا ما أنزلت السفينة شحنتها من البضائع ، تدخل هذه البضائع المدينة من باب

---

(١٢) Amari, Dipl. arab., p. 219. 388 : Cod. de Berl.. cit.. p. 40. 47. b. 53, b ; Sanut.. Diar., III, 935 ; V 973 ; VI, 300 ; VII, 218; X, 110; XI, 75 ; XII, 153, 156, 427.

(١٣) Sanuto, dans Bong.. p. 259 : Uzzano. p. 237 ; Carte de Fra Mauro, p. 57 ; l'Atl. Luxoro. p. 118.

(١٤) Harff, p. 83 ; Ghistele, p. 205.

(١٥) Sanut. Diar., XI, 75.

(١٦) Simon Simeonis, p. 18, 19 ; Frescobaldi, p. 20; Harff, p. 76 et s.

(١٧) يبدو فى الواقع أن فريسكو بالدى يريد القول بأن السفينة البندقية التى حملته الى الاسكندرية دخلت فى الميناء القديم ؛ الا أن كل الكتاب الآخرين الذين نثق بصدق شهادتهم يؤكدون العكس بعبارات قاطعة •

(١٨) كانت هذه هى أيضا العادة الجارية فى عدن : Varthema, dans Ramusio, I, 153.

(١٩) Simon Simeonis, p. 19 ; Frescobaldi, p. 20 ; Amari, Dipl. arab. p. 258.

الجمرك (٢٠) ، وتحمل الى الجمرك على أكتاف بعض الأشخاص أو على ظهور الحمير أو الجمال • أما التجار ، فقبل أن يجتازوا الباب ، يجرى عليهم فحص دقيق صارم بمعرفة أمير الاسكندرية أو وكيله ، وعليهم أولا أن يثبتوا جنسيتهم ، اما بواسطة قنصلهم الذى يأتى عادة لاستقبالهم ، أو بواسطة موظفين آخرين ، ثم عليهم أن يدفعوا رسم دخول بنسبة ٢٪ من النقود التى أحضرها كل منهم ، اللهم الا اذا استطاع أى منهم أن يخفيها • وبعد اتمام هذه الاجراءات ، لايحول شىء بينهم وبين دخول المدينة ، فيجد كل منهم مسكنا له ، ومكانا أمينا يودع به بضائعه ، وذلك فى فندق (خان) أمته (٢١) •

وكانت الفنادق fondachi مبان كبيرة ، مربعة الشكل مكونة من عدة طوابق ، مظهرها مظهر القصر الحصين (٢٢) ، وبها فناء داخلى يجرى به عمليات فك البضائع وربطها ، كانت هذه المبانى أجمل ما فى الاسكندرية كلها من مبان • ويشغل الطابق الأرضى مخازن ذات قباب وعقود (٢٣) ،وفى الأدوار العلوية مساكن عديدة يشغلها التجار • وفى هذه المبانى ، وأفنيتها تمرح حيوانات متوحشة ، قد استأنست • ويحيط بكل فندق حدائق بها أشجار مجلوبة من الخارج • كل ذلك يضفى على المبنى جوا أجنبيا يثير دهشة السياح الذين نزلوا لتوهم من السفن • وكان للبنادقة خنزير فى أحد هذه الفنادق ، والخنزير حيوان يمقته المسلمون ، وكان هذا بمثابة صورة ثارية صغيرة من المضايقات التى يسببها المسلمون لسكان الفنادق الذين كانوا تحت رحمتهم • وفى الليل يقوم موظف خاص بغلق الفنادق من الخارج ، والويل لأى افرنجى يضبط خارج فندقه • وفى يوم الجمعة ، أثناء صلاة المسلمين فى الجامع، يحظر على الفرنجة أن يظهروا فى الشوارع ، ولمزيد من الاحتياط يحبسون ساعتين أو ثلاثا • ويرى جيستل فى هذا الأمر تصرفا محمودا الغرض منه

---

(٢٠) Lannoy, p. 108.

(٢١) Sim. Simeon, p. 20-22 ; Frescobaldi, p. 20 lt s. ; Sigoli, p. 158 Harff. p. 77; Geo. Gemnic. p. 471.

(٢٢) Illustrozione di un anonimo viaggiatore del sec. XV, s. I. 1785, p. 13.

– يشبه المؤلف الفنادق fondachi بالقصور المحصنة casseri

(٢٣) فى الشرق ، تستخدم ، الكلمة العربية « فندق » ، فتطلق على ابنية مشيدة على نفقة الدولة ، وتوضع تحت تصرف المسافرين ، ويستطيع التجار ان يقيموا بها ويخزنون أو يبيعون بها بضائعهم ، ويعقدون بها صفقاتهم • ومعنى هذه الكلمة مماثل لمعنى كلمة « خان » • انظر بحثى فى كلمتى funda و fondaco فى le: Sitzungsb. der München. Akad., hist. Cl., 1880, V, p. 617-627.

حماية المسيحيين من سوء معاملة المسلمين المتعصبين . وهذا الرأى غير صحيح ، فالاجراء بالعكس اجراء وقائى يتسم بالريبة ، والخوف من هجوم يشنه المسيحيون ، لأن ثمة نبوءة قديمة بغارة يشنها المسيحيون فى يوم جمعة . وفى مثل هذا اليوم استولى بطرس الأول ملك قبرص على المدينة (٢٤) . وهذا أيضا هو الرأى الذى أبداه الرحالتان سيمون سيميونس ، وشيلبيرجر (٢٥) . ومهما كانت البواعث على هذا العزل الاجبارى ، فإنه مع ذلك اعتداء صارخ على حرية التجار الشخصية ، ولم يكن للجاليات أى حق من حقوق الملكية على فنادقها ، فلم تكن هذه الفنادق سوى مبان وضعتها الحكومة المصرية تحت تصرف التجار الأجانب ، فالحكومة وبخاصة الجمارك هى التى تدفع الايجار وتتكفل بنفقات الاعداد والصيانة (٢٦) . وكان القنصل يحدد الأشخاص الذين لهم حق السكن فى الفندق ، وعنده شرطة يحافظون على الأمن فى الداخل، ويقطن بنفسه فى الفندق . وثمة موظف يتولى مهام المدير ، يطلق عليه لقب Fundicarius

كان فى الاسكندرية عدد من هذه الفنادق ، ورأينا أن البنادقة كان لهم اثنان (٢٧) منها ، وكان لكل من الجنويين (٢٨) والبيزيين فندق واحد ، على الأقل فى العصر السابق ، ثم بعد ذلك للفلورنسيين ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن السلاطين أوفوا بعهودهم التى أعطوها مرارا (٢٩) ، وثمة فندق أيضا لكل من الأنكونيين(٣٠) ، والباليرميين(٣١) .

---

(٢٤) Mas Latrie. Hist. de Chypre, II, 275, 280 et s.

(٢٥) المعلومات التى أوردناها عن الفنادق مستقاة من الكتاب الآتية اسماؤهم :
Simon Simeon., p. 21 et s. ; Frescoldi, p. 30 ; Anglure, p. 78;
Simon Simeon., p. 21 et s. ; Frescobaldi, p. 30 ; Anglure, p. 78 ; Lonnoy, p. 109 et s. ; Piloti, p. 361, 388-490 ; Ghistell, p. 197 et s. ; Breydenbach p. 121-123; Geo. Gemnic., p. 474 ; Thenaud, p. 27, Kiechel, j. 334 et ss.

ـ عادة حبس المسيحيين يوم الجمعة فى فنادقهم ثابتة فى فقرة من :
Taf. et Thom., II, 476.

(٢٦) Amari, Dipl. arab., p. 258, 281, 285, 288, 290; 339 ; Taf. et Thom., II, 333, 486 ; Mas Latrie, Hist de Chypre, II, 306.

(٢٧) Thenaud, p. 22 ; Kiechel p. 334 et s. ; Wolf von Zülnuhart dans Raehricht et Meisner, Deutsche Pilgerreisen, p. 314 ; Sanut., Diar., I, 1033 Taf., et Thom., VI, 309 (ann. 1346).

(٢٨) Felix Fabri et Breydenbach ; Piloti, p. 339.

(٢٩) Amari, Dipl. arab., p. 208 et s., 339, 371, 381, 386.

(٣٠) Gucci (p. 274).

(٣١) Lannay, p. 110,

وكان للنابوليين (مواطنى نابولى) فندق بالاشتراك مع تجار جائيتا Gaeta (٣٢) (مدينة وميناء بايطاليا على البحر المتوسط - المترجم) • هذا بخصوص الايطاليين • ونذكر أيضا الفرنسيين ، من شمال فرنسا (٣٣) ، والمرسيليين (من مرسيليا) ، والناربونيين ، والقطالونيين ، والراجوزيين (٣٤) ، ولكل واحدة من هذه الأمم فندقها • وكان لجزيرة كانديا (كريت) فندق خاص بها ، مع أنها كانت مجرد مستعمرة بندقية ، كما كان هناك فندق خاص بمملكة قبرص ، تملكه قبل استيلاء بطرس الأول على المدينة ، واستعادت ملكيتها للفندق بعد عقد الصلح (٣٥) • ولا ننسى يونانيى القسطنطينية ، والأتراك ، وأهالى موريتانيا (من مغاربة وأحباش) ، وأخيرا التتار (٣٦) : وكان هؤلاء ، كما يقول مسافر ألمانى بسذاجة ، قد تعلموا جمع المال والاثراء بتوريد الرقيق الى الاسكندرية ، والرقيق سلعة كانت دائما مرغوبة ، وكان فندقهم فى الواقع بمثابة سوق للرقيق ، مفتوحة على الدوام •

وكان وجود المستوطنات التجارية فى الاسكندرية مفيدا لعدد كبير من الغربيين الذين يجذبهم الى الشرق بواعث أخرى خلاف التجارة • فكثير من الحجاج ، وبخاصة الأثرياء منهم ، ينتهزون فرصة سفرهم الى بيت المقدس لزيارة مصر ، وجبل سيناء ، فى طريق الذهاب ، وطريق العودة ، وكانت الاسكندرية بالنسبة اليهم ميناء النزول ، وميناء الركوب (باستخدام السفن) • وفى البداية لم يكن هناك تنظيم معد لاستقبال هذا الصنف من المسافرين • وعندما وصل فريسكوبالدى Frescobaldi الى الاسكندرية ، على متن سفينة بندقية (١٣٨٤) استقبله « قنصل الفرنسيين والحجاج » واستضافه فى منزله ، وكان هذا القنصل فرنسيا ، وكانت هذه عادته ، ولم تكن ضيافته بلا مقابل (٣٧) • وبعد عشر سنين ، ابان رحلة سيد انجلور Anglure (مدينة بفرنسا) كان الفندق الناربونى معدا لاستقبال الحجاج ، وهناك يحصل من الحجاج رسم فرضه السلطان ، كرسم للدخول • فهل كان رئيس الجالية الناربونية هو الذى يتولى تحصيل هذا الرسم بتفويض من السلطان ؟

---

(٣٢) Camera, Mem. d'Amalfi, I, 593.

(٣٣) "Fondigue de France" ; Anglure, l. c.

(٣٤) Kiechel, p. 335.

(٣٥) "Fondigue des Chypriens des Candiens" : Anglure, l.c.

(٣٦) Lannoy, p. 10 ; Fahri, III, 164 ; Breydenbach, p. 123 ; Harff, p. 79 ; Geo. Gemnic., p. 474.

(٣٧) Frescob. p. 20 et e. ; Sigoli, p. 164, 172 ; Gucci, p. 274, 421.

أو لم يعد هناك جالية ناربونيـــة ، بل مندوب مسيحى مكلف من قبل السلطان باسـكان الحجاج في فنـدق الناربوميين القـديم ؟ هذه نقطة لم تزل غامضة ، وكل ما نعرفه هو أن الموظف المشار اليه كان يحمـــل لقب consulle de Norbonne et des pelerim (قنصـــــــل ناربـــون والحجـاج) . وفي أواخـــر القرن الخامس عشر ، تغيرت الأحوال من جديـد ، ربمـــا في أعقاب الغـــاء فندق الناربونيين ، ومن ذلك الحين أصـــبح فندق القطالونيين هو الذى يستضيف الحجـــاج (٣٨) .
وهناك اســتقبل فليكس فابرى Fel Fabri ، وبريدنبـــاخ Breydenbach ، وكذا حاج ايطالى مجهـــول الشخصية ، كان مسافرا بصحبة تجار فلورنسيين (٣٩) . ومع ذلك فالأمور لم تجر دواما على نمط واحـــد . مثال ذلك أن حاجا قادما على متن سـفينة بندقية ، أو مزودا بخطابات توصية لتجار بنادقة ، كان يدعى أحيانا للنزول في فندق هذه الأمة (أى البندقية) ، ويمكنه أن يتناول غذاءه ، ويدفع ثمن الطعام : وهذا ما فعله المسافرون الألمان : توشر ، وهارف ، وبومجارتن . ولاشك أن سيمون سيميونس نزل بفندق المارسيليين لباعث مماثل (٤٠) .

وثمة قساوسة غربيون ينزلون بالفنادق ، ويضطلعون بالمهام الدينية الخاصة بالمستوطنين ، وبكل فندق كنيسة صغيرة (٤١) . وفضلا عن ذلك كان للأمم الكبرى كنائس خاصة بها ، مثل كنيسة القديس نقولا S. Nicclas الخاصة بأهالى بيزا (٤٢)، وسانت ماريا للجنويين (٤٣)، وسان ميشيل للبنادقة (٤٤) . وفي كثير من المعاهدات التي عقدها هؤلاء الأخيرون ، ذكـر الكثير من الكنائس والأديرة التى يملكونهـــا (٤٥) ، كما أشير في هذه المعاهدات الى المصليات الموجودة في الفنادق التابعة لهم . وفيما تركه بعض المسافرين من أوصاف للاسكندرية في العصور الوسطى ، لم يذكر سوى كنيسة واحدة للبنادقة ، تزينها تحف رائعة من الرخـــام

---

(٣٨) Breydenbach, p. 121 ; Capmany, II, 159.

(٣٩) Illustrazione di un anonimo viggiatore, l.c., p. 12.

(٤٠) Ed. Nasmith, p. 21.

(٤١) Fabri, III, 49, 161 et s.

(٤٢) Amari, p. 258, 265, 281, 283, 285 et s.

(٤٣) Lib. jur., II, 246.

(٤٤) Taf. et Thom., II, 339, 487.

(٤٥) Taf. et Thom., 489 ; Mas Lairie, Traités, append., j. 85, 92.

والفسيفساء (٤٦) . وكان فى وسع كل اللاتينيين أن يدفنوا موتاهم فى مقابر كنيسة سان ميشيل اليعقوبية (٤٧) .

وكان لدى كل أمة ، توفيرا لبعض حاجات جالياتهـــا أفران لاعداد الخبز ، وحمامات ، وكانت الاستفادة منها فى الغالب بالمجان (٤٨) . وأخيرا ، كان ادخال النبيذ فى الفنـادق معفيا من الرســوم والضرائب ، ومع ذلك ، حين تكون الكمبات المستوردة كبيرة بدرجـــة ما ، فانه مـن الصعب ادخالها دون وضع شيء ما فى أيدى مفتشى الجمارك (٤٩) .

نرى من ذلك أن التجار الغربيين كانوا يجدون فى الاســـكندرية مأوى صالحالهم ، فى صحبة مواطنيهم ، وكل ما يلزم لاشباع حاجاتهم المادية والدينية ، ويعود الكثير منهم بعد بضعة أسابيع فى السفن نفسها التى جاءت بهم ، ويطيل آخرون اقامتهم ، ولا يعترضهم أحد على ذلك . فاذا أرادوا التنقل داخل البلد ، فان المعاهدات تعطيهم الحق فى ذلك ، كما تنص المعاهدات أحيانا ، تجنيبا لهم من بعض الصعوبات على السماح لهم بارتداء الثياب الشرقية (٥٠) . وفى هذه الحالة كانــوا غالبـــا يقصدون القاهرة ، عاصمة مصر . والقاهرة مدينة شاسعة يقطنها عدد لاحصر له من السكان ، من جميع الأجناس (٥١) : ويجد فيها أكثر من ٣٠٠٠٠ من مؤجرى الدواب عملا كثيرا : والحركة بالمدينـة دائمـــة لاتنقطع ، والمراكب تجوب النهر ذهابا ايابا ، فتعطى الأرصـــفة مظهرا

---

(٤٦) L'audolf. V. Suthem. p. 36 ; Lorenz Egen' Pilgerfahrt, dans l'Ausland 1865, p. 8, 17.

(٤٧) Tucher, p. 370, b. ; Breydenbach, p. 122 a ; Fabri, III, 161 ; Thenaud (p. 26) ; Amari, Dipl. arab., p. 287.

(٤٨) عن البيزيين ، انظر : Amari, p. 258, 281, 283, 286. وعن البنادقة : Taf. et Thom., II, 339, 487 ; Mas Latrie, Traités, append., p. 85, 92.

(٤٩) Taf. et Thom., II, 339, 486 ; Mas Latrie, l.c. p. 83, 89; Ammari, p. 200, 352, 355 et s.

(٥٠) Amari p. 366, 378, 384.

(٥١) يشبه خمسة كتاب القاهرة بباريس ، وهم :
— Machant, p. 193; Sim. Simeon., p. 41 ; Lud. V. Suthem, p. 51, Fabri, III, p. 81, Thenaud, p. 46.

— لابد من التسليم بان عاصمة مصر كانت اكبر بضعفين الى ثلاثة اضعاف عاصمة فرنسا ، وكان عدد سكانها يزيد بمقدار اربعة الى خمسة اضعاف عدد سكان العاصمة الفرنسية . ويعتقد فريسكو بلدى (ص ٤٩) أن سكان تسكانيا كلها اقل عددا من سكان مدينة القاهرة .

جيوبا بصورة غير عادية . وقد قدر عدد هذه المراكب بما لايقـــل عن ٣٦٠٠٠ مركب (٥٢) . ويصادف الانســـان في شوارع القاهرة فيلة ، وزرافات ، مما يكفي لترغيب الغربيين في زيارتها . وتعرض القاهرة أيضا على التاجر مفاتن أخرى لاقبل له بمقاومتها : فكانت حوانيتها غاصة بسلع ثمينة من صنع النســـاجين والصياغ ، وصـــانعي الأواني الزجاجية من الشرقيين (٥٣) . ومع ذلك لم تكن القاهرة ، فيما يختص بتجارة الجملة بين الشرق والغرب سوى محطة عبور يمر بها من الجهتين كميات هائلة من البضائع (٥٤) . وكانت الاسكندرية هي سوق المبادلات التجارية ، وبها تنقل البضائع من أيدى الشرقيين الى أيدى الغربيين ، وبالعكس(٥٥) . وكان محظورا على البنادقة ، بأمر حكومتهـــم ، أن يشتروا من القاهرة توابل هندية (٥٦) . ولنا ، في هذه الأحوال أن نتصور أنه لايقيم في عاصمة مصر سوى عدد محدود نســـبيا من الفرنجة (٥٧) . ولم يكن بالعاصمة كنيسة لاتينية (٥٨) ، ولم تكن لأية أمة تجارية غربية بهـــا فندق (٥٩) . حقا ، لقد طلب البيزيون (أهالي بيزا) في وقت ما فندقا

---

(٥٢) Ibn Batouta, I, 69 et s.

يقول فريسكوبالدى انه يوجد فى ميناء القاهرة وحدها من السفن ما يزيد بمقدار الثلث على مجموع السفن الموجودة فى موانى البندقية وجنوا وانكونا . ويحصى بيلوتى (ص ٤٠٩) المراكب الموجودة على صفحة النيل بالقاهرة ، فيقول ان عددها يبلغ ١٥٠٠٠ مركب .

(٥٣) Sim. (Simeon., p. 43 ; Frescobaldi, p. 41, 49 ; Gucci, p. 300 ; Sigoli, p. 190 ; Machaut, p. 201 ; Tafur, p. 117 ; Thenaud, p. 48 ; Trevisani, p. 42.

(٥٤) Piloti, p. 329.

(٥٥) يقول Gucci (ص ٣١٤) ان بضائع الهند تهبط مجرى النيل من القاهرة الى الاسكندرية .

(٥٦) Cod. Berol., cit. p. 11 (ordonnance de 1407).

(٥٧) Frescobaldi, p. 44 ; Ghistele, p. 153; Harff, p. 115 ; Geo Gemmic., p. 509.

يقول (Thenaud, p. 51) ان العشرة الاف مسيحى المقيمين اقامة دائمة فى القاهرة كانوا سوريين ، واقباطا ، ويعاقبه .

(٥٨) Fel. Fabri, III, 22. p. 161.

(٥٩) M.E. de la Coste Brux., 1855).

كان التجار الذين يضطرون للاقامة بعض الوقت بالقاهرة ، يقيمون بمنزل الترجمان ويتناولون طعامهم عنده ، وهذا ما حدث ليثنيو Thenaud فى رحلته (ص ٨٣ وما بعدها) .

من السلطان ، فوافق هذا على طلبهم (١١٥٤) (٦٠) ولا نعلم ما اذا كانت هذه الموافقة قد نفذت بالفعل : وازاء صمت المصـــادر اللاحقة فى هذا الشأن ، فان ذلك يبدو أمرا مشكوكا فى صحته • واذا لم يكن البنادقة يملكون فندقا ، فانه كان عندهم نزل فى خدمة الحجاج (٦١) ، ولكنه مخصص أساسا لاستقبال مواطنيهم التجار • ولم يكن الفضول هو دائما الباعث الوحيد الذى يدفع التجار للسفر من الاسكندرية أو من دمياط الى القاهرة : فقد كانوا يذهبون اليها التماسا للعدالة : اذ كفلت المعاهدات لرعايا الدول المتمتعة بامتيـــازات الحق فى اللجوء الى السلطـــان مباشرة للتظلم من موظف مصرى ، أو من حكم أصدرته محكمة محلية فى قضية ضد أحد الأهالى ، أو ضد مدين مسلم لايفى بدينه • وكان قنصل البندقية بالاسكندرية فى مشاغل دائمة بالقاهرة : اما ليرفع الى السلطان مطالب مواطنيه ، أو ليؤدى مهمة كلفته بها حكومته ، أو تلبية لدعوة السلطان ليبلغه شفاهة بعض اللوم من أحد الرعايا • وكان القنصل موجودا بالقاهرة بالفعل حين زارها فليكس فابرى ، فقد جاء القنصل يتظلم باسم مواطنيه من التجار العرب والمسلمين الذين كانوا يريدون اجبـــارهم على قبول التوابل بما فيها من قاذورات (٦٢) • وقد أخطأ برنادر فون بريدنباخ ، كاهن ماينس Mayence الذى كان موجودا بالقاهرة حين كان فيها فليكس فابرى ، اذ قال ان البنادقة يقيمون بالقاهرة موظفا دائما من موطنيهم ، يسمونه القنصل ، مهمته أن يدافع لدى السلطان عن حقـــوق مواطنيه المقيمين بالاسكندرية (٦٣) ، وهذا غير صحيح : فلم يكن بالقاهرة قنصلية للبنـــدقية •

ولما كان التجار الغربيون يستخدمون كثيرا الطريق من الاسكندرية الى القاهرة ، فمن المفيد أن نتعرف عليه • يقول « حاج » يدعى أونريك لومان ان السلطان لم يكن يزود المسافرين بحرس يرافقهم فى الطريق البرى (٦٤) ، وكان هذا حافز للمسافرين لسلوك الطريق النهرى الذى يمتاز بقلة تكلفته (٦٥) • ولما كان فرع رشيد مقطوعا عند مدينة رشيد نفسهـــا ، فلم يكن فى المستطاع الملاحـــة صعودا فى النهر الا فى الجزء

(٦٠) Amari, Dipl. arab., p. 243, 248.

(٦١) Rudolf v. Frameynsperg. dans Canisiu -Basnage, Thes, mon eccl., IV, 360 ; Tucher, dans le Reyssbuch, p. 368.

(٦٢) Fabri, III, 22, 33.

(٦٣) Breydenbach, p. 119.

(٦٤) Cod. germ. Bibl. Monac., no 692, p. 52.

(٦٥) Sim. Simeon., p. 36

الواقع جنوبي المدينة . كان من الضروري اذن ، على أية حال تنفيذ جزء من الرحلة بطريق البر . وفي الامكان اختصار هذا الطريق الى أدنى حد مستطاع بصعود القناة (٦٦) التي تتفرع من فرع رشيد عند بلدة فوه وتمتد الى القرب من الاسكندرية . وأجرى في عام ١٣١٠ بأمر الملك الناصر محمد اصلاح هذه القناة حتى تصلح للخدمة ستين سنة كترعة تجلب الماء الصالح للشرب ، ولأغراض الزي ، وللملاحة ، وتبقى مملوءة بالماء طوال السنة حتى في أقرب جزء منها الى الاسكندرية (٦٧) : وكان عرضها من ١٥ الى ١٦ « أون » وطولها من خمسين الى خمسة وخمسين ميلا تقريبا (٦٨) . وفي غضون هذه الفترة زار سيمون سيميونس مصر . وعندما غادر الاسكندرية ، قطع ميلا واحدا تقريبا على ظهر الحصان حتى يصل الى مرفأ الترعة، فاستقل مركبا سار به في الترعة يوما بطوله ، ثم أمضى ثلاثة أيام مبحرا على فرع رشيد ، حتى دخل مجرى نهر النيل حيث واصل طريقه الى القاهرة (٦٩) . وفي حوالى عام ١٣٦٨ بدأت هذه الترعة تمتلىء ثانية بالرمال ، ولم تعد صالحة لحمل المراكب الا في فترة فيضان النيل (٧٠) . وفي عام ١٣٨٤ نزل في ميناء الاسكندرية الفلورنسي فريسكو بالدى ورفاقه (٧١) . ونزل بها في عام ١٣٨٥ لورنز ايجن من أوجسبرج (٧٢) ، وكان من حسن الحظ هؤلاء أنهم وصلوا في فترة صلاحية الترعة للملاحة . والمعروف أن فيضان النيل يبدأ في النصف الثاني من شهر يونية ، ويصل الى ذروته في أوائل شهر أكتوبر . وأبحر فريسكو بالدى على الترعة يومى ٥ ، ٦ من أكتوبر ، وفي غضون اقامته في القاهرة من ١١ الى ١٩ من أكتوبر ، كان منسوب مياه النيل قد انخفض بمقدار أون واحد . أما ايجن فانه

---

(٦٦) سبق الحديث عن هذه القناة ، ويطلق عليها الكتاب الغربيون احيانا اسما مشتقا من الاسم العربي « خليج » انظر :

- Brancacci, p. 329. caligine ; Sanut.,

Diar., I, 270 ; VI 279 : Calizene ou Chalilzene. : او يسمونها ببساطة talgiata, fossatum, canale

(٦٧) Makrizi ; Langlois dans le "Voyage de l'Egypte et de Nubie" de Norden, III (1798), p. 177 et s. ; Weil, Gesch. der Chalif, IV, 373.

(٦٨) Gucci, p. 278.

(٦٩) Ed Nasmith, p. 34 et ss.

(٧٠) Norden, l.c.

(٧١) Frescobaldi, p. 32 et s. ; Sigoli, p. 168; Gucci, p. 278-284.

(٧٢) Ausland, 1865, p. 917.

وصل الى الاسكندرية فى بداية شهر سبتمبر ، ومن ثم استطاع أيضا الافادة من فيضان النيل · ومضى هذان المسافران على ظهور الخيل الى مرفأ الترعة ـ مثلما فعل سيمون سيميونس ، وقدرت هذه المسافة أحيانا بميل واحد ، وأحيانا بميل ونصف ميل ، وأحيانا بثلاثة أميال (٧٣) ـ وصعد الترعة حتى فوه (٧٤) · وبقيت الترعة على هذه الحال طوال القرن الخامس عشر · وأعاد برسباى اصلاح الترعة (١٤٢٣) فأمكن أن تحمل المراكب حتى الاسكندرية ، الا أن هذا الاصلاح لم يدم طويلا ، فلم تلبث الترعة أن ملأتها الرمال من جديد ، ولم تعد صالحة للملاحة الا فى فترة فيضان النيل (٧٥) · بل انه يبدو فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر أن الملاحة أصبحت مستحيلة بكل أنواعها ، وعلى الأقل هذا ما أعتقده ، ذلك لأن توشر Tucher (٧٦) وهارف Harf (٧٧) لم يستفيدا منها فى السفر رغم أنهما يعرفانها تمام المعرفة ؛ ولم يتحدثا عنها الا باعتبارها مجرى لمياه الشرب والرى وترتب على هذه الأحوال أنه فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، ومستهل القرن السادس عشر كان المسافرون المتجهون من الاسكندرية الى القاهرة (٧٨)، أو بالعكس (٧٩) يضطرون الى أن يقطعوا المسافة بين الاسكندرية ورشيد سيرا على الأقدام ، أو على ظهور الخيول ، بحذاء شاطىء البحر ، ومن رشيد يصعدون مجرى النيل ، ويقضون فى ذلك خمسة أيام حتى يصلوا الى القاهرة ، ويقضون خمسة أيام أيضا عند العودة من القاهرة الى رشيد ؛ وترتب على هذا التغير الطارىء فى وسائل المواصلات تغير آخر مباشر فى مجال التجارة · فطالما كانت الملاحة فى القناة ممكنة بصورة دائمة وثابتة ، كان للتجار الغربيين فى بلدة « فوه » مستودع يدفعون

(٧٣) Fel. Branacacci (1422), p. 169, 329 .; le conte Philippe von Katzenellenbogen (1433) ; Niec da Poggibonsi (1345), II, 52; le sire d'Anglure (1395), p. 77.

(٧٤) Frescobaldi (éd. Manzi, p. 86, éd. Gargiolli, p. 33) ; Sigoli, p. 265, Gucci, p. 169.

(٧٥) Makrizi dans Norden, l.c., p. 179 ; Piloti, p. 345 390.

(٧٦) Reyssbuch, p. 368.

(٧٧) Harff, p. 84.

(٧٨) Harff, p. 80 et ss. ; Aromo, p. 158; Baumgarten (Geo. Gemnic., p. 475 et ss.) ; Petrus Martyr, p. 394 et s. ; Thenaud, p. 37 et ss ; Lannoy (p. 68, 110 et s., 106, 112).

(٧٩) Tucher, p. 369, b ; Fabri, III, 138 et ss. ; Breydenbach, p. 120.

عنه ضريبة للسلطان (٨٠) ٠ فلما صارت الملاحة قاصرة على فترة معينة من السنة ، فانهم ألغوا المستودع ٠ وكان هذا المستودع مفيدا لهم بالتأكيد ، لتخزين السلع التى يشترونها فى تجوالهم عبر دلتا النيل ، فى منطقة معروفة بخصوبتها الشديدة ، وتنتج بوفرة السكر ، والبلح ، والشمام ، والبطيخ ، والبرتقال ، وغيرها من فواكه الجنوب ، وكذا القطن والكتان (٨١) ٠ وكان فى وسعهم ، فى جوالاتهم هذه أن يتنقلوا بكامل حريتهم ، على الا يفكروا فى تخطى منطقة وادى النيل شرقا ، أو الوصول الى شاطىء البحر الأحمر ، فلم يكن السلطان يسمح لهم بذلك ٠ وثمة مؤرخ ايطالى قديم ظن أنه اكتشف فى المعاهدة التى أبرمت فى عام ١١٧٣ بين بيزا ومصر اشارة صريحة يستنتج منها أن البيزيين كانوا يمرون بمصر فى طريقهم الى الهند ، وذلك بموافقة السلطان ، ومن ثم فهو يأسف بشدة لضياع خرائطهم وما كتبوه فى وصف رحلاتهم (٨٢) ٠ والحقيقة أننا نطالع فى نص المعاهدة التى نشرها « لامى » Lami اسم « الهند » L'Inde ، غير أن هذه الفقرة قد جرى عليها تحريف واضح : فكلمتى in die لا معنى لهما ؛ وبعد دراسة جديدة للنص الأصلى ، أبدل بهما لامى عبارة in die (٨٣) ، وهذا التصحيح البسيط يلغى حكاية الرحلات التى يقوم بها البيزيون الى الهند ٠ والأمر كذلك بخصوص رحلات الوكلاء التجاريين التابعين لفردريك الثانى هوهنشتاوفن ٠ ويحكى ماتيو بارى Mathieu Paris أنهم كانوا يواصلون رحلاتهم حتى الهند بموافقة السلطان ، ولكنه بالغ فى وصف العلاقات الطيبة التى كانت سائدة بين الأميرين : ونرى أنه لاشك فى أن هذا الوصف مبالغ فيه ؛ وذلك اعتمادا على شهادة عكسية أبداها ثلاثة من كتاب القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكانوا يعرفون أحوال الشرق معرفة صحيحة : ويقرر الثلاثة بالاجماع أن سلاطين مصر لايسمحون لأى غربى بأن يركب سفينة تمخر عباب البحر الأحمر قاصدا الهند ، ويراقبون الساحل لمنع الغربيين من الابحار ، ويستخدمون القوة لذلك اذا لزم الأمر (٨٤) ٠ وقد ذكر

---

(٨٠) Voy. le passage de Khalil Dhahéri. Communiqué par M. Venture dans son Volney voy., I, 235.

(٨١) Piloti, p. 348.

(٨٢) Fanucci, Storia dei celebri popoli mari imi dell 'Italia, II, 94 et s.

(٨٣) Amari, p. 259, 470.

(٨٤) Sanut.. secr. fidel cruc., p. 23; Ludolph V. Suthem, p. 64 ; Lannoy, p. 130 ; Ulrich Leman (Op. cit., p. 54).
– يقول أولرش ليمان ، انه للقيام بهذه الرحلة ، كان لابد على الاقل من الحصول على ترخيص خاص من السلطان ٠

البعض أمثلة قليلة لمسافرين وجدوا وسائل للمرور خفية ، أو حصلوا على ترخيص من السلطان : مثال ذلك جيستل Ghistele (من جاند Gand) ، ومع ذلك اضطر الى العودة بعد أن وصل الى عدن ، وأرنولد فون هارف Arnold von Harff الذى تعتبر رحلاته فى المحيط الهندى من قبيل قصص المغامرات ، والبندقى بونارجوتوس دى البانس Bonarjutus de Albanis الذى التقى به جيستل فى الطور Tor عندما كان يهم بركوب السفينة المبحرة الى هرمز ، وكانت هذه السفينة قد جلبت توابل ، وأزمعت العودة الى بلدها . هذا الرحالة قدم فيما بعد الى البرتغاليين معلومات ثمينة جمعها عند اقامته لفترة طويلة فى الهند (٨٥) . وأخيرا الجنوى ييرونيمو داسان ستيفانو Hieronimo da S. Stefano الذى غادر القاهرة قاصدا الهند ، والهند الصينية (٨٦) . الا أن هذه الأمثلة لاتثبت شيئا ضد القاعدة التى أكدها الشهود الثلاثة الذين ذكرناهم . ومن البواعث التى وجهت سلوك السلاطين فى هذا الخصوص الخوف من أن يستغل الغربيون هذه الرحلات فى تدبير مؤامرات مع ملوك الحبشة ضد الاسلام (٨٧) . غير أن هناك بالطبع أسبابا لها صلة بالسياسة التجارية : فقد كانوا يريدون أن يحتكر رعاياهم واخوانهم فى الدين ، بأقصى درجة مستطاعة نقل البضائع المصدرة من الهند الى الغرب ، فلا تنتقل هذه البضائع الى أيدى المسيحيين الا بعد انقضاء أطول وقت ممكن ، وبذلك يضم المسلمون ، عن طريق الغاء المنافسة أكبر نصيب فى الأرباح التى تحققها هذه التجارة .

ولما كان من المستحيل على التجار الغربيين أن يتخطوا حدود مصر وينطلقوا صوب البلاد الشرقية ، أو أن يشتروا فى مصر نفسها غير المنتجات المحلية على أكثر تقدير ، فانهم كانوا فى نهاية المطاف يعودون الى الاسكندرية تلك ، السوق العالمية ، والمركز الكبير للمبادلات بين منتجات الشرق ومنتجات الغرب .

ترى من من تجار الغرب أو الشرق هم الذين احتلوا مكان الصدارة فى هذه السوق ، من حيث كمية السلع المعروضة للبيع وقيمتها ؟ سؤال

(٨٥) Ghistele, p. 229 ; Relazione ri Leonardi da la Masser dans l'Archiv. stor. ital., append., II, no 10, p. 18, 19; Zurla, Di M. Polo, II, 391.

(٨٦) Ramusio, Navigazioni e viaggi, I, 345.

(٨٧) Ludolph. v. Suthem, l. c. ; Lannoy, l. c. ; Ghistele, p. 231; Quatremère, Mém. sur l'Egypte, II, 277; Nicc. da Poggibonsi (II, 209 et s.) ; Bruce, Voy. en Abiss, II, 74, 92 et s.

لايحتاج الأمر الى طرحه ، فقد أجاب عنه القارئ من قبل ودون تردد ، وبصدق لصالح الشرقيين • ويقدر أرنولد فون هارف بمبلغ ٠٠٠ر ٣٠ دوكا قيمة المعادن الثمينة ، سواء سكت نقودا أو لم تسك ، والتى يرسلها الغرب كل سنة الى بلد الكفار – كما يقول فى حين أن الكفار لا يرسلون الينا نقودا بالمرة ، بل يرسلون فقط توابل لتتبيل الطعام وأقمشة حريرية (٨٨) • والواقع أن الغربيين لم يكن فى مقدورهم أن يدفعوا عينا قيمة مشترواتهم ، فكانوا يدفعون معظم قيمتها ذهبا وفضة • ومع ذلك لايجوز لنا أن نبخس قيمة المنتجات الطبيعية والمصنعة التى يقدمها الأوروبيون للمصريين • فرغم خصوبة التربة المصرية ، فانها لاتنتج كل المواد اللازمة للاستهلاك : فهناك فراغات فى وسع الغرب وحده أن يملأها • من ذلك أن شجر الجميز والبلح الذى ينمو فى البلد يزوده بالقليل من الخشب (٨٩) ، فكان أكبر كمية من خشب البناء والحريق يستورد من الخارج (٩٠) ، من جزيرتى قبرص وكريت لقربهما ، ثم من آسيا الصغرى عن طريق ستالية Satalie (٩١) ، وحتى من البندقية . ومن جهات أبعد منها • وقد رأينا من قبل أن الكنيسة حظرت تزويد المسلمين بخشب البناء (٩٢) ، وعلى العكس ، كان تزويدهم بالخشب المقطع ألواحا صغيرة ، أو المصوغ على شكل أوعية وأدوات منزلية يعتبر ، فى البندقية على الأقل عملا مشروعا (٩٣) وثمة نقص آخر تشعر به مصر بشدة ، يتمثل فى المعادن ، الثمينة منها كالذهب والفضة ، والأكثر شيوعا ، كالنحاس والرصاص (٩٤) • ويبدو أن سفن البندقية هى

---

(٨٨) Harff. p. 96.

حملت سفن البندقية التى قامت فى عام ١٤٩٧ بالرحلة الى الاسكندرية هذا المبلغ ، أما السفن التى أبحرت فى الوقت نفسه الى بيروت فقد حملت ٠٠٠ر٦٠ دوكا : Sanut., Diar., I, 734. وفى السنة السابقة حملت سفن الاسكندرية ٠٠٠ر ٢٢٠ دوكا ، وحملت سفن بيروت ٠٠٠ ١٢٠ (Ibid. I, 270) ؛ ولا تشمل هذه الارقام قيمة البضائع المستوردة : وقد استخدم ناتج بيعها فى شراء بضائع •

(٨٩) Abdallatif, Descr. de l'Egypte, éd. de Sacy, p. 19 ; Piloti, p. 346.

(٩٠) Haython, Hist. orient., cap. 54; Sim Simeon., p. 39 ; Frescob., p. 56 ; Mass Latrie, Hist. de Chypre, II, 120 et s.

(٩١) Harff, p. 92 ; Piloti, p. 371.

(٩٢) Piloti, p. 376.

(٩٣) Thomas : Abh. der bayer. Akad., T. Cl., XIII, 1ère sect., p. 142.

(٩٤) Arnold. Lubec., dans Pertz, ss., XXI, 238 ; Nicc. da Poggibansi II, 72.

التي كانت تورد منتجات مناجم الغــرب ؛ وكان الحديد والنحاس ، بصفتهما من المواد التي تبنى بها السفن مدرجين في قائمة المواد الممنوع تصديرها الى مصر .

وبخصوص النباتات المنتجة للزيوت ، لم يكن بمصر منهــا سوى السمسم (٩٥) ، أما زيت الزيتون فكان الأهالى يستوردونه من أوروبــا (من أسبانيا ، وبوليــا ـ أبوليا ، منطقة بجنوب شرقى ايطاليــا ـ المورة) (٩٦) ونذكر من بين المواد المستوردة ، العســل ، والشــمع ، والزبيب ، واللوز ، والجوز ، وأحيانا البندق ، وهي سلع استهلاكيــة يسهل حفظها في جو مصر ، وطعام مفضل لدى الشعب المصرى (٩٧) ، والفلفل الأحمر ، والعنبر والزعفران ، وفراء الشمال ، والصـوف الرقيق من آسيا الصغرى وقبرص ، والمستكة من خيوس ، الخ . وكان أعيان مصر يستبيحون شرب النبيذ سرا ، ولما كان دينهــم يمنع زراعة الكروم ، فانهم كانوا يستوردونها من البلاد المسيحية ، من جزيرة كريت بنوع خاص (٩٨) . يضاف الى هذه الحاصلات الطبيعية المواد المصنوعة في الغرب ، كالجوخ ، والبروكار المذهب (الديباج) ، والأوانى الفضية ، والبللور . وكانت أسواق القاهرة مزودة بوفرة من أجواخ الغرب ، يشهد بذلك ، مع آخرين ، المقريزى (٩٩) ، وليون الأفريقى (١٠٠) . يقول الأول ان الســادة الكبار يحتفظـون في خزانات ملابســهم بأقمشــة بندقية (١٠١) ، غــير أن هذه التســمية قد تشــمل أيضــا منسوجات مصــنوعة في بلاد أخرى غير البنــدقية ويتــولى بيعهــا تجار بنادقة ، كما تشمل المنسوجات المصنوعة في البندقية نفسها . وكانت السيدات المصريات الكبيرات يصنعن ملابسهن الداخليــة من أقمشـــة ريمس Reims (١٠٢) . وكانت الفلاندر ، ولانجدوك (منطقــة جنـــوبى

---

(٩٥) Piloti, p. 327, 347.

(٩٦) Ibid. p. 373-375 ; Sanut., p. 24 ; Pegol., p. 59 ; Piloti, p. 327.

(٩٧) Sanut. p. 69 ; Piloti, p. 374 ; Fabri, III, 153 ; Breydenbach, fol. 122, b. ; Geo. Gemnic., p. 475 ; Thenaud, p. 15 ; Sanuto (Diar., II, 1076). ;

(٩٨) Piloti, p. 386, 404. ; Harff, p. 101.

(٩٩) Dozy, Dictionnaire des noms des vêtements, p. 127 et ss.

(١٠٠) Ramusio, Navigationi e viaggi, I, 83.

(١٠١) Hist. des sultans mamlouks, I, 1, p. 252 ; de Sacy, Chrestomathie arabe, II, 52 et s.

(١٠٢) Frescobaldi, p. 45.

فرنسا - المترجم) ، وقطالونيا ، ولومبارديا ، وفلورنسا متمثلة في حوانيت ومخازن الاسكندرية بأصوافها (١٠٣) . وكانت هذه المنتجات المصنوعة تباع بكميات كبيرة في جهات نائية ، فالسفن التي تجلب التوابل، تأخذ هذه المنتجات عند عودتها الى الحبشة والهند ، بل والى مجموعة الجزر الهندية . وكان الصناع الغربيون ، حين يقومون بتسوية شئون منتجاتهم ، يدخلون في حسابهم التصدير الى الشرق الأقصى (١٠٤) .
وكان عدد صغير جدا من المحصولات الطبيعية الغربية يصدر الى الشرق عن طريق مصر ، وهي بنوع خاص المعادن ، والزعفران ، والمرجان .

بقي أن نتحدث عن فرع آخر من فروع التجارة ، وهو استيراد السلع التي يربيها الغربيون ، تجارة الكائنات الحية . فقد كان للسلاطين والأعيان ولع شديد بالصيد باستخدام الطير ، لذلك كانت صقور الصيد البوازي والبواشق مطلوبة بكثرة (١٠٥) ، وتشكل هذه الطيور هدية من الهدايا التي تنتقيها الجمهوريات التجارية حين تحتاج الى كسب الحظوة لدى السلاطين والأمراء (١٠٦) ؛ وفي العصر الذي زار فيه سيمون سيميونيس مصر ، كان السلطان يدفع للتجار ٣٠٠٠ دراخمة أو ١٥٠ ريالا ذهبيا ثمنا لبازي حي واحد ، ونصف هذا المبلغ للبازي الذي يموت في الطريق (١٠٧) . وفي عام ١٣٧٨ باع شخص يدعى جوردان كبلنج (من برونزويك) في البندقية عشرة من هذه البوازي بسعر ٢٩ دوكا للبازي الواحد : وكان المطلوب ارسالها الى الاسكندرية ، وتعهد كبلنج في العقد الذي أمضاه أن يرد النقود التي استلمها عن كل طائر يهلك في الطريق (١٠٨) . وكان هذا الأمر أي هلاك الطائر يحدث كثيرا على ما يبدو ، ولكن الطيور التي تبقى حية تزداد قيمتها .

---

(١٠٣) Piloti, p. 374; Chiarini, p. lxxix ; Frescob., p. 13.

(١٠٤) Piloti, p. 358 et s. ; Sanut., p. 24, 42.

(١٠٥) كانت هذه الصقور ترد عادة من بلاد الشمال ، وكان ملوك السويد يحصلون على أرباح وفيرة بتصديرها مباشرة الى مصر .

(١٠٦) Makrizi, Hist. des sultans mamlouks, I, I, p. 94, not., Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 285.

(١٠٧) Sim. Simeon., p. 40.

كانت السفينة التي اقلت Guill. Bonnesmains سنة ١٣٢٧ قاصدة الأسكندرية ، تحمل مائة صقر من صقور الصيد اشتراها وكلاء السلطان . انظر :
Bibl de l'Ecole des chartes, XXXVI, 596.

(١٠٨) le Lübecker Niederstadtbuch (Lubeck, 1947), p. 230.

وثمة تجارة أخرى ، أقل براءة من هذه ، هى تجارة المخلوقات البشرية ، فثمة مسيحيون لاضمير لهم يزاولون هذه التجارة رغمـا عن القوانين المدنية والشرائع الدينيـة • ومع أن الكثير من الرعايا المصريين كانـوا يجوبون لحساب السلطان البلاد التى تشرف على البحر الأسود بحثا عن عبيد يشترونهم ، كما كان بعض التتار يديرون سوقا للعبيد مفتوحـا بصفة دائمة فى فندقهم بالاسـكندرية ، كان بعض البنادقة والجنويين يجوبون مختلف أنحاء العالم يجمعون فتية صغارا يبيعونهم فى مصر • ولكنا سوف نعالج هذا الموضوع بمزيد من التفصيل فى فصل خاص •

وفى نظير منتجات الغرب ، كانت مصر وتشمل النوبة والحبشة تعرض سكرا ممتازا ، وتمرا ، وليمونا ، وزهر الكبر ، والسنا ، والبلسم الذى كثيرا ما يغش فى التجارة (١٠٩) وتيلا ممتازا من حيث جودته ، وقطنا ، وشبا ، ونيلة • وكانت مصانع النسيج المشـهورة فى الاسـكندرية ، ودمياط ، وتنيس ، ودابق ، الخ ، تنتج أقمشة رقيقة مشهورة فى الشرق والغرب (١١٠) • ولكن التجار الغربيين لم يكونوا يقصدون الاسكندرية طلبا لهذه السلع ، بل كانوا يطلبون غالبا توابل الهند ، وفى مقدمتها الفلفل (١١١) • ويلاحظ السيد بيسكل Peschel (١١٢) بحق أن الفلفل كان فى الاسكندرية فى العصر الوسيط سلعة تجارية لها من الأهمية ما للشاى والقطن فى الوقت الحاضر فى انجلترا ، والسكر والتبغ فى كوبا واسبانيا • وبعد الفلفل ، كان كبش القرنفل ، وجوزة الطيب ، والقرفة ، والزنجبيل ، وشجر البقم ، وخشب الصندل ، والعـاج ، واللآلىء ، والأحجار الثمينة تتيح مجالا لحركة تجارية كبيرة •

ونحن نعـرف من قبل الطريق الذى كانت هذه المواد النفيسـة تسلكه فى الفترات السابقة من بلاد الهند الى الاسكندرية • وفى غضون

---

(١٠٩) Schiltberger, p. 117.

(١١٠) Francisque Michel, Recherches sur le commerce des étoffes de soie, I, 277-284. Calcaschandi, trad. Wüstenfeld, l.c., p. 112, 175 et s., 193.

(١١١) كان فى الاسكندرية « باب » الفلفل ، و« شارع » الفلفل • — Machaut, p. 91, 97, 98, 280.

(١١٢) Deutsche Vierteljahrsschrift, 1855, 3e livrois, p. 212.

الفترة التى ندرسها الآن حدثت ظاهرة فريدة : ذلك أن الحركة التجارية الهندية الكبيرة أخذت تبتعد بالتدريج عن طريق مصر العليا : فميناء « عيذاب » الذى كانت تفضله فيما مضى السفن المحملة بالتوابل بسبب سهولة دخوله (١١٣) ، أصبح مهجورا تماما ، ولم تعد « القصير » تستقبل سفنا مشحونة بالفلفل الا بصفة استثنائية حين تقوم عصابات متمردة من البدو بقطع طرق القوافل شمالى البحر الأحمر (١١٤) . وكانت النتيجة الأولى لهذا التغيير زوال جزء كبير من الأهمية التى كانت فيما مضى لمدينة « قوص » . واذا كانت هذه المدينة لايزال يتردد عليها المسافرون بدرجة ما ، فانها تدين بذلك لموقعها ، لأن عندها يبرح الحجاج المسافرون الى مكة والتجار القادمون من أعالى النيل ، يبرحون النهر ويعبرون الصحراء الى القصير أو عيذاب حيث يركبون البحر الى جدة . وهناك أيضا أى عند قوص يصل الحجاج والمسافرون عند عودتهم الى النيل ، راجعين الى بلادهم (١١٥) بقى أن نعرف العصر الذى لم تعد فيه اغلبية السفن الصاعدة فى البحر الأحمر ترسو ببضائعها عند الساحل الغربى لهذا البحر . هناك فى هذا الخصوص روايات مختلفة . فالمقريزى يجعل حدوث هذا التغيير فى عام ٧٦٠ هـ ويقابل عام ١٣٥٩ م (١١٦) ، ويجعله القلقشندى (١١٧) فى حوالى عام ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) ، ويقول ان الأمير صلاح الدين بن جورام ، الحاجب الأكبر للسلطان هو الذى اعاد ترميم ميناء الطور الذى هجره الملاحون منذ زمن بعيد ، وهو أول من استقدم سفن اليمن الى هذا الميناء . وقد مات القلقشندى فى عام ١٤١٨ ، ومات المقريزى فى عام ١٤٤١ . وعن الموضوع الذى يشغلنا هنا ، يبدو لى أن الشاهد الأجدر بالثقة بشهادته هو الأقدم عهدا . والمعروف أن مدينة الطور واقعة فى الجنوب الغربى من شبه جزيرة سيناء ، ولم تكن سرقها معروفة تقريبا حتى هذه الآونة . واذ صارت مستودعا ومكتبا جمركيا (١١٨) لمنتجات الهند ، فانها اكتسبت شهرة مفاجئة (١١٩) . ويقصد جوتشى Gucci رفيق فريسكو بالدى فى رحلته الحديث عن

(١١٣) Calcaschandi, p. 169.

(١١٤) Sanut., Diar., III, 476 ; IV, 343, 418, 492.

(١١٥) Quatremère, Mém. sur l'Egypte, I, 197 et s. ; Calcaschandi, p. 169.

(١١٦) Quatremère, l. c. II, 163.

(١١٧) Calcaschandi, p. 170.

(١١٨) Khalil Dhahéri, extraits donnés par M. Venture dans Volney, voy. 1, 235 ; Ritter, Simaihalbinsel, p. 58.

(١١٩) Aboulf., Géogr., trad. Reinaud, I, 30, 147.

الطور حين يقول ان السفن المحملة بالتوابل ترسو عند سانت كاتريفل Ste Cathèrine (١٢٠) ، وهو اذ يطلق هذا الاسم على هذا الميناء ، فذلك لأن هذا الميناء ، دون سائر موانيء البحر الأحمر هو الأقرب من دير سانت كاترين ، على جبل سيناء (١٢١) • ومنذ أن استرد الميناء مكانته ، صار في وسع الحجاج أن يلمحوا عن بعد ، من فوق شرفات الدير المجاور ، في بعض فترات السنة (١٢٢) عددا كبيرا من السفن المحملة بالتوابل ناشرة كل قلوعها ، ومقبلة على الميناء الواقع تحت سفح الجبل (١٢٣) ، ويسمونها أحيانا سفن بلاد الهند ، أو السفن الهندية ، ولكن لايجوز أن تاخذ هذه التسميات بمعناها الحرفي • فالتوابل تنقل من عدن الى سفن مصرية ، وتغدو ملكا لتجار مصريين • وكانت عدن مركزا كبيرا للمبادلات ، ولم يكن التجار الهنود يتجاوزون هذا الميناء • ومع ذلك حدث تغير في هذا الخصوص ، في منتصف الفترة التي ندرسها (١٢٤) : فمنذ عام ١٤٢٢ ، بحث قباطنة السفن الهندية عن ميناء آخر غير ميناء عدن يفرغون فيه شحناتهم ، ذلك لأن أمير اليمن المقيم في عدن كان يمنع بالقوة نقل هذه البضائع الى مصر ، ويعمل على احتجاز أكبر قدر منها ، ويصدرها في قوافل تابعة له • وكان هذا التصرف مثيرا أيضا لغضب تجار الاسكندرية ودمشق ، لأنه يتسبب في تأخير وصول البضائع ، ويترتب عليه خسائر نسبية تصيبهم • وتعب قبطان من قاليقوط Calicut ، يدعى ابراهيم من هذه المضايقات ، فمر عدة مرات على مرأى من عدن دون أن يتوقف عندها ، وراح يبحث في داخل البحر الأحمر عن ميناء لاتعاني فيه التجارة كل هذا العناء • وبعد كثير من الروحات والغدوات ، وقع اختياره في عام ١٤٢٤ على جدة ، ميناء مكة • وكان سلطان مصر الملك الأشرف برسباي قد استولى منذ قليل على المدينتين ، ودعا وزيره قرقماس Kirkmich ابراهيم أن ترسو سفنه عند جدة ، وبذل ما في وسعه ليحبب اليه الاقامة فيها • وفي السنة التالية ، عاد ابراهيم ومعه أربع عشرة سفينة ، وحذا آخرون حذوه • وفي عام ١٤٢٦ اجتمع في الميناء في وقت واحد أكثر من أربعين سفينة من الهند وفارس • وفي عام ١٤٣١ ، أو ١٤٣٢ شوهدت هناك سفن

(١٢٠) Gucci, p. 314.

(١٢١) Piloti, p. 357.

(١٢٢) Gulcci, l. c.

(١٢٣) Frescobaldi, p. 87, Breydenbach, fol. 198, b; Geo. Gemnic., p. 501.

(١٢٤) Makrizi ... publiés par M. Weil dans sa Gesch. der Chalif., V, 180 et s.; de Sacy, Chrestom. arab., II, 54 et s. ; Piloti, p. 354 et s.

شراعيـة صينية خيزرانية عـديدة ، لم تستطع تصريف بضائعها فى عدن بشروط مجزية ، وقوبلت هذه السفن بالترحاب ، بأمل أن تكون زيارتها هذه بداية لحركة تجارية مباشرة مع الصين (١٢٥) • وأراد امير اليمن احتجاز الهنود بالقوة فى عدن ، ولكن باءت محاولته بالفشل ، فقد تأهب السلطان جهارا لارسال حملة ضده ، وكان فى هذا التهديد ما يكفى لانتزاع وعد من الأمير بترك السفن الهنـدية حرة لمواصـلة سيرها فى البحر الأحمر • الا أن السلطان اعتزم القضاء على عدن ، ولكى يتم له ذلك ، فرض ضريبة مضاعفة على البضائع الواردة من هذا الميناء ، اذا أتى بها سوريون أو مصريون ، كما أمر بمصادرتها اذا كانت ملكا لتجار اليمن • وكان جشع السلطان كفيلا بأن يفسد كل شىء ، وكاد أن يرد الهنود الذين كان يريد أن يجتذبهم اليه : ومع ذلك قنع فى النهاية برسم قدره ١٠٪ عند دخـول ميناء جدة • ومنذ تلك اللحظة بدأ رخـاء عدن يتناقص لصالح منافستها ، وبخاصة مكة • اذ كانت مكة على الدوام من الأسواق التى يباع فيها توابـل الهنـد (١٢٦) . ولما كانت مركز الديانة الاسلامية ، وبها سوق كبيرة الأهمية تنعقد مع الاحتفالات الكبرى التى تقام هناك كل سنة ، كان لابد أن تزدهر تجارتها على نطاق واسع • وكانت السلع الخفيفة الوزن ، أو الصغيرة الحجم تحمل اليها على ظهور الجمال • وينضم المصريون الذين يشترون هذه السلع الى قوافل الحجاج الكبيرة ، فيصلون معها الى القاهرة فى ثلاثين يوما ، فيتمتعون على هذا النحو بمزايا السفر الآمن من سطو اللصوص • أما البضـائع الثقيلة الوزن ، أو الكبيرة الحجم فانهـا تشحن بالسفن فى جـدة ، ومنها تبحر الى الطور • وسارت الأمور على هذا النحو حتى عام ١٤٤٠ ، كما ينبئنا بيلوتى Piloti (١٢٧) • الا أن السفن الهندية لم يكن فى مقدورها دائما تنظيم رحلاتها عبر المحيط الهندى والبحر الأحمـر بحيث يتوافق وصـولها الى جـدة مع أعياد مكة ، لأن زمن هذه الأعياد يختلف من سنة الى أخرى ، فى الشتاء والصيف ، وفى الربيع والخريف • ويقول بياوتى

(١٢٥) Quatremère, Mém. sur l'Egypte, II 291.

(١٢٦) La Broquiére, p. 502 ; Fel. Farbi, II. 542 ; Zurla, Di Era Mauro, p. 49 et s.; Varthema, dans Ramusio, I, 151; Sommario di tutti lo regni, ibid. p. 324 et - ; Barbosa, ibid. p. 291, 310, b ; Corsali, ibid. p. 182; Roteiro da viagem que fez D. Vasco da Gama (Petro, 1838), p. 88.

- يحكى عبد الرزاق الذى زار الهند الشرقية بين ١٤٤١ ، ١٤٤٤ انه كان يبدأ رحلاته دائما من قاليقوط الى مكة فى سفن محملة فى معظمها بالفلفل :

(Not. et extr., XIV, 1, p. 442 Elliot. Hist. of India IV, 103).

(١٢٧) Piloti. p. 355-358. Gucci (p. 407).

فى موضع آخر أن أكبر كمية من التوابل التى ترد الى الاسكندرية تصلها فى شهر سبتمبر آتية من القاهرة مباشرة بالطريق النهرى ، لأن فيضان النيل فى هذا الشهر يسمح بابحار المراكب الى الاسكندرية (١٢٨) ٠ يدلنا هذا على وجود حركة تجارية تنشط فى موعد محدد ، دون اعتبار لسوق مكة ٠ والواقع أن هذه الحركة التجارية كانت قائمة بخاصة على ما يبدو بالنسبة للتوابل المصدرة الى الغرب ٠ وفى هذا الخصوص ، تتوافق معلومات فليكس فابرى ، وبريدنباخ تمام التوافق مع معلومات بيلوتى ، وكان هذان السائحان عائدين معا من الأرض المقدسة (فلسطين) فى خريف عام ١٤٨٣ ، وبعد أن زارا جبل سيناء ، كان عليهما أن يمرا بمصر ، وفى عزمهما ركوب البحر على متن احدى سفن البندقية الذاهبة الى الاسكندرية لتتمون بشحنات من التوابل ، وكانا يعلمان أن هذه السفن تغادر الاسكندرية فى مواعيد محددة تتوافق مع مواعيد وصول السفن المحملة بالتوابل الى ميناء الطور (١٢٩) ، لأن الشحنات تنقل كما هى الى سفن البندقية وفى الأيام الأولى من شهر أكتوبر ، كان السائحان يعبران الصحراء مقتربين من البحر الأحمر ، فالتقيا بقافلة قادمة من الطور (١٣٠) ، واستفهما عما اذا كانت « سفن الهند » قد وصلت الى الميناء ، فقيل لهما ان هذه السفن موجودة بالفعل فى الميناء منذ عدة أيام ، وان البضائع التى أحضرتها أخذت طريقها الى القاهرة ، وان سفن البندقية موجودة قبلا بالاسكندرية فى انتظار وصول البضائع ٠ وأدرك السائحان أن ليس لديهما وقت يضيعانه اذا أرادا الوصول فى الوقت المناسب ، وقيل لهما الشىء نفسه فى القاهرة (١٣١)٠ وتؤكد المعلومات التى أثبتها أوزانو Uzzano فى كتابه « الوجيز للتاجر » هذه الأخبار : اذ ينبئنا بأن السفن البندقية المتجهة الى الاسكندرية تقلع بانتظام بين ٨ ، ٢٣ من سبتمبر (١٣٢) ، وأنها تكون

---

(١٢٨) Piloti. p. 390.

(١٢٩) يؤكد هذه المعلومة الواقعة الاتية : ذلك أنه بعد وفاة قايتباى ٨ اغسطس ١٤٩٦) وقعت اضطرابات ازعجت مصر ، وهددت الامن فى الطريق ٠ انظر :
Malipiero, p. 634

(١٣٠) كثيرا ما كان الحجاج ينضمون الى القوافل التى تسافر بين الطور والقاهرة ، كانت تلك حالة تينو : Thenaud p. 51, 59, 66. وثمة اشخاص آخرون كانوا يلتقون بهم فى الطريق :
Frescobaldi, p. 64 ; Gucci, p. 313 et s. ; Tucher, p. 367, b ; Geo Gemnic. p. 492, 493, 508 ; Tafur, p. 94 et s.

(١٣١) Fabri, II, 522 ; Breydenbach, fol. 111, b, 118 b.

(١٣٢) Uzzano, p. 104.
= غادر فريسكوبالدى البندقية على سفينة تجارية فى ٤ من سبتمبر ، فوصل الى الاسكندرية فى ٢٧ من الشهر نفسه ٠

على أهبة العودة من الاسكندرية بشحنتها من التوابل فى منتصف أكتوبر ، أو أوائل نوفمبر (١٣٣) . ويتحدث أرنولد فون هارف (١٤٩٧) عن وصول التوابل الى ميناء الطور ، ويفهم من حديثه أنها تصل سنويا فى دفعتين ، دفعة فى شهر سبتمبر ، وهى التى تكلمنا عنها منذ هنيهة ، والثانية فى شهر مارس (١٣٤) . ويبدو أن البندقية نظمت أيضا خدمة بحرية تتوافق مع هذه الدفعة الثانية ، فكانت ترسل سفينتين كبيرتين الى الاسكندرية « بعد عيد الملوك » (١٣٥) .

وبعد الطور ، نجد فى الحوليات أحيانا اسم « السويس » ، ولكنها كانت بالأحرى ميناء لبناء السفن ، لا للتجارة . ولما كان هذا الميناء واقعا عند الطرف الشمالى من البحر الأحمر ، وسط أجزاء ضحلة من البحر ، فكان لابد للوصول اليه من نقل التوابل فى مراكب صغيرة ، ولا يلجأ أحد الى هذه العملية الا فى أحوال استثنائية (١٣٦) .

ويمتاز الطريق الذى تكلمنا عنه بنوع خاص بأنه بحرى أو نهرى بأكمله تقريبا ، اللهم الا فى جزء صغير جدا منه حيث يتعين اللجوء الى وسائل النقل البرى ، ومن ثم فهى بذاتها قليلة التكاليف . غير أن الوسطاء فى مصر يطلبون عمولات باهظة ، والسلطان يستغل الى أقصى درجة وضعهم المهنى ، مما جعل مصر تحتكر عبور السلع التجارية المطلوبة أكثر من غيرها . ولما كانت القاهرة واقعة بين بحرين ، البحر الأحمر ، والبحر المتوسط ، فان من يحكمها ـ كما يقول بحق بيلوتى ـ يتحكم فى العالم المسيحى من جهة ، وفى الهند من جهة أخرى ، لذلك فالهدف الأساسى الذى يقترحه ، فى مشروعات الحروب الصليبية ، القضاء على سلطة السلطان حتى يستطيع المسيحون أن يمارسوا التجارة مستقبلا بشكل مباشر مع البلاد المنتجة للتوابل . ويتبين من تقديراته أن الضرائب

---

(١٣٣) نجد مثالا لذلك عن شهر اكتوبر فى « بيلوتى » : Piloti. p. 400 et s.

(١٣٤) كانت السفن التى تجلب التوابل تتقابل دون شك مع السفن التى تبرح قليقوت عادة فى شهر فبراير :
Harff, p. 133.
Barbosa. dans Ramusio, I, 310 b.

(١٣٥)
Harff, p. 57.

(١٣٦)
Calcaschandi, p. 170 ; Ibn Khaldoun, dans not. et extr., XIX, 119 ; Tucher, p. 367, p. Ghistele, p. 215 ; Adorno, p. 153 ; Babosa. l.c., p. 291, 311 ; Sommario di tutti li regni. l.c., p. 324 ; Corsali, Ibid, p. 182.

الباهظة التى يفرضها السلطان ، وما يقترفه عملاؤه من ابتزاز تخلق عبئا ثقيلا يضاعف من ثمن التوابل عند وصولها الى الغرب (١٣٧) . وكان سانوتو Sanuto الأقدم من بيلوتى بقرن من الزمان قد كتب أن رسوم المرور التى فرضها السلطان تبلغ ثلاثة أضعاف قيمة التوابل(١٣٨). ولنسلم ان شئنا مع أمارى Amari (١٣٩) أن سانوتو يبالغ فى تقديره هذا متأثرا بكراهيته المصريين : غير أن أمارى نفسه ، فى تقديره المتعارض لا يأخذ فى اعتباره سوى الضرائب والرسوم التى يدفعها الغربيون فى الاسكندرية ، وينسى تماما أن التوابل لاتصل الى هناك الا بعد أن تكون قد دفعت العديد من الرسوم والضرائب . والثابت أنها تدفع الضريبة لأول مرة حين تمس الأرض المصرية . وليس من شك ، من جهة أخرى ، أن هناك بعد ذلك جمارك داخلية ، ولو أنه يصعب اثبات ذلك بأدلة ايجابية الى بالنسبة الى القرن الخامس عشر . ونعرف فى خصوص الفترة التى تتحدث عنها ميناءين يتبعان مصر ، تمر بهما واردات الهند من خلال الجمارك ، هما جدة (١٤٠) والطور (١٤١) . ففى جدة كان رسم الدخول محددا بنسبة ١٠٪ ، ويصل هذا الرقم الى ١٥٪ اذا أخذنا فى تقديرنا ما يقترفه موظفو الجمارك من ابتزازات (١٤٢). ونجد التعريفة نفسها فى الطور . وينبغى هنا معرفة ما اذا كانت البضائع التى سددت الرسوم فى جدة تفرض عليها من جديد رسوم أخرى فى الطور ، وهذا أمر مشكوك فى صحته . أما بيلوتى فانه يعتقد أنها لاتخضع لضريبة جديدة (١٤٣) ، ومع ذلك يؤكد الروتيرو le Roteiro العكس . وعلى أية حال فالبضائع تمر لثانى مرة بجمرك القاهرة ، ان لم يكن لثالث مرة ، وهناك يجب أن تدفع ١٥٪ بصورة مشروعة أو غير مشروعة (١٤٤) . وأخيرا تمر البضائع برشيد ، قبل وصولها الى الاسكندرية ، وهناك تصادف جمركا آخر — كما يقول

---

(١٣٧) Piloti, p. 359, 360, 378.

(١٣٨) Sanut, p. 23.

(١٣٩) Dipl. arab., p. lxiii.

(١٤٠) Piloti, p. 355 ; Roteiro, p. 88.

(١٤١) Ghistele, p. 229.

(١٤٢) Piloti, l.c.

(١٤٣) Piloti, p. 357.

(١٤٤) Pilati, p. 357 ; Roteiro, p. 89.

روتيرو • وفى الاسكندرية تخضع كل البضائع الداخلة من الأبواب من ناحية البر لضريبة قدرها ١٠٪ (١٤٥) •

ولما لم يكن فى استطاعة التجار الغربيين أن يستلموا التوابل الا فى الاسكندرية ، اذ كان لابد من سداد كل الضرائب التى عددناها بواسطه الوكلاء ، ولكنهم يهتمون باسترداد ما دفعوه من ضرائب برفع ثمن البضائع بمجموع هذه الضرائب التى سددوها ، ومصاريف النقل التى دفعوها • ولم يكن هذا هو كل شىء بالنسبة للتجار الغربيين ، فعليهم أيضا أن يدفعوا ضرائب لحسابهم الخاص • وكان تحديد الرسوم الجمركية وغيرها من الرسوم والضرائب التى يريد سلاطين مصر فرضها عليهم تشكل قاعدة لمفاوضات لاتنتهى بين هؤلاء وبين الأمم الأوروبية التجارية ، وتنبئنا المعاهدات العديدة التى حفظت نصوصها بالنتائج التى انتهت اليها • وفى هذا الخصوص دون بجولوتى فى كتابه الملاحظة الآتية : « ما يستورده المرء الى الاسكندرية يدفع عنه رسم دخول قدره ٢٠٪ ، ولا يدفع عنه رسم خروج » (١٤٦) • هذا غير صحيح ، اللهم الا من حيث أن المستورد لايدفع أى رسم خروج على السلع التى لم يبعها ، والتى يعود فيصدرها الى جهة أخرى ، ولكننا لانجد فى عهد بيجولوتى أو من قبله ، فى المعاهدات التى وصلت الى علمنا أنه قد فرض على أية أمة غربية رسم دخول قدره ٢٠٪ • ويقترح السيد ماس لاترى M. de Mas Latrie (١٤٧) وضع ١٠ بدلا من ٢٠ ، ويقترب هذا التصحيح كثيرا من الحقيقة ، ذلك لأنه فى زمن بيجولوتى كانت ١٠٪ هى السعر المتوسط ان لم تكن السعر المعمول به بالنسبة الى جميع الأمم ، وكل السلع التجارية • ولما كانت المعاهدات تحمل دائما رقما منقوصا ، فانها لاتنبئنا بشىء عن التعريفة العامة المطبقة على كل التجار الذين لم تطلب الحكومة من السلطان تخفيضا لهم • ويمكن التسليم مع ذلك بأن التعريفة لايمكن أن تقل عن ٢٠٪ • وفى عهد بيلوتى كان تجار البربر (بشمال أفريقيا) يدفعون بالاسكندرية ١٨٪ (١٤٨) • ولم يكن البيزيون يدفعون أقل من ١٦٪ ، وهو سعر حدده لصالحهم الملك العادل فى عام ١٢١٥ أو ١٢١٦ (١٤٩) • ويزعم البعض أن السلطان خفض لهم بعد ذلك هذه

---

(١٤٥) Tucher, p. 369, b.

(١٤٦) Regol, p. 58.

(١٤٧) Hist. de Chypre, II, 320.

(١٤٨) Piloti, p. 370.

(١٤٩) Amari, Dipl. arab., p. 285.

التعريفة ، ولكن لا يوجد فى أية جهة أى أثر لهذا التخفيض ، وكانت آخر معاهدة بين بيزا ومصر وصلت الى أيدينا تحمل تاريخ عام ١٢١٥ ـ ١٢١٦، كما زعم البعض أن البيزيين تمتعوا فى فترة سابقة بتعريفة أقل ، غير أنه لم يمكن الوصول الى هذه النتيجة الا عن طريق تفسير خاطىء لدبلوما عام ١١٥٤ التى نجد فيها اشارة الى ضريبة قدرها ١٢٪ ، ولكنها رسم انتاج (١٥٠) ثم ان زيادة التعريفات المتفق عليها واقعة لايوجد مثال لها . وحتى أواسط القرن الرابع عشر ، كان القطالونيون يدفعون رسما جمركيا قدره ١٥٪ ، ولم يحصلوا على تخفيض هذه التعريفة الى ١٠٪ الا فى عام ١٣٥٣ (١٥١) . هذا التخفيض ، حسب نص الوثيقة الرسمية التى أذيعت على عامة الشعب ، جعل البيزيين على مستوى واحد مع « البنادقة ، والجنويين ، وسائر التجار » . وكان هذا هو فى الواقع السعر المكفول للبنادقة بعد عام ١٣٤٥ على الأقل ، أى منذ سفارة نيكولو زينو (١٥٢) . ولم يتمتع الجنويون بهذه التعريفة الا بالنسبة لبعض السلع ، وبخاصة الأنواع التى تباع بمقياس الطول القديم « الأون» (ويساوى ١٫١٨٨ متر ـ المترجم) ، كالأقمشة ، والخيوط الحريرية ، والخشب . وبالنسبة الى السلع التى تباع بالوزن ، كانوا يدفعون ١٢٪ ، ولعل هذا الفرق يرجع الى اضافة رسم للوزن (١٥٣) أما بخصوص « سائر التجار » ، فنحن نعلم ، على سبيل المثال ، أن تجار رودس كانوا يدفعون ١٠٪ فى الاسكندرية و١٣ ٪ فى دمياط (١٥٤) . وشيئا فشيئا أصبح هذا السعر هو القاعدة العامة لكل الأمم التجارية (١٥٥) . ومع ذلك كانت هناك سلع تخضع للضريبة بسعر يقل عن غيرها ، أو كانت معفاة اعفاء تاما ، وهى مواد يشتد الطلب عليها ، ومنها الذهب والفضة ، والأحجار الكريمة ، والفراء (١٥٦) .

وكانت الرسوم الجمركية واحدة بالنسبة الى كل من التصدير والتوريد : ومن ثم كان على التجار أن يضيفوا ١٠٪ على كل الرسوم

---

(١٥٠)

(١٥١) Capmany, Mem. IV, 107.

(١٥٢) Taf. et Thom. IV, 292 ; Mas Latrie, Traités, app., p. 89 ; Amari, Dipl. arab., p. 348 ; Harff, p. 77

(١٥٣) Lib. jur., II, 245.

(١٥٤) Paoli, Cod. dipl., II, 109.

(١٥٥) Machaut, p. 173 ; Uzzano, p. 113; Tucher, p. 369. ; Leo Africanus, dans Ramusio, I, 82 ; Calcaschandi, p. 164.

(١٥٦) Amari, Dipl. arab., p.285 ; Taf. et Thom., II, 337, 487; Lib. jur., II, 244 ; Sanut, p. 24 ; Mas Latrie, Traités, append., p. 83, 89.

التى تحملوا عبئها من قبل · فنرى بالاجمال أن بيلوتى كان على حق حين قال ان الرسوم الجمركية التى تدفع فى مصر تضاعف ثمن التوابل ، ولا ننسى أنه لابد فى كل مكان من أن يؤخذ فى الاعتبار مطالب موظفى الجمـــارك غير المشروعة ، مما يؤدى الى ضريبة اضافيـــــة حقيقيـة · ولما كانت الرسوم الجمركية تقدر حسب قيمة السلعة ، فانه قبل تحديد المبلغ الذى يتعين دفعه ، يجرى أولا وزن المواد ، أو قياس طولها ، ثم يقدر المبلغ ، ويتخذ موظفو الجمرك كقاعدة للتقدير السعر الجارى(١٥٧)· ولايمكن أن تخرج السلع من مخازن الجمرك قبل انجاز هذه الاجراءات التى يبلغ عددها قرابة الثلاثين كمــــا يقول بيلوتى (١٥٨) · وبمقتضى المعاهدات ، كان لكل من الأمم التجارية الكبرى الحق فى أن يكون لها داخل نطاق الجمرك مخازن فسيحة مغطاة ، تحتفظ الجالية بمفاتيحها ، ويكون الجمرك مسئولا عن البضائع المخزونة · وبعد سداد الرسوم ، يصير كل انسان حرا فى أن ينقل بضائعه من مخازن الجمرك الى فندقه · الا أن الجزء الأكبر من البضائع يباع فى الجمرك نفسه (١٥٩) · وكان المتبع ، بعد وصول السفن الغربية أن تجـــرى بيــوع بالمزاد العلنى ، فيستطيع التجار المصريون أن يتزودوا بالمنتجات الأوروبية ، الا أن من حق الباعة أن يسحبوا من المزاد السلع التى لايحصلون عنها ثمنا مجزيا· وكان يتم أيضا فى الجمرك عدد من الصفقات بين الأفراد · وبالنسبة الى هذا النوع من البيوع ، يعتمد الطرفان على مساعدة ترجمان وسمسار· ويشكل السماسرة اتحادا منظما له وكلاؤه ، وتزودهم رسوم السمسرة بايرادات كبيرة لدرجة أن السلاطين ، وهم دائمـا جشعون ، يصادرون نصف هذه الايرادات لصالحهم الخاص (١٦٠) · وكل صفقة تبرم بمعاونة هؤلاء الوسطاء ، وبحضور بعض الشهود تعتبر نهائيـــة · واذا أراد المشترى أن ينقض ما وعد به ، فان الجمرك يجبره أن يحتفظ بالبضاعة ، ويدفع الثمن · ومع ذلك لم يكن الجمرك هو المكان الوحيد الذى تعقد به الصفقات التى لها صفة شرعية : فكان فى وســع البائعين والمشترين أن يعقدوا صفقاتهم فى الفنادق ، وعلى متن السفن ، وفى منازل خاصة ، ويضمن الجمرك أن ينفذ المشترون المسلمون شروط الســوق ، بشرط

---

(١٥٧) Amari, Dopl. arab., p. 189, 206, 348, 375.

(١٥٨) Piloti, p. 388.

(١٥٩) تجرى البيوع فى قسم خاص ، يوجد به ميزان ، ويطلق عليه اسم « قبان » Kabban المستعار من الفارسية :
Amari, p. 197, 338, 352, 376, 385; Marin, VII, 310.

(١٦٠) Amari, 1., p. 350 et s., 488, not. 6.

الاستعانة بترجمان الجمرك ، وانجاز الاجراءات الشكلية المعتادة • وعلى العكس ، اذا انعقدت الصفقة بدون اشتراك موظفى الجمرك فى عقدها ، فليس أمام البائع ، فى حالة النزاع سوى أن يلجأ الى القاضى • وثمة حالة تحدث كثيرا على ما يبدو : ذلك أن بعض المسلمين من علية القوم يستغلون نفوذهم فينتزعون من الغربيين بضائعهم بثمن أقل من قيمتها ، أو أن بعض كبار التجار المصريين أو عملاء السلطان يجبرون الغربيين على قبول بضائع لايريدونهـــا • بل ان الجمرك نفسه كثيرا ما كان يشترى بضـــائع لحســـابه الخاص ، ويســـتغل مركزه فى الضغط على المستوردين (١٦١) كانت هذه كلها ضروبا من الاستغلال واساءة استعمال السلطة شكت منها الأمم التجارية ، وحاولت علاجها بأن تنص فى معاهدتها على شروط خاصة بها • كأن الغربيون يستخدمون فى السداد ، بصفة جزئية ، نقودهم الذهبية : مثال ذلك « السكين » Sequinus (الدوكا) البندقى ، وكان عملة شائعة • أما الفلورنسيون فقد حصلوا على ضمانات فى معاهدات عقدوها تنص على قبول عملتهـــم « الريـــال الذهبى » (fiorino d'oro) (١٦٢) • وثمة طريقـــة أخـــرى شائعـــة تتمثل فى احضار سبائك ذهبية وفضية يضرب منها دنانير ودراهم ، الخ (١٦٣) • فى دور سك النقود بالاسكندرية والقـــاهرة ودمشق (١٦٤) : وكان السلطان ، مثله مثل ملوك دول أخرى كثيرة الصلات بالأجانب (١٦٥) ، يلبى عن طيب خاطر الطلبات التى من هذا القبيل • وثمة عدد كبير من الصفقات التجارية تنعقد بين غربيين وشرقيين دون أن يكون هناك بيع أو شراء حقيقى ، ولكن بالمقايضة البسيطة baratare • وكانت فترة رسو السفن التجارية الغربيـة فى الاسكندرية وفى موانى أخرى تسمى mutare (muda أى تبـــادل) لأن وجـــودها يتيح الفرصـــة لاقامة سوق تتميز خاصة باجراء مبادلات تجارية عديدة ، أو لأن السفن التجارية كانت فى ذلك العصر تبدل بشحنتها شحنة جديدة • وكان التجار الذين يريدون الا تطول اقامتهم فى مصر يرتبون أمورهم بحيث

(١٦١) Le rapport sur la mission de Bonnesmains en Egypte (1327-1329) ; Bibl. de l'Ecole des chartes XXXVI, 596 ;

(١٦٢) Amari, Dipl. arab., p. 208, 339, 370, 370, 385.

(١٦٣) Lib. jus., II, 247 ; Taf. et Thom., II. 340, 489, Mas Latrie, traités, append., p. 83, 89 ; Marin, VII, 314.

(١٦٤) Ghistele, p. 291.

(١٦٥) Pegol., p. 5 et s., 44, 68 et ss., 93, 97, 108, 110, 124 et s., 184 et 35., 194 ; Uzz., p. 80, 97, 142, et. s., 166 ; Taf. et Thom., II, 66. Mas Latrie, Traités, p. 225.

تنتهي أشغالهم في تلك الفترة • ولم يكن في وسعهم ، والحالة هذه التحكم في وقتهم حيث كانت جمهورية البندقية على الأقل تحدد ، عند اقلاع كل سفينة قاصدة الى ميناء أجنبي عددا من الأيام (١٦٦) • يسمح لها في غضونها أن تقيم بهذا الميناء : ولم يكن من حق السلطة الاستعمارية ، أو اتحاد التجار ، أو قبطان السفينة أن يقرر اطالة المدة المحددة • وفي الحالة التي لاتسمح فيها الأحوال الجوية السيئة لسفينة ما أن تبحر في اليوم المقرر لها الابحار فيه ، فانه من المحظور عليها — اعتبارا من هذا اليوم — أن تأخذ على ظهرها بضائع جديدة (١٦٧) •

ومن المفيد معرفة قيمة منتجات الشرق التي يحملها الى أوروبا الأسطول التجاري المتجمع في ميناء الاسكندرية في فترة اقامة السفن بالميناء • وفي وسعنا أن نجمع في هذا الخصوص بعض الدلالات عن عدد السفن التي ترسلها البندقية عادة الى الاسكندرية • ففي مستهل فصل الخريف يتكون الأسطول بعامة من أربع الى ست سفن كبيرة (قوادس) (١٦٨) • فضلا عن ذلك ، وابتداء من عام ١٤٣٢ كانت سفينتان كبيرتان أو ثلاث سفن كبيرة ، يقال لها galee di traffico تبحر بازاء سواحل بلاد البربر (تونس) لتحمل منها منتجات البلد وتتجه بها الى مصر ، وتلحق بالأسطول الرئيسي الراسي بالاسكندرية ، وتأخذ نصيبها من الشحنات ، وتعود مع الأسطول الى البندقية (١٦٩) • نضيف أيضا الأسطول الذي يقلع في شهر يناير ، ويضم سفينتين الى أربع سفن (١٧٠) ، نصل بذلك الى مجموع من ثماني الى ثلاث عشرة سفينة في السنة • وعلم بييترو مارتيري دانجيرا Pietro Martire d'Anghiera ، بالسماع ، أن سفينة « غليونية » من نوع السفن التي ترسل الى الاسكندرية لاحضار التوابل ، كانت تحضر أحيانا توابل قيمتها ٢٠٠٠٠٠ دوكا (١٧١) • نرى من ذلك ، أنه في السنة التي لا يبحر

---

(١٦٦) أحيانا ٢٣ يوما ، وأحيانا ثمانون ، وأحيانا أربعون •
Tuher, dans le Reyasbuch, : p. 370, b ; Malipiero, p. 618.

(١٦٧) Cod. Berol. ital. Q. no 8, p. 9 et s., 13-15, 36, 6-37, b : malipiero, p. 613, Berchet, Relaz. dei consoli veneti nella siria, p. 38, 41, 42.

(١٦٨) Petr. Martyr ab Anglesia, p. 369 ; Breydenbach, fol. 12 ; Piloti, p. 400 ; Navagero, p. 1156 ; Malipiero, p. 613, 620, 621, 622, 628 et s. 635 ; Marin, VII, 292.

(١٦٩) Mas Latrie. Traités, p. 258, 268 et s. (documents) ; Marin VII, 289, 292, 301 : Breydenbach, p. 123, 127 ; Tucher, p. 370, b. Malipiero, p. 628, 635.

(١٧٠) Tucher, op. cit., Harff, p. 57.

(١٧١) P. 376 ; Sanuto, Vite dei dogi, p. 838.

فيها ســوى خمس من تلك السفن ، فان حمولتها قد تبلغ قيمتهـا مليون دوكا ٠

ولنعد الى الاسكندرية ٠ رأينا أن عددا كبيرا من التجار الغربيين يدبرون أمورهم بحيث يعودون مع السفينة التى جاءت بهم ، الا أن عددا آخر منهم يبقى فى الاسكندرية بضعة أشهر ، وأحيانا بضع سنوات ليجروا بهـا أعمالا تجـارية (١٧٢) ٠ وعلى ذلك كان لكل أمة من الأمم التجارية التى لها صلات بمصر جالية صغيرة تتجدد فى كل ســوق من أسواقها ٠ وكانت الجالية فى حاجة دائمة الى الحماية ، والى من يمثلها لدى السلطات المحلية ، وهذا من اختصاص حكومتها ٠ وقد انشىء من أجل هاتين المهمتين نوعان من الوكلاء : المندوبون التجاريون فى الجمرك والقناصل ٠ وتبين لنا مما سبق ذكره أهمية المسائل المتعلقة بالجمرك بالنسبة الى التجار ٠ كان من الضرورى اذن اقامة وكيل بصفة دائمة ، يتولى الاشراف على تطبيق التعريفات فى كل حالة خاصـة ، ويدون فى سجلات من ذات القيد المزدوج المبالغ التى يدين بها التجار للجمرك من جهة ، والتى يدين بها الجمرك للتجار من جهة أخرى بصفته مشتريا أو سمسارا ٠ فضلا عن ذلك كان هذا الوكيل بمثابة ضـمان كاف للتجار اذا كانوا عند رحيلهم مدينين للجمرك ٠ فكانت هذه هى وظيفة الوكيـل فى الجمـرك ، وكانت كل أمة من الأمم التجـارية تقيم فى الاسكندرية وكيلا عنها ، بموافقة السلطان ٠ الا أن هذا الوكيل كان مكلفا فقط بالدفاع عن المصالح المالية لمواطنيه فى الجمرك ، أما مهمة القنصل فكانت أقل تحديدا ، فكان عليه أن يدافع عن حقوق كل فرد من أفراد الجالية ، فاذا لم يستطع الحصول على هذه الحقوق من المحاكم المحليـة أو الاقليميـة ، فله أن يدافع عن قضـية الفرد حتى أمـام السلطان ، اما بشخصه أو عن طريق وكيل مفـوض عنه ، أو كتابة ٠ ولا يجوز لأمير الاسكندرية أن يعارض فى القضية ، بل من واجبه أن يعين شخصا يتولى حراسة القنصل أو مفوضه (muntius, ductor) ٠ ومن حيث المبدأ ، كان من حق كل غربى يشكو من تصرفات موظف مصرى أو من سوء نية مدين مسلم أن يخاطب فى ذلك السلطان مباشرة ، الا أنه لما كان القنصل يحظى بثقة أكبر لدى السلطان ، فان الغـربى يفضل أن يمثله القنصل فى دعواه ٠

لقد سنحت لنا مرارا فرصة الحديث عن القناصـل بوجه عام ، ومن ثم لا نضيف هنا الا ما يختص بوضعهم فى مصر ٠ كانت خـزانة

---

(١٧٢) Marin, VII, 292.

الجمرك ، التى تتكفل بدفع ايجارات الأماكن وصيانة المبانى التى تستخدمها الجاليات ، تدفع للقناصل مكافاة سنوية قدرها ٢٠٠ دوكا (دينار بيزنطى) (١٧٣) • هذه المكافاة التى يمنحها السلطان لممثلى الدول التجارية الغربية كانت دليلا ملموسا على اهتمامه بالمحافظة على علاقاته معها ، وهى علاقات تعود عليه بفوائد جزيلة ، ولكنه فى مقابل ذلك كان يعتبر القناصل الى حد ما بمثابة رهائن يحملهم مسئولية كل عمل عدوانى ترتكبه بلادهم ضد مصر (١٧٤) • وحسبنا أن نذكر مثالين لذلك• ففى مستهل القرن الخامس عشر ، أسر قرصان عند سواحل آسيا الصغرى سفينة تجارية مصرية تقل مائة وخمسين مسلما وتحمل شحنة ثمينة وباع كل ما بها من اناس وأشياء ليعقوب كريسبو دوق ناكسوس • واذ اعتبر السلطان دوق ناكسوس من رعايا البندقية فانه استدعى قنصل البندقية بالاسكندرية للمثول بين يديه ، وطلب منه اطلاق سراح الأسرى • وعبثا حاول القنصل أن يوضح له أن جمهورية البندقية لاتملك اصدار أية أوامر لدوق ناكسوس ، ومن ثم صادر السلطان فى ميناء الاسكندرية سفنا محملة بالتوابل ، وعلى متنها تجار بنادقة على أهبة الرحيل ، ولم يترك للجالية البندقية فرصة للهدوء والسكينة حتى اضطرت أخيرا لايفاد بياوتى وهو من أهالى كريت الى ناكسوس : وقام المبعوث بافتداء الأسرى بالمبلغ الذى صرفته اليه الحكومة المصرية ، وعاد بهم الى مصر (١٧٥) • ومرة أخرى ، فى عام ١٤٦٤ استأجر بعض الرعايا المصريين فى الاسكندرية سفنا بندقية للابحار بها الى بلاد البربر (شمال افريقيا) ، وعند مرور السفن بجزيرة رودس ، قبض على المصريين ونهبت أموالهم بخطأ وقع من قباطنة البندقية • وعلى سبيل الأخذ بالثأر ألقى السلطان فى السجن بقنصل البندقية بالاسكندرية وكل تجار أمته (١٧٦) • وكان القناصل الغربيون يضربون أحيانا بالعصى : وهذا ما حدث على سبيل

---

(١٧٣) Khalil Dhahéri, dans de Sacy, Chrestom, arabe, II, 40.
par M. Charrière, dans l'étude sur les Négociations de la France dans le Levant (Coll. des doc. inéd.), I, 128 ; un traité de 1403 publié dans Paoli, Cod. dipl., II, 109 ; Marin, VII, 311 et le Cod. Berol., cit. p. 5, b, 6, 46 ; Wilken, dans les Abh. der Berl. Akad., 1331, hist. polit. Cl. p. 35 ; Renaud, Nouveau journ. asiat., IV, p. 48, not. 5.

(١٧٤) Khalil Dhahéri, dans de Sacy, Chrestom, arabe, II, 40.

(١٧٥) Piloti, p. 400-405.

(١٧٦) Malipiero, p. 614 et s .; Rawdon Brown, Calendar of state-Popars venet I, p. 115 et s.

المثال لقنصل قطالونيا بالاسكندرية في عام ١٤٠٨ ، وقنصل البندقية بدمشق في عام ١٤٧٣ (١٧٧) . نرى من هذا أن القناصل كانوا أحيانا يدفعون ثمنا غاليا نظير الشرف الذي يسبغه عليهم منصبهم ، اذ يضطرون الى العيش في ظل حكومة المماليك الطغاة .

لقد فرغنا من ذكر كل ما يتعلق بوضع الجاليات التجارية في مصر، وبقي أن نرى ما كان يحدث في سوريا في الفترة نفسها : ذلك أنه رغم صلات الجيرة . والتبعية التي تربط هذا الاقليم بمصر ، فان الأحداث جعلت له وضعا مستقلا يتطلب دراسة خاصة . ففي أواخر العصور الوسطى اكتسبت الحركة التجارية بين هذا البلد وبين الغرب دفعة جديدة رغم احتجاجات البابوات الذين أخذت أصواتهم تضعف بالتدريج حتى لم تعد تجد من يستمع اليها . وترجع هذه الانطلاقة الجديدة الى أسباب ثلاثة : أولها استيلاء الجنويين على تاماجوستا ، فقد انتقل هذا الموقع من أيدي ملوك لا يهتمون كثيرا بشئون التجارة ، ويتركون للتجار الأجانب من مختلف الجنسيات حرية مطلقة في التصرف ، انتقل من أيديهم الى أيدي أمة تجد فيها كل الأمم التجارية منافسا قويا (١٧٨) . ومن ثم كانت النتيجة المتوقعة : ذلك أن البنادقة أولا ، وفي أعقابهم غيرهم من التجار الغربيين جعلوا يمرون على مرأى من تاماجوستا ولا يتوقفون عندها ، ويواصلون سيرهم الى بيروت ، ومنها الى أسواق دمشق وحلب الاسلامية (١٧٩) . والسبب الثاني حدث معاصر تقريبا : ذلك هو القضاء على مملكة أرمينيا . هذه الكارثة أغلقت في وجه الغربيين طريق طورس (حاليا تبريز) ، وهي احدى النقاط التي كان يمر بها حتى ذلك الحين أكبر قدر من منتجات آسيا الوسطى . وأخيرا وقع حادث مكدر : فقد أصبحت طرق الشمال التي تصل منها عادة هذه المنتجات غير صالحة للاستخدام ، وذلك حين دمر تيمورلنك ، الغازي الكبير المحاط الرئيسية على هذه الطرق ، مما سبب ضررا بليغا لأهمية مدينة تانا باعتبارها مستودعا لمنتجات آسيا الوسطى (١٨٠) . وكانت غالبية منتجات الهند تصل الى أسواق

---

(١٧٧) Piloti, p. 412 et ss. ; Capmany, Memorias, I, 2, p. 58 ; Malipiero, p. 619.

(١٧٨) Piloti, p. 366 et s.

(١٧٩) Ulric Leman (Röbricht et Meisner, Deutsche Pilgerreisen, p. 104).

(١٨٠) Les Viaggi fatti da Vinetia alla Tana, etc. (Venet., Old. P. 18 et s. Gios Barbaro.

سوريا ، كما تصل الى أسواق مصر بهذه الطرق • وكانت قوافل الحجاج الكبيرة تجلب معها عند عودتها من الحج في مكة عددا كبيرا من الجمال المحملة بالتوابل ، وبخاصة الأصناف الثمينة منها ، والأخف وزنا (١٨١)، أما الأصناف الثقيلة فقد رأينا أنها تشحن في السفن التي تعبر البحر الأحمر حتى الطور ، وهنـــاك تجد القوافل في انتظارها لتنقلهـ الى دمشق (١٨٢) ، والثابت أن البحر الأحمر لم يكن خط المواصلات الأكثر ملاءمة للطبيعة بين الهند وسوريا : ذلك أن التيار الذي كان يصرف عن هذا الطريق جزءا من منتجات الهند لينقلها الى سوريا عن طريق باب المندب لم يكن سوى نتيجة للجاذبية القوية التي تمارسها على كل مسلم المدينة المقدسة (أي مكة المكرمة) • أما الطريق المباشر فكان يمر بالخليج الفارسي • فعند مدخل الخليج سوق كبيرة ، سوق هرمز ، ويرد اليها من قبل ، من كل أنحاء آسيا التجار والبضائع (١٨٣) ، وذلك قبل أن تصير هذه المدينة درة الممتلكات البرتغالية في هذه البقاع • وكان التجار السوريون يذهبون اليها ، مع غيرهم من التجار ، فيجدون بها تشكيلة كبيرة من التوابل : ومع ذلك كان البعض منهـــم يفضلون الا يتوقفوا هنـــاك ، بل انهم يواصلون السفر حتى قاليقوط Calicut ، وهي مركز لاقليم من أهم الأقاليم المنتجة ، فيشترون ما يلزمهم هناك (١٨٤)• ومن جهة أخرى لم يكن الهنود يقنعون دائمـــا بالذهاب بمنتجاتهم الى هرمز فقط ، فكان الكثير منهم يعبرون الخليج ، والبعض منهم يواصل ابحاره حتى البصرة (١٨٥) ، ومنها تنقل البضائع التي تقصد سوريا الى مراكب أخرى تصعد نهر دجلة حتى بغداد ، أو تحمل على ظهور الجمال التي تنتقلها الى بلاد ما بين النهرين • وكانت سوريا من جهة أخرى متصلة بالقوافل بوسط آسيا وتتلقى بهذه الطريقة بعض السلع التي يجد الناس في مصر صعوبة في الحصـــول عليهـــا • وكان تجـــار فارس

---

(١٨١) Frescobalri, p. 139 ; Gucci, p. 407 et s. ; Groquiére, p. 502 ; Piloti, p. 356 ; Fabri, p. 542.

(١٨٢) Gucci, p. 314 ; Piloti, p. 357 et s.

(١٨٣) La relation d'Abderrazzak (1442-1444) publiée par M. de Quatremére dans Notices et extraits. XIV, 1. p. 247 et ss., et par Elliot dans son History of India, IV, 95 et ss.; Nikitin (R. H. Major, India in the 15th century, p. 19); Varthema, dans Ramusio, I, 156; Sommario di tutti li regni, ibid. p. 326 ; Corsali, ibid. p. 187.

(١٨٤) Abderrazzak, l. c. ; Varthema, p. 161, b. ; Joseph l'Indien, dans le Novus orbis (1555), p. 203, 208.

(١٨٥) Varthema, p. 165, Roncinotto, dans les Viaggi alla Tana, p. 99, 6.

يزورون حلب (١٨٦) · ويتردد تجار سوريا على الأسواق الكبرى بمدينه سلطانية (بلدة فى الغراق العجمى ـ المترجم) (١٨٧) · ونتيجة لهذه المبادلات ، كان فى أسواق سوريا صمغ فارس ، وراوند الصين ، وحرير خام من جيلان (منطقة ش · غ · ايران ـ المترجم) ، وأقمشة ثمينة ، وسجاجيد منسوجة بأيدى الصناع الفرس والصينيين (١٨٨) ·

وكان الغربيون الذين يزورون دمشق (١٨٩) يبهرهم ثراء تجار المدينة ، وتنوع السلع التى تغطى بها أسواقها ، وجمال المعروضات وأناقتها (١٩٠) · وتزيد دهشتهم من دقة صنع المنتجات الأهلية · ويعزو فريسكو بالدى ورفيقه سيجولى Sigoli المهارة الفائقة لدى الصناع الحرفيين فى دمشق الى أن الحرف تنتقل بوجه عام من الآباء الى الأبناء (١٩١) · وكان هناك صانعو الحلوى ، الذين يصنعون المربات بفواكه لذيذة تزرع فى بساتين الضواحى ، ويبرعون فى حفظها طوال فصل الصيف فى الثلج الذى تزودهم به الجبال المجاورة (١٩٢) · وهناك صناع يشتغلون بالتقطير ، فيصنعون ماء الورد اللذيذ (١٩٣) ، وفنانون يرسمون على الزجاج روائع الزخارف العربية التى تحظى بأعظم تقدير فى القاهرة (١٩٤) · وحين يطوف المرء بحوانيت النساجين يشاهد بها أقمشة حريرية (١٩٥) وقطنية وكتانية من أجود الأصناف ، منها ما يسمونه « بوكاسينى » boccasini ، وهى أقمشة رهيفة ، براقة ، يحسبها الرائى حريرية · ويجد المرء عند صناع المعادن أوان نحاسية ، لها بريق كبريق الذهب ، وعليها تلبيسات فضية (١٩٦) ، وأسلحة يضرب المثل بجودتها ·

---

(١٨٦) Varthema, l.c., p. 148.

(١٨٧) Clavijo, p. 113-115.

(١٨٨) Clavijo, p 114 ; Uzz., p. 114 ; Pasi, p. 156, a, 177 b. ; Belon, Observations, p. 280 et s.

(١٨٩) Sigoli. p. 217 et ss ; Nicc. da Poggibonsi, II, 13 et ss. Pobbibonsi Damasco e le sue adiacenze nel sec. XIV Imola 1878.

(١٩٠) Ulr. Leman, op. cit., p. 197 ; Boldensele, p. 284.

(١٩١) Frescob., p. 141; Sigoli, p. 218.

(١٩٢) Frescob., l. c. ; Gussi, p. 402. et s. Gallicciolli, Memoric venete, VII, 80.

(١٩٣) Frescob., l. c. ; Sigoli, p. 216; Chemseddin, p. 264, 266.

(١٩٤) Sim. Simeon. p. 43.

(١٩٥) Geo. Gemnic., p. 588.

(١٩٦) Siagu p. 216.

لذا كتب نيكولو دى بوجيبونسى Niccolo de Poggibonsi يقول انه لا يصنع شيئا فى أية جهة من جهات العالم أحسن مما يصنع فى دمشق . ويبدو أن هذا هو رأى الغرب كله . وتضم قوائم الجرد المحررة فى القرون الوسطى كشوفا بكميات هائلة من المصنوعات المعدنية والزجاجية والمطرزة، المصنوعة فى دمشق أو المستنسخة من نماذج مقتبسة من مصنوعات تلك المدينة . وكان ماء الورد الدمشقى مقلدا فى أوروبا (١٩٧) . أما بخصوص حلب فان المعلومات التى أتى بها المسافرون من هناك فى العصور الوسطى قليلة جدا . ومن الأسف الشديد أن باربارو Barbaro ظن أنه يمكن الاستغناء عن تقديم أى وصف عنها ، بحجة أن هذا موضوع طرقه الجميع باسهاب ، وبخاصة مواطنوه البنادقة (١٩٨) . وجيستل الذى زار حلب فى عام ١٤٨٣ هو الوحيد الذى أنبأنا بأن أسواقها مزودة بوفرة من الحرير (١٩٩) ، والتوابل ، والأحجار الكريمة (٢٠٠) . نرى من ذلك أن تموين حوانيت التجار والصناع فى سوقى سوريا كان متماثلا على وجه التقريب . وبغض النظر عن هذه المواد ، كان البلد ينتج قطنا ممتازا فى جودته ، يستغله فى تجارة واسعة مع الغربيين . وباحتراق النباتات الغنية بالبوتاس ، من نوع السالسولا Salsolae ، وتنمو به بغزارة ، ينتج رماداً (٢٠١) مطلوب فى صنع الصابون (٢٠٢) والزجاج . وهناك أيضا الكثير من مزارع قصب السكر (٢٠٣) فى ضواحى طرابلس وبيروت وصور ، ويصنع بها سكر عديد الأصناف . ونجد دائما فى الوثائق المفيدة فى تاريخ التجارة فى ذاك العصر ، وفى كتب التجار هذه المنتجات الثلاثة : القطن ، والبوتاس ، والسكر مذكورة بتنويه خاص .

---

(١٩٧) من بين قوائم الجرد فى ذلك العصر ، تذكر قائمة كنز شارل الخامس ملك فرنسا ، وقد نشره السيد Labarte

Le Ménagier de Paris (II, 252 et s.)

(١٩٨) Barbaro, dans les Viaggi alla Tana, p. 52.

(١٩٩) Santu, Diar., V, 339, 710, et s. ; VI, 57 et s., 478.

(٢٠٠) Ghistele, p. 291 ; Harff (p. 200).

(٢٠١) "Cendre de Beyrout," Sanut, Diar., I, 404 etc etc.

(٢٠٢) فى سوريا . كانت نابلس مركزا لصناعة الانواع الفاخرة من الصابون ، وتصدرها ليس فقط الى مصر وبلاد العرب ، ولكن ايضا الى البلاد التى تشرف على البحر المتوسط :

Chemseddin, p. 171.

(٢٠٣) Machairas, p. 151 ; Ghistele, p. 63, 260 : Gucci, p. 413 : Chemiseddin p. 282; Relation de l'anonyme de S. Ulric d'Augsbourg, publiée par M. Birlinger, dans le Herrigs Archiv für das Studium neuerer Sparche, XL, 319.

وكان اعادة افتتاح هذه السوق الزاخرة متزامنا مع الآونة التى زادت فيها صعوبة الوصول الى أسواق أخرى ، وبخاصة الأسواق التى كان يستورد منها عادة منتجات وسط آسيا • وكانت فرصة طيبة انتهزها التجار بهمة وحماس • ولما كان الأمر يتطلب اعادة الأمور الى ما كانت عليه ، شعر التجار بالانجذاب نحو الموانى التى يستطيعون منها الاتصال - بأقصر الطرق المباشرة - بسوقى المسلمين الكبيرتين ، دمشق وحلب ، ومن ذلك الحين أصبحت بيروت المكان الرئيسى الذى يلتقون عنده ، ومنه تصدر كل المواد المشتراة فى دمشق • وفى تلك الآونة كانت بيروت ميناء جيدا وأمينا (٢٠٤) ، وتضم المدينة عددا كبيرا من السكان ، ولكنه أقل من عددهم فى عصر السيادة المسيحية • ولما كانت المدينة مشيدة فى موقع جميل ، محاطة بمزروعات جميلة ، فانها اشتهرت بأنها مدينة صحية ، يأتيها التجار لاستعادة صحتهم التى يضرها مناخ دمشق أو حلب أو صور • ولسوء الحظ لم يعد الناس ، منذ هدم أسوارها يحظون بها الا بأمن ضعيف (٢٠٥) • ففى أثناء اقامة جيستل بها ، نهبت عصابة من قطاع الطرق تضم عشرين عربيا وتركمانيا وبدويا منزلين يسكنهما تجار من البنادقة (٢٠٦) •

وبعد بيروت ، كان الميناء الذى يتردد عليه عدد كبير من الغربيين هو طرابلس ، حيث يلتقون بتجار من دمشق وحلب وبعلبك وحماه • وعلى طول الميناء يمتد عدد كبير من المخازن الواسعة المليئة بالبضائع التى يمكن بسهولة اختيار المناسب منها (٢٠٧) •

وكان ميناء اللاذقية أقل ذكرا من الميناءين السابقين • وقد يدهش المرء من ذلك لأول وهلة ، اذ كانت حلب أقرب الى هذا الميناء من أى ميناء آخر ، ولكن تفسير ذلك هو أن دخول هذا الميناء أصبح عسيرا للغاية (٢٠٨) •

وما أن رفعت أحكام الحظر التى تعيق التجارة ، حتى نظمت البندقية خدمة بحرية الى بيروت • وابتداء من السنوات الأخيرة للقرن الرابع عشر ،

---

(٢٠٤) Frescob., p. 145 ; Gucci, p. 314 ; Broquière, p. 485 ; Lannoy, p. 155 et ss.; Ghistele, p. 55; Harff, p. 198.

(٢٠٥) Sigoli, p .224 et s. ; Harff, p. 199 ; Lannoy, p. 155.

(٢٠٦) Ghistele, p. 263.

(٢٠٧) Harff, p. 200 Ghistele, p. 259 et s. ; Geo. Gemnic., p. 606 et ss.

(٢٠٨) Ghistele, p. 257.
Ghistele, p. 267.

تردد فى الكوليات والوثائق الرسمية البندقية (٢٠٩) ، من حين الى حين ، ذكر السفن المبحرة الى بيروت ٠

وفى عصر أوزانو Uzzano (حوالى ١٤٤٠) كانت السفن تقلع بين ٨ ، ٢٥ من أغسطس (٢١٠) ٠ وفى عام ١٥٠٠ تقدم هذا الموعد ، فصارت السفن تقلع عادة بين ١٥ أبريل و ١٥ مايو (٢١١) ، وتشمل القافلة ثلاث سفن أو أربعا ، وأحيانا عددا أكبر منها ، وقلما كانت أقل (٢١٢) ٠ ولم يكن هذا كل شىء ، اذ كانت هناك مواعيد أخرى للاقلاع : ففى شهر يناير تقلع سفن « سوريا » navi di Soria التى ترسو فى مختلف موانى سوريا (٢١٣) ، وفى شهر يونية يقلع أسطول صغير خاص يشحن قطنا ، وفى الخريف تواصل احدى سفن galee di Traffico التى تكلمنا عنها قبلا فى معرض الحديث عن مصر ، تواصل مسيرها الى بيروت وطرابلس (٢١٤) ٠

ومن المحتمل أن تكون هناك أمم تجارية غربية أخرى قد حذت حذو البندقية ، ولكن ليس لدينا ما يثبت ذلك ٠ وفيما يختص بجنوا ، لا يتطلب الأمر بحثا طويلا (٢١٥) ، فقد كانت جينوا فى هذه الفترة مسيطرة على فاماجوستا ، ومن ثم كانت تبذل قصارى جهدها لتحتجز الحركة التجارية بها ، فلم تتردد أساطيلها على موانى سوريا (٢١٦) ٠ وعلى العكس من

---

(٢٠٩) Mas Latrie, Hist. de Cyypre, II, 403, 405, 452, 456, 483 ; Sathas, Doc. inéd., II, 212; III, 243 ; Sanut., Diar., passim. Berchet, Relazioni dei consoli veneti nella Siria, Torino, 1866, p. 37.

(٢١٠) Uzz., p. 104 ; Mas Latrie, Hi t. de Cypre, II, 495 not.

(٢١١) Malipiero, p. 159.

(٢١٢) Sanuto, Vite dei dogi, p. 820, 835, 870, 884, 942, 1185 : Malipiero p. 159, 613, 615, 615, 620, 621, 622, 623, 628, 629; 649; Cazola, p. 91.

فى ١٠ من سبتمبر ١٢٧٧ أبحرت خمس سفن الى بيروت :
Commem. reg., III. p, 71, no 422 ; le sire Anglure (1395-1396), p. 99 ; Breydenbach (p. 12) ; Harff, (p. 57.)

(٢١٣) ربما فى عكا ، وبيروت ، وطرابلس ٠ انظر :
— Bibl. de l'Ecole des Chartes, 1874, p. 134.

(٢١٤) Uzz., p. 104 ; Harff, op. cit., Marin, VII, 301.

(٢١٥) لم يرد شىء يذكر فى موضوع البحرية التجارية فى حوليات أواخر العصور الوسطى — وذلك فيما يختص بسوريا ٠ ويمكن أن نذكر فى هذا الخصوص :
Sanuto, Vite dei dogi, p. 1036 et s.

(٢١٦) Capmany, Mem., IV, 184 et ss., 188 et s.
— يذكر هذا الكاتب رحيل ثلاث سفن كبيرة من برشلونة الى بيروت فى عام ١٣٩٥ ٠

ذلك كان القطالونيون يظهرون كثيرا في مواني سوريا • وقبل عام ١٣٨٠ هاجم أمير البحر البندقي كارلو زينو سفينتين من مارسيليا عند عودتهما من بيروت ونهبهما ، وكان لتاجر من ماريوقا في هاتين السفينتين بضائع اشتراها من دمشق ، فطالبت حكومته بتعويض له عن بضائعه ، وفتح مجالا لمفاوضات استمرت عدة سنوات (٢١٧) • نعرف أيضا مثالا لسفينة من ناربون كانت تقوم بالرحلة نفسها : فحين كان بيرتراندون دو لا بروكيير Bertrandon de la Broquière في سوريا ، أثناء رحلته في الشرق الأدنى، كان المنتظر عودة السفينة الى بيروت ، وكانت قد غادرتها الى الاسكندرية حيث أراد بعض التجار الفرنسيين الذين كانوا على ظهرها أن يبتاعوا توابل وسلعا أخرى ، ونزل من السفينة أحد الركاب في بيروت ، وذهب الى دمشق لانجاز بعض الأعمال ، وكان هذا الراكب هو جاك كير Jacéues Coeur الذى أصبح فيما بعد وزيرا لمالية شارل السابع (٢١٨) ، ملك فرنسا ، وكان للبنادقة والجنويين والقطالونيين فنادق في بيروت (٢١٩) • وحصل الغربيون على ترخيص بترميم كنيسة « القديس المخلص » S. Sauveur المتهدمة بالمدينة ، وأنفق على ترميمها عن طريق هبات من التجار المقيمين بالمدينة ، ومن رسم تدفعه السفن عند وصولها الى الميناء ، وكانت الكنيسة مجاورة لدير الفرنسيسكان ، يتولى رهبانهم أداء القداس ، ويستضيفون أيضا الحجاج ويلازمونهم أثناء اقامتهم (٢٢٠) • وفي طرابلس ، كان الفندق الوحيد الذى ثبت وجوده فعلا ينتمى الى البنادقة (٢٢١) • حقا ، ان الكتاب الذى نشر أخبار رحلة جيستل ، يحتوى على منظر لطرابلس يبدو فيه بيتان للتجار ، ينتسب أحدهما للبنادقة ، والثانى للفرنسيين ، غير أن صاحب هذه الرسومات الايضاحية هو ليونارد فريير Leonard Vriers من برابانت (دوقية قديمة ببلجيكا وهولندا ــ المترجم) الذى لم يسافر الى الشرق الأدنى الا في القرن السادس عشر ، ومن ثم فان هذه الرسومات ليست دليلا كافيا على وجود دار للفرنسيين بالمدينة في العصور الوسطى (٢٢٢) •

---

(٢١٧) Commem. reg., III, p. 366 et s., no 181.

(٢١٨) La Broquière, p. 495. 490 ; M.C. Port, Essai sur l'hist. du commerce maritime de Narbonne, p. 125 et s. ; M. Clément, Jacques Coeur, 2e éd., I, 12 et s.

(٢١٩) Harff, p. 198 ; Geo. Gemnic., p. 600; Ghistele, p. 55.

(٢٢٠) Frescob., p. 145 et s. ; Gucci, p. 416 ; Sigoli, p. 243 : Harff, op. cot., p. Géo. Gemnic., l.c. ; Ghistele, p. 56; lSigoli, l.c.

(٢٢١) Gco. Gemnic., p. 060.

(٢٢٢) Ghistele, p. 260 ; Voyageurs belges, I, 155 et s. ; Schayes, dans le Messager des sciences et des arts de la Belgique, IV (1836), p. 1-30.

وكانت المسافة التى يتعين قطعها من موانىء سوريا الى أسواقها الكبرى تتطلب رحلة تستغرق عدة أيام فى جهات مختلفة ، مما كان مصدرا لمضايقات عديدة للتجار الأوروبيين • فأولا ، يحدث كثيرا أن يقبض على حاملى رسائلهم ، أو تنزع منهم خطاباتهم ، ثم ان سائقى الحمير أو الجمال كثيرا ما كانوا يتركون البضائع المعهود بها اليهم تتلف ، أو يستبدلون بها بضائع أخرى أقل جودة منها (٢٢٣) • وكانت الأمور أفضل فى دمشق ، فكان التجار يجدون بها عند وصولهم الكثير من زملائهم من بلاد مختلفة ، من البندقية ، وجنوا ، وفلورنسا ، وبرشلونة ، الخ (٢٢٤) • أما بضائعهم التى أحضروها ، أو اشتروها هناك ، فكانوا يودعونها بكل اطمئنان فى « خان » يحمل اسم مؤسسة السلطان برقوق (٢٢٥) • فضلا عن ذلك كان لكثير من الأمم التجارية فى المدينة فنادقها الخاصة : ومن أشهرها فندق البنادقة : وقد ترك الكثير من الحجاج ما يشهد بعرفانهم الجميل للحفاوة التى لاقوها هناك (٢٢٦) • وكانت العادة ، كما هى فى الاسكندرية أن يغلق على المسيحيين أبواب فنادقهم ليلا • وهكذا كان التجار الأجانب يلقون معاملة سيئة من قبل السكان المتعصبين (٢٢٧) • ولم يكن السكان يحتملون وجود كنيسة فى المدينة ، فكان لزاما على المسلمين أن يؤدوا شعائرهم الدينية سرا فى منزل القنصل (٢٢٨) • وفى حلب كان للكثير من الأمم الغربية فنادقها • ولم يثبت هذا الأمر ، على ما أعلم ، الا بالنسبة للبنادقة ، فى هذه الفترة على الأقل (٢٢٩) • وهناك أسر بندقية نبيلة مارست التجارة بنوع خاص مع سوريا : ذكر منها اسر كويريفى ، وبارباريجو ، واستورلادو ، وهؤلاء اختاروا دمشق (٢٣٠) مركزا لأعمالهم التجارية • وفى أواخر القرن الخامس

---

(٢٢٣) Amari, dipl. arab., p. 364, 378.

(٢٢٤) Frescob., p. 142; Gucci, p. 399, 426, 436; Broquière, p. 486, 490, 499 ; Ghistele, p. 268.

(٢٢٥) La Broquière, p. 489 ; M. Pigeonneau (Hist. du commerce de la France, I, 328, not. 2).

(٢٢٦) Adorni, p. 218 ; Harff. p. 196 ; Ghistele, p. 267 et s. : Geo. Gemmic., p. 585 ; Verthema, p. 149 ; Mas Latrie, Traité, app., p. 94. Commem. reg., III, p. 121, no 787.

(٢٢٧) La Broquière, p. 490 ; Varthema, p. 149.

(٢٢٨) La Broquière, p. 503; Capmany, II, 175.

(٢٢٩) Ghistele, p. 292 ; Marin, VII, 318. ; ibid. p. 320 ; Ghistele, p. 292.

(٢٣٠) Sanut, p. 1199.

عشر ، أسس أخوان من أسرة مورو سيني Morosini، هما البانو Albano ، وماركو Marco في حلب بيتا تجاريا انتشرت فروعه في كل أنحاء سوريا ؛ وفي جزيرة قبرص ، واكتسبت بفضل صلاتها الواسعة مركزا مرموقا في التجارة (٢٣١) • ثم ان بعض البنادقة استقروا في حماه ، وبين حلب ودمشق (٢٣٢) • وكان في الوسع الحصول هناك على قطن من أجود الأصناف، ولاشك أن هذا هو ما اجتذبهم الى هناك وكانت دمشق، لأهميتها، مقرا للقناصل ، اذا لم يكن لأمتهم أكثر من ممثل واحد في البلد • من ذلك أن برشلونة كان لها قنصل في سوريا وأرمينيا اللذين صارا من الممتلكات المصرية (٢٣٣) • وعلى العكس كان لجمهورية البندقية قنصل في كل من دمشـــــق (٢٣٣م) وحلب (٢٣٤) ، وبـــيروت (٢٣٤م) ، وطرابلس (٢٣٥) • ولم تعرف تواريخ انشاء هذه القنصليات • وفيما يختص بقناصل البندقية ، كان أقدم قرار رسمي معروف بشأنهم هو مرسوم « المجلس الكبير » لعام ١٣٣١ ، وينص على ما يبدو على أن يلحق بالقنصل مجلس من اثنى عشر تاجرا (٢٣٦) • وترجع أقدم وثيقة يعتمد فيهـا سلطان مصري قنصلا للبندقية في منصبه بدمشق الى عام ١٣٧٥ (٢٣٧) • ولسنا نعرف أية قوائم بأسماء القناصل البنادقة في سوريا قبل القوائم المدونة في أواخر القرن السابع عشر ، وليس هناك

---

(٢٣١) Berchet, Relaz., dei consoli veneti nella Siria, p. 14 ; Romain, Storia di Venezia, III, 341.

(٢٣٢) Bertrandon de la Broquiere, (p. 515 et s.)

(٢٣٣) Capmany, Memor., II, 161 et s., 174 et s. ; Navarrette, dans les Memorias de la R. Academia de la historia, V, 188 et s. (Chartes des années 1379, 1382, 1386) ; Freocob., p. 142 ; Arch. de l'Orlat., I, 541.

(٢٣٣م) Frescob. p. 17, 142; Brrquière, p. 503, 510; Geo. Gemnic., p. 585; ; Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 455, not., 458 ; Berchet, Relezioni dei consoli veneti nella Siria, passim ; Sanuto, Vite dei dogi, p. 890 ; Sathas. Doc., III, 164 et s. 298; Zeitcher, für deutsch. Alterth., op. cit., (1881), p. 67, 70.

(٢٣٤) Marin, VII, 320.

(٢٣٤م) Frescob., p. 17, 145.

(٢٣٥) Casola, p. 49 ; Geo. Gemnic., p. 611.

(٢٣٦) Berchet, l. c., p. 13, 31, 32.

مجلس الاثنى عشر هذا ينتخب نائب القنصل المكلف بادارة شئون الجالية مؤقتا بين رحيل قنصل ووصول من يخلفه ، وحين تريد الجالية أن ترسل مندوبا عنها الى السلطان وكان على هذا المجلس نفسه أن يعين المندوب :

Sanut. : Diar., I, 983 et s. ; IV, 260.

(٢٣٧) Mas Latrie, Traités, append., p. 93 et s.

ما يؤكد صحة هذه القوائم ، لا من حيث ما ورد بها من أسماء ولا تواريخ (٢٣٨) ٠

وتستهل سلسلة قناصل دمشق فقط في عام ١٣٨٤ باسم فرانشيسكو داندولو Francesco Dondolo • والأرجح أن قنصليتي دمشق وبيروت أنشئتا في وقت واحد عند تنظيم حركة تجارية بين البندقية وسوريا • أما بخصوص قنصلتي حلب وطرابلس ، فمن المشكوك فيه كثيرا أن يرجع انشاؤهما الى مثل هذا التاريخ البعيد : فلم يذكر شيء عنهما قبل نهاية العصور الوسطى ، لا في روايات الرحالة ، ولا في الوثائق • ومن بين القناصل الأربعة الذين تكلمنا عنهم ، كان قنصل دمشق أعلاهم مكانة : فكان يؤدى بنوع ما مهام القنصل العام لدى سوريا كلها • وعندما تتخذ حكومة البندقية اجراء عاما يطبق على كل البنادقة المقيمين في سوريا أو المارين بها ، يوجه المرسوم الذى تصدره الى القنصل (٢٣٩) • ومن المفيد في هذا الخصوص أن نذكر بان الوثيقة الأولى التى تنبئنا بوجود قنصلية بندقية في طرابلس (٢٤٠) ، يذكر بها رئيس الجالية بلقب نائب القنصل ، ونجده بهذا اللقب نفسه في وثائق أخرى لاحقة في العصور الوسطى (٢٤١) ، ويكفى هذا لاثبات أن أن صاحب هذا اللقب كان على الأقل مرءوسا لقنصل دمشق • وثمة حقيقة أخرى تبدو أنها تثبت أيضا تفوق قنصل دمشق على سائر القناصل : ذلك أنه هو وحده الذى يتسلم المخصصات التى يمنحها السلطان للقناصل، والتى تكلمنا عنها عند حديثنا عن مصر ، وكانت قيمة هذه المخصصات هى نفسها المقررة لقنصل الاسكندرية (٢٤٢) • ويتمتع بهذه المخصصات أيضا قنصل القطالونيين فى دمشق وفى سائر أنحاء سوريا (٢٤٣) •

وبالانتقال من القسم الشمالى لسوريا الى القسم الجنوبى ، نتبين للحال اختلافا كان موجودا في الفترة السابقة ، وربما بدرجة أكثر وضوحا :

(٢٣٨) Berchet, l. c., p. 55 et ss., d'après le cod. Reggimenti ; la Marciana ; Mas Latrie, Traités, p. 258, not.

(٢٣٩) مرسوم المجلس الكبير بتاريخ ١٧ من يناير ١٤٢٢ ؛ انظر :
Taf. et Thom., inéd.
— Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 458.

(٢٤٠) Casola, p. 49.

(٢٤١) Berchet, l. c., p. 46, 48.

(٢٤٢) Traité de 1415 dans Taf. et Thom., inédit., (Zunichias, dans Berchet, l. c., p. 29).

(٢٤٣) Capmany, Mem., II, 175.

ففى القسم الشمالى حركة تجارية نشيطة للغاية ، ومنافسة متجددة دائمة بين التجار ، تشترك فيها الأمم التجارية الغربية كلها ، وفى القسم الجنوبى تأخر متزايد ، انما يوجد فقط من حين الى آخر بعض التجار الأجانب . وأصبحت مدينة عكا القديمة أطلالا . وفى القرن الخامس عشر لم يجد بعض الرحالة بها سوى منازل قليلة ، وكهوفا يودع بها بعض التجار البنادقة قطنا اشتروه فى البلد . وعلى بعد ميلين نشأت باسم « عكا الجديدة » قرية يقطنها وكيل يتولى شراء القطن لحساب بيت تجارى بندقى (٢٤٤) . ولم يزل باقيا بالميناء حارسان أو ثلاثة حراس ينبهون الوكيل بوصول أية سفينة ، وهذه حالة قليلة الحدوث ، لأن بيع القطن لا يترتب عليه سوى حركة تجارية محدودة للغاية (٢٤٥) . وقلما نجد ، من وقت لآخر اسم صور مذكورا كمركز تجارى : ومع ذلك كان ميناؤها يعتبر ميناء جيدا ، وكانت مزارع قصب السكر المجاورة لها تغل ايرادا كبيرا ، والبنادقة يصدرون نبيذ البلد ، حتى الى انجلترا (٢٤٦) . ولم يكن الطريق الكبير الذى تسلكه قوافل دمشق يحازى البحر الا عند نقطة واحدة، هى غزة ، على حدود مصر ، وهناك عدد من التجار الأثرياء ، ولكن الفرنجة لم يكونوا يذهبون الى هناك عن قصد ، بل غالبا ما كانوا يتوقفون هناك فى مسيرهم (٢٤٧) .

وثمة طريق آخر يستخدم بكثرة ، وهو الطريق من يافا الى القدس ، ويمر ببلدة الرملة . وكانت يافا قد تهدمت تماما وهجرت (٢٤٨) ; ولكن الميناء كان يسترد من وقت لآخر بعضا من نشاطه عند وصول بعض سفن الحجاج : وكانت البندقيـــة ترسل عادة فوجين منهم كل سنة (٢٤٩) . ولما لم تكن السفن التجارية مرخصا لها — الا فى حالات استثنائية — بأن تأخذ معها حجاجا (٢٥٠) ، فان سفن الحجاج لم تكن بطبيعة الحال تخدم

(٢٤٤) Oberto Franco, (Braqui&re, p. 494) ; Zeitscher, f. deutsch. Alterth., N.F., XIV (1882), p. 368 et s.

(٢٤٥) Lannoy, p. 145-147; Ghi tele, p. 64; Pasi, p. 158, b; Traité de de 1415 dans Taf. et Thom., íéd., Sanuto, Vite dei dogi, p. 914 et s.

(٢٤٦) Broquière, p. 485 ; Ghistele, p. 63 ; Rawdon Brown, L'Archivio di Venezia con riguardo speciale alla storia inglesé (Venez e Torino, 1865), p. 236 ; Lannoy (p. 150-155).

(٢٤٧) Fabri, II, 370 ; Ghistele, p. 138.

(٢٤٨) Anglure, p. 12 ; Conrady, Vier niederrheinische Pilgerschriften, p. 115.

(٢٤٩) Anglure, p. 99 ; Breydenbach, p. 12 ; Harff, p. 57.

(٢٥٠) Erdmannsdörfer, De commercio quod inter Venetos et — Germanide evilates.

التجارة . وعلى الرغم من هذه التنظيمات كان التجار البنادقة ينتهزون أحيانا فرصة مرور سفن الحجاج ، فيصدرون بها الى بلادهم سكرا وقطنا ، الخ (٢٥١) .

ولم يكن التجار البنادقة يذهبون الى يافا ، بأى طريق كان ، دون أن يزور الرملة ، فكان في هذا تحول قليل عن الطريق المباشر ، ولكن كان يجرى هناك شيء من تجارة الخيوط والمنسوجات القطنية (٢٥٢) ، كما تجرى بعض الصفقات ، على الرغم من المضايقات الناتجة عن تعصب السكان ومطالب موظفى الجمرك التى لا مبرر لها ، وموظفى الموازين العامة والتراجمة (٢٥٣) . وكان في الرملة قنصل بندقى ، وحذت جنوا في ذلك حذو البندقية ، غير أن مهمة هؤلاء الممثلين كانت حماية الحجاج أكثر منها حماية التجارة . ذلك لأنه كان من المسلم به أن من حق الحجاج أن يحظوا بمساعدة الجمهورية وحمايتها خلال ما تبقى من رحلتهم ، وذلك بعد أن ائتمنوا البحرية البندقية على حياتهم فى عبور البحر،وكانوا بنوع خاص في حاجة الى المساعدة والحماية في مدينة القدس حيث يستغلهم التراجمة بكل الوسائل : وفى عام ١٤١٥ طلب الدوق تومازو موتشيينجو Tommaso Moccengio من سلطان مصر الاذن بأن يقيم بالقدس قنصلا يتلقى مطالب الحجاج (٢٥٤) : وقبل السلطان هذا الطلب ، اعتبارا بأنه يقوم على أساس من « تقاليد البنادقة القديمة » .

واحتجت ضد هذا الترخيص بعثة جنوية أوفدت الى القاهرة فى عام ١٤٣١ بحجة وجود عرف قديم يقضى بأن من واجب قنصل جنوا فى القدس أن يدافع عن مصالح الحجاج كلهم ، وأن الحجاج ليسوا فى حاجة الى مساعدة قنصل بندقى ، أو قنصل ينتمى الى أية أمة أخرى (٢٥٥) : ومع ذلك لم ينجحوا فى منع اقامة هذا القنصل البندقى المنافس لقنصلهم . وتبعا للروايات التى تركها بعض الحجاج يمكن التحقق من

---

aeva medio intercessit, p. 22 ; Brown, Calendar of statespapers, Venet., I, 46 ; Commem. reg., III, p. 225, no 414; Arch. de l'Or. lat. II, 2, p. 240.

(٢٥١) Cod. Berol., cit. p. 10 ; Arch. de l'Or lat., II, 2, p. 247; Conrady, Vier niederrheim. Pilger chriften, p. 205; Sanut., Diar., VI, 312.

(٢٥٢) Pasi, p. 159, a ; Anglure, p. 12 ; Nicc : da Poggibonsi, I, 28.

(٢٥٣) مفاوضات مع السلطان فى عام ١٤١٥ ، فى : Taf. et Thom., inéd.

(٢٥٤) Ibid.

(٢٥٥) Not. et extr., XI, 73.

أن ممثلى جنـــوا والبندقية عملـــوا جنبـــا الى جنب أكثر من نصف قرن (٢٥٦) .

ويدل تاريخ انشاء هذه القنصلية بوضوح على أن القناصل لم يكونوا وكلاء تجاريين ، كما لم يكن كذلك قناصل فرسان القديس يوحنا فى القدس وفى الرملة (٢٥٧) ، كما يدل على النفوذ الذى اكتسبته الأمم التجارية فى الشرق ، واستغلالها هذا النفوذ ، ليس فقط لصالحها الخاص، ولكن أيضا لصالح العالم المسيحى كله .

وبهذه الملاحظة نختم وصفنا لوضع التجار الغربيين فى مصر وسوريا ، ونعود الى عرض الوقائع من الوجهة التاريخية .

سبق أن قلنا ان الثلاثين سنة التى أعقبت مباشرة عقد معاهدة الصلح بين مصر وقبرص ، أى الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الرابع عشر كانت فترة سلام نسبى للجاليات التجارية فى مصر وسوريا ، وأن هذا الظرف ، فى رأينا كان له دون شك تأثير ملائم لتقدم الحياة التجارية . ولا نعرف سوى عمل عدوانى واحد اقترفه المســلمون ضـد التجار الغربيين فى الاسكندرية ، ومع ذلك يبدو أن هذا العمل قد استثاره الفرنجة أنفسهم . ففى شـــهر مايو عام ١٣٨٣ ، كانت سفنهم فى الاســكندرية قد فرغت من شحن بضائعهم ، فانتهزت فرصة حلول الظلام فأقلعت دون أن تحصل على ترخيص بذلك .

ومن ثم . أطلق الحاكم فى أثرهم بعض السفن ، وبعد معركة خاسرة ، اضطر قباطنة هذه السفن أن يعودوا بها الى الميناء . وألقى الحاكم مسئولية هذا العمل المخالف للقانون على كل التجار الفرنجة فى الاسكندرية ، فقبض عليهم وصادر كل بضائعهم . هذه هى رواية المقريزى (٢٥٨) . والمطلوب هنا معرفة ما اذا كان الراوى قد أخطأ عندما ذكر الفرنجة فى هذه الواقعة بصيغة عامة . ويبدو على الأرجح أن الجنويين هم وحدهم الذين تورطوا فيها ، لأن عام ١٣٨٥ تميز بعقد معاهدة صلح بينهم وبين السلطان ، ويحتمل كثيرا أن تكون هذه المعاهدة قد أنهت النزاع الذى

(٢٥٦) لمزيد من التفاصيل انظر دراستى بعنوان :
Les consulats établis en terre sainte au Moyen-Age pour la protection de pèlerins : Archiv de l'Or. lat., II, 1, p. 355-363 et suppl., ibid. II, 2, p. 512.

(٢٥٧) Paoli, Cod. dipl. II, 108 et s.

(٢٥٨) M. Ch. Schefer dans son introduction à la Relation de Thenaud, p. viii et s.

رواه المؤرخ العربي (٢٥٩) · ومن ناحية العالم المسيحى لم يكن ثمة شيء يهدد في هذه الآونة سلامة البلاد الاسلامية · فثمة تعليمات أصدرها بطرس الرابع ملك أراجون ، تحظر بعبارات صريحة على قباطنة السفن الخارجة من الموانى القطالونية أن يعتدوا على أقاليم سلاطين مصر أو سكانها (٢٦٠)· وانتهزت برشلونة فترة الهدوء هذه فأعدت لوائح ادارية لجالياتها فى الاسكندرية ودمشق ، ولقناصلها (٢٦١) · وعقدت البندقية اتفاقا مع السلطان شعبان يحدد بعض الرســـوم والاعفـاءات الضريبية لصــالح تجارها فى سوريا ، وبخاصة فى دمشق (٢٦٢) ·

واستهل القرن الجديد استهلالا سيئا : فقد غزا تيمور لنك سوريا ، واستولى على حلب ونهبها (نوفمبر ١٤٠٠) ثم دمشق (يناير ١٤٠١) ، وتقدم أتباعه حتى أسوار بيروت وعكا (٢٦٣) · ونجح قنصل البندقية فى دمشق باولو زانى Paolo Zane فى الهرب مع مواطنيه ، وأنقذوا من الكارثة كل ما استطاعوا حمله ، ولم يكن مناص من ترك الباقى فريسة لحمى التدمير المستعرة في نفوس الغزاة المتوحشين · ولاذ زانى بقبرص · وبعد أن انقضت العاصفة الهوجاء ، تلقى من حكومته أمرا بالعودة الى منصبه (٢٦٤) · ويشهد بالاجماع كل المسافرين الذين زاروا دمشق بعد مرور تيمور لنك بها السرعة التى تم بهـــا ترميم المدينـــة بعد خرابها ، فاستردت كل مظاهر المدينة الغنية الآهلة بالسكان (٢٦٥) · ولم تلبث التجارة طويلا حتى استردت نشاطها المعتاد : فقط أصاب الصناعة القديمة التى اشتهرت بها دمشق شلل طويل الأمد ، ذلك لأن تيمور لنك قبض على مجموعات كاملة من الصـــناع وأرسلهم الى وســـط آسـيا ، الى سمرقند (٢٦٦) · وتحولت الكارثة التى أصابت دمشق لصالح التجار البنادقة : ذلك لأن الفـــراغ الذى حدث بهـــا بعد رحيـــل الصـــناع

---

(٢٥٩) Commem. reg., III, p. 174, no 204.

(٢٦٠) Capmany, Memor., II, 390.

(٢٦١) Ibid. II, 156 et s.

تواريخ هذه اللوائح : ١٣٨١ للاسكندرية ، و ١٣٨٦ لدمشق ·

(٢٦٢) Mas Latrie, Traités, Suppl., p. 93 et s. ; les Commem. reg., II, p. 121, no 787 ; Sanuto, Vite dei rogi, p. 789.

(٢٦٣) Cheref-eddin Ali, trad. Pétis de a Croix, III, 299, 311, 313, 342 et ss.

(٢٦٤) Sanuto, l. c., p. 785 et s. ; Mas Latrie. Hist. de Chpyre, II, 455 not. 2 ; Weil, V, 133; Sanuto, p. 889 et s.

(٢٦٥) Lannoy, p. 159, Ghistele ; p. 268.

(٢٦٦) Sherefedrin, III, 340 ; Ducas, p. 61 ; Clavigio, p. 109..

ترتب عليه سهولة تصريف السلع المصنوعة في أوروبا • وفي عام ١٤٤٩ زار المدينة ستيفان فون جومبنبرج Stephan von Gumppenberg مع رفاقه في الحج ، وأرادوا شراء بعض المنسوجات الحريرية ، ولكن قيل لهم ان « المنسوجات الحريرية ترد من البندقية ، لأن تيمور لنك قد أخذ معه كل الصناع المهرة » (٢٦٧) وبعد انقضاء سنتين على هذه الغزوة ، أصيبت سوريا بأزمة جديدة • فقد سبق أن قلنا بضع كلمات عن الحملة التي شنها في الشرق الأدنى مارشال بوسيكو Boucicaut حاكم جنوا نائبا عن ملك فرنسا ، على رأس أسطول جنوى ، بهدف الحصول بالقوة من ملك قبرص على اعتراف بحقوق جنوا في تاموجوستا • وأصاب هدفه سريعا ، اذ لم ينتظر الملك وصول العدو ليطلب الصلح بالشروط المطلوبة • ولما كان الأسطول من ذلك الحين تحت تصرف بوسيكو ، فانه سعى إلى تحقيق غاية أخرى ، واشباع هواية الفروسية ، وذلك بأن يطلق قواته ضد « الكفار » ، في مصر وسوريا بالذات ، حيث كان التجار الجنويون مرارا ، ومنذ عهد قريب ضحية لتعسف السلاطين وطغيانهم (٢٦٨) • وطالب بوسيكو بتعويضات ، وأبدى عزمه على الانتقام من الاسكندرية بنوع خاص • ولما حذر بعض « المسيحيين الأشرار » السلطان من هذا الأمر ، فانه اتخذ الاجراءات لتأمين المدينة ضد الغارات • وتوقع التجار المسيحيون وقوع أحداث حربية ، فبادروا بالخروج من المدينة ، فيما عدا أربعين جنويا قبض عليهم السلطان • وعبثا حاول موسيكو أن يخدع السلطان بأن يوفد اليه مبعوثين يؤكدون له صدق نواياه (٢٦٩) ، فقد كان السلطان قد أخذ حذره ، ولو مضى بوسيكو في تنفيذ مشروعه فانه كان حتما يبوء بالفشل • الا أن رياحا مضادة منعته من الاقتراب من الموقع ، ومن ثم اعتزم المضى الى سواحل سوريا (أغسطس ١٤٠٣) • وهناك شن غارات على عدة مواقع ، وهزم قوات السلطان اينما التقى بها ، ودمر أو نهب ممتلكات السكان (٢٧٠) • وفي بيروت كانت خسائر المسلمين أقل من خسائر البنادقة ، ولكن الخسائر لم تكن في الواقع جسيمة ، اذ اقتصرت على ضياع مائتي بالة من المنسـوجات القطنيـة البوكاسينى

---

(٢٦٧) Reyssbuch, p. 242.

(٢٦٨) Sanut. p. 785 ; Le livre des facits du maréchal deBoucicaut (Michaud et Poujoulat, Coll. de mém., II), p. 280, 286 ; Makrizi (Silv. de Cacy, Chrestom., arabe, II, 51).

(٢٦٩) Piloti, p. 394 et ss.

(٢٧٠) نجد ايضا في بعض المصادر الشرقية اشارات الى هذه الحملة التي قام بها بوسيكو •

ومائتين الى مائتين وخمسين بالة من التوابل (٢٧١) : الا أن ذلك يرجع الى أن السكان هناك ، وعلى طول الساحل (٢٧٢) توقعوا وصول الماريشال فاتخذوا احتياطاتهم ، وأرسلوا الى داخل البلاد قسما كبيرا من البضائع المودعة فى مخازن المدينة (بيروت) (٢٧٣) • ونهب جند بوسيكو كل ما بقى هناك ، ثم حولوا ضراوتهم صـــوب البنـادقة ، فأحرقوا بيوتهم ونهبوها • ولم يفعل بوسيكو شيئا لوقف أعمال النهب ، رغم ما وجهه اليه رفاقه الجنويون بصفة رسمية من لوم وتأنيب ، ورغم احتجاجات الوكيل التجارى ، لورنزو أورسو • وقد استطاع هذا الوكيل التجارى مقابلة الماريشال ، وأبدى له أن البيوت التى نهبت تنتمى الى البنادقة الذين كانوا فى تلك الآونة فى حالة سلام مع جنوا • والواقع أن الماريشال حاول عقب هذه الأحداث فى خطــاب حـرره الى ميشيل ستينو ، دوق البندقية ، وخطاب آخر الى كارلو زينو قائد قوات البنـدقية (٢٧٤) أن يشرح موقفه : فقال انه اعتقد أن البنادقة وضعوا كل ما يملكونه فى مكان أمين ، وأن كل ما تبقى انما يخص العدو ، ثم أن أحدا لم يطالبه باسم البنادقة بالأشياء التى نهبت • الا أن التقرير الذى كتبه بيرناردو موروسينى (٢٧٥) بايل البندقية فى قبرص عقب هذه الأحداث مباشرة يكذب هذه الادعاءات بصورة قاطعة لا تترك مجالا للشك • وعندما عاد بوسيكو بحملته اع علنا جزءا من الغنائم فى تاماجوســتا • وفى السنة التالية ، كان من شروط الصلح مع البندقية دفع تعويضات ، واعادة بالات البضائع التى لم يتم بيعها (٢٧٦) • وأخيرا كان لابد من دفع ثمن المصالحة

---

(٢٧١) هذا ما يتبين من تقرير بايل قبرص • يقول سانوتو (ص ٧٩٠) ان الخسارة بلغت خمسمائة طرد من التوابل قيمتها ٣٠٠٠٠ دوكا ، وكانت قد ارسلت من دمشق الى بيروت •

(٢٧٢) وجد بوسيكو المسلمين مستعدين للقائه ، اذ كان البنادقة يخبرونهم دوما بتحركاته •

(٢٧٣) Piloti, (p. 397)
يقول بيلوتى ان المسلمين وحدهم كانوا قد ارسلوا الى الجبال كل ما استطاعوا نقله ، ولكن بوسيكو وجد مخازن البنادقة ملأى بالتوابل •

(٢٧٤) Le livre des faicts, etc., p. 285 et ss. ; Stella, p. 1203 et s.; Giustiniani, fol. 169.

(٢٧٥) هذا التقرير مؤرخ فى ٢١ اغسطس ١٤٠٣ : Sanuto, p. 800 et s. ;
وبخصوص أحداث بيروت : Sanuto, p. 786 et s., 790 ; Bembo : (à la suite de Dandolo), p. 517; Livre des faicts, p. 277; Piloti, p. 397 ; Giustiniani, fol. 168, b.

(٢٧٦) Sanut, p. 793, 806, 835 ; Romanin, IV, 10 ; Sathas, Doc., II; 121.

مع السلطان ، وتكلف ذلك ٣٠٫٠٠٠ دوكا ٠ الا أن أسوأ ما أسفر عن هذه الحملة الفاشلة من نتائج ، هو ما شاع فى نفوس المسلمين منذ تلك اللحظة من احتقار للجنويين ٠ ففى كل مرة يصيب المسلمين ضرر بأعمال قرصان ينتمى الى تلك الأمة ، يفرض السلطان على مواطنيه بالاسكندرية غرامات فادحة ، حتى اعتزم هؤلاء فى النهاية اضعاف حركتهم التجارية مع مصر (٢٧٧) ٠ ولم يكن وضع البنادقة أفضل من وضع الجنويين ؛ فقد اشتهر السلطان فـرج الحـاكم وقتئذ بالطمع والقسوة ، وكانت ضروب الظلم والاستبداد التى يقترفهـا فادحـة حتى أن القنصـل أندريا جستنيانى (١٤٠٤) مثـل أمامه شـاكيا بعبـارات قوية ٠ ولكن هـذا التصرف أتاح للسـلطان أن يرد بعبـارات ملؤها الازدراء بقوة البندقية (٢٧٨) وفى ظرف مماثل ، لم يكتف القطالونيون بالتهديد مثلما فعل البنادقة ، ولكنهم انتقلوا منه الى التصرفات العملية ٠ وجدير بالذكر بأنه اذا كانت علاقتهم بمصر قد أدت الى نشوب الحرب ٠ فان ذلك كان خطأ منهم ٠ ففى عام ١٤٠٨ رست سفينة قطالونيـة فى ميـنـاء الاسكندرية العودة ببعض التجار التونسيين الى بلادهم ومعهم شحنة ثمينة جدا ٠ باع التونسيين وبضائعهم ٠ وقدم ضحايا هذا العدوان وأقرباؤهم شكواهم الى فرج الذى استدعى اليه قنصل قطالونيا ليستفسر منه عما حدث ، ولكن القنصل رفض أن يجيب بدعوى أنه كان على المشتكين أن يقدموا مطالبهم لحكومة بلدهم ، وقبل فرج هذا الدفع بعدم سماع الدعوى ، وبذا أن القضية اتجهت من هذه الناحية على أن تنتقل الى محكمة أخرى ٠ ولكن فى عهد السلطان المؤيد شيخ ، خليفة فرج ، قدم التونسيون من جـديد شكواهم ، وفى هـذه المرة لم يصرفهم السـلطان ، بل حـكم عـلى القطـالونيين بأن يدفعـوا لهـم تعويضـا قـدره ٣٠٫٠٠٠ دوكا ، يدفع نصفها جالية الاسكندرية ، والنصف الآخر جالية دمشق ٠ وأخطر قنصل الاسكندرية مواطنيه بدمشق بأنه ينصحهم بمغادرة البلد بأسرع ما يمكن هربا من تنفيذ الحكم عليهم ٠ وعلم السلطان بهذه الخيانة فاستدعى اليه القنصل الذى حضر اليه ومعه تاجر قطالونى ، فقبض على الاثنين ، وجلدا حتى سالت دماؤهما ٠ وبعد هذه الاهانة لم يعد فى وسع الجالية القطالونية البقاء فغادرت الاسكندرية ٠ وبعد ثلاث سنوات دخلت ثلاث سفن قطالونية فى الميناء ، وأعلن القباطنة أنهم جاءوا بمبعوثين مكلفين بالمفاوضة لعقد الصلح ، وطلبوا الاذن بأن يباشر تجار حضروا معهم أعمالهم ، فحصلوا على الاذن المطلوب ٠ وللحال أنزلوا الركاب من السفن ،

---

(٢٧٧) Piloti, p. 399.

(٢٧٨) Piloti, p. 393.

ولكن بدلا من التجار الذين تكلموا عنهم ، نزل رجال مسلحون جالوا بشوارع المدينة ، وأصابوا عددا كبيرا من المسلمين بجراح ، واختطفوا شبابا من الجنسين ، وعادوا بهم الى السفن · ولم يتأخر الرد على هذا العدوان : فقد أصدر السلطان أمره بمصادرة البضائع الواردة من برشلونة وقطالونيا بوجه عام أينما وجدت هذه البضائع في جميع الولايات التابعة له · أما القراصنة القطالونيون فانهم واصلوا الاعتداء على المسلمين · ومع ذلك هدأ هذا النزاع في النهاية ، بل ان السلطان منح القطالونيين امتيازا كان مرفوضا لسائر الأمم ، فأعفى التجار من المسئولية عن الأضرار المتسببة عن غارات القراصنة من مواطنيهم (٢٧٩) · ولم يبق نص من نصوص معاهدات ذلك العصر ، ولكنا نملك خطابا من السلطان Zayet Jamod أى شيخ المحمودى الى مدينة برشلونة ، حرر غالبا في عام ١٤١٤ ، يذكر كاتب الخطاب الاعتداءات التى وقعت في السنين الأخيرة ، ويؤكد عودة العلاقات السلمية القديمة (٢٨٠) · أما البنادقة فانهم منذ البداية وقفوا من السلطان موقفا أفضل · وفي عام ١٤١٥ أحسن السلطان وفادة مبعوثيهم ، لورنزو كابيللو ، وسانتوفينير ، وقضى على الكثير من ضروب العسف التى اشتكيا منها ، ووافق على العديد من الطلبات التى قدماها اليه (٢٨١) · ولما توفي في عام ١٤٢١ ، بعد أن حكم ثماني سنوات ، كان موته خسارة كبيرة أحست بها البندقية (٢٨٢) ·

والواقع أن الأمور كلها تغيرت بعد وفاة شيخ ، وتهدد وضع البنادقة في مصر ، وألغى خليفته ططر كل الامتيازات التى منحها (٢٨٣) وأصدر مرسوما يحدد بأربعة أشهر مدة اقامة التجار البنادقة في اقليمه : ونقش هذا المرسوم على منضدة رخامية موضوعة في جمرك دمشق · وكان هذا القيد على رخصة الاقامة بدعة ، وخاصة لأن السلطان السابق كان قد ضمن كتابة لقنصل الاسكندرية الحق لكل فرد من رعايا البندقية في أن يقيم في كل أنحاء دولته ما شاء له من الزمن · وما أن وصل نبأ هذه النزوة الجديدة من جانب السلطان الى البندقية حتى أوفدت الى القاهرة مبعوثين : بيرنابو لوردانو ، ولورنزو

---

(٢٧٩) Piloti, p. 412-416.

(٢٨٠) Campany, Mém., II, 210 et s.

(٢٨١) Commem., III, p 375, et s., nos 209, 210.

(٢٨٢) Senut. p. 938.

(٢٨٣) ··· فقرة من خطاب من برسباى بتاريخ ٣٠ ابريل ١٤٢٢ ، سوف نتكلم عنه فيما بعد ·

كابيللو (٢٨٤) بمهمة طلب الغاء المرسوم ، أو على الأقل مد المهلات المحددة للاقامة • وكان فى مصر نوع من الجنسية النصفية ، يصــير الفــرد بمقتضاها من رعايا السلطان دون أن يتمتع بحقوق المواطنين • وللافلات من تطبيق المرســوم التحق بعض الجالية البنــدقية بهذه الطبقــة من الأفراد • وعلمت حكومة البنــدقية بهذا الأمــر ، فكان على المبعوثين أن يأمرا أعضاء الجالية بالعدول عن هــذا الوضــع ، فان لم يفعلوا فعليهم الخروج من مصر فى غضون شهر واحد ، والا حكم على من يخالف منهم بغرامة قدرها ٥٠٠ دوكا • واعتبرت هذه القضية بوجه عام خطيرة • وبعد انقضــاء بضعة أســابيع على رحيل المبعوثين اتخذ المجلس الكبير بالبنــدقية اجراءات للتأمين على أموال التجار البنادقة المقيمين فى سوريا ومصر ، وذلك فى حالة فشل المبعوثين فى مهمتهما لدى السلطان ، أو اذا لجأ السلطان الى فرض الحراســة على أموالهــم ، كاجراء ثأرى • ومن ثم جهزت سفن بغاية السرعة وانطلقت الى الاسكندرية ويافا وعكا وبيروت وطرابلس واللاذقية ، ومهمتها أن تجمع من هذه الموانىء البضائع التى اختزنها بها التجار البنادقة ، وايداع جزء منها فى كانديا أو مودون ، والعودة بالباقى الى البندقية • وقرر المجلس مؤقتا ايقاف رحيل السفن المتجهة الى بيروت والاسكندرية لحين صدور أوامر أخرى (٢٨٥) • وعندما وصل لوردانو وكابيللو الى مصر ، كان ططر قد توفى منذ زمن (٢٨٦) ، وارتقى خليفته برسباى العرش فى أثناء اقامتهما بمصر (فى أول ابريل عام ١٤٢٢) • وجدد برسباى المعاهدات القديمة ، وبخاصــة تلك التى عقدها شيخ ، وصرح بأنه فى وسع التجار البنادقة أن يبقوا فى أى مكان بالبلد ، حسب رغبتهم ؛ ولأى زمن ، دون أن يخشوا شيئا على أنفسهم أو أموالهم ، وأن يتمتعوا بالحماية من تعسف موظفى الجمارك ، وأرسل تعليمات بهذا المعنى الى مديرى الأقاليم التى يتردد عليها البنادقة ، والى الموظفين التابعين لهم (٢٨٧) • فكفلت هــذه الضمــانات عودة الحركة التجارية (٢٨٨) • غير أنه وقع حادث أخل بهذا الاتفاق : اذ أغار قراصنة قطالونيون على أراضى السلطان • وثار غضب برسباى ، وأعلن أنه من

---

(٢٨٤) يقول سانوتو (ص ٩٤١) أن تاريخ تعيين هذين المبعوثين هو ٢١ ديسمبر ١٤٢١ ، والتعليمات المعطاة لهما بتاريخ ٢٣ ديسمبر • انظر :
Taf. et Thom., inéd.

(٢٨٥) Decret du Sénat du 17 Jano. 1422, dans Taf. et Thom., inéd. : Cf. Sathas, Doc., III, 299 et s.

(٢٨٦) تاريخ الوفاة هو ٣٠ نوفمبر ١٤٢١ •

(٢٨٧) Traité du 23 avril 1422; lettre du Sultan au doge Tommaso Mocenigo, du 30 du méme mais : Taf et Thom, inéd.

(٢٨٨) Sanut, p. 242.

يسمح مستقبلا بوجود فرنجة في بلاده ان لم يحسنوا السلوك في البحار .
وكان البنادقة والجنويون قد تأهبوا للرحيل • ومع ذلك بذل القناصل
جهودا لدى السلطان لتهدئة مشاعره ، ونجحوا فى ذلك ، ووافق برسباى
على استثناء لصالح هاتين الأمتين بشرط أن تمتنعا عن احضار بضائع
قطالونية الى مصر ، وأن تتوسط حكوماتهما فى الحصول له على
تعويض • (٢٨٩) • وبالاجمال لم يكن وضع التجار فى مصر أفضل من
وضعهم فى عهد أسلافه • فقد كان برسباى شديد التعصب للاسلام ، وطاغية
قاسيا • وذات يوم كان على ماركو موروسينى قنصل البندقية بالاسكندرية
أن يبدى له باسم حكومته بعض التحذيرات (٢٩٠) ، فثارت ثائرة السلطان
وهدد بشنقه هو وكل تجاره ، ولكن موروسينى قابل تهديده بكبرياء
مما حمل السلطان على أن يوافق على اطلاق سراح التجار الذين كان قد
سجنهم ، ويرد اليهم البضائع التى صادرها (٢٩١) • وفى أثناء الحروب
التى شنها ضد جانوس Janus ملك قبرص (١٤٢٥ — ١٤٢٦) كان
وضع المسيحيين فى مصر حرجا للغاية • وتجنبت جمهورية البندقية
مؤازرة الملك خشية تعريض تجارها الذين لا حول لهم ولا قوة لانتقام
السلطان (٢٩٢) • وعندما انهزم جانوس ووقع فى الأسر طلب مساعدة
الجمهورية ، فوافقت الحكومة على أن تقدم له جزءا من مبلغ الفدية
المطلوبة ، ورهن بعض التجار بضائعهم لاكمال المبلغ المطلوب ، وكان
هذا هو كل ما استطاع الحصول عليه (٢٩٣) •

وبذل البنادقة كل ما فى وسعهم حتى لا يثيروا استياء السلطان ،
ومع ذلك لم يجنبهم المتاعب (٢٩٤) • وكان أسوأ الأمور أن تهيأ
لبرسباى ، اشباعا لجشعه أن يركز التجارة كلها فى يديه • وكان أول
اجراء إتخذه فى هذا السبيل أن تحتكر الحكومة صناعة السكر وبيعه ،
بل وفى وقت ما زراعة قصب السكر ، وكان لزاما على الأفراد أن يطلبوا

---

(٢٨٩) Fel. Brancacci, Diario, dans l'Archiv. stor. ital., 4e série, VIII, 166.

(٢٩٠) Biblioth. de l'Ecole des chartes, -874, p. 134.

(٢٩١) Sanut., p. 680.

(٢٩٢) Mas Latrie, Hist., de Chypre, II, 516 ; la Biblioth. de l'Ecole des Chartes, l.c., p. 134, 135 ;

انظر فى هذا المرجع التعليمات المؤرخة ٤ فبراير ، و ٢ اغسطس ١٤٢٦ والصادرة الى قباطنة السفن المبحرة الى سوريا ، وتوصيهم بمراعاة منتهى الحذر والحيطة •

(٢٩٣) Mas Latrie, l.c., II, 518 ; Biblioth. de l'Ecole des Chartes, l.c., p. 136 ; Sanut., p. 989.

(٢٩٤) Biblioth. de l'Ecole des chartes, l.c., p. 136.

الترخيص بزراعته ، وقلما استطاعوا الحصول على هذا الترخيص (٢٩٥) ٠
ثم أتى دور تجارة الفلفل ، فكان السلطان يشترى كل ما يصـــل اليه
من الفلفل من الهنـــد ، بثمن بخس طبعـــا ، لأنه ما من تاجر مصر كان
يجرؤ على أن يرفع الثمن الذى يعرضـــــه السلطان ، ثم يبيع الفلفل
للغربيين بسعر مرتفع للغاية ٠ ومن قبل كان « ديوان » السلطان والتجار
المصريون يتنافسون فى بيع هذه السلعة : فصدر فى شهر أكتوبر ١٤٢٨
مرسوم يحظر على التجار بيع الفلفل وسائر التوابل ٠ وكان محظورا شراء
هذه السلع من أى مكان خلاف مخازن السلطان ٠ ومن ذلك الحين أصبح
السلطان سيدا مطلقا على السوق ، فرفع ثمن حمولة الفلفل الى ١٢٠ ،
١٣٠ دينارا ، وكان الغربيون يدفعون عنها قبلا خمسين دينارا فى القاهرة ،
وثمانين دينارا فى الاسكندرية (٢٩٦) ٠ ولم يكف السلطان عن رفع
الثمن : فبعد قليل ارتفع سعر حمولة الفلفل ، وتزن وقتئذ حوالى ٧٢٠
رطلا خفيفـــا من أرطال البندقية (٢٩٧) الى ١٠٠ دوكا وأكثر (٢٩٨) ٠
وترتب على نظام الاحتكار الذى طبق مثله فى سوريا ارتفاع ثمن القطن
الخـــام والمغزول ٠ واذ تعب التجـــار البنادقة بشدة من هـــذا الاستغلال
الفاحش ، وبان عليهم هذا التعب ، اتخذ السلطان حيالهم اجراءات لمنعهم
من مغادرة البلد ٠ وازاء هذه الحالة قرر بنيديتو داندولو قنصل الاسكندرية
أن يسافر الى القاهرة مع بعض التجار ليعرض على السلطان شكاوى مواطنيه ٠
ولم يتنازل السلطان بالرد عليه ، بغير عبارات الاحتقار ٠ ولجات الجمهورية
لجعله يندم على تصرفه هذا الى وسيلة تكللت بالنجاح : فبدأت فى مصر
وسوريا بجمع كل البضائع التى اشتراها مواطنون بنادقة ، ثم أرسلت
سفنا الى الاسكندرية وبيروت ، وأمرت التجار الذين أقلتهم هذه السفن
بألا ينزلوا الى البر ٠ وألا يعقدوا صفقات تجارية الا على ظهر السفن ٠

---

(٢٩٥) Weil, Gesch. der Chalif., V, 184.

(٢٩٦) Weil, Gesch. der Chalif., V, 183, not. ;

استعار المؤلف هذه المعلومة من المقريزى ٠

(٢٩٧) Uzz., p. 109.

فيما بعد ، أنقص وزن « السبورتا » الى ٧٠٠ رطل ؟ انظر :
Pasi, p. 8, a ; Archiv. Venet., XVIII, 51 (extrait de Misti)

وكان قبلا ٧٥٠ رطلا ٠

(٢٩٨) هذا الرقم يساوى بالضبط القيمة التى سبق ذكرها بالدنانير ، تبعا لما جاء
فى المقريزى ٠ فالواقع أن الدينار كان يساوى دوكا وربع ٠ انظر : ٠
Frescob., p. 43 ; Uzz., p. 135.

فى فقرة أخرى يقول « أوزانو » (ص ١١١) أن قيمة الدينار ، ويسميه بيزانته
bisante تتراوح بين دوكا واحد ، ١/٨ ١ و ١¼ دوكا ٠

وبهذا النظام الجديد لم تعد هناك رسوم جمركية واجبة الدفع للسلطان ٠ ولما رأى السلطان ضياع هذا المورد الثمين ، قدم اعتذاره ، ووعد بأن يعامل البنادقة مستقبلا بالشروط المدرجة فى المعاهدات ، وأن يضع حدا لضروب العسف التى اشتكوا منها (١٤٣١) ٠ ويقال ان برسباى ، منذ تلك الآونة حتى وافته المنية ، أبدى مراعاته لأحكام المعاهدات ، وللقناصل والتجار البنادقة ، وهذا على الأقل ما يؤكده المؤرخ سانوتو ٠ ولكنه يناقض نفسه فى هذا الخصوص اذ يحكى أنه عندما وصل فى عام ١٤٣٦ طرد السـلطان كل التجار البنادقة فى دمشق وبيروت وطرابلس واللاذقية والاسكندرية ، وفوجىء هؤلاء التجار بهذا الاجراء ، فاضطروا الى ترك ٧٥٠٠٠ دوكا ، وكمية من البضائع فى الاسكندرية ، وبضائع فى سوريا تقدر بمبلغ ١٦٠ر٠٠٠ دوكا ٠ وفيما بعد قدم نسـخة من خطاب حرر بالاسكندرية فى ٥ من مايو ١٤٣٨ يحكى أن تجار هذه المدينة قبض عليهم ، وأوسعوا ضربا (٢٩٩) ٠ هاتان الواقعتان حدثتا فى عهد برسباى ، لأن هذا لم يمت الا فى ٧ من يونية ١٤٣٨ ٠ وكان السبب الموجب للواقعة الأولى عزم السلطان على جمع تجارة الفلفل كلها فى يديه ٠ ورأينا أنه كان متمسكا دائما بنظامه الاحتكارى (٣٠٠) ٠

وأصيب القطالونيون مثل غيرهم فى مصالحهم بسبب هذا الاجراء ٠ ولما رأى ملك أراجون أن مطالبهم لم تلق آذانا واعية ، أوفد الى أنحاء مصر قراصنة استولوا على خمس سفن للمسلمين فى ميناء بيروت ، وثمانى عشرة سفينة فى شتى موانىء سوريا (٣٠١) ٠ ويحكى لابروكيير فى الآونة نفسها استيلاء ثلاث سفن تابعة لأمير ترنت (ميناء بجنوبى ايطـاليا على البحر الأيونى — المترجم) على صلة وثيقة بين الواقعتين لأنهما حدثتا فى تاريخين متقـاربين (١٤٣٢ — ١٤٣٣) ، وكان أمير ترنت واحـدا من بارونات مملكة نابولى التابعين لحزب ملك أراجون ٠ وينبئنا لابروكيير فى هذه المناسبة أن برسباى أخذ ثاره بالقبض على كل القطالونيين والجنويين الموجودين فى دمشق واقليم سوريا : وأصاب الجنوى الذى نزل عنده لابروكيير ما أصاب غيره من أذى ، وقبض على لابروكيير أولا ، ولم يسترد حريته الا بعد أن أثبت أنه فرنسى (٣٠٢) ٠ وكانت نتيجة هذا النزاع أن حظر السلطان على القطالونيين أن تطأ أقدامهم أراضى بلاده ٠ وانهارت التجارة التى ازدهرت اعتبارا من معاهدة عام ١٤١٤ بين مصر وبرشلونة

---

(٢٩٩) Sanut., p. 1008, 1010 et s., 1018, 1021-1024, 1041, 1059.

(٣٠٠) يؤيد هذه الحقيقة مصادر عربية ٠ انظر :

— Weil, op. cit., p. 183.

(٣٠١) Weil, op. cit., V. 184.

(٣٠٢) La Broquière, p. 499, 510.

لصالح الأخيرة ، انهيار تاما • وبناء على الحاح تجار هذه المدينة قرر الفونس الخامس أخيرا أن يعين قنصلا فى الاسكندرية ، ويكلفه بالتفاوض مع السلطان (١٤٣٧ ــ ١٤٣٨) (٣٠٣) • على أنه لا يحتمل أن يكون هذا القنصل قد وصل الى مصر أثناء حياة برسباى •

ولسنا نرى مبررا لأن يشمل الجنويين ما قام به برسباى من أعمال ثأرية ، غير أن الواقعة نفسها ليست محل شك ، كما أن الثابت أنهم لم يسلموا هم وغيرهم من اضطهاد الطاغية ، ومن ضروب العسف ، وشراء التوابل وغيرها من السلع بالاكراه ، وبأسعار مبالغ فيها ، وما يرتكبه الموظفون معهم كل يوم من أعمال كيدية • وعندما طفح الكيل قر عزمهم على التصدى للقوة بالقوة ، والعنف بالعنف ، ونجد برهانا على ذلك فى التعليمات الصـــادرة لبعثة موفدة فى عام ١٤٣١ الى برسباى للمطالبة بمراعاة المعاهدات القديمة وطلب ضمانات ضد الأعمال التعسفية التى يتعرض لها التجار الجنويون (٣٠٤) • ولا نعرف ما اذا كانت البعثة قد نجحت فى مهمتها أم لم تنجح •

واذا ارتأى لنا أن الأمم التجارية الايطالية ، وقد ضجرت من سوء معاملة رعاياها على أرض مصر ، كانت فى كل لحظة توشك أن تقطع علاقاتها بهذا البلد ، فانا لندهش اذ نرى دولة تجارية جديدة تسعى الى الدخول فى هذا المجال : تلك هى فلورنسا • فقد جاءت الى مصر ، كما جاءت الى بلاد غيرها ، لتشغل المكان الذى أخلته بيزا التى انمحى دورهـا شيئا فشيئا فى هذا المجال ، ولم تعد أسماء التجار البيزيين تظهر فى أواخر العصور الوسطى فى الوثائق المتعلقة بمصر الا فى القليل النادر • فهناك وثيقة محررة فى عام ١٣٨٥ توجه فيها مدينة بيزا عبارات الشكر للسلطان برقوق من أجل تعويض دفعه لبعض التجار البيزيين (٣٠٥) ، غير أن هذا ليس الا دلالة فردية أخيرة تثبت أن العلاقات بين بيزا ومصر لم تنقطع بالكلية • واعتبارا من تلك الفترة كانت فلورنســـا قد أخضعت بيزا لسلطتها ، وصار لها ميناء خاص ، وحلت بذلك محل منافستها القديمة • ثم ان الفلورنسيين لم يكونوا قادمين جددا على أرض مصر وسوريا • فقبل أن يكون لهم سفن خاصة ، كانــوا يستعيرون ســفن البيزيين والجنويين والبنادقة • وفى عــام ١٣٨٤ وجــد جورجيـــو جوتشى Giorgio Gucci

---

(٣٠٣) Capmany, Mem., II, 233-236.

(٣٠٤) Publiées par Silv. de Sacy dans ǹot. extextr., XI, 71-74 et reproduits dans Serra, Storia dell' antica Liguria e di Genova, IV, 166-168.

(٣٠٥) Rontíoni, éd. Bonaini, p. 939 et s. ; Amari, p. 315 et s.

أثناء رحلته الى الأرض المقدسة جالية فلورنسية بالاسكندرية (٣٠٦) ، وتزود رفيقه في الرحلة ، فريسكوا بالدى قبل سفره بكمبيالات من البيت المصرفي بورتينارى Portinari بفلورنسا ، وكان لهذا المصرف فروع بالاسكندرية ودمشق ، يدير الأول جيدو دى ريتشى ، ويدير الثانى أندريا دى سبنيبالدو ، من براتو (٣٠٧) • والواقع أن الفلورنسيين كانوا يشتغلون بالشئون المصرفية أكثر من اشتغالهم بالشئون التجارية الأصلية (٣٠٨) • وحتى ذاك الحين كان الوكلاء الرئيسيون المصدرون للمنتجات الصناعية الفلورنسية الى مصر وسوريا بنادقة ، ويبيعون هناك ، بين ما يبيعونه من سلع أخرى ، جزءا مهما من ال ١٦٠٠٠ قطعة من الجوخ الذى تسلمه فلورنسا كل سنة للبندقية ، كما يقول الدوق توماسو موتشينجو Tommaso Mocenigo (١٤٢٣) (٣٠٩) • وفى عام ١٤٢٠ ، وبناء على اقتراح سمسار تجارى فى البندقية ، وهو تاديو دى تشينى(٣٠٩م) قر عزم بلدية فلورنسا على ربط علاقات مباشرة مع مصر ، وانشاء خدمة بحرية منتظمة • وفى عام ١٤٢٢ كلفت البلدية اثنين من أعيان المدينة ، هما كارلو فيديريجى ، وفيليتشى برانكاتشى بالذهاب الى مصر للتفاوض مع برسباى ، وأن يشرحا له أنها اذا لم تكن قد أقدمت قبلا على هذا التصرف ، فذلك لأنها لم تكن تملك ميناء ولا بحرية • واستقبل السلطان المبعوثين ، فالتمسا منه أن يحسن وفادة مواطنيهما ويعاملهم معاملته للأمم الأكثر رعاية ، من حيث الممتلكات ، والحقوق ، والاعفاءات ، والرسوم الجمركية • وكان طلبهما هذا مبنيا على أن بيزا ، وقد أصبحت خاضعة لفورنسا ، فان هذه (أى فلورنسا) حلت محلها فى كل ما لها من حقوق ، ومن ثم لها الحق قانونا فى أن تطالب بكل ما لها من ميراث فى مصر • وحرصت فلورنسا بنوع خاص أن تحصل لعملتها الذهبية fiorini (الريال الذهبى الفلورنسى) على السعر القانونى فى مصر ، كما كان من قبل الدوق البندقى • وشمل الامتياز الذى منحه السلطان لفلورنسا ، وعاد به المبعوثان كل النقاط التى كانت تصبو اليها بلدية فلورنسا ، ومنها التصريح بأن يكون للفلورنسيين فنادق وقناصل بالاسكندرية ، ودمشق ، وبوجه عام فى كل الأماكن التى يتمتع فيها الفرنجة بامتيازات مماثلة ، ووعدا بأن تتحمل خزانة الجمرك ايجار الفنادق ، وأن يصرف للقناصل المخصصات المعتادة «الجامكية» Gemechia

---

(٣٠٦) Guccl. p. 274.

(٣٠٧) Frescob., p. 13, 22, 142.

(٣٠٨) Pagnin, Della decima, II, 275.

(٣٠٩) Sanut. p. 960.

(٣٠٩) Ammirato, Istorie fiorentine, 1ère part., II (Fir. 1647), fol. 904.

وضـــمانا لحماية التجار من ضروب الاكراه والمضايقات عند وصولهم ورحيلهم ، وعند البيع والشراء ، وعند تفريغ السفن من البضـــائع أو شحنها بها ، وحرية ممارسة الشعائر الدينية . وأخيرا ، وقبل رحيل المبعوثين ، نشر فى الاسكندرية قرار يحيط الأهالى علما بأنه يمكنهم قبول « الفلورينات » المسكوكة فى فلورنسا فى المعاملات (٣١٠) . وكان فى صحبة هذين المبعوثين فى رحلتهما الى مصر اثنا عشر شابا مكلفون بدراسة أحوال التجارة فى الاسكندرية (٣١٠م) . وأعقب اقلاع السفينة التى تقل هؤلاء ، بعد بضعة أيام اقلاع سفينتين تجاريتين . وكان وجود هاتين السفينتين مفيدا لهم ، لانجاز ما يحصلون عليه من امتيازات ، حتى اذا أقيمت عقبات فى سبيل تسليم الامتياز ، فان السفن تعود بالتالى كما جاءت .

وبخصوص الفندق لم يتم الاتفاق بشأنه قبل عودة المبعوثين ، كما رفض السلطان الترخيص للفلورنسيين بالاحتفاظ بفندق البيزيين القديم الذى وضع الفلورنسيون أيديهم عليه ، وانما أعطاهم بدلا منه فندق التركمان . غير أن قاضى الاسكندرية لم يرد أن يفتح لمسيحيين فندقا كان تابعا لمسلمين حتى ذلك الحين ، فأجل البت فى هذه المسألة مدة طويلة . وفى هذه الظروف ، تبوأت فلورنســـا مركزهـــا الى جانب سائر الدول التجارية الممثلة قبلا فى مصر ، فاهتمت فى البداية بأن تضمن مساندة البندقية لها ، وهى صديقتها منذ زمن بعيد (٣١١) ، وأصدرت الأوامر للمبعوثين المكلفين بالتفاوض بالنزول برا كلما رست سفينتهم فى ميناء تابع للبندقية (مودون ، وكانديا) ، ومقابلة الحاكم وتحيته ، وطلب معاونتـــه الحميدة ، وعليهما ، بالعكس ، أن يبذلا ما فى وســـعهما كى لا يتوقفا عند اقليم جنوى . وعلى ذلك فكلما كان لفلورنسا اقتراح تريد

---

(٣١٠) نشر Leibnitz التعليمات المسلمة الى المبعوثين ، وكذا تقريرهما فى :
La mantissa de on Cod. jur. gent. dipl., II, 163 et ss.

ــ وأذاع باجنينى (M. Pagnini, II, 187 et s.) نص المعاهدة التى أبرماها ،
وتوجد هذه المعاهدة أيضا فى (Uzzano, p. 70 et ss.)

Dipl. arab., p. 165 et ss., 331-346 (M. Amari).

Journal de Fel. Brancacci, publié par M. Dante Castellaci dans l'Archiv. stor. ital., 4e série, VIII, 157 et ss., 327 et ss. ; Ammirato (l.c. p. 997) et Sanuto (Vite dei dogi, p. 942).

(٣١٠ م) Ammirato, l.c., fol. 997.

(٣١١) سعت فلورنسا فى هذه الاونة بالذات الى التحالف مع البندقية ضد فيليب فيسكونتى دوق ميلانو الذى كان يثير فيها القلق بتطاوله واعتداءاته . انظر :
— Romanin, Storia di Venez., IV, 91 et ss.

عرضه على السلطان ، صاغته طبقا للأحكام الواردة فى المعاهدات المبرمة بين البندقية ومصر ، والتى كانت عندها نسخ منها ، ومن ثم كان التماثل التام تقريبا بين الامتيازات التى منحها السلطان للجمهوريتين • ومع ذلك اضطر الفلورنسيون مع الأسف الشديد ، بعد بضع سنين أن يوقفوا بعض الوقت رحلاتهم الى مصر : ذلك لأن الحرب التى اندلعت فى عام ١٤٢٤ بين فلورنسا وميلانو استنفدت موارد الدولة كلها ، وتطلبت أن يسهم فيها مواطنوها كلهم • وفى عام ١٤٣٤ توجه مبعوث الى السلطان ليقدم له تفسيرات عن أسباب هذا التوقف ، قال له ان الحرب هى وحدها التى منعت الفلورنسيين من أن يرسلوا سفنهم كل عام الى مصر ، الا أنهم اعتزموا من الآن فصاعدا أن يعوضوا الوقت الضائع • وبهذه المناسبة احتج مبعوث الفلورنسيين على مصادرة أموال قنصلهم فرانشسكو مانيللى بأمر السلطان ، بالمخالفة لأحكام المعاهدات • ويرجع انشاء هذه القنصلية الى أيام بعثة فيدريريجى وبرانكاتشى ، وقد عين القنصل فى عام ١٤٢٣ (٣١٢) •

وبعد وفاة برسباى ، استولى مملوك يدعى جقمق على مقاليد الحكم (١٤٣٨) وكان من أول أعماله أن أطلق سراح التجار البنادقة الذين اعتقلهم السلطان المتوفى (٣١٣) • هذا العمل الطيب بعث فى نفوس الغربيين الأمل فى أن تتحسن أحوالهم • وبعد وقت قليل اتخذ جقمق لنفسه لقب السلطان باسم الملك الظاهر ، وكان عاهلا أفضل من برسباى ، ويمكن القول بأنه ذو طبيعة نزيهة ، بالقياس الى سلفه الذى كان جشعه الشديد مصدر رعب الأهالى والأجانب • ومع ذلك لم يتخل عن نظام الاحتكار (٣١٤) • وكان مسلما متعصبا ، لا يتسامح مع سائر الأديان ، وكان ينزعج كثيرا من فكرة اقامة المسيحيين فى أقاليمه ، حتى أعلن على الملأ عزمه على الا يمنحهم رخصة اقامة لأكثر من ستة شهور • ومع ذلك لا يبدو أنه نفذ هذا المشروع ، ونجد آثارا لهذا الموضوع فى تقارير مختلف المبعوثين الذين أوفدهم اليه الدوق فرانشسكو فوسكارى • وكانت البواعث التى حملت الدوق على أن يوفد أندريا دوناتو الى القاهرة عام ١٤٤٢ من طبيعة مختلفة كل الاختلاف • ففى دمياط وبيروت ، كان أمير مصرى قد أسر سفينتين بندقيتين بما فيهما من بحارة وبضائع ، كذلك انهم اثنا عشر شخصا من كريت ، على ما يبدو ، بأنهم حاولوا الدخول بسفينتهم فى فرع رشيد ، ولكن السفينة غرقت ، وقضى هؤلاء الأشخاص

---

(٣١٢) Doc. sulle relaz. tosc., p. 282.

(٣١٣) Sanut. p. 1066.

(٣١٤) Weil, V, 340 et s.

وقتـــا فى سجون القــاهرة عقابا لهم على جرآتهم • وثمة بندقى غادر الاســـكندرية خفية تاركا وراءه بعض الديون ، ومن ثم اعتبرت جالية البندقية كلها مسئولة عن هذه الواقعة • فكان المطلوب أولا اطلاق سراح المسجونين ، ورد السفن والبضـــائع التى صودرت ، واعفاء الجالية من الوفاء بالدين الذى أراد السلطان القاء عبئه عليها • ونجح دوناتو نجاحا تاما فى هذا الشق من مهمته ، وطالب بهذه المناسبة بوضع حد لما يعانيه التجار البنادقة من أذى من قبل السلطات المصرية والأشـــخاص ذوى السلطة • ورحب جقمق بكل طلبات المبعوث ، وأصدر نشرة دورية ، ليس فقط لكبار موظفى الاسكندرية ودمشق ، ولكن لشخصيات أخرى أقل مكانة ، كأمراء ونواب بيروت وطرابلس واللاذقية وحماه (٣١٥) ، يدعوهم فيها بعبارات شديدة لمراعاة المعاهدات (٣١٦) • ولم تسفر النشرة عن نتيجـــة مقبـــولة ، بل زادت أعمـــال العنف والغضب التى يقترفها هؤلاء الموظفون بدرجة كبيرة ، فى سوريا بنوع خاص حتى بدأ البنادقة يقلون من زيارتها ، وصارت زياراتهم اياها نادرة • وكان يؤخذ من البنادقة بالقوة البضائع التى يأتون بها ، دون أن يدفع لهم ثمنها ، ويجبرون على شراء غيرها ، ويمنعون بشتى الوسائل من مغادرة الميناء لمواصلة رحلاتهم ، وارسال بضائعهم الى داخل البلاد ، وبالأخص أن يذهبوا الى القاهرة أو يرسلوا اليها رسلا أو خطابات ، حتى لاتصل شكاواهم الى آذان السلطان • ومع ذلك بلغت شكاواهم البندقية ، ونقلتها الجمهورية بصـورة رسمية الى السلطان مع سفيرين : لورنزو يتبولو ، ومارن دى بريولى (١٤٤٩) • وبعث جقمق بأوامر جديدة الى أمير طرابلس ، ونائبى بيروت وحماه ، ونقل بعض الموظفين المهتمين بارتكاب جرائم ، وعنف آخرين لتدخلهم بدون وجه حق فى شئون البنادقة ، وأصدر أخيرا تعليماته بأن يترك لهؤلاء الحرية المطلقة فى العمل ، وأن يعاملوا بأسلوب يبعث فيهم الرغبة فى العودة الى البلد ، واحضــــار بضــــائعهم ونقودهم (٣١٧) • واذا كان مرؤوسو السلطان قد قاوموا الامتثال لأوامره ، فانه مع ذلك أثبت حسن نيته من

---

(٣١٥) M. Amari ; M. Thomas.

(٣١٦) يبدو أن من بين كل الأوراق الخاصة بهذه السفارة ، لم يحتفظ بالبندقية سوى خطاب السلطان الى الدوق • وقد اكتشف السيد امارى (M. Amari, Dipl. arab. p. 347-358). باقى الأوراق فى أرشيف فلورنسا ؛ وكانت جمهورية البندقية قد ارسلت نص المعاهدة الى جمهورية فلورنسا بمثابة نموذج يحتذى فى المعاهدات التى تقترحها هذه (أى فلورنسا) على السلطان • ويذكر سانوتو (ص ١١٠٧) عودة دوناتو ونتائج مهمته •

(٣١٧) Taf. et Thom., inrd.

جهة البندقية (٣١٨) . وكذلك كانت معاملة جقمق للقطالونيين أفضل من معاملة سلفه لهم . وعندما وصل القنصل الذى عينته برشلونة فى عام ١٤٣٨ قنصلا لها بالاسكندرية الى مقر منصبه ، كان مكلفا بحمل رسالة من ملك أراجون الى برسباى ، فكان جقمق هو الذى قابل القنصل . وتجنب السلطان الجديد الرد على الاتهامات السابقة ، وأعطى القنصل ردا على الرسالة التى جاء بها ، خطابا يدعو فيه القطالونيين الى العودة الى ولاياته ، وأنه سوف يحتفى بهم أسوة بالأمم الصديقة ، ويعدهم بمعاملة عادلة مطابقة لأحكام المعاهدات القديمة (٣١٩) . ولم تدم هذه المصالحة سوى فترة عابرة ، فلم يلبث العاهلان أن عادا الى المحاربة . وأجرت مدينة برشلونة لدى الملك مساعٍ ملحة لاقرار السلام ، وعرض الرئيس الأعلى لرودس وساطته ، وضمن نجاح مساعيه (١٤٤٨) . ولكن الراجح أن الاثنين فشلا ، والا لما احتاجت برشلونة الى تجديد مساعيها ، كما فعلت فى عام ١٤٥٣ (٣٢٠) . ويبدو أن من بين الأسباب التى أوقعت أكبر الأضرار بتجارة القطالونيين كثرة قراصنة هذه الأمة . وكانت أعمال القرصنة التى اتهموا بارتكابها على سواحل البحر المتوسط ، وفى عرض البحر مثيرة لغضب السلاطين وسخطهم ، حتى أكثرهم ميلا للسلم والعدالة مثل جقمق . وفى عهد هذا السلطان ، حدثت واقعة مهمة فى تاريخ التجارة ، تلك هى ظهور جاك كير Jacques Coeur الذائع الصيت الذى نجحت عبقريته التجارية فى تخليص حالة الركود التى آلت اليها العلاقات القديمة بين فرنسا ومصر ، وذلك لبضع سنوات . وقد سبق لنا أن التقينا به ذات مرة ، فى عام ١٤٣٢ وهو ينزل فى بيروت من سفينة ناربونية ، ويمضى فى رحلته الى داخل البلاد ، ولم يكن وقتئذ سوى تاجر من بورج ، وكان قد أتى كغيره من التجار طلبا للشراء فى الشرق . ولما أصبح فيما بعد وزيرا لمالية شارل السابع ، لم يكف عن ممارسة التجارة ، وجمع بذلك ثروة طائلة : فقد أصبح يملك سبع سفن كبيرة راسية بميناء مونبيلييه (٣٢١) ، وكان له وكلاء ، يزيد عددهم على

---

(٣١٨) اتيحت للبندقية فرصة طيبة لاثبات رغبتها فى البقاء على صلاتها الودية مع السلطان وأن تتحاشى كل عمل يعرض للخطر التجار البنادقة فى ولاياته ؛ ورفضت السماح باقلاع سفن جهزت بالاسلحة لحساب دوق برجنديا ، وكان هذا الدوق يريد ارسالها الى رودس لتشترك فى الدفاع عن الجزيرة ضد اسطول مصرى (١٤٤٣) أنظر :

wavrin, Chron., éd. Dupont., II, 53.

(٣١٩) Capmany, IV, 229 et s.

(٣٢٠) Capmany, II, 275 ; IV, 241.

(٣٢١) لم تعد هذه المدينة تتمتع بما كان لها قبلا من ازدهار ؛ لذلك فانها ابدت شكرها الجزيل لجاك كير لاختياره اياها كمركز لاعماله التجارية ؛ وأجرت على نفقته =

ثلاثمــائة ، يزورون لحســـابه « موانى » ذلك العصر ، ومن بينهـــا الموانىء المصرية ، حاملــين اليها الأصـــواف الفرنســـية ، ويعــودون بالمنســـوجات الحـــريرية والتـــوابل (٣٢٢) . وكفلت له الحظـــوة التى كان يتمتع بها لدى السلطان تفوقا فى السوق الفرنسية ، بحيث أصبحت كل منافسة ضده مستحيلة . وكان هو وحده قوة تجارية تتحدى البنادقة والجنويين والقطالونيين ، كما كان كفؤا لكسب ود سلطان مصر ، وبذل كل ما فى وسعه للحفاظ على هذا الود . من ذلك أن رقيقا مسيحيا استطاع الهرب من مصيره التعس بأن اختبأ فى احدى سفنه ، ولكنه (اى جاك كير) أعاده دون رحمة الى مصر ، خوفا من غضب السلطان بدعوى حمايته لعبد هارب (٣٢٣) . ومرة أخرى نظم غارة « كبسة » على الأوباش فى شوارع مونبيلييه ، وجمع عددا كبيرا منهم ، ونقلهم بالقوة الى احدى سفنه ، وكانت على أهبة الاقلاع (٣٢٤) : وقد يبدو لنا أن هذه وسيلة للحصول على عدد من الرقيق الذين كان يصـــدرهم الى مصر ، وكان يعلم أن هذه هى أفضل وسيلة لكسب مودة السلطان التى كان يحرص عليها كل الحرص . ومع ذلك فلابد من الاعتراف بأنه اذا كان يستفيد من وضعه هذا ، فانه كان يستغله أيضا لصالح تجارة فرنسا بوجه عام . وقد رشح لشارل السابع أحد وكلائه ، وكان معروفا بشدة ذكائه ، ويدعى جان دو فيلاج ، فكلفه الملك بمهمة لدى السلطان ، الغرض منها توصيته للتجار الفرنسيين ، واحاطتهعلما بتعيين قنصل جديد ، وبقدوم هذا القنصل . وفى عام ١٤٤٧ عاد جان دو فيلاج الى فرنسا ومعه رسالة من جقمق يعد فيهـــا بأن يحسن استقبال التجار ، ويعامل القنصل عند وصوله بنفس الرعاية التى يعامل بها قناصل الأمم الأخرى (٣٢٥) . وسبق لنا القول بأن القنصلية الفرنسية لم تكن منشأة حديثا ، ولكن يبدو أن المنصب بقى شاغرا مدة طويلة ، وكان وزير المالية الفرنسى هـــو الذى استطاع

= الاهالى تحسينات فى الدار التى توجد بها مكاتبه ، ومنحتها بعض المزايا والاعفاءات : Germain, Hist. du commerce de Montpellier, II, 373 et ss.

(٣٢٢) Thom. Basin, Hist. des régnes de Charles VII et de Louis XI, éd. Quichirat, I (1855), p. 243 ; Chronique de Mathieu d'Escouchy., éd. Dufresne de Beaucourt, II, 280 s.

كان وقتها هو حنا دى لاستيك Jan de Castic رئيس فرسان الاسبتارية .

(٣٢٣) Mathieu d'Escouchy, II, 283, 285 ; Clément, Jacques Coeur (2e ér.), II, 149, 153 et s., 159.

(٣٢٤) Clément, l.c., II, 148 et s., 153, 158 et -.

— ثمة حاج المانى وجد نفسه فى قلب هذه « الكبسة » ، فالقى بنفسه يائسا فى البحر .

(٣٢٥) Math. d'Escouchy, l.c., I, 121 et ss.

بهمته أن يعيد شيئا من النشاط والحيوية للفندق الفرنسي ، وعبر الطريق أمام القنصل الجديد • ولسوء حظ فرنسا ، كان هذا الازدهار الجديد قصير الأمد ، اذ عزل جاك كير من منصبه في عام ١٤٥١ ، وأمضى حياته البائسة في السجن ، وصودرت أمواله ، وأهملت كل مشروعاته وابتكاراته • ومع ذلك لم تصرف التجارة الفرنسية النظر عن طريق الشرق الذي أعاد فتحه لها جاك كير • وكانت سفن تجارية مجهزة على حساب الدولة تبحر من وقت لآخر الى شمال أفريقيا ، أو الى مصر • ونعرف من هذه الرحلات مثلا ما جرى في عام ١٤٥٦ ، وكانت قيادة القافلة البحرية يتولاها تجار مونبلييه ، وكانت تعمل فيما مضى في خدمة جاك كير (٣٢٦) • وفي عام ١٤٧٠ عادت ثلاث سفن كبيرة من رحلة في الشرق الأدنى : ومعنا دفتر حسابات احدى هذه السفن ، مسجلا فيها الايرادات والمصروفات ، نرى فيه أن أحد مجهزي السفينة كان مرتبطا في حياته ارتباطا وثيقا بوزير المالية المشهور (٣٢٧) • ويغلب على ظني أن سفينتي مونبلييه البديعتين اللتين رآهما في رودس عام ١٤٧٢ أحد الحجاج القادمين من وادي الرين كانتا من هذا النوع من السفن لأنه لاحظ على أعلامهما شارات ملك فرنسا (٣٢٨) • ونجد أخيرا في مصدر بندقي أن «غليونية» سفينة ملك فرنسا كانت راسية في ميناء الاسكندرية (٣٢٩) • والدلالات هذه قليلة الارتباط احداهما بالأخرى ، ومن جهة أخرى فان المعلومات القليلة التي يمكن الحصول عليها من مقتطفات المراسلات التي جمعها سانوتو (٣٣٠) لا تكفي لكي يستنتج منها بوجود خدمة بحرية منتظمة بين فرنسا ومصر وسوريا • وعلى أية حال لم يكن هناك في الأصل خدمة من هذا القبيل • غير أن تنظيم رحلات سنوية كان بالتأكيد من المشروعات التي فكر فيها ملوك فرنسا (٣٣١) ، واذا لم يكونوا قد حققوا هذا المشروع فان شارل السابع ولويس الحادي عشر بذلا كل ما في وسعهما لتمهيد الطرق في مصر للتجار الفرنسيين ، بتزويدهم بتوصيات للسلاطين (٣٣٢) • وسوف نرى فيما بعد أن

---

(٣٢٦) Ardonnances des rois de France, XIV, 395; Cf. Pigeonneau, Hist. du commerce de la France, I, 366, 379 et s.

(٣٢٧) Pigeonneau, l.c., append., no V, et p. 370, not. 4.

(٣٢٨) Conrady, Vier rheinische Pilgerschriften. p. 108 et s.

(٣٢٩) Rawdon Brown, Calend. of statepapers Venet., I, 156.

(٣٣٠) Sanut., Diar., III, 1121, 1123, 1199, 1461, 1527 ; IV, 241, 430 441, 486 ; X, 626, 636, 885 et s. ; XI, 56, 69, 75 et s., 268 et s.

(٣٣١) Vallet de Viriville, Hist de Charles VII, III, 441, not. 1.

(٣٣٢) Ibid, p. 440 et s. ; Pngeonneau, op. cit., p, I, 414 et s.

لويس الثانى عشر كان يطمح فى أن ينشىء لرعاياه هناك مركزا متفوقا بين سائر الأمم التجارية ٠

واذا اعتبرنا مختلف موانىء جنوب فرنسا ، كل منها على حدة ، رأينا ، حسبما قيل لنا هنا وهناك أنه فى غضون هذه الفترة كانت هذه الموانى تشترك بنصيب فى التجارة مع مصر وسـوريا ٠ ومع ذلك فان تراكم الرمال فى القنوات التى تربط مدينتى ناربون ومونبيلييه بالبحر خلق لهما مصاعب متزايدة فى اطلاق سفن متعددة السطوح ٠ أما مرسيليا فانها لم تعان من هذا الوضع السيىء : لذلك كانت فى أواخر العصور الوسطى الميناء الوحيد فى تلك المنطقة الذى ما زالت تجارة الشرق الأدنى تبعث فيه حركة نشيطة ٠ وفى ذاك العصر بقى تاريـخ الموانى الفرنسية على المحيط الأطلسى بوجه عام خارج اطار دراستنا هذه ، اذ كان ملاحوها يتبعون اتجاهات أخرى ٠ ومع ذلك ففى عام ١٤٧٩ عقد دوق بريتانى ، فرنسوا الثانى مع سلطان مصر معاهدة الغرض منها تيسير دخول مصر لرعاياه (٣٣٣) ٠

ونحن ، عند النقطة التى وصلنا اليها فى هذا البحث نقترب من أواخر القرن الخامس عشر ، ومن ثم أواخر القرون الوسطى : ولم يكن فى وسـع كل الأمم والمدن البحرية الغربية التى تملك فنـادق فى الاسكندرية ، والتى تكلمنا عنها على الصفحات السابقة أن تحتفظ حتى ذلك الحين بجالياتهـا ٠ فنطالع فى تقرير مفيد للغـاية حرره القنصل البندقى فرانشسكو برناردو أن نواة الجاليات الأجنبية فى الاسكندرية فى حوالى عام ١٤٩٨ لم تعد تشـمل سـوى بنـادقة ، وجنويين ، وقطالونيين (٣٣٤) ٠ أما بخصوص الفلورنسيين ، والراجونيين (٣٣٥) ، والفرنسيين فانهم لم يزالوا يسهمون بنصيب فعال فى التجارة مع مصر وسوريا ، وهذه حقيقة أثبتتها دلائل كثيرة ، ولكنهم اذا كانوا قد شوهدوا كثيرا بالاسكندرية ، فذلك عند مرورهم بها فقط : فلم يعد لهم بها وكالات تجارية ٠ وبقى علينا فى ختام هذا الفصل أن نستعرض هذه الأمم ، ونذكر ما عرف عن تقلب أحوالها خلال هذه الفترة الأخيرة ، وهذا شىء قليل ٠ فقد بذلت برشـلونة نشـاطا كبيرا للاحتفاظ بجاليتهـا فى الاسكندرية ، ولا حاجة لنا الى ما يثبت ذلك ، سـوى الوثائق العديدة المتعلقة بتعيين القناصل القطالونيين ، والمحفوظة الى يومنا هذا ، وهى

---

(٣٣٣) Lobineau, Hist. générale de la Bretagne, I, 733, cité par Pardessus, Coll. res lois maritimes, III, p. cxvi.

(٣٣٤) Ibid. III, 476, 738, 1123, 1527, 1589, VI, 279.

(٣٣٥) Sanat., Dias, II, 171.

شهادات وأوراق اعتماد ترجع تواريخها الى منتصف القرن السادس عشر (٣٣٦) . ولسنا نملك أى دليل على وقوع نزاع بين برشلونة والسلاطين . وكان أخطر أعداء التجارة القطالونية هم قراصنة تلك الأمة ، وبلغت شدة غاراتهم فى بعض الأحيان حدا أثار غضب سائر الأمم البحرية ، فراحت تطارد كل سفينة ترفع العلم القطالونى ، مما أضر كثيرا بالسفن التجارية . ولهذا السبب وجد فليكس فابرى ، وبريدنباخ فى عام ١٤٨٣ الفندق القطالونى خاويا تقريبا ، ومع ذلك كان القنصل موجودا فى مقر عمله (٣٣٧) . غير أن هذه الحالة من الهجرة لم تكن الا مؤقتة ، ولا يجوز لنا بطبيعة الحال أن نستخلص من هذا المثال نتائج عامة عن تردد القطالونيين على ميناء الاسكندرية . وفيما بعد امتلأ فندقهم من جديد ، بل ان سفنهم أحضرت شحنات ثمينة ، وعادت بكميات كبيرة من التوابل مما أثار حسد البنادقة (٣٣٨) .

ولما وثق الفلورنسيون أخيرا صلاتهم بمصر ، فانهم لم ينموا مع ذلك كثيرا حركتهم التجارية معها ، بعد توقفها : فقد عانت هذه الحركة طويلا من سوء التنظيم . وكانت الملاحة الغربية قد انتظمت منذ زمن بعيد ، حين فكر مجلس فلورنسا فى الاهتمام من جديد بتجارة الشرق الأدنى ، وتنظيم حركتها ، وقد دفعه الى ذلك ، بصفة جزئية الحاجة الى ايجاد عمل مربح للسفن التى بنيت على حساب الدولة ، وأكثر من ذلك اعتقاده بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة للحصول على كل ربح مستطاع من حركة تبادل السلع ، بتنظيم مبادلة المنسوجات الصوفية والحريرية الغربية بالعطور والتوابل الشرقية . وانطلاقا من وجهة النظر هذه ، أصدر مجلس فلورنسا بتاريخ ١٨ من أغسطس ١٤٤٤ مرسوما بتكليف المجلس البحرى Consoli del mare بأن يتخذ الاجراءات الضرورية لارسال سفينتين تجاريتين كل سنة الى الاسكندرية والموانىء المجاورة لها ، وتحدد شهر مارس من السنة التالية موعدا لاقلاع السفينتين لأول مرة ، ثم فصل الربيع فى السنوات الأخرى . وتبعا لهذه التعليمات بدأ القبطان الذى عهد اليه بقيادة الحملة الأولى بزيارة موانى قطالونيا لكى يكمل بها شحنته باضافة كمية من المواد الضرورية لنجاح رحلة تجارية الى الشرق الأدنى . ومنذ عام ١٤٤٧ (٣٣٩) تحدد برنامج الرحلة كما يلى : فى رحلة

---

(٣٣٦) Campany, Memor., IV, 250, 251 ; II, 294 et s., 302 et ss., 306, 307, 309, 313, 346 et append., p. 62-67.

(٣٣٧) Fabri, III, 163 ; Breydenbach, fol. 123.

(٣٣٨) Sanut.. Diar., III, 476, 1030, 1199, 1527; IV, 241, 343, 418 et s. ; VI, 279 etc.

(٣٣٩) Amari, Dipl. arab., append., p. 48 et ss.

الذهاب ، القيام من ليفورنو الى سيراقوسة بمحاذاة سواحل ايطاليا ، ثم التوقف عند مودون ، ورودس ، والاسكندرية ، وبيروت ، ويافا • وفى رحلة العودة ، التوقف عند رودس ، وفى حالة الضرورة ، عند قبرص ، وكانديا ، أو خيوس • واعتبارا من عام ١٤٦٠ ، تبين أن هذه الرحلة غير كافية ، فحولت رحلة سفن تونس الى رحلة دائرية مع التوقف فى الاسكندرية ورودس • وكان هذا على ما يبدو تقليدا لرحلة السفن البندقية المسماة Galeedi traffico (٣٤٠) • وأعيدت الحركة التجارية المنتظمة مع مصر ـ كما رأينا من قبل ـ فى ربيع عام ١٤٤٥ ، فقد ذكر أنه فى ١١ من مايو قام شخص يدعو جيوفنكو ديللا ستوفا (٣٤١) مزودا بخطابات توصية لسلطان مصر ، وسلطات الاسكندرية ، ويرجح أن هذا الشخص هو قائد « السفينتين الأوليين » ، ويبدو هذا صحيحا ، خاصة وأن الوثائق المذكورة تطلق عليه لقب Mercator praefectusque nostrarum triremium وكانت هذه الخطابات محررة بعبارات عامة بحيث لا نتبين فيها الغرض من مهمته لدى السلطان (٣٤٢) • وفى عام ١٤٦٥ تسلم ماريوتو سكوارتشيالوبى الذى عين قنصلا لفلورنسا بالاسكندرية خطابات توصية مماثلة تقريبا لخطابات جيوفنكو ديللا ستوفا ، فهى نسيج من جمل مسهبة تعبر عن ثقة تجار فلورنسا فى عدالة وانسانية رعايا السلطان (٣٤٣) • وثمة مندوب فلورنسى آخر ، هو برناردو دى بارتولو ديى كورسى أوفد الى بلاط السلطان فى حوالى التاريخ الذى أوفد فيه المبعوث السابق ، ليطلب باسم مواطنيه تخفيف الرسوم الجمركية والضرائب ، بمعنى أنهم يريدون الا تفرض عليهم ضرائب الا على البضائع التى تبقى فى أقاليم السلطان ، الأمر الذى يعنى اعفائهم عن الجزء من شحنتهم الذى يسترده التجار ، أو يعاد تصديره الى بلد آخر (٣٤٤) • نرى من ذلك أن الفلورنسيين لم يكونوا قانعين أبدا بما حصلوا عليه : وظهر ذلك بصورة أوضح فى المفاوضات والمعاهدات التى سوف نتكلم

---

(٣٤٠) Doc. sulle relaz. tosc., p. 291.

(٣٤١) Ammirato, 2e part., p. 106.

(٣٤٢) Amari, Dipl. arab.,append., p. 17.

(٣٤٣) Amari, ibid. p. 38-40.

فى عام ١٤٥٩ ، انتخب التجار القطالونيون سكوارتشيا لوبى هذا قنصلا مؤقتا ، ولكن يوحنا الثانى ملك أراجون عزله من منصبه لأنه أساء استخدام وظيفته بارتكابه أعمال وعنف وابتزاز :

Campany, Mem., II, append., p. 67 ; IV, 250-252.

وفى عام ١٤٧٦ كان ولم يزل قنصلا لفلورنسا :

Amari, l.c., p. 44 et s.

(٣٤٤) Amari, Dipl. arab., append, p. 40.

عنها · ففى تاريخ غير محدد ، ولكنه لا يعقب كثيرا وصول لورنتسو دى ميـــديتشى Laurent de Medicis الى الحـكم ، سـلم وفد من الجالية الفلورنســية بالاســكندرية للسـلطان قايتباى خطـابات من الحكومة الفلورنسية ، ومن لورنتسو ، وعقد الوفد معه معـــاهدة منســوخة فى موضـوعها عن معاهدة معقودة بين البندقية ومصر ، ولا تختلف عنها الا فى ملاحق مضافة ارضاء لبعض مطالب الفلورنسيين (٣٤٥) ، وهى تعداد بالتفصيل لضمانات من تعسف الموظفين · ومع ذلك ، ورغم ما يبدو من دقة المعاهدة ، فان الفلورنسيين لم يعتبروها نهائية ، فقد كانوا دائبين دواما على ادخال تحسينات فيها ، اذ كانت كل واقعة جديدة موضوعا لبند جديد · نجد برهانا فى مشروع لتعليمات بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٤٨١ (٣٤٦) معد على ما يحتمل لبعثة جديدة كان من المعتزم ايفادها فى ذلك الحين · وفى عام ١٤٨٤ جرت بفلورنسا مفاوضات جديدة ، مثل فيها قايتباى شخص يدعى « ملفوته » Malfota (٣٤٧) ، واستؤنفت المفاوضات بالقاهرة فى عام ١٤٨٧ تولاها عن فلورنســا باولو دا كوللى ، وأظهــر فيها السلطان كل اعتبار وود · وكانت الشروط قد وضعت حين توفى كوللى فجأة · ولما لم يتسع الوقت لقايتباى لابلاغ رئاسة فلورنسا بشروط المعاهدة ، فانه أوفد من جديد « ملفوته » (ويسمى أحيانا : Malphot; Mazamet Elmalfet) فى مهمة خاصـــة الى فلورنسا ليعرض على حكومتها المزايا التى منحها مولاه للتجارة · ووصل المبعوث المصرى فى شهر نوفمبر عام ١٤٨٧ ، ومعه من الأشياء الثمينة التى كان عليه أن يسلمها هناك باسم السلطان زرافة وأسدا مستأنسا ، وفى صحبته مترجم صقلى ، وقد كلف بأن يبلغ شفاهة الاقتراحات التى يعزضها سيده · والمعتقد أن هذه المفاوضات كانت تتعلق بشىء آخر خلاف شروط المعاهدة ، وكان الســلطان وقتئذ شـديد القلق من ناحية تقدم العثمانيين تقدما متواصلا ، وعليه أن يتخذ لهذا الأمر كل الاحتياطات ، ويضمن تحالفه مع الدول الغربية · وأرادت رئاسة فلورنسا أن تتجنب تعريض نفسها لأية شبهات أو مخاطر ، فكلفت قنصلها فى القسطنطينية بأن يقـابل باسمها سلطان آل عثمان ليوضح له الايستاء من وجود مبعوث لقايتباى فى فلورنسا ، وأن فى وسعه أن يعتمد على رئاسة فلورنسا ، وأنها لن تناقشه البتة (٣٤٨) فى أى شىء خلاف المسائل التجارية البحتة ، كما يقول

(٣٤٥) Amari, Dipl. arab., p. 363 et ss.

(٣٤٦) Amari, Dipl. arab., p. 361 et s.

(٣٤٧) Ibid. append., p. 46.

(٣٤٨) Les, Duc sulle relaze Tasc, p. 237.
Rinuccini (Ricardi, p. XVLIII) Landino commentaire de virgile (Vay. Bandini, Cal-Lectio Veterum aliguat monumentarum, p. 12 nat.)
انظر خطاب شكرى لورنزو فى : Bandini l-c., p. 12 et s.

المثل « الاعتذار اقرار بالذنب » (٣٤٨م) . ومهما يكن من أمر ، فان رئاسة فلورنسا قبلت المزايا التى منحها السلطان لتجارتها ، وأوفدت فى شهر نوفمبر عام ١٤٨٨ لويجى ديللا ستوفا حاملا للسلطان شكرها للهدايا التى تلقتها منه ، وليعرض عليه فى الوقت نفسه موادا اضافية برجاء اقرارها (٣٤٩) . واستقبل قايتباى المبعوث بكل حفاوة ، وبادر بقبول كل طلباته (١٤٨٩) (٣٥٠) . ومع كل هذه الدلائل على الرعاية والمودة ، فانا ندهش بعض الشىء حين يتبين لنا حدوث توقف فى الحركة التجارية لفترة ما لأسباب لم تزل مجهولة . وثمة سفراء لا نعلم أسماءهم ، أوفدوا الى القاهرة لاعادة الصلات التى انقطعت على هذا النحو ، فعادوا ومعهم امتياز منحه السلطان للفلورنسيين بالتمتع بكل المزايا التى حصل عليها البنادقة حتى ذلك الحين (١٤٩٦) (٣٥١) . وتوفى قايتباى بعد هذا بقليل . وهذه الوثيقة هى آخر مثال لمعاهدة تجارية أبرمت بين فلورنسا ومصر ، وتناولت كل المسائل التفصيلية . نجد أيضا فى أواخر الفترة التى ندرسها تصريحات حملها الى فلورنسا مبعوث مصرى اسمه تغرى بردى Tagri-Berdi باسم مولاه قنصوة الغورى (١٥٠٧) ، والضمانات التى أعطاها هذا السلطان للمبعوث الفلورنسى برناردينو بيروتزى Bernardino Peruzzi (١٥٠٩) ، ومع ذلك لا نرى فيها سوى تصريحات عامة ، أو تكرار موجز لأهم النقاط فى الامتياز الذى منحه قايتباى (٣٥٢) . واذا ألقينا نظرة شاملة على العلاقات بين فلورنسا ومصر ، وجدنا حقيقة تصدمنا لأول وهلة ، تلك هى انعدام المنازعات التى تتجلى كثيرا فى الأمور المتعلقة بسائر الأمم التجارية : اذ يبدو أنه لم يحدث بينهما بالمرة أى احتكاك . ولا يمنع ذلك من أنه يتبين فى كل فقرات المعاهدات أن التجار الفلورنسيين ، شأنهم شأن غيرهم من التجار كانوا يعانون بقسوة مما يرتكبه الموظفون المصريون من أعمال العسف والعنف ، وبوجه عام من تعصب المسلمين وجشعهم . ويتيح الفندق مجالا لملاحظة ليست أقل غرابة ، فالفندق كان موضوعا للعديد من المطالب التى استجيبت

---

(٣٤٩) Bandini, l.c., p. 12 et s.
Amari (p. 372 et s.)

– نجد تعليمات لويجى ديللاستوفا فى :

(٣٥٠) Amari, Dipl. arab., p. 181 et s., 382 et ss.

(٣٥١) Amari, Dipl. arab., p. 184 et ss., 210 et ss.

(٣٥٢) Ibid. p. 214 et ss., 387 et ss.

فى الكثير من الأحيان ٠ ومع ذلك لا نجد فى أية فقرة اشارة واضحة وصريحة لفندق خصص للفلورنسيين ، أو أى أثر يدل على تملك تجار هذه الأمة لأى فندق ٠ وبخصوص القنصلية ، فهذا موضوع آخر : فالثابت وجود قنصلية بالاسكندرية (٣٥٣) ، بقيت بها حتى بعد العصور الوسطى (٣٥٤) ٠ ولا يوجد الا الشيء القليل جدا عن تجارة جنوا مع مصر وسوريا فى السنوات الأخيرة للعصور الوسطى ، والمصادر الأهلية فى هذا الخصوص نادرة ، وتكاد تكون معدومة ٠ يقول أجوستينو جستنيانى Agostino Giustiniani ان الجمهورية أوفدت مبعوثا الى القاهرة فى عام ١٤٧٤ ، أو ان الحكومة ناقشت على الأقل ملاءمة هذا الايفاد من أجل تعزيز حركة التجارة الوطنية فى مصر وسوريا (٣٥٥) ٠ وفى العديد من الخطابات المرسلة فى تلك الآونة من الاسكندرية وبيروت وطرابلس الى البندقية يذكر دائما عدد السفن الجنوية التى دخلت فى هذه الموانى، وبها مؤن وفيرة من نقود وبضائع ، وعادت منها بشحنات من التوابل والقطن وسلع أخرى ٠ وتحالف الجنويون مع القطالونيين بقصد ابعاد البنادقة من أسواق مصر وسوريا (٣٥٦) ، وكانت جاليتهم بالاسكندرية تعد من أكبر الجاليات الفرنجية ٠ وفى عام ١٤٨٣ زار فليكس فابرى Felix Fabri فندقهم ، وأعجب بجماله وأبعاده الشاسعة ، ورأى به عددا كبيرا من التجار ، وكميات هائلة من التوابل (٣٥٧) ٠ وكان بالقاهرة بعض أعضاء هذه الجالية حين وقعت أحداث الشغب والنهب التى سبقت استيلاء قنصوه الغورى على مقاليد الحكم (١٤٩٧) ، وعانوا ثمة من بعض الخسائر ، ولكنهم حصلوا فيما بعد على تعويضات عنها (٣٥٨) ٠

واذا كان فليكس فابرى قد اعترته الدهشة حين زار فندق الجنويين ، فان دهشته انقلبت ذهولا حين رأى المؤنة الهائلة التى كانت تملأ فندقى البنادقة (٣٥٩) ٠ وكان البنادقة يحتلون دون شك المكانة الأولى بين الأمم التجارية فى مصر ، وكانوا يفضلون تجارة التوابل ،

---

(٣٥٣) لا يبدو أن أصحاب هذا المنصب قد شغلوه على التوالى دون انقطاع ٠

(٣٥٤) انظر أمثلة لذلك فى : Amari, Dipl. arab., append., p. 75.

(٣٥٥) Guistiniani, Annali dli Genova, p. ccxxvi, b.

(٣٥٦) Sanut., Diar., I, 768; II, 171; III, 68, 69, 476, 687, 738 941 et s., 1013, 1123, 1199, 1527; V. 10 et s., 486; V, 197; X, 86; 95 et s. ; XII, 624 et s.

(٣٥٧) Fabri, III, 163; Breyrenbach, p. 128 ; Ghistele, (p. 197 et s.)

(٣٥٨) Sanut., Diar., I, 634, 637.

(٣٥٩) Fabri, l.c. ; Breydenbach, l.c.

وبالأخص الفلفل (٣٦٠) . وكانت الاسكندرية أكبر سوق فى العالم من حيث تجارة هذه المواد ، وكان السلاطين أنفسهم يشتغلون بها ، كبائعين . وكانت تجارة الفلفل موضوعا لمفاوضات عسيرة ، ومصدرا لمنازعات كثيرة بين البندقية والسلاطين ، ولم يكن هناك مناص من حدوث ذلك . وشيئا فشيئا كف السلاطين عن تركيز هذه التجارة كلها فى أيديهم . وكان قنصوه الغورى هو وحده الذى أثار الرعب فى هذه التجارة (١٥٠٢) بالتهديد بخطر تصدير الفلفل الى دمشق . ومن ذلك الحين لم يعد يسمح بقيام سوق للفلفل خلاف سوق الاسكندرية ، ووجود بائع له سواه . وسرت مرارا اشاعة بأنه يفكر فى احتكار كل أنواع التوابل ، وكان تحقيق هذه الفكرة يقضى حتما على الحركة التجارية على طريق سوريا ، ويعيقها على الأقل بصورة محسوسة على طريق مصر . ومع ذلك يبدو أن البنادقة نجحوا ، ببذل المال فى منع تحقيق هذا المشروع (٣٦١) . وبوجه عام صرح لهم أسلاف قنصوه بشراء الفلفل من التجار المصريين ، بشرط أن تأخذ سفنهم من مخازن السلطان فى كل رحلة ٢١٠ أطنان من الفلفل . ولماذا رقم ٢١٠ هذا ؟ لأن ثمن عشرة الأطنان الأخيرة تدخل فى جيب وزير الخزانة (٣٦٢) . ولم أستطع أن أعرف الفترة التى تعهدت فيها جمهورية البندقية ، بموجب معاهدة بأن تشترى سنويا من السلطان هذه الكمية من أطنان الفلفل . وعلى أية حال فان توشر Tucher يذكر هذا الرقم (١٤٨٠) كما ذكر مرارا فى تاريخ المفاوضات التى جرت بين البندقية ومصر ، مما كتبه سانوتو فى مذكراته ، باعتباره قاعدة قديمة (٣٦٣) . وبخصوص ثمن الطن ، فانه كان موضوعا لمساومات دائمة . وأبقى السلطان اينال (١٤٥٣ — ١٤٦١) فى أثناء حكمه على سعر ١٠٠ دوكا المحدد قبله ، أما ابنه المؤيد شهاب الدين أحمد فقد أقنعه مافيو ميشيل Maffio Michiel مبعوث البندقية بخفض هذا السعر الى ٨٥ دوكا (٣٦٤) . وعلى العكس ، لم يقبل قايتباى سعرا أقل من ١١٠ دوكا ، رغم أن السعر المتداول فى

---

(٣٦٠) La chap. 228 du Capitalare dei Visdomini del fontego dei Todeschi in Venezia (éd. Thomas, p. 116).

(٣٦١) Sanut. Diar., IV, 650 et s., 690, 750, V, 197 et s., 778 et s ; VI, 68; VII, 226.

(٣٦٢) Marin, VII, 290, 298, 302.

(٣٦٣) Sanut., Diar, II, 172 ; III, 1198.

(٣٦٤) Sanut., Vite dei rogi, p. 1169 et s.

— أكتب هنا « دوكا » مع ان النص الاصلى يذكر Saraffo «اشرفى» ، ذلك لان ال Saraffi قيمته هى نفس قيمة الدوكا البندقى . انظر :

Reinaud, dans le Nouv. journ. asiat., IV (1829), p. 40 not 3; Sanuto, Vite dei dogi, p. 1107 ; Harff. p. 78, 115, 156; Ghi tele, p. 6, 311 ; Geo. Gemnic, p. 475.

السوق قبل ستة شهور فقط كان ٥٠ دوكا فقط · ولما رفض البنادقة الشراء بهذا السعر ، حبسوا داخل فنادقهم يومين وثلاث ليال · ثم اقتيدوا الى الجمرك ، ولم يطلق سراحهم الا بعد أن قبلوا أن يدفعوا ٧٠ دوكا · وثمنة حاج من نورمبرج ، عرفنا اسمه من قبل ، وهو توشر ، كان نازلا فى تلك الآونة فى أكبر فندق بندقى انتظارا لاقلاع السفينة التى تقله الى الغرب ، ومن ثم شارك التجار مصيرهم · ويحكى أن هذا الأمر يتكرر كل عام : فكان القنصل يدفع ثمن الفلفل بالسعر الذى يفرضه السلطان ، ثم يبيعه للتو ، ويسترد الفرق بين ثمن الشراء وثمن البيع من الضريبة cotimo التى يحصلها القناصل على البضائع الواردة من البندقية الى الاسكندرية (٣٦٥) · وفى عام ١٤٩١ قبض السلطان فى الاسكندرية على بعض التجار البنادقة وأرسلهم الى سجون القاهرة : وقد لجأ الى هذا الاجراء العنيف لينتزع من الجمهورية تعويضا طالب به بدعوى أن البنادقة وعدوه بدفع ١٠٠ دوكا عن الطن Sporta ولكنهم لم يدفعوا سوى ثمانين دوكا ، فخسر بذلك مبلغا قدره ٣٠ ٠٠٠ دوكا (٣٦٦) · وبعد قليل أصبح هذا السعر ، أى ٨٠ دوكا هو القاعدة (٣٦٧) · وفى المفاوضات اللاحقة التى أجرتها جمهورية البندقية مع السلطان ، أصرت على ألا يزيد هذا السعر ·

وكانت تجارة الفلفل موضوعا لمنازعات خطيرة بينها وبين قنصوه الغورى ، وكان هذا الأمير لا يتراجع أمام العنف فى سبيل اشباع جشعه ، ومن ثم اضطر البنادقة أن يوافقوا فى شهر سبتمبر عام ١٥٠٣ على أن يأخذوا خارج السعر المتفق عليه ثلاثمائة sportas من الفلفل بسعر ١٠٥ دوكا للاسبورتا (٣٦٨) · ولما نجحت العملية أول مرة ، أعادها فى شتاء ١٥٠٤ ــ ١٥٠٥ : وبخلاف المائتين والعشرة « سبورتا » المقررة ، ورغما عن احتجاجات البنادقة ، أمر بايداع مائتين وخمسين سبورتا آخر فى فندقهم ، وطلب وكلاؤه ثمنا فادحا عن المجموع · ولما لم يستطع التجار أن يدفعوا الثمن نقدا ، وزاد الضغط عليهم ، وعدوا بتوريد نحاس بثمن اقل من السعر الجارى بحيث كلفهم الاسبورتا من الفلفل ١٩٢ دوكا بدلا من ثمانين · غير أن السلطان أصر على الدفع نقدا ، وبدأ بأن أجبرهم على اقتراض مبلغ ٢٠٫٠٠٠ دوكا بفوائد باهظة ، على أن يسددوا المبلغ فى خزائنه ، ثم أجرى تفتيشا دقيقا فى فنادقهم ، وسفنهم ، وأخيرا أرسل

---

(٣٦٥) Tucher, p. 371.

(٣٦٦) Malipiero, p. 625.

(٣٦٧) Sanuto, Diar., II, 172 ; III, 1198.

(٣٦٨) Ibid, v. 83.

القنصل وبعض التجار الى سجون القاهرة • واستغرق كل ذلك بعض الوقت : وانقضى الموعد المحدد لرحيل السفن بوقت طويل ، وأراد قائدها أن يقلع بها ، فمنعه السلطان من مغادرة الميناء ، ولكن القائد لم يرضخ لهذا الخطر ، وأقلع بالسفن بكل شجاعة ، ولم تستطع اربعون قذيفة أطلقت من مدافع مجاورة للفنار ايقاف السفن ، ووصل الى البندقية دون أن تصاب سفنه بأى ضرر ، واستقبل هناك استقبالا حارا يليق بشجاعته• وثار غضب السلطان ، واعتبر الأمر ضربا من الوقاحة والفظاظة ، فنقل الى القاهرة كل البنادقة الباقين بالاسكندرية ، وفرض الحراسة على أملاكهم كلها • وأرادت رئاسة الجمهورية أن تسوى هذا الخلاف الذى يدعو الى الأسف ، فبعثت الى القاهرة بالسكرتير ألفيس سيجونديتو ، ولكن هذا المبعوث توفى فى مصر قبل أن ينجز مهمته (٢٨ فبراير ١٥٠٦) (٣٦٩) • وجاء دور السلطان فبعث كبير التراجمة تغرى بردى Tagriberdi الى البندقية فوصلها فى ١٧ من سبتمبر ١٥٠٦ ، ولم يغادرها الا فى ٢٦ من يوليه ١٥٠٧ ، ووعد باسم مولاه أن يأخذ بسعر مناسب شحنة النحاس المتبقية لمبادلتها بالفلفل ، بحيث تنقص خسائر البنادقة فى هذه العملية كلها بمقدار ثمن النحاس • وفيما يختص بالمستقبل أعلن السلطان أنه لا يرى موجبا لأن يسلم المائتين والعشرة « سبورتا » من الفلفل بسعر ٨٠ دوكا ، فى حين أن السعر المتداول أعلى من هذا بكثير • ولكن البنادقة قاوموا بشدة ، واحتفظوا بحقهم فى رفض فلفل السلطان اذا طلب سعرا أكبر • وفضلا عن ذلك أدرج فى المعاهدة مواد مختلفة تنص لصالح البنادقة على ضمانات من الضرائب الفادحة ، وأعمال الابتزاز ، والحراسات ، الخ (٣٧٠) • وبعد النص على هذه الشروط عادت الحركة التجارية الى ما كانت عليه قبلا من الجهتين ، وأطلق السلطان سراح التجار البنادقة ، على الأقل من لم يمت منهم فى السجن مصابا بالطاعون (٣٧١) ، وتركهم فى سلام آمنين سنتين متواليتين • وسنرى بعد قليل مناسبة نشب فيها نزاع جديد •

لم تكن أسعار الفلفل هى موضع الشكوى الوحيدة للتجار ، فكثيرا ما اشتكوا من نوعيته • فقد جرت العادة فى الأسواق الكبيرة على اخضاع الفلفل ، مثل سائر أنواع التوابل لعملية فرز لفصله من النفايات :

---

(٣٦٩) Ibid VI, 136, 149 et s., 145, 157 et s., 170, 199 et ss., 267, 296, 311, 321, 331 et s., 464-468.1

(٣٧٠) Sanuto, ibid. VII, 203-224; p. 354 du vol. VI jusqu'à la p. 82 du vol. VII ; Ibid. VII, 253, 396 et s., 603, 607.

(٣٧١) Ibid. VI, 181, 184, 190, 195.

وتؤدى هذه العملية بأدوات تسمى « الغرابيل » (٣٧٢) ٠ وكان بنادقة الاسكندرية يصرون على اجراء هذه العملية ، خاصة وأن الألمان ، زبائنهم الرئيسيين يرفضون هذه النفايات ٠ ومع ذلك كان التجار يرغمون على استلام الفلفل كما يصل من الهند ٠٠ وفي عام ١٤٨٣ ، سافر قنصليهم الى القاهرة ليطالب بحقهم فى فحص البضاعة ورفض النفاية (٣٧٣) ٠ ولا نعلم ما أسفر عنه هذا المسعى ، ولكنا نجد فى تعليمات الفيز سيجوندينو Alvise Segondino ، وفى الاتفاقيـــة المنعقـدة مع تغرى بـردى Tagriberdi فقرات تطالب فيها رئاســة الجمهورية باجراء الفرز الأول للتوابل المعروضة للبيع على التجار البنادقة (٣٧٤) ٠

والى جانب أسباب النزاع هذه ذات الطبيعة التجارية البحتة ، كانت هناك أسباب أخرى ذات طبيعة سياسية تنعكس آثارها على المستوطنين البنادقة فى مصر وســوريا ٠ فمن ذلك أن ملوك قبرص كانوا يدفعون الجزية للسلطان ، ومن ثم كان للســلطان كلمته فى الشــئون الداخلية لهذه المملكة ٠ وكان الأمر كذلك بالنسبة الى البندقية خاصة بعد أن استقر تاج المملكة على رأس أميرة من أسرة نبيلة من أسر الجمهورية ، هى كاترين كورنارو Catherine Cornaro ، ولكن كان لها منافســة فى شــخص الملكة كارلوتا Carlotta ٠ واســـتطاع مغامر من نابــولى يدعى ريزو مارين Rizzo Marin ، كان يدبر المؤامرات لحساب الأخيرة ضد كاترين أن ينشر أحاديثه فى بلاط السلطان ٠ وأمسك قنصل البندقية فى دمياط ، بييرو دى بييرو بخيوط المؤامرة ، وبعث سرا بتقرير عنها الى قبرص ، وقبض على المتآمر بأمر حكومة البندقية ٠ وفى نظير هذا القى السلطان القبض على قنصل دمياط ، ولم يتمكن هذا من استرداد حريته الا بعد أن تدخل قنصل البندقية فى الاسكندرية لورناردو لونجو (٣٧٥) ٠ وبعد قليل أجبرت الجمهورية كاترين على خلع تاجها ، وتسلمت هى مقاليد الحكم فى الجزيرة ، وبررت تصرفها هذا لدى السلطان بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لمنع وقوع الجزيرة فى أيدى الأتراك العثمانيين ، أعداء مصر والبنــدقية ٠ وأبدى الســلطان ارتيــاحه حين صرحت البنــدقية

(٣٧٢) Pegol., p. 8, 213, 299 et s., 310 ; Pasi, p. 6, a ; Bonaini, Stat. Pis., III, 49 et s., 142, 241, 334; Cod. Berol., cit. p. 27. ; Roth, Gesch. des Nürnb. Handels, IV, 222, 225, 265.

(٣٧٣) Fabri, III, 33; Marin, VII, 319.

(٣٧٤) Sanut., Diar., VI, 206; VII, 222 et ss.

(٣٧٥) Malipiero, p. 609 et s. ; Navagero, p. 1197, 119 ; Mas Latrie, Hist. de Chypre III, 438-440.

باستعدادها للاستمرار فى دفع الجزية (٣٧٦) • ومن ذلك الحين صار البنادقة جيرانا لمصر ، ومع ذلك لم يكن من شأن هذه الجيرة ، بالاضافة الى المســـائل التجارية ، أن تعزز العلاقات بين القوتين (٣٧٧) وكان السلاطين ، بجشعهم الدائم ينتظرون بفروغ صبر دفع الجزية ، وكان للتأخير فى الدفع ، أو الاهمال فى اختيار الأقمشة المناسبة سدادا لجزء من المبلغ المطلوب نتائج خطيرة بالنسبة للتجار البنادقة المقيمين فى ولايات السلطان (٣٧٨) •

ولم يكن التجار الأجانب يخشون من استبداد السلاطين وحدهم ، فحكام الأقاليم كانوا ينافسون سادتهم فى هـذا المجال • ففى سوريا ، على سبيل المثال ، كان البنادقة فى كثير من الأحيان ضحايا الحسد المتبادل بين أمراء دمشـق وحلب • ولما كان أمراء دمشق يحصلون على كل البضائع المستوردة عن طريق بيروت ، فانهم أمروا بتفريغ كل بضائع البنادقة فى هذا الميناء ، لا فى ميناء طرابلس ، لأن الرسوم التى تجبى فى هذا الميناء تشكل جزءا من ايرادات أمراء حلب • وفى عام ١٤٧٣ أفرغ جيوفانى بريولى الذى كان يتولى مهام قنصل البندقية بدمشق عددا من قطع الصوف فى طرابلس ، ومن ثم حكم أمير دمشق بضربه ، وألقى بتجار كثيرين فى السجن • وكان لابد على الأقل من ايفاد مبعوث ليحاول اطلاق سراحهم ، ومن ثم ذهب جيوفانى ايمو بهذه الصفة يقدم للسلطان مطالب البندقية فى هذا الخصوص ، الا أن مساعيـــه استغرقت وقتـــا طويلا (٣٧٩) • ومرة أخرى ، فى عام ١٤٩٩ رست سفن تجارية بندقية عند طرابلس ، وأنزلت الى البر بضائع مرسلة الى حماه وحلب ، وكان

---

(٣٧٦) Malipiero, p. 612; Navagero, p. 1199 (cf. Cicogna, Inscriz. venez., II, 162); Mas Latrie, l.c., III, 442, not., 472 et ss.

ـ أحضرت السفارة الموفدة الى القاهرة فى هـذه المناسـبة الى الدوق من طرف قايتباى هدايا من بينها أشياء من أصل أسيوى منها صمغ جاوة ، وخشب الصبر ، وخزف صينى ، وقطن هندى sinabaffo يعرفه ابن بطوطة (IV, 3) يصنع فى البنغال ، وكان البرتغاليون يستوردونه الى أوربا ، ولكنه كان يوجد أيضا فى Giov. da Empoli, dans Gubernatis, Viagg. ital. nell' India, p. 115, Cà Masser, p. 23, 28 ; Sommario, p. 334, a); Domen. Trevisani, Viaggio, p 42.

(٣٧٧) Mas Latrie, Traités, p. 272; Marin, VII, 296, 303.

(٣٧٨) Sanut., Diar., II, 614 et s. ; III, 923 et s., 941 et s., 1122, 1193, 1526.

(٣٧٩) Malipiero, p. 619 ; cf. Gios. Barbaro, Lettere, ér. Cornet, p. 57.

أمير دمشق ينتظر فى بيروت وصول هذه السفن ، فزعم أن هذا التغيير فى ميناء الوصول سبب له خسارة تربو على ١٠٠٠٠ دوكا ٠ ولكى يثأر لنفسه ، استولى من مخازن بعض العملاء البنادقة على اثنين وخمسين طردا من أوان فضية ، وسجن سبعة تجار (٣٨٠) ومع كل ذلك ، كان التجار البنادقة وغير البنادقة يقاومون بشدة فى مصر وسوريا ، ويعانون كل ضروب العنف من جانب السلاطين والأمراء الذين يتبعون ميولهم الجشعة ، ويتحملون وقاحة صغار الموظفين (٣٨١) ، وضروب الاهانة ، والابتزاز والاختلاس ، والسجن حتى الضرب بالعصا (٣٨٢) ٠ فاذا تعرض مسلم للاعتداء أو السجن أو الموت فى بلد خاضع لسيادة الفرنجة ، فان المسئولية تقع على التجار البنادقة وغير البنادقة (٣٨٣) ، وكانت حياة هؤلاء وأملاكهم معرضة دائما للخطر ، وسط القلاقل التى تقلب أوضاع ولايات السلاطين (٣٨٤) ، ولم يكن ثمة شيء قادر على تخليصهم من هذا المصير ، ولم يكونوا يجهلون أنهم ، مع ما يتحملون من بلايا ، لا يثيرون فى نفوس المسلمين سوى الازدراء ٠ ومع ذلك كانوا يعودون ليمارسوا تجارتهم (٣٨٥) : اذ كان حب المال أقوى من أى شيء آخر ، ولم يكن فى وسع الغرب أن يستغنى عن توابل الهند ، ومصر هى البلد الوحيد الذى لم يزل مفتوحا لتجارتها ، وعن طريقها تصل هذه التوابل الى شاطيء البحر المتوسط ٠ وطالما إستمر الحال على هذا المنوال ،كانت البنادقة ،

---

(٣٨٠) Malipiero, p. 649; Sanuto, Diar., II, 1039 et ss., III, 673 et ss.

(٣٨١) Amari Dipl. arab., p. 352.

(٣٨٢) Petrus Martyr d'Anghiera, l. c., p. 447.

(٣٨٣) يكفينى أن اذكر مثالا واحدا من بين آلاف الأمثلة ٠ ففى عام ١٤٧٥ خطف قرصان بزوفانسى تاجرين مسلمين ، ونقلهما الى رودس حيث احتفظ بهما لحسابه ٠ وردا على هذا الاعتداء ، قبض السلطان على تجار بنادقة فى مصر وسوريا ، وطالب جمهورية البندقية باطلاق سراح التاجرين العرب ، وأن تسلمه القرصان ٠ انظر : Arch. stor.lomb., I, 155 et ss.

(٣٨٤) Malipiero, p. 636 et ss.; Sanut., I, 289, 331 et s.

Petr Mar. l.c.

(٣٨٥) حين بلغت تجارة الشرق الادنى اقصى ازدهارها ، كانت زراعة القطن قائمة مرجودة منذ زمن بعيد فى الغرب ؛ واذا كان نتاجه هناك من نوع جيد ينافس قطن الشرق ، فان سوريا هى التى عانت من ذلك : وكانت سوق الاسكندرية تتلقى منه القدر القليل جدا ولم تكن تجارة الغرب تقبل فلفل غينيا بدلا من فلفل الهند الحقيقى ٠ وقبل عصر فاسكو دى جاما ، كانت تجارة البرتغال قليلة النماء ، وكانت المواد التى يستوردها تجار هذا البلد .. مثل سكر كانارى (جزر كانارى) ، وعاج افريقيا لا تصل بكميات كافية لاحياء السوق ٠

والجنويون ، والقطالونيون وغيرهم منجذبين اليها بقوة لا تقاوم ، ووجد كبار تجار البلد (أي مصر) في هؤلاء عملاء مضمونين ٠

ولكن كان هناك انقلاب وشيك : ذلك أن البرتغاليين ، وهم يواصلون اكتشافاتهم على طول الساحل الغربي لأفريقيا ، أدركوا أن في الامكان الالتفاف حول القارة ، والذهاب الى الهند مباشرة ، في رحلة واحدة ٠ ومن ذلك الحين ثبت أن في مقدور الغربيين أن يحصلوا مباشرة على توابل تلك البقاع ، ومن ثم لم يعودوا خاضعين قسرا للوسطاء المصريين ٠ وكان لهذا الانقلاب حتما نتائج لا تحصى ، سوف ندرسها في فصل خاص ٠

ثالثا : الهند

في الفترة التي تنتهي عندها دراستنا ، وصل عدد الموانى على الساحل الغربى لشبه القارة الهندية ، والتى تستحق الذكر لأهميتها التجارية رقما كبيرا · وترجع هذه الظاهرة الى أسباب مختلفة : أولا الى تقسيم الاقليم بين عدد لا حصر له من صغار الأمراء ، يريد كل منهم أن يسهم بنصيب فى التجارة العالمية ، وثانيا الى المنافسة الضارية بين التجار الوطنيين والمستوطنين العرب الذين تضاعف عددهم ، وزاد على كل تقدير متوقع ، وأخيرا الى ظرف خاص : ذلك أن كل اقليم يتخصص فى بعض الحاصلات الطبيعية ، وكلها مطلوبة فى التجارة · ففى الشمال كانت المنتجات السائدة هى خيوط الغزل والمنسوجات ، وكان ميناء كمباى Cambaye يغمر بها العالم الاسلامى كله تقريبا · وفى الوسط يصدر اقليم كنارا Canara أرزه المشهور والسكر · وفى الجنوب يزود اقليم ملبار Malabar التجارة بمحصولين مطلوبين بشدة : الفلفل والزنجبيل · وهناك أخيرا جزيرة سيلان ، فى الطرف الأقصى من شبه القارة ، وبها محصول القرفة · ومن أيدى المنتجين ، تنتقل هذه المحصولات الثمينة الى أيدى التجار الذين يطلبونها فى أنحاء العالم · وثمة عدد لا حصر له من السفن التى تبحر بمحاذاة السواحل أو فى أعالى البحار ، تستخدم فى هذه التجارة · ومنذ عدة قرون ، تجرى حركة هجرة مستمرة ، تصب فى هذه البلاد جماعات من التجار ، يأتون من الجزيرة العربية ، وفارس ، ومصر · ويمكن تقسيم هؤلاء المهاجرين الى طائفتين ، تشكلان طبقتين : فهناك أولا سلالة المهاجرين الأوائل ، ويطلق عليهم فى ملبار اسم مايولير

Mapoulères ، ثم طائفة أحدث عهدا من هؤلاء وهم البارديسى Pardesis . ويملك هؤلاء زمام التجارة البحرية كلها تقريبا فى هذا الاقليم(١) . ولم يكن هؤلاء الأجانب يتجمعون فى المدن الساحلية الكبرى وحدها ، بل كان هناك قليل منهم فى كل الأنحاء ، حتى فى المدن الأقل أهمية ، وفى بعض الموانى يحتكرون الحركة التجارية كلها ، وفى موانىء أخرى يتقاسمون التجارة مع الهنود . على أن الهنود لم يتركوا المجال لهؤلاء : مثال ذلك ان اتحاد تجار كجرات Goudjerate يتشكل من عنصرين ، ومركز أعمالهم فى مملكة كمباى ، ولهم فروع وتوكيلات تجارية فى الهند كلها ، وفى الهند الصينية .

وعندما شرع البرتغاليون والفلورنسيون يترددون على هذه المناطق، أعجبوا بما فيها من علم الحساب ، وما يمتاز به أهالى كجرات (٢) من براعة وذكاء فى الشئون التجارية ، شأنهم فى ذلك شأن كبار التجار الهنود بوجه عام . وثمة مركزان تجاريان يتألقان بنوع خاص ، هما كمباى وقاليقوط Calicut . واذا كان الغربيون لم يزالوا يتلقون منتجات الهند الصينية والصين ، فانهم يدينون بالفضل فى ذلك ، وبنوع خاص لروح المغامرة لدى تجار هذين الميناءين ، ومهارة بحارتهما . والواقع أن السفن الخيزرانية الصينية لم تعد تخاطر بالذهاب الى ساحل ملبار كما كانت تفعل فى عصر ماركو بولو ، وابن بطوطة : فمنذ أن نشب نزاع بين الصين وملك قاليقوط فى السنوات الأولى من القرن الخامس عشر (٣) أصبحت هذه السفن تتجنب هذه المنطقة ، ولم تعد رحلاتها صوب الغرب تمتد الى ما بعد ماليفاتان Malifathan (٤) على شاطىء كروماندل Coromandel ، وفيما بعد لم يعودوا يتجاوزون ملقا (٥) . ومن ذلك الحين

---

(١) Odoardo Barbosa, dans Romusio, I, 310-211.

– كان فى قاليقوط وحدها ١٥٠٠ مسلم معظمهم من مواليد البلد نفسه . انظر : Varthema, p. 161, b.

(٢) Sommario di Tutti li regni, dans Ramusio, I, 327 et s., 333, a ; Barbora, Ibid, p. 295 ; Corsali, ibid, p. 179 ; Storzzi, dans Gubernatis, Storia dei viaggiatori italiani nelle Indie orientali (Livorno, 1875), p. 382; Cf. ibid. p. 375.

(٣) Peschel, Das Zeitalter der Entdeckungen, p. 21 ; Yule, M. Polo, I, 327; Chph. Acosta, Aromatum liber, dans Clusius exot., p. 262 et s.

(٤) Relation de Joseph de Cranganore dans Grynoeus, Nouvus orbis (1555), p. 298 ; cf. Yule, dans l'Inr. Antiq., IV, p. 9.

(٥) Barbosa, l.c. p. 317, b ; Gubernatis, l.c., p. 378.

أمست ملقا تشهد فى مينائها وصول ملاحى قاليقوط الذين اكتسبوا بفضل جسارتهم لقب أبناء الصين (٦) ، وكذا ملاحى كمباى ٠ وحتى مستهل القرن الخامس عشر كان هؤلاء الملاحون يبحرون حتى جاوه ، عبر مضيق سوندا طلبا لمنتجات جزر باندا Banda ، وجزر الملوك Moluques (٧) ٠ وكان الوصول الى ملقا أكثر سهولة ، ويجد المرء فيها بوفرة كل منتجات الصين ، والهند الصينية ، ويبذل الملاحون الوطنيون من جهة ، والصينيون والجاويون من جهـة أخرى كل ما فى وسعهم لكى لا تكون هذه المنتجات ناقصة بها (٨) ٠

وبفضل تنظيم حركة تجارية بحرية نشيطة بين كمباى وملقا ، تقدمت تجارة كجرات فى تلك الناحية تقدما كبيرا ، حتى ان آلافا من تجار كجرات استقروا بها ، وقدر عدد الذين يتوافدون الى هناك بصفة عارضة بما لا يقل عن أربعة أو خمسة آلاف (٩) ٠

ولم تكن الحركة التجارية بين قاليقوط وملقا أقل انتظاما ، اذ أتاحت للتجار العرب فرصة للربح الوفير ، كما أضفت على ميناء قاليقوط شهرة عالمية ٠ كان لهذه المدينة ، بفضل موقعها الذى لا يبعد عن الطرف الجنوبى للهند ميزة كبيرة على مدينة كمباى ، فهى أقرب منها الى سكان ساحل كروماندل (١٠) ، حيث كانت مدينة بالياكات Paleacate (أو بوليكات Poulicat ـ وهى على مسافة ٢٢ ميلا انجليزيا شمالى الموقع الحالى لمدينة مدارس) قد تألقت بين جـيرانها بفضـل تجـارة الأحجار الكريمـة والتـوابل (١١) ، وتتيح المزية نفسـها لتجار البنغـال الأثريـاء النشيطين (١٢) ، تتيح لهم سوقا فسيحة على مصب نهر البراهمابترا ،

---

(٦) Abd-errazzak, dans Quatremère, not. et extr., XIV, 1, p. 442, et dans Elliot, Hist. of India, IV, 103.

(٧) Sommario, dans Ramusio, I, 328.

(٨) Varthema, p. 166, a ç Barbosa, p. 317, b, 318, a, 320, b ; Corsali, p. 180, a ; Sommario, p. 334, a, 337, a.

(٩) Sommario, p. 328, a.

(١٠) كان فى قاليقوط أيضا جالية كبيرة من التجار من ساحل كروماندل ٠ انظر : Barbosa, p. 319, a; Barros, Asia, II, 330.

(١١) Varthema, p. 161, a; Barbo a, p. 315 b ; Corsali, p, 179, b.

(١٢) Varthema, p. 166, a ; Barbosa, p. 315, b ; Sommario, p. 333 b.

كما تتيح لرعايا مملكتى بيجو Pegou ، وتناسيريم Tenassérim على الساحل الغربى للهند الصينية نفس المزية • هذا الجمع من التجار الهنود ، والهنود الصينيين ، يتلاقون فى شوارع قاليقوط مع تجار فرس وسوريين وعرب وأحباش وترك ، فيكسبهم هذا اللقاء حيوية ونشاطا غير عاديين ، وبخاصة فى موسم الأسواق السنوى ، لذلك كان لكثير من الأمم هناك توكيلات تجارية (١٣) •

وجدير بالذكر أن كمباى وقاليقوط كانتا على وجه التقريب المدينتين الوحيدتين على الساحل الغربى للهند اللتين تتمتعان بدرجة من الثراء تسمح لهما باقامة علاقات مباشرة مع ملقا عن طريق بحرية تجارية مرتبطة ارتباطا مباشرا بمرفأيهما • ولا يسعنا أن نقول الشيء نفسه عن رافيل Ravel (جنوبى كمباى) التى تدهورت حالها فيما بعد ، وعن كويلون (كولام Koulam) • وثمة مدينة أخرى ، وهى أيضا ذات أهمية كبيرة ، مدينة ديو Dieu لم تكن تتلقى منتجات الهند الصينية الابوساطة تجار ملبار (١٤) • أما التجارة مع الجزيرة العربية فهى موضوع آخر ، فلم يكن ثمة مدينة على الساحل لا يصدر اليها بواسطة سفن تملكها منتجات الاقليم ، أو توابل الشرق الأقصى ، حتى ولو لم تكن تستلم هذه التوابل الا من أيدى وسطاء • وفى بعض الأحيان ، وبخاصة حين لا يسمح الموسم بالرحلات البحرية الطويلة ، كانت هذه السفن تتوقف عند الشحر Chéher على ساحل حضرموت ، فتسلم شحناتها الى تجار هذا المكان ، ويتكفل هؤلاء بايصالها الى عدن (١٥) • وكانت الأمور تجرى على هذا المنوال فى عصر ماركو بولو،ولكن السفن كانت تواصل رحلاتها الى عدن أو جدة (١٦) • وفى هذا المجال ، كما فى غيره ، كان كبار تجار كمباى وقاليقوط متفوقين على غيرهم ، ففى دورهم الفسيحة يكدسون كميات هائلة من السلع ، البعض يكدس أقمشة حريرية وقطنية ، من صناعة وطنية ، وأعشاب طبية ، وعقيق أحمر ، وتنقل هذه السلع الى الاسكندرية ومنها الى أوروبا (١٧) ، والبعض الآخر يكدس توابل ملبار المشهورة بين سائر التوابل ، وبخاصة الفلفل ، والكل يخزن المواد التى ذهبوا لاحضارها من

(١٣) Varthema, p. 161, b ; Sommario, p. 332, b ; Joseph. Ind. dans Grynoeus, l.c.

(١٤) Barbosa, p. 376, b. 297, b, 312, b.

(١٥) Ibid. p. 292, a, b, 296, b.

(١٦) Varthema, p. 151, 153; Barbosa, p. 291 et s., 296 et s., etc. ; Sommario, p. 324, b, 329, a, b ; Corsali, p. 179, a, 182.

(١٧) Barbosa p. 287, b ; Sommario, p. 327, b. 328, a.

الشرق الأقصى ، مثل كبش القرنفل ، وجوز الطيب ، والبسباسة ، والكافور ، الخ (١٨) • وفى شهر فبراير من كل سنة ، يغادر ميناء قاليقوط من عشر الى اثنتى عشرة سفينة ، حمولتها من ألف الى ألف ومائتى بهار bahars أى سبعة آلاف الى ثمانية آلاف قنطار خفيف من موازين البندقية ، وبها شحنات معظمها من التوابل ، وتمضى لتفرغها فى عدن أو جدة ، وتعود بين شهر اغسطس ومنتصف أكتوبر ، وبها معادن ، وسكاكين ، وأدوات من كل نوع ، ومرجان ، الخ ، وهى مواد اغلبها أوروبية المصدر (١٩) • وكان فى دخول السفن العديدة ، سفن كمباى وقاليقوط فى ميناء عدن لافراغ شحنتها ، وأخذها شحنات أخرى عند عودتها ما يكفى لخلق حركة مبادلة تجارية هائلة فى المدينة • غير أن هذه السفن لم تكن تأتى وحدها : فثمة سفن أخرى تجلب الى المدينة مباشرة ، من سومطرة ، أو ملقا ، أو البنغال توابل ، وأخشاب الطلاء والصباغة ، وعطور ، الخ (٢٠) •

وكان تجار عدن ومكة يصدرون هم أيضا شحنات من هذه السلع الى عدد كبير من موانىء الهند (٢١) ، وبالأخص قاليقوط • وكان النفوذ الذى يتمتع به هناك اخوانهم فى الدين ومواطنوهم يجذبهم بشدة (٢٢) ، فكانوا يتزودون هناك بمنتجات البلد ، ليعيدوا بيعها فى مصر •

والى أن تم للبرتغاليين اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، كان طريق عدن هو أقصى طريق فى الجنوب ، بين كل الطرق التى تتبعها منتجات الهند لتصل الى الغرب •

وقبل أن نختم هذا الموضوع ، يبقى علينا أن نتحدث عن طريق آخر ، اقل تقدما نحو الجنوب ، ولم يكن يستخدم الا فى القليل النادر ، على الأقل فى هذا الخصوص : نقصد بذلك طريق هرمز • فالمعروف أن مدينة هرمز تقع على جزيرة عند مدخل الخليج الفارسى ، وكانت تمارس مع الهند حركة تجارية نشطة للغاية • والواقع أنه يتعين أن نستثنى من ذلك

(١٨) Pietro Alvarez; Ramusio, I, 126, a ; Barbosa, p. 304, a, 310, b. 311, a ; Abd-errazzak, dans Not. et extr., l.c. p. 442 (Elliot. p. 103).

(١٩) Barbosa, p. 310, b, 311, a.

(٢٠) Varthema, p. 165, a ; Barbosa, p. 292, a.

(٢١) P. ex. à Diou, à Cambaye et à Daboul ; voy. Barbosa, p. 297, a, 298, b ; Sommadio, p. 325, a, b.

(٢٢) Barbosa, p. 304, a ; Sommario p. 325 b. ; Abd-errazzak, dans Ramasio, I, 120, a ; Ca Masser, p. 26 et s.

المدن البحرية الواقعة على ساحل ملبار ، اذ كان فى مصلحتها أن تواصل اتباع التيار التجارى المتجه الى عدن ومكة . ولكنا نؤكد أنه من كانانور Cananore الى ديو وكمباى لم يكن ثمة ميناء ، مهما كانت أهميته لايرسل سفنا الى هرمز ، وكان تجار كجرات فى كمباى هم الذين يمونون هذا السوق بمنتجات الهند الصينية التى يجلبونها من ملقا مباشرة (٢٣) . وفى هذه المناسبة ، كان تجار هرمز يذهبون بأنفسهم الى الهند ليجلبوا منها بعض المنتجات الوطنية . كان هؤلاء ، على سبيل المثال تجار الخيول العربية والفارسية المكلفون بتزويد ملوك الدكن Dekkan ونارسنجا Narsinga بمؤنة تسلم من كمباى أو شول Chaoul ، أو دبيل Daboul أوجوا Goa ، أو باتيكالا Battecala ، أو كانور .

وفى هذا المجال ، كما فى غيره من المجالات لم يكن استبدال قيش Kich بهرمز سوى عملية انتقال لا غير ، وانتقلت العادات نفسها من أحدهما الى الآخر . أو كانوا تجار لآلىء من البحرين يمضون الى الهند ليبيعوا بها هذه المادة ، وهى مطلوبة للغاية عند الهنود (٢٤) . وكان هذان النوعان من التجارة يمارسان معا بوجه عام .

باختصار نرى أن التجارة اتخذت فى أواخر العصور الوسطى فى الهند نشاطا وكثافة غير عاديين . وقد يعترض البعض بمقولة أنه لم يكن من الجائز : لرسم لوحة صحيحة استعارة كل الخطوط تقريبا من كتاب لم يزوروا هذا البلد الا بعد الغزو البرتغالى . وأجيب على هذا أولا بأننى تركت جانبا الفقرات التى يشرح فيها هؤلاء الكتاب كيف أضفى البرتغاليون على الحياة التجارية فى هذه المناطق شكلا واتجاها جديدين ، وثانيا انه كان من المتاح لى أن استخدم فيما يختص بالقرن الخامس عشر كل الفقرات التى توضح مدى التقدم الذى وصلت اليه تجارة الهند قبل ظهور البرتغاليين ، ثم لم يكن فى وسعنا دون الاستعانة بهذه المؤلفات ذات التاريخ اللاحق أن نعرف شيئا قليلا عن تجارة الهند فى القرن الخامس عشر ، لان أخبار الرحلات عن هذه الحقبة كانت نادرة للغاية . ونجد معلومات ثمينة بخصوص هرمز وقاليقوط فى أخبار الفارس الذى أقام فى هندوستان من ١٤٤٢ الى ١٤٤٤ بصفته « عبد الرزاق » سفيرا لشاه رخ . والمعلومات التى يعطيها عن الساحل الغربى للهند وجزء من داخل البلاد التاجر الروسى اثناسوس نيكيتين Athnasius Nikitin من تفر Tver

(٢٣) Abd-errazzak (Not. et extr., XIV, 1, p. 429 ; Elliot, l.c., p. 96. ; M. Yule (Cathay, I, lxxix).

(٢٤) Varthema, p. 158, b ; Barbosa, p. 294, a, 296, b, 298 b, 299 a, 300, a; Corsali, p. 178, b, 179, a.

(حاليا كالينين) (٢٥) الذى قام برحلة ذهابا وعودة عن طريق فارس وأهرمز (١٤٦٨ ـ ١٤٧٤) ، هذه المعلومات زهيدة • وهناك أخيرا كل ما نعلمه عن رحلة الجنوى بيرونيمو داسانتو ستيفانو Hieronimo da Santo Stefano الذى أقام بالهند عـــدة ســـنوات ، ومضى حتى بيجـو وسومطرة ، وتوجد أفكاره فى خطـاب من بضعة سطور كتبها بيده فى طرابلس فى أول سبتمبر ١٤٩٩ لجان جاك ماير Jean Jacques Mayer ببيروت (٢٦) • وما كتب بالكامل على وجه التقريب عن منطقـة الهنـد يرجع الفضـــل فيه الى ريشـــة نيكولو دى كونتى Niccolà dt Conti ، وهو تاجر بنـــدقى أمضى خمســـة وعشرين عاما فى الشرق قبل سنة ١٤٤٠ (٢٧) ، وزار بنفسه الهنـد والهنـد الصينية ، وكذا سومطرة وجاوة ، ويذكر بعنـــاية النبـاتات ، خاصـــة ما تنتج منهـا التوابل ، ويشير الى الأماكن التى يستخرج منها الأحجار الكريمة ، ومغاطس اللؤلؤ ، ويعدد فى كل مقاطعة المنتجات التى تمون التجارة ، ولكنه لم يقل كلمة واحدة عن حركة التجارة ، أو الطرق التى تســـلكها ، أو الأســـواق الرئيسية •

ولم يترك بارتولومير الفلورنسى الذى سافر على ما يبدو الى الشرق بين عامى ١٤٠٠ ، ١٤٢٤ (٢٨) ، أو بوناجوتو البانى ، البندقى أية أخبار عن اقامتهما بالهند • ومع ذلك لدينا معلومات عن رحلة هذا الأخير مما دونه كتاب آخرون • فقد قام من القاهرة فى صحبة مبعوث من القس يوحنا Prêtre Jean ، ملك الحبشة فى العصر الذى كان فيه فرانشسكو مارتشيللو قنصلا للبندقية فى الاسكندرية ، ولابد أن هذا كان فى عام ١٤٨٣ ، لأن هـــذه هى الســـنة التى يقـــال ان جـوس فان جيستل Joos van Ghistele قابل فيها فى مدينة صور البندقى بانافيتو ديل بان Bouvavito del Pan (وهذه طريقته فى كتابة اسم البانى Al Bani) ، والميلانى بنييتو دى نوفى ، عندما كانوا على أهبة ركوب البحر قاصدين

(٢٥) Dans R. H. Major, India in the 15th century (Hakl. Soc., no 22), Lond. 1857.

(٢٦) هذا هو العنوان الصحيح : Ramus. (I, 345) :

(٢٧) بدأ من دمشق ، وارتحل فى صحبة قافلة حتى الخليج الفارسى ومن هناك وصل الى الهند •

(٢٨) Légende de la mappemonre de Martin Behaim, reproduite par M. Murr dan son Histoire-deplomatique de ce cheoalier, p. 36. et. s.

هرمز (٢٩) .

واجتاز الباني فارس ، ثم الهند من كمباى الى كلكتا ، وتزوج امرأة في هذه المدينة ، ثم انتقل فيما بعد الى ملبار حيث اتيحت له الفرصة ليقدم خدماته للبرتغاليين في مشترواتهم للتوابل ، وفي مقابل هذه الخدمات ، صرح له بأن يستقل مع زوجه وولديه سفينة الى الغرب ضمن أسطول برتغالى . وتقدمت به السن ، وكان فقيرا ، ولكنه أدلى بأصدق المعلومات عن الهند . ولما كان يتكلم اللهجات الشرقية ، فقد أجرى له الملك ايمانويل مرتبا لمدة سنة ، وأوفده ثانية الى الهند مع بعثة فرانشسكو دالميدا Francisco d'Almedia . وأسدى الباني خدمة جليلة كمترجم في المفاوضات التى أجراها أمير البحر البرتغالى مع ملك كويلون (كولام) . ومن ذلك الحين لم نعد نعرف عنه شيئا (٣٠) .

الثابت اذن أنه في السنوات الأخيرة من العصور الوسطى طاف كثير من الايطاليين بكل أنحاء الهند ، فدرس البعض منهم البلاد المنتجة التوابل ، وزاول آخرون البيع والشراء للربح . والراجح أنه كان منهم في الهند عدد أكبر مما نعرفه ، غير أننا لا نذكر اقليما أو بلدة في الهند كان في أى منها منشئات تابعة لأوروبيين ، وليس لدينا ما يثبت ذلك اذ كتب ايمانويل ملك البرتغال يقول انه كان هناك تجار وبضائع من كل بلاد الغرب ، منها بروج Bruges والبندقية (٣١) . ومن الأوروبيين القلائل الذين نعرف اسماءهم ، اكتفى بذكر جاسبار Gaspar اليهودى . فقد قام من الاسكندرية ، ووصل الى الهند عن طريق القاهرة ومكة ، وبعد أن جال بالقطر كله ، انتهى به الأمر الى اعتناق الاسلام . وكان في خدمة ملك جوا عند وصول فاسكودى جاما (١٤٩٩) ، فكشف عن أصله الأوروبى ، وطلب أن يعمد ، ووضع تحت تصرف أمير البحر خبرة ثلاثين سنة ، وزوده بكل أنواع المعلومات ، عن قاليقوط وغيرها من مدن الهند والهند الصينية ومقاطعاتها ، ومنتجات كل اقليم ، وما يحتاج اليه ، وأسعار مختلف السلع التجارية ، ورحل أخيرا معه الى لشبونة . ومكافأة له على خدماته منحه الملك راتب سنة ، ولكنه ما لبث أن ألحقه بالبعثة التى كانت

---

(٢٩) Ghistele, p. 229.

(٣٠) المصادر التى يمكن الرجوع اليها بشأن هذا الشخص هى :

— Ghistele ; Barros, Asia, II, 198 et s. ; Cà Masser, dans l'Archiv. stor. ital., append., II, no 10, p. 19 et s ; le Journal de Mayr, dans kunstmann, Die Fahrt der ersten Deutschen nach dem portug. Indien, p. 11 ; Sanut., Diar., IV, 544 et s., 546, 665.

(٣١) Copia de una lettera. Roma, 1505.

على وشك الرحيل الى الهند بقيادة كابرال Cabral (٣٢) .

والتماثل بين حياة البانى وحياة جاسبار اليهودى يدعو حقـا الى الدهشة ، فالاثنان ينتميان الى العصر الذى احتكر فيه البرتغاليون تجارة الهند ، وهو عصر سوف نتتبع على الأقل بداياته ، ويكون بذلك ختام دراستنا .

(٣٢) Barros, Asia, I, 366 et ss. ; Roteiro da Viagem que fez D. Vasco da Gama (Porto, 1838), p. 107 ; Cà Masser, l.c., p. 14 et s. ; lettre d'Améric Vespuce (apocryphe), dans Varnhagen, Amerigo Vespucci (Lima, 1865), p. 80 et s. ; Ramu., I, 120, b, 121 a.

تاسعا : آسيا الوسطى ، والصين ، وفارس :

كان في وسعنا أن نتيقن حتى أواسط القرن الرابع عشر من وجود حركة نشيطة للمسافرين الغربيين ، من تجار ومبشرين على طريق الصين عبر وسط آسيا · ومن ذاك الحين قل بالتدريج عددهم ، وأصبح من العسير أن يتبين المرء ، هنا وهناك أثرا لمرورهم · وكيف نعرف ما اذا كان هذا الطريق ما زال مطروقا ؟ اننا نرى في الواقع على « الخريطة القطالونية » لعام ١٣٧٥ تعليقا عن بحيرة لوب Lop ولكنه لا يثبت شيئا ذا قيمة ، لأنه ليس الا استنساخا لمعلومات مقتبسة عن ماركو بولو · وتوضح لنا خريطة فرامورو Fra Mauro المرسومة بعد منتصف القرن الخامس عشر بقليـــل ، أن لواضعها بعض المعـــلومات عن بحيرة اسيكول Issikoul ، وربما أيضا عن معبر تلكى Tolki ، وكلاهما موجود على طريق الصين الكبير ، ويتحدث أيضا عن المناطق الواقعة شمالى بحر قزوين ، وعن اجتياز الصحراء في مركبات مغطاة حتى أورجانج Ourgendj على أنها أشياء يعرفها البنادقة ، وكذا أهالى جورجيا ، واليونان ، والأرمن ، والشركس ، والتتار (١) · ولكن الواقع أنه لا يوجد منذ عام ١٣٤٠ أية رواية عن رحلات الى الصين بطريق البر ، وهذا أحسن برهان على أن هذه الرحلات أصبحت نادرة · ترى ما السبب في هذا التغير المفاجيء ؟ يرجح أنه راجع الى سببين : فمن جهة كان سكان وسط آسيا حتى ذاك الحين وثنيين ، ولكنهم جميعا اعتنقوا الاسلام وصاروا متعصبين بعد أن كانوا

---

(١) Zuria, Il mappamondo di Fra Mauro, p. 82 et s., 34.

متسامحين ، بحيث لم يعد المبشرون المسيحيون يستطيعون المغامرة بالاختلاط بهم ، خوفا منهم على حياتهم • أما التجار المسيحيون فانهم لم يكونوا مهددين بالموت مثل المبشرين ، ولكن استقبال القوم اياهم لم يعد وديا كما كان من قبل • ومن جهة أخرى كانت أسرة منج الوطنية قد حلت محل خانات التتار • وفيما بعد أدت غزوات تيمورلنك الى انقلاب في التجارة اذ فتحت لها طرقا جديدة • وانعكس بريق هذه الانتصارات على عاصمته سمرقند التى أصبحت مركز جذب قوى ، وأقبل عليها العديد من القوافل (٢) من الصين وبلاد التتار (تتاريا) ومعها أبدع المنسوجات الحريرية الصينية • ومن جهة ثالثة جعلت قوافل الهند التى تعبر ممر باميان ومضيق ترمذ Termedh أسفل بلخ Balk (٣) تزود أسواقها بالتوابل ، كالزنجبيل ، والقرفة ، وجوز الطيب ، وكبش القرنفل • وكان يعقد بها صفقات كبيرة في الماس والأحجار الكريمة ، والمسك ، والراوند • وكانت المدينة تنتج بذاتها مجموعة كبيرة من المواد المطلوبة بكثرة • ولم يكن ذلك لمهارة الأهالى ، وانما كان يعيش الى جانبهم عدد كبير من الفنانين والحرفيين القادمين من الخارج • وكان تيمورلنك في فتوحاته ، اينما علم بوجود صناعة مزدهرة في اى بلد أو مدينة يجمع أبرع العمال وينقلهم غصبا الى عاصمته • فمن دمشق ، مثلا ، أخذ نساجي الحرير ، وصانعي الأسلحة ، والزجاج ، والأواني الخزفية (٤) • ولعله من المفيد أن نعرف ما اذا كانت تجارة الغرب ، بعد أن كفت عن استخدام طريق الصين ، قد تحولت الى هذا المركز الجديد ، اما عن طريق ثانيا أورجانج التى دمرها تيمورلنك ، ثم بعثت بالكاد من انقاضها ، وشهدت افتتاح عصر جديد من الرخاء ، واما عن طريق طربزون وشمالى فارس ، وما وراء نهر جيحون ، ولكن المصادر لا تذكر شيئا بالمرة فى هذا الخصوص • ولعلى أميل الى التأكيد بأنه لم يكن ثمة شيء من هذا : ذلك لأن كلافيجو Clavijo الذى كان من بين كل المؤرخين ، الذى وصف بأدق التفاصيل عظمة سمرقند في عهد تيمورلنك ، لم يذكر شيئا فى هذا الخصوص • ومع ذلك فهو يعدد بعناية كل الرحلات التى قام بها

---

(٢) Clavijo, p. 192 et s.

فى أثناء اقامة كلافيجو فى بلاط تيمورلنك ، سفيرا لقشتالة ، شهد وصول احدى هذه القوافل ، وكانت قادمة من خان بالق وتتكون من ثمانمائة جمل :

Clavijo, p. 192 et s.

(٣) Clavigo, p. 140 et s. ; Quatremière, Rachid eddin, I, 147; Ibn Hoaukal (cit. dans Aboulf., Géogr., II 2, p. 227).

(٤) Clavigo, p. 194 et s., 190 et s.

تجار جنويون أو بنادقة في فارس ، أو على سواحل بحر قزوين
واذ أوفد جيوزافاتي باربارو Giosafatte Barbaro
(١٣٧٤ — ١٤٧٨) ، فانه عرج في طريقه الى سمرقند
التجار الكثيرين الذين رآهم هناك ، وذكر منهم الصينيين
عن الغربيين (٥) . ومع ذلك فالمعروف أن الغربيين وبخاصة الجنويين
والبنادقة كانوا يترددون على أسواق طورس وسلطانية .

ويرجع الأصل في الأهمية التجارية لمدينة طورس (حاليا تبريز) ، كما رأينا قبلا الى عهد خلفاء هولاكو ، ولم يحدث لهذا الوضع أي ضرر في عهد تيمورلنك . وكانت منتجات الهند والصين تفرغ عند هرمز ، فتتسلمها قوافل تحملها الى سلطانية حيث تصلها في ستين يوما . ويلاحظ سانوتو أنه بالنسبة الى التوابل الرقيقة فلم يكن هناك خوف عليها من الرحلات البرية الطويلة ، بينما يجب اختصار الرحلات البحرية بقدر الامكان . وهذا هو السبب في امكان الحصول في سوق السلطانية على بعض المواد التي لا يتيسر الحصول عليها في الاسكندرية أو في سوريا . وكانت هذه القوافل نفسها تحضر أحجارا كريمة ولآلىء ، وتمر هذه بهرمز لشقها . ومن الناحية الأخرى ، أي من شروان Chirvan وجيلان Ghilan يصل الحرير الخام الذي يعاد تصديره الى سوريا وآسيا الصغرى . أما المراكز الصناعية بفارس ، مثل شيراز ، ويزد فانها تصدر منسوجاتها الحريرية والقطنية . وبخصوص مدينة سلطانية فان جواهرها من ذهب وفضة تتمتع بشهرة جديرة بها . وكانت الأسواق الكبرى التي تنعقد في يونية ويولية واغسطس تثير منافسة كبيرة بين التجار ، يشترك فيها غربيون قادمون من كافا وطربزون (٦) . وكانت عاصمة فارس ، طورس ، تمتلك أيضا أسواقا كثيرة ، منظمة تنظيما دقيقا ، يجد المرء بها الحرير الخام ، ومنسوجات حريرية من كل نوع ، ولآلىء هرمز ، وتوابل ، وبنوع خاص النيلة ، وصمغ اللك الجميل ، وزيوتا ، وعطورا (مسك) ، وراوند الصين ، الخ . ومن هناك تقوم القوافل الى حلب ، وبروسة (بورصة) ، والقسطنطينية ، وعن طريق هذه القوافل تجري مبادلات الحرير الخام ، والمشغولات في فارس في مقابل أصواف غرب آسيا وأوروبا (٧) .

وفي هذه الفترة كان الغربيون يمرون عند اتجاههم الى طورس ، اما

---

(٥) Viaggi alla Tana, p. 48.

(٦) Clavijo, p. 113-115; Barbaro, p. 39 et ss.

(٧) Clavijo, p. 109, et s. ; Contarini, dans les Viaggi alla Tana, p. 70; Viaggio d'un mercante che fu nella Persia, dans Ramusio, II, 83.

بحلب ، لأن سوق اياس Lajazzo كانت قد هجرت ، واما بطربزون ، على الأقل الى حين سقوط هذه المدينة فى أيدى العثمانيين · ولكن فى أواخر القرن الخامس عشر أسهم حادثان فى القضاء على تجارة الغرب مع فارس : أولا تدمير المستعمرات الغربية فى البحر الأسود ، ومن ثم سدت الانقاض التى كدسها العثمانيون الطريق الذى يوصل شمالا من تلك المنطقة الى فارس ، فلم يبق مفتوحا للقادمين من البحر المتوسط سوى طريق حلب · وثانيا ، ترتب على اكتشاف البرتغاليين الطريق البحرى المؤدى الى الهند القضاء على كل أهمية لفارس كطريق تمر به التوابل ·

وثمة تاجر جنوى يدعى باولو تشنتوريونى Paolo Centurione تصور مشروعا يعيد الى النشاط التجارى الذى حرمت الظروف منه فارس والمناطق المحيطة بها ما كان له من تألق فى عهد خانات التتار العظام من سلالة هولاكو : فقد أحس بالغيرة من نجاح البرتغاليين فى تحويل التوابل من طرقها القديمة ، واحتكار تجارتها ، واعادة بيعها بثمن مرتفع فى الغرب ، فتصور لذلك أن يفتح لمنتجات الشرق طريقا جديدا ، يتبع التخطيط الآتى : اذ كان على شحنات التوابل أن تصعد مجرى نهر الاندوس (السند ، ومنه الى نهر جيمون Oxus باجتياز ممرات الجبال التى تفصل النهرين ، ثم تهبط على مراكب أخرى مجرى نهر جيمون ، ومنه تصل الى استراباد ، ثم تعبر بحر قزوين بطوله ، وتصعد نهر فولجا وروافده حتى موسكو ،ومن هذه المدينة تتقدم برا حتى ريجا أى تنتهى الى بحر البلطيق · وسعى تشنتوريونى لدى فاسيلى الرابع ايفانوفتش Vassili IV Ivanovitch غراندوق موسكو لكى يؤيد أفكاره (١٥٢٠) ، معتمدا على حسن وفادة الغراندوق له ، ويبدو أنه كان محقا فى ذلك لأن نجاح مشروعه كان فى صالح كل من التجار الروس الذين يحصلون بذلك على منتجات الهند بثمن بخس ، الغراندوق نفسه الذى تثريه هذه الحركة التجارية · ولكنه حين أراد أن يدرس بنفسه امكانية متابعة هذا الطريق ، تحركت الشكوك فى نفس فاسيلى ، اذ بدا له أنه من الخطورة بمكان فتح طريق بحر قزوين وفارس لرجل أجنبى ، ولم يعد يريد سماع أى حديث فى هذا الموضوع · وبغض النظر عن قلق الغراندوق ، كان هذا المشروع عرضة لصعوبات هائلة · فنقطة البداية كانت بالضرورة فى بلاد تحت سيطرة البرتغاليين ، ولا يتردد هؤلاء فى قطع هذه التجارة منذ بدايتها · وثمة عقبة أخرى ، لا يمكن تذليلها ، تتمثل فى تخلف الحضارة الروسية بنوع ما · بالاجمال لم يكن هذا المشروع سوى وهم من الاوهام ، من الأوفق الا تجرى أية محاولة لتحقيقه ·

الفهـــــرس

الموضوع | صفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٨٤٥/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3758 — 8

عمل موسوعي موثق ومؤصل في تاريخ الحضارة خلال حقبة من تاريخنا، وهي الحقبة التي تخللتها الحروب الصليبية في الشرق الأدنى، ما بين القرنين التاسع والرابع عشر الميلادي.

ويضم الكتاب بحوثا موثقة عن العلاقات الرسمية وغير الرسمية بين دول البحر المتوسط ـ على شاطئيه الإسلامي والمسيحي ـ شملت التاريخ والجغرافية والاقتصاد والتجارة والسياسة والثقافة والاجتماع.

ويعد هذا الكتاب أثرا من آثار المعرفة والتحقيق المنهجي الحديث للتراث الثقافي، بجانب قيمته التاريخية والحضارية.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٩٠٠ قرشا